مكتب تنسيق التعريب
التاريخ ٢٠١٤/٢/١٢
الرقم ٥/٢١٢٠

مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق

١١٠٤٢

محاضرات

المجمع العلمي العربي

الجزء الثاني

١١٠٤٢
الجمهورية العربية السورية
المكتبة العربية بدمشق

حقوق الطبع محفوظة للمجمع العلمي العربي

١٣٧٣ هـ — ١٩٥٤ م

عرب الجاهلية في مباذلهم (*)

موضوع محاضرتي أيها السادة حوادث عربية جاهلية نصرانية فارسية جرت وقائعها بين البلادين بلاد العرب وبلاد فارس قبيل الاسلام . وهذا الموضوع يصلح أن يكون نموذجاً من النماذج التي تدل على ثقافة عرب الجاهلية المتحضرين عامة ونصارام خاصة وعلى حياتهم الاجتماعية وهم في سلمهم ومباذلهم : أي أثواب بِذْلتهم في بيوتهم . لا في دروعهم ومعارك حروبهم

فأنتم ترون أن الموضوع لا يعدو ان يكون نزهةً قصيرة بين رياض التاريخ وحدائق الشعر والأدب . نتنسَّم منها أخباراً عربية فيها طرافة وفيها روعة تمثّل لنا طباع العرب . وشمائل العرب . والمُجَبَّر والبُجَبَّر من نفسية العرب : فهي ذات ألوان مختلفة . وأفانين منوّعة يجد فيها المؤرخ المنقِّب ، والكاتب المتأدّب . والواعظ المحذّر . والحكيم المتدبّر . وذو اللهو المُستهتَر في غلواء غرامه . والفاتك السادر[1] في كيده ودسائس انتقامه — كل هؤلاء يجدون في أخبار هذه المحاضرة حاجتهم . ويقعون منها على ضالّتهم .

* * *

تعلمون أيها الأفاضل أن جزيرة العرب — على وقوعها في طريق الجبابرة الفاتحين — بقيت مصونة . منيعة الجانب . لم يذِلّ أهلها فاتح . ولم يستبد فيهم من غير جنسهم قاهر .

(*) محاضرة الأستاذ عبد القادر المغربي ألقيت في ردهة محاضرات المجمع العلمي العربي في كانون الأول سنة ١٩٢٣ .

(١) السادر الذي لا يهتم ولا يبالي ما صنع وفلان سادر في الغي تائه .

وملوك العرب في زمن جاهليتهم كانوا يؤلفون مجموعة دولية ذات ثلاث شعب : دولة الحيريين في جنوب الجزيرة . ودولة المناذرة في شمالها الشرقي . ودولة الغساسنة في شمالها الغربي .

وكانت الدولة الأولى الحميرية ذات استقلال تام اللهم الا نحو سبعين سنة خضعت فيها لحكم الحبش ثم تخلصت منهم .

أما الدولتان الأخريان : دولة المناذرة ودولة الغساسنة فاستقلالهما كان مشوباً بشائبة من نفوذ دولتي فارس والروم . أو بشائبة من انتدابهما كما تقول اليوم .

* * *

(الحيرة)

وكانت عاصمة المناذرة مدينة الحيرة الشهيرة . قال القزويني هي واقعة على ساحل البحر بقرب الكوفة . وفسّر القرماني وقوعها على ساحل البحر بقوله : (إن بحر فارس كان ممتداً الى الكوفة أما الآن — أي في أواسط القرن الرابع للهجرة — فليس لها أثر ولا للبحر ومكان المدينة دجلة وهي آثار طامسة اهـ قول القرماني) .

وقد أخطأ من جهتين :

(١) قوله : (إن مكانها — أي مكان الحيرة — دجلة) اذا كان مراده أنها واقعة على نهر دجلة كان خطأ لأن الحيرة واقعة على نهر الفرات إذ هي بقرب الكوفة والكوفة على الفرات لا على دجلة .

(٢) قوله : (ان بحر فارس كان يمتد الى الكوفة) غريب ، ولا نعلم في أي زمن من أزمنة التاريخ كان ذلك . ومثله ما في (نهاية الأرب) للنويري (جزء ١ ص ٢٦٧) فقد قال : (ان مراكب الهند والصين تصل في البحر الفارسي الى الحيرة) .

وكلّ ذلك وهم لأن الكوفة تبعد عن بحر فارس أكثر من مائتي

كيلومتر ويشهد لذلك ياقوت في (معجم البلدان) فقد قال : (الحيرة مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة على موضع يقال له (النجف) زعموا أن بحر فارس كان يتصل به اهـ . وكلمة (زعموا) تدل في اصطلاح الكتّاب على توهين الخبر بل تكذيب راويه أحياناً .

ويمكن تأويل ذلك بأن أول من قال ان (الحيرة) واقعة على ساحل البحر أراد بالبحر نهر الفرات . ولا يخفى ان العرب يسمون كلّ ماء كثير بحراً والى اليوم يسمي المصريون نهر النيل بحر النيل .

وقد جاء لفظ البحر في شعر عرب الجاهليـــة مراداً به النهر قال عديّ بن زيد العبادي :

(سرّه ماله وكثرة ما يمـــلك والبحر معرضاً والسدير)

قال ابن منظور صاحب اللسان : أراد بالبحر نهر الفرات .

وسميت مدينة الحيرة (الحيرة) من الحَوَر وهو البياض أو من التحير . أو هي كلمة سريانية معناها الحصن حوله خندق : فان الملك الذي أنشأها بناها أولاً حصناً اتخذه لنفسه وحاشيته ثم بنى الناس حوله الدور وهكذا نشأت مدينة الحيرة ، وعظم شأنها واتسع عمرانها .

ولما كانت ذاتَ ينابيع عذبة وكانت واقعةً على طرف بادية العرب حسن هواؤها . وطاب للناس سكناها حتى قالوا (يومٌ وليلة في الحيرة خيرٌ من دواء سنة) .

والحيرة جاهلية البناء ولكنها بقيت الى بعد الفتح الاسلامي واستمرت ذاتَ زروع وفواكه وصناعة جميلة . وفيها كل ما يحتاج اليه من مرافق المعيشة .

ومن طريف أخبارها انّ بعض ولاتها في زمن بني أمية عابها في ملأ من أهلها فردّ عليه أديب ظريف منهم قائلاً : أتعيبُ بلدةً بها يضرب المثل ؟ قال : بماذا ؟ قال :

« بصحة هوائها . وطيب مائها . ونزهة ظاهرها . تصلح للخفّ والظليف . سهلٌ وجبَل . باديةٌ وبستان . برٌ وبحر . محلّ الملوك

ومزارهم . ومسكنهم ومثواهم . وقد قدمتها أصلحك الله مُخفّاً . فرجعت مُثقلا . وورّدتها مُقِلاً . فأصدرتك مُكثِراً » .

فقال له الأمير : كيف نعرف صدق ما تقول ؟ قال : بأن تزورني ثم اطلب ما شئتَ من لذائذ العيش فأُحضرَه لك من الحيرة نفسها . ولا أتعدّى بك الى غيرها . قال : فاصنع لنا صنيعاً (أي وليمة) واخرجْ من قولك .

فصنع لهم مأدبةً وأطعمهم من خُبزها وسمكها . وما صيد من وحشها : من ظباء وأرانبَ ونعامٍ وحُبارى . وسقاهم ماءها في قِلالها . ونبيذَها في آنيتها . وأجلسهم على طنافسها . ولم يستخدم لهم حراً ولا عبداً إلا من مولّديها ومولّداتها . من خدم ووصائف : كأنهم اللؤلؤ . لابسينَ من ثيابها ومنسوجاتها . لغتهم العربية لغة أهلها . ثم غنّاهم (حنين) الحيري مغنّيها . بشعر عدي بن زيد شاعرها . وحيّاهم برياحينها . ونقّاهم على الشراب بنقْلها وفواكهها .

ثم قال للأمير : هل رأيتني استعنتُ على شيءٍ مما أكلتَ وشربتَ وافترشتَ وشممتَ وسمعتَ ورأيتَ بغير ما في الحيرة ؟ قال لا . ولعمري ! إنك أحسنتَ صفة بلدك ونصرته . فبارك الله لكم في بلدكم .

حقاً إن هذا العربيّ اللبق أعطانا درساً وطنياً اقتصادياً نحن في أشد الحاجة اليه : مذ نبهنا الى أن فخار البلاد وعزّها واستقلالها إنما هو في استغنائها بحاصلاتها ونواتج أرضها عن نواتج غيرها من البلاد الأجنبية .

ثم لما نشأت مدينة (الكوفة) في صدر الاسلام وهي واقعة بجانب الحيرة على ثلاثة أميال منها أخذ عمران الحيرة يضمحل رويداً رويداً وينتقل أهلها الى الكوفة شيئاً فشيئاً . فلم تأت أواسط القرن الرابع للهجرة حتى أصبحت الحيرة أثراً بعد عين . وهذا كما وقع لقرطجنة الفينيقية في المغرب مع القيروان الاسلامية . ثم القيروان مع تونس الاسلامية . و (القطائع)

الطولونية في مصر مع القاهرة المعزّية والري الفارسية مع طهران الفارسية فان الأخيرات أكلن أخواتهن . وتغذين بأنقاضهن .

* * *

وحوادث محاضرتنا هذه وقعت في (الحيرة) مذ كانت عاصمةً المناذرة في عهد الجاهلية . وقد كان سكانها يومئذٍ مؤلفين من عرب وثنيين ، وعرب نصارى ، وفرسٍ مجوس . سكنها العرب الوثنيون قبيل ظهور الاسلام لوقوعها في طرف جزيرتهم ، ولأن ملوكها عربٌ من لخم وتنوخ . وسكنها الفرس المجوس لأنها قريبةٌ من بلاد الفرس ومن عاصمتهم (المدائن) وهي تابعة في السياسة الخارجية لحكومتهم . وسكنها العرب النصارى على مذهب النساطرة لأنها واقعة في أحضان بلاد الآشوريين والكلدانيين الأقدمين .

* * *

فمن زار الحيرة في ذلك العهد وتجول في ساحاتها وأرباضها رأى هنا وفوداً من العرب عقلوا أباعرهم ، ولاثوا عمائمهم . وتنكبوا قسيّهم . ومشوا الخيلاء بمطارف الخزّ وبرود اليمن . وهم سُمر صُلع مسترسلو اللحى ثمّ الانوف من الطراز الأول .

ونرى هناك نساءً من النصارى يرفلن في الدمقس وفي الحرير . يغدون الى الكنيسة ليشهدوا قداساً يقوم به جاثليقها (صبريشوع) . وبجانبهن على برازيق الطريق أسراب من أولادهن يهرولون الى الكتاتيب يحملون الدفاتر والألواح . وفي أعناقهم وأعناق أمهاتهم صلبان الفضة والذهب . وفي أرجلهم النعال من جلد الارندج (وهو الجلد الأسود) . ونسمع حساً واذا أعرابي من أعراب البادية يرنو الى أولاد الفرس والسريان كالمأخوذ بجمالهم ويقول طوبى لأولاد الأعاجم : ما كأنهم الا نقبوا جدران الجنة وخرجوا .

ثم لا نلبث أن نرى خيل البريد قادمةً من (المدائن) عاصمة فارس الى الحيرة تنهب الأرض نهباً . تحمل الى ملكها النعمان بن المنذر رسائل الملك كسرى : يأمره فيها وينهاه .

ومع البريد دهاقين وأساورة من عظماء فارس : حُمْر الوجوه صهب الشوارب محلوقو اللحى على رؤوسهم القلانس البُطح أو الضاربة في الهواء صُمُداً . وقد أفرغوا على أبدانهم أقبية الحرير الملونة بالأرجوان . والمخوَّصة بالذهب . وفي أوساطهم مناطقُ الفضة . تتدلى منها السيوف والخناجر المرصَّعة .

ثم لم تلبث أن رأينا أحد هؤلاء الدهاقنة يحاور رجلاً في أمر بيع وشراء . فنسأل واحداً من عرب الحيرة عن الخبر فيقول لنا : إن الدهقان أعطى هذا الرجل السيفسير (تَمِيّاً) ليبتاع له بها (قَصافص) لفرسه . وكأن (القَصافص) لم تعجب الدهقان فردّها الى (السيفسير) واسترد منه (تَمِيّه) . فقلنا للحيري ما تقول ؟ فاننا لم نفهم كلامك فسّره لنا ، قال : أما (السيفسير) فهي كلمة فارسية معناها السمسار ، وكذا القَصافص جمع قِصفصة كلة فارسية معربة من (إسفست) ومعناها الفصّة وتسمى بمصر البرسيم . والتَّمِي جمع تَمِيّة وهي عملةٌ رومية يتعامل بها أهل بلدنا . فامتعضنا وقلنا له ويحك تتكلم بالكلمات الفارسية وأنت عربي ؟ قال : وما عليّ في ذلك ، وهذا النابغة شاعر مليكنا النعمان يقول واصفاً ناقته :

(وقارفت وهي لم تجرب وباع لها من القَصافص بالتَّمِيّ سيفسير)

أما ملوك الحيرة فهم المناذرة المشهورون سمّوا بذلك لأنه تولى منهم خمسة باسم (المنذر) كما تولى ثلاثة باسم (النعمان) وأصلهم من عرب قحطان اليمانيين ، وقبيلتهم لخم ، ومؤسس دولتهم (جذيمة الأبرش) الذي عاش في أواسط القرن الثالث المسيح ، وبعد وفاته تولى الملك ابن اخته (عمرو ابن عدي) وخلفه أعقابه فكانوا نحو اثنين وعشرين ملكاً واستمر ملكهم نحو (٣٥٠) سنة .

وكان الملوك المناذرة يسوسون الحيرة وما يليها من بلاد العرب باسم الأكاسرة . وكان في الحيرة أسرتان عربيتان شريفتان على دين النصرانية : (آل زيد) و (آل مرينا) وهما من القبائل المسماة بالعِباد . وكان الملك المنذر اثنا عشر ولداً يسمون الأشاهب لجمالهم : منهم النعمان الثالث الذي

تربى في (آل زيد) ونشأ مع أولادهم . كما ان أخاه (الأسود) تربى في (آل مرينا) .

وكان في الحيرة مرزُبان من مرازبة الفرس صحبه (زيد) فتعلم منه اللغة الفارسية وتخرج على يديه في الأعمال الادارية حتى تولى ادارة أعمال البريد العربي في عاصمة كسرى فكان أشبه بوزير المستعمرات العربية . وكان أهم أعماله التوسط بين كسرى وملوك العرب في تلقي الرسائل وتسوية المشاكل . وكان يستلم الهدايا التي يرسلها ملوك العرب الى بلاط كسرى في رأس كل سنة . وأكثر ما تكون تلك الهدايا مُهران أشقران . وكمأة رطبة في حينها . وأقِط وأدَم وسائر تجارات العرب .

وكان لزيد العبادي المذكور ولد اسمه (عَدِيّ) نشأ مع أولاد صديقه (المرزبان) فحذق العربية والخط والشعر كما تعلم الفارسية وآدابها والرمي بالنشاب ولعب الكرة والصولجان على ظهور الخيل كما يلعب أساورة الفرس . وتخرج في كل أدوات الرياسة : فكان عربياً في لغته . نصرانياً في ديانته . فارسياً في أدبه وعلمه وكثير من أطواره .

ولما أرسل (المرزبان) أولاده الى بَلاط كسرى كتب اليه يقول : إن عندي غلاماً من العرب (يعني عدياً) ربيته مع أولادي وهو أفصح الناس وأكتبهم بالعربية والفارسية . والمَلِك محتاج الى مثله . فان رأى أن يضمه الى أولادي الذين أرسلتهم الى خدمته .

فطلبه كسرى فدخل عليه ، وكان (عديّ) جميل الوجه والفُرْس تتبرك بالوجه الجميل . ولما كلمه وجده من أظرف الناس ، وأحضرهم جواباً . فمال اليه وأمره بملازمة البلاط مع أولاد المرزبان وأن يتولى النظر في شؤون العرب ومراجعة ملوكهم . فكان (عديّ) أول من كتب باللغة العربية في ديوان كسرى . وجعلت الوزارة المختصة بالشؤون العربية من يومئذ تحرر دفاترها ورسائلها بلغة العرب بعد أن كانت تفعل ذلك بلغة الفرس .

فارتفع قدر (عدي) في عاصمة العرب أعني (الحيرة) وهابه ملوكها

وسكانها . وكان اذا زار الحيرة ودخل على (المنذر) قام جميع من في المجلس حتى يجلس هو . وكان يقضي بعض أشهر السنة في بلاط كسرى وبعضها في الحيرة وأحياناً يتنقل بين بلاد العرب ورساتيق العجم حيث يغتنم فُرَص اللذات . وانتهاب المسرات .

قال الجاحظ : كان (عديٌّ) بن زيد نصرانياً ديّاناً وترجماناً وصاحبَ كتب وكان من دُهاة أهل ذلك الدهر اهـ .

* * *

(عَدِيٌّ في دمشق)

قلنا ان عدياً كان عربياً في جسمه ، فارسياً في عقله . ثم أصبح من جديد يونانياً في احساساته وعواطف قلبه . وكان السبب في هذا التطور الأخير أن كسرى أرسله سفيراً الى قيصر ملك الروم في مهمةٍ . فسُرَّ به قيصر ولا سيما مذ علم انه نصراني وأحب أن يستخلصه ويتخذ عنده يداً ينتفع بها في أغراضه السياسية . فأمر أن يُحملَ على خيل البريد فيطوف مملكة الروم ويشاهد عظمتها وعمرانها ، فطوّف فيها عديٌّ حتى أدّته خاتمة المطاف الى دمشق الشام : فسباه حُسنها وجمالُ موقعها ، وأزهارُ ربيعها ، وآداب أهلها ، وظرف نسائها ، وكان أول ما نظمَ من الشعر نظمه فيها فقال :

ربَّ دارٍ بأسفل الجزع من دو مةَ أشهى إليَّ من جيرون
وندامى لا يفرحون بما نا لوا ولا يرهبون صَرْف المنون
قد سُقيتُ الشمولَ في دار بشرٍ قهوةً مُزّةً بماءٍ سخين

ويفهم من قول (عديٍ) هذا ونزوله ضيفاً في دار بشر في دومة دمشق وبشرٌ عربي بدلالة اسمه - يفهم من هذا كله أن العرب كانوا يسكنون الشام ويبنون فيها الدور والقصور قبل الاسلام . وهناك أدلة تاريخية أصرح من هذا .

ثم عاد (عدي) من سياحته في سورية الى بلاط كسرى فبلغه خبر

موت أبيه (زيد) في الحيرة فأسرع اليها فتلقاه ملكها (المنذر) وجميع طبقات أهلها بالحفاوة والاكبار . ولو شاء لشكوه عليهم : لأنهم كانوا ناقمين من الملك المنذر . لكن (عدياً) كان يؤثر حياة اللهو واللعب والصيد على متاعب الملك .

* * *

(زواج عدي بابنة النعمان)

وكان السبب في هذا الزواج أن هنداً ابنة النعمان وكان يومئذ (وليّ عهد المنذر) دخلت الكنيسة مع جواريها في عيد الفصح فاتفق دخول عدي الكنيسة . فرأى هنداً وكانت مديدة القامة ، عبلة الجسم لا تجاوز عمرها احدى عشرة سنة . فأخذت بلُبّه وشُغل بالرنوّ اليها . وهي مشغولة بالرنوّ الى القناديل والصوَر والأيقونات . وكان بين وصائفها وصيفة اسمها (ماري) تحب عدياً . فلم تنبّه سيدتها الى نظراته . فلما انتبهت غضبت وأقبلت على وصائفها تَسُبُّهنّ وتلطمهن .

ومضى على ذلك عام وعديٌّ يفكّر في هند ويتمنى رؤيتها وماري تنتظر الفرصة للجمع بينهما . حتى كان يوم عيد الفصح فأرادت هند الذهاب الى الكنيسة الكبرى ، فقالت لها وصيفتها ماري دعينا منها ولنذهب الى كنيسة (ثومه) (وثومه بالثاء المثلثة ونلفظها تاءً فنقول توما وهو المار توما بالعربية أوثوماوس باليونانية) وسترين ما أجمل بناءها وقناديلها والصور التي فيها وكثرة راهباتها والنساء اللواتي يقصدنها من جميع الجهات . فاستأذنت هند أمها في زيارة كنيسة (ثومة) فأذنت لها . وكانت ماري أعلمت عدياً بالخبر . فجاء الكنيسة في جماعة من أصحابه وقد لبس يلمَقاً فارسياً مخوّصاً بالذهب وكان جميل الوجه طويل القامة حلو العينين حسن المبتسم نقي الثغر .

فلما رأته الوصيفة ماري قالت لسيدتها هند انظري هذا الفتى فانه والله أحسن من كل ما أنت مشغولة به من قناديل الذهب والايقونات المرصّعة

بالجواهر فقالت لها : ويحك ! ومن هذا ؟ قالت عديّ بن زيد قادم من عند كسرى الى جدّك الملك المنذر بهدية . قالت : أتريثنه يعرفني اذا دنوتُ منه فنظرتُ اليه . قالت : ومن أين يعرفكِ وهو لم يركِ قط فدنت منه فشعرَ بها فجعل يتلهى عنها بمازحة الفتيان الذين معه . وهو قد برعَ عليهم بجماله . وعذوبة كلامه . وأنيق زيّه وهندامه . فذهلت هند مذ رأته . وظهر أثرُ الوَلَه على وجهها . ولحظت ماري ذلك فقالت : مالك ؟ كلّميه ، فكلمته وتعارفا ثم تفارقا على وجه جميلٍ . وموعدٍ قريب . وصحّ فيها قولُ شوقي رحمه الله :

(نظرةٌ فابتسامةٌ فسلامٌ فكلامٌ فموعدٌ فلقاءُ)

ثم خطبها من جدها الملك فأجيب . وأصبح صهراً للنعمان وليّ العهد .

* * *

(موت المنذر وتملك النعمان)

مات المنذر ملك العرب فاختلفوا في من يملكونه عليهم من أولاده وكانوا اثنيْ عشر كما ذكرنا .

عديّ بن زيد وآله (آل زيد) يميلون الى (النعمان) بالطبع لأنه أبو زوجة (عدي) . و (آل مرينا) يميلون الى أخيه (الأسود بن المنذر) لأن الأسود نشأ فيهم وتربى مع أولادهم . كما مر في فاتحة الكلام .

واختلاف العرب هذا جعل كسرى في حيرة من أمر اختيار أحدهما حتى قال يوماً وهو محنق : (لأبعثنّ الى الحيرة اثني عشر الفاً من الأساورة . ولآمرنّهم أن ينزلوا على العرب في دورهم ويملكوا عليهم أموالهم ونساءهم . ولأملكنّ عليهم رجلاً من الفرس) . وكأن كسرى بهذا البيان السياسي يهدّد العرب بتحويل الانتداب الى حكم مباشر .

وكان (عديّ) حينما صرّح كسرى بما صرح به واقفاً على رأسه

يسمع فالتفت كسرى اليه وقال : ويحك يا عدي أما بقي في أولاد المنذر من فيه خير فنمليّكه على العرب ؟ قال : بلى ! وفيهم كل خير . قال : ائتني بهم . أنظر اليهم .

فكتب اليهم فأمّوا المدائن . فخلا عدي بالنعمان وقال له : (لست مملّيكاً غيرك . فلا يُوحشنّك ما أفضّل به اخوتك عليك فاني أخدعهم بذلك) .

ثم جعل عدي يخلو بهم واحداً واحداً ويقول : (اذا دخلتم على كسرى فالبسوا أفخر ثيابكم . واذا أكلتم بين يديه فتأنّوا وصغّروا اللقم وأقلّوا الأكل . فان قال لكم : أتكفونني العرب ؟ قولوا نعم . فان قال لكم : وان شذّ أحد العرب عن طاعتي أتكفونني ؟ فقولوا : لا . فانه حينئذٍ يهابكم . ولا يطمع في تفرقكم . ويعلم أن للعرب منعةً وبأساً . ثم يخلو عديٌ بالنعمان فيقول له : (اذا دخلت على كسرى إلبس ثياب السفر وتقلّد سيفك . واذا أكلت معه عظّم اللقم . وأسرع في المضغ والبلع وزِد في الأكل . فان كسرى يعجبه ذلك من العرب خاصة . واذا سألك هل تكفيني العرب ؟ قل نعم : واذا سألك فمن لي باخوتك إن عصوني ؟ قل له : إن عجزتُ عنهم فأنا عن غيرهم أعجز) .

هذا ما كان من (عديّ) مع حميه (النعمان) . أما ما كان من (ابن مرينا) مع ربيبه (الأسود) فان الأسود أخبره بنصيحة عديّ له (من لباس الزينة وقلة الأكل والعجز عن كبح الثورات العربية) فقال له : خدعك والصليب ومار ثومه . وان أردت النجاة فاعمل بعكس ما قاله لك . قال : كلاّ . إن عدياً أعرفُ بطباع كسرى . وان خالفته استوحش مني . فقال ابن مرينا ستعلم وتندم .

ثم دخلوا على كسرى وفعلوا كما أمرهم (عديّ) . وكان النعمان من يومهم أحمرَ أبرشَ قصيراً . فدخل وعليه لباس السفر وهو متقلد سيفه ولما أكلوا جعل النعمان يكبر اللقم ويُسرعُ في المضغ والبلع وكسرى

يلحظه . فالتفت الى عدي وقال له بالفارسية : (إن يكن في أحد منهم خيراً ففي هذا) . ثم سألهم كسرى فأجابوه بما علّمهم عدي . فأعجبَ كسرى قولُ النعمان فملّكه وخلع عليه وألبسه تاجاً قيمته ستون الف درهم فيه اللؤلؤ وعليه الذهب . ثم انصرفوا . وجعل (ابن مرينا) يوبّخ ربيبه الأسود . وأحسّ عدي بالشر من قبل (ابن مرينا) . فأولم له وخلا به وصارحه بما في نفسه قائلاً : (لا تلمني على شيء كنتَ أنتَ تحاولُ أن تفعله لربيبك . تعالَ نتعاهد أن لا يحقدَ أحدنا على الآخر) . وجعل عديٌّ يحلف لابن مرينا . أما ابن مرينا فحلف له إنه لا بد أن ينتقم للأسود منه .

لا جرم أن يكون التوفيق قد خان عدياً في موقفه الذي استسلم فيه لخصمه كلّ هذا الاستسلام . وبذلك جرّ على نفسه ثم على النعمان بلاءً عظيماً .

* * *

(تدبير المظاهر لعدي)

ولما رجعوا كلهم الى الحيرة خلا ابن مرينا بالأسود فقال له : إن عجزت عن أخذ الملك فلا تعجز عن أخذ الثأر . قال : مرني فأطيع . قال : يجب أن لا يمضي يوم إلا ويكون على باب النعمان هدية من خيار مالي أو خيار مالك . وبذلك تملك قلب النعمان . فاستمرّا على هذا الأمر طويلاً حتى صار النعمان لا يقضي في ملكه بشيء الا بأمر (ابن مرينا) وكان اذا ذُكر (عدي) في مجلس النعمان أثنى عليه ابن مرينا . ثم يقول : (لكنّ فيه مكرٌ وخداع ، والعربي المُفتري لا يصلح إلا هكذا) .

فلما رأى الناسُ منزلة (ابن مرينا) عند النعمان التفوا حواليه وأحبوه فكان يقول لهم اذا مدحتُ عدياً عند النعمان قولوا : (هو كذلك إلا أنه خداع لا يسلم من شره أحد . وأنه يقول هو الذي ولاّك الملك وأنك

عامل من تحت يده) فكانوا يقولون هذا للنعمان . وما زالوا به حتى حقدَ على صهره (عديّ) .

ثم زوّر (ابن مرينا) كتاباً على لسان عدي الى بعض دهاقين الحيرة وفيه ما يسوء النعمان ، ودسّ الكتاب اليه ، فغضب النعمان وكتب الى عديّ يستزيره ، فاستأذن كسرى وأقام أخاه (أُبَيْناً) مقامه في رؤية أشغاله في البلاط . ووفد على حميه النعمان فلم يسمح النعمان بالدخول عليه وإنما أرسله توّاً الى (الصينيّين) (١) . وهو رستاق للمناذرة ينزلون فيه للهو والمسرّات . فسجنه ثمه . ولم يمكّن أحداً من الدخول عليه . حتى طلاق ابنته (هند) فطلّقها .

* * *

(عديّ في السجن)

وجعل عدي وهو في السجن ينظم القصائد البائية ويرسلها من صدره آهات حزينة : يصف بها حاله ، ويشكو النعمان ويستعطفه . ويذكره بما كان بينهما من خالص الود والمصاهرة وسابق التربية . ويأسف له كيف انخدع بدسائس الواشين . وتحامل الماكرين . من ذلك قصيدته البائية التي مطلعها :

(سعى الأعداءُ لا يألون شرّاً عليك وحقّ مكةَ والصليبِ)

وقد قال فيها :

(ألا من مبلغٌ النعمانَ عني وقد تُهوَى النصيحة بالمغيبِ)
(أحنظليّ كان سلسلةً وقيداً وغُلاًّ : والبيانُ لدى الطبيبِ)
(أتاك بأنني قد طالَ حبسي فلم أسأمْ بمسجونٍ حريبِ)
(وبيتي مقفر الا نساءً أراملَ قد علكن من النحيبِ)

---

(١) في المراصد هو بلد بظاهر الكوفة كان من منازل آل المنذر وبه نهر ومتنزه اه لكن الذي في القاموس ان (خانقين) بلد بسواد بغداد وانها سميت بذلك لأن النعمان الملك خنق به عدي بن زيد العبادي حتى قتله .

الى ان يقول :

(فهل لك أن تداركَ ما لدينا ولا تُغلَبَ على الرأي المُصيبِ)
(فاني قد وكلتُ اليومَ أمري الى ربٍّ قريبٍ مستجيبِ)

سيتم أيها السادة كيف أن عدياً في مطلع هذه القصيدة جمع في القَسَم بين الصليب وبين مكة أكبر معبد للعرب ، وهو نصراني والمخاطب بالشعر وهو النعمان نصراني ايضاً . وفي شعر (الاخطل) النصراني الاموي كثير من مثل هذا الحلف فهو يقسم (بالله ربِّ ستورِ البيتِ والحُجُبِ) و (البيتِ ذي الحُرُماتِ والأستار) . كما حلف بيثرب وزمزم وبالحُجاج وبالابل التي تحملهم الى مكة وبالأنعام التي يذبحونها أيام التشريق (*) .

(*) ويدل شعر الأخطل على ان العربي مهما تدين بغير دين العرب لا بد أن يغلب عليه دين العرب الذي به اعتزازهم . ومنه يستمدون جامعتهم . ويستوحون قوتهم . من ذلك قوله :

(إني حلفت برب الراقصات(١) وما أضحى بمكة من حجب وأستار)
(وبالهدي(٢) اذا احمرت مذارعها(٣) في يوم نسك وتشريق وتنحار)
(وما بزمزم من شمط محلقة وما بيثرب من عون وأبكار)

وقوله :

(وقد حلفت يميناً غير كاذبةٍ بالله رب ستور البيت ذي الحُجُب)
(وكل موفٍ بنذر كان يحمله مضرّج بدماء البدن مختضب)

وقوله :

(ولقد حلفت برب موسى جاهداً والبيت ذي الحرمات والأستار)

والنصرانية في شعر الأخطل أثر أيضاً لكنه قليل كما لاحظ الأب لامنس بل هو متأثر في أيمانه بالاسلام أكثر من تأثره بالنصرانية كما يظهر من الشواهد السابقة ويقول أحياناً (والصليب والقربان لأفعلن كذا) . وكان الأخطل مضطرباً في حياته بين عادات من حوله من النصارى وللمسلمين ، فهو يشرب الخمر ويعلق الصليب كما يطلق امرأته ويتزوج أخرى ويترهّى اهـ ملخصاً من ضحى الاسلام (جزء ١ ص ٢٤٧ و ص ٢٤٨) .

(١) الظباء التي من سرعتها كأنها ترقص .
(٢) الهديّ : النَعَم .
(٣) كذا بالذال وهي النخيل القريب من البيوت والنواحي والقرى بين الريف والبر واضواج الوادي أي منعطفاته . يريد اذا نحرت فاحمرت ارباض مكة وساحاتها بدمائها فيكون ضمير مذارعها راجعاً الى مكة .

لاجرم أن نصارى العرب قبل الاسلام وبعده إن كانوا يعتبرون بيت المقدس قبلتهم الدينية ، فقد كانوا يعتبرون مكة قبلتهم القومية . وان كانوا يستمسكون بالصليب كرمز للخلاص الديني ، فانهم يستمسكون بالكعبة كرمز للنجاح السياسي .

ولعديّ وهو في السجن قصيدة أخرى فيها ما يدل على عقيدته القومية العربية وهي التي مطلعها :

(ليس شيء على المنون بباقي غير وجه المسبِّح الخلاّق)

وفيها يقول لأبي مُسهر الذي بعثه برسالة الى إخوته في العراق :

(يا أبا مسهرٍ فأبلغ سريعاً إخوتي إن أتيت سحن العراق)
(أبلغن عامراً وأبلغ أخاه أنني موثق شديد وثاقي)
(في حديد القُسطاس(١) يرقبني الحا رس والمرء كلّ شيء يلاقي)
(في حديد مضاعف وغلول وثياب مُنَضَّحات خلاق)
(فاركبوا في الحرام فكّوا أخاكم إن عيراً قد جُهِّزت لانطلاق)

وقوله في الحرام يعني الشهر الحرام فهو يطلب من اخوته أن ينطلقوا في الشهر الحرام الى مكة ويحرضوا العرب على النعمان ويضطروه الى اخراج عدي من السجن . فعدي واخوته النصارى لم يستعينوا على عدوهم النعمان النصراني بسلطة الدين المسيحي الجامع بينهم ، وانما استعانوا عليه بقوة العصبية القومية التي تجمع بينهم وبين سائر عرب الجزيرة . وفي ذلك موعظة وعبرة .

ومن شعر عدي في السجن قوله :

(أبلغ النعمان عني مألُكا أنني قد طال حبسي وانتظاري)
(لو بغير الماء حلقي شَرِق كنتُ كالغصّان بالماء اعتصاري)

ومن أشهر سجنيّات عدي قصيدته التي يعظ فيها النعمان ويذكره بما فعل الدهر بالملوك الغابرين ومطلعها :

(١) هو الميزان والقبان رومي معرب . فيكون المراد من حديد القسطاس السلاسل الضخمة التي تناط بالقبان ثم تعلق بها الموزونات . هكذا يفهم من قول الليث كما في التاج .

(أيها الشامت المعيّر بالدهـــر أأنت المُبَرّأ الموفور) (١)

* * *

(قتل عديّ)

وفي آخر الأمر كتبَ (عديّ) الى أخيه (أُبيّ) الموظّفِ في بلاط كسرى يستفزّه بهذه الأبيات :

(أبلغ أُبيّـــاً على نأيه وهل ينفعُ المرءَ ما قد علِم)
(بأن أخاك شقيقَ الفوآ دِ كنتَ به واثقاً ما سَلِم)
(لدى مَلِكٍ مُوثَقٍ بالحديـــدِ إما بحقٍّ وأما ظُلم) الخ

فعرض أخوه أمره على كسرى فكتب الى النعمان باطلاقه مع رسول. وكان للنعمان في بلاط كسرى من يطلعه على الأخبار، فكتب اليه بخبر الرسول فأشار أعداء (عديّ) على النعمان بقتله في السجن قبل وصول الرسول خشيةَ أن يعودَ الى كسرى فينتقمَ منـه، فأبى النعمان قتله. ثم وصل الرسول فدخل السجن على عديّ قبل أن يدخل على النعمان. وكان أُبيّ أخو عدي أوصاه بذلك. فقال (عدي) للرسول أعطني كتاب كسرى حتى أكون أنا الذي أرسله الى النعمان وإلا فان النعمان قاتلي بعد خروجك وقبل وصولك اليه. فلم يرض الرسول. ولما بلغ النعمانَ أن الرسول دخل على عديّ قبل دخوله عليه أرسل الى السجن من غمّ عدياً فمات

(١) وتتمتها :

(أم لديك العهد الوثيق من الأيّـــام بل انت جاهل مغرور)
(أين كسرى كسرى الملوك انوشر وان ام أين قبله سابور)
(وبنو الأصفر الكرام ملوك الرّ وم لم يبق منهم مذكور)

ثم ذكّر النعمان بجده النعمان الأكبر وما كان من أمر زهده وسياحته فقال :

(وتذكر رب الخورنق إذ أشـــرف يوماً وللهدى تفكير)
(سرّه ملكه وكثرة ما يمـــلك والبحر معرضاً والسدير)
(فارعوى قلبه فقال وما غِبْـــطة حيّ الى الممات يصير) الخ

خنقاً. ثم دخل الرسول على النعمان وسلمه كتاب كسرى، فلما قرأه قال سمعاً وطاعةً للملك : اذهب الى عديّ فأخرجه من السجن بنفسك. وأمر للرسول بخِلَعٍ ومالٍ وجاريةٍ حسناء. وجاء الرسول ليفكّ (عدياً) فقال له السجّان انه مات بعد خروجك. فعاد الى النعمان وكلمه بغضب شاعراً أن في الأمر مكيدة. فهدّده النعمان قائلاً : بعثك كسرى اليّ فدخلتَ على عديّ قبلي. وأخذتَ منه رشوة. فخاف الرسول. ثم زاده النعمان من الخِلَع والمال. وتوثّق منه أن لا يخبر كسرى إلا بأن عدياً مات. ولما أخبر الرسول كسرى أسِفَ على عديّ ولم يخفَ عليه الأمر.

أما النعمان فندم على قتل (عديّ) ولا سيما مذ رأى رجاله وحاشيته قد أصبحوا يجترئون عليه ولا يهابونه. وكيف يهابونه وهم يعلمون غدره بعديّ. وفي كل ساعةٍ هم قادرون على الوشاية به الى كسرى.

ومضت على ذلك أيام حتى اتفق للنعمان أن كان في الصيد فرأى غلاماً جميلاً. فكلّمه فاذا هو ظريف اللسان. فسأله من أنت ؟ قال : أنا زيد ابن عدي (لعله من غير ابنته هند وإلا فيبعد أن لا يكون عارفاً به) فرقّ له وتذكّر والده. وأراد أن يكفّر عن ذنبه ويتّقي المكايد التي قد تكون دُبّرت له. فقرّب الولد اليه. واعتذر اليه عما فعله بأبيه. (وهذا من النعمان فُيُولة في الرأي. وفُسُولة في الهمة. وليس ما فعله من حزم الملوك في شيء). ثم جهّز الولدَ الى كسرى مع كتاب يقول فيه : (إني قد فُجعت بعديّ أكثرَ من كل أحد. أما الملكُ فلا يفقدُ من رجاله رجلاً حتى يخلُفَ الله عليه بخير منه. وها قد بلغَ ابنُ لعدي مبلغ الرجال. وليس هو بدون أبيه علماً وكفاية. وقد أرسلته الى البلاط ليكون في خدمة الملك وفي رؤية مصالح العرب كما كان أبوه). فقبله كسرى وقرّبه اليه. وكان يسأله أحياناً عن النعمان فيُثني عليه. ومكثَ على ذلك سنوات حتى حانت الفرصة لاخذ ثأر أبيه (عديّ) من قاتله النعمان. فهتفَ في نفسه : ها قد سنحت الفرصة : فهيّا الى الانتقام !!

* * *

مكتبة

(الانتقام من النعمان)

أما الفرصة السانحة للانتقام فهي أن المنذر الأكبر جدّ النعمان كان أصاب في بعض غاراته على غساسنة الشام جاريةً حسناء . فأرسلها هديةً الى كسرى أنوشروان وكتب اليه كتاباً ضمنه وصف تلك الجارية فقال : (أرسلتُ الى الملك جاريةً معتدلة الخلق . نقيّة اللون . بيضاء . كحلاء . أسيلةَ الخد . رقيقة الأنف . شهية المُقبَّل . عريضةَ الصدر . كاعبَ الثدي . حسنة المعصم ، لطيفةَ الكفّ . سَبْطة البنان . ضامرةَ الكشح . خميصةَ الحصر . رابية الكفل) . وبقي يسترسل في الوصف حتى وصل الى قدميها فقال : (مُفْعَمة الساق . مُشْبَعَةَ الخَلْخال . لطيفةَ الكعبِ والقَدَم) . وبعد أن أتمّ وصف بدنها انتقل الى وصف أدبها فقال : (عزيزةَ النفس . حييّةً . رزينة . حليمةً . كريمة . قد أحكمتها التجارب . فرأيها رأيُ أهل الشرف . وعملُها عملُ أهل الحاجة . صناعُ الكفين . قطيعةُ اللسان[1] . ساكنة الصوت . إن أردتها اشتهت . وان تركتَها انتهت . تبادرك الوثبة إذا قُمت . ولا تجلسُ الا بأمرك اذا جلست) . فقبل كسرى الجارية وأمر أن يُحفظ كتابُ وصفها في خزانة ديوانه . ثم صار من آيين[2] الأكاسرة أنهم اذا أرادوا اجتلاب جواري من الأقاليم جلبوهن على هذه الصفة أو هذه المسطرة . لكنهم ما كانوا يطلبون جواريَ من جزيرة العرب ظناً منهم أنه لا يوجد في نسائهم جميلات . إلى أن كان زمنُ (كسرى هرمز) الذي حدثت وقائع محاضرتنا في عهده فطلب من الأقاليم جواريَ له ولأولاده .

فدخل عليه (زيد بن عدي) وهو يختم الكتاب ، وقد وضع في طيّه

(١) أي ليست ثرثارة .
(٢) أي بروتوكول بلاطهم .

(مسطرة الجمال) مستخرجةً نسختُها من خزانة جدّه (أنوشروان) . فقال له زيد : إني عارف بآل المنذر ملوكِ الحيرة وجمالِ نسائهم وأن لديهم أكثرَ من عشرين ابنةً على هذه الصفة . فان رأيت أن تكتب الى عبدك النعمان فيرسلَ اليك بما تحبُّ منهن . فقال له كسرى : اكتب اليه أنت بذلك . قال : لكنه قد يغيّبهن : إذ أن شرّ شيء في العرب وفي النعمان خاصةً أنهم يتكرّمون في أنفسهم عن العجم . فأرسليني الى النعمان وأرسلْ معي ثقةً من رجالك يفهمُ العربية حتى نبلّغه الرسالة . ونحملَ الجواري الى بلاطك .

فبعث كسرى معه رجلاً فارسياً قوياً ذكياً . فجعل زيدٌ يعتني بالفارسي ويُكرمُه . ويتحببُ اليه . حتى دخلا على النعمان . فأخبره زيدٌ بأن كسرى يريد أن يكرمَه بالاصهار اليه . وأنه يطلب من كانت على هذه الصفة من بناته . ثم دفع اليه كتاب كسرى . وفي طيه المسطرة .

فلما قرأها النعمان امتقع لونه . وشقّ عليه هذا الطلب . فقال لزيد — ورسول كسرى يسمع — : (أما في مها السواد وعين فارس ما يبلّغُ به كسرى حاجته) ؟ فسأل الفارسي زيداً : (ما المها ؟؟) . وهنا الأمانة في النقل والترجمة من لغة الى لغة . فقال زيد (المَها) بالعربية معناها (كاوان) فسكت الرسول على غيظ .

فسّر زيد (المَها) بكاوان وهي بالفارسية تدل على هذا البقر الأهلي الذي يحرث عليه . فغضب الفارسي ، وقد تعمّد زيد إغضابه . ولولا ذلك لفسّر له (المَها) بالظباء والغزلان . والذي ساعد زيداً على تفسير المَها بالبقر ويبقى صادقاً أن شعراء العرب في الجاهلية كما كانوا يشبّهون النساء بالظباء والغزلان . كانوا يشبهونهن أيضاً بالبقر الوحشيّ والنِّعاج والشاء . وكلمة (مها) تشمل الغزلان والبقر الوحشي . وكلاهما مستعملٌ في لغة الشعر الغزلي العربي . ولا كذلك كلمة (كاوان) الفارسية

بالنسبة للغة الشعر الغزلي الفارسي . وإنما هي بمعنى البقر الأهلي . وهو المعنى الذي أغضب رسولَ كسرى مذ جعله يفهم أن النعمان يتهكم بابناء الملك وأنهم إنما تصلح زوجاتٍ لهم بقرات بلاد فارس . لا بنات ملوك العرب . فانظروا أيها السادة دهاء (زيد بن عدي) ومقدرته في اللغتين الفارسية والعربية . وحسنَ تصرفه في الكيد لخصمه النعمان . والترجمةُ من لغةٍ الى لغة اذا أسيئت أضرّت بل ربما أفسدت ودمّرت .

ولما تمّ الدست على النعمان وأجاب بما أجاب . التفت (زيد) اليه وقال : ان الملك أراد كرامتك بمصاهرتك . ولو علم أن هذا يشق عليك لما خاطبك . فقال : اعتذر لي عنده ، ثم سلم الى الرسول كتاباً الى كسرى . فلما وصلا الى المدائن وهمّا بالدخول على كسرى ، قال زيد للرسول : لا تنس أن تقول للملك ما سمعتَ من النعمان . قال لا أنسى . ثم دخلا عليه وسلّماه الكتاب وفيه يقول النعمان : (إنه ليس لديهم بنات على الصفة المذكورة) . فالتفت كسرى الى زيد وقال له : أما قلتَ لي إن لديه بناتٍ كذلك . قال زيد نعم ، ولكني قلتُ للملك أيضاً : إن العرب يضنّون بنسائهم على الأعاجم وإن هذا من شقائهم . واختيارهم الجوعَ والعُرْيَ على الشبع والرياش . ثم التفت الى الرسول وقال له : قلْ للملك ما سمعت ، فقال كسرى بتزَق وما هو ؟ قال الرسول : (إن النعمان يقول لك : أما في بقر بلاد العراق ما يُغنيه عن نسائنا ؟) فاحمرّ وجه الملك غضباً مذ سمع كلمة (البقر) . وقال : (ربّ عبدٍ أراد ما هو أشرّ من هذا ثم صار أمره الى الهلاك) . وأخذ كسرى من يومئذٍ يفكر في الايقاع بالنعمان . والنعمان يحذر ويتهيأ . الى أن جاءه كتاب كسرى يطلبه اليه ، فأحسّ بالشر . فحمّلَ أهله وسلاحه وما خفّ من ذخائره وهرب الى البادية التي هي حصن العرب عند نزول الشدائد . وجعل يطلب من القبائل أن يحموه . وفي جملة هذه القبائل أصهارُه بنو طيّ وبنو عبس . فلم يلبّوه خوفاً من كسرى وجنوده . الى أن بلغ منازلَ بني شيبان النازلين على مائهم الشهير بذي قار .

وكان سيدُ شيبان يومئذ هانئُ بن مسعود فطلب جواره . فقال له هانئ : (إني أجيرُك بما أجير به نفسي وأولادي . لكن ذلك غيرُ نافعك ولا نافعي . لأن كسرى يُهلكك ويُهلكني . وعندي رأيٌ غير هذا) . قال : هاته . قال : (أن تأتي كسرى وتضرّعَ اليه : فان صفحَ عنكَ عُدت ملكاً . وان قتلك مُتّ كريماً . وكان ذلك خيراً لك من أن تعيش في بلاد العرب ذليلاً . وكلُّ شيءٍ يحمّلُ بالرجل إلا أن يُصبح سُوقة بعد أن كان ملكاً) . فقال له النعمان : وحُرَمي وسلاحي ؟ قال : (هنّ في جواري : لا يخلُصُ إليهم أحد حتى يخلُصَ الى بناتي) . قال : (هذا وأبيك الرأي) . ثم اختار هديةً نفيسةً وأرسلها الى كسرى مع كتابٍ يعرضُ فيه ندامته واستئمانه . فكتب اليه كسرى بالحضور . فقدم المدائنَ عاصمة كسرى آمناً مطمئناً . فاستقبله (زيدُ بن عدي) على قنطرة ساباط على باب المدائن . وقال له :

— أنجُ نُعَيمُ إن استطعت نجاءً .

— أفعلتها يا زيد ؟ أما والله لئن عشت لأقتلنّك قتلة لم يقتلها عربي قط . ولألحقنّك بأبيك .

— امض لشأنك نُعَيم : فقد والله أخيتُ لك أخيّة[1] لا يقطعها المهرُ الأرِن .

ولما وصل النعمان الى بلاط كسرى لم يُؤذن له بالدخول . وأمر كسرى أن يقيد ويُحمل الى (خانقين)[2] ويبقى مسجوناً فيها . فحُمل اليها وبقي ثمّة حتى مات بالطاعون . وقيل ألقاه كسرى تحت أرجل الفيلة حتى مات . والأول أصحّ .

* * *

(١) الأخية : عروة من حبال تثبت في الأرض وتربط بها الأمراس ويسميها أهل نجد اليوم غيّة بقلب الخاء غيناً . وأخّى الأخيّة شدّها وأحكمها .

(٢) بلدة على طريق بغداد الى طهران .

(وقعة ذي قار)

(وغضب العرب كافة لما تزل بإخوانهم نصارى العراق)

ولما شاع في العرب خبر موت النعمان في خانقين . وكان ظهر الاسلام وهاجر النبي (ﷺ) الى المدينة — غضبوا وأضمروا الشر لكسرى . وبلغ كسرى خبر دروع النعمان وذخائره . فأرسل الى هانئ بن مسعود يطلبها منه فلم يرسلها اليه ، بل وجدها هانئ فرصة للثورة والانتقام . فأرسل كسرى الى ذي قار بالجيوش . وكان هانئ استعد له وفرّق دروع النعمان على العرب يجهزهم بها وهي تبلغ سبعة آلاف درع . واتفق العرب جميعهم : مشركوهم ونصارام على الدفاع . فصدموا العجم صدمة شديدة . وكان العطش اشتد بجنود كسرى فضعفوا وانهزموا . وركبتهم العرب وقتلوا منهم .

وكان ذلك في نفس الوقت الذي انتصر فيه النبي (ﷺ) على مشركي مكة في (وقعة بدر) وهي السنة الثانية للهجرة . فكانت الوقعتان (في بدر وذي قار) من نوع واحد ، انتصر الحق فيهما على الباطل . ومهّدتا السبيل لظهور امر العرب وانتشار دعوتهم في الأرض . ويومُ (ذي قار) هو اليوم الذي قيل فيه : (إنه أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم) .

وروى بعضهم أن السبب في حرب (ذي قار) ان كسرى طلب من هانئ بن مسعود هنداً ابنة النعمان لا دُروعه . وهندٌ هي زوجة (عديّ) التي كان رآها في كنيسة (مارثوماوس) ثم تزوّجها . كما شرحنا ذلك في فاتحة المحاضرة . فأبت هندٌ أن تذهب الى كسرى . واستجارت بهانئ وبقومه بكر بن وائل فمنعوها وحاربوا دونها وكسروا كسرى في (ذي قار) من أجلها (١) .

* * *

(١) وفي مكتبة (لندن) اليوم كتاب مخطوط اسمه : (حرب بني شيبان مع كسرى أنوشروان في شأن الحرقة بنت النعمان) والحرقة لقب هند نفسها .

طالت المحاضرة أيها السادة ويحق لكم أن تملّوا فأسكت . لولا تمّان مهمتان أرجو أن تتكرموا بالاصغاء اليهما وهما (شعر عدي) و (ترتيب هند) .

* * *

(شعر عدي)

يعدّ (عديّ) من فحول شعراء الجاهلية ، وقد ذكره علماء الأدب والمصنّفون فيه وأثنوا عليه . وقالوا : ان غرر قصائده أربع منها القصيدة التي مطلعها : (أيها الشامتُ المعيّرُ بالدهر) وقد مرّت . لكن بعض النقاد من علماء اللغة وحماة العربية لا يرى شعر عديّ مما يصحّ الاستشهاد به في إثبات كلمات اللغة وعُربية ألفاظها . والسبب في ذلك أن عدياً قضى معظم حياته في (المدائن) عاصمة كسرى وبين سكانها الأعاجم . فلا غروَ إذا لان شعره . وانحطّ عن جزالة شعر فحول الجاهلية . ولا سيما أنه تسرّب اليه ألفاظ كثيرة من اللغة الفارسية . من ذلك قوله يصف أرَقَه في ليلة تكاثف غيْمُها ، وتتابع بَرْقُها :

(أرِقتُ لمكفهرّ (١) بات فيه ... بوارقُ (٢) يعتلين رؤوسَ شيبِ (٣))
(تخالُ المشرفية (٤) في ذُراه (٥) ... ويجلو صفحَ دَخْدارٍ قشيبِ)

و (الدَخدار) كلمة فارسية مركبة ومعناها الثوب المصوّن في الحت أي الصندوق . فأصل (دخدار) تخته‌دار فهو قد شبه طيات السحاب بالملوّن من طيات الثياب .

ومن شواهد اللين في شعر عديّ قوله :

(١) سحاب اسود .
(٢) بروق .
(٣) أي سحب مبيضة من نور القمر .
(٤) السيوف .
(٥) أعاليه .

(وأطف حديث السوء بالصمت إنه متى توري ناراً للعتاب تأجّجا)

وضمير تأجّجا يرجع الى العتاب . أي ان العتاب يعود فينقلب ناراً ملتهبةً . فالسكوت أولى وأنجح . وهذه الحكمة من قول عدي انما تصدر عن رجل عريق في الحضارة وآدابها وتربيتها . ومعنى قوله هذا قولهم : (أسكتُ فسكيت) .

* * *

(زهب هند)

كان من أمر هند بنت النعمان بعد أن قُتل زوجها ثم أبوها أنها بنَتْ لنفسها ديراً في ضواحي مدينة (الحيرة) وترهّبتْ فيه ، وانقطعت عن مخالطة الناس . وعاشت بعد الاسلام زمناً طويلاً .

ولما ولّي معاويةُ المغيرةَ بن شعبة الكوفة سنة عشرين للهجرة مرّ شعة بدير هند واستأذن عليها . وكانت بلغتْ التسعين من العمر . فأذنت له وبسطتْ له مسحاً فجلسَ عليه . ثم قالت له :

— ما جاء بك .

— جئتُك خاطباً .

— لوْ علمتُ أن فيّ خصلةً من الخصالِ التي تُرغّب الرجالَ فيّ لأجبتُك . ولكنك أردتَ أن تقول في المواسم : ملكتُ ملكةَ النعمان وتزوّجتُ ابنته . فبحقّ الرب أهذا أردتَ ؟

— إي والله ؟

— لا سبيلَ الى ذلك ؟

— ثم ودّعها وانصرف وهو ينشد :

(أدركتِ ما تمنّيتْ نفسي خالياً لله درُّك يا ابنـــةَ النُعمان)
(فلقد رددْتِ على المغيرةِ ذهنه إن الملوكَ نقيّةُ الاذهان)

ولما فتحَ خالدُ بن الوليد مدينة الحيرة سنة اثني عشر للهجرة زارَ هنداً ثم قال لها :

— سليني حاجتك .

— هؤلاء النصارى الذين في أيديكم تحفظونهم .

— هذا فرضٌ علينا : أمرَنا به ديننا لا حاجة للوصية به . ولكن اطلبي ما شئتِ من مالٍ وكسوةٍ .

— لا حاجة لي بذلك : فان لديّ عبيداً يحرثون أرضاً لي . وهي تُغلُّ من القوت ما يكفيني ويكفيهم . ثم أنشدتْ :

(بيانفسوسُ الناسَ والأمرُ أمرُنا إذا نحن فيهم سوقةٌ تتنصّف)
(فتبّاً لدنيا لا يدوم نعيمها تقلّبُ تاراتٍ بنا وتصرّف)

ولما خرج خالدُ من عندها ، إذا أهلُ ميلتها يبادرون اليها من كل جانب . وجعلوا يسألونها عما أراده بطلُ الاسلام من زيارته لها ، فقالت :

(صان لي ذمّتي وأكرم وجهي إنما يكرمُ الكريمَ الكريمُ)

هواء المدن*

لا يغرب عن معارفكم سادتي ان علم الصحة أس من الأسس الراسخة المتينة التي يشيد عليها هذا البناء البشري وأنه اذا انحصر في فرد أو أفراد لا يكون مفيداً نافعاً فلو رعى أحد أفراد أسرة مؤلفة من أربعة أشخاص مثلاً علم الصحة رعاية دقيقة وحفظ دقائقه حفظاً لا تشوبه شائبة ولم يحفظ الثلاثة الباقون منه الا اسمه لما حصلت الغاية المرادة من هذا الفن ولما كسب ذلك المحافظ من حفاظه ما كان يؤمل الحصول عليه لأن ما يصلحه في نفسه ومحيطه بسيره في سبل هذا الفن الأساسي يفسده الثلاثة الآخرون بأعمالهم كيف لا وهم يسكنون معه مسكناً واحداً ويتغذون بطعام واحد ويشربون ماء واحداً . ولا تختلف حالة الأسرة هذه عن حالة كل مجتمع انساني ولا سيما عن المدن حيث الازدحام كبير ، فان علم الصحة لا يكون مفيداً اذا رعاه بعض السكان وأهمله بعضهم أو اذا سار بموجبه الشعب جميعه ولم تتقيد به الحكومة فان من القواعد الصحية ما هو علم يترتب على الحكومة وضع قوانينه ومراعاتها . فكيف يؤمل لمدينة من المدن هواء جيداً اذا لم تكن طرقها العامة مخططةً كما تقتضيه قواعد علم الصحة ولم تكن عريضةً متسعة يتجدد الهواء فيها وترسل اليها الشمس أشعتها الذهبية متلفةً ما يعلق بها من الجراثيم العديدة او اذا لم تكن منازلها

(*) محاضرة القاها الأستاذ الطبيب مرشد خاطر في ردهة المجمع العلمي بتاريخ ١ شباط سنة ١٩٢٣ .

مبنيةً على الطراز الحديث مرعية فيها شروط مهب الارياح وشروق الشمس وغروبها وسعة النوافذ ووجهتها بل كيف نرجو لمدينة هواءً جيداً اذا لم تكن مياهها شروبة خالية من المواد المضرة بالصحة العامة وعارية من الجراثيم المرضية أو اذا لم تكن غزيرة كافية للحاجات العامة ، بل كيف نرجو لمدينة حظاً من سلامة الصحة العامة فيها اذا لم تكن المفرزات التي تفرزها أجساد سكان تلك المدينة من بشر وحيوان مسوقة في قنوات محكمة لا تنبعث منها الروائح النتنة ولا تتدفق منها على سطح الأرض الأقذار الكريهة الرائحة ولا تتسرب من جدرانها في مجاري الماء الشروب السائرة معها جنباً الى جنب أو في الآبار الواقعة في نقطة منخفضة من الأرض اختمرات قتالة تلوث المياه وتميت الألوف ، بل اذا لم تنقل بقايا المواد الغذائية التي تملأ الطرق العامة نقلاً سريعاً وحسناً بدون أن يتلوث بها المارون . ولهذا نشطت اليوم المدن وهبت للسير في مضمار علم الصحة ففاخرت كل عاصمة ومدينة سواها بجمالها وجمعها لشتات القواعد الصحية الحديثة فلم تعد تتوق النفس الى المدن القديمة الضيقة الطرق التي تطوقها الأسوار والخنادق من كل جهاتها ، الى تلك المدن التي كانت تظلم شوارعها بعد غروب الشمس فلا نور يضيئها ليلاً ، الى تلك المدن التي لم تكن ترصف أسواقها وجاداتها رصفاً يمنع ذرات الغبار عن الاختلاط بالهواء المستنشق بل كانت حفراً ومجاري تسيل فيها مياه الشتاء والمياه القذرة ممتزجة ، بل تتوق النفس في أيامنا الحاضرة الى المدن الحديثة البناء الرائعة الهندسة المتسعة الشوارع المرصوفة الجواد ، ولم يكن ذلك الانقلاب الغريب في الأفكار والتطور السريع في الهندسة الا نتيجة اكتشاف صغير قام به أحد العلماء الفرنسيين الذي مر على ولادته قرن كامل أريد بذلك الاكتشاف الجرثوم الذي لا يرى وبذلك العلامة باستور قلت ان الاكتشاف صغير وهو صغير كبير : صغير لأن العين المجردة لا تراه ولأنه لا يدرك الا بعد

تكبيره بضع مئات من المرات وكبير لأنه نفخ في العالم روحاً جديدة فسارت تلك الروح من تحت مجهر ذلك العلامة تدب في جميع أطراف البسيطة ملقية في النفوس المضطربة سلاماً وفي القلوب الهالعة من الأمراض اطمئناناً وسكوناً، كبير لأنه دك على الرغم من صغره كل ما قامت به العقول المفكرة والأيدي العاملة ومد سيطرته الى الأرض جميعها . فالى ذلك العلامة الكبير نوجه من هذا المنبر كلة الاجلال والتكريم .

ان علم الصحة في المدن لغز من الألغاز المغلقة التي لا يحلها الا من كان عالماً بها متضلعاً منها ولهذا وجب ألاّ يتولى الشؤون الصحية في المدن الا من كان اختصاصياً بها فلا البلديات ولا المهندسون ولا الحكومة تحسن عملاً ان لم تسترشد بارشاد رئيس صحة اختصاصي يدير دفة العمل ويسير بالاصلاحات طبقاً للقواعد الصحية الحديثة .

فيفهم مما تقدم أن علم الصحة ان لم تشترك به الجماعة قبل الأفراد والحكومة قبل الجماعة لا يأتي بثمار لذيذة وفوائد تذكر ولهذا أردت أن أبين لكم في هذه المحاضرة شرطاً واحداً من الشروط الأربعة التي تحسن بها الصحة العامة في المدن وهو جودة الهواء وما يؤثر فيه من المؤثرات فيفسده أو يصلحه تاركاً الشروط الثلاثة وهي الطرق العامة والقنوات والماء الشروب الى محاضرات أخرى فأقول :

سبعة مؤثرات تؤثر في هواء المدن فتصلحه اذا صلحت وتفسده اذا فسدت وهي :

١ً – الموقع الجغرافي وينطوي تحته أربعة أمور : الارتفاع عن سطح البحر وتركيب الأرض الجيولوجي ومسيل المياه ومهب الرياح .

٢ً – غرس الأشجار ووجود الساحات الفسيحة .

٣ً – تلوث الهواء بغبار الطرق العامة الناقل للجراثيم المرضية .

٤ً – تلوثه بالروائح الكريهة والدخان وما ينبعث من المصانع والمعامل من غبار المعادن وسواها .

٥ً – ضرر المدافن فيه .

٦ً – فساده بنقل المواد البرازية .

٧ً – تأثير حالة الطرق العامة فيه وينطوي تحته ميل الطرق وهيئتها وأرصفتها ومجاريها ووجهتها وتعرضها للشمس وهندسة بيوتها .

وسأقتصر في هذه المحاضرة على درس المؤثرات الثلاثة الأولى تاركاً المؤثرات الأربعة الباقية لأن كلاً منها يستغرق محاضرة خاصة .

(١ً) الموقع الجغرافي : لا أجد بدأ قبل البدء بالكلام عن الموقع الجغرافي وتأثيره في جودة الهواء وفساده من أن أنفي اعتقاداً كان ولم يزل شائعاً اعتقاداً تقلص ظله من البلاد الأوربية بعد أن ارتقت مدنها رقياً صحياً كبيراً ولا يزال شائعاً عندنا لأننا لم نسعَ حتى الآن الى تحسين الحالة الصحية في مدننا تحسيناً يحملنا على دحض ذلك الاعتقاد . شاع منذ زمن طويل أيها السادة ولعله لا يزال شائعاً حتى الآن بين السواد الأعظم منا هذا الاعتقاد الذي مؤداه : ان هواء المدن أقل ملاءمة للصحة من هواء القرى لست أنكر ذلك والاحصاآت القديمة كانت تثبته في القرون الماضية الا انني اليوم بعد بلوغ علم الصحة الى درجة عالية من الرقي وتوفر الشروط الصحية في المدن وفقدان هذه الشروط في القرى أتمكن من إثبات العكس . أقول هذا عن المدن الأوربية والأميركية لا عن مدننا السورية وأقر وأعترف أن الهواء في مدننا لم يبلغ حتى الآن درجةً من الجودة تعادل جودة هواء القرى المشيدة في البر . أما في أوربا وأميركا فقد اختلفت الاحصاآت كثيراً اذ دلت احصاآت (لانيو) عن البلاد الفرنسية في السنة ١٨٨٠ ان الوفيات كانت معادلةً في المدن لمائتين وأربع وأربعين وفاة في كل عشرة آلاف نسمة وانها في القرى لم تبلغ الا مائتين وثماني وفاة وهذا يثبت الاعتقاد القديم الا انها في السنة ١٩١٢ اختلفت اختلافاً بيناً فان الوفيات في المدن هبطت الى مائة واحدى وتسعين وفاة وفي القرى الى مائة وسبع وتسعين وهذا ينفي الاعتقاد القديم

ويثبت ما نحن بصدده . وقد وضعت الحكومات قانوناً تحدد به عدد الوفيات حتى اذا اجتيز هذا الحد سعت الحكومة الى تحسين الحالة الصحية وانقاص ذلك العدد الى حده المعين وأما الحد الذي عينته فهو مائة وثلاث وتسعون وفاة في كل عشرة آلاف نسمة فهل تسعى الى مراعاة هـذا القانون في بلادنا ؟ سؤال أدع الجوب عنه لكم .

أما وقد نفيت ذلك الاعتقاد نفياً مبنياً على الاحصاآت فانني أعود الى الكلام عن الموقع الجغرافي : تقسم المدن ستة أقسام كما قسمها الدكتور فونساغريف (Fonssagrifes) المدن المشيدة في السهل ، والمدن المبنية في الأودية ، والمدن البحرية ، والمدن النهرية ، والمدن القائمة على البحيرات ، والمدن الرزغية . (أي التي تكثر في أرضها المستنقعات) .

أما مدن السهل التي تقام في أرض مستوية قليلة الارتفاع عن سطح البحر وكثيرة البعد عن مجاري المياه الغزيرة فان الشروط الصحية تتوفر فيها اذا لم تركد المياه في أرضها فتحولها الى مستنقعات شديدة الضرر .

وأما مدن الأودية فلا ينالها من أشعة الشمس المنعشة الا نذراً قليلاً لما يكتنفها من الجبال فكلما كان الوادي ضيقاً وعميقاً نقصت الشروط الصحية في هذه المدن .

وأما المدن البحرية التي تقوم على شاطئ بحر تختلف فيه حركتا المد والجزر اختلافاً بيناً كبيراً فان درجتها الصحية أحط من المدن التي تبنى على شاطئ بحر حركتا مده وجزره خفيفتان لا يكاد يشعر بهما وذلك لان حركة الأمواج حين المد تقذف بعيداً الى الشاطئ المواد العضوية الكثيرة فتتفسخ وتختمر وتفسد الهواء وعدا ذلك فان ما تصبه المجاري والقنوات من المواد القذرة والمياه الملوثة في البحر أي كل ما يطرحه الانسان والحيوان يعود بتأثير المد الى حيث أتى فينتشر على الشاطئ بعد أن كان منحصراً في القنوات ويفسد الهواء ويضر ضرراً جسيماً .

وأما المدن النهرية فان مقامها الصحي بين المدن رفيع للغاية لأن جريان

النهر يحرك الهواء تحريكاً دائماً فيجدده وينقل ما فسد منه مستعيضاً عنه بأصلح فان النهر بجريان مائه الدائم يشبه موقداً تضرم فيه النيران متصلاً ببخيري عال فكما ان الموقد يجدد الهواء في الغرفة آتياً بالجيد منه الى الداخل ودافعاً ما فسد وسخن منه الى الخارج فان لجريان ماء النهر التأثير نفسه . وعدا هذا فان المياه التي تحتاج المدن الكبرى الى كميات وافرة منها لقضاء الحاجات العامة لا تكاد تتوفر لها اذا لم تخترق أنهر طبيعية هـذه المدن ولهذا كانت الشروط الصحية متوفرة في المدن النهرية لغزارة المياه فيها على أن لا تتلوث هذه المياه بما ينصب فيها من المجاري والمراحيض فيتناول ضررها عدا المدينة نفسها جميع القرى الواقعة تحتها .

وأما مدن البحيرات فهي ذات هواء رطب للغاية سواء أقامت على شاطئ البحيرة أو شيدت على أعمدة مرتكزة في قعرها الا أن هذه الرطوبة قد يخف ضررها بتأثير الأرياح التي تهب عاصفة في تلك المدن فتخفف من رطابة هوائها أو بتأثير الحرارة العالية نفسها .

وأما المدن القائمة في أراض يكثر فيها السباخ أي الواقعة على مصب الأنهر فهي أشد المدن انحطاطاً من الوجهة الصحية فان البرداء (أي الملاريا) تفتك بالعدد الوافر من سكانها .

فيستنتج مما تقدم ان دمشق وهي مدينة تخترقها الأنهر الغزيرة ذات موقع جغرافي حسن فهي قائمة في سهل تكتنفه الجبال البعيدة فالى الشمال جبل قاسيون الممتد من الربوة حتى ثنية العقاب حيث بدء جبل القلمون وفي سفحه حي الصالحية والمهاجرين والى الشمال الشرقي جبل القلمون (يوناني معناه القصب) وهو يبعد عن المدينة خمسة الى ستة كيلومترات والى الغرب الجنوبي جبل الشيخ وهو يبعد ثلاثين كيلومتراً عن دمشق وبه تمر الرياح الغربية الجنوبية الباردة في فصل الشتاء . وأمام جبل الشيخ تقوم جبال الربوة والمزة وتبعد عن دمشق زهاء ثلاثة كيلومترات والى الجنوب جبال حوران الممتدة حتى البادية وتبعد عن دمشق ثلاثين كيلومتراً ، والى الشرق

البادية المطلقة ومنها تهب الرياح الحارة في فصل الصيف والى الشرق الجنوبي تمتدّ الغوطة حتى بحيرة الهيجانة التي يصب فيها نهر بردى تلك البقعة التي يكثر فيها البساتين والمستنقعات .

فموقع دمشق الجغرافي متوفرة فيه الشروط الصحية لأن الجبال التي تكتنف المدينة بعيدة عنها لا تمنع الشمس عن ارسال أشعتها القاتلة للجراثيم ولا تقف الأرياح العاصفة عن الوصول الى المدينة فتجدد حتى في أضيق أزقتها الهواء تجديداً دائماً . وانما وجود الغوطة في الجهة الشرقية من المدينة يجعل البعوض يتكاثر والبرداء وحمى الأيام الثلاثة تنفشيان تفشياً شديداً وليس الذنب في ذلك على الطبيعة وحدها بل معظم الذنب علينا فلو اهتمت الحكومة بتجفيف تلك المستنقعات مهما كلفها الأمر من المال لحسنت الحالة الصحية وهو مشروع تفوق فائدته أكبر المشاريع وأعظمها .

(أ) الارتفاع عن سطح البحر : أمرّ الآن الى الفرع الأول من الفروع الأربعة التي تنطوي تحت الموقع الجغرافي وهو الارتفاع عن سطح البحر . ان الارتفاع يؤثر شديداً في هواء المدن فيصلحه أو يفسده ولعله أقوى المؤثرات وأهمّها حتى ان بعض علماء الصحة يرى فرقاً بيناً بين حي وآخر من أحياء مدينة واحدة لا يجاوز فرق ارتفاعها عشرين متراً أو أربعين والبرهان على ذلك جليّ واضح في دمشق فان حي الصالحية والمهاجرين القائم في سفح جبل قاسيون أجود هواءً من سائر أحياء دمشق لأنه أكثر ارتفاعاً منها .

ولا يظهر هذا الفرق واضحاً الا في المدن التي لا يقل ارتفاعها عن أربعمائة متر أو في المدن التي لا يزيد ارتفاعها عن الخمسين وأما في المدن التي يتبدل ارتفاعها من الخمسين الى الأربعمائة فان بضع عشرات من الأمتار لا تكفي لجعل فرق واضح بين حي وآخر من أحيائها وان دمشق التي يعادل ارتفاعها في أرجائها المتوسطة ستمائة وخمسين متراً يظهر هذا الفرق

فيها بين حي الصالحية والأحياء الأخرى لأنها تفوق حد الارتفاع الذي عينته وهو اربعمائة متر وهكذا يقال في بيروت وطبريا من مدن لبنان وفلسطين فان بيروت التي تعلو عن سطح البحر في أرجائها الواقعة على الشاطئ بضعة أمتار لا غير ترينا ما أرتنا دمشق من تبدل الهواء في أحيائها فان حي الأشرفية الذي يقع على ارتفاع خمسين متراً ونيفاً يختلف هواؤه اختلافاً محسوساً عن سائر الأحياء كرأس بيروت وسواه وما ذلك إلا لأن المدينة واقعة تحت الحد الأدنى للارتفاع الذي عينته وما يقال في بيروت يقال في طبرية التي تنخفض عن سطح البحر المتوسط ٢٣٦ متراً فان بين الطبقة والأخرى من بيوتها يختلف الهواء اختلافاً واضحاً .

وان للارتفاع حداً اذا جاوزه أضرّ بالصحة ضرراً بليناً لأن الضغط الهوائي ينقص كلما علت المدينة ، وكلما خف الضغط الهوائي نقصت كمية الاكسجين في الهواء فينشأ من ذلك النقص تبدل محسوس في الصحة كما أثبتت التجربات العديدة التي أجراها كثير من الأطباء في أماكن مختلفة الارتفاع . غير انه لا مدينة من مدننا السورية تبلغ حدّ الارتفاع المضر لأنه يقع بعد الف وخمسمائة متر . وهذا لا نجده الا في بعض قمم جبالنا . وخير المدن هواءً ما تراوح ارتفاعها عن سطح البحر بين سبعمائة والف متر .

(ب) وأما من الوجهة الجيولوجية أو تركيب طبقات الأرض فتقسم المدن الى صخرية ورملية وصلصالية ولحقية وهي أرض مركبة جيولوجياً من مواد كانت عالقة بالماء فرسبت بعد نضوب الماء منها وقد أضيف الى هذه الأقسام الأربعة في أيامنا هذه قسم خامس وهو المدن التي تقام على أرض اصطناعية .

فالمدن الصخرية أجود هواءً من سائر المدن الأخرى من الوجهة الجيولوجية هذا اذا لم تأت أسباب أخرى فتفسد هواءها وان ما يجعل المدن الصخرية في مقدمة المدن جودةً صلد أرضها أي عدم نفوذها وسيلان

المواد العفنة والمياه القذرة عليها دون أن تمتصها الأرض فتبقى كامنة فيها وتنشر الأوبئة والأمراض متى تيسرت لها الشروط الملائمة .

وأما المدن الرملية فلا تعد ملائمة للصحة الا متى كانت الطبقة الواقعة تحت الرمل غير صلداء لأنها اذا كانت صلصالية اجتمع الماء فيها ورطب الأرض وكانت تلك الطبقة كخزانات للمواد العفنة تجتمع فيها فتلوث طبقة الأرض السطحية وتفسد الهواء .

وأما المدن الطفية فانها مدن يكثر فيها السباخ وتتوفر فيها الشروط الملائمة لنمو البعوض وتكاثره ولهذا كانت البرداء (الملاريا) من الأمراض التي تتفشى في هذه المدن فتفسد هواءها .

(ج) وان لموقع المدينة بالنسبة الى انصباب المياه فيها شأناً كبيراً من الوجهة الصحية فاذا كانت المدينة في قعر واد تحيط به الجبال وتنصب فيه المياه المتدفقة منها مخترقة تلك المدينة فان أرضها تكون رطبة ومضرة وتعد المدينة غير صالحة للسكنى اذا كانت طبقة أرضها الصلدة واقعةً على عمق قليل أياً كان موقعها لأن المياه بعد اختراقها لطبقة الأرض القابلة للنفوذ تجتمع في تلك الطبقة السطحية وتعلو بسهولة الى سطح الأرض فتنوص جذوع النباتات والأشجار دائماً في بحيرة مائية ولا تخصب تلك الأرض قط هذا فضلاً عن ضررها الشديد بالصحة . وأما اذا كانت الطبقة الصلداء عميقة فان المياه تبتعد عن سطح الأرض فيجف الهواء وتخصب الأرض ولهذا قال الدكتور فونساغريف إن عمق الآبار في المدينة دليل على جودة هوائها فكلما كانت الآبار عميقة أخصبت الأرض وجف الهواء وكلما كانت آبارها سطحية قل خصب الأرض ورطب الهواء .

ان دمشق متوفرة فيها من الوجهة الجيولوجية ومسيل المياه الشروط الملائمة للصحة لأن آبارها عميقة لا يتفجر الماء منها قبل حفر عشرات من الأمتار وهذا ما يجعل أرضها خصبةً وهواءها جافاً لأن طبقة أرضها الصلصالية عميقة .

(د) أما الأرياح التي تنقل الرطوبة أو الجفاف فان لها الشأن الكبير من الوجهة الصحية لأن لها حسنات وسيئات فمن حسناتها تجديد الهواء واستبدال ما أشبع منه بذرات الفحم وحامض الفحم وسائر المواد الأخرى المضرة ، بهواء آخر آت من البحر والجبل وصالح للتنفس وتنقية الدم ، وهذه التهوية الطبيعية لا بد منها في مدن يكثر عدد سكانها وتتراصف بيوتها وتقام فيها الأبنية الشاهقة المتعددة الطبقات . ومن سيئاتها أنها متى كانت خفيفة حملت الغبار الملقى على الأرض فتطاير في الفضاء ناقلاً معه الجراثيم المرضية ولهذا كانت الأرياح الهادئة شديدة الضرر تنتشر حين هبوبها الأوبئة في المدن انتشاراً سريعاً فملافاةً لهذا المحذور واتقاءً لهذا الضرر الجسيم يجب علينا أن نجعل الغبار ملتصقاً بالأرض فنكثر من رش الأسواق والمنعطفات ولا ندع للأرياح تأثيراً فيه .

فاذا عصفت الأرياح شديدةً في دمشق فأزعجتنا وأضرت ببعض الأبنية واقتلعت بعض الأشجار وحالت دون التجول فانها رسول أمين يجب أن نكون له من الشاكرين كيف لا وهي التي تجدد الهواء حتى في أضيق المنعطفات ، في تلك الأزقة التي تقوم البيوت من جانبيها فلا يفصل نافذة البيت الواحد عن نافذة الآخر الا متران أو أقل فهي التي تأتينا بالهواء النقي من قمم الجبال الشامخة حيث لا جراثيم ولا غبار ولا مواد مضرة .

(٣) غرس الأشجار ووجود الساحات الكبيرة : ان هذا المؤثر الثاني في جودة الهواء كثيراً ما نمر به في يومنا ولا نتأمل ثانيةً واحدةً بما له من الفضل علينا .

إن الأشجار التي تغرس أيها السادة ، في الشوارع الكبرى والأسواق العريضة والساحات الفسيحة المطلقة التي لا بناء فيها تؤثر تأثيراً شديداً في حالة الهواء فانها من العوامل التي تبدل تركيب الهواء وتجعله صالحاً للتنفس ومن العناصر التي تصلح حالة الأرض وتجففها فان أوراق الاشجار تمتص من الهواء حامض الفحم وتحوله الى فحم فتغتذي به والى اكسجين لا تحتاج

اليه فتبعثه بالهواء رحمةً بالانسان والحيوان وان معظم الاكسجين تلقيه الأشجار بهيئة اوزون وهو من الغازات التي عرفت اليوم قيمتها الكبيرة .

وفضلاً عن ذلك فان الأشجار تمتص قسماً كبيراً من رطوبة الهواء. وقد خمن الدكتور ايفار (Ivert) ما تمتصه شجرة واحدة كبيرة مورقة بمائة ليتر ماء كل يوم فكما أنها تمتص من الهواء البخار المائي فتجففه فانها تمتص من رطوبة الارض القسم الأكبر من الماء الذي تحتاج اليه في يومها بجذورها المرسلة بعيداً الى أعماق الأرض . وقد قدر مرصد مون سوري (Mont Souris) ان الشجرة تمتص من رطوبة الأرض خمسة أضعاف ما تمتص من الهواء بتأثير حرارة الشمس فكم هي عظيمة كمية الماء الذي تمتصه أشجار أحد الشوارع من أرض البيوت المشيدة على أطرافها ؟ .

لا تحصر فائدة الأشجار بامتصاص رطوبة الهواء والأرض ولكن الظل الذي تنشره على الأرض يأتي بفوائد جليلة مدة الصيف ولا سيما في البلاد الحارة فانه بقي الكثيرين من الرعن أي ضربة الشمس ، فنفعُ الأشجار اذاً كبير من وجوه عديدة ولهذا يشير علماء الصحة بغرس الأشجار في جانبي الشوارع العريضة ويراعون في غرسها هندسةً خاصةً كي لا تضر في البيوت المجاورة لها فتمنع عنها الهواء والنور . ان لهذه القضية شأنها فقد كانت موضع درس دقيق في المؤتمر الصحي الألماني الذي عقد في درسد (Dresde) سنة ١٨٨٣ وفي المجمع الصحي الدولي الذي عقد في بروكسل عاصمة بلجيكا سنة ١٩٠٣ .

فاذا كان للأشجار التي تغرس على جانبي الشوارع والأسواق هذه الفائدة الكبرى على الرغم من قلة عددها فما عساها ان تكون فائدة الحدائق العامة الفسيحة . ان هذه الحدائق ، هذه الأماكن المتسعة حيث الهواء حرٌّ طليق وأشعة الشمس حارة ترطبها نفحات النسيم البليل المتلاعب بأغصان الأشجار . حيث يجلس الانسان لترويح النفس تظلله الأشجار

المورقة المزهرة حيث تتنفس الرئتان تنفساً عميقاً يدفع الانسان منها الهواء المشبع بحامض الكربون ويستبدله بهواء نقي ، حيث يلعب الأولاد ويركضون على ذلك البساط الأخضر النضير ، هبةٌ ثمينةٌ لا ندرك قيمتها تؤثر في صحة الأبدان فتحسنها ، وتروّض الأفكار فتجلوها فتأثيرها اذاً جسدي ونفسي في آن واحد .

ان هذه الأماكن تخفف بعض الازدحام الذي نراه في قلب المدينة ذلك الازدحام الشديد الضرر الذي كلما ارتقى علم الصحة ظهر ضرره وسُعيَ الى اجتنابه ولهذا أكثرت العواصم الكبرى والمدن التي تسوسها حكومة راقية من هذه الحدائق المتسعة غير ناظرة الى المخازن والمساكن والأسواق التي تهدمها ولا مبالية بما لها من الأثمان الباهظة ولا ملبية عاطفة محبة المال والثروة ولكنها تجيب ما تتطلبه الصحة العامة فتنشئ هذه الحدائق التي لا تكسبها بارة واحدة في السنة ولكنها بعكس ذلك تضطرها الى نفقات طائلة للمحافظة على نضارتها وجمالها .

فان في باريس ستاً وأربعين حديقة مساحتها ستة وعشرون الفاً وثلاثمائة متر مربع وفي لوندرة أربعين حديقة مساحتها اكثر من مساحة حدائق باريس بالف متر مربع وفي برلين عشرين حديقة تعادل مساحتها خمسة وخمسين الفاً وأربعمائة متر مربع أي ضعفي مساحة حدائق باريس هذا عدا أحراج سباندو (Spandau) وغرانوالد (Grunwald) التي تعادل مساحتها نصف مليون متر مربع .

الا اننا في دمشق (١) لا نجد سوى حديقة واحدة لا تزيد مساحتها عن خمسمائة متر مربع وشارع واحد مشجر لو لم يشق في زمن لم يكن للشعب فيه حق الاعتراض لما كان لدمشق مع غزارة مياهها وخصب أرضها

(١) القيت هذه المحاضرة قبل فتح الأحياء الجديدة الجميلة وشق الشوارع العريضة وانشاء الحدائق العديدة المتسعة .

متنفس يتنفس فيه سكانها الهواء النقي . ان شارع النصر قد حسّن حالة الدمشقيين تحسيناً لا يكتسب بالأدوية والغذاء وغيرها فياحبذا لو كان في هذه المدينة منه عشرات غير ان ما يعيض بعض الاعاضة عن هذه الحدائق والشوارع هو الجنائن البديعة التي تطوق دمشق والحدائق الواقعة في بعض أحيائها ولولاها لكانت دمشق لا تصلح للسكن .

أما الساحات الكبيرة الحرة فلا أثر لها عندنا ويا للأسف واذا تكلمت عنها فاني ألمس مسألة أخرى جليلة الفائدة في المدن وهي هندسة الشوارع هندسة حديثة الا اني لا أريد التعرض لهذا البحث في محاضرتي لأن هذا الموضوع يتطلب محاضرات وانما أقول كلمة عنه لأبين لكم عظم اهتمام البلاد الراقية لهذا الأمر وعظم اهمالنا له . ان بوكيا (Beauquia) أحد أعضاء المجلس النيابي الفرنسي اقترح سنة ١٩٠٩ أن يرسم لكل مدينة يزيد عدد سكانها عن عشرة آلاف نسمة مصور تبين فيه مساحة المدينة وحدائقها العامة واتساعها وعرض طرقها واستقامة تلك الطرق وطرز بناء بيوتها وبكلمة واحدة كل ما يتعلق بتلك المدينة وما يجمع بين جمالها الظاهر وحالتها الصحية وان يطبق هذ المخطط تطبيقاً دقيقاً لا يقبل الاعتراض ولا تراعى فيه مصالح الأفراد فهل افتكر أولياء الأمور عندنا بوضع مخطط مختصر تحسن به حالة بعض الأحياء التي لا تسكن في دمشق ولنفرض ان مرّ ذلك الفكر في مخيلتهم فهل برز منه شيء الى حيز العمل ! .

لست أجهل أيها السادة ان وضع مخطط كهذا يضطرنا الى هدم مدينتنا جميعها غير ان من الأمور ما هو مهم وأهم فاذا كان اتباع خطة واحدة في الأسواق وطراز واحد في البناء وعلو واحد في المساكن يُكسب المدينة رونقاً وبهاءً وهواءها جودة فان تخطيط بعض الأسواق العريضة التي تكتنف الأشجار جانبيها وغرس بعض الحدائق العامة الفسيحة في قلب المدينة وايجاد بعض الساحات الحرة المتسعة وكشف الأسواق الضيقة التي لم تدخلها أشعة الشمس منذ بنيت وعدم السماح بتغطية ما هو مكشوف

منها لمن الأمور الكبيرة الشأن التي لا غنى عنها . واني أعجب ولعلكم تعجبون معي كيف ان ما أصلحته الطبيعة فكان لهذه المدينة مصدراً للصحة نفسده نحن بأيدينا كيف أن يد الطبيعة أسقطت سقف السوق الحميدية رحمة بمن فيها من التجار ومن يمر بها من البشر في كل يوم وكيف ان الحكومة سمحت باعادة هذا الغطاء وحرمان تلك المخازن من أشعة الشمس المنعشة . أمر لم أجد له مسوغاً في قوانين البلاد الراقية .

(٣) أجوز الآن الى المؤثر الثالث وهو الغبار وتأثيره في هواء المدن : ان الغبار المنتشر في الهواء ينقل معه كثيراً من الجراثيم المرضية متى عصفت الريح فتدخل تلك الجراثيم البيوت بطرق متعددة بأحذيتنا وأثوابنا وبشرة أجسادنا والحيوانات الداجنة وكل ما في الأسواق من البضائع والمواد الغذائية وتدخل الجراثيم أيضاً البيوت مع الهواء من النوافذ ولهذا كانت البيوت المشيدة على جانبي الطرق التي يكثر فيها الغبار والتي تطرقها السيارات كثيراً معرضة أكثر من سواها لهذه الجراثيم وكان أهلها أكثر تعرضاً للأوبئة والأمراض . وان ما يزيد في الطين بلّة هو ان سكان البيوت يغلقون النوافذ ويحكمون سدّها حذراً من دخول الغبار منها فيفسد الهواء في مساكنهم ولا يعود صالحاً للتنفس فيتعبون وهم يطلبون التخلص من شرّ كبير في شرّ أكبر . ولا يؤثر الغبار في الانسان والحيوان فقط بل في النباتات أيضاً لأنها تتنفس ككليهما فان الأشجار متى كسا أوراقها الغبار تذوي وتموت واذا لم تمت تضعف خاصة التنفس فيها فتفقد وظيفتها الأساسية وهي تجديد الأكسجين وتنقية الهواء الذي يتنفسه الانسان .

ليس الغبار سوى ذرات الأوحال الجافة التي لا يخلو منها مكان من أمكنة دمشق فاذا عاينا تلك الذرات وجدنا فيها أشياء كثيرة رأينا المواد العضوية والجير والبوتاس والصوان والخزف والمواد المعدنية والحامض الفوسفوري والحامض الفحمي وغيرها ووجدنا معها وهذا ما يهمنا أمره عدداً لا يحصى من الجراثيم المختلفة الأنواع . فقد تبين من تحري الدكتور

ايتكن (Aitken) ان كل سانتيمتر مكعب من الهواء يحتوي في باريس على مائتين وعشرة آلاف ذرة غبار وانه في لوندرة لا يحتوي الا على مائة وخمسين الفاً لاغير . أما الجرائيم فيه فتبلغ مليونين وأربعمائة الف جرثومة فما عساها أن تكون حالة الهواء في دمشق والغبار في طرقاتها يحجب نور الشمس ويدخل الصدور بلا استئذان فاذا سارت عربة تركت وراءها ذيلاً من الغبار طويلاً أو نهبت سيارة الأرض التحفت بغطاء من الغبار يسترها وألبست المارين منه ثوباً لطيف النسج .

تدخل ذرات الغبار أجسادنا بطريقين : طريق التنفس وطريق الهضم . وقد ثبت في أكثر الأوقات ان انتقال السل يتم بالهواء أي بذرات الغبار التي تنقل معها عصية كوخ أو العامل السلي وقد ثبت أيضاً من المشاهدات السريرية ان تسعة وتسعين في المائة من المسلولين ينتقل السل اليهم بواسطة الهواء الذي ينقل هذه الذرات الى أفواههم فيبتلعونها أو الى رئاتهم فيستنشقونها . وبينت تجربات فلوغ (Phlugg) أيضاً أن عدوى السل بطريق التنفس لا تنشأ فقط من قشاعات المصدورين التي بعد ان تجف وتبددها الريح تنتقل مع الهواء فتدخل رئاتنا بل تنشأ أيضاً من النفثات الصغيرة التي يرشقها المسلول في الهواء أثناء السعال فتنقل العدوى الى بضعة أمتار .

ولا نظنن أن السل وحده ينتقل بالهواء فان كثيراً من الأمراض ينتقل به أيضاً فالحمى التيفية مثلاً تنتقل بالماء والبقول الملوثة كما يعلم جميعنا الا انها تنتقل بالهواء أيضاً وقد أثبتت هذه القضية تجربات برواردال وميكال ولافران وشانتماس وهي تنتقل أيضاً بالغاز المنبعث من المراحيض كما أثبت ذلك الدكتور تيكبورن (Tichborne) وبملامسة المريض وكل ما تلوث من أثوابه وفراشه .

أجل ان انتقال الحمى التيفية بغبار الهواء أمر قليل الوقوع لا يعادل انتقال السل به غير ان جرثوم الحمى التيفية شديد المناعة لا تؤثر به حرارة

الشمس تأثيرها بجرثوم السل الذي تتلفه ببضع ساعات ولهذا كان خطر انتقاله بالغبار ممكناً .

وكذلك الزحار أي الدوسنطاريا الذي أجمع الجميع على انتقاله بالماء تراه ينتقل بالهواء أيضاً ولا سيما في من يتعرضون للغازات المنبعثة من المراحيض أو يجاورون الأقذار والمواد البرازية التي تلقى في الأسواق من آن الى آخر منتظرة رحمة الشمس لكي تبخر ما فيها من المياه القذرة وتجففها فيُسعى عندئذ الى نقلها .

والسعال الديكي (أو الشهقة) هذا الوباء الشديد الانتشار الذي يسري باللمس ، قد ينتقل بذرات القشاعات التي يرشقها المريض أثناء نوب السعال وزد على ذلك ان المواد التي ينفثها المريض وهي التي تنسب اليها السراية تتطاير ذراتها بالهواء بعد أن تكون قد التصقت بالأثواب وجفت فتنقل العدوى .

وذات الرئة تنتقل أيضاً بالهواء وهي مرض ينشأ من جرثوم مرضي نوعي يكون في جهاز التنفس فينفث مع قشاعات المريض وينتقل بها بعد ان تلقى على الطرق العامة فتجف ويبددها الهواء . وان ما يساعد على انتشارها شدة مقاومة هذا الجرثوم فهو يبقى محافظاً على قوته الحيوية أياماً عديدة وربما شهرين كاملين متى كان في مأمن من نور الشمس وملامسة الهواء والاكسجين وهذه الشروط نراها متوفرة في شقوق البلاط وفي تلال التراب المكدسة على زوايا الطرق والأسواق .

أما النزلة الوافدة أي الحمى الاسبانية فلم يجمع الأطباء على انتقالها بالهواء فمنهم من صنف هذا الداء بين الأمراض التي تنتقل بالأرياح العاصفة والمجاري الهوائية الشديدة ومنهم من قال إن ذرات التراب الملوثة بعامل بفايفر اي عامل النزلة الوافدة لا تنتقل إلا الى بعد قليل فهي لا تمكن والحالة هذه من نقل المرض ومهما يكن فان عامل هذا الداء يلقى كسواه على الطرق العامة مع قشاعات المرضى وبصاقهم .

أما الجدري فان عامله ينتقل بالهواء أيضاً بالذرات الصغيرة الفاشئة من مفرزات البثور وفلوسها فانها تتطاير مع الهواء ناقلة المرض . وعامل الجدري شديد المقاومة يلتصق مدة طويلة بالأجسام والأشياء كجدران البيوت والالبسة والأثواب والأدوات فلا عجب اذا ما طالت مدة هذا الوباء متى دخل بلداً واذا ما انطفأ آونة وظهر أخرى دون سبب ظاهر وتتم عدواه غالباً بطريق التنفس .

وهكذا يقال عن الخناق أي الدفتيريا فانها تنتقل بالهواء .

وأخيراً الطاعون الرئوي هذا الوباء الهائل الذي يفتك متى انتشر بمئات الألوف والملايين فانه ينتقل بالهواء الى جهاز التنفس ويعتقد كثير من الأطباء ان الحمى الاسبانية التي استولت على اوربا سنة ١٩١٩ ولم يقل عدد ضحاياها عن خمسة ملايين لم تكن الا طاعوناً رئوياً حتى ان حكومة الولايات المتحدة حيث كان تفشي المرض شديداً أجبرت جميع ساكنيها على أن لا يظهروا في الأسواق الا وعلى أنوفهم وأفواههم خمار مبلل ببعض المواد المطهّرة وهكذا تمكنت من حصر المرض وتخفيف وطأته .

ولا تنتشر الجراثيم بالأرياح فقط بل تنتشر أيضاً بطرائق أخرى منها نفض الطنافس في الشرفات والنوافذ وندف القطن والصوف المحشوة بها لحف المرضى وفرشهم في المخازن المشرفة على الطرق العامة فعلى الحكومة منع مثل هذه الأشياء منعاً باتاً .

ولكن على الرغم من امتلاء الهواء بذرات الغبار الملوثة وعلى الرغم من استنشاقنا هذا الهواء ودخول الجراثيم لأعماق حويصلاتنا الرئوية نرى انتشار الأمراض قليلاً لا يناسب كثرة هذه الجراثيم وما ذلك الا لأنها تتلف بعد وصولها الى أعماق الرئة فان الطبيعة جعلت الدواء الى جانب الداء فان للمفرزات القصبية خاصة قاتلة للجراثيم .

هذا ما رغبت بطرحه أمامكم في هذه المحاضرة من الأمور الصحية ومنها تستنتجون ان الطبيعة لم تضن على دمشقنا بجودة الموقع الجغرافي

ولا بالارتفاع عن سطح البحر ولا بتركيب أرضها الجيولوجي الموافق ولا بالأنهر الغزيرة الناقلة مع مياهها خصباً وهواءً نقياً ولا بالأرياح العاصفة التي تهب للانسان بهبوبها حياة جديدة بل نحن الذين ضنوا عليها بكل ما يؤثر في هوائها فيصلحه ضننا عليها بالأسواق المتسعة الفسيحة ضننا عليها بالساحات الكبيرة والحدائق الكثيرة ضننا عليها بتنظيف شوارعها من الأوحال الحاضرة أو الغبار القتال المقبل ضننا عليها بما هو أعظم من كل هذا وبما لم أبينه في محاضرتي نظراً لضيق الوقت فاذا تفشت الأوبئة فيما بيننا فليس الذنب الا علينا أو ساءت الصحة العامة فلا تعود تبعة هذه الاساءة الا الينا فعسى أن يكون المستقبل باسماً لا عبوساً كالماضي فنرى في دمشق حياةً جديدةً تدب في أسواقها حياةً ترقى برقي علم الصحة بين أفرادنا . عسى أن ينتبه الزملاء الكرام الى سدّ هذه الثلمة فيكثرون من المحاضرات الصحية فهي لعمري أكثر ضرورة وأعظم فائدة من المحاضرات العلمية والأدبية والشعرية وغيرها لأنها تحفظ حياة الشعوب . ولا تقدّم لشعب يحصد منجل الأمراض من شبانه الأذكياء النابغين ومن شاباته المهذبات الأديبات فعسى أن يسعدني الحظ في المستقبل فأقوم بواجب يفرضه عليّ الفن الذي أنتسب اليه وألقي في ناديكم الموقر من آن الى آخر محاضرات أخرى مختلفة الموضوعات تضمن للسيدات نضارة جمالهن وللشبان قوة عضلاتهم والله الموفق في كل حال .

تأثير الطرق في هواء المدن*

سادتي !

سمعتم في الأسبوع الماضي محاضرةً بيّن المحاضر بها ما للعادة حسنة كانت أم سيئة من التأثير الشديد في الفرد والأسرة والجماعة والشعب والعالم بأسره وعرفتم منه أمراً أوجه أنظاركم الكريمة اليه ولا أرى بداً من إعادته على مسامعكم وهو تحكيم العقل في انتخاب العادات وتفريق حسنها من سيئها ولا يحكّم العقل أيها السادة في أمر كهذا تتوقف عليه سعادة حياة الفرد والمجموع أو شقاؤهما الا من أناره نبراس العلم لأن عقل الرجل الجاهل لا يخول هذه السلطة النافذة واذا خوّلها سار بنفسه وبمن يختط خطواته الى شقاء مقرر فالعلم الصحيح هو الواسطة الوحيدة التي ترشد الانسان الى العادات الحسنة . ولما كان علم الصحة علماً يتوقف على معرفته التفريق بين العادات النافعة والمضرة كان تعلمه والوقوف عليه شرطاً لازماً في اصلاح عاداتنا القديمة المضرة التي لا تزال مستولية على السواد الأعظم من بني وطننا وليس مصدرها الا الجهل . فلو عرف الخباز مثلاً ان ماء النهر مضرٌ وحامل لجراثيم كثيرة منها الوباء الأصفر والتيفية والزحار (أي الدوسنطاريا) وغيرها وان درجة الحرارة التي يصل اليها لب الخبز لا تكفي لقتل هذه الجراثيم وانه يجني جناية لا تغتفر اذا عجن عجينه بماء النهر لأقلع عن هذه العادة ، ولو عرف الأولاد والآباء والأمهات ان ماء النهر لا يجوز شربه للسبب نفسه لما شربوه ، ولو عرف الحلاق ان داء

(*) المحاضرة التي ألقاها الطبيب الأستاذ مرشد خاطر في ردهة المجمع العلمي العربي بدمشق في ٩ آذار سنة ١٩٢٣ .

الافرنج وكثيراً من الأمراض الجلدية تنتقل بالموسى والمقص وآلات الحلاقة وتعوّد أن يطهر آلاته بعد كل حلاقة لوق كثيرين من هذه الامراض ، ولو عرف أصحاب المطاعم العامة أن أمراضاً كثيرة تنتقل بأوانيهم وتعودوا تعقيمها بحسب الفن لما تفشى السل هذا التفشي الهائل ، ولو عرفت الأمهات أن إطعام أولادهن في طبق واحد مضر لتعودن غير هذه العادة . ولست أقصد بهذه الملاحظة الموجزة أن أعدد جميع عاداتنا المضرة التي يجب نبذها واستبدالها بسواها من العادات المفيدة بل أريد فقط أن أبين أن للمواضيع الصحية مقامها الرفيع وفائدتها الكبرى وان على كل اختصاصي في أي فرع أن يأتينا بمحاضرات متعلقة بفرعه فينير عقولنا ويرشدنا الى نبذ عادات نظنها حسنة ورثناها عن آبائنا مع انها سيئة مضرة . وان العاقل الحكيم من عرف الحد الذي يصل اليه عقله فلم يدّع معرفة كل علم وفن والاّ كان ادعاؤه دليلاً على جهله . هذا ما حدا بي سادتي الى اختيار المحاضرات الصحية لأنني أرى ولعلكم ترون نظيري ان الانسان أعرف باختصاصه مما هو عليه بالأمور الأخرى .

سادتي : أبنت لكم في محاضرة سلفت بعضاً من العوامل التي تؤثر في هواء المدن فتفسده اذا فسدت وتصلحه اذا صلحت وحثث على ذكر الموقع الجغرافي وما ينطوي عليه من الأمور وأظهرت ما لغرس الاشجار في الشوارع ولانشاء الساحات الكبيرة والحدائق الفسيحة في قلب المدينة من الحسنات وما للغبار المختلط بالهواء المستنشق من السيئات وعددت الأمراض التي تنتقل بالهواء وذكرت طرائق انتقالها ووقفت عند هذا الحد نظراً الى ضيق الوقت ووعدتكم والوعد دين لا تجوز المماطلة فيه أن أخصص محاضرة ثانية للكلام عن العوامل الأخرى التي تفسد الهواء أو تصلحه . ولما كانت الطرق العامة أهمّ العوامل الباقية فقد أجبت في هذه المحاضرة أن أبين لحضرتكم تأثيرها في جودة الهواء أو فساده وسعي الحكومات الراقية في أيامنا الى اتقان هذه الطرق ورصفها وتنظيفها والاعتناء بها غير

مهملة أصغر الأمور فيها وهي حالة ان لم نجدها في مدينتنا العزيزة فان بوادرها قد بدت لأنظاركم اذا قابلتم بين حالة المدينة الحاضرة والماضية وجدتم فرقاً محسوساً يثبت لكم ان المجلس البلدي ساعٍ جهده لسد هذه الثلمة الكبيرة التي تعمّ المدينة جميعها ولنا الأمل الكبير ان هذا السعي المتواصل سيوصل مدينتنا الى درجة حسنة من الحالة الصحية .

وقد قسمت محاضرتي هذه ثلاثة أقسام أولها المواد التي تلوث الطرق العامة والسبيل الى ملافاة ضررها . وثانيها كيفية رصف الطرق والأرصفة وثالثها تنظيف الطرق العامة .

(١) تلوث الطرق العامة : تتلوث الطرق العامة بثلاثة أشياء : الأغبرة ومفرزات الانسان والحيوان وبقايا المواد الغذائية . وهذه الأشياء الثلاثة تفسد الهواء وتجعله مضر .

(أ) أما الغبار فقد ذكرت ضرره في المحاضرة الماضية وأبنت ما في ذراته من المواد المضرة والجراثيم المرضية ولهذا أضرب عنه صفحاً في محاضرتي .

(ب) وأما مفرزات الانسان والحيوان فهي ما تطرحه المثانة أو أنبوب الهضم من البول أو المواد الغائطة وان لكلٍ من مفرزات الانسان والحيوان ضرراً لا ينكر . فبول الناقه من الحمى التيفية يظل ملوّثاً بعصيّات أبرت أي عامل الحمى المرضي مدةً طويلة بعد الشفاء ، وبول المسلولين ولا سيما اذا استقر السل في جهاز البول كما في الكلية أو المثانة يكون مشبعاً أكثر الأحيان بعصيات كوخ أو العامل السلي . وبول المصاب بالبلهرزيا (١) هذا المرض الشديد الوطأة في مصر والذي لا نشاهده في بلادنا الا في القادمين من ذلك القطر يحتوي على كميات كبيرة من بيوض هذه الدودة . وفي بول المصابين بالسيلان (أي بحرقة البول) ملايين من المكورات البنية (أي الغونوكوك عامل هذا الداء) وكثيرون هم المصابون في أيامنا بهذا

(١) وقد تفشى هذا الداء الآن في الجزيرة وأصبح يهدد سورية جميعها اذ لم يكافح مكافحة فعالة .

المرض ، وبول المصابين بالتعفنات البولية الأخرى العادية مشبع بالجراثيم الكثيرة الانواع . فاذا أفرز ذلك البول في الطرقات العامة بقيت تلك العوامل المرضية بعد جفافه ملقاة في الشوارع فانتقلت بالهواء متى نفخت الريح أو بأحذية المارين الى المساكن ونقلت معها العدوى .

وليس لبول المرضى فقط الضرر الذي أوضحته ولكن بول الأصحاء مضر أيضاً لأنه بعد أن يختمر ينشر في الهواء رائحة نشادرية تخرش الانوف وتضر الضرر الجسيم .

وأما المواد الغائطة فان ضررها يفوق ضرر البول لانها عدا رائحتها الكريهة تحتوي على جراثيم عديدة كجراثيم الحميات التيفية والزحار والسلّ وكثيرٍ غيرها من الأمراض القتالة ولا سيما الوباء الأصفر ولعلكم توجهون اليّ هذا الاعتراض قائلين ان المصاب باحد الامراض التي ذكرتها ولا سيما بالهيضة أي الوباء الاصفر يلزم فراشه فلا يتمكن من السير في الازقة لقضاء حاجاته فيها ، لا أنكر ذلك غير انه قد ثبت بعد التحريات الجرثومية على المواد الغائطة المختلفة المأخوذة من الاصحاء والناقهين حين تفشي الاوبئة ان هذه العوامل تظلّ فيها بدون أن تضر بحامليها ولكنها تحتفظ بخاصة الضرر متى انتقلت الى أشخاص ضعفاء البدن أو مستعدين لقبولها ويسمى أولئك الاشخاص الناقلون للعوامل المرضية بدون أن يصابوا بها حَمَلة الجراثيم وقد أخذت مسألتهم دوراً مهماً في أيامنا الاخيرة وجلت لنا كثيراً من الامور المغلقة في انتشار الاوبئة وانتقالها من بلاد الى أخرى على الرغم من فرض نطاق صحي على البلاد الموبوءة . فهذه المواد الغائطة اذا طرحت على الطرقات العامة كان ضررها جسيماً . ولا تحتوي المواد الغائطة على الجراثيم المرضية فحسب بل على كثير من الديدان وبيوضها وأخص بالذكر منها الشريطية الوحيدة وتعرف عندنا بالدودة الوحيدة والحُبليل (أو خراطين المعى) وهي الديدان الكثيرة الانتشار في دمشق وتعرف بالدود الأحمر ومنحرفات الفم (الانكيلوستوم) وغيرها .

أما الشريطية الوحيدة (أو التانيا) فتلق مع المواد الغائطة ويتفسخ جسمها الا أن بيوضها تظل محافظة على الحياة فتنتقل بالماء أو بالعشب الى الحيوان ولا سيما الى الماعز والبقر فتفقس في أمعائه وتخترق غشاءها المخاطي مارة الى العضلات حيث تبلغ دورها المضغي فمتى أكلنا اللحم الملوث نيأ أو قليل الاستواء أو متى هاجنا الشوق الى طعامنا الوطني وهو المدققة النية (أي الكبة) مرت مضغة تلك الدودة الى أمعائنا فأصبحت بالغة وكبرت وبلغ طولها ستة الى سبعة أمتار .

وأما الحُبليل (الأسكاريد) فتنطرح بيوضه مع المواد الغائطة وتختلط بالمياه فتلوثها فاذا شربنا تلك المياه الملوثة فقست تلك البيوض وأصبحت ديداناً مزعجة . ومياه نهر دمشق ملوثة بهذه البيوض لأن الحبليل كثير في مدينتنا حتى أنه لا يخلو منه ساكن من سكانها أو زائر يمكث فيها بضعة أيام ويرحل عنها مستصحباً معه منها أثراً يذكّره بها .

وأما منحرفات الفم فهي أشد الديدان المعوية وطأة وخطراً لأنها تولد في حاملها فقراً دموياً عميقاً وهي تنتقل بالمواد الغائطة المطروحة في أرض ينقبها العملة ولا سيما المدنون أو انها تنتقل الى الانسان بالماء ومتى وصلت الامعاء غرزت فيها محاجنها الرأسية فتتقلص الأمعاء بشدة لتنجو من هذه الديدان القوية الناشبة مخالبها فيها ولا تتوصل الى إلقائها الا بعد أن تقتلع تلك الطفيليات القسم المعوي التي كانت غارزة فيه ولما كان عدد هذه الديدان يبلغ بضعة ألوف في الشخص الواحد كانت الجروح والخدوش التي تسببها عديدة تستنزف دم المريض وتلقيه في فقر دموي الا أن هذه الدودة نادرة في سورية .

فلافلة لهذه الأمراض الكثيرة يجب أن تبنى في الطرق العامة ولاسيما

في الشوارع التي تطرقها الأرجل الكثيرة مباول وبيوت خلاء يقضي فيها المارون حاجاتهم فلا يضطرهم الأمر الى قضائها في المنعطفات والازقة .

أما المباول فيشترط فيها أن تبلط أرضها ببلاط صلد متقن لا ينفذه البول والا كان ضررها جسيماً لأن أرضها تصبح مستنبتاً للجراثيم وبيئة للعوامل المرضية ويصعب اذ ذاك ازالة رائحتها النشادرية مهما اعتني في تنظيفها وغسلها .

وأما بيوت الخلاء فيشترط أن يكون جريان الماء فيها دائماً ليغسل المواد الغائطة ويقذفها حين افرازها فلا تنبعث منها روائح نتنة تزعج المارين وما يجاورها من المخازن .

غير أننا في دمشق ويا للأسف لم نوفق في إقامة هذه المباول وبيوت الخلاء مع أن مياهنا غزيرة والنفقات التي يتطلبها هذا البناء قليلة لا توقع صندوق المجلس البلدي في أزمة كبيرة ولهذا نرى المواد الغائطة هنا وهناك في الأزقة الضيقة والمنعطفات والزوايا واست أغالي اذا قلت أن الشوارع الكبيرة لا تخلو منها أيضاً — أما الأمكنة التي يبال فيها فحدث عنها ولا حرج لانها تعمّ المدينة جميعها فهي على حد سواء في الطرق العامة والشوارع الكبيرة والصغيرة وقرب النوافذ والأبواب وأعمدة الأسلاك البرقية وليس الذنب في ذلك على البائل لأن الحاجة التي يشعر بها لا تُغلب بل الذنب على من لا يبني له مكاناً يقضي فيه حاجته بدون أن ينتج منها ضرر نظنه طفيفاً مع أنه جسيم .

وأما مفرزات الحيوانات فهي أشدّ ضرراً من مفرزات الانسان لأنها عدا الاضرار التي ذكرتها تنقل مرضين من أشدّ الأمراض وطأة وخطراً وهما الكزاز الذي ينتقل بأقذار الحيوانات جميعها والكيسة المائية المنتقلة بأقذار الكلاب التي تحمل في أمعائها دودة شبيهة بالشريطية الوحيدة في الانسان وتسمى (شريطة المكورات المقنفذة) فمتى طرحها

الكلب في الأزقة تتحرر بيوضها وتنتقل الى الانسان بالماء او الى الاولاد بملاعبتهم الكلاب ولا سيما في أثناء تناولهم الطعام وتولد في الكبد أو الطحال أو الرئة أو الصفاق (أي الباريطون) كيسات كبيرة تستلزم عملية جراحية لا تخلو من الخطر .

ولهذا وجب أن تنزع هذه المواد جميعها حين إلقائها وان تمنع العجال والعربات من الوقوف في الطرق العامة مدة طويلة وان يخصص مكان لمواقفها على أن تكون الشروط متوفرة فيه وأريد بهذه الشروط أن يكون المكان مبلوطاً بلطاً محكماً ببلاط صلد وان تسدّ كل الخصاص بالملاط سداً محكماً كي لا ينفذ شيء من المواد الصلبة أو المائعة التي تفرزها تلك الحيوانات بل يسهل غسل ذلك المكان غسلاً حسناً بالماء الجاري وبموادّ مطهرة . فاذا رعينا الشرطين الأول والثاني بأن منعنا الأعجال والعربات عن الوقوف في الطريق العامة وخصصنا لها مواقف فاننا لم نرعَ الشرط الثالث مع أنه الكل بالكل فلو ألقينا نظرة على القسم الذي خُصّ في ساحة الشهداء بوقوف العربات لوجدناه حفراً وأخاديد كأنها احتفرت خصيصاً لاختزان المواد القذرة المفرزة ولم نر فيها أثراً لما ذكرته من الشروط التي تجب مراعاتها فيها فلماذا لا تسد هذه الثلمة مع أن ضررها جسيم ونفقات سدّها ليست كبيرة .

(ج) وأما بقايا المواد الغذائية وهي فضلات المطابخ فانها خليط من المواد الحيوانية والنباتية والمعدنية قابل للاختمار وسريع التفسخ ويخمن أحد علماء الصحة المدققين ان كل نسمة تلقي من بقايا المواد الغذائية من المطابخ ما يعادل كيلوغراماً واحداً في اليوم فاذا عددنا في دمشق اربعمائة الف نسمة كان ما تطرحه البيوت في صباح كل يوم اربعمائة الف كيلوغرام وما تطرحه في السنة مائة واربعة واربعين مليون كيلوغرام أو مائة واربعة وأربعين الف طن .

فمتى اختمرت هذه الفضلات واختمارها سهل لا يستغرق إلا أياماً قلائل انتشرت في الهواء روائح نتنة وغازات مضرة بالصحة العامة ولهذا يترتب علينا أولاً ألا نبقي هذه الفضلات مدة طويلة في البيوت كي تختمر فتضر . وثانياً ألاّ نلقيها على الطرق العامة مبعثرة فتلوثها بها بل يجب أن تحصر في صناديق مقفلة يوضع عليها رقم المسكن تُصنع لهذه الغاية وتوضع على الرصيف ولا تفتح إلا حين طرح الفضلات فيها ثم تنقل في صبيحة كل يوم وهي مغلقة إلى خارج البلدة حيث تلقى منها هذه الفضلات فتحرق أو تعالج معالجة خاصة فيستحضر منها سماد مفيد للزراعة ثم تعاد الصناديق بعد أن تغسل جيداً إلى أمكنتها . لست أرى في السير على هذه الخطة صعوبة عظيمة فاذا روعيت هذه القاعدة في نقل الفضلات نجت المدينة من أمراض وأوبئة كثيرة كان الفضل في ملافاتها عائداً الى المجلس البلدي الساهر .

(٢ً) بعد أن ذكرت الأشياء الثلاثة التي تلوث الطرق العامة وأظهرت الوسائل لملافاة ضررها أمرُّ إلى القسم الثاني من المحاضرة وهو رصف الطرق والأرصفة .

إن رصف الطرق العامة والأرصفة رصفاً حسناً شرط من الشروط الأساسية في إتقاء الغبار الذي يتطاير في أثناء الكناسة ومرور العربات والأعجال ويختلط بالهواء وخير الطرائق في الرصف ما اجتمعت فيه الشروط الآتية :

١ً ــ ما كانت مواده شديدة الصلابة لايسهل سحنها أو مرنة لا تسهل إستحالتها إلى غبار .

٢ً ــ ما كان في مواده بعض اللبان فلا يولد جعجعة شديدة تزعج السكان حين مرور العربات والأعجال والسيارات .

٣ً ــ ما كانت أجزاؤه مستوية ليسهل تنظيفها وغسلها .

٤ً ــ ما كان مائلاً فلا تجتمع فيه مياه الأمطار والمياه القذرة .

٥ً ــ ما كان قليل النفقات لا يستنفد مال الخزينة .

وان جميع الطرائق المستعملة في أيامنا الحاضرة لا تتوفر فيها الشروط جميعها لان ما هو حسن منها كبير النفقات وما هو رخيص لايفي بالغاية المرادة . وأشهر الوسائط المستعملة في رصف الطرق أربع :

١ً ــ البلاط ٢ً ــ الخشب ٣ً ــ الاسفلت ٤ً ــ الحصى المكسرة بسيطة كانت أو مقيَّرة أي مزفتة .

أما البلاط : فاما أن يرتكز على أسٍّ مرن أو صلب وأريد بالاس المرن طبقة رملية يتراوح علوها بين خمسة عشر وعشرين سانتيمتراً وبالاسٍّ الصلب طبقة من الاسمنت علوها خمسة عشر سانتيمتراً أيضاً فاذا كانت الطريق التي ترصف مطروقة بكثرة كانت قاعدة الاسمنت أفضل من القاعدة الرملية وأثبت وأما إذا كانت لاتمر بها العجلات الكبيرة فان القاعدة الرملية تفضل تلك ومهما يكن فان للبلاط من الوجهة الصحية أضراراً لا بد من ذكرها ، فلو فرضنا أن البلاط كان متقن النحت محكم الرصف وأن الخصاص سُدَّت جيداً بالملاط وان القاعدة التي يرتكز عليها هذا البلاط صلبة متينة لا تغور في نقطة دون الاخرى ولا تولد حفراً تجتمع المياه والأقذار والغبار فيها فتلوث الهواء وتفسده مع أن ذلك كثير الوقوع مهما اعتني بالرصف فان البلاط مضر بالانسان لانه يتعب قدميه وبالحيوانات لأنه صلب يذيب حوافرها ويرضها وعدا ذلك فان الجعجعة الكبيرة التي يولدها سير العجلات تزعج الانسان حتى أنه لا يقوى على احتمالها ، ولا يجب أن ننسى أن الارتجاجات تفسها تؤثر في العصبي المزاج فتولد فيهم تشوشات عصبية مستعصية لا تزول إلا بابتعادهم عن السبب وسكنهم في بيت هادىء منعزل ولهذا اهمل الرصف بالبلاط ولم يعد مستعملاً إلا في بعض الساحات الكبرى التي تطرقها العجلات ليلاً نهاراً لان البلاط أصلب مايستعمل في الرصف .

وأما الخشب : فقد بدىء باستعماله منذ سنة ألف وثمانمائة وإحدى وسبعين

في باريس ثم عمّ استعماله أكثر المدن . وطريقته أن تصنع قاعدة من الاسمنت سماكتها خمسة عشر سانتيمتراً وأن تركز عليها قطع خشب طولها خمسة عشر سانتيمتراً أيضاً وعرض إحدى جهتيها اثنان وعشرون سانتيمتراً وعرض الجهة الثانية ثمانية سانتيمترات وأن تتلازق هذه الاخشاب وتملأ الخصاص التي تفصلها بالملاط وأما الخشب المستعمل فهو السنديان والزان والصنوبر وغيرها ، غير أن الخشب لا يلبث أن يتنخر بتأثير الرطوبة فيه فلا تطول مدته إذا استعمل بدون أن يعالج معالجة خاصة ولهذا وجب وضع هذه الاخشاب قبل استعمالها في حمّام حار فيه حامض وفحاة قلوية وصموغ وتركها فيه أربع ساعات ثم اخراجها منه وضغطها بمعصار كبير يعادل مايولده من الضغط في كل سانتيمتر مربع خمسة وسبعين إلى ثمانين كيلو غراماً فيعود الخشب شديد المقاومة لا تأثير للسوس فيه .

إن هذه الطريقة حسنة فهي لاتولد أصواتاً مزعجة حين مرور الاعجال والعربات والسيارات لمرونتها ولا تزعج المسافرين والمارين وسكان البيوت المجاورة ولا ينفذها الماء خلافاً لما نسب اليها لان الفواصل التي تفرق ألياف الخشب بعضها عن البعض الآخر تكون قد امتلأت بالصمغ حين معالجتها في الحمام الحار فتصبح قطعة الخشب كأنها لبقة واحدة لا يخرقها الماء مطلقاً ولا تنمو فيها الجراثيم وهي لا تزلق المارين كما نسب اليها أيضاً لانه إذا اعتني بتنظيفها مرتين في الاسبوع وأزيلت طبقة الوحل الرقيقة التي تغطيها يزول هذا المحذور فان الاوحال نفسها تزلق الاقدام وتؤثر في الاخشاب فتتلفها . غير أن هذه الطريقة لا تلائم مدينتنا على الرغم من حسنها وهي مدينة الاوحال فان الرصف بالاخشاب إنما وجد ليكون في مدن لا تُرى على سطوحها وطرقاتها أوحالٌ ولا غبار .

وأما الاسفلت : فانه أول ما استعمل في لوندرا وباريس غير أن برلين والمدن الالمانية الاخرى التي استعملته بعد هاتين العاصمتين رصفت به مساحة

كبيرة من الطرق لم تبلغها المدن الفرنسية والانكليزية . ويستعمل الاسفلت على ثلاثة أنواع مضغوطاً ومصبوباً ومرتكزاً على قاعدة صلبة من الاسمنت وأفضل هذه الأنواع الأخير لأنه أكثر صلابة وأمتن من النوعين الاولين ، ولا يصلح الاسفلت إلا في الطرق التي لا تطرق كثيراً لأنه يتفتت إذا كانت الاعجال التي تسير عليه ضخمة أو إذا سارت الحافلات الكهربائية إلى جانبيه فان ارتجاجاتها الدائمة تفتته وتتلفه وفضلاً عن ذلك فان الاسفلت يزلق المارين متى ابتلّ بالماء ولاسيما إذا كانت الطرق مائلة يفوق ميلها سانتيمترين في المتر أي اثنين في المئة وهذا ما يدعو إلى تخصيص استعماله .

وأما من الوجهة الصحية فان الرصف بالاسفلت حسن لا يتفتت إلا تفتتاً قليلاً وبطيئاً فاذا رُش رشاً خفيفاً بالماء تحول الغبار المتفتت منه إلى طبقة وحل رقيقة فلا يتطاير ويختلط بالهواء ولا ينقل الامراض إلى جهاز التنفس فهو إذاً حسن لأنه لا يولد غباراً كثيراً ولأنه صلد لا تنفذه المواد السائلة القذرة فيكون كمستنبت للجراثيم .

وأما الحصى المكسرة : وهي الطريقة التي نشاهدها كل يوم في اصلاح الطرق فان لها شروطاً لا أراها مرعية في أكثر الأحيان منها أن تكون الحصى من نوع واحد وأن تكون ذات حجم لا يزيد عن ستة سانتيمترات وأن تكون كثافة طبقة الحصى خمسة وعشرين إلى ثلاثين سانتيمتراً بعد أن تدحى أي أن يضاف إلى هذه الكثافة قبل الدحي ما يعادل ربع الكثافة فاذا كانت الكثافة المطلوبة مثلاً ثلاثين سانتيمتراً وجب أن تكون كثافة الحصى المفروشة على الطريق قبل الدحي سبعة وثلاثين سانتيمتراً ونصف السانتيمتر .

أما هذه الطريقة فليست من الوجهة الاقتصادية حسنة لأن الرصف بالحصى لا يطول عهده ولاسيما إذا كانت الطرق مطروقة بكثرة فانها لا تلبث بعد بضعة أشهر أن تبدو حفر في ذلك السطح المستوي فتشوه منظره .

وأما من الوجهة الصحية فانها شديدة الضرر ولو توفر فيها هذان الشرطان الموافقان وهما خفة الجمجمة وفقدان الارتجاجات ذلك لأن هذه الطرق لا تلبث أن تتفتت فيتحول ذلك المسحوق الى ذرات جافة في فصل الصيف فاذا عصفت الريح أو سارت العجلات كان من ذلك الغبار ضباب كثيف فولد أكثر أمراض الحنجرة والرئة والعينين وليس الرمد الحبيبي أو التراخوم هذا المرض الذي تشتد وطأته سنة فسنة في هذه المدينة والمدن السورية الأخرى ولا سيما في حماه الا نتيجة ذرات الغبار التي تدخلها الريح في الأعين وتدخل معها العامل المرضي ولهذا أشير عليكم ريثما يصنع المجلس البلدي دواء ناجعاً لمنع الغبار أن تضعوا النظارات السكبيرة الواقية على أعينكم فتحفظونها من أمراض كثيرة ولا سيما من التراخوم هذه الآفة المستعصية . ومتى جاء الشتاء أو متى رُشت تلك الطرق استحال ذلك المسحوق الى أوحال مزعجة مضرة وقد نسخ علماء الصحة هذه الطريقة في الرصف نسخاً باتاً ولا سيما الالمان منهم في اجتماعهم الصحي الذي عقدوه سنة الف وتسعمائة واثنتين .

وتحولت الأفكار منذ زمن طويل الى ملافاة محاذير الرصف بالحصى وأول محذور سعي الى اجتنابه الغبار وهو الأهم فأزالوه برش الماء غير أن الماء اذا كان قليلاً تبخر سريعاً أو كان غزيراً حول الغبار الى أوحال مضرة فهو لا يفي بالمراد ولهذا أهمل بعد استعماله بقليل واستعملوا الماء الملح فأعطى بعض الفوائد وهذا متيسر في المدن البحرية ومتعذر في المدن الداخلية فان ماء البحر باحتوائه على كمية كبيرة من كلورور الصوديوم والمغنيزيا أي الملح يكتسب خاصة الالصاق فلا يبلل ذرات الغبار فقط بل يلصق بعضها بالبعض الآخر أيضاً وقد استعمل في انكلترا في المدن البعيدة عن الشاطيء كلورور الكلسيوم مذاباً بالماء الا أنه لم يكن ذافائدة حسنة واستعملت أيضاً مواد أخرى منها الزيوت الكثيفه المستحلبة غير ان

هذه الوسائط جميعها لم تفد الا فائدة موقتة فأهملت . واستعيض عنها بالقار أي بالزفت وطرق استعماله متعددة وأنواعه كثيرة أضرب عنها صفحاً لضيق الوقت . واول من وضع هذه الطريقة واستعملها المهندس الفرنسي كريستوف سنة الف وثمانمائة وثمانين ثم عمّ استعمالها اوربة جميعها ومنها انتقلت الى اميركا فمصر الا أننا لا نزال عنها معرضين مع انها عظيمة الفائدة لأنها تزيل المحاذير التي للحصى المكسرة وحدها وتلائم مدينتنا أشد الملائمة .

وفي الرصف طرائق أخرى لا أذكرها لأن ذكرها وحدها يؤلم نفوسنا ويرينا التباين العظيم بين بلاد بلغت أوج الرقي وبلاد أخرى لم تطأ ذلك الطريق فان بعض الشوارع في لوندرا وجميع شوارع مدينة باناما الحديثة مرصوفة بالطبرخي أي (بالغوتابركا) المستحصلة من عصير شجرة تنبت في آسيا وتشابه المطاط في صفاتها الخارجية ولست أشك وأظنكم مشاركين لي في الرأي ان هذه الطريقة أفضل الطرائق وأجودها لأن الانسان والحيوان والعربات والأعجال والسيارات تسير عليها كأنها تسير على المطاط فلا يسمع لها صوت لمرونتها وتغدو وتمشي عليها بدون أن ترض قدم انسان أو حافر حيوان للينها الذي يكسبها مقاومة لا تتصف بها المواد الصلبة التي تتفتت فلا أثر للغبار والأوحال في مدن كهذه وأما تنظيفها فسهل للغاية فهي تمسح بالزيت مرتين في اليوم فتصبح لامعة براقة نظيفة .

فيستنتج مما تقدم اننا في دمشق لا نستعمل من طرائق الرصف الا طريقتين ليس غير[1] البلاط والحصى المكسرة البسيطة فالبلاط صلد يضر بأقدام الانسان وحوافر الحيوان فيتعب السير عليه كلاً منها ويضر بالبيوت المجاورة لأنه يولد في ساكنيها حالات عصبية مزعجة بالارتجاجات التي

(١) أما اليوم فقد رصفت اكثر الشوارع في دمشق بالاسفلت .

يسببها سير العربات والأعجال الثقيلة وبالأصوات التي تصم الآذان هذا فضلاً عن غوره وتوليده حفراً تجتمع فيها الأقذار والماء وعن تكوّن خصاص كبيرة بين قطعه ممتلئة بالتراب والأوحال ومولدة للغبار الذي يفسد الهواء .

وأما الحصى فانها أشد ضرراً من البلاط لانها أكثر توليداً للغبار والأوحال وهما الأمران اللذان نخشاهما . فمتى نعدل عن هاتين الطريقتين في اصلاح طرقنا فيصلح هواء مدينتنا ؟ سؤال أدعو الجواب عنه الى من بيدهم مقاليد الأمور .

(٣) أمرّ الآن الى القسم الثالث من المحاضرة وهو تنظيف الطرق العامة :

اذا بقي الغبار ومفرزات الحيوانات والأوحال مدة طويلة على الطرق يتفاقم ضررها وتؤثر في الطرق نفسها فتخربها وفي الهواء فتفسده ولهذا وجب أن تنظف الطرق العامة تنظيفاً حسناً مرات عديدة في اليوم وتنحصر وسائط التنظيف بأربع : الكناسة ونزع الأوحال والرش والغسل .

ان الكناسة ونزع الأوحال لم يكن يقصد منه حتى أيامنا الأخيرة الا تنظيف الطرق والمحافظة على سلامتها غير انه بعد أن زاد عدد السيارات في بلادنا ولا سيما في بيروت أصبحت الكناسة ونزع الأوحال من الأمور الضرورية لملافاة الأخطار التي تنتج من السيارات فاذا كان الغبار كثيراً وكانت السيارات عديدة تذهب وتجيء بسرعة البرق كما يحدث في أيام الصيف على الطريق الممتدة بين بيروت ولبنان فان ذلك الضباب يحجب الطريق والمارين معاً فتحدث اصطدامات عديدة ودهس وشرود وتدهور وان الحوادث تعد بالعشرات اسبوعياً اذا لم أقل يومياً وليس الذنب في ذلك الا على الغبار الذي يتطاير في الهواء فيعمي السائق ويمنعه عن ملافاة الأخطار التي تهدده في الأمام واتقاء الصدمات التي تأتيه من الوراء ، وأما في فصل الشتاء حينما تكسو الأوحال الطرق فان الدواليب تزلق متى

كانت الطرق مائلة وكثيرة الانحدار كما تنزلق الأقدام على طرق دمشق في يوم مطره رذاذ لا يحول الغبار أوحالاً مائعة بل يحولها معجوناً لزجاً مزلقاً ولست أظن أن قد نجا من تلك المشية الشبيهة بمشية الثمل أحد منكم بل كان يستند الى ذراع من يصادفه متوكئاً عليه ليتقي شر العربات والمجال والسيارات والحيوانات التي تهاجمه من اليمين واليسار والأمام والوراء وهو لا يستطيع الاسراع خشية التزلق ولا الوقوف خيفة أن يذهب ضحية تلك الحيوانات ، وليست الكناسة ونزع الأوحال اذاً مفيدين من الوجهة الصحية فحسب ولكنها ضروريان أيضاً لاتقاء الأخطار الجمة .

وليس عليّ بهذه المناسبة الا كلمة شكر أوجهها الى المجلس البلدي المحترم لأنه قد أظهر في هذه السنوات الأخيرة همة وجداً ونشاطاً فحسّن حالة الطرق بالكناسة ونزع الأوحال تحسيناً محسوساً ، أجل انه لم يتوصل حتى الآن الى الغاية المطلوبة ولن يدركها ما زال رصف الطرق في دمشق مصنوعاً من الحصى المكسرة والبلاط وما زالت السطوح كما هي عليه الآن مطلية بالطين وما فتئت المجاري ضيقة غير محكمة البناء لأن ما يسعى الى ازالته يوم تعيده الطبيعة ببضع دقائق .

وان للكناسة من الوجهة الصحية منافع ومضار فكما انها تجمع التراب ولا تتركه مبذوراً على الطريق فيتطاير في الهواء ويختلط به متى نفخت الريح وسارت العربات والعجال فيضر وينشر الاوبئة فان ضررها جسيم للغاية اذا لم تراع فيها بعض الشروط واهمها ألاّ تكنس الطرق قبل أن ترش جيداً وان يكون الزمن المختار للكناسة بعد انصراف الناس من أشغالهم وقبل عودتهم اليها أي ما بين الساعة الحادية عشرة ليلاً والسادسة صباحاً والا كان ضررها معادلا لنفعها اذا لم يفقه . أما أقذار الحيوانات فيجب أن تكنس مرات عديدة في اليوم دون أن تترك مـــدة طويلة على الطرق .

غير ان الكناسة ونزع الأوحال ليسا وحدهما كافيين لازالة العناصر التي يتألف منها الغبار فانها ان خففا ، متى اجريا حسناً ، كثيراً من مخاذيره يحتاجان في أماكن الازدحام الشديد وفي الطرق المطروقة بكثرة ولا سيما في المتنزهات الى العامل الثالث من عوامل التنظيف وهو الرش خاصة في أيام الصيف المحرقة فانه وحده يكتل ذرات التراب والبقايا التي تتركها الكناسة وعدا ذلك فانه يولد رطوبة تلطف الهواء وتخفف من حرارته غير أن فائدة الرش ويا للأسف قصيرة المدة نظراً للعوامل الكثيرة التي تبخر الماء سريعاً وأهمها حرارة الشمس والأرياح وحالة الطرق نفسها التي تمتص قسماً كبيراً من الماء . ومع ذلك فان نفع الرش يمتد الى أبعد من الوقت الذي يخيل به أن الطرق قد عادت الى الجفاف .

ويفيد الرش الطرق نفسها لانه يحفظها مدة طويلة ولا سيما اذا كانت مرصوفة بالحصى المكسرة البسيطة فانه اذا أحسن استعماله يولد في الطرق مقاومة شديدة بالصاقه العناصر التي تتألف منها الطريق ويجعلها مرنة بعض المرونة ويجب أن يكون الرش معتدل الغزارة لانه اذا كان قليلاً لم تحصل منه الفائدة المطلوبة وهي الصاق ذرات التراب بعضها بالبعض الآخر او كان وافراً حوّل ذلك التراب الى أوحال . وقد خمن أحد علماء الصحة ان ما يرش به متر مربع في طرق يكثر التراب فيها كطرق دمشق يجب أن يكون ليتراً من الماء لا أكثر ، وأما عدد المرات فذو علاقة بموقع الطريق وتعرضه للشمس وكثرة المرور به ، فان شارع النصر مثلاً يجب أن يرش في الايام الحارة مرة واحدة في كل ساعتين لانه فسيح معرض للشمس والأرياح ، وأما سوق البزورية فمرة واحدة أو مرتين في اليوم لأن الشمس والريح لا تدخلانه فتبخران فيه الماء سريعاً .

لقد أرانا المجلس البلدي في هذه السنة همة يشكر عليها بالكناسة ونزع الاوحال فعسى أن يرينا في الرش هذه الهمة نفسها وأن يأتينا بسيارات راشّة تسير في الطرق المتسعة فتجعل الرش منتظماً وسريعاً

وأما اذا اكتفي بالقُرَب تحمل على أكتاف البشر وبعض العجال تسير سير السلحفاة فلا تفضل هذه السنة السنة الماضية .

أما الغسل بالماء الغزير الجاري فهو الوسيلة الاخيرة المستعملة في التنظيف والشديدة الفائدة في الطرق المرصوفة بالخشب والبلاط والاسفلت والزفت ومضرة في الطرق المرصوفة بالحصى المكسرة فهو وحده كاف لتجريد الطرق من المواد التي ستستحيل غباراً متى جفت أو أوحالاً متى رطبت حتى أن وايل الاختصاصي الكبير في علم صحة المدن لم يحجم عن التصريح في الاجتماع الصحي الالماني العام الذي عقد سنة ١٩٠٢ بأن تطهير الطرق العامة بالمواد المطهّرة أمر نظري بحت لا فائدة منه البتة في الاستعمال وان التنظيف الحقيقي يقوم بالغسل الغزير بالماء الجاري فلماذا لا يستعمل مجلسنا البلدي هذه الواسطة في الطرق المرصوفة بالبلاط وهي كثيرة في دمشق والمياه غزيرة فيها لا تكلف نفقات كبيرة انها وحدها كفيلة بتنظيف الطرق المبلوطة تنظيفاً حسناً .

هذه هي الملاحظات التي أردت التنبيه اليها وحث المجلس البلدي على اتمامها فعسى أن يصل صوتي الى حيث أريد فيكون من كلامي الفائدة التي أتوخاها لهذه المدينة وساكنيها ويكون لهم من موضوعاتي خير مرشد الى العادات الصحية الحسنة المفيدة فتخف الأمراض وتخنق الأوبئة وتقوى الأبدان فتنوي فيها عقول كبيرة مفكرة لأن العقل السليم لا يلج هيكلاً متداعياً .

شيخ الاسلام ابن تيمية*

ليس في وسعي أن أحيط وصفاً بمواهب علامة الشرق الامام أحمد المعروف بابن تيمية الحراني الدمشقي ، فقد طبق الأرض بعصره علماً وإصلاحاً ، وملأ الكون صدعاً بالحق وجهاداً ، وسارت بعلومه الركبان ، وعطر أريج شمائله وأعماله الأرجاء .

في أرض دمشق غرست شجرة الاصلاح بيد ابن تيمية فأثمرت ونضجت ، ومن سمائها سطعت شمس السنة الغراء ، فأضاءت وعمّت ، وفي أجوائها علت صيحة الحق ففزعت جيوش البدع والأوهام ؛ وليس من غرضي أن أذكر كل ما قيلَ في ترجمة هذا النابغة الكبير ، فهو كما قال الذهبي ، أعظم من أن تصفه كلمي ، أو ينبه على شأوه قلمي ، فان سيرته وعلومه ، ومعارفه ومحنه ، وتنقلاته ، يحتمل أن توضع في مجلدين : وانما القصد أن نقتبس من نور خدمته العلمية ما ينير لنا طريق الحياة في سيرنا العلمي .

مولده ومنشؤه وتحصيله ومؤلفاته

قال العلامة الألوسي صاحب جلاء العينين (ص ٤) : في تاريخ مؤرخ الاسلام الحافظ الذهبي ، وتاريخ الحافظ ابن حجر العسقلاني شارح البخاري ، وتاريخ الحافظ ابن كثير ، وتاريخ فوات الوفيات للكتبي ، وشذرات الذهب لابن العماد ، وتاريخ ابن الوردي ، وغيرهم : هو شيخ الاسلام ، وحافظ الانام ، المجتهد في الأحكام ، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد

(*) محاضرة الاستاذ محمد بهجة البيطار ألقيت في قاعة المجمع العلمي العربي في نيسان سنة ١٩٢٣ ، ثم نقحت واضيف اليها صفحات في تاريخ هذا الامام العظيم ، رحمه الله .

الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن الخضر بن محمد بن تيمية الحراني الحنبلي ، وفي تاريخ اربل[1] أن جده سئل عن اسم (تيمية) فاجاب أن جده حج وكانت امرأته حاملاً فلما كان بتيماء — بلدة قرب تبوك — رأى جارية حسنة الوجه وقد خرجت من خباء ، فلما رجع وجد امرأته قد وضعت جارية فلما رفعوها اليه قال : يا تيمية ، ياتيمية ، يعني أنها تشبه التي رآها بتيماء ، فسمي بها انتهى . وفي فوات الوفيات : وقال ابن النجار : ذكر لنا أن محمداً هذا (أي الجد الأعلى لابن تيمية) كانت أمه تسمى تيمية وكانت واعظة فنسب اليها وعرف بها اهـ . ولد بحران[2] يوم الاثنين عاشر ربيع الاول سنة احدى وستين وستمائة وقدم به والده وبأخويه عند استيلاء التتار على البلاد الى دمشق سنة سبع وستين وستمائة ، فأخذ الفقه والاصول عن والده . وسمع عن خلق كثيرين منهم الشيخ شمس الدين ، والشيخ زين الدين بن المنجا ، والمجد ابن عساكر ، وقرأ العربية على ابن عبد القوي ثم أخذ كتاب سيبويه فتأمله وفهمه ، وعني بالحديث وسمع الكتب الستة والمسند مرات ؛ وأقبل على تفسير القرآن الكريم فبرز فيه ، وأحكم أصول الفقه والفرائض والحساب والجبر والمقابلة وغير ذلك من العلوم ، ونظر في الكلام والفلسفة وبرز في ذلك على أهله ، وردّ على رؤسائهم وأكابرهم ، وتأهل للفتوى والتدريس وله دون العشرين سنة ، وتضلع في علم الحديث وحفظه حتى قالوا : إن كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فهو ليس بحديث ، وأمده الله تعالى بكثرة الكتب وسرعة الحفظ وقوة الادراك والفهم ، وبطء النسيان ، حتى قال غير واحد انه لم يكن يحفظ شيئاً فينساه ؛ وألف في أغلب العلوم التأليفات العديدة ، في التفسير والفقه والأصول والحديث والكلام والردود على المبتدعة ، وله الفتاوى المفصلة ، وحل المسائل المعضلة ، وقد ذكر طائفة من مؤلفاته وعدّ منها كتاب بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول أربع مجلدات ، وإثبات المعاد

(١) بلدة في شمال العراق تقع الى الشرق من الموصل .
(٢) حران : بلد قرب الرها (اورفة) من أرض الجزيرة بين دجلة والفرات ، هي من بلاد الأناضول

وكتاب ثبوت النبوات عقلاً ونقلاً ، وكتاب الرد على الحلولية والاتحادية ، وكتاب الدرة المضية في فتاوي ابن تيمية ، وكتاب إصلاح الراعي والرعية ، ثم قال الذهبي : وما أبعد أن تصانيفه إلى الآن تبلغ خمسمائة مجلدا اهـ وقال الحافظ الذهبي : انه نشأ في تصوّن تام وعفاف ، وتأله وتعبد ، واقتصاد في الملبس والمأكل ، وكان يحضر المدارس والمحافل في صغره ، ويناظر ويفحم الكبار ، ويأتي بما يحار منه أعيان البلد في العلم ، فأفتى وله تسع عشرة سنة بل أقل ، وشرع في الجمع والتأليف من ذلك الوقت ، وأكب على الاشتغال ، ومات والده وكان من كبار أئمة الحنابلة ، فخلفه في وظائفه وله احدى وعشرون سنة ، واشتهر أمره وبعد صيته في العالم ، وأخذ في تفسير الكتاب العزيز أيام الجمع من حفظه ، فكان يورد المجلس ولا يتلعثم وذلك بتؤدة وصوت جهوري فصيح ، وكان آية في الذكاء وسرعة الادراك ، رأساً في معرفة الكتاب والسنة والاختلاف ، بحراً في النقليات . فريد عصره علماً وزهداً وشجاعة وسخاء ، وأمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر ، وكثرة تصانيف ، وقرأ وحصل وبرع في الحديث والفقه وتأهل للتدريس والفتوى وهو ابن سبع عشرة سنة ، وتقدم في علم التفسير والأصول ، وجمع علوم الاسلام أصولها وفروعها ودقيقها وجليلها ، (إلى أن قال) وكان له باع طويل في معرفة مذاهب الصحابة والتابعين ، وقل أن يتكلم في مسألة إلا ويذكر فيها أقوال المذاهب الأربعة .

ثناء الأئمة عليه

قال العلامة الشيخ مرعي الكرمي الحنبلي في كتابه (الكواكب الدرية)[1] الذي ألفه في مناقب الامام ابن تيمية : قد أكثر أئمة الاسلام ، من الثناء على هذا الامام ، كالحافظ المزي وابن دقيق العيد وأبي حيان النحوي

(١) من « مجموع : الرد الوافر » وما معه من الرسائل طبع مصر سنة ١٣٢٩ هـ

والحافظ ابن سيد الناس والحافظ الزملكاني والحافظ الذهبي وغيرهم من أئمة العلماء.

وقال الحافظ المزي : مارأيت مثله ولا رأى هو مثل نفسه . ومارأيت أحداً أعلم بكتاب الله وسنة رسوله ولا أتبع لهما منه .

وقال القاضي أبو الفتح بن دقيق العيد : لما اجتمعت بابن تيمية رأيت رجلاً كل العلوم بين عينيه يأخذ ما يريد ويدع ما يريد ، وقلت له ما كنت أظن أن الله بقي يخلق مثلك ! وقال الشيخ ابراهيم الرقي : إن تقي الدين يؤخذ عنه ويقلد في العلوم فان طال عمره ملأ الأرض علماً وهو على الحق ، ولا بد من أن يعاديه الناس لأنه وارث علم النبوة ، وقال قاضي القضاة ابن الحريري : ان لم يكن ابن تيمية شيخ الاسلام فمن هو ؟ . وقال فيه شيخ النحاة أبو حيان لما اجتمع به : ما رأت عيناي مثله ، ثم مدحه أبو حيان على البديهة في المجلس وقال :

لما أبينا تقي الدين لاح لنا ... داعٍ إلى الله فرداً ماله وزر
على محياه من سيما الألى صحبوا ... خير البرية نور دونه القمر
حبر تسربل منه دهرنا حبراً ... بحر تقاذف من أمواجه الدرر
قام ابن تيمية في نصر شرعتنا ... مقام سيد تيم اذ عصت مضر
وأظهر الحق إذ آثاره درست ... وأخمد الشر إذ طارت له شرر
كنا نحدث عن حبر يجيء فها ... أنت الامام الذي قد كان ينتظر

وقال الحافظ الزملكاني : لقد أعطي ابن تيمية اليد الطولى في حسن التصنيف ، وجودة العبارة والترتيب ، والتقسيم والتبيين ، وقد ألان الله له العلوم كما ألان لداود الحديد . كان إذا سئل عن فن من العلم ظن الرائي والسامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن . وحكم أن أحداً لايعرفه مثله (إلى أن قال) :

ماذا يقول الواصفون له ... وصفاته جلّت عن الحصر
هو حجة الله قاهرة ... هو بيننا أعجوبة الدهر

هو آية في الخلق ظاهرة ... أنوارها أربت على الفجر

وقال عماد الدين أبو العباس أحمد بن ابراهيم الواسطي عنه : انموذج الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين ، الذين غابت عن القلوب سيرهم ، ونسيت الامة حذوهم وسبيلهم ، فكان في دارس نهجهم سالكاً ، ولأعنة قواعدهم مالكاً : وقال في ذيل الصفحة الرابعة من كتاب القول الجلي في ترجمة الشيخ تقي الدين ابن تيمية الحنبلي : ومما وجد في كتاب كتبه قاضي القضاة أبو الحسن السبكي إلى الحافظ الذهبي في الشيخ تقي الدين ماصورته : وأما قول سيدي في الشيخ فالمملوك متحقق كبر قدره ، وزخارة بحره ، وتوسعه في العلوم الشرعية والعقلية ، وفرط ذكائه واجتهاده ، وبلوغه في كل من ذلك المبلغ الذي يتجاوز الوصف ، والمملوك يقول ذلك دائماً ، وقدره في نفسي أكبر من ذلك وأجل ، مع ماجمع الله له من الورع والزهادة والديانة ونصرة الحق ، والقيام فيه لا لغرض سواه ، وجريه على سنن السلف ، وأخذه من ذلك بالمأخذ الأوفى ، وغرابة مثله في هذا الزمان بل من أزمان انتهى .

زهده وايثاره

قال ابن فضل الله العمري كان يجيئه من المال في كل سنة مالا يكاد يحصى ، فينفقه جميعه آلافاً ومئين لا يلمس منه درهماً بيده ، ولا ينفقه في حاجته ، بل كان إذا لم يقدر يعمد إلى شيء من لباسه فيدفعه إلى السائل ، وهذا مشهور عند الناس من حاله .

حكى من يوثق به قال : كنت يوماً جالساً بحضرة شيخ الاسلام ابن تيمية فجاءه انسان فسلم عليه فرآه الشيخ محتاجاً إلى ما يعتم به فنزع الشيخ عمامته من غير أن يسأله الرجل فقطعها نصفين واعتم بنصفها ودفع النصف الآخر لذلك الرجل ولم يحتشم للحاضرين عنده : وحدث من يوثق

به أن الشيخ كان ماراً في بعض الأزقة فدعاله بعض الفقراء وعرف الشيخ حاجته ولم يكن مع الشيخ ما يعطيه ، فنزع ثوباً على جلده ودفعه اليه وقال بعه بما تيسر وأنفقه ، واعتذر إليه من كونه لم يحضر عنده شيء من النفقة اهـ .

شجاعة الامام وغيرته على الدين والوطن

أراد ملك الكرج أن يفتك بسكان دمشق من المسلمين ، ويسبي ذراريهم ونساءهم ، فبذل للسلطان غازان — وهو أول من أسلم من ملوك المغول — أموالاً طائلة على أن يمكنه منهم ، فلما اتصل الخبر بالامام قام من فوره وانتدب رجالاً من الوجوه والكبراء وذوي الأحلام الرجيحة وإليك خلاصة ماجرى باخبار من كان حاضراً ولا ينبئك مثل خبير :

قال في الكواكب الدرية : قال الشيخ كمال الدين بن امنجا : كنت حاضراً مع الشيخ فجعل يحدث السلطان بقول الله ورسوله في العدل وغيره ، ويرفع صوته على السلطان ، ويقرب منه في أثناء حديثه . حتى لقد قرب أن تلاصق ركبته ركبة السلطان ، والسلطان مع ذلك مقبل عليه بكليته ، مصغ لما يقول ، شاخص اليه لا يعرض عنه وأن السلطان مع شدة ما أوقع الله له في قلبه من المحبة والهيبة سأل من هذا الشيخ فاني لم أر مثله ولا أثبت قلباً منه ، ولا أوقع من حديثه في قلبي ، ولا رأيتني أعظم انقياداً لأحد منه ؛ فأخبر بحاله وما هو عليه من العلم والعمل ، فقال الشيخ للترجمان قل لغازان : أنت تزعم أنك مسلم ومعك قاض وإمام وشيخ ومؤذنون على مابلغنا ، فغزوتنا ، وأبوك وجدك كانا كافرين وما عملا الذي عملت : عاهدا فوفيا وأنت عاهدت فغدرت ، وقلت فما وفيت وجرت ، ثم خرج من بين يديه مكرماً معززاً . بذل نفسه في طلب حقن دماء المسلمين فبلغه الله تعالى ما أراده . وكان أيضاً سبباً لتخليص غالب أسارى المسلمين من

أيديهم ، وردهم على أهليهم ، وحفظ حريمهم ، وكان يقول : لن يخاف الرجل غير الله إلا لمرض في قلبه .

وأخبر قاضي القضاة أبو العباس أنهم لما حضروا مجلس غازان قدم لهم طعام فأكلوا منه إلا ابن تيمية فقيل : لِمَ لمْ تأكل ؟ فقال : كيف آكل من طعامك وكله مما نهبتم من أغنام الناس طبختموه بما قطعتم من أشجار الناس . ثم ان غازان طلب منه الدعاء فقال في دعائه : اللهم إن كنت تعلم أنه إنما قاتل لتكون كلمة الله هي العليا وجاهد في سبيلك أن تؤيده وتنصره ، وان كان الملك والدنيا والكاثر أن تفعل به وتصنع . وقد ذكر الكتبي من شجاعة الامام أنه شكا اليه انسان من قطلوبك الكبير وظلمه له وكان فيه جبروت وأخذ أموال الناس واغتصابها — وحكاياته في ذلك مشهورة — فدخل عليه الشيخ وتكلم معه فقال له قطلوبك : أنا كنت أريد أن أجيء إليك لأنك عالم زاهد . يعني يستهزئ به ، فقال له : موسى كان خيراً مني وفرعون كان شراً منك ، وكان موسى يجيء إلى باب فرعون كل يوم ثلاث مرات ويعرض عليه الايمان .

ومن مساعيه المشكورة في خدمة أبناء الملل السماوية سعيه في إطلاق أسرى المسلمين والمسيحيين واليهود على السواء ، وإصراره على ذلك ، ولم يرض باطلاق أسارى المسلمين فقط ؛ وإنما فعل ذلك عملاً بقواعد دينه العام ، الذي يوجب المساواة في الحقوق والأحكام ، بين جميع من يظلهم سلطان الاسلام ، وإليك شذرة مما كتبه في الرسالة القبرصية خطاباً لسرجوان ملك قبرص ، قال(١) :

ونحن قوم نحب الخير لكل أحد ، ونحب أن يجمع الله لكم خير الدنيا والآخرة ، فان أعظم ماعبد الله به نصيحة خلقه ، وبذلك بعث الله

(١) (ص ١٢) والرسالة مطبوعة بمطبعة المؤيد بمصر سنة ١٣١٩ هجرية .

الأنبياء والمرسلين ، ولا نصيحة أعظم من النصيحة فيما بين العبد وبين ربه ، فانه لابد للعبد من لقاء الله ، ولا بد أن الله يحاسب عبده كما قال تعالى : « فلنسألنّ الذين أرسل إليهم ولنسألنّ المرسلين » (إلى أن قال) :

وقد عرف النصارى كلهم أني لما خاطبت التتار في إطلاق الأسرى ، وأطلقهم غازان وقطلوشاه ، وخاطبت مولاي فيهم فسمح باطلاق المسلمين قال لي : لكن معنا نصارى أخذناهم من القدس ، فهؤلاء لايطلقون ، فقلت له : بل جميع من معك من اليهود والنصارى الذين هم أهل ذمتنا فانا نفتكهم ولا ندع أسيراً لا من أهل الملة ولا من أهل الذمة ، وأطلقنا من النصارى من شاء الله . فهذا عملنا وإحساننا والجزاء على الله .

وكذلك السبي الذي بين أيدينا من النصارى يعلم كل أحد احساننا ورحمتنا ورأفتنا بهم كما أوصانا خاتم النبيين اهـ .

ومن شجاعته ما حكاه في الكواكب قال : لما وشوا به إلى السلطان الاعظم الملك الناصر لدين الله وأحضره بين يديه قال من جملة كلامه انني أخبرت أنك قد أطاعك الناس ، وان في نفسك أخذ الملك ، فلم يكترث به ، بل قال له بنفس مطمئنة وقلب ثابت ، وصوت عال سمعه كثير ممن حضر : أنا أفعل ذلك ؟ والله إن ملكك وملك المغل لا يساوي عندي فلساً . فتبسم السلطان لذلك ، وأجابه في مقابلته بما أوقع الله له في قلبه من الهيبة العظيمة : إنك والله لصادق وان الذي وشى بك اليّ لكاذب ، واستقر له في قلبه من المحبة الدينية مالولاه لكان قد فتك به منذ دهر طويل من كثرة ما يلقى إليه في حقه من أقاويل الزور والبهتان ، ممن ظاهر حاله العدالة ، وباطنه مشحون بالفسق والجهالة .

* * *

محن ابن تيمية ونبذة من عقيدته الحموية

قال العلامة الشيخ مرعي في الكواكب (١) : قلّ من يسلم من أهل الفضل والدين في هذه الدنيا بلا محنة وابتلاء وخوض فيه ، لأنه لم يداهن الناس ويصانعهم ، ولذا قال صديقه على حدّ قوله : (ما ترك الحقّ من صديق لعمر) وقال سفيان الثوري : إذا رأيت الرجل يثني عليه جيرانه فاعلم أنه مداهن .

(قال) وما وقع من المحنة للأئمة كأبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد والبخاري مشهور كما بينته في كتابنا تنوير بصائر المقلدين في مناقب الأئمة المجتهدين (ثم قال) هذا وشيخ الاسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ امتحن بمحن ، وخاض فيه أقوام ، ونسبوه للبدع والتجسيم ، وهو من ذلك بريء . فأول محنة كما نقله الثقات في شهر ربيع الأول سنة ثمان وتسعين وستمائة بسبب عقيدته الحموية الكبرى ، وهي جواب سؤال ورد من حماة فوضعها ما بين الظهر والعصر في ست كراريس بقطع نصف البلدي ، فجرى له بسبب تأليفها أمور ومحن لترجيحه مذهب السلف على مذهب المتكلمين وتشنيعه عليهم (فمن بعض قوله في مقدمتها) ما قاله الله سبحانه ورسوله صلى الله عليه وسلم والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم باحسان ، وما قاله أئمة الهدى بعد هؤلاء الذين أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم هو الواجب على جميع الخلق في هذا الباب وفي غيره . ومن المحال أن يكون خير أمة وأفضل قرونها قصروا في هذا الباب زائدين فيه أو ناقصين عنه ، ثم من المحال أيضاً أن تكون القرون الفاضلة قرن الذين بعث فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، كانوا غير عالمين وغير قائلين في هذا الباب بالحق المبين . قال : ظنوا أن طريقة السلف هي مجرد الايمان بألفاظ

(١) ص ١٦٧ من « المجموع المطبوع » .

القرآن والحديث من غير فقه لذلك ، بمنزلة الأميين . وأن طريقة الخلف هي استخراج معاني النصوص المصروفة عن حقائقها بأنواع المجازات وغرائب اللغات .

وقال : فهذا الظن الفاسد أوجبه اعتقاد أنهم كانوا أميين بمنزلة الصالحين من العامة لم يتحروا في حقائق العلم بالله ، ولم يتفطنوا لدقيق العلم الالهي ، وان الخلف الفضلاء حازوا قصب السبق في هذا كله كيف يكون هؤلاء المتأخرون لا سيما والاشارة بالخلف إلى ضرب من المتكلمين الذين كثر في باب الدين اضطرابهم ، وغلظ عن معرفة الله حجابهم ، وأخبر الواقف على نهاية إقدامهم ، بما انتهى إليه من مرامهم ، يقول الامام فخر الدين الرازي :

لعمري لقد طفت المعاهد كلها وسيَّرت طرفي بين تلك المعالم
فلم أرَ إلا واضعاً كفَّ حائرٍ على ذَقَنٍ أو قارعاً سنَّ نادم

وأقروا على أنفسهم بما قالوه متمثلين به ومنشئين له فيما صنفوه من كتبهم ، مثل قول بعض رؤسائهم :

نهاية إقدام العقول عقال وغاية سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

ويقول آخر منهم : لقد تأملت الطرق الكلامية ، والمناهج الفلسفية ، فما رأيتها تشفي عليلاً ، ولا تروي غليلاً . ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن أقرأ في الاثبات : إليه يصعد الكلم الطيب : الرحمن على العرش استوى ، واقرأ في النفي : ليس كمثله شيء ، ولا يحيطون به علماً ، ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي . ويقول الآخر منهم : لقد خضت البحر الخضم ، وتركت أهل الاسلام وعلومهم ، وخضت في الذي نهوني عنه ، والآن إن لم يتداركني ربي برحمته فالويل لفلان وها أنا (ذا) أموت على عقيدة أمي اهـ .

مناظرته رحمه الله

كان شيخ الاسلام يرجح في أمر المعتقد مذهب السلف الصالح ويعض عليه بالنواجذ ، ويحاول إرجاع الناس إليه بكل الوسائل ، ويرى رأي إمام دار الهجرة مالك بن أنس من أنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها ، وهو رأيُ كل حكيم عليم بداء الأمة ودوائها قديماً وحديثاً . وكان شديد الانتصار لمذهب السلف والدفاع عنه بالحجج العقلية والنقلية ، وقد عقدت له مناظرات في مصر والشام ؛ كان معظمها يحوم حول هذه القضية ؛ وقد كان سئل أن يكتب المناظرات الثلاث التي جرت له في الشام فكتبها . وإني أنقل منها المناظرة الثانية من كتاب (غاية الأماني) للعلامة أبي المعالي السلامي لتكون مثالاً من مناظراته قال : أما بعد فقد سئلت غير مرة أن أكتب ما حضرني ذكره مما جرى في المجالس الثلاثة المعقودة المناظرة في أمر الاعتقاد بمقتضى ما ورد من كتاب ذي السلطان من الديار المصرية إلى نائبه أمير البلاد ، لمَّا سعى إليه قوم من الجهمية والاتحادية والرافضة وغيرهم من ذوي الأحقاد ، فأمر الأمير بجمع القضاة الأربعة قضاة المذاهب الأربعة ، وغيرهم من نوابهم والمفتين والمشايخ ممن له حرمة وبه اعتداد ، وهم لا يدرون ما قصد بجمعهم في هذا الميعاد ، وذلك يوم الاثنين ثامن رجب المبارك عام خمس وسبعمائة . فقال لي : هذا المجلس عُقد لك ، فقد ورد مرسوم من السلطان بأن أسألك عن اعتقادك ، وعما كتبت به إلى الديار المصرية من الكتب التي تدعو بها الناس إلى الاعتقاد ، وأظنه قال : وأن أجمع القضاة والفقهاء يتباحثون في ذلك . فقلت : أما الاعتقاد فلا يؤخذ عني ولا عن من هو أكبر مني ، بل يؤخذ عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وما أجمع عليه سلف الأمة ، فما كان في القرآن وجب اعتقاده ، وكذلك ما ثبت في الأحاديث الصحيحة

مثل صحيح البخاري ومسلم . وأما الكتب فما كتبت إلى أحد ابتداء أدعو به إلى شيء من ذلك ، ولكني كتبت أجوبة أجبت بها من سألني من أهل الديار المصرية وغيرهم ، وكان قد بلغني أنه زوّر عليّ كتاب إلى الأمير ركن الدين الجاشنكير أستاذ ذي السلطان يتضمن ذكر عقيدة محرفة ولم أعلم بحقيقته لكن علمت أنه مكذوب .

وكان يرد عليّ من مصر وغيرها من يسألني عن مسائل في الاعتقاد فأجيبه بالكتاب والسنة وما كان عليه سلف الأمة ، فقال : نريد أن تكتب لنا عقيدتك فقلت : اكتبوا ، فأمر الشيخ كمال الدين أن يكتب فكتب له جمل الاعتقاد في أبواب الصفات والقدر ومسائل الايمان والوعيد والامامة والتفضيل . وهو أن اعتقاد أهل السنة والجماعة الايمان بما وصف الله به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ، ولا تكييف ولا تمثيل ، وأن القرآن كلام الله غير مخلوق ، منه بدا وإليه يعود ، والايمان بأن الله خالق كل شيء من أفعال العباد وغيرها ، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه أمر بالطاعة وأحبها ورضيها ، ونهى عن المعصية وكرهها ، والعبد فاعل حقيقة ، والله خالق فعله ، وان الايمان والدين قول ، وعمل ، يزيد وينقص ، وأن لا نكفر أحداً من أهل القبلة بالذنوب ، ولا نخلد في النار من أهل الايمان أحداً ، وأن الخلفاء بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي (ثم قلت) للأمير والحاضرين : أنا أعلم أن أقواماً يكذبون عليّ كما قد كذبوا غير مرة ؛ وإن أمليت الاعتقاد من حفظي ربما يقولون : كتم بعضه أو داهن أو دارى ، فأنا أحضر عقيدة مكتوبة من نحو سبع سنين قبل أن يجيء التتر إلى الشام ، وقلت قبل حضورها كلاماً قد بعُد عهدي به وغضبت غضباً شديداً لكني أذكر أني قلت أنا أعلم أن أقواماً كذبوا علي وقالوا للسلطان شيئاً وتكلمت بكلام احتجت إليه . مثل أن

قلت من قام بالاسلام أوقات الحاجة غيري ؟ ومن الذي أوضح دلائله وبينه وجاهد أعداءه واقامه لما مال ، حين تخلى عنه كل أحد ، ولا أحد ينطق بحجته ، ولا أحد يجاهد عنه ، وقمت مظهراً الحجة ، مجاهداً عنه مرغماً فيه ، فاذا (كان) هؤلاء يطعنون في الكلام فيّ فكيف يصنعون بغيري ، ولو أن يهودياً طلب من السلطان الانصاف لوجب عليه أن ينصفه ، وأنا قد أعفو عن حقي وقد لا أعفو بل أطلب الانصاف منه وان يحضر هؤلاء الذين يكذبون ليكافأوا على افترائهم ، وقلت كلاماً أطول من هذا الجنس لكن بعد عهدي به .

فأشار الأمير الى كاتب الدرج محيي الدين أن يكتب في ذلك وقلت أيضاً : كل من خالفني في شيء مما كتبته فانا أعلم بمذهبه منه : ثم قرئت العقيدة في الجلسة فاعترض بعضهم على مسائل منها ، فاجاب الشيخ عنها . وكتبت هذه المناظرة الاولى نحو ثمان صفحات ، ثم قال شيخ الاسلام :

فصل

فلما كان المجلس الثاني يوم الجمعة في اثني عشر رجب ، وقد أحضروا أكبر شيوخهم ممن لم يكن حاضراً ذلك المجلس ، وأحضروا معهم زيادة : (صفي الدين الهندي) وقالوا : هذا أفضل الجماعة وشيخهم في علم الكلام ، وبحثوا فيما بينهم ، واتفقوا وتعاطوا وحضروا بقوة واستعداد للمخاطب الذي هو المسؤول والمجيب والمناظر ؛ فلما اجتمعنا وقد أحضرت ما كتبته من الجواب عن أسئلتهم المتقدمة الذي طلبوا تأخيره إلى اليوم حمدت الله بخطبة الحاجة خطبة ابن مسعود (رضي الله عنه) (ثم قلت) إن الله تعالى أمرنا بالجماعة والائتلاف ونهانا عن الفرقة والاختلاف وقال لنا في القرآن : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » (وقال) : (ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء » وقال : « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ماجاءهم البينات » ربنا واحد ، وكتابنا واحد ، ونبينا واحد ، وأصول

الدين لا تحتمل التفرق والاختلاف ، وأنا أقول مايوجب الجماعة بين المسلمين ، وهو متفق عليه بين السلف ، فان وافق الجماعة فالحمد لله ، وإلا فمن خالفني بعد ذلك كشفت الاسرار ، وهتكت الأستار ، وبينت المذاهب الفاسدة التي أفسدت الملل والدول وأنا أذهب إلى سلطان الوقت على البريد ، وأعرفه من الأمور مالا أقوله في هذا المجلس فان للسلم كلاماً ، وللحرب كلاماً ، (وقلت) : لاشك ان الناس يتنازعون ، يقول هذا أنا حنبلي ، ويقول هذا أنا أشعري ، ويجري بينهم تفرق وفتن واختلاف على أمور لا يعرفون حقيقتها ، وأنا قد أحضرت مايبيّن اتفاق المذاهب فيما ذكرته ، وأحضرت كتاب تبيين كذب المفتري[1] . فيما ينسب الى الشيخ أبي الحسن الأشعري تأليف الحافظ أبي القاسم بن عساكر (رحمه الله) (وقلت) لم يصنف في أخبار الأشعري المحمودة كتاب مثل هذا وقد ذكر فيه لفظه الذي ذكره في كتابه « الابانة » فلما انتهيت الى ذكر المعتزلة سأل الأمير عن معنى المعتزلة . فقلت : كان الناس في قديم الزمان قد اختلفوا في الفاسق الملي وهو أوّل اختلاف حدث في الملة : هل هو كافر أو مؤمن فقالت الخوارج إنه كافر ، وقالت الجماعة إنه مؤمن ، وقالت طائفة نقول هو فاسق لا مؤمن ولا كافر ، نزله منزلة بين المنزلتين وخلدوه في النار ، واعتزلوا حلقة الحسن البصري وأصحابه (رحمه الله تعالى) فسموا معتزلة (وقال الشيخ الكبير) بحيته وردائه : ليس كما قلت ، ولكن أول مسألة اختلف فيها المسلمون مسألة الكلام وسمي المتكلمون متكلمين لأجل تكلمهم في ذلك ، وكان أول من قالها عمرو بن عبيد ، ثم خلف بعد موته عطاء بن واصل ، وبعد أن ردّ الامام عليه خطأه قال (قلت) الناس اختلفوا في مسألة الكلام في خلافة المأمون وبعدها في أواخر المائة الثانية ، (وأما المعتزلة) فقد كانوا قبل ذلك بكثير من زمن عمرو بن عبيد بعد موت

(١) عني بنشره القدسي بدمشق سنة ١٣٤٧ هـ .

الحسن البصري في أوائل المائة الثانية . ولم يكن أولئك قد تكلموا في مسألة الكلام ولا تنازعوا فيها ؛ وانما أول بدعتهم تكلمهم في مسائل الأسماء والأحكام والوعيد (فقال هذا ذكره الشهرستاني في الملل والنحل فقلت : الشهرستاني ذكره في اسم المتكلمين لم يسمّوا متكلمين ، لم يذكره في اسم المعتزلة ، والأمير إنما سأل عن اسم المعتزلة ؛ وأنكر الحاضرون عليه ، وقالوا غلطت ، وقلت في ضمن كلام : أنا أعلم كل بدعة حدثت في الاسلام وأول من ابتدعها وما كان سبب ابتداعها ؛ وأيضاً فما ذكره الشهرستاني ليس بصحيح في اسم المتكلمين . فان المتكلمين كانوا يسمّون بهذا الاسم قبل منازعتهم في مسألة الكلام ، وكانوا يقولون عن واصل بن عطاء انه متكلم ويصفونه بالكلام ولم يكن الناس اختلفوا في مسألة الكلام وقلت أنا وغيري انما هو واصل بن عطاء أي لاعطاء بن واصل كما ذكره المعترض (قلت) : وواصل لم يكن بعد موت عمرو بن عبيد وانما كان قرينه وقد روى أن واصلاً تكلم مرة بكلام ، فقال عمرو بن عبيد : لو بعث نبياً ما كان يتكلم بأحسن من هذا ، وفصاحته مشهورة حتى قيل إنه ألثغ وكان يحترز عن الراء حتى قيل له أمر الأمير أن يحفر بئر فقال أوعز القائد أن يقلب قليب .

ولما انتهى الكلام إلى ما قاله الأشعري قال الشيخ المقدم فهم لاريب أن الامام أحمد إمام عظيم القدر من أكبر أئمة الاسلام لكن قد انتسب إليه أناس ابتدعوا أشياء (فقلت) أما هذا فحق ، وليس هذا من خصائص أحمد بل مامن إمام إلا وقد انتسب إليه أقوام هو منهم بريء وقد انتسب إلى مالك أناس مالك بريء منهم ، وانتسب إلى الشافعي أناس هو بريء منهم ، وانتسب إلى أبي حنيفة أناس هو بريء منهم ، وقد انتسب إلى موسى عليه السلام أناس هو بريء منهم ، وانتسب إلى عيسى (عليه السلام) أناس هو منهم بريء ، وقد انتسب الى علي بن أبي طالب أناس هو بريء منهم ، ونبينا ﷺ قد انتسب إليه من القرامطة والباطنية وغيرهم من أصناف

الملحدة والمنافقين من هو بريء منهم (قال) وذكر في كلامه أنه انتسب إلى أحمد من الحشوية والمشبهة ونحو هذا الكلام (فقلت) المشبهة والمجسمة في غير أصحاب الامام أحمد أكثر منهم فيهم : وبعد أن عدّ أصنافهم من غير الحنابلة (قال) وتكلمت عن لفظ الحشوية ما أدري جواباً عن سؤال الأمير أو غيره أو غير جواب . فقلت هذا اللفظ أول من ابتدعه المعتزلة فانهم يسمون الجماعة والسواد الأعظم (الحشو) (قال) وحشو الناس هم عموم الناس وجمهورهم . وهم غير الأعيان المتميزين يقولون هذا من حشو الناس كما يقال هذا من جمهورهم . وأول من تكلم بهذا عمرو بن عبيد قال أي عمرو وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنه حشوياً .

(وقلت) لا أدري في المجلس الأول أو الثاني : أول من قال ان الله جسم هشام بن الحكم الرافضي (قلت) لهذا الشيخ : من في أصحاب الامام أحمد حشوي بالمعنى الذي تريده : الأثرم ، أبو داود ، المروزي ، الخلال ، أبو بكر ، عبد العزيز ، أبو الحسن التميمي ، ابن حامد ، القاضي ابو يعلى ، أبو الخطاب ، ابن عقيل ، ورفعت صوتي وقلت سمهم قل لي من هم ؟ من هم ؟ ؟ أيكذب ابن الخطيب وافتراءه على الناس في مذاهبهم تبطل الشريعة وتندرس معالم الدين ، كما نقل هو وغيره عنهم انهم يقولون إن القرآن القديم هو أصوات القارئين ومداد الكاتبين وان الصوت والمداد قديم أزلي ؟

من قال هذا ؟ وفي أي كتاب وجد هذا عنهم ؟ قل لي ، وكما نقل عنهم ان الله لا يُرى في الآخرة باللزوم الذي ادعاه والمقدمة التي نقلها . وأخذت أذكر ما يستحقه هذا الشيخ من أنه كبير الجماعة وشيخهم وأن فيه من العقل والدين ما يستحق أن يعامل بموجبه ، وأمرت بقراءة العقيدة جميعها عليه فانه لم يكن حاضراً في المجلس الأول وإنما أحضروه في الثاني انتصاراً . وحدثني الثقة عنه بعد خروجه من المجلس انه اجتمع به وقال له أخبرني عن هذا المجلس ، فقال : مالفلان ذنب ولا لي : فان الأمير

سأل عن شيء فأجابه عنه . فظننته سأل عن شيء آخر . وقال قلت أنتم مالكم على الرجل اعتراض فانه نصر ترك التأويل ، وأنتم تنصرون قول التأويل وهما قولان للأشعري . وقال : أنا أختار قول ترك التأويل وأخرج وصيته التي أوصى بها : وفيها : قولي ترك التأويل (قال الحاكي له) فقلت له بلغني عنك أنك قلت في آخر المجلس لما أشهد الجماعة على أنفسهم بالموافقة : لا تكتبوا عني نفياً ولا اثباتاً فلم ذاك ؟ قال : لوجهين (أحدهما) اني لم أحضر قراءة جميع العقيدة في المجلس الأول . والثاني لأن أصحابي طلبوني لينتصروا بي فما كان يليق أن أظهر مخالفتهم فسكت عن الطائفتين اهـ باختصار قليل .

اعتقال شيخ الاسلام في مصر والشام وسببه

نقل صاحب الكواكب الدرية عن الشيخ علم الدين أنه في شهر ربيع الأول سنة ٦٩٨ وقع بدمشق محنة للشيخ الامام تقي الدين بن تيمية . وكان الشروع فيها من أول الشهر ، وكان سببها ترجيحه مذهب السلف في الصفات على مذهب المتكلمين ، وكان قبل ذلك بقليل أنكر أمر المنجمين ، ثم عقدت له عدة مجالس المناظرة في مصر والشام ، وحبس في القطرين ، وقد ذكرنا في الفصل السابق احدى تلك المناظرات . ونقل صاحب جلاء العينين عن الحافظ ابن كثير قال وأكثر ماتألموا منه (أي أعداؤه) الحبس مع أنه لا ينقطع في بحث لا بمصر ولا بالشام ، ولم يتوجه لهم عليه مايشين وانما أخذوه وحبسوه بالجاه ، كما سيأتي اهـ .

قيل ومن جملة أسباب حبسه خوفهم أنه ربما يدعي ويطلب الامارة فلقي أعداؤه عليه طريقاً من ذلك ، فحسنوا للأمراء حبسه لسد تلك المسالك اهـ .

حاله في معتقله ، ووفاته في قلعة دمشق

ذكر صاحب الكواكب الدرية : أن الشيخ لما سجن في مصر بحبس القضاة بحارة الديلم صار الحبس بالاشتغال بالعلم والدين خيراً من كثير من

الزوايا والربط والخوانق والمدارس . وصار خلق من المحابيس إذا أطلقوا يختارون الاقامة عنده . وكثر المترددون اليه حتى صار السجن يمتلىء منهم .

ولما ورد أمر بسجنه بقلعة دمشق أظهر السرور بذلك وقال إني كنت منتظراً ذلك وهذا فيه خير عظيم . ونقل عنه وارث علومه العلامة ابن قيم الجوزية الذي حبس بقلعة دمشق معه في كتابه (الكلم الطيب والعمل الصالح) انه قال : مايصنع أعدائي بي ، أنا جنتي وبستاني في صدري أين رحت فهي معي لاتفارقني . أنا حبسي خلوة ، وقتلي شهادة ، وإخراجي من بلدي سياحة ؛ وكان يقول في مجلسه في القلعة : لو بذلت ملء هذه القلعة ذهباً ماعدل عندي شكر هذه النعمة ، أو قال ماجزيتهم على ماتسبّبوا إليّ فيه من الخير ونحو هذا . وكان يقول في سجوده وهو محبوس : اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك ماشاء الله وقال لي مرة : المحبوس من حبس قلبه عن ربه . والمأسور من أسره هواه . ولما أدخل ووصل إلى القلعة وصار داخل سورها نظر إليه وقال : « فضرب بينهم بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب » وعلم الله ما رأيت أحداً أطيب عيشاً منه قط . مع ما كان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية والنعيم بل ضدها . ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والارجاف . وهو مع ذلك أطيب الناس عيشاً ، وأشرحهم صدراً ، وأقواهم قلباً ، وأسرّهم نفساً ، تلوح نضرة النعيم على وجهه ؛ وكنا إذا اشتد بنا الخوف وساءت بنا الظنون ، وضاقت بنا الأرض ، أتيناه فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك كله ، فينقلب انشراحاً وقوة ويقيناً وطمأنينة . فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه ، وفتح لهم أبوابها في دار العمل ، فاتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ماستفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها ، وكان بعض العارفين يقول . لو علم الملوك وأبناء الملوك مانحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف اه وكان دخوله قلعة دمشق سادس شعبان ٧٢٦ وما زال مقيماً في قاعتها إلى أن كانت وفاته ليلة الاثنين لعشرين من ذي القعدة سنة ٧٢٨ .

الاحتفال بالصلاة على شيخ الاسلام ورفقه

دخلت جنازة الامام جامع بني أمية ، وصلي عليه عقب صلاة الظهر ولم يبق في دمشق من يستطيع المجيء للصلاة عليه إلا حضر لذلك حتى غلقت الأسواق بدمشق ، وعطلت معايشها حينئذ ، وحصل للناس بمصابه أمر شغلهم عن غالب أمورهم وأسبابهم . وخرج الامراء والرؤساء والعلماء والفقهاء ، والأتراك والأجناد ، والرجال والنساء والصبيان من الخواص والعوام ، قال بعض من حضر ولم يتخلف فيما أعلم إلا ثلاثة أنفس كانوا قد اشتهروا بمعاندته فاختفوا من الناس خوفاً على أنفسهم بحيث غلب على ظنهم أنهم متى خرجوا رجمهم الناس .

واتفق جماعة ممن حضر وشاهد الناس والمصلين عليه انهم يزيدون على نحو من خمسمائة ألف وحضرها نساء كثير بحيث حزرن بخمسة عشر الفاً . قال أهل التاريخ لم يسمع بجنازة تمثل هذا الجمع إلا جنازة الامام أحمد ابن حنبل . قال الدار قطني : سمعت أبا سهل بن زياد القطان يقول : سمعت عبد الله بن أحمد بن حنبل يقول سمعت أبي يقول : قولوا لأهل البدع : بيننا وبينكم الجنائز . قال أبو عبد الرحمن السلمي أنه حزر الحزارون المصلين على جنازة أحمد ، فبلغ العدد بحزرهم الف الف وسبعمائة الف سوى الذين كانوا في السفن . ثم حملت جنازة الشيخ إلى قبره في مقبرة الصوفية فوضع . وقد جاء الملك شمس الدين الوزير ولم يكن حاضراً قبل ذلك فصلى عليه أيضاً ومن معه من الامراء والكبراء ومن شاء الله من الناس . ثم دفن وقت العصر إلى جانب أخيه الشيخ جمال الاسلام شرف الدين . انتهى من الكواكب باختصار .

* * *

خلاصة أعماله رحمه الله

تنقل عن فوات الوفيات[1]، خلاصة أعماله التي طار بها ذكره في البلاد، وهو قد نقلها من كتاب (تذكرة الحفاظ) للحافظ ابن عبد الهادي. وقد آثرت نقلها لتكون فهرساً لأعمال شيخ الاسلام من سنة ٦٩٨ الى سنة ٧٢٨ وهي سنة وفاته.

قال ابن عبد الهادي قلت: أملى شيخنا المسألة المعروفة بالحموية سنة ٩٨ في قعدة بين الظهر والعصر وهو جواب سؤال ورد من حماة في الصفات، وجرى له بسبب ذلك محنة، ونصره الله وأذل أعداءه، وما حصل له بعد ذلك إلى حين وفاته من الأمور والمحن والتنقلات يحتاج الى عدة مجلدات، وذلك كقيامه في نوبة غازان سنة ٦٩٩ وقيامه باعباء الأمر بنفسه، واجتماعه هو بنائبه قطلوشاه وبولاي، واقدامه وجرأته على المغول، وعظيم جهاده، وفعله الخير، من انفاق الأموال، واطعام الطعام، ودفن الموتى؛ ثم توجه بعد ذلك بعام إلى الديار المصرية، وسوقه على البريد اليها في جمعة لما قدم التتار إلى أطراف البلاد، واشتد الأمر بالبلاد الشامية. واجتماعه باركان الدولة واستصراخه بهم، وحضهم على الجهاد، واخباره لهم بما أعد الله للمجاهدين من الثواب، وابدائهم له العذر في رجوعهم، وتعظيمهم له، وتردد الاعيان إلى زيارته، واجتماع ابن دقيق العيد به، وسماعه كلامه، وثنائه عليه الثناء العظيم. ثم توجه بعد أيام الى دمشق واشتغاله بالاهتمام لجهاد التتار، وتحريض الامراء على ذلك الى ورود الخبر بانصرافهم، وقيامه في وقعة شقحب المشهورة سنة ٧٠٢ واجتماعه بالخليفة والسلطان وأرباب الحل والعقد وأعيان الامراء، وتحريضه لهم على الجهاد وموعظته لهم، وما ظهر في هذه الوقعة من كراماته وإجابة دعائه وعظيم جهاده،

(١) (ج ١ ص ٤٠) طبع مصر سنة ١٢٩٩ هـ.

وقوة إيمانه وشدة نصحه للاسلام، وفرط شجاعته؛ ثم توجه بعد ذلك في آخر سنة أربع لقتال الكسروانيين وجهادهم واستئصال شأفتهم، ثم مناظرته للمخالفين سنة (٥) في المجالس التي عقدت له بحضرة نائب السلطنة الأفرم وظهوره عليهم بالحجة والبيان، ورجوعهم الى قوله طائعين ومكرهين، ثم توجه بعد ذلك في السنة المذكورة الى الديار المصرية في صحبة قاضي الشافعية، وعقد له مجلس حين وصوله بحضور القضاة وأكابر الدولة، ثم حبسه بالجب بقلعة الجبل ومعه أخواه سنة ونصفاً، ثم خروجه بعد ذلك وعقد مجلس له لخصومتهم، وظهوره عليهم، ثم اقرائه للعلم وبثه ونشره؛ ثم عقد مجلس له في شهر شوال سنة (٧) لكلامه في الاتحادية وطعنه (عليهم)، ثم الأمر بتسفيره الى الشام على البريد؛ ثم الأمر بردّه من مرحلة وسجنه بحبس القضاة سنة ونصفاً، وتعليمه أهل الحبس ما يحتاجون إليه من أمور الدين، ثم اخراجه منه وتوجهه إلى الاسكندرية وجعله في برج حبس فيه ثمانية أشهر يدخل إليه من شاء، ثم توجه إلى مصر واجتماعه بالسلطان في مجلس حفل فيه القضاة وأعيان الامراء واكرامه له اكراماً عظيماً، ومشاورته له في قتل بعض اعدائه وامتناع الشيخ من ذلك، وجعله كلّ من آذاه في حلّ، ثم سكناه بالقاهرة وعوده إلى نشر العلوم ونفع الخلق، وما جرى بعد ذلك من قضية البكري وغيرها، ثم توجه بعد ذلك الى الشام صحبة الجيش المنصور قاصداً العراق بعد غيبته عن دمشق سبع سنين وسبع جمع، وتوجهه في طريقه إلى بيت المقدس، ثم ملازمته بعد ذلك بدمشق لنشر العلوم وتصنيف الكتب وإفناء الخلق، إلى أن تكلم في مسألة الحلف بالطلاق فأشار عليه بعض القضاة بترك الافتاء بها في سنه ثمان عشرة، فقبل إشارته، ثم ورد كتاب السلطان بعد أيام بالمنع من الفتوى فيها؛ ثم عاد الشيخ إلى الافتاء بها وقال لا يسعني كتمان العلم، وبقي كذلك مدة إلى أن حبسوه بالقلعة خمسة أشهر وثمانية عشر يوماً، ثم أخرج ورجع الى عادته من الاشتغال والتعليم؛ ولم يزل كذلك إلى أن ظفروا له بجواب

يتعلق بمسألة شد الرحال الى قبور الأنبياء والصالحين كان قد أجاب به من نحو عشرين سنة فشنعوا عليه بسبب ذلك ، وكبرت القضية وورد مرسوم السلطان في شعبان من سنة ست وعشرين بحبسه في القلعة ، فأخليت له قاعة حسنة وأجري إليها الماء وأقام فيها ومعه أخوه يخدمه ، وأقبل في هذه المدة على العبادة والتلاوة وتصنيف الكتب والرد على المخالفين ، وكتب على تفسير القرآن العظيم جملة كبيرة تشتمل على نفائس جليلة ، ونكت دقيقة ، ومعان لطيفة ، وأوضح مواضع كثيرة التبست على خلق من المفسرين ، وكتب في المسألة التي حبس بسببها مجلدات عديدة ، وظهر بعض ما كتبه واشتهر ، وآل الأمر إلى أن منع من الكتابة والمطالعة ، وأخرجوا ماعنده من الكتب ، ولم يتركوا دواة ولا قلماً ولا ورقة ، وكتب عقيب ذلك بفحم يقول : إن اخراج الكتب من عنده من أعظم النقم ، وبقي أشهراً على ذلك ، وأقبل على التلاوة والعبادة والتهجد حتى أتاه اليقين .

بعض تلاميذ شيخ الاسلام الأعلام

ذكر صاحب جلاء العينين تراجم طائفة من تلاميذ شيخ الاسلام الأعلام ، الذين كانوا من بعده من أشهر رجال الاسلام ، بما خلفوا من الآثار ، التي طار ذكرها في الأمصار ، وانتفع بها أبناء الأعصار (فمنهم) أشهر تلاميذه ، ووارث علومه ، العالم الرباني شيخ الاسلام الثاني ، شمس الدين محمد بن قيم الجوزية ، صاحب الآثار الكثيرة المحررة ، الذي حبس مع الشيخ في قلعة دمشق ولم يفرج عنه إلا بعد موت الشيخ . وقد قال عنه القاضي برهان الدين الزرعي : ماتحت أديم السماء أوسع علماً منه .

(ومنهم) الامام الحافظ مؤرخ الاسلام شمس الدين أبو عبد الله محمد الذهبي صاحب ميزان الاعتدال في نقد الرجال وغيره . وقال عنه العلامة الشيخ تاج الدين السبكي في طبقاته الكبرى : كأنما جمعت الأمة في صعيد واحد فنظرها ، ثم اخذ يخبر عنها اخبار من حضرها .

(ومنهم) الحافظ الكبير ، عماد الدين اسماعيل بن عمر بن كثير البصري ثم الدمشقي ، قال عنه ابن حبيب : انتهت إليه رئاسة العلم في التاريخ والحديث والتفسير ، ومن تصانيفه التاريخ المسمى البداية والنهاية . وطبقات الشافعية وغيرها .

(ومنهم) الحافظ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الهادي المقدسي ؛ عده الذهبي في طبقات الحفاظ ، وقد عدّ له ابن رجب في طبقاته ما يزيد على سبعين مصنفاً وتوفي وعمره أربعون سنة أو أقل .

(ومنهم) قاضي القضاة شرف الدين أبو العباس أحمد بن الحسين المشهور بقاضي الجبل . قرأ على الشيخ تقي الدين بن تيمية ـ عدة تصنيفات في علوم شتى ، وأذن له في الافتاء في شبيبته قال الذهبي فيه : هو مفتي الفرق ، سيف المناظرين ؛ وبالغ ابن رافع وابن حبيب في مدحه ، وله اختيارات في المذهب ومن شعره اللطيف قوله :

الصالحية جنة والصالحون بها أقاموا
فعلى الديار وأهلها مني التحية والسلام

(ومنهم) زين الدين عمر الشهير بابن الوردي . له تصانيف في النحو والأدب والتصوف والتاريخ . وقد أطنب في ترجمة شيخ الاسلام في تاريخه . ومن نظمه :

سبحان من سخر لي حاسدي يحدث لي في غيبتي ذكرا
لا أكره الغيبة من حاسد يفيدني الشهرة والأجرا

(ومنهم) زين الدين أبو حفص عمر الحراني . ولي نيابة الحكم وقال لم أقض قضية إلا وأعددت لها الجواب بين يدي الله تعالى .

(ومنهم) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن مفلح : قال أبو البقا السبكي : ما رأت عيناي أفقه منه . وقال ابن القيم : ماتحت قبة الفلك أعلم بمذهب الامام أحمد من ابن مفلح . وقال ابن كثير : وله مصنفات كثيرة منها على المقنع نحو ثلاثين مجلداً وعلى المنتقى وكتاب الفروع أربع مجلدات . وله كتاب في أصول الفقه والآداب الشرعية الكبرى والوسطى والصغرى .

أبيات من مراثيه

لقد نظم في رثاء الامام المترجم وذكر أعماله ومآثره قصائد غرّ ، وذكر طائفة منها صاحب الكواكب . وقد اخترنا أبياتاً منها نذكرها انموذجاً لما قال فيه ، بعض واصفيه : قال ابن فضل الله العمري من قصيدة طويلة :

مثل ابن تيمية رضى حواسده ... بحبسه ولكم في حبسه غدروا
مثل ابن تيمية في السجن معتقل ... والسجن كالغمدوهو الصارم الذكر
مثل ابن تيمية تذوي خمائله ... وليس يلقط من أفنانه الزهر
مثل ابن تيمية شمس تغيب سدى ... وما ترق بها الآصال والبكر
مثل ابن تيمية يمضي وما عبقت ... بمسكه العاطر الأردان والطرر

ومنها في حساده ومناوئيه :

هل فيهم صادع للحق مقوله ... أو خائض للوغى والحرب تستعر
رمى إلى نحو غزان مواجهة ... سهامه من دعاء عونه القدر
بل راهط والأعداء قد غلبوا ... على الشآم وطال الشرّ والشرر
وشقّ في المرج والأسياف مصلتة ... طوائفاً كلها أو بعضها تتر
هذا وأعداؤه في الدار أشجعهم ... مثل النساء بظل الباب مستتر

ومن قصيدة لابن الوردي :

تقي الدين ذو ورع وعلم ... خروق المعضلات به تخاط
توفي وهو مسجون فريد ... وليس له إلى الدنيا انبساط
ولو حضروه حين قضى لألفوا ... ملائكة النعيم به أحاطوا
قضى نحباً وليس له قرين ... ولا لنظيره لف القماط

ثم قال :

فيالله ما قد ضم لحد ... ويالله ما غطى البلاط

هم حسدوه لما لم ينالوا ... مناقبه فقد مكروا وشاطوا
وكانوا عن طريقته كسالى ... ولكن في أذاه لهم نشاط
وحبس الدرّ في الأصداف فخر ... وعند الشيخ بالسجن اغتباط
بآل الهاشمي له اقتداء ... فقد ذاقوا المنون ولم يواطوا

إلى أن قال :

ألم يأكُ فيكم رجل رشيد ... يرى سجن الامام فيستشاط
إمام لا ولاية كان يرجو ... ولا وقف عليه ولا رباط
ولا جاراكم في كسب مال ... ولم يعهد له بكم اختلاط
ففيم سجنتموه وغظتموه ... أما لجزا أذيته اشتراط
وسجن الشيخ لا يرضاه مثلي ... ففيه لقدر مثلكم انحطاط
أما والله لولا كتم سري ... وخوف الشر لانحلّ الرباط
وكنت أقول ماعندي ولكن ... لأهل العلم ماحسن اشتطاط
فما أحد إلى الانصاف يدعو ... وكل في هواه له انخراط
سيظهر قصدكم يا حابسيه ... ويهنيكم إذا نصب الصراط
فها هو مات عنكم واسترحتم ... فعاطوا ما أردتم أن تعاطوا
وحلّوا واعقدوا من غير ردّ ... عليكم وانطوى ذاك البساط

ومن قصيدة للشيخ محمد العراقي الجزري :

ياطليق اللسان في كل فن ... فلقد شرفت بك العلياء
إن تكن مت فالعلوم التي أحييت من بعد موتها أحياء

ومنها :

أنت صخر الوجود في كل أرض ... والبرايا جميعها كالحنساء

ومنها :

قسماً بالاله لو أنصف الدهر لأضحى في كل بيت عزاء

ومن قصيدة زين الدين عمر بن الحسام الشبيلي رحمه الله :

سل عنه غازانا وسل أمراءه لما أتوا بطلائع الاسراء
والمغل قد ملكوا البلاد وأهلها كم قدّ من عات بغير عناء

وللفاضل برهان الدين ولد شهاب الدين التبريزي الحنفي :

فمن جاهد الأعداء في الدين مثله ومن سلّ سيف العزم في وجه غازان

ومنها :

وما ضره إن طال في السجن مكثه إذا كان في نسك وطاعة رحمن

هذا قليل من كثير من مواهب هذا الامام الكبير وأعماله . ومن وصف الأئمة له ، وشذرات من مراثيه .

* * *

علاوة على المحاضرة

دفع فرية عن ابن تيمية

بحث تاريخي علمي

لقد صدق كثير من العلماء والادباء في مختلف العصور هذه الرواية الآتية في رحلة ابن بطوطة الشهير ، وجعلوها قضية مسلمة يروونها ويتوارثونها إلى عصرنا هذا ، حتى أن دائرة المعارف الاسلامية التي تنقل الآن إلى العربية في مصر ، قد ترجمت لابن تيمية ترجمة بقلم الاستاذ محمد بن شنب (ص ١٠٩ — ١١٦ ج ١) فيها أغلاط كثيرة ، ونقلت عبارة ابن بطوطة هذه ، وهي قوله عن إمام الشام وشيخ الاسلام ابن تيمية « وكنت اذ ذاك بدمشق ، فحضرته يوم الجمعة ، وهو يعظ الناس على منبر الجامع ويذكرهم ، فكان من جملة كلامه أن قال : إن الله ينزل إلى سماء الدنيا كنزولي هذا ، ونزل درجة من درج المنبر » فرأيت أن أنشر كلمة في هذا الموضوع تكون الحد الفاصل بين الحق والباطل .

١ — إن ابن بطوطة رحمه الله لم يسمع من ابن تيمية ولم يجتمع به ، إذ كان وصوله إلى دمشق يوم الخميس التاسع عشر من شهر رمضان المبارك عام ستة وعشرين وسبعمائة هجرية ، وكان سجن شيخ الاسلام في قلعة دمشق أوائل شهر شعبان من ذلك العام ، ولبث فيه إلى أن توفاه الله تعالى ليلة الاثنين لعشرين من ذي القعدة عام ثمانية وعشرين وسبعمائة هجرية ، فكيف رآه ابن بطوطة يعظ على منبر الجامع وسمعه يقول : ينزل . . . . الخ .

٢ — إن رحلة ابن بطوطة مملوءة بالروايات والحكايات الغريبة ، ومنها مالا يصح عقلاً ولا نقلاً وهو يلقي ما ينقله على عواهنه ، ولا يتعقبه بشيء . فمن ذلك قوله : (١ : ٥٤) وفي وسط المسجد (أي الأموي بدمشق) قبر زكريا عليه السلام ، والمعروف أنه قبر يحيى عليه السلام ، وقوله أيضاً : وقرأت في فضائل دمشق عن سفيان الثوري أن الصلاة في مسجد دمشق بثلاثين ألف صلاة ، وهذا لا يقال من قِبَل الرأي ، وسفيان أجل من أن يفضله على مسجد رسول الله (ﷺ) وعلى المسجد الأقصى ثالث الحرمين الشريفين وهما لم يبلغ الثواب فيهما هذه الدرجة ، كما هو معلوم للمحدثين وغيرهم ، ومن نقوله التي أقرها ولم ينكرها (١ ، ١٩٩ ، ١٣٣ ، ١٣٦) النذور للقبور المعظمة ، والوقوف على أبواب الملوك ، ومن ذلك النذر لأبي اسحق ، اذا هاجت الرياح في البحار ، واشتدت الاخطار ، وهو مالم يبلغه اهل الجاهلية الذين قال الله تعالى عنهم « فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين » .

٣ — لم يكن ابن تيمية يعظ الناس على منبر الجامع كما زعم ابن بطوطة (١ : ٥٧) (فحضرته يوم الجمعة وهو يعظ على منبر الجامع) بل لم يكن يخطب أو يعظ على منبر الجمعة كما يوهمه قوله : « ونزل درجة من درج المنبر . وإنما كان يجلس على كرسي يعظ الناس ، ويكون المجلس غاصاً بأهله ، قال الحافظ الذهبي : وقد اشتهر أمره ، وبعد صيته في العالم ، وأخذ في تفسير الكتاب العزيز أيام الجمع على كرسي من حفظه ، فكان يورد المجلس

ولا يتلعثم ، وكان يورد الدرس بتؤدة وصوت جهوري فصيح ، وقال : وفسر كتاب الله تعالى مدة سنين من صدره أيام الجمع » .

وقال علم الدين البرزالي في معجم شيوخه : « وكان يجلس في صبيحة كل جمعة يفسر القرآن العظيم ، فانتفع بمجلسه وبركة دعائه ، وطهارة أنفاسه وصدق نيته ، وصفاء ظاهره وباطنه ، وموافقة قوله لعمله ، وأناب إلى الله تعالى خلق كثير وإنما كان يخطب الناس على منبر الجامع الأموي في عهد دخول الرحالة ابن بطوطة دمشق ، قاضي القضاة جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني ، وقد كان خطيب المسجد ، وإمام الشافعية فيه ، وكان سكناه بدار الخطابة (ج ١ ص ٥٦ رحلة ابن بطوطة) .

ومما تقدم يعلم أن ابن تيمية كان مدرساً وواعظاً ، لا خطيباً ، وكان يلقي درسه في التفسير صبيحة كل جمعة ، وهو جالس على كرسي في الجامع الأموي لا واقف على منبر فينزل درجة عنه ، وقد أشار إلى ذلك الحافظ المؤرخ ابن عبد الهادي بقوله : ثم ان الشيخ جلس يوم الجمعة (أي بدمشق) على عادته ، وقال وهو يصف حاله وأعماله بمصر : ويتكلم في الجوامع على المنابر من بعد صلاة الجمعة إلى العصر ، فهو لم يقل على منابر الجمعة ، ولا على منابر الخطابة ، والظاهر أن المراد بالمنبر كل ما ارتفع عن الأرض كما يؤخذ من مفهومه اللغوي ، فهو يعم هذه الكراسي التي يجلس عليها المدرسون في المساجد الكبرى بمصر والشام والعراق ليسمع منها الجماهير ، فكيف غفل ابن بطوطة عن ذلك ؟

٤ — انك لا تجد في جميع ما تراه من كتبه المخطوطة والمطبوعة غير تفسير مسهب لمثل قوله الذي نقله عنه الشيخ ابن ناصر الدين الشافعي في الرد الوافر : « ومذهب السلف والأئمة الاربعة وغيرهم : إثبات بلا تشبيه ، وتنزيه بلا تعطيل ، وليس لأحد أن يضع عقيدة ولا عبارة من عند نفسه ، بل عليه أن يتبع ولا يبتدع ، ويقتدي ولا يبتدي » ولمثل ما فسر به كلامه السيد صفي الدين الحنفي البخاري في القول الجلي بقوله : « قلت : — وتفسير

كلامه أنه يجب الايمان بجميع المتشابهات الواردة في الكتاب والسنة كاليد والوجه والاستواء والنزول ، على وجه يليق به تعالى ، فلا يكيف بشيء منها ، ولا يمثل بصفات المخلوقين كما هو مذهب السلف ومن تبعهم من الخلف ، فلا يقال يد كيدنا ، ولا وجه كوجهنا ، أو استواء كاستوائنا ، أو نزول كنزولنا ، بل يداه صفته بلا كيف ، وكذا وجهه ، وهكذا فقس سائر الصفات والأفعال » وأقول : هذه عقيدته الحموية والواسطية والاصفهانية التي عقدت له المناظرات حولها في مصر والشام ، بل هذه أيضاً كتبه ورسائله وفتاويه وردوده في العقائد قد بسط الكلام فيها على آيات الصفات والأفعال وأحاديثها كالوجه واليدين والاستواء والنزول وغيرها بالمعقول والمنقول ، وكلها يتضمن اثبات الاسماء والصفات مع نفي مماثلة المخلوقات ، إثباتاً بلا تشبيه ، وتنزيهاً بلا تعطيل ، كما قال تعالى : « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » وقوله : « ليس كمثله شيء » رد للتشبيه والتمثيل ، وقوله : « وهو السميع البصير » دفع الالحاد والتعطيل .

٥ — إن طريقة شيخ الاسلام في اثبات الأسماء والصفات ، وفي بيان منشأ غلط المعطلة والنفاة ، واضحة في جميع كتبه ، وخلاصتها أن لهذه الصفات وجوداً علمياً ذهنياً ، ووجوداً خارجياً عينياً ، فوجودها الذهني ، هو العلمي المطلق المجرد عن جميع الخصائص والاضافات كالحياة والعلم والقدرة ، والسمع والبصر والكلام ، وكون الموصوف حياً عالماً قديراً ، سميعاً بصيراً متكلماً ، وهذا القدر مشترك بين الموجودات كافة ، يطلق عليها بالاشتراك الاسمي أو اللفظي ، كما هو ثابت لها في الوجود العلمي والذهني ، ولكن شيئاً من ذلك لا يقتضي المشاركة في الأعيان الخارجية ، بل الذهن يأخذ معنى مشتركاً بين المسميين ، وعند الاختصاص يقيد ذلك بما يتميز به الخالق من المخلوق ، والمخلوق من الخالق ولا بد من هذا في جميع أسماء الله وصفاته يفهم منها ما دل عليه الاسم بالمواطأة والاتفاق ، وما دل عليه بالاضافة والاختصاص المانعين من مشاركة المخلوق للخالق في شيء من خصائصه سبحانه وتعالى .

٦ — بيّن شيخ الاسلام (رحمه الله تعالى) في الرسالة التدمرية وغيرها أن نفاة الصفات يقعون في كثير من الأوهام والمحاذير (منها) ظنهم أن مدلول النصوص هو التمثيل (ومنها) أنهم بنوا على ظنهم السيء تعطيل ما أودع الله ورسوله في كلامهما من معاني الالهية اللائقة بجلال الله تعالى. (ومنها) أنهم نفوا عن الله تعالى تلك الصفات بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير. (ومنها) أنهم وصفوا الرب تعالى بنقيض تلك الصفات من صفات الأموات والجمادات، أو صفات المنقوصات والمعدومات، فهم يجمعون في كلام الله وفي الله بين التعطيل والتمثيل، وهذا من الالحاد في أسماء الله وآياته.

٧ — يظهر من كلام الحافظ ابن حجر، أن الشيخ نصراً المنبجي الذي كان مقدماً في الدولة هو الذي أشاع مسألة النزول عن الدرج، بسبب كتاب ورده من الامام ابن تيمية ينكر عليه فيه أقوالاً في وحدة الوجود، ويعدّها عليه، قال الحافظ ابن حجر في الدرر الكامنة (١: ١٥٤): «وكتب إليه كتاباً طويلاً، ونسبه وأصحابه إلى الاتحاد الذي هو حقيقة الالحاد، فعظم ذلك عليهم، وأعانه عليه قوم آخرون، ضبطوا عليه كلمات في العقائد مغيرة، وقعت منه في مواعيده (مواعظه) وفتاويه، فذكروا أنه ذكر حديث النزول، فنزل عن المنبر درجتين (كذا) فقال: كنزولي هذا، فنسب إلى التجسيم.

وأقول: قد عرفت المراد من لفظ المنبر، حتى ان الحافظ ابن حجر قال: «وكان يتكلم على المنبر على طريقة المفسرين مع الفقه والحديث، فيورد في ساعة من الكتاب والسنة، واللغة والنظر، مالا يقدر أحد على أن يورده في عدة مجالس، كأن هذه العلوم بين عينيه» (ص ١٥٣ ج١) من الدرر. وهذا مما يؤكد أنه كان يلقي درسه على كرسي يجلس عليه، والمستمعون حوله، فكلامه على طريقة المفسرين — من بعد صلاة الجمعة إلى العصر، وإيراده من الآيات والأحاديث ونصوص اللغة، وأقوال العلماء،

في مجلس واحد مالا يورده غيره في مجالس كثيرة كما تقدم، هو طريقة المدرسين المحققين في حلقات المجالس الكبرى لاخطباء المنابر وهم وقوف، لاسيما وقد صرحوا بجلوسه في دروسه، ولا يتيسر على منابر الخطب الجمعية.

ثم انظر الى قوله في خصومه: ضبطوا عليه كلمات في العقائد مغيرة، فاذا كانت مغيرة فما ذنبه هو حتى يؤخذ بها أو تؤخذ عليه؟ «ولا تزر وازرة وزر أخرى» والحافظ ابن حجر هو ناقل غير قائل، وفي قوله: «عقائد مغيرة» ما يثبت أنه لا يعتدّ بما قالوه، بل لا يعبأ بما افتري به عليه، كيف وقد نقل أقوال الأئمة الثقات فيه، وهم قد نزهوه عن تلك المفتريات؟ ومن أراد استيفاء البحث فليراجع مجموعة الرد الوافر، أو الرسالة التدمرية لشيخ الاسلام، أو ملحق الجزء الرابع من فتاويه، أو العقود الدرية للحافظ ابن عبد الهادي، ليبلغ حد اليقين في نفي مطاعن الطاعنين.

٨ — إن العلوم الحديثة قربت فهم النصوص على طريقة السلف، وبينت أنها الأعلم والأحكم، بلّة كونها الأهدى والأسلم، فمن ذلك حديث النزول الذي أخرجه البخاري ومسلم في الصحيحين: «ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا .... الخ» فقد أورد في كتاب (دفع شبه التشبيه) قول القاضي أبي يعلى: «النزول صفة ذاتية، ولا نقول: نزوله انتقال، وقال ابن الجوزي: «وهذا مغالط» قلت: ليس بمغالط فقد ظهر في عصرنا ما يؤيد قوله، فان صوت المذياع الآن يسمع في كل مكان كما يسمع في مكانه، وهذا الاختراع الحديث يقرب لنا فهم ما أورده البخاري في صحيحه، من أن الله ينادي عباده بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب، ومثله: إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السموات صوته .. الخ، بل الآلة التي تريك المتكلم الآن حاضراً عندك وهو لم يبرح مكانه (Télévision) تهدينا إلى فهم النزول إلى سماء الدنيا بلا انتقال، وان هذا النزول هو صفة ذات لا صفة فعل، كما قال القاضي أبو يعلى، ومثله اسناد صفة الكلام إليه تعالى في قوله: «وكلم الله موسى تكليماً» وقول رسوله: «إذا تكلم الله بالوحي» فوصفه بما وصف به نفسه حقيقي غير مجازي وهو لا يحتاج الى تأويل بله

التعطيل ، فراراً من شبهة التشبيه ، فان تشبيه من ليس كمثله شيء ، بالمخلوق المتكلم بفم ولسان ، غير وارد من أصله فقد أنطق العلم الحديث الآن الجمادات فنطقت بغير فم ولسان ، كالمذياع والحاكي ، أفتأبى قدرة الله وحكمته إلا أن يتكلم بفم ولسان كالانسان ؟ أليس هو القادر على أن يختم على فم الانسان وينطق جسمه الصامت كما أخبر بعدة آيات ؟ منها قوله سبحانه « اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم » الآية . أفيعقل أن يكون هذا القادر الحكيم عاجزاً عن التكلم إلا بفم المخلوق ؟ وجملة القول : إن هذه الرواية مختلقة على ابن تيمية سواء صحت عن ابن بطوطة أم لم تصح ، فهو لم يره ولم يسمع منه ، ومؤلفاته جميعها ترد عنه هذه الكلمة الشاذة ، بل لو ثبتت الرؤية والسماع ، لصح أن نقول : إن ابن بطوطة شبه له ابن تيمية كما شبه عزق النخلة في القصة التي حكاها ابن بطوطة في سبب تسمية الشيخ رسلان بالباز الأشهب (ج ١ : ٥٩) وقد كنت دخلت على شاب من معارفي ، فقلت له : ما أشبهك بفلان ، قال : فلان ما أعرفه ، ولكني أعرف شاباً آخر لولا تحققي من وجودي المستقل عنه لظننته إياه ، وحكايات الشبه والاشتباه في الاشخاص والاشياء لا تكاد تحصر ، وهي داخلة في باب تحقيق الشخصية (Identification) من كتب الطب الشرعي وغيره .

على أن ابن بطوطة لم يكتب رحلته بقلمه ، وانما أملاها على ابن جزي الكلبي ، وقال هذا في المقدمة : « ونقلت معاني كلام الشيخ أبي عبد الله بألفاظ موفية للمقاصد التي قصدها ، موضحة للمعاني التي اعتمدها » . فيجوز أن يكون ذلك من تحريف النساخ ، أو وسوسة بعض الخصوم ، والله تعالى أعلم (١) .

---

(١) لشيخ الاسلام كتاباً مستقلاً في (شرح حديث النزول) (طبع بمصر سنة ١٣٦٧هـ = ١٩٤٨ م ص ٢٣٠) وقد حقق فيه أن هذا النزول هو صفة ذات لا صفة فعل ، ونقل فيه روايات عن أئمة السنة كحماد بن زيد ، واسحق بن راهويه ، بأنه تعالى في مكانه يقرب من خلقه كيف شاء .

قلت : الكتاب كله يؤيد هذا المعنى ، ويبعد عن شيخ الاسلام ضلالة تشبيه الله بخلقه ، ويهدينا الى فهم النزول الى سماء الدنيا بلا انتقال .

عطر وة ثانية

في اختيارات شيخ الاسلام

اشتهر شيخ الاسلام ابن تيمية بمسائل أثرت عنه ، وظن كثير من الناس أنه انفرد بها عن غيره ، بل ظنوا أنه خالف في بعضها الاجماع ؛ وهي أمور اجتهادية يقع في مثلها الخلاف بين العلماء . ومن المفروغ منه أن ابن تيمية قد بلغ رتبة الاجتهاد في الاحكام الشرعية ، وأنه كان يفتي الناس بما أدى إليه اجتهاده ، وانه موافق في فتاواه بعض الصحابة أو التابعين أو أحد أئمة المذاهب الاربعة أو غيرهم ، ممن عاصرهم أو جاء قبلهم أو بعدهم ؛ وقد قال العلامة برهان الدين ابن الامام محمد المعروف بابن قيم الجوزية : لا نعرف مسألة خرق فيها الاجماع ، ومن ادعى ذلك فهو إما جاهل وإما كاذب ، ولكن مانسب اليه الانفراد به ينقسم الى أربعة أقسام ، (الأول) : مايستغرب جداً فينسب إليه أنه خالف فيه الاجماع ، لندور القائل به وخفائه على الناس ، لحكاية بعضهم الاجماع على خلافه . (الثاني) ماهو خارج عن مذاهب الأئمة الأربعة ، وقال به بعض الصحابة أو التابعين أو السلف ، والخلاف فيه محكي . (الثالث) ما اشتهرت نسبته اليه مما هو خارج عن مذهب الامام رضي الله عنه ، لكن قد قال به غيره من الأئمة وأتباعهم . (الرابع) ما أفتى به واختاره مما هو خلاف المشهور في مذهب أحمد ، وإن كان محكياً عنه وعن بعض أصحابه .

وقد ذكر برهان الدين اختيارات شيخ الاسلام في هذه الأقسام الأربعة ، فالقسم الأول عدّ منه في الطلاق عشر مسائل ، وعدّ منه في غير الطلاق ، تسعاً وعشرين مسألة . ومن مسائل القسم الثاني سبع عشرة مسألة . ومن الثالث ست عشرة ، ومن الرابع ستاً وعشرين . وتجد هذه المسائل في مجموع يشتمل على رسالتين (الأولى) : في مذهب الامام داود الظاهري ، جمعها الاستاذ الشيخ محمد الشطي (والثانية) : في مسائل شيخ

الاسلام ابن تيمية ، جمع العلامة برهان الدين المتقدم . وفي الكواكب الدرية (من مجموع الردّ الوافر المطبوع بمصر ١٣٢٩) شذرة من هذه الاختيارات ومعها ذكر من اختارها من أئمة السلف (من ص ١٨٤) .

وأم هذه الأقوال التي اشتدّ فيها النزاع ، وادعى خصوم الشيخ أنه خرق بها الاجماع ، ثلاث مسائل فيما نراه : الطلاق ، والوسيلة ، وشد الرحال إلى غير المساجد الثلاثة المفضّلة حرم مكة ، والمدينة ، والمسجد الأقصى ؛ ولنا في هذه القضايا الثلاث كلمات ثلاث أختم بها هذه العلاوة .

(قضية الطلاق)

الطلاق في الاسلام لا يكون إلاّ عن ضرورة وبصيرة ، وذلك بأن يكون الزوجان قانعين بان لاسبيل لبقائها على الحياة الزوجية ، لموانع جسمية أو نفسية ، خلقيه أو خلقية ، تجعل صفو العيش كدراً ، وتعرّض النسل للهانة والشقاء ، فالفراق في هذه الحال نعمة لا نقمة ، والزوجان سعيدان به لا شقيان ، « وإن يتفرقا يُغن الله كلاً من سَعته » وآية ذلك أن يكون الزوج في حال الطلاق عاقلاً مختاراً ، وأن تكون الزوجة راضية مطمئنة ، فيمتعها متاعاً حسناً ويفارقها باحسان . أما اذا لم يكن موجب للفراق ، فليس له أن يضارها بالطلاق ، وعليه أن يذكر قول العليم الحكيم : « فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً » فهذا ضمان وأمان لها من الله تعالى طول حياتها عنده ، مادامت قائمة بواجبها . أما طلاق الغضبان والسكران ، والطلاق من أجل قضية أجنبية لا علاقة للزوجة بها ، فهو طلاق الظالمين لانفسهم ولازواجهم ، وسيأتي حكمه .

وقد ذكر شيخنا القاسمي رحمه الله آداب التطليق المستنبطة من الكتاب الكريم والسنة الصحيحة ، في رسالته التي سماها « الاستئناس لتصحيح أنكحة الناس » فعدّ منها عشرة آداب (الأول) هو رعاية المصلحة في ايقاعه ، بعد التروي والتحاكم . (الثاني) : إيقاعه في حال الخوف من عدم

إقامة حدود الله . (الثالث) : أن لايكون القصد بايقاع الطلاق مضارّة الزوجة . (الرابع) : أن يطلق لداع لا يتأتى معه اتخاذها زوجة . (الخامس) : أن لا يطلق ثلاثاً دفعة واحدة . (السادس) : أن يشهد على الطلاق . (السابع) : أن لا يكون في حالة الغضب . (الثامن) : أن ينوي الطلاق ، « إنما الاعمال بالنيات » . (التاسع) : أن يكون التطليق مأذوناً فيه من جهة الشارع . (العاشر) : التطليق باحسان ، لا باساءة ولا بفحش من الكلام ، ولا بغي ولا عدوان » .

هذه الجمل القصيرة كالعناوين لهذه الآداب العشرة التي شرحها استاذنا في رسالته ، ثم قال : فأمر تعالى المطلقين إذا طلقوا الطلاق المأذون فيه — وهو المستوفي شروطه — أن يسرحوا نساءهم راضيات عنهم ، داعيات لهم ، ذاكرات لجميلهم ومعروفهم وإحسانهم ؛ وذلك بأن يحسنوا إليهن بما يتمتعن به على قدر اليسر والعسر ، وأكد ذلك أيضاً بقوله : « متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين » فجعل ذلك حقاً لازماً على الذين يحسنون الى أنفسهم في المسارعة إلى طاعة الله فيما ألزمهم به ، وادائهم ما كلفهم من فرائضه ، ويحسنون إلى المطلقات بالتمتيع على الوجه الذي يحسن في الشرع والمروءة ، وختم البحث بهذه الكلمة الواعظة : تالله إن القلب يتفطر ألماً ، والعين تدمع دماً ، على ما أصبحوا فيه من الجهل ، ولا من سائق لهم إلى الفقه والعلم ، حتى أصبحت محاكم القضاة تياراً لأمواج شكاية المظلومات ، وميداناً لجولان دعاوي الزوجات ، (و) حتى صار المسلمون يبتغيهم في الطلاق وهضم حقوق الأزواج عاراً على الاسلام ، وفتنة لسواهم من الأقوام ، « ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا ، واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الرحيم » .

الطلاق عند الأجانب

أما الطلاق في أوربا وأميركا فالظاهر أنه لا يكون إلا لأسباب تقع

بين الزوجين خاصة ، ولكنهم يطلقون لأهون الأسباب وأيسرها ، كقص الشعر ، وحلق اللحية ، ولباس الشهرة ونحو ذلك ، ولذلك كثر عندهم كثرة هائلة ، وهو طلاق باعثه السآمة والملل ، وحب التنقل ، وله عواقب وخيمة ، ومنها ضياع النسل . وقد نشرت جريدة الأهرام (أول سنة ١٣٥٤ هـ وسنة ١٩٣٥ م) اعتقاداً للقاضي لندسي أشهر قضاة الطلاق في لوس انجلوس في ولاية (كليفورنية) خلاصته أن الحياة الزوجية ستزول من بلادهم (أميركا الشمالية) وتحل محلها الاباحة والفوضى في العلاقة مابين النساء والرجال في زمن قريب ؛ وهي الآن كشركة تجارية ينقضها الشريكان لأوهى الاسباب خلافاً لهداية جميع الأديان ، إذ لا دين ولا حب يربطها ، بل الشهوات والتنقل في وسائل المسرات اهـ .

ومن غريب الاتفاق إني قرأت في صحيفة دمشقية صدرت يوم (١٣٧١/٧/٢٢ و ١٩٥٢/٤/١٦) كلمة عن الطلاق عند الاميركيين وأسبابه ، يتبين منها أن نزول الفتاة الاميركية — فتاةً ومتزوجة — إلى ميدان العمل الخارجي هو الذي أثارها على طبيعتها وشريعتها ، ودعاها إلى كراهية البيوت والأزواج والأولاد !!! فقد « زادت نسبة النساء العاملات في السنوات الأخيرة بمقدار (٥٠) في المئة ، في حين أن الرجال لم يزيدوا الا بمقدار (٢٠) في المئة . ومما يدل على أن المرأة الأميركية تفوق جميع نساء العالم نفوذاً انتشار الطلاق في أميركا ، والمشاهد أنه كلما قوي نفوذ المرأة كثر الطلاق ، لأن قدرة المرأة على الاستقلال بنفسها استقلالاً مادياً وأدبياً يهون عليها أمر الفراق عن زوجها ، ولهذا نجد أن نسبة الطلاق في أميركا ثمانية أمثالها في بريطانيا ، كما نجد أن (٧٠) في المئة من حالات الطلاق تقع بناءً على طلب الزوجات لا على طلب الأزواج . وقلما تجد الآن فتاة أميركية ترضى أن تكون ربة بيت فقط ، بل كل فتاة تريد أن تعمل وأن تكسب كالشباب ، وبعد الزواج ترفض المرأة أن تبقى في بيتها !!

قلت : سبب هذا الانحلال الخلقي ، والتدهور الاجتماعي هو تخلي الرجال

عن النساء ، بل دفعهن في تيار العمل ، واللهو خارج المنزل ، فاختل نظام البيوت ، وتقوضت دعائم الأسرة ، وهذا هو الذي يقلدهم فيه من بلاد الشرق عبيد الشهوات ، حتى تتعطل الحياة المنزلية ، وتقفر البيوت من أهلها :

إذا لم تكن في منزل المرء حرّة مدبّرة ضاعت مصالح داره

الطلاق في الاسلام

وبعد فلشيخ الاسلام في الطلاق الشرعي والبدعي كلام يطول ، ولشرحه في كتب ابن القيم حواشٍ وذيول ، وحسبنا أن نشير إلى مراجعه فهي مطبوعة متداولة ، وفيها من حقائق التنزيل والتأويل ، ما يضمن سلامة الأسر ، بل سعادة البشر ، لو رعوا هذه النصوص حق رعايتها ، ولم يستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير ، وكتب الشيخين قد أشبعت هذا الموضوع بحثاً واستدلالاً ، ولم تدع للمبتدعة فيه شبهةً ولا مقالاً ، بل أوردت جميع مقالاتهم وأتت عليها نقضاً وإبطالاً . وإنك لتجد هذه المباحث السابغة والحجج البالغة ، في الجزأين الثالث والرابع من فتاوى شيخ الاسلام ، والاغاثتين الكبرى والصغرى لتلميذه ابن القيم ، وله أيضاً سبح طويل في كتابه « زاد المعاد » وفي تهذيبه « لسنن أبي داود » وإليك نبذاً قصيرةً منها كلها :

قال شيخ الاسلام في فتاويه[1] : إن الأصل بقاء النكاح ، ولا يقوم دليل شرعي على زواله بالطلاق المحرّم ، بل النصوص والأصول تقتضي خلاف ذلك ، ولو غلّظ الايمان التي شرع الله فيها الكفّارة بما غلّظ ، ولو قصد أن لا يحنث فيها بحال ، فذلك لايغير شرع الله ، وأيمان الحالفين ، لا تغيّر شرع الدين .

وقال ص ٣١ : « والمرأة إذا أبغضت الرجل كان لها أن تفتدي نفسها

(١) ج ٣/٢٧ طبع مصر .

منه وهذا الخلع تبين به المرأة ، فلا يحل له أن يتزوجها بعد إلا برضاها ، وليس هو كالطلاق المجرد . . . إنّ الخلع هو الفرقة بعوض ، فمتى فارقها بعوض فهي مفتدية لنفسها به ، وهو خالع لها بأي لفظ كان . . . . وذلك أن الاعتبار بمقاصد العقود وحقائقها لا باللفظ وحده ، فما كان خلعاً فهو خلع بأي لفظ كان ، وما كان طلاقاً فهو طلاق بأي لفظ كان ، وما كان يميناً فهو يمين ، وما كان إيلاءً فهو إيلاء ، وما كان ظهاراً فهو ظهار ، والله تعالى ذكر في كتابه الطلاق واليمين والظهار والايلاء والافتداء وهو الخلع ، وجعل لكل واحد حكماً ، فيجب أن نعرف حدود ما أنزل الله على رسوله ، وندخل في الطلاق ما كان طلاقاً ، وفي اليمين ما كان يميناً اهـ باختصار .

وفي ص ٣٣ : « إن كتاب الله بين أن الطلاق بعد الدخول لا يكون إلا رجعياً ، وليس في كتاب الله طلاق بائن إلا قبل الدخول .

ولو قال : أنتِ عليّ كظهر أمي وقصد به الطلاق ، فان هذا لا يقع به الطلاق عند عامة العلماء ، وفي ذلك أنزل الله القرآن فانهم كانوا يعدّون الظهار طلاقاً ، والايلاء طلاقاً ، فرفع الله ذلك كله ، وجعل في الظهار الكفارة الكبرى(١) وجعل الايلاء يميناً يتربّص فيها الرجل أربعة أشهر ، فاما أن يمسك بمعروف أو يسرّح باحسان ، وكل يمين يحلف عليها المسلمون من أيمانهم ففيها كفارة يمين(٢) ، كما دل عليه الكتاب والسنة .

وفي ص ٢٤٦ من « زاد المعاد » : وأجمع المسلمون على وقوع الطلاق الذي

(١) « والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا ، فتحرير رقبة من قبل ان يتماسا . . فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسّا ، فمن لم يستطع فاطعام ستين مسكيناً » . الآيتان (٢ و ٣) من سورة المجادلة

(٢) « فكفارته إطعام عشرة مساكين من اوسط ماتطعمون اهليكم ، أو كسوتهم او تحرير رقبة ، فمن لم يجد فصيام ثلاثة ايام » .
الآية (٨٩) من سورة المائدة

أذن الله فيه وأباحه ، إذا كان من مكلف مختار ، عالم بمدلول اللفظ ، قاصد له . واختلفوا في وقوع المحرّم من ذلك . . . . ونحن نذكر المسألتين تحريراً وتقريراً ، كما ذكرناهما تصويراً .

وفيه : أن رسول الله (ﷺ) أخبر عن رجل طلق امرأته ثلاث تطليقات جميعاً ، فقام غضبان ثم قال : أيلعب بكتاب الله وأنا بين أظهركم ؟ وإسناده على شرط مسلم اهـ .

قال البخاري في صحيحه : باب الطلاق في الاغلاق والسكران والمجنون وأمرهما ، والغلط ، والنسيان في الطلاق والشك لقول النبي (ﷺ) : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى » — إلى قوله : وقال عثمان : ليس لمجنون ولا سكران طلاق . وقال ابن عباس : طلاق السكران والمستكره ليس بجائز اهـ . وقال الحافظ ابن حجر في فتح الباري : وذهب إلى عدم وقوع طلاق السكران أيضاً — كعثمان — أبو الشعثاء ، وعطاء ، وطاووس . وعكرمة والقاسم ، وعمر بن عبد العزيز ، وذكرهم ابن أبي شيبة عنهم بأسانيد صحيحة ، وبه قال ربيعة والليث واسحق والمزني ، واختاره الطحاوي .

وفي « أعلام الموقّعين ج : ٣/٣٣٢ » — بعد أن ذكر من ذهب إلى القول بعدم نفوذ طلاق السكران من الحنفية والشافعية — قال : والصحيح أنه لا عبرة بأقواله من طلاق ولا عتاق ولا بيع ولا هبة ولا وقف ولا إسلام ولا ردّة ولا إقرار ، لبضعة عشر دليلاً ، ثم فصل القول في ذلك كله تفصيلاً .

ومن « زاد المعاد(١) » : « وأما طلاق الاغلاق ، فقد قال الامام أحمد في رواية حنبل : وحديث عائشة رضي الله عنها : سمعت النبي ﷺ يقول : لا طلاق ولا عتاق في إغلاق . يعني الغضب ، قال شيخنا — يعني ابن تيمية — :

(١) ص ٢٤٤ .

وحقيقة الاغلاق أن يغلق على الرجل قلبه فلا يقصد الكلام أو لايعلم به كأنه انغلق عليه قصده وإرادته اهـ. قلت : قال أبو العباس المبرد : الغلق ضيق الصدر وقلة الصبر بحيث لا يجد له مخلصاً . (قال شيخنا) : ويدخل في ذلك طلاق المكره والمجنون ، ومن زال عقله بسكر أو غضب ، وكل من لا قصد له ولا معرفة له بما قال . اهـ.

وفي « أعلام الموقعين »[1] :

المخرج الأول : أن يكون المطلق أو الحالف زائل العقل إما بجنون أو إغماء ، أو شرب دواء ، أو وسوسة ، وهذا المخرج مجمع عليه بين الامة . اهـ باختصار قليل .

ثم قال : المخرج الخامس : أن يفعل المحلوف عليه ذاهلاً ، أو ناسياً أو مخطئاً ، أو جاهلاً ، أو مكرهاً ، أو متأولاً ، أو معتقداً أنه لا يحنث به تقليداً لمن أفتاه بذلك ، أو مغلوباً على عقله ، أو ظناً منه أن امرأته طلقت ، فيفعل المحلوف عليه بناء على أن المرأة أجنبية ، فلا يؤثر فعل المحلوف عليه في طلاقها شيئاً . اهـ.

وفي فتاوى شيخ الاسلام[2] : ولا يقع طلاق المكره ، والاكراه يحصل إما بالتهديد أو بأن يغلب على ظنه أنه يضره في نفسه أو ماله » . وفي ص ١٥٢ : ومن حلف بالطلاق كاذباً يعلم كذب نفسه لا تطلق زوجته ولا يلزمه كفارة يمين » .

وقال أيضاً : ومن علق الطلاق على شرط أو التزمه لا يقصد بذلك إلا الحض أو المنع فانه يجزئه فيه كفارة يمين إن حنث .

وفي ص ١١٢ ج ٤ ولو حلف بالثلاث فقال : الطلاق يلزمني ثلاثاً لأفعلن كذا ، فكان طائفة من السلف والخلف من أصحاب مالك وأحمد بن حنبل

(١) طبع مصر سنة ١٣٢٥ هـ ج ٣/٣٣١ (٢) ج ٤/١٥١ .

وداود وغيرهم يفتون بانه لا يقع به الثلاث ، لكن منهم من يوقع به واحدة ، وهذا منقول عن الصحابه والتابعين ، وغيرهم في التنجيز فضلاً عن التعليق واليمين . وهذا قول من اتبعهم على ذلك من أصحاب مالك وأحمد وداود في التنجيز والتعليق والحلف .

وفي ص ١١٦ : الثاني صيغة قسم كقوله : الطلاق يلزمني لأفعلنّ كذا ، أو لا أفعل كذا ، فهذا يمين باتفاق أهل اللغة ، واتفاق طوائف الفقهاء ، واتفاق العامة واتفاق أهل الأرض اهـ .

المطلقة

وبعد فهذه مقتطفات من قصيدة (المطلقة) للشاعر الشهير الرصافي في الانتصار لمذهب ابن القيم وشيخه عليها الرحمة والرضوان ، وقد نشرت في آخر « إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان » ومطلعها :

بدت كالشمس يحضنها الغروب ... فتاة راع نضرتها الشحوب
منزهة عن الفحشاء خود ... من الخفرات آنسة عروب

ومنها :

حليلة طيب الأعراق زالت ... به عنها وعنه بها الكروب
رعى ورعت فلم تر قط منه ... ولم ير قط منها ما يريب

ومنها :

فغاضب زوجها الخلطاء يوماً ... بأمر للخلاف به نشوب
فأقسم بالطلاق لهم يميناً ... وتلك أليّة خطأ وحُوب
وطلقها على جهل ثلاثاً — ... كذلك يجهل الرجل الغضوب
وأفتى بالطلاق طلاق بت ... ذوو فتيا تعصبهم عصيب
فبانت منه لم تأت الدنايا ... ولم يعلق بها الذام المعيب
فظلت وهي باكية تنادي ... بصوت منه ترتجف القلوب
لماذا يانجيب صرمت حبلي ؟ ... وهل أذنبت عندك يا نجيب ؟

ومنها :

فأطرق رأسه خجلاً وأغضى ... وقال ودمع عينيه سكوب
نجيبة أقصري عني فاني ... كفاني من لظى الندم اللهيب
وما والله هجرك باختياري ... ولكن هكذا جرت الخطوب

وقد ختمها بقوله :

ألا قل في الطلاق لموقعيه ... بما في الشرع ليس له وجوب
غلوتم في ديانتكم غلواً ... يضيق ببعضه الشرع الرحيب
أراد الله تيسيراً وأنتم ... من التعسير عندكم ضروب
وقد حلت بامتكم كروب ... لكم فيهن لا لهم الذنوب
وهَى حبل الزواج ورق حتى ... يكاد إذا نفخت له يذوب
تحيط من لعاب الشمس أدات ... به في الجو هاجرة حلوب
يمزقه من الأفواه نفث ... ويقطعه من النسم الهبوب

* * *

فدى ابن القيم الفقهاء كم قد ... دعاهم للصواب فلم يجيبوا
ففي اعلامه للناس رشد ... ومزدجر لمن هو مستريب
نحا في ما أتاه طريق علم ... نحاها شيخه الحبر الأديب[1]
وبيّن حكم دين الله لكن ... من الغالين لم تعه القلوب
لعل الله يحدث بعد أمراً ... لنا فيخيب منهم من يخيب

والمقصود — كما يقول ابن القيم — أن الناس لابد لهم في باب الطلاق من أحد ثلاثة أبواب يدخلون منها (أحدها) باب العلم والاعتدال الذي بعث الله به رسوله (ﷺ) وشرعه للأمة رحمة بهم ، وإحساناً إليهم ، (والثاني) باب الآصار والأغلال الذي فيه من العسر والشدة والمشقة مافيه

(١) هو شيخ الاسلام ابن تيمية .

(والثالث) باب المكر والاحتيال الذي فيه من الخداع والتحيل والتلاعب بحدود الله تعالى ، واتخاذ آياته هزواً مافيه ، ولكل باب من المطلقين وغيرهم جزء مقسوم .

رجوع المحاكم المصرية الى الطلاق الشرعي

قال الاستاذ السيد محمد رشيد رضا في مناره : وأطال ابن القيم في تخريج أحاديث الباب والكلام عليها ، وأثبته بالكتاب والسنة واللغة والعرف وعمل أكثر الصحابة (ثم قال) :

واقترح بعض الفقهاء والعقلاء على حكومتنا المصرية الرجوع فيها إلى أصل الكتاب والسنة الذي كان أول من بسط دلائله شيخ الاسلام ابن تيمية وتلميذه المحقق ابن القيم في كتبه أعلام الموقعين ، وإغاثة اللهفان وزاد المعاد ، ووافقهما وأيدهما من أعلام السنة وفقهاء الحديث بعدهما الامام الشوكاني والسيد حسن صديق ، وصاحبا شرح سنن أبي داود وحاشية سنن الدارقطني من متأخري علماء الهند الأعلام[1] .

ونقف عند هذا الحد من الكلام في يسر الاسلام وسماحته في أمر الطلاق وحماية الأسرة ورعايتها ، وان ابن تيمية لم يخط هذه الدائرة من أقواله ، بل جميع ما أتى به مؤيد بالكتاب والسنة وما كان عليه أعلام هذه الأمة .

ونختم هذا البحث بما جاء في القانون المصري المحاكم الشرعية ، وهو المعروف بقانون (٢٥ المؤرخ ١٠ مارس سنة ١٩٢٩) تحت عنوان « الطلاق » مانصه :

١ — لا يقع طلاق السكران والمكره .

(١) ٦٨٣ ج ٩ م ٢٨ .

٢ ــ لا يقع الطلاق غير المنجز إذا قصد به الحمل على فعل شيء أو تركه ، لا غيره .

٣ ــ الطلاق المقترن بعدد لفظاً أو إشارة لا يقع إلا واحدة .

٤ ــ كنايات الطلاق ــ وهي ما تحتمل الطلاق وغيره ، لا يقع بها الطلاق إلا بالنية .

٥ ــ كل طلاق يقع رجعياً إلا المكمل للثلاث . والطلاق قبل الدخول ، والطلاق على مال ، وما نص على كونه بائناً في هذا القانون ، والقانون ٢٥ لسنة ١٩٢٠ .

قلت : وهذا القانون المشار إليه سنة ١٩٢٠ هو ما اتفقت عليه اللجنة المؤلفة من حضرات شيخ الجامع الأزهر ، وشيخ المالكية ، ورئيس المحكمة العليا الشرعية ، ومفتي الديار المصرية ، ونائب السادة المالكية ، وغيرهم من العلماء .

وإنك لتجد في المذكرة الايضاحية لهذه الأحكام الخمسة بياناً وافياً عنها واحدة واحدة ، ومَن مِن أئمة السلف ، وعلماء الحديث ، وفقهاء المذاهب أخذ بها ، وهذه المقررات منطبقة تمام الانطباق على ما قدمنا من مذهب الشيخين ابن تيمية ، وابن القيم ، والله أعلم .

علاوة ثالثة

ترجيحه لمذهب السلف في أمر المعتقد

تمهيد

يظن بعض الناس أن دعاة الاصلاح والتجديد ، لأمر الدين والتوحيد ، على أساس الكتاب والسنة ، وما كان عليه سلف هذه الأمة إنما يحاولون إحياء الدين وإماتة ماعداه من علوم السلف وحضارتهم ، أو عدم الانتفاع بما تدعو إليه الحاجة من مخترعات الغربيين ومدنيتهم ، إن تعجب فعجب هذا الزعم

الباطل ! إن سلفنا الصالح الذين نهتدي بهديهم ، ونقفو أثرهم ، قد جعلهم الله هداة للناس في الدين والدنيا ، وأورثهم أرض كثير من الأمم القديمة وما عليها من علوم وآداب وصناعة وعمران ، ونحن نتلو أخبارهم ، ونقفو آثارهم ، وإن لم نبلغ شأوهم ، ونستفيد من مستحدثات الامم المعاصرة ، كما استفاد سلفنا من مزايا الشعوب والأمم الغابرة .

انا نحاول أن نكون أمة ذات مدنية عربية اسلامية ، لا شرقية ولا غربية ، أساسها الأخلاق والفضائل ، وميزانها إقامة العدل بين الخلائق ، وهذا الطراز الممتاز من المدنية نقتبسه من نور العصور الذهبية الاسلام . ولقد ذاق الناس من ظلم المدنية الحديثة ماجعل أشد الناس إيماناً بها من قبل ، أشدهم بغضاً لها ، وكراهية للمستبدين الظالمين من أهلها .

ولقد كان شيخ الاسلام ابن تيمية ينصر مذهب السلف الصالح بأدلة عقلية ونقلية ، ويحاول إرجاع الناس إليه بكل الوسائل ، ويرى رأي إمام دار الهجرة مالك بن أنس من أنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها ، وهو رأي كل حكيم عليم بداء الأمة ودوائها قديماً وحديثاً ، وقد ألف كتباً كثيرة كان معظمها يحوم حول هذه القضية ، وعقدت له عدة مناظرات في مصر والشام من أجلها ، وقد أثرنا بعضها من قبل . وله رحمه الله في باب التوحيد الخالص ، المجرد عن شوائب الوثنية والبدع والزوائد ، كتب ورسائل ، بعضها طبع وبعضها لما يطبع ، ونقتصر الآن على ذكر ثلاثة منها مطبوعة : (١) كتاب الاستغاثة المعروف بالرد على البكري ، وهو علي بن يعقوب بن جبريل البكري الشافعي المصري (٦٧٣ــ٧٢٤) وترجمته في الشذرات (ج ٦ ص ٦٤) وهو رد على مسألة الاستغاثة بالمخلوقين ، وقد لخصه ابن كثير في تاريخه . (٢) كتاب الرد على الاخنائي المسمى بقاضي القضاة علم الدين بن شمس الدين (٦٦٤ــ٧٣٢) وترجمته في الشذرات أيضاً (ج ٦ ص ١٠٣) واسمه الرد على الاخنائي واستحباب زيارة خير البرية ،

الزيارة الشرعية ، وهما مطبوعان معاً بمصر سنة ١٣٤٦ . (٣) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ، وهو مطبوع بمصر أيضاً سنة ١٣٢٧ هـ .

وفي طلائع الكتاب الأول مباحث جليلة في مدوني التفسير والحديث والسير ، والتاريخ ، والجرح والتعديل ، وذكر طائفة من الكتب المعتمدة ؛ وبيان ما اتسع فيه الكذب من فضائل الأعمال والأشخاص والأماكن والزمان ، وما سمعه شيخ الاسلام من جهالات بعض القضاة والمفتين والمدرسين وما رآه منهم . وقد حقق فيه أن لفظ (الاستغاثة في الكتاب والسنة وكلام العرب ، إنما هو مستعمل بمعنى الطلب من المستغاث به ، وأكثر ما يقال بإغيات المستغيثين ، ومعناه المدرك عباده من الشدائد إذا دعوه ، ومريحهم ومخلصهم ، فلا يجوز للانسان الاستغاثة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله . (قال) : ولو كانت الاستغاثة بعد الموت ثابتة ثبوتها في الحياة لطلب من النبي (ﷺ) أن يقوم بالامامة في الصلاة ، والإمارة في الغزو ، وإرسال البعوث ، وعقد الألوية ، والشعائر في الحرب ، وإقامة الحدود ، وإيصال الحقوق ، وقسم المواريث والغنائم ، والفيء والصدقات ، وتعليمهم ما يؤمرون به مما في القلوب من المعارف والأحوال أو ما يقوم بالأبدان من الأقوال والأعمال ، وإفتائهم فيما ينوبهم من المسائل والحكم بينهم فيما يتنازعون فيه من القضايا . . . فهذه الامور التي كان مأموراً بها أمر إيجاب أو استحباب ، وكانت حقاً عليه للخلق انتهت بموته فلم يبق عليه منها شيء ، كما انتهى حق الله الذي أمره به(١) .

وأقول تأييداً لما ذكره شيخ الاسلام : ان الصحابة الكرام ، قد تناظروا بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام ، في أمر الخلافة ، وفي جمع القرآن ، وفي المعارك الدامية كوقعة الجمل وصفين والنهروان ؛ وتناظر الشيخان في قتال مانعي الزكاة ، وفي إرسال جيش أسامة ، ولم يستغيثوا به في هذه الشدائد ، ولا استفتوه في شيء منها ، وكل هذا معلوم من

(١) ملخصة من صفحة ٨١ ، ٩٢ و ١١٠ منه .

الدين والتاريخ بالضرورة ، ومن العقل والحس والوجدان بالبداهة ، فيجب ردّ ما يتجدد من الوقائع والحوادث إلى الوحي المنزل ، وما عرف من سنن الصدر الأول للاسلام . ولو كان ترك وسائل النصر والظفر ، والاستنصار بغيره تعالى مفيداً لنا في شيء ، لكنا اليوم أسعد الأمم حالاً ، وأنعمها بالاً ، وأوفرها عزة وثروة وقوة ، ولكن تلك الخطة المعارضة للشرع والطبع والحس التي سلكها أولئك الناس لم تزد الأمة إلا نكالاً ووبالاً ، ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه ، فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا ، أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ، ويرجون رحمته ويخشون عذابه ، إن عذاب ربك كان محذورا ﴾(١) .

ثم إن هذا المؤلف (البكري) قد جرى على عرف بعض العلماء المتأخرين الذين جعلوا الاستغاثة به (ﷺ) وبغيره في معنى التوسل إلى الله تعالى بجاهه وبحقه ، كالسبكي في شفاء السقام ، والقسطلاني في المواهب ، والسمهودي في خلاصة الوفا ، وابن حجر المكي في الجوهر المنظم وغيرهم . والمراد أنهم يسألون الله تعالى بحقه وجاهه أن تقضى حوائجهم ، وسيأتي بحث ذلك . أما الاستغاثة بأهل القبور أنفسهم بمعنى طلب الغوث منهم - أي زوال الشدة ، وتفريج الهم والكرب ، وقضاء سائر الحوائج . فهذه استغاثة شركية ، لا تدخل في دائرة الأسباب والمسببات بحال ، بل هي توسل الغلاة والجهال في الحضر والسفر ، والبر والبحر ، والعسر واليسر ، والفرج والشدة ، ونحن نجل أهل العلم والعقل والايمان ، عن الوقوع في مثل هذا الطغيان والهذيان .

وفي الكتاب الثاني لشيخ الاسلام (قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة) ما ملخصه : لفظ التوسل يراد به ثلاثة معان (أحدها) التوسل بطاعته ﷺ فهذا فرض لا يتم الايمان إلا به . (والثاني) التوسل بدعائه وشفاعته ،

(١) الاسراء : (٥٦ و ٥٧) .

وهذا كان في حياته ويكون يوم القيامة . (والثالث) التوسل به بمعنى الاقسام على الله بذاته . والسؤال بذاته ، فهذا هو الذي لم يكن الصحابة يفعلونه في الاستسقاء ونحوه ، لا في حياته ولا بعد مماته لا عند قبره ولا غير قبره ، ولا يعرف هذا في شيء من الأدعية المشهورة بينهم ، وهذا هو الذي قال ابو حنيفة وأصحابه انه لا يجوز ، ونهوا عنه حيث قالوا : لا يسأل بمخلوق(١) اهـ .

أقول إن التوسل في لغة الصحابة هو عبارة عن أقوال وأفعال وأحوال لم تجر سنة الله في صدورها عن غير الأحياء بين أظهر الناس ، كتوسل عمر بالعباس في الاستسقاء فهو طلب للسقيا والدعاء والصلاة على طريقة معهودة في الشرع معروفة في كتب الحديث والفقه ، ومنها أن يخرج المتوسل به إلى المصلى ويخرج الناس معه ، فيستسقي ويدعو مستقبلاً القبلة ، ويحوّل رداءه ويصلي ركعتين ، ويخطب خطبتين ، أو نحوها من الهيئات الثابتة ، كما يعلم ذلك من سِيَر الأحاديث الصحيحة الواردة في الاستسقاء ، والمتوسل به للسقيا على تلك الهيئة أو نحوها لا يمكن أن يكون من غير الأحياء.

ثم ههنا مسألة مهمة وهي أن حقوق الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وصلاح الصالحين ، ليست من أعمال السائل التي يستحق عليها الجزاء ، ولا رابطة بينها وبين إجابة سؤله ، فاذا قال الداعي : أسألك بحق فلان الصالح أن تقضي حاجتي فمعنى ذلك : اقض حاجتي لكون فلان صالحاً ، فأي مناسبة بين قضاء حاجتك وصلاحه ؟ وإذا قلت بجاه فلان اغفر لي ، كان المعنى : طلب المغفرة لكون فلان ذا جاه ، وأي مناسبة بين جاهه ومغفرة ذنبك ؟ فصلاحه أو جاهه ليس منفياً عنه لا في حياته ولا عند ربه ، ولا هو محل نزاع ، ولكن ليس من عملك الذي تستفيد أنت منه ، وتستحق الجزاء عليه ، وإنما العامل هو الذي يجني ثمرة عمله في الدنيا والآخرة ،

(١) ص ١٢ و ٥٣ و ٥٥ و ٥٧ و ١٧٦ منه .

قال الله تعالى : « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » .

ولو كان التوسل بعمل الصالحين يفيد المتقاعسين عن العمل لهان الأمر علينا معشر المسلمين ، إذ كان يمكننا أن نقول مثلاً : اللهم أزل ضعفنا ، وأمن خوفنا ، وانصرنا على عدونا بجاه سلفنا الصالح الذين جاهدوا في سبيلك لاعلاء كلمتك ، ففتحت لهم فتحاً مبيناً ، ونصرتهم نصراً عزيزاً ، ربنا هب لنا من الملك والسلطان ، والعلم والعرفان ، والحضارة والعمران مثل ما وهبت لهم ، أفترى أنه تفيدنا هذه التوسلات بجاه أسلافنا وقوتهم ، وسعة سلطانهم ، واستبحار عمرانهم ، ونحن قد تداعت علينا الأمم فجعلتنا مغنماً ، ونهباً مقسماً ! لا لا ، وانما ننهض ونجدد اذا اهتدينا بهديهم ، وكان لنا مثل عملهم .

قال الامام ابن القيم رحمه الله : « وقد رتب الله سبحانه حصول الخيرات في الدنيا والآخرة ، وحصول الشر في الدنيا والآخرة في كتابه على الأعمال ترتيب الجزاء على الشرط ، والمعلول على العلة ، والمسبب على السبب ، وهذا في القرآن يزيد على ألف موضع » . وقال أيضاً : وهكذا شأن التوسل الديني الأخروي . وهكذا من وفقه الله وألهمه رشده يدفع قدَر العقوبة الأخروية بقدَر التوبة والايمان ، والأعمال الصالحة ، فرب الدارين واحد ، وحكمته واحدة ، لا يناقض بعضها بعضاً ، ولا يبطل بعضها بعضاً اهـ .

قلت : ويشهد له قوله تعالى : « ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين » فهو توسل إلى الله تعالى بالايمان والاتباع . ومن أفضل أنواع التوسل ماجعله الله تعالى دعاء المؤمنين ، ورتب عليه غفران الذنوب ، وتكفير السيئات ، والوفاة مع الأبرار ، فقال عز من قائل : « ربنا انّنا سمعنا منادياً ينادي للايمان أن آمنوا بربكم فآمنا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا ، وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار » وقال جلت حكمته :

« الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار » فهذه الآيات الكريمة قد أرشدتنا إلى التوسل إليه تعالى بما شرعه من الاخلاص في الدعاء له وحده ، والايمان بما أنزله من عنده ، واتباع الرسول على الوجه الذي جاء به من عند ربه ، فتأمل كيف جعل ذلك سبباً لمغفرة الذنوب ، والوقاية من النار ، والنظم في سلك الأبرار ، وأن هذا التعليم الالهي ، والتوسل الشرعي ، من المعامل التوسلية التي أنشأها المبتدعة لأنفسهم ولغيرهم ، وهم يصدرون منها كل حين من التوسلات المبتدعة أنواعاً منوعة ما أنزل الله بها من سلطان » قل أأنتم أعلم أم الله » ؟

وأما الكتاب الثالث — وهو الرد على الاخنائي — المسمى بقاضي القضاة ، فسببه أن الامام ابن تيمية قد أرسل إليه بعض أصحابه جزءاً أخبر أنه صنفه بعض القضاة ، قد تكلم في المسألة التي انتشر الكلام فيها وهي السفر إلى غير المساجد الثلاثة كالسفر إلى « مجرّد » زيارة القبور هل هو حرام أو مباح أو مستحب ، « وهي المسألة التي أجبت فيها من مدة بضع عشرة سنة بالقاهرة ، فاظهرها بعض الناس في هذا الوقت ظناً أن الذي فيها خلاف الاجماع ، وأن السفر لمجرد قبور الانبياء والصالحين هو مثل السفر المستحب بلا نزاع ، وهو السفر إلى مسجد نبينا محمد (ﷺ) المتضمن لما شرعه الله من السفر إلى مسجده والصلاة فيه ، والسلام عليه ومحبته وتعظيمه ، وغير ذلك من حقوقه (ﷺ) في مسجده المؤسس على التقوى » اهـ .

أرسل اليه بعض أصحابه هذا الجزء وأقسم عليه ليكتبن شيئاً يظهر فيه جهل مثل هؤلاء الذين يتكلمون في الدين بغير علم وليس في الفتوى القديمة التي اطلع عليها القاضي (وهي منشورة في هذا الرد) تحريم زيارة قبور الأنبياء ولا غيرهم ، ولا كان السؤال عن هذا ، وانما فيه الجواب عن السفر إلى القبور ، وكتب الشيخ وفتاويه مشحونة باستحباب الزيارة ، وفي جميع مناسكه يذكر استحباب الزيارة . قال ابن تيمية : وأما من كان

قصده السفر إلى مسجده وقبره معاً فهذا قد قصد مستحباً مشروعاً بالاجماع » ... والجواب في السؤال كان عمن سافر لا يقصد إلا زيارة القبور ، لا يقصد سفراً شرعياً كالسفر إلى مكة (أي المسجد الحرام) وإلى مسجد النبي (ﷺ) والمسجد الأقصى .

أقول : إن هذا الموضوع باقسامه الثلاثة : الزيارة ، وشد الرحال ، والتوسل ، قد شغل الناس قروناً طويلة ، وملأ مئات المصنفات وألوف الصفحات ، وكنت قدمت اقتراحاً إلى مؤتمر العالم الاسلامي الذي انعقد بمكة (١٣٤٤ هـ = ١٩٢٦ م) قرّبت فيه بين المذاهب المختلفة في المسائل الثلاث ، ووافق عليه الأعضاء المؤتمرون جميعاً ، وخلاصته :

١ — إن الزيارة الشرعية للأموات من دون شد الرحال ، ليس فيها مطعن ولا مقال ، وقد كان النبي يزور سكان البقيع ، وشهداء أحد ، ثم قلت : إن هذا العصر عصر تآمر ملل ، واتفاق دول ، تخالف مصلحتها مصلحتنا معشر العرب والمسلمين ، وإن كثيراً من العوام والغلاة ، كلما أعوزهم كشف البلاء أو تحقيق الرجاء ، تركوا ما أمر الله به من إعداد القوة ، والأخذ بوسائل الدفاع ، ولجأوا إلى قبور بعض الصالحين ، يستنجدون بهم للدفاع عنهم ، وبذلك قضي على كثير من بلاد المسلمين ، فدرءاً لهذه المفاسد الدينية والدنيوية ، نوضح للناس أن دعاء غير الله بكشف الضرّ ، يعدّ عبادة لذلك الغير « فلا تدعوا مع الله أحداً » وفي الحديث (إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله) فيستفاد من ذلك أن ليس في الاسلام إلا الأخذ بالأسباب المشروعة في جميع المهمات ، والاستعداد لجميع الطوارئ والحادثات بقدر الاستطاعة .

٢ — إن مسألة شد الرحال إلى المساجد الثلاثة مفروغ منها ، وإن السفر إلى ماعداها من المساجد ، أو لمجرد زيارة القبور ، لم يعهد في الصدر الأول ولم يقع من الأئمة الهداة ، وهل زيارة قبر النبي مشروعة وحدها فتشد الرحال إليها كأداة العبادة في مسجده ؟ أم هي مشروعة

تبعاً لاداء العبادة في المسجد ؟ في المسألة قولان ، ويوفق بينهما بأن الصلاة في مسجد النبي وزيارته متلازمان ، بحيث لا ينفك أحدهما عن الآخر ، كمسألة الفقير والمسكين والايمان والاسلام عند الفقهاء فلا يذكر أحدهما إلا ويراد معه الآخر ، وأن تكون النية موجهة عند شد الرحال إلى أداء العبادة في المسجد ، ومعها زيارته ﷺ .

٣ — ان من استقرأ النصوص ، وسبر غورها ظهر له منها أن التوسل إليه تعالى بالكلم الطيب ، والعمل الصالح هو المشروع ، وأنه هو الذي تنال به خيرات الدنيا والآخرة ، فرب الدارين واحد وحكمته فيها واحدة كما قال ابن القيم ، وفي طليعة كتابه : (الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي) تحقيق بديع لهذا المبحث ، وقد أورد له القواعد والشواهد الشرعية من القرآن العظيم الذي أيد العقل والحس والفطرة وطبيعة البشر في ذلك ، ولما كان بعض ظواهر النصوص يوهم شمول التوسل بالذات والجاه أيضاً ، كانت المسألة خلافية ، وكان فيها قولان لمثل الامام أحمد ابن حنبل ، وقد ورد : « اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك وأسألك بحق ممشاي هذا » رواه أحمد وابن ماجه ، وفي سنده عطية العوفي ، وهو ضعيف كما قالوا ، ولكن معناه صحيح ، فحق السائلين عليه الاجابة ، وحق الماشين إلى المساجد الاثابة ، « وقال ربكم : « ادعوني أستجب لكم » فالسائلون يسألونه تعالى تحقيق ما وعدهم به ، وقد تفضل فجعله حقاً لهم عليه ، وتحقيق وعده هو من صفاته تعالى الفعلية ، وليس ذلك من محل النزاع في شيء .

ومن المؤسف جداً عدم الاهتداء بهدي الانبياء والصالحين ، والاكتفاء بتشييد القبور ، وجعلها كالقصور والقلاع ، والصلاة عندها ، والطواف حولها ، ونذر النذور لسدنتها ، ويرحم الله حافظاً القائل :

أحياؤنا لا يرزقون بدرهم ... وبألف ألف ترزق الأموات
من لي بحظ الناعمين بحجرة ... قامت على أحجارها الصلوات

والواجب يتقاضى علماء الدين الخالص والعاملين المدنية الصحيحة ، أن يتعاونوا على إنشاء معاهد علمية في الأقطار الشرقية والغربية ، تدعو إلى الله على بصيرة ، وتصحح العقائد والعوائد ، وتزيل المهالك والمفاسد ، وتعيد عهد الأئمة ، وتجدد معالم الامة .

تحقيقه لوحدة الأديان وأخوة الرسل الكرام عليهم السلام

مدخل

(الاسلام وأهل الاديان السماوية)

قرر الاسلام في معاملة الأمم التي يضمها تحت رايته حقوقاً تضمن لهم الحرية في ديانتهم ، والفسحة في إجراء أحكامها بينهم ، وإقامة شعائرها بارادة مستقلة ، فلا سبيل لأولي الأمر الى تعطيل شعيرة من شعائرهم ، ولا يدخل في فصل نوازلهم الخاصة ، إلا إن تراضوا بالمحاكمة أمام محكمتنا ، فتحكم بينهم على قاعدة العدل والمساواة ، قال تعالى : « وإنْ حكمتَ فاحكمْ بينهمْ بالقسطِ ، إنّ اللهَ يحبُّ المقسطين » . وإبقاء الرعية على شرائعهم وعوائدهم منظر من مناظر السياسة العالية ، وباب من أبواب العدالة السامية . والأصل في كل مملكة أن يكون حق الولاية الشرعية في يدها دون سواها ، بحيث تفصل المحاكم التابعة لها في جميع قضايا من تقلهم أرض الوطن ، سواء كان النزاع متعلقاً بالجرائم او الأموال ، أو الأحوال الشخصية ، ولكن عملاً بحرية الأديان والمعتقدات قيدت هذه الولاية وانحصر سلطانها في الأمور الدنيوية ، وأصبح كل إنسان حرّاً في أحواله الدينية وما يتبعها .

تنظر إلى أبواب الشريعة فتبصر في جملتها احكاماً كثيرة مبنية على التسامح مع غير المحاربين ، تطالع أبواب الهبة والوقف والوصية فتستفيد من أحكامها أن الاسلام لم يقتصر على إباحة معاملتهم بمعاوضة ، بل أجاز للمسلم

أن يهب جانباً من ماله أو يوقفه أو يوصي به لغير المسلم ؛ أمر الاسلام بالعدل والاحسان في معاملتهم ، والرفق بضعيفهم ، وسدّ خلة فقيرهم ، وحرم الاعتداء عليهم ولو بكلمة سوء أو غيبة في عرض أحدهم .

(آيات التوحيد الخالص في الكتب السماوية)

من تصفح كتب العهدين القديم والجديد ومزامير داود (التوراة والانجيل والزبور) وجدها طافحة بالدعوة إلى توحيد الله تعالى ، والوعيد الشديد على الشرك ، مملوءة بالبشارات بظهور رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام إلى الناس كافة . فأما تنزيه الاله والرب عن الوالد والولد ، وعن الند والضد ، فتراه في الفصول والأعداد ، (وهي كالسور والآيات) من أسفار التوراة ، كتثنية الاشتراع ، وسفر الخروج ، وأشعيّاء ، مثل قوله : « إن الرب هو الاله ، وليس آخر سواه » « لا يكن لك آلهة أخرى أمامي » « لا تسجد لهن ولا تعبدهن ، لأني أنا الرب إلهك إله غيور » « ولكي يعلموا من مشرق الأرض ومن مغربها أن ليس غيري ، أنا الرب وليس آخر » .

وفي إنجيل مَرْقُسَ : فأجابه يسوع : « إن أول كل الوصايا هي : اسمع ياسرائيل : الرب إلهنا رب واحد » (الفصل ١٢ عدد ٢٩) . وفي انجيل يوحنّا : « وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الاله الحقيقي وحدك ، ويسوع المسيح الذي أرسلته » (الاصحاح ١٧/٣) .

ليس من قصدي استيفاء آيات التوحيد الخالص من الكتب المقدسة فهي كثيرة ، ولا نقل البشائر التي لا تنطبق إلا على النبي العربي محمد خاتم النبيين فقد نقل منها المحقق الكبير الشيخ رحمة الله الهندي الشهير ، في كتابه (إظهار الحق) عن الكتب المعتبرة عند علماء البروتستانت ـ ثماني عشرة بشارة ، وسبقه إلى مثل ذلك شيخ الاسلام ابن تيمية الذي عقدنا هذا الفصل للكلام على كتابه الجواب الصحيح ، وتبعه فيه تلميذه الامام

ابن القيم في كتابه (إرشاد الحيارى) . وحسبي الآن أن أنقل شاهداً واحداً من التوراة ، وآخر من الانجيل ، وكلمات قليلة من الزبور أو المزامير ، تأييداً لما جاء في القرآن من بشائر الوَحدة والسلام ، والهتاف ببعثة محمد عليه الصلاة والسلام ، لكي لا يكون على المؤمنين بالكتب المقدسة حرج إذا هم صدقوا برسالة النبي العربي الذي آمن بكتب اخوانه المرسلين وصدقهم ، ولتقوم الوطنية على أساس المساواة التامة بين أبناء الوطن الواحد ، وهذا موضوع جليل ، ومطلب خطير ، يهم أهل الملل السماوية ، وعلماء الاجتماع الانساني ، لأنه يدعو إلى الوحدة الصحيحة ، بلسان الكتب الالهية ، والعاملين بها ؛ ومن واجب العلماء بيان هذه الوحدة الدينية من الكتب المنزلة ، لتؤيد بها وحدتنا القومية .

(بشارة موسى بمحمد)

جاء في العدد الخامس عشر من الاصحاح (أو الفصل كما في الطبعة اليسوعية من سفر التثنية[1] من التوراة : « ويقيم لك الرب إلهك نبياً من وسطك من إخوتك مثلي ، له تسمعون » فهذه البشارة صريحة في محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، لأنه لم يقم نبي مثل موسى من وسط اليهود ، ومن اخوتهم بني اسماعيل غير النبي العربي محمد ، وأبناء العم يسمون أخوة ، ومن ذلك تسمية أبناء عمهم (عيسو) إخوة لهم كما في ٢ : ٤ و ٨ من التثنية ، ولو كان المراد من هذه البشارة المسيح عليه الصلاة والسلام لقال : أقيمه منكم أو من نسلكم ، لا من إخوتكم ؛ لأن يسوع المسيح ابن داود ابن ابراهيم ، كما في متى (١١ : ١ — ١٦) فهو من نسل اسحق ، لا من نسل اسماعيل عليهم السلام .

---

(١) التثنية : اسم السفر الخامس من أسفار العهد القديم ، وقد أطلق عليه التثنية ، لأنه ذكرت فيه الشريعة الموسوية مرة ثانية .

(بشارة الانجيل بالنبي العربي)

جاء في انجيل يوحنا ١٦ : ١٢ و ١٣ إن لي أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم ، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن ، وأما متى جاء روح الحق ، فهو يرشدكم إلى الحق ، لأنه لا يتكلم من نفسه ، بل كل ما يسمع ، يتكلم به ، ويخبركم بأمور آتية » فمحمد هو الذي كان يتكلم بما يسمع من وحي الله اليه ، قال تعالى : ٥٣ : ٣ و ٤ « وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى » ومملكة محمد هي مملكة الله في الأرض المسماة في العهد الجديد بملكوت الله ، وبملكوت السموات ، وكان المسيح وتلاميذه يبشرون الناس بمجيئها ، وأمر عليه السلام أن يطلبوا إتيانها من الله في صلواتهم ، انظر متى ٣ : ٢ و ٤ : ١٧ ، ٢٣ و ٦ : ١٠ و ١٣ : ٣١ ، ٣٢ و ٢٠ : ١ — ١٦ و ٢١ : ٣٣ — ٤٤ ولوقا : ١٠ : ٩ ، ١١) وهذه المملكة هي التي بدأت صغيرة ثم نمت وكبرت حتى ملأت العالم ، ولذلك شبهها عليه السلام بالزرع الجيد وبالخميرة وبحبة الخردل ، التي تصير أكبر البقول ، حتى ان طيور السماء تأتي وتتأوى في أحضانها ، (وفي طبعة الجزويت : تستظل في أغصانها ، متى ١٣ : ٢٤ — ٣٥) وهي منطبقة على ما في القرآن الكريم في محمد وأتباعه ، « ومثلهم في الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره ، فاستغلظ ، فاستوى على سوقه » السورة ٢٩ الآية ٤٨) شطأه : أي فراخه ، يقال : أشطأ الزرع ، إذا فرّخ ، فآزره من المؤازرة ، وهي المعاونة ، أي فشدّ أزره وقواه ، فاستوى على سوقه : فاستقام على قصبه ، جمع ساق ، وهذا مثل ضربه الله لبدء أمر الاسلام ، والنبي عليه السلام ، قام وحده ثم قواه الله بمن آمن معه ، كما يقوي الطاقة الأولى من الزرع ما يحتفّ به مما يتولد منها ، حتى يعجب الزراع .

* * *

(بشارة حبقوق[1] وذكر بلاد العرب فيها)

قال حبقوق (٣ : ٣ و ٤) الله جاء من تيمان ، والقدوس من جبال فاران ، سلاه[2] جلاله غطى السموات ، والأرض امتلأت من تسبيحه ، وكان لمعان كالنور ، له من يده شعاع ، وهناك استتار قدرته » .

فتيمان بلاد العرب ، ومعنى كلمة تيمان الصحراء الجنوبية ، لأنها جنوب بلاد الشام ، ولا يزال الآن على طريق القوافل بين دمشق ومكة قرية تسمى (تيماء) ومعنى هذه الكلمة أيضاً الصحراء الجنوبية ، وتيماء أيضاً اسم قبيلة اسماعيلية تسلسلت من تيماء ، وكانت تقطن بلاد العرب (تك ٢٥ : ١٥ و ١١ ي ١/٣٠) كما في قاموس الكتاب المقدس العربي . أما جبل فاران فهو في البرية التي سكنها اسماعيل أبو العرب (تك ٢١/٢١) فكأن حبقوق أشار بعبارته هذه إلى مسكن رسول الله ، وهو بلاد العرب (أو التيمان) وإلى مسكن أصله ، أو جده اسماعيل ، وهو برية فاران .

(التصريح بمكة وهي مكة)

ومنه قول المزمور الرابع والثمانين (٥ و ٦) طوبى لأناس عزهم بك ، طرق بيتك في قلوبهم ، عابرين في وادي البكا ، والأصل العبراني : وادي (بكة) فأبدل لفظ (بكا) بلفظ (بكة) وهي (مكة) في نص القرآن[3] .

---

(١) نبوة حبقوق : هي السفر الخامس والثلاثون من أسفار العهد القديم حسب ترتيبها الأصلي ، وأما زمن كتابتها فقبل المسيح بنحو ستمائة سنة كما بين قاموس الكتاب المقدس .

(٢) قال بعض المحدثين : سلاه : اختلفوا في تفسيرها على أقوال ، أرجحها في رأينا — وهو ماذهب إليه اشهر المتأخرين من علماء العبرانية — انها عبارة عن الأمر بالسكوت او الوقف — إيماز للمنشدين ان يقطعوا الغناء ويتخذوا فترة تنفرد فيها الآلات بالمحن .

(٣) ضبطنا الألفاظ العبرية على اهلها ونقلنا بعض معانيها إلى العربية بالتعاون معهم .

(التصريح باسم محمد)

من ذلك ما جاء في الفصل الخامس من النشيد ١٦ حلقه حلاوة ، وكله مشتهيات ، هذا حبيبي ، (هذه ترجمة البروتستانت ، وترجمة اليسوعيين : حلقه أعذب ما يكون ، بل هو بجملته ، هذا حبيبي) .

ولفظ مشتهيات في الأصل العبراني (محمديم) والقواميس العبرانية تقول : ان هذه اللفظة لا تفيد مشتهيات ، ولكن تفيد أنه محمود ، ونقول : ان هذه صريحة في نبينا عليه السلام ، وقوله قبلها حلقه حلاوة : كناية عن فصاحة كلامه ، لم يأت نبيٌّ بكلام أحلى مما جاء به خاتم الانبياء ، وقوله بعدها هذا حبيبي نصٌّ في لقب النبي عليه الصلاة والسلام ، فانه حبيب الله عزّ وجل .

ومنه ما جاء في الفصل الثاني من النشيد : أسمعيني صوتك ، لأن صوتك لطيف ، ووجهك جميل ، وفي الأصل العبراني : (عرب) بدل (جميل) أي عربي . ومنه ما في الفصل الثاني من نبوة حجّي أو حجاي أو حكاي - كما في الأصل العبري : ٧ وازلزل كل الأمم ويأتي مشتهى كل الأمم فأملأ هذا البيت مجداً قال رب الجنود . وكلمة مشتهى هذه ، أصلها العبراني (حمدات) ومعناه محمود ، وهي من الفعل العبراني (حمد) .

علمنا من هذه النصوص والبشائر الصريحة في الكتب المقدسة أنها بشرت بالنبي العربي ، وذكرته باسمه الكريم ، وصرحت باسم بلاده ، ومحل ميلاده وهو مكة .

أفرأيتم كيف ألفت هذه النصوص الصريحة بين الأديان الثلاثة ؟ وهذا هو الاخاء الصحيح ، بين محمد وموسى والمسيح ، عليهم الصلاة والسلام ، وهذا بعض نصوصه وبشائره ، وهي قليل من كثير مما عثرنا عليه ، ولو اقتصر رجال الكنيسة الأكارم على ما بين أيديهم من الكتب

المقدسة ، - دون عقائد وعوائد ليست في هذه الأناجيل التي هي أصل العقيدة ومستندها - لاجتمعت الكلمة ، وأحكمت عرى المودة القلبية بين المختلفين.

(الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح)

يقع هذا الكتاب المطبوع بمصر (١٣٢٣ هـ = ١٩٠٥) في أربعة أجزاء وهي تبلغ أكثر من ألف واربعمائة صفحة بالقطع المتوسط ، وقد ذكر شيخ الاسلام في طلائع كتابه أنه جعله جواباً لكتاب ورد من قبرص ، فيه الاحتجاج لدين النصارى بما يحتج به علماء دينهم ، وفضلاء ملتهم قديماً وحديثاً ، من الحجج السمعية والعقلية ، فاقتضى أن تذكر من الجواب ، ما يحصل به فصل الخطاب ، (ثم قال) : وأنا أذكر ماذكروه بالفاظهم باعيانها - فصلاً فصلاً ، واتبع كل فصل بما يناسبه من الجواب فرعاً وأصلا ، وعقداً وحلا ، . . . فان هذه الرسالة وجدناهم يعتمدون عليها قبل ذلك ، ويتناقلها علماؤهم بينهم ، والنسخ بها موجودة قديمة ، وهي مضافة إلى بولص الراهب أسقف صيدا الانطاكي كتبها إلى بعض أصدقائه ، وله مصنفات ، وقد اشتمل ردّ شيخ الاسلام على ستة فصول :

(١) دعواهم أن محمداً (ﷺ) لم يبعث إلا الى أهل الجاهلية من العرب .
(٢) دعواهم أن القرآن أثنى على دينهم الذي هم عليه .
(٣) دعوى أن نبوات الأنبياء المتقدمين تشهد لدينهم الذي هم عليه من الأقانيم والتثليث والاتحاد وغير ذلك .
(٤) فيه تقرير ذلك بالمعقول .
(٥) دعوى أنهم موحدون والاعتذار عما يقولونه من ألفاظ يظهر منها تعدّد الآلهة كألفاظ الاقانيم الخ .
(٦) أن المسيح عليه السلام جاء بعد موسى عليه السلام بغاية الكمال ، فلا حاجة بعد النهاية إلى شرع مزيد على الغاية »[1] .

(١) ص ١٩ و ٢٠ .

والغرض الأول من تأليف « الجواب الصحيح » على ما يظهر ، هو بيان أصول الشرائع السماوية والكتب المنزلة ، وانها واحدة (قال) وهذا أصل دين المسلمين ، فمن كفر بنبي واحد ، أو كتاب واحد فهو عندهم كافر ، « كلٌ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله » والمنسوخ الذي تنوعت فيه الشرائع قليل بالنسبة إلى ما اتفقت عليه الكتب والرسل ، فان الذي اتفقت عليه هو الذي لابد للخلق منه في كل زمان ومكان ، وهو الايمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح ، كما قال تعالى : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » وعامة السور المكية كالأنعام والأعراف وآل حم وآل طس ، وآل الر - هي من الأصول الكلية التي اتفقت عليها شرائع المرسلين ، كالأمر بعبادة الله وحده لا شريك له ، والصدق والعدل والاخلاص ، وتحريم الظلم والفواحش والشرك ، والقول على الله بلا علم . وعامة ماعندهم من النقول الصحيحة عن الأنبياء من التوراة والانجيل والزبور ونبوات الأنبياء ، توافق المنقول عن محمد (ﷺ) يشهد هذا لهذا ، وهذا لهذا ، وذلك من دلائل نبوة محمد (ﷺ) ومن دلائل نبوة أولئك الأنبياء.(١) .

(الابن وروح القدس لا اختصاص لهما بالمسيح عليه السلام)

وقد أوضح ان الابن ليس كلمة ولا صفة ، ولا هو خاص بالمسيح ، وإنما يراد به المصطفى المكرّم ، (قال)(٢) : المراد بالابن ناسوت المسيح ، وبروح القدس ما أنزل عليه من الوحي ، والملك الذي نزل به ، فيكون قد أمرهم بالايمان بالله وبرسوله ، وبما أنزله على رسوله ، والملك الذي نزل

(١) ج ٣ ص ٢٤٥ .
(٢) ج ١ ص ٢٥٠ .

به ، وبهذا أمرت الانبياء كلهم (قال)(١) : وليس في كلام المسيح ولا في كلام سائر الانبياء ولا كلام غيرهم أن كلمة الله القائمة بذاته سبحانه وتعالى تسمى ابنا ولا روح قدس ، ولا يوجد قط في كلام الانبياء اسم الابن واقعاً إلا على مخلوق ، والمراد في تلك اللغة أنه مصطفى محبوب الله ، كما يقولونه أنه قال لاسرائيل انه ابنه بكره ، ولداود انت ابني وحبيبي ، وأن المسيح قال للحواريين : أبي وأبيكم ، فجعله أباً للجميع ، وهم كلهم مخلوقون ، فيكون اسم الابن واقعاً على المسيح ، الذي هو ناسوت مخلوق قال(٢) : وفي الانجيل في غير موضع يقول المسيح : أبي وأبيكم كقوله : إني ذاهب الى أبي وأبيكم ، وإلهي وإلهكم » فيسميه أباً كما يسميهم ابناً له ، فان كان هذا صحيحاً ، فالمراد بذلك أنه الرب المربي الرحيم ، فان الله أرحم بعباده من الوالدة بولدها . . . فيكون المراد بالأب الرب ، والمراد بالابن عبده المسيح الذي رباه ، وأما روح القدس فهي لفظة موجودة في غير موضع من الكتب التي عندهم وليس المراد بها حياة الله باتفاقهم ، بل روح القدس عندهم تحل في ابراهيم وموسى وداود وغيرهم من الأنبياء والصالحين ، وروح القدس قد يراد بها الملك المقدس ، ويراد بها الوحي والهدى والتأييد الذي ينزله الله بواسطة الملك أو بغير واسطة .

(وفي ص ٩٦) : فالذي فسر (بعض) النصارى به ظاهر كلام المسيح ، هو تفسير لا تدل عليه لغة المسيح ، وعادته في كلامه ، ولا لغة غيره من الأنبياء والأمم ، بل المعروف في لغته وكلامه ، وكلام سائر الأنبياء تفسيره بما فسرناه ، وبذلك فسره أكابر علماء النصارى » .

(وفي ص ٣٣٢ من ج ٢) : بل أفصح في كل الانجيل من كلامه ومخاطباته ووصاياه بما لا يحصى كثرة بانه عبد مثلكم ومربوب معكم ،

(١) ج ٢ ص ٦٥ .
(٢) ج ٢ ص ٩٤ و ٩٥ .

ومرسل من عند ربه وربكم ، ومبدي ما أمر به فيكم ، وحكى مثل ذلك من أمره حواريوه وتلامذته ، ووصفوه لمن سأل عنه ، ومن كلامهم بأنه رجل جاء من عند الله عزّ وجل ، ونبي له قوة وفضل(١) .

(وفي ص ٢٤٤) : ولفظ الابن عندهم في كتبهم يراد به من رباه الله تبارك وتعالى ، فلا يطلق عندهم في كلام الانبياء لفظ (الابن) قط إلا على مخلوق محدث ، ولا يطلق إلا على الناسوت دون اللاهوت ، فلايسمي عندهم اسرائيل ابناً ، ولا داود ابناً لله والحواريون كذلك . فتبين أن العارف كلا تدبر ما قالته الانبياء وما قاله أهل البدع من ... وغيرهم لم يجد لهم في كلام الانبياء الا ما يدل على نقيض ضلالهم .

وقد بين في (ص ٣٠٦ ج ٢) : فلسفتهم في الأقانيم الثلاثة (الأب والابن وروح القدس) وأعظم فرقهم في ذلك العهد اليعقوبية والملكانية والنسطورية وقد اختلفت وجهات نظرهم واستغرقت صفحات كثيرة . وذكر القائلين منهم بالأمانة ، واختلافهم في تفسيرها وامتناع تصورها على الوجه الصحيح ، وهنا تظهر سعة علم شيخ الاسلام بالفِرَق ، واطلاعه على مقالاتها وإحاطته بفلسفتها ، وقوة عقله في إظهار تعارضها وفي ردها كلها بالمنقول والمعقول .

(التوحيد الصحيح في كلامهم)

ثم خلص إلى إفراد الله تعالى بالوحدانية والعبادة على ألسنة طوائف منهم ، (وقال) (ص ٣٠٩) : وقال الأريوسية : إن الله ليس بجسم ولا أقانيم له ، وان المسيح لم يصلب ولم يقتل ، وانه نبي ، وحكى عن بعضهم أنه قال : المسيح ليس بابن الله (أي بنوة لاهوت) وحكى عن بعضهم انه

(١) ج ٢ ص ٢٣٢ .

ابن الله على التسمية والتقريب (إلى أن قال) : وهذا الذي نقله عنهم أبو الحسن الزاغوني ، هو نحو ما نقله عنهم القاضي أبو بكر بن الطيب والقاضي أبو يعلى وغيرهما ، (قال) : وقال أبو محمد بن حزم : النصارى فرق ، منهم أصحاب أريوس ، وكان قسيساً بالاسكندرية ، ومن قوله : التوحيد المجرّد ، وان عيسى عبد مخلوق ، وأنه كلمة الله التي بها خلق السموات والأرض (أي وهي كلمة « كن ») وكان في زمن قسطنطين الأول باني القسطنطينية ، وأول من تنصر من ملوك الروم ، وكان على مذهب أريوس هذا . (قال ابن حزم) : ومنهم أصحاب بولس الشمشاطي ، وكان بطريركاً بانطاكية قبل ظهور النصرانية ، وكان قوله بالتوحيد المجرّد الصحيح ، وان عيسى عبد الله ورسوله كأحد الانبياء عليهم السلام ، خلقه الله في بطن مريم من غير ذكر ، وانه انسان لا إلهية فيه البتة ، وكان يقول : لا أدري ما الكلمة ولا روح القدس ، (قال) وكان منهم أصحاب مقدينوس - وكان بطريركاً بالقسطنطينية بعد ظهور النصرانية أيام قسطنطين بانيها ، وكان هذا الملك أريوسياً كأبيه ، وكان من قول مقدينوس هذا التوحيد المجرّد ، وان عيسى عليه السلام عبد مخلوق ، إنسان نبي رسول كسائر الانبياء عليهم السلام ، وأن عيسى هو روح القدس وكلمة الله ، وأن روح القدس والكلمة مخلوقان ، خلق الله كل ذلك .

(رسالة الحسن بن أيوب الى أخيه)

وهذه الرسالة من أخ دان بالتوحيد الخالص ، وكتبها إلى أخيه ، وذكر له سبب إسلامه فيها ، ثم ذكر فرق النصرانية الثلاث ، وناقشهم في مذاهبهم وقضاياها واحدة واحدة ، وهي من أمتع الرسائل وأبلغها ، وفيها أدق المباحث وأهمها ، لم تترك شبهة الا كشفتها ، ولا حجة إلا جلتها ، ومن قرأها بتدبر وإمعان علم ما علمناه منها ، فقد سبرت غور المسائل ، وقابلت بين الأشباه والنظائر ، وأتت بأحسن النتائج ، التي تسكن اليها

النفس ويطمئن بها القلب ، ثم هي تزيل الفروق بين الأديان ، وتجعل أهلها عباداً للرحمن ، لا لبني الانسان . وقد أوردها في (الجواب الصحيح) فبلغت ثلاثاً وخمسين صفحة (ج ٢/٣١٢-٣٦٣) وصفحتين من أول الثالث .

ذكر مؤلفها فيها أن مريم ولدت انساناً (عليها السلام) وأنه جرى عليه أحكام الآدميين من غذاء وتربية ، وصحة وسقم ، وخوف وأمن ، وتعلم وتعليم ، لا يتهيأ لكم أنه كان منه في تلك المدة من أسباب اللاهوتية شيء ولا له من أحوال الآدميين كلها — من حاجاتهم وضروراتهم ، وهمومهم ومحنهم وتصرفاتهم — مخرج .

(ابن الله ومعناه)

(قال) : وقد علمتم أن من يسمى بابن الله كثير لا يحصون ، فمن ذلك إقراركم أنكم جميعاً أبناء الله بالمحبة ، وقول المسيح أبي وأبوكم ، والهي وإلهكم في غير موضع من الانجيل ، ثم تسمية (الله) يعقوب وغيره (بنيه) خصوصاً ، فالسبيل في المسيح إذا لم تلحقوه في هذا الاسم بالجمهور ، أن يجري في هذه التسمية مجرى الجماعة الذين اختصوا بها من الأنبياء والأبرار ، ونسبة الملك إياه إلى أبيه داود ، تحقق أن أباه داود، وان التسمية الأولى (أي ابن الله) على جهة الاصطفاء والمحبة ، وان حلول الروح عليه على الجهة التي قالها متى التلميذ للشعب عن المسيح في الانجيل لستم أنتم متكلمين ، بل روح الله تأتيكم تتكلم فيكم . فأخبر أن الروح تحل في القوم أجمعين وتتكلم فيهم .

(عشرون ألف آية تنطق بعبودية المسيح لله تعالى)

ومن تمام كلام الحسن بن أيوب (٣٦١ من ج ٢) قوله : وإذا نظر في الانجيل وكتب بولص وغيره ممن يحتج به النصارى وجد نحواً من عشرين ألف آية(١) مما فيه اسم المسيح ، وكلها تنطق بعبودية المسيح ، وانه

(١) اي أمارة او علامة .

مبعوث مربوب ، وأن الله اختصه بالكرامات ، ما خلا آيات كثيرة مشكلات ، قد تأولها كل فريق من أولئك الذين وضعوا الشريعة باختيارهم على هواهم ، وأخذوا بذلك التأويل الفاسد ، وتركوا المعظم الذي ينطق بعبوديته ، وقال في أواخر هذه الرسالة :

ومن أعجب العجب أن تكون أمة كتابها ودعوتها ومعبودها واحداً ، يتمسكون بأمر المسيح عليه السلام وتلامذته وانجيله ، وسنته وشرائعه ، وهم مع ذلك مختلفون فيه أشد الاختلاف ، فمنهم من يقول انه عبد ومنهم من يقول إنه إله الخ .

وقد ختم شيخ الاسلام كلام هذه الرسالة بقوله في أول الجزء الثالث من جوابه : هذا آخر ما كتبته من كلام الحسن بن أيوب — وهو ممن كان من أجلاء علماء النصارى ، وأخبر الناس بأقوالهم ، فنقله لقولهم أصح من نقل غيره ، وقد ذكر في كتابه من الرد على ما يحتجون به من الحجج العقلية والسمعية ، وما يبطل قولهم من الحجج السمعية والعقلية — ما يبين ذلك . (قال) ونحن نذكر مع ذلك كلام من نقل مذاهبهم من أئمتهم الخ ثم وصف كتاب (نظم الجوهر) لابن البطريق بترك الاسكندرية وصفاً شاملاً لأخبارهم ومجامعهم واختلافهم ، وسبب إحداثهم ما أحدثوه مع انتصار ابن البطريق لقول الملكية ، والرد على من خالفهم (وفي ص ١٦٩ ج ٣) : ومن أجل من جمع أخبارهم عندهم (أي الطوائف المختلفين في التثليث والاتحاد ، وان كل صنف يحكي أقوالاً غير الأقوال التي حكاها الآخرون) سعيد بن البطريق بترك الاسكندرية في أثناء المائة الرابعة من دولة الاسلام ، وقد فند هذا البترك أقوال النسطورية والملكانية ، وفند شيخ الاسلام أقوال الطوائف كلها بالعقل والنقل ولم يبق زيادة لمستزيد . (وفي ص ٢٢٢ ج ٣) : ذكر ما امتاز به القرآن على التوراة ، (وفي ص ٢٤٤) : ان جمهور المسلمين لا يعلمون نبوة أحد من الانبياء قبل محمد (ﷺ)

الا باخبار محمد (ﷺ) بنبوتهم ، فلا يمكنهم التصديق بنبوة أحد من هؤلاء إلا بعد التصديق بنبوة محمد (ﷺ) .

(ما اتفقت عليه الكتب والرسل)

ثم انتقل في الجواب الصحيح الى ذكر ما اتفقت عليه الكتب والرسل من الأصول الكلية العامة ، وإلى ماجاء في التوراة من الجمع بين التوراة والانجيل والقرآن ، والرسل الثلاثة موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام « تجلى الله من طور سينا ، وأشرق من ساعير ، واستعلن من جبال فاران » وإلى بشارة السفر الأول من التوراة بمحمد . وبشائر الزبور به وهو مزامير داود ، وقد ذكرنا قبل هذا شواهد من هذه الكتب الثلاثة المقدسة .

وفي الجواب الصحيح (٣/٢٨٢) قال كثير من العلماء واللفظ لمحمد بن قتيبة ليس بهذا خفاء على من تدبر ولا غموض ، لأن مجيء الله من طور سينا إنزاله التوراة على موسى من طور سينا كالذي هو عند أهل الكتاب وعندنا ، وكذلك يجب أن يكون اشراقه من ساعير ، إنزاله الانجيل على المسيح ، وكان المسيح من ساعير أرض الخليل بقرية تدعى ناصرة ، وباسمها سمي من اتبعه من نصارى ، وكما وجب أن يكون اشراقه من ساعير المسيح ، فكذلك يجب أن يكون استعلانه من جبال فاران ، انزاله القرآن على محمد (ﷺ) وجبال فاران هي جبال مكة ، (قال) : وليس بين المسلمين وأهل الكتاب خلاف في أن فاران هي مكة ، فان ادعوا أنها غير مكة ... قلنا أليس في التوراة أن ابراهيم أسكن هاجر واسماعيل (فاران) ، وقلنا دلونا على الموضع الذي استعلن الله منه واسمه فاران ، والنبي الذي أنزل عليه كتاب بعد المسيح ؟ (ثم قال) : ولا يمكن أحداً أن يدعي انه بعد المسيح نزل كتاب في شيء من تلك الأرض ، ولا بعث نبي ، فعلم أنه ليس المراد باستعلانه من جبال فاران إلا ارسال محمد (ﷺ) ، وهو سبحانه

ذكر هذا بالتوراة على الترتيب الزماني ، فذكر إنزال التوراة ، ثم الانجيل ثم القرآن ، وهذه الكتب نور الله وهداه . والى أماكن هذه الكتب الثلاثة أشار القرآن الكريم ، قال في الجواب الصحيح (ص ٣٨٦) : فقوله تعالى : « والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين » إقسام منه بالأمكنة الشريفة المعظمة الثلاثة التي ظهر فيها نوره وهداه ، وأنزل فيها كتبه الثلاثة : التوراة والانجيل والقرآن ، كما ذكر الثلاثة في التوراة .

(بشائر النبوات بالنبي العربي ، والتصريح باسمه)

ثم ذكر في « الجواب الصحيح » بشائر النبوات بالنبي العربي ، وفي اشعياء : « اسم محمد ، موجود الى الابد » قال أشعياء : يامحمد يا قدوس الرب ، اسمك موجود من الأبد » قالوا فهل بقي بعد ذلك لرائع مقال ، أو لطاعن مجال ؟ (ص ٣٠٧) . وفيه أيضاً التصريح باسمه (أحمد) و (محمد) . وقال أشعياء : إنا سمعنا من أطراف الأرض صوت (مجد) ، وهذا افصاح من أشعياء باسم رسول الله (ﷺ) (٣/٣١٠) . وفي حبقوق التصريح باسم محمد مرتين : « إن الله جاء من التيمن ، والقدوس من جبال فاران ، لقد أضاءت السماء من بهاء محمد (ﷺ) وامتلأت الأرض من حمده ، شعاع منظره باسم النور ، يحوط بلاده بعزه (الى أن قال) وترتوي السهام بأمرك يا محمد ارتواء » (ثم قال) : وهذه النبوة لا تليق إلا بمحمد ، ولا تصلح إلا له ، ولا تدل إلا عليه ، فمن حاول صرفها عنه فقد حاول ممتنعاً .

وفي (ج ٤ ص ٥) في كلمة الانجيل وتفسيرها ، قالوا : وقال يوحنا الانجيلي ، قال يسوع المسيح في الفصل الخامس عشر من انجيله : إن الفارقليط روح الحق الذي يرسله أبي هو يعلمكم كل شيء ، وقال يوحنا التلميذ أيضاً عن المسيح أنه قال لتلاميذه : إن كنتم تحبوني فاحفظوا وصاياي ،

وأنا أطلب من الأب أن يعطيكم فارقليطاً آخر يثبت معكم إلى الأبد روح الحق الخ .

وذكر بشارات أخرى من هذه الأناجيل ، وتوسع في شرح هذه البشائر واحدة واحدة ، وجملة جملة ، وبين وجه دلالتها على النبي (ﷺ) وانطباقها عليه دون غيره ، (إلى أن قال) (ص ٤/١٤) : وأيضاً فان معنى الفارقليط إن كان هو الحامد أو الحماد أو الحمد أو الممتز ، فهذا الوصف ظاهر في محمد (ﷺ) فانه وأمته الحمادون الذين يحمدون الله على كل حال ، وهو صاحب لواء الحمد .

ثم عقد فصولاً في اعجاز القرآن من وجوه متعددة ، من جهة اللفظ ، والنظم ، والبلاغة ، ومعانيه التي أمر بها ، والمغيبات التي أخبر عنها ، وما وصف بها المعاد ، وما أقامه من الدلائل اليقينية ، والأقيسة العقلية التي هي الأمثال المضروبة ، قال : وكل ماذكره الناس من الوجوه في اعجاز القرآن فهو حجة على إعجازه ، وكل قوم تنبهوا لما تنبهوا له . وعقد فصولاً أخرى في سيرة النبي ، وفي هديه وأوصافه وأخلاقه . وذكر معجزاته في نفسه وفي خلفائه (إلى ص ١٢٠) ثم ما أخبر بوقوعه في الأحاديث الصحيحة . ثم قال بعد سرد اخباره (ﷺ) بالمغيبات (ص١٤٨) : وهذا وأمثاله مما أخبر به من المستقبلات ، فوقع بعده كما أخبر ، ورأى الناس ذلك ، وأما ما أخبر به مما لم يقع إلى الآن فكثير . ثم ذكر شواهد مما تواتر عند علماء التاريخ أو السير ، أو النحو ، أو اللغة ، أو الحديث دون غيرهم ، وبيان أن المحدثين أوثق وأضبط من جميع هؤلاء ، وقال (ص ٢٣٥) : وعامة ماذكرناه من آيات النبي (ﷺ) هي من موارد اجماعهم ، لا من موارد نزاعهم .

وفي (ص ٣٠٦) : والرجل الصادق البار يظهر على وجهه من نور صدقه ، وبهجة وجهه ، سيما يعرف بها .

ونقل عن القاضي عياض – في صدق نبوة النبي – قوله : اذا تأمل المتأمل المنصف ما قدمناه من جميل أثره ، وحميد سيره ، وبراعة علمه ، ورجاحة عقله وحلمه ، وجملة كماله ، وجميع خصاله ، وشاهد حاله وصواب مقاله ، لم يمتر في صحة نبوته ، وصدق دعوته ، (قال) : وكفى هذا غيرَ واحد في اسلامه والايمان به .

في أواخر الفصل الذي ختم به شيخ الاسلام « الجواب الصحيح » مانصه : وفي خبر الجلندي ملك غسان لما بلغه أن رسول (ﷺ) يدعوه إلى الاسلام ، فقال الجلندي : والله لقد دلني على هذا النبي الأمي أنه لا يأمر بخير إلا كان أول آخذ به ، ولا ينهى عن شر إلا كان أول تارك له ، وأنه يتغلب فلا يبطر ، ويُغلَب فلا يضجر ، ويفي بالعهد ، وينجز بالموعود ، وأشهد أنه نبي ، وقال نفطويه في قوله تعالى : « يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار » هو مثل ضربه الله لنبيه ، يقول : يكاد منظره يدل على نبوته وإن لم يتل قرآناً كما قال ابن رواحة :

لو لم يكن فيه آيات مبينة كانت بديهته تأتيك بالخبر

التربية الاجتماعية في عهد الاسلام (٥)

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى .

أما بعد ، فلقد علم علماء التاريخ ما كان في العالم القديم من توارث حق الوصاية على النوع البشري في تصوراته وأحكامه العقلية ، واعتقاداته الدينية وكانت الفوضى في الأمة العربية سائدة ، والأمن في بلادهم قبل الاسلام مختلاً ، الفرد يفرغ جهده في الفرد ؛ والجماعة يشتد عدوانها على الجماعة ؛ ويعدون ذلك كله أثر نخوة أصابوا به المجد من معنى الحرية . أرأيت كيف قال شاعرهم يفتخر بما يأخذه من حمية الجاهلية :

إذا أنا لم أنصر أخي وهو ظالم على القوم لم أنصر أخي وهو يظلم

أما قول رسول الله ﷺ كما في الصحيح : « أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » فغير مراد منه المعنى الذي قصده الشاعر من الاغتصاب مطلقاً حقاً أو باطلاً بل كشف النبي ﷺ عن مراده بنفسه حين قالوا له : هذا ننصره مظلوماً فكيف ننصره ظالماً ؟ . فقال : « تأخذ فوق يده » . والمعنى تحجزه وتقيم صدره عن الظلم ، ولا جرم أن وقايته من العقوبات نوع من النصر والاعانة ثم ان هذه الجملة : (أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً) أول من تكلم بها جندب بن العنبر ، وأراد بها ما اعتاد من الحمية الجاهلية فأقر النبي الجملة ، ولكن نقلها عن موردها الاول ، وحملها على معنى اجتماعي يجعلها في جملة الارشادات الاسلامية .

نأخذ الآن ببيان القواعد الاساسية لهذه التربية الاجتماعية وهي نوعان :

(٥) محاضرة القاها الأستاذ محمد بهجة البيطار في ردهة محاضرات المجمع العلمي العربي في ايار سنة ١٩٢٣ .

حقوق وواجبات ، فحرية العقل ، وحرية النفس ، وحرية العلم ؛ هي من حقوق الانسان التي أعلنها الاسلام ، والواجبات الشخصية والواجبات المنزلية (العائلية) والواجبات الاجتماعية ، من تعاليم الاسلام . واني أتكلم على هذين النوعين من الحقوق والواجبات بقدر ما يتسع له وقت المحاضرة وإن كان كل واحد منها يحتاج إلى محاضرة مستقلة .

حرية العقل

منيت هذه المزية الكبرى في الانسان — مزية العقل — بمن يسيطر عليها ؛ ويمنعها من تأدية وظائفها حسبما استعدت له من أقدم الأيام ، حتى جاء الاسلام بحرية العقل واطلاق العنان له لينظر في هذا الكون نظر اعتبار ؛ ويستكنه ما أودع في خزائنه من الحقائق والأسرار قال عز من قائل : (قل انظروا ماذا في السموات والأرض) وهذا النظر علمي عملي ينتج أفضل النتائج والثمار ، وقد دلت الآية على أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد فتحوا للناس أبواب البحث والنظر في العلوم الكونية ، وقد وجه القرآن الكريم أنظارنا إلى آثاره تعالى في الكون تذكيراً بالنعمة ، وحفزاً للفكرة ، لا تقريراً لقواعد الطبيعة ، ولا الزاماً لاعتقاد خاص بالخليقة ، كما قال بعض الحكماء ، وهو في الاستدلال على التوحيد لم يفارق هذه السبيل . وانظر كيف يقرع بالدليل : (لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدتا) . (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون) .

فالاسلام في هذه الدعوة إلى وحدانية الله لا يعتمد على شيء سوى الدليل العقلي والفكر الانساني الذي يجري على نظامه الفكري — وهو ما نسميه بالنظام الطبيعي — فلا يدهشك بخارق العادة ؛ ولا يغشى بصرك بأطوار غير معتادة ؛ ولا يخرس اللسان بقارعة سماوية ولا يقطع حركة الفكر بصيحة إلهية .

حرية العلم

ان نسبة العلم إلى القوة العاقلة ؛ كنسبة الغذاء الى القوة الجسدية . وقد سطر التاريخ عداء العالم القديم للعلم .. جاء في دائرة معارف لاروس : (أما هم — يعني الأقدمين — فيعتبرون أن العلم هو الشجرة الملعونة التي تقتل بأثمارها بني آدم) . وقد جاء الاسلام وحرر العلم من القيود التي كان يرسف بها ؛ وأعلن أنه يجب أن يكون محبوباً مطلوباً ، لا عدواً مطروداً ، فتح الاسلام للعقول أبواب العلوم بأسرها ، والمعارف بجملتها ، قال تعالى : (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) . وقال : (إنما يخشى الله من عباده العلماء) . وقال عليه الصلاة والسلام : « الحكمة ضالة المؤمن يأخذها أنى وجدها » قال حكيم :

« إلام أفضت طبيعة الاسلام بالمسلمين ؟ وماذا كان أثرها في أسلافهم الأولين ؟ فتح عمرو بن العاص مصر ، واستولى بجيشه على الاسكندرية بعد لحاق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى بست سنوات في رواية ، وتسع سنوات في رواية أخرى ، والاسلام في طلوع فجره ، وتفتح نوره ، فكأن من بقايا ما تركت الأزمان الأولى رجل مسيحي من اليعقوبيين اسمه يوحنا النحوي كان في بدء أمره ملاحاً يعبر الناس بسفينته ؛ وكان يميل إلى العلم بطبيعته ؛ فاذا ركب معه بعض أهل العلم أصغى إلى مذاكراتهم ؛ ثم اشتد به الشوق فترك الملاحة واشتغل بالعلم وهو ابن أربعين سنة ؛ فبلغ فيه مالم يبلغه الناشئون فيه من طفولتهم وقد أحسن من العلم فنوناً كثيرة حتى عد من فلاسفة وقته ، وأطبائه ومناطقته . يقول كثير من مؤرخي الأوربيين ومؤرخي المسلمين : إن عمرو بن العاص سمع به فاستدناه منه وأكرمه لعلمه ، ووقعت بينهما صلة ظهر أمرها واشتهر حتى قال أحد الفلاسفة الغربيين : إن المحبة التي نشأت بين عمرو بن العاص فاتح مصر ويوحنا النحوي ترينا مبلغ مايسمو إليه العقل العربي من الأفكار الحرة

والرأي العالي ، فبمجرد ما أعتق من الوثنية الجاهلية ودخل في التوحيد المحمدي أصبح على غاية من الاستعداد للجولان في ميادين العلوم الفلسفية والأدبية من كل نوع .

خالط المسلمون أهل فارس وسورية وسواد العراق وأدخلوهم في أعمالهم ولم يمنعهم الدين من استعمالهم حتى كانت دفاترهم بالرومية في سورية ولم تتغير بالعربية إلا بعد عشرات السنين فاحتكت الأفكار بالأفكار ، وأفضت سماحة الدين إلى أن أخذ المسلمون في دراسة العلوم والفنون والصنائع . يقول الفيلسوف غوستاف لوبون : « ان العرب أول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين . ويقول فيلسوف آخر : « ان العلوم التي تلقاها العرب من اليونانيين وغيرهم — وكانت ميتة بين دفات الدفاتر مقبورة بين جدران المقابر ، أو مخزونة في بعض الرؤوس كأنها أحجار ثمينة في بعض الخزائن ، لا حظّ الانسانية منها سوى النظر إليها — صارت عند العرب حياة الآداب وغذاء الأرواح ، وروح الثروة وقوام الصنعة ومهاراً للقوى البشرية يسوقها إلى كمالها الذي أعدت له وليس في الأوربيين من درس التاريخ وحكم العقل ثم ينكر أن الفضل في اخراج أوربا من ظلمة الجهل إلى ضياء العلم ، وفي تعليمها كيف تنظر ، وكيف تفكر ، وفي معرفتها أن التجربة والمشاهدة هما الأصلان اللذان يبنى عليهما العلم — إنما هو للمسلمين وآدابهم ، ومعارفهم التي حملوها إليهم ، وأدخلوها من اسبانيا وجنوب ايطاليا وفرنسا عليهم .

حرية النفس

من سبر أغوار الأمم قبل الاسلام : ولاسيما الامة العربية في عصر الجاهلية عرف كيف كان استبداد القوي بالضعيف وهضمه لحقوقه . كان الوضيع منهم يضطر إلى الانتساب إلى غير ابيه والاستنجاد بغير معشره وذويه حفظاً لحقه وابقاءً على شرفه . حتى جاء الاسلام يدك معالم الاستبداد

ويهدم صروح الاستعباد وينتصف للضعيف من القوي ، وينتصر للمظلوم من الظالم ؛ ويبين أن الناس خلقوا للتعارف والتعاون على الخير والاشتراك في الأعمال النافعة وأن لافضل لعربي على أعجمي ولا لأعجمي على عربي إلا بالتقوى قال عز من قائل : (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن اكرمكم عند الله أتقاكم) فأسقط جل شأنه بهذه الآية الكريمة سيطرة أي نفس على غيرها من النفوس ، إلا مايستحصل به حق أو يقام به حد ؛ وانمحى به كل فضل يدعى بأصالة محتد أو وفرة غنى أوانتساب إلى قبيلة أو لقب علمي أو ديني لا يفيد صاحبه الناس بعلمه أو دينه .

لم يكن أمر الاسلام قاصراً على نصرة المظلوم والأخذ بيد الضعيف فحسب ، بل سعى كل السعي في تخليص الرقيق من أسر العبودية والانتقال به إلى فضاء الحرية كما قال أحد الباحثين .

إن العتق من أفخر مايفتخر به الاسلام ، فان شريعتنا المحمدية قد سعت في تقويض دعائم الاسترقاق وتدمير معالمه . ولكن كيف العمل ؟ هل كان من الموافق المبادرة بتحريم أمر امتزجت به عوائد العالم كله منذ ماوجد الاجتماع الانساني وتوالت عليه الأيام والأعوام والشهور والدهور ، ألا إن ذلك يجر وراءه بلا شك انقلاباً عظيماً في نظام الاجتماع وفتنة كبيرة في نفوس الأمم والأقوام ، فلهذا جاءت شريعة الاسلام من طريق آخر تزول أمامه الصعوبات وتذلل العقبات بدلاً من تهييج العقول وإثارة الخواطر والأفكار بالغاء الاسترقاق مرة واحدة ، فخوطب المسلمون بأن يتقربوا إلى الله باعتاق العبيد المساكين في ظروف كثيرة وأحوال متنوعة وحث النبي ﷺ كثيراً على السعي في نوال هذه الغاية الجليلة ولذلك جاءت قواعد العتق في غاية السعة ونهاية اليسر ، بحيث يتسنى دائماً للرقيق أن يجد فيها طريقاً يساعده على الخلاص من الاستعباد إذا طلب ذلك ، بل ولو لم يطلبه (وقال أحد علماء الافرنج) أما الاسترقاق فلا حاجة لنا باطالة القول على المبادئ الحقة الصحيحة التي قررها القرآن الشريف بشأنه فان

فك الرقبة هو من أفضل الأعمال لدى المولى عز وجل ، وأجل القربات لطالب الغفران عن ارتكاب السيئات . والدول الاسلامية هي أول من ينكر ويحرم هذه التجارة القبيحة الشنعاء وقال العلامة نوستاف لوبون في كتابه تمدن العرب : إن افظعة الرق إذا ذكرت أمام الأوربي الذي اعتاد تلاوة الروايات الأمريكية المؤلفة منذ نحو ٣٠ سنة من الزمان ورد على خاطره استعمال أولئك المثقلين بالسلاسل المكبلين بالأغلال المسوقين بضرب السياط الذين لا يكاد يكون غذاؤهم كافياً لسد رمقهم وليس لهم من المساكن إلا حابس مظلم .

الواجبات الشخصية والمنزلية

مما ورد في شأن إصلاح الرجل نفسه وأسرته معاً ، هذا الخطاب الكريم (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً) وإنما تكون هذه الوقاية من النار بتصحيح الاعتقاد ، وتطهير النفس من الأوهام ، وتهذيبها بالعلم الصحيح وتزكيتها بالعمل الصالح ، وحفظها من التلف بمراعاة قانون حفظ الصحة في الحياة ذلك بأن الأعمال لا تقوم إلا بها ، ولا تبنى إلا عليها ، ومن هنا قالوا : حفظ الأبدان مقدم على حفظ الأديان .

ومما يجب على رب الأسرة اصلاح شأنها من جهة التربية والتعليم والآية الكريمة في شأن الأزواج (ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف) جامعة للأمرين أي التربية والتعليم على طريق الايجاز ، بل لا يوجد في أرقى الشرائع القديمة والحديثة قانون أعدل ولا أجمع منها ، إذ قد ساوت بين الرجل والمرأة في الحقوق والواجبات ، ولم تعين هذه الحقوق والواجبات ، لأنها تتبع ، العرف ، وتختلف باختلاف الطبقات والشرائع والعادات ، وخصت الرجل بدرجة الرئاسة ، اذ لابد لكل جماعة أو أسرة من نظام ، ولابد لكل نظام من رئيس منفذ ، والرجل أولى بتطبيق النظام المنزلي وتنفيذه لأن له من القدرة على الرعاية والحماية والكسب والانفاق ، مالبس لها ،

وهذا هو المراد من الآيه الكريمة : « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم » لكن هذه الرئاسة ، رئاسة شورية لا استبداديه ، ودليلها من القرآن قوله تعالى : في شأن الزوجين وطفلها الرضيع وفطامه ، « فان أرادا فصالاً عن تراض منها وتشاور فلا جناح عليها » فهذا نص صريح في إقامة سنة الشورى بين أعضاء الأسرة الواحدة .

وقد أجمع الباحثون في سنن العمران ورقي الانسان على أن التربية القويمة والتعليم الصحيح هما الوسيله العظمى لارتقاء الأمة في معارج الحضارة ، وبلوغها ما تطمح اليه من الآمال الكبار ، لذلك كان من أهم واجبات الأمة التي تجعل هذا الهدف الأسمى ، والسعادة العظمى نصب عينيها أن تكل أمر أبنائها وتعليمهم إلى من يطبعون في فطرة الناشئ أصول الفضائل وآداب الشريعة ، ويهذبون عواطفه ويرقون شعوره ، أما إذا وسد أمر التعليم الى غير ناصح ولا أمين ألم بمزاج الأمة مايضعفه ، وينمي جراثيم الداء فيه فتزداد الأمة مرضاً ، حتى تكون حرضاً ، أو تكون من الهالكين .

التربية الدينية عماد الفضائل ، والمعلمون خلفاء الرسل في تعليمهم وأخلاقهم « كاد المعلم أن يكون رسولا » فمن شأنهم أن يكونوا من أكمل البشر وأفضلهم ؛ إذ هم القدوة الصالحة التي ينشدها الطلاب والمدارس ، والمثل العليا تستملى من صفاتهم وأعمالهم ، لامن الكتب التي يدرسونها فحسب ، ويجب أن لايرى الطلاب عليهم مآخذ يتمسكون بها ، إذ بهم يقتدى ، وبهديهم يهتدى ، وليذكروا قول المصلح الأعظم ﷺ « من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيمة ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيمة . »

الواجبات الاجتماعية

العالم منقسم في نظر الاسلام من حيث الواجبات الاجتماعية إلى أربعة

أقسام : « الأول » المسلمون بعضهم مع بعض « الثاني » المسلمون مع أبناء الملل السماوية الذين يشتركون معهم في القانون المدني والوطني . (الثالث) الأقوام والأمم والحكومات التي بينها وبين الحكومة الاسلامية عهد أو ميثاق واتفاق على الروابط العامة بين الحكومتين . « الرابع » الأقوام المصارحون بالعداء للحكومة الاسلامية المعبر عنهم بالمحاربين ولنتكلم الآن على الواجبات الاجتماعية لكل من هذه الأقسام الاربعة .

المسلمون

بعث النبي ﷺ وأهل الأرض يومئذ كما قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ملل متفرقة ، وأهواء منتشرة ، وطوائف متشتتة ، بين مشبه لله بخلقه أو ملحد في اسمه ، أو مشير إلى غيره ، ضلال في حيرة ، وخابطون في فتنة قد استهوتهم الاهواء واستزلتهم الكبرياء واستخفتهم الجاهلية الجهلاء حيارى في زلزال من الأمر وبلاء من الجهل .

أقول فلما جاء الاسلام هداهم إلى توحيد الله تعالى ، وجمع كلمتهم وألف بين قلوبهم ونهاهم عن التفرق فقال : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » ووصفهم بقوله : « رحماء بينهم » وأمرهم بقوله : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان » فتمت للأمة العربية بهذه التعاليم السماوية ، وحدة بعد فرقة وكثرة بعد قلة وقوة بعد ضعف ، وكان لهم بعد ذلك العداء المستمر ، والقتال المستحر وحدة عربية اسلامية لم يسبق لها نظير في التاريخ .

ووضعت الأحكام في الاسلام على شكل التكافؤ ، وأديرت سياستها على قطب المساواة فلا فضل فيها لشريف على وضيع ، ولا امتياز لملك على سوقي والعقوبة الموضوعة على صعلوك الأمة هي المحمولة على سيدها ، بدون فارق ولو ادعى أمير المؤمنين على أدنى الناس درهماً واحداً لم يقض له باستحقاقه الا بشهادة عادلة وهذا المعنى عام في جملة الشريعة وتفاصيلها .

ومن أدلة المساواة قوله تعالى : (إنما المؤمنون إخوة) أخذت هذه الآية بيد المستضعفين من الناس وأوقفتهم في مرتق أولي القوة جنباً إلى جنب ، إذ المعروف في الاخوة اتحادهم في النسب ، وهو يقتضي عدم تفاضلهم وتمايزهم في الحقوق ، فالآية وإن دلت على التواد والتراحم من جهة لاتخلو من الدلالة على المساواة من جهة ثانية .

المسلمون وأهل الأديان السماوية

قرر الاسلام في معاملة الأمم التي يضمها تحت رايته حقوقاً تضمن لهم الحرية في ديانتهم والفسحة في اجراء أحكامها بينهم وإقامة شعائرها بارادة مستقلة ، فلا سبيل لأولي الأمر إلى تعطيل شعيرة من شعائرهم ، ولا يدخل في فصل نوازلهم الخاصة ، الا ان تراضوا بالمحاكمة أمام محكمتنا ، فتحكم بينهم على قاعدة العدل والمساواة ، قال تعالى : « وان حكمت فاحكم بينهم بالقسط ، إن الله يحب المقسطين » وابقاء الرعية على شرائعهم وعوائدهم منظر من مناظر السياسة العالية ، وباب من أبواب العدالة السامية . الأصل في كل مملكة أن حق الولاية الشرعية يكون في يدها دون سواها ، بحيث تفصل المحاكم التابعة لها في جميع من تقلهم أرض الوطن سواء كان النزاع متعلقاً بالجرائم أو الأموال أو الأحوال الشخصية ، ولكن عملاً بحرية الأديان والمعتقدات قيدت هذه الولاية وانحصر سلطانها في الأمور الدنيوية ، وأصبح كل إنسان حراً في أحواله الدينية وما يتبعها .

تنظر الى أبواب الشريعة تبصر في جملتها أحكاماً كثيرة مبنية على التسامح مع غير المحاربين ، تطالع أبواب الهبة والوقف والوصية فتستفيد من أحكامها أن الاسلام لم يقتصر على اباحة معاملتهم بمعاوضة ، بل أجاز المسلم أن يهب جائزاً من ماله أو يوقفه أو يوصي لغير المسلم ، أمر الاسلام بالعدل والاحسان في معاملتهم والرفق بضعيفهم ، وسدّ خلة فقيرهم وحرم الاعتداء عليهم ولو بكلمة سوء أو غيبة في عرض أحدهم .

وحكى ابن حزم في مراتب الاجماع أن من كان في الذمة وجاء أهل الحرب الى بلادنا يقصدونه ، وجب علينا أن نخرج اقتالهم بالسلاح ، ونموت دون ذلك صوناً لهم .

معاملة المعاهدين أو غير المحاربين

واجبات المعاهدين علينا الوفاء لهم بالعهد ، وعدم نقضه ، إلا إذا هم بدأوا بذلك ، قال تعالى : « فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ، إن الله يحب المتقين » .

إن وجوب الوفاء بالعهود في الحرب والسلم . وتحريم الخيانة فيها سراً وجهراً ، كتحريم الخيانة في كل أمانة مادية أو معنوية ، من أحكام الاسلام القطعية ، والآيات في ذلك متعددة محكمة ، لاتدع مجالاً لاباحة نقض العهد بالخيانة فيه وقت القوة ، وعده قصاصة ورق عند امكان نقضه بالحيلة ، منها قوله تعالى : (١٦ : ٩١) « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها » الآية . جمع بين الامر بالايفاء بها ، والنهي عن نقضها ، ثم أكد ذلك بالمثل البليغ في قوله (١٦ : ٩٢) « ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها » ومنها أنه وصف المؤمنين الأبرار بقوله في آية البر (٢ : ١٧٧) « والموفون بعهدهم إذا عاهدوا » وبلغ من تأكيد الوفاء بالعهود أن الله تعالى لم يبح لنا أن ننصر اخواننا المسلمين غير الخاضعين لحكمنا على المعاهدين لنا من غيرهم كما قال : « وان استنصروكم في الدين فعليكم النصر الا على قوم بينكم وبينهم ميثاق » ٨ : ٧٢ » فهل يوجد وفاء بالعهود أعظم من هذا ؟

الاسلام يبيح البر والاقساط إلى من يناصبنا العداء ، ولم يطلع منا بأرض ولا احتلال « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم ، أن تبروهم وتقسطوا إليهم ان الله يحب المقسطين »

يجب أن يقصد بمعاهدات الصلح والسلام بين الأمم الاصلاح والعدل

والمساواة ، فتبنى على الاخلاص دون الدخل — أي الغش الخفي الذي يدخل في الشيء وما هو منه — أي لا لأجل أمة هي أربى نفعاً ، وأكثر عدداً وجمعاً من الأمة الأخرى وهو واقع في بعض معاهدات هذا الزمان ، ومن عجائب القرآن أن كشفه ونهى عنه بقوله « ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة انكاثا ، تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم ان تكون أمة هي أربى من أمة » والمعنى : لا تكونوا في نقض عهودكم ، والعود الى تجديدها ، كالمرأة الحمقاء التي تنقض غزلها من بعد قوة ابرامه نقض أنكاث (وهو جمع نكث (بالكسر) ماتقض ليغزل مرة أخرى) حال كونكم تتخذون عهودكم دخلاً بينكم ، لأجل أن تكون أمة هي أربى وأزيد رجالاً ، وأكثر ربحاً ومالا ، وأقوى أسنة ونصالا ، من أمة أخرى . (من المنار بتصرف واختصار) وهو يشبه اتفاق الذئب مع الأغنام ، أو الأوصياء الخائنين على الضعاف الأيتام ، وهو مما لا يجيزه الاسلام ولمثله شرع القتال والدفاع على حد قول القائل :

ولست بعطراب إذا شبت الوغى ولكن إذا ما أدعَ للنهر أركب

المحاربون

الحروب التي كانت في صدر الاسلام تتوقف معرفتها — أهي حرب دفاع أم حرب عدوان — على معرفة أسبابها والغرض منها ، وهذا متوقف على درس طبيعة الاسلام ، وسياسته العالية ، ومقاصده السامية وقد قلت في تفسير قوله تعالى « قاتلوا وقتلوا » كلمة من محاضرة ، نشرتها مجلة التربية والتعليم أو المعلون والمعلمات ، جاء فيها : القتل : منه ماهو حتم لمادة الفساد ، وضمان لحياة الأفراد ، كقتل القصاص « ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب » ومنه ما هو غرامي أو جنائي كقتل الاغتيال ، والتردي من فوق الجبال ، والقاء النفس في أعماق البحار ، وكقتل الأخذ بالثار أو الاعتداء ، وحوادثه في الصحف اليومية . وفي المسارح العمومية ؛

ودور السينما الصامتة والناطقة ، لا تحصى كثرة ، أما فعل هذه المشاهد في الأخلاق فكفعل الجراثيم في الأجساد ، أو أشد ؛ ومن أنواع القتال ماهو طمع وجشع ، أو استعباد واستذلال . وأما الاقتتال الجاهلي قبل الاسلام ، فهو حروب أهلية داخلية فيه اضعاف الأمة ، وتفريق لوحدتها ، وهدّ لقواها ، ومنهم من كان يصرح بأنه يشهد الوغى لا لغرض سوى شهود اللذات ، أو اليأس من الحياة كقول طرفة في معلقته :

ألا أيهذا الزاجري أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي
فان كنت لا تستطيع دفع منيتي فدعني أبادرها بما ملكت يدي

وأين هذه الأهداف القاصرة أو الخاسرة ، من الهدف الاسلامي الأسمى في القتال ، وهو الجهاد لاعلاء كلمة الله ، أي لنصرة الحق على الباطل ، والفضيلة على الرذيلة ، والتوحيد على الوثنية ، ويؤيد ذلك قوله تعالى خطاباً للمؤمنين : « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة ، فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون » فالثبات من أسباب النصر والظفر ، وذكر الله قوة معنوية تثبت القلوب من جهة ، وتبعث فيها الرحمة ، من ناحية أخرى ، فالذاكر لله لايقاتل ابتداء ولا اعتداء ، ولا يقاتل من لايقاتل كالنساء والصبيان والشيوخ والمرضى ، ومن ألقى السلاح وكف عن الحرب ، وإذاً فالقتال مشروع في الاسلام للدفاع عن النفس والأوطان ، وحماية الارشاد والدعوة ، لا لاقامة الدين بالسيف والقوة كما يظن الغر الجاهل ، أو يقول العدو المتحامل ، وذكر الله هو الذي جعل العرب أعدل الأمم وأرحمهم ، كما قال فيلسوف التاريخ كوستاف لوبون : « ماعرف التاريخ فاتحاً أعدل ولا أرحم من العرب » قال بعض الاعلام : من تصفح القرآن وجده يتضمن تعاليم روحية ، وتعاليم زمنية ، منها ما يمارس وقت السلم ، ومنها ما يراعى حين الحرب ، ولكن ترتيب هذه التعاليم في القرآن ليس على نسق ترتيب مواد القوانين الوضعية ، وإنما روعي فيه أسلوب آخر ، منظور فيه إلى كيفية طروء الحوادث ، وتجدد الوقائع ، ولاعتبارات

تشريعية أخرى ، فاذا لاحظنا أن للدين الاسلامي وجهة حربية مادية حكمنا بالضرورة أن لها طبيعة تلائم هذه الحالة مثل تقوية الرابطة بين المسلمين ، وحثهم على الاتكاش في مقاومة عدوهم ، وعدم الائتمان للمخالفين وإساءة الظن بهم ، والتعزز عليهم أحياناً في نظير ذلك مما تستدعيه حالة المحاجزة والمناجزة ، وكما كان لهذه الحالة المادية طبيعتها ، كان أيضاً للحالة الروحية طبيعتها ولحالة السلم طبيعتها من مثل التواد والتراحم والتناصف وحسن المعاملة ، ولين العشرة وتبادل الثقة بين المسلمين وغيرهم ، لأجل أن تصان المصالح القومية وتجتلب المنافع العمومية .

« الاسلام علم أتباعه في غير وقت الحرب ، أن يكونوا ملائكة خير وطهر وإخلاص ، وفضيلة ، وأمانة ، حسبك أن تكون كلمة السلام شعارهم الخاص فيحيي بعضهم بعضاً بها كلما اجتمعوا أو تفرقوا أو تلاقوا ، وما ذاك إلا لأجل أن يكون للسلام المنزلة العليا في بـــلادهم ، والتأثير العميق في نفوسهم .

وبعد تقرير هذه القواعد واسنادها إلى أصولها ، يجب أن نلقي نظرة عامة في حالة التربية الاجتماعية في هذا العصر وقبله بعصور ، فعندها يتضح للناظر أن ضعف هذه التربية ناشئ عن عدم تطبيق هذه القواعد والأصول ، ويحسن بنا في هذا المقام أن نختم الكلام بكلمة لحكيم رباني يوجه بها هذه الامة العربية الى هدفها الاسمى ، وسعادتها العظمى فيقول :

لا أطيل عليك بحثاً ، ولا أذهب بك في مجالات بعيدة من البيان ولكي أستلفت نظرك الى سبب يجمع الأسباب ووسيلة تحيط بالوسائل ، أرسل طرفك الى نشأة الأمة التي خملت بعد النباهة ، وضعفت بعد القوة ، واسترقت بعد السيادة ، وضيمت بعد المنعة ، وتبين أسباب نهوضها الأول .

حتى تتبين مضارب الخلل وجراثيم العلل ، فقد يكون ماجمع كلمتها وأنهض همم آحادها ، ولحم مابين أفرادها ، وصعد بها الى مكانة تشرف منها على رؤوس الأمم وتسوسهم وهي في مقامها بدقيق حكمتها — إنما

هو دين قويم الأصول محكم القواعد ، شامل لأنواع الحكم ، باعث على الألفة ، داع إلى المحبة ، مزك للنفوس ، مطهر للقلوب من أدران الحسائس ، منور للعقول باشراق الحق من مطالع قضاياه ، كافل لكل مايحتاج اليه الانسان من اجتماعات البشرية ، وحافظ وجودها ، وينادي بمعتقديه إلى جميع فروع المدنية ، فان كانت هذه شرعتها ، ولها وردت وعنها صدرت ، فما تراه من عارض خللها وهبوطها عن مكانتها ، إنما يكون من طرح تلك الأصول ، ونبذها ظهرياً ، وحدوث بدع ليست منها في شيء أقامها المتقدمون مقام الأصول الثابتة ، وأعرضوا عما يرشد إليه الدين ، وعما أتى لاجله ، وما أعدته الحكمة الالهية له ، حتى لم يبق منه إلا أسماء تذكر ، وعبارات تقرأ ، فتكون هذه المحدثات حجاباً بين الامة وبين الحق الذي تشعر بندائه أحياناً بين جوانحها . فعلاجها الناجع إنما يكون برجوعها إلى قواعد دينها ، والاخذ باحكامه على ما كان في بدايته ، وإرشاد العامة بمواعظة الوافية بتطهير القلوب وتهذيب الاخلاق وإيقاد نيران الغيرة ، وجمع الكلمة ؛ وبيع الارواح لشرف الامة ، لان جرثومة الدين متأصلة في النفوس بالوراثة من أحقاب طويلة ، والقلوب مطمئنة إليه ، وفي زواياها نور خفي من محبة ، فلا يحتاج القائم باحياء الامة إلا الى نفخة واحدة يسري نفثها في جميع الارواح لأقرب وقت ، فاذا قاموا لشؤونهم ، ووضعوا أقدامهم على طريق نجاحهم ، وجعلوا أصول دينهم الحقة نصب أعينهم ، فلا يعجزهم بعد أن يبلغوا بسيرهم منتهى الكمال الانساني .

ومن طلب إصلاح أمة شأنها ماذكرنا بوسيلة سوى هذه ، فقد ركب بها شططا ، وجعل النهاية بداية ، وانعكست التربية ، وخالف فيها نظام الوجود فينعكس عليه القصد ، ولا يزيد الامة الا نحساً ، ولا يكسبها إلا تعسا .

هل تعجب أيها (السامع) من قولي : ان الاصول الدينية الحقة المبرأة عن محدثات البدع تنمي للامم قوة الاتحاد ، وائتلاف الشمل وتفضيل

الشرف على لذة الحياة ، وتبعثها على اقتناء الفضائل ، وتوسع دائرة المعارف ، وتنتهي بها إلى أقصى غاية في المدنية ؟ إن عجبت فان عجبي من عجبك أشد . هل نسيت تاريخ الامة العربية وما كانت عليه قبل بعثة الدين من الهمجية والشتات ، واتيان الدنايا والمنكرات حتى إذا جاءها الدين فوحدها ، وقواها وهذبها ، ونور عقولها ، وقوّم أخلاقها ، وسدد أحكامها ، فسادت على العالم وساست من تولته بسياسة العدل والانصاف وقد شهد لنا بذلك فيلسوف من أعلم مؤرخي الاوربيين ، وأصدقهم لهجة وهو (غوستاف لوبون) حيث قال : ما وجد التاريخ فاتحاً أعدل ولا أرحم من العرب وقد نبهتها شريعتها وآيات دينها إلى طلب الفنون المتنوعة والتبحر فيها وكل أمة سادت تحت هذا اللواء إنما كانت قوتها ومدنيتها في التمسك باصول دينها » .

الجامعة السورية وكلية الإلهيات*

(تمهيد)

أتى على الأمة العربية حين من الدهر كانت بلادها فيه جنة علم ذات أفنان ، تجلى في مغانيها عرائس العرفان ، فتهوي إليها أفئدة عشاق العلم والآداب في كل مكان . لم يكد يسطع نجم القرن الثاني في سماء الاسلام ، حتى تألق نوره ، وامتدت أشعته حتى بلغت حدود الصين شرقاً ، وأقاصي بلاد الأندلس ومراكش غرباً ، ونهر اللوار شمالاً ، وسواحل المحيط الهندي جنوباً .

في ذلك الدور الزاهر اتسعت دوحات العلم ، وامتدت ظلال الآداب ، وراجت سوق الخطابة والكتابة ، وبزغ هلال الحضارة العربية الذي لم يلبث أن صار بدراً كاملاً . وقد عُني رجال العصر الأموي ببعض الصناعات واهتموا بترجمة كتبها ، قال بعض المؤرخين : وأول من عرف اسمه في ذلك خالد بن يزيد بن معاوية الذي كان يسمى حكيم آل مروان وكان فاضلاً في نفسه وله همة ومحبة للعلوم ، خطر بباله الصنعة (الكيميا) فأمر باحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مدينة مصر وقد تفصّح بالعربية ، وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة من اللسان اليوناني والقبطي إلى العربي ، وهذا أول نقل كان في الاسلام من لغة الى لغة .

وفي العصر العباسي قد فجّر علماء الاسلام القرآن عيوناً ، واستنبطوا من كنوز نصوصه علوماً وفنوناً ، واندفعوا بما هداهم اليه ذلك الوحي السماوي — كالسيل الأتي — يقيمون معالم الحضارة والعمران ، ويترجمون العلوم

(*) محاضرة ألقاها الاستاذ محمد بهجة البيطار في ردهة محاضرات المجمع العلمي العربي في حزيران سنة ١٩٢٣ .

والفنون الرياضية والطبيعية والعقلية عن حكماء الهند والفرس والروم واليونان ، ولم ينقلوا هذه الفنون عن أصلها من غير إعمال فكر ولا روية ، بل أجالوا فيها نظر الناقد البصير ، فأوضحوا غامضها ، وأصلحوا خللها ، ووضعوا من الكتب في هذه العلوم أضعاف ماعرّبوا .

ومن عجيب صنع الله في هذه الأمة ، وبديع حكمته ، أن دينها ومدنيتها لا يفترقان ، وأن علماء الدين ورجال المدنية يستقون من عين واحدة ، فكلما زادوا في دينهم فهماً ورسوخا ، زادوا في المدنية الصحيحة بسطاً ونفوذا ، واستحكمت بين أفرادهم روابط المحبة ، واشتدت أواصر الاتحاد والألفة ، وتقلص ظل الجمود وانحلت عرى العصبيات ، قال حكيم : آخذ بيد القارىء الآن ، وارجع به إلى ما مضى من الزمان ، وأقف به وقفة بين يدي خلفاء بني أمية والأئمة من بني العباس ووزرائهم ، والفقهاء والمتكلمون والمحدثون والأئمة المجتهدون من حولهم ، والأدباء والمؤرخون والاطباء والفلكيون والرياضيون والجغرافيون والطبيعيون وسائر أهل النظر من مطيفون بهم ، وكل مقبل على عمله ، فاذا فرغ عامل من العمل أقبل على كل قبيل أخيه ووضع يده في يده ، يصافح الفقيه المتكلم ، والمحدث الطبيب ، والمجتهد الرياضي والحكيم ، وكل يرى في صاحبه عوناً على ما يشتغل هو به . وهكذا ادخل به بيتاً من بيوت العلم ، فاجد جميع هؤلاء سواء في ذلك البيت يتحادثون ويتباحثون ، والامام البخاري حافظ السنة بين يدي عمران ابن حطان الخارجي يأخذ عنه الحديث ، وعمرو بن عُبيد رئيس المعتزلة بين يدي الحسن البصري شيخ السنة من التابعين يتلقى عنه ، وقد سئل الحسن عنه فقال للسائل : « لقد سألت عن رجل كأن الملائكة أدبته ، وكأن الانبياء ربته ، ان قام بأمر قعد به وان قعد بأمر قام به ، وان أمر بشيء كان ألزم الناس له وان نهى عن شيء كان أترك الناس له ، ما رأيت ظاهرا أشبه بباطن منه ، ولا باطنا أشبه بظاهر منه ، بل أرفع بصري فأجد الامام أبا حنيفة أمام الامام زيد بن علي (صاحب مذهب الزيدية من

الشيعة) يتعلم منه أصول العقائد والفقه ، ولا يجد أحدهم من الآخر إلا مايجد صاحب الرأي في حادثة ممن ينازعه فيه اجتهاداً في بيان المصلحة وهما من أهل بيت واحد — أمرّ به بين تلك الصفوف التي كانت تختلف وجهتها في الطلب وغايتها واحدة ، وهي العلم » .

ليس من غرضنا أن نصف مدنيات العرب الدوارس ، ولا أن نحصي ماشيدوا في حواضر ملكهم من جوامع ومياتم ومستشفيات ومدارس ، فان تلك الذكرى تستدر كوامن الجفون ، وتستنزف قطرات القلوب ، على أن مئات الالوف من مصنفات أسلافنا الكرام التي ملأ بها الغربيون خزائنهم ، ونفائس الاواني والتحف التي استخرجوها من كنوز أرضنا وزينوا بها متاحفهم هي أعدل شاهد ، على ما كان لنا من مجد تالد :

تلك آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار

وما زال أهل الصدق والانصاف من علماء الغرب يعترفون بفضل تلك المدنية الزاهرة ، وبعظمة آثارها الساحرة :

وما زال أهل الغرب يدرون قدرنا مدى الدهر ما أبدوا من الفضل معجما

متى يذكر الافضال فيهم خطيبهم على منبر صلى علينا وسلما

إنما الغرض من هذه العجالة التذكير بضرورة التماس الوسائل لاسترداد ما أضاعه الجهل من الحضارة العربية ، التي هي أساس لكل حضارة غربية .

إذا صح ماقاله أحد أئمتنا العظام : لا يُصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها ، وهو صحيح لاريب فيه : فنرى أن أسباب حياة سلفنا ترجع الى أمور ثلاثة : احياء الصناعات ، المحافظة على اللغة ، اقامة الدين . ولنتكلم على كل واحدة من هذه الثلاثة بقدر مايسمح به المقام .

(الصناعة)

يقصد من الصناعة كل ماتتوقف عليه حياتنا الحرة من غذاء وكساء وبناء ، وذلك بان يكون جميع وسائل الحياة ولوازمها من خيرات بلادنا

وما تصنعه أيدينا ؛ ومعلوم أن الاستقلال الاقتصادي أساس لكل استقلال داخلي وخارجي .

ان قيامنا بصنع ما نحتاج اليه في بلادنا من لباس وأثاث ورياش ومتاع وأوان وسائر لوازم الحياة — يحتاج إلى تأليف جمعيات ، وتأسيس شركات وانشاء معامل ومصانع ، وتشييد مدارس صناعية وزراعية وتجارية ، يتعلم فيها طائفة من شبابنا مايكفينا مشقة الأسفار ، إلى ماوراء البحار ، وانفاق الأموال الطائلة في هاتيك الديار ، بدعوى تعلم العلوم والفنون في مدارسها وجامعاتها . وتكون هذه المعاهد العربية فروعاً للجامعة السورية كما كان المجمع العلمي العربي وكليتا الطب والحقوق العربيتين فروعاً .

إذا بنينا أعمالنا على أساس التضامن والتكافل كان النجاح حليفنا باذن الله تعالى في ايجاد مانحتاج إليه في وطننا ، وكانت لنا منه فوائد جمة ، ونحن نذكر أظهرها وندع سائرها الى علمائنا الاقتصاديين :

(١) المحافظة على بقايا الذهب ، مما تركت الحرب المشؤومة ، وعاقبتها الوخيمة ، التي خربت ديارنا ، واجتاحت ثمارنا ، وذهبت برجالنا وأموالنا ، ولا تزال تجرع غصصها وآلامها .

(٢) المحافظة على بقايا الاخلاق ، فان كثيراً ممن يذهبون الى بلاد الغرب يرجعون من هناك مذيذبين لا شرقيين بآدابهم وتربيتهم ، ولا غربيين يحرصهم على منفعة أمتهم ، يخلون على الأغلب من روابطهم القومية ، ومشخصاتهم المليّة ، ويكونون أقسى قلوباً من الاحجار ، « وان من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار » ، ولا نزال نسمع أن فريقاً منهم يقيمون حفلات الرقص في مثل هذه الأوقات والأحوال ويوغلون في أنواع الفجور مع مانحن فيه ، — فهل سمعتم أيها السادة بصنف أشد فساداً ، وأغلظ أكبادا ، من هذا الصنف من الناس :

يبكي علينا ولا نبكي لحالتنا ... لنحن أغلظ أكباداً من الابل

وأرجو ألاّ يتم وام باني اعترض بكل من يذهب الى أوربا من أمتنا ، سواء في ذلك أولو الأخلاق الفاضلة ومن لا خلاق لهم . كيف يكون ذلك وان قسماً ممن ذهبوا إليها ورأوا بأم العين كيف أن الغربي يتفانى في خدمة أمته ووطنه — عادوا ونفوسهم تحدثهم بأن ينسجوا على منوالهم في رفع منار وطنهم واعلاء شأن أمتهم ، وأن أفراداً منهم يقومون بخدمة لبلادنا يعجز عن القيام بمثلها ألوف من غيرهم . والفرق بين الفضلاء والسفهاء ممن يذهبون إلى بلاد الغرب مثل الصبح ظاهر . فالأولون يعودون الى الأوطان ، وقد زادوا تمسكاً بآدابهم ، وحفظاً لأخلاقهم ، وحرصاً على نفع أمتهم ، والآخرون يعودون وقد انحلوا من كل أدب وخلق كريم .

(٣) جعل تعليم هذه الفنون والصناعات باللغة العربية ، ولقد صدق من قال : ان تعلم أي علم بلغة أجنبية ينقل المتعلم الى ذلك العلم ، وأما تعلمه إياه بلغته فهو ينقل العلم نفسه الى لغة المتعلم ؛ ونحن في مزيد حاجة الى نقل ما نحتاج اليه من اللغات الاجنبية إلى لغتنا ، ووضع كتب في ذلك أيضاً ، وتكثير سواد العالمين والمتعلمين منا وذلك متوقف على إحياء اللغة العربية .

(المحافظة على اللغة)

كلية الآداب العربية

كان عزم فريق من فضلاء دمشق وأدبائها وفي طليعتهم حضرة رئيس مجمعنا العلمي العلامة الاستاذ محمد كرد علي على أن ينشئوا كلية أدبية يسمونها (كلية الآداب العربية) وغايتهم منها المحافظة على لغة البلاد ، وجعلها لغة علوم وفنون وآداب كما كانت على عهد الاجداد ، ولا يخفى أن اللغة العربية هي السلك الكهربائي الذي ينظم قلوب أفراد الامة فيوجهها نحو مطلبها الأسمى ؛ وهي الروح الالهي الذي يدب في جثمان الأمة العربية

فيها الحياة الحرة مرة أخرى ؛ وهي النور السماوي الذي تسطع أشعته في بلاد العرب فتنير لأهلها سبل النجاة وتمزق حجب المخاطر والأوهام ، بل هي المعراج الذي ترتقي به من حضيض الذلة والصغار ، إلى أعالي سماء المجد والفخار ، وهي لسان مدنيتنا التي نشرنا أعلامها في جميع أنحاء المعمور ، وأخرجنا بها الأمم من الظلمات إلى النور .

قال أحد الأئمة : ان أولئك الشراذم والاوزاع من أهلها قد حملوها إلى الأمم ، التي كان للغاتها في العلوم قدم ، ولم يحملوهم عليها بالالزام ، ولا بالتعليم العام ؛ وكان من أمرها مع هذا أن نسخت بطبيعتها لغة المصريين من مصرهم ، والرومانيين من شامهم ، واستعلت على الفارسية المذبة في مهدها وموطنها ، وامتد شعاعها الى الأندلس في غربي أوربا بعد ما طاف ساحل أفريقيا الشمالي وإلى جدار الصين من الشرق — كل ذلك في زمن قريب لم يعرف في التاريخ مثله للغة أخرى من لغات الفاتحين الذين يتخذون كل الوسائل لنشر لغاتهم وتعميمها بالتعليم العام ، وضروب الترغيب والترهيب.

كانت لغة أميين وثنيين جاهليين فظهر فيها أكمل الأديان فكانت له أكمل مظهر ، وتجلى لها العلم فكانت له خير مجلى ، وصارت بذلك لغة الدين والشريعة ، وعلوم النقل والطبيعة ، ولكن عدت على أهلها عواد كونية ، وطرأت عليهم أمراض اجتماعية ، فضعف فيهم كل مقوم من مقومات الأمم الحية ، ومن تلك المقومات اللغة فقد فسدت ملكتها في الالسنة ، والتوى طريق تعليمها في المدارس ، حتى كادت تكون من اللغات الدوارس ، اه

علم أسلافنا الكرام أن اللغة هي من أقوى مشخصاتهم ، وبرهان حياتهم ، فحافظوا على مفرداتها وتراكيبها بما ألفوا من المعاجم اللغوية وقوانين الصرف والنحو ، وعلى معانيها وأساليبها بما صنفوا من كتب المعاني والبيان ، ونقلوا العلوم والفنون اليها ، ووضعوا كتباً فيها .

أراد الساعون في إنشاء كلية الآداب العربية أن يحذوا حذو سلفهم ، ويعيدوا عصر الكتاب البلغاء كابن المقفع وأبي عثمان الجاحظ وابن العميد وعبد الحميد وأبي اسحق الصابي والثعالبي والصولي ، وأن يجددوا عهد المؤلفين والمترجمين والنبغاء كحنين بن اسحق ويعقوب بن اسحق الكندي وثابت بن قرة الحراني ، وعمر بن الفرخان الطبري ، وكأبي بكر الرازي وأبي نصر الفارابي ، والشيخ الرئيس ابن سينا وأمثالهم . نعم وأرادوا بذلك أيضاً أن يردوا عوادي الدخيل المهاجم من اللغات الأجنبية كالمصطلحات العلمية والفنية وأسماء المخترعات والمستحدثات الكثيرة المنوعة بما يضعون لها من المقابل العربي الفصيح ، ولئن لم يفعلوا لتضلن اللغة العربية بين هاتيك اللغات الاعجمية الكثيرة المحيطة بها .

قال العالم الأديب الشهير الشيخ أحمد عمر الاسكندري في خطاب له : « وقد جرت سنة الوجود على أن مصير اللغات أمام الانقلابات العظيمة والحوادث الجسام إلى أحد حالين : إما أن تتسامح في قبول كل ما يطرأ عليها من لغة غيرها لاسيما الألفاظ ذات المعاني التي لم تعهدها من قبل فتندمج إحداهما بالاخرى على طول الزمان كما اندمجت لغة بقايا عرب الأندلس في اللغة الاسبنيولية ، وعرب جاوة في لغة الملايو ، واللغة القبطية ورومية سورية في العربية ، أو تخالف عنها خليط ليس من اللغتين كما فعلنا نحن في لغة المحادثة فنشأت العامية المختلفة اللهجات المتشعبة المناحي ، وتبعها اختلاف الأجناس من مصري وشامي وعراقي ومغربي وسوداني وحجازي ويماني ؛ وكما فعلت أمم أوربا أمام لغات المغيرين والفاتحين فنتجت لغات فرعية وامم مختلفة الأجناس . وإما أن تحرز عنها وتتصرف في استعمال الفاظها لضم هذه المعاني الغريبة إليها بطرق التجوز والاشتقاق واستعمال الغريب والعتيق منها فيما له أدنى ملابسة به فتحفظ بذلك كيانها وتبقي شكلها ، بيد أنها تعظم وتفره وتزداد نشاطاً ورشاقة . وبعد فان هي آنست من

أهلها روحاً قوياً ونحيزة سليمة استطالت على اللغة الاجنبية وصادرتها على أعز عزيز عليها من علومها وفنونها .

ففي أي طريق من هاتين الطريقين نسير في تشجيع العربية على اقتحام العقاب ، وتذليل الصعاب التي تحول دون ورودها نهر العلوم والمعارف الذي تحول مجراه إلى جهة الغرب ، اهـ .

ثم إنه شرح طريقته في ترجمة الاصطلاحات والآلات الجديدة فقال : إن هذه الكلمات لا تخلو أن تكون أعلاماً وأسماء أجناس . فاما الأعلام فلا مانع من نقلها أعجمية بعد صقلها بالنطق العربي ، وأما أسماء الأجناس فاما أن تكون معروفة قديماً عند العرب ولها في لغتهم أسماء تطلق عليها أو على ما يشبهها وهذه يبحث عنها في اللغة ويعاد استعمالها في معانيها ، ككلمة قنال (خليج أو قناة) وكلمة قبانية (شركة) . واما أن تكون مجهولة لهم وهذه لنا في نقلها ثلاث طرق :

(١) طريقة ترجمة اللفظ بمرادفه كترجمة سينما توجراف بالصور المتحركة ، وترجمة كرافات برباط الرقبة .

(٢) وطريقة الاشتقاق من الفعل الذي يعبر به عن عمل الكلمة أو صفتها إن كانت من ذوات العمل والصفة . وهذه تسمية جديدة لا ترجمة مثل تسمية البسكليت بالدراجة والاتوموبيل بالسيارة ونحوهما من مثل الدارعة والبارجة والباخرة والنسافة والقطار الخ فان الألفاظ قد وضعت لمسميات افرنجية ولا يوجد من الفريق المخالف لنا من ينكر سهولتها وشهرتها وسبقها غيرها في حلبة الكتابة .

(٣) طريقة النحوز ، وهي طريقة واسعة النواحي كثيرة الفجوج وعليها اعتماد الأوربيين في نقلهم المصطلحات الحديثة من اللاتينية ، وما أغزر علاقات المجاز في لغتنا ، فعلاقة المشابهة في حال من الاحوال تكفينا مؤونة التكلف والتعسف في انتقاء الألفاظ . هذا الى بقية المجاز المرسل كالسببية

والمسببية والحالية والمحلية ، واللازمية والملزومية ، واعتبار ما كان ومايؤول وغيرها مما يكفي فيه أن يكون بين العربي والأعجمي أدنى ملابسة ، ومتى شاع اللفظ الجديد واشتهر فلا يوجد من يبحث عن أصل مأخذه كالدارعة والبارجة والقطار . والمجاز اذا اشتهر صار حقيقة عرفية .

وهذه الطرق الثلاث كلها قياسية في الاستعمال لا ينكرها أرباب العربية وكتبهم في البيان والأصول وعلم الوضع حافلة بشرح حقائقها وتفصيل مباحثها ، (أقول) قد حصر نقل أسماء الأجناس إلى العربية بهذه الطرق الثلاث الترجمة ، والاشتقاق والنحوز . وقال في خطاب ثان اتباعاً لطريقته ودفاعاً عنها : فاني لم أسلك إلا الطريقة التي سلكها أسلافنا عندما أرادوا أن يدونوا علومهم ويترجموا كتب غيرهم من الأمم . كانوا — رحم الله أيامهم — يضعون لاصطلاحات علومهم أسماء منقولة من العربية المحضة بنوع من التساهل والتجوز في المعنيين القديم والجديد ، ولم ينكر أحد عليهم ذلك حتى أهل زماننا ، فوضعوا مصطلحات الصرف والنحو والمعاني والبيان والبديع والعروض والقافية ومصطلح الحديث والتفسير وأصول الفقه وفروعه والتوحيد ، كما وضعوا مصطلحات العلوم التي ترجموها مثل المنطق والحكمة الالهية والطبيعية والحساب والهندسة والفلك وغير ذلك من العلوم التي لو أردت إحصاء مصطلحاتها لمددت عشرات الالوف من الكلمات ، كلها عربية لها معان اصطلاحية ومعان لغوية ، ومثل ذلك آلات الصناعة والعلوم ، وكتاب المخصص وفقه اللغة وكتاب العين للخليل وجمهرة ابن دريد ونوادر ابن الاعرابي ومفردات ابن البيطار والمادة الطبية الرشيدي وقاموس تجاري بك ، كلها بحور زاخرة باسماء النبات والحيوان والآلات » .

والاستاذ الاسكندري يقول بان التعريب — أي ادخال الكلمات الاعجمية في اللغة العربية بعد صقلها ووزنها بميزان الكلمات العربية — قد وقع فعلاً في عصور الجاهلية وبعد الاسلام ، ولكنه يخص جوازه في القرون التي

يحتج بعربية أهلها دون غيرها ، ويرى لغيرهم طرقاً ثلاثاً : — وهي الترجمة ، والاشتقاق والتجوّز كما تقدم .

ونفى الامام الشافعي ورود كلمات أعجمية في القرآن الكريم كما تجده في أول رسالته ، ونقل الشهاب الخفاجي في (شفاء الغليل ، فيما في كلام العرب من الدخيل) مثل ذلك عن أبي عبيدة قال الشهاب : وذهب أبو عبيدة الى أنه ليس فيه أعجمي وما وقع فيه من اتفاق اللغتين .

ومما يؤيد هذا المذهب أن اللغة العربية كانت على عهد حمورابي أي قبل المسيح عليه السلام بخمسة وعشرين قرناً ، فهي تعد من أصول اللغات بعد الطوفان ، وإذا كانت كذلك فان هذه الالفاظ المستحدثة وضعت أسماء لمسميات اقتضتها سعة الملك واستبحار المدنية وبلهنية العيش ، على عهد اقيال اليمن وملوك حمير وملوك الجزيرة من الغساسنة والمناذرة وملوك الشام الغسانيين وغيرهم ، فاسماء مستحدثات تلك المدنيات العربية هي من أوضاع العرب كمسمياتها ، سواء أوجدت تلك الألفاظ عينها في لغة أخرى أو ما يقاربها .

ويرى العلامة المغربي أحد أعضاء مجمعنا العلمي وقوع التعريب بكثرة في لغتنا الكريمة ، ونقل في كتابه (الاشتقاق والتعريب) عن الجلال السيوطي ما أحصاه من المعرّبات في الكتاب العزيز فبلغ زهاء مئة ، وذلك لا يضره في كونه عربياً فصيحاً ، كما نقل عن أبي منصور ، ولا ينافي كونه وحياً معجزاً ، ثم ذكر من الحديث الشريف أكثر من خمسين كلمة معرّبة . ثم ساق تحت عنوان (طائفة من المعرّبات) أكثر من ثلاثمائة كلمة معرّبة في الحيوان والنبات والعقاقير والمأكول والمشروب والطيوب والملبوس والمعادن والأحجار الكريمة والآلات والأدوات والماعون ، والكلمات العلمية والفنية ، والكلمات الدينية ، فاذا توزع في تعريب بعضها ، فلا يتيسر النزاع في كثير منها .

وروي عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة في أحرف كثيرة أنها غير

عربية كسجيل ومشكاة وأباريق واستبرق ويم وطور وهم أعلم بالتأويل من أبي عبيدة ، وجمع أبو منصور بين القولين بان الألفاظ أعجمية بحسب الأصل ولكنها لما عربت صارت من اللسان العربي ، فهي أعجمية أصلاً عربية حالاً ، فمنهم من نظر إلى الأصل ومنهم من نظر إلى الحال .

ونحن إلى اليوم معشر العرب لا نزال عالة على أمم الغرب في كثير من أثاثنا ورياشنا وملبوسنا ومركوبنا وسائر مطالب الحياة المدنية ولوازمها ، وهذه آلاتهم وأدواتهم المخترعة قد ملأت أقطارنا ، ووقعت بين اسماعنا وأبصارنا كالقطارات والسفن والسيارات والطائرات وأدواتها ، وكالقوى والأسلحة البرية والبحرية والجوية على اختلاف أنواعها وأسمائها ، وكالمصابيح الكهربائية والبرق والهاتف وغيرها ، وانك لتسمع من أسماء الأنسجة والملابس وضروب الأزياء ، ما يكاد يقضي بالدهشة والعجب ، ويخشى أن نخل معه الروابط والعزائم ، عن صد هذا التيار المهاجم .

والحاصل أن كتاب العربية قد كتبوا في مبحث الاشتقاق والتعريب قديماً وحديثاً ، ودلّونا على طرق أربع ، وهي الترجمة والاشتقاق والتجوز والتعريب ، (ويقتصر في الأخير على حد الضرورة) وقد جروا عليها بالفعل ونحن نقتفي أثرهم فهم القدوة الصالحة في ذلك كله .

فلعلّ الله تعالى يوفق مجمعنا الكريم الى ايجاد تلك الكلية ليتخرج فيها من يشاركه من بعد في النهضة العلمية ، وتصحيح ألفاظ الكتّاب والتفتيش عن كلمات عربية للآلات الجديدة والمصطلحات[1] .

وعسى أن يتعاون المجمع العلمي الدمشقي والمجمع اللغوي المصري على خدمة هذه اللغة الشريفة ، فان القطرين المصري والشامي اخوان منذ القديم ، ولا أزال أذكر في ذلك قول شاعر النيل :

---

(١) ثم انشئت هذه الكلية في سنة ١٩٢٠ باسم مدرسة الأدب العليا .

لمصر أم لربوع الشام تنتسب ... هنا العلا وهناك المجد والحسب
أم اللغات غداة الفخر أمها ... وان سألت عن الآباء فالعرب

(اقامة الدين)

في قانون المجمع العلمي الذي أكسبني شرف الانتساب اليه ، والانتظام في سلك أعضائه الكرام : ان المجمع لا يتعرض لأمر ديني تعرضاً ، وقال بعض أفاضله : أما إذا جاء عرضاً أو اقتضته المناسبة فلا بأس ، ولا أرى مناسبة إلى ذلك أقوى من هذا المقال الذي جعلت فيه الدين أحد أركان النهضة القومية الثلاثة ، على أني لست مخالفاً لقانون المجمع ما دمت أبحث في مدنيتنا العربية من الوجهة التاريخية ، وهي تستلزم ذكر الاسلام الذي هو مبعث نورها ، ومصدر ظهورها ، ولا يمكن فصله عنها الا إذا أمكن فصل أشعة الشمس عن كوكب الأرض .

(حاجة المدنية الى الدين)

رأيت قبل أن أخوض في موضوع الكلية (كلية الالهيات) أن أقول كلمة في الدين نفسه تعرف منها الغاية منه والقصد من هذه الكلية الدينية :

يرى بعض الناس أن الناس يمكنهم أن يعيشوا عيشة مدنية مجردة عن هدي الدين الوازع ، بما يسنون لأنفسهم من قوانين وشرائع في الأحكام الشخصية والمعاملات العمومية ويكونون ممتعين في عيشة راضية ، وحياة سامية ، ولكن الاختبار والواقع قد أثبتا فساد هذا الرأي وظهر للناس أن الدين عماد المدنية ومادة حياتها وانها من دونه « كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار » :

أجمعت الأديان السماوية على حرمة الأنفس والعقول والأموال والابضاع وحرمت على الانسان أن يوقع الضرر بنفسه أو بغيره ، ووضعت لذلك

حدوداً عامة وقواعد ثابتة ، ليعيش الفرد والمجموع بسلام ووئام ، ولا يحصل أدنى ضرر خاص أو عام ، ولكن القوانين المدنية قد هتكت هاتيك الحرمات ، واستحلت رسمياً تلك المحرمات ، فأباحت المسكر والميسر والفحش ، وأكل أموال الناس بالباطل ، وتلك أمور تورث الدمار وتقرض الأعمار وتهدم صرح المدنية الذي شادوه باجيال ، وانى أكتفي بنقل كلمات عن فلاسفة الغرب يتبين منها غرض الدين الاسمى وأن الالحاد أو الفساد الذي وقعت فيه أممهم هو معاول تهدم من كيان مدنيتهم ومناجل تحصدها حصدا .

قال الفيلسوف الشهير (ارنست رينان Ernest Renan) في كتابه تاريخ الأديان : « من الممكن أن يضمحل ويتلاشى كل شيء نحبه وكل شيء نعده من ملاذ الحياة ونعيمها ، ومن الممكن أن تبطل حرية استعمال القوة العقلية والعلم والصناعة ، ولكن يستحيل أن ينمحي التدين أو يتلاشى ، بل سيبقى أبد الآبدين حجة ناطقة على بطلان المذهب المادي الذي يود أن يحصر الفكر الانساني في المضائق الدنيئة للحياة الطينية » .

وقال العلامة (كاميل فلامريون Camille Flammarion) : لايجوز لنا أن نخجل من الاعتراف بما وقعنا فيه من الانحطاط لاننا رضينا به وأصبحت عقولنا المتشبعة بالأثرة لاهمّ لها إلا أغراضها الذاتية ! !

أليس حظنا اليوم من الحياة قد استحال لجمع الثروة بلا مبالاة بوجوه جمعها ! ! والحصول على المجد بطريق الاغتيال لا الكسب ! والجمود وعدم الاهتمام بالدستور والواجبات .

« وان من التناقض البين المؤلم أن نرى أن الرقي الباهر الذي حصل في العلوم مما لامثيل له في التاريخ ؛ وان هذه الفتوحات المتتالية التي تمت للانسان في الطبيعة بينما رفعت عقولنا الى المدركات العالية ـ هبطت بانسانيتنا إلى أخس الدركات ! ، ومن المحزن أن نحس بأنه بينما نشعر بنماء قوتنا

يوماً بعد يوم : تنطفئ حرارة قلوبنا ، وتتصوح زهرة حياتنا القلبية بتأثير غلبة المطامع المادية ، والشهوات الجسدية » انتهى .

قال (دوري Duruy) المؤرخ أحد وزراء فرنسا السابقين « بينما أهل أوربا تائهون في دجى الجهالة لا يرون الضوء الا من سَمِّ الخياط اذ سطع نور قوي من جانب الامة الاسلامية من علوم أدب وفلسفة وصناعات وأعمال يد وغير ذلك حيث كانت مدينة بغداد والبصرة وسمرقند ودمشق والقيروان وفاس وغرناطة وقرطبة مراكز عظيمة لدائرة المعارف ، ومنها انتشرت في الامم واغتنم منها أهل أوربا في القرون المتوسطة صناعات وفنوناً .

نقل المؤرخ (سديو) عن (هومبلد Humboldt) أن العرب خلقهم الله ليكونوا واسطة بين الأمم المنتشرة من شواطئ الفرات الى الوادي الكبير باسبانيا وبين العلوم وأسباب التمدن فتناولتها تلك الامم على أيديهم لأن لهم بمقتضى طبيعتهم حركة تخصهم أثرت في الدنيا تأثيراً لايشتبه بغيره ، ثم قال « وهذا حجة على أنهم — كما قال غيرنا — ونحن نعترف به — : أساتذتنا ومعلمونا » .

وقال بعض الباحثين « إن تأثير الفحشاء على القلب والقوى العقلية والآداب والحاسيات ليس بالامر السهل قال المستر بالي في كتابه (الفلسفة الأدبية والسياسية) أي رذيلة في العالم مهما كانت ، تفسد الآداب وتسلب من العقل والأخلاق الأدبية مثل ما يفسد الاتجار المحرم بالنساء ! وقلما نجد انساناً فيه هذه الخصال وعنده أخلاق فاضلة تجعله يشعر بالشر ، فتمنعه عن ذلك قوة ارادته ، وهذه تمهد لهم الطرق لكل كبيرة يرتكبونها ، وفي الطبقة السفلى تكون المسرح الأول لتقدمهم في الأعمال الشريرة وفي الطبقة العالية تؤهلهم الى عدم الاكتراث بتأدية واجباتهم الدينية والادبية .

وقال (جان جاك روسو Jean-Jacques Rousseau) في كتابه (أميل Emile du XVIIIe siècle) : قد لاحظت أن الاحداث الذين يتبعون الفحشاء قد تقسو قلوبهم وتنعدم شفقتهم واعتراهم شره في مزاجهم أعدم صبرهم وجعلهم ذوي عنف وحقد ، وجميع تصوراتهم متجهة لأمر واحد فلا تبالي بغيره ، وهم غرباء بمعزل عن الرحمة والشفقة ، وقد يضحون آباءهم وأمهاتهم وكل هذا الكون لشهواتهم .

وانني أختم هذا الفصل بمحاورة دارت بين حكيم الغرب (هربرت سبنسر Herbert Spencer الانكليزي) وحكيم الشرق الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده ومنها يعلم أن الفيلسوف الغربي قد تكهن بان أوربة المادية ستصاب بهذه القارعة العظمى والحرب العامة الكبرى قبل وقوعها بعدة سنين وقد قدم لهذه المحاورة منشئ المنار الأغر بكلمة من عنده نقل فيها رأي أوربي آخر يذكر أن معتقده ومعتقد كثير من الغربيين أن أوروبا ستقع قريباً في حرب طامة أخرى ربما كانت أشد هولاً وفظاعة من الأولى ونحن ننقل تلك الكلمة باختصار فعسى أن يكون في ذلك كله عبرة لأولي البصائر والأبصار :

قال(١) : « ان العلم بسنن الاجتماع والعمران لايغني عن هداية الدين التي توقف أهواء البشر ومطامعهم أن تجمع الى مالا غاية له من الشر ، ولولا أن عند بعض أمم أوربة بقية قليلة منها تتفاوت في أفرادهم قوة وضعفاً ، لحشرتهم المطامع والأحقاد .

(ثم قال) : وهؤلاء البقية لا تخلو منهم أمة ، فهم حجة الله على الأقوام ، ومتى قلوا في أمة غلب عليها الفساد ، وقرب انتقام الله منها (قال) وهم يقلون في أوربة عاما بعد عام ، وقد كان من أصحاب الاحلام

(١) المنار ج ٢ م ٢٠ .

منهم الفيلسوف هربرت سبنسر الانكليزي الذي نهى اليابانيين عن الاستعانة بقومه الانكليز على اصلاح بلادهم فيها ، وقال لهم : إنهم إذا دخلوها لايخرجون منها وقال الأستاذ الامام حين تلاقيا بمدينة (بيرن Berne عاصمة سويسرة) في صيف عام ١٣٢١ (١٠ أغسطس ١٩٠٣) ماترجمته : محي الحق من عقول أهل أوربة واستحوذت عليها الأفكار المادية فذهبت بالفضيلة ، وهذه الأفكار المادية ظهرت في اللاتين أولاً فأفسدت الاخلاق وأضعفت الفضيلة ، ثم سرت عدواها منهم إلى الانكليز فهم الآن يرجعون القهقرى بذلك وسترى هذه الأمم يختبط بعضها ببعض وتنتهي إلى حرب طاحنة ليتبين أيها الأقوى فيكون سلطان العالم .

قال له الامام : اني آمل أن يحول دون ذلك هم الحكماء مثلكم ، واجتهادهم في تقرير مبادئ الحق والعدل ونصر الفضيلة .

(قال الفيلسوف) : وأما أنا فليس عندي مثل هذا الامل فان هذا التيار المادي لابد أن يبلغ حده غاية مدّه .

(وأقول) انني ذاكرت في هذا المعنى سياسياً أوربياً في (جنيف Genève) من بلاد سويسرة فرأيته يعتقد اعتقاد سبنسر ، بل أخبرني أن كثيراً من عقلاء أوربة يعتقدون أن فساد الاخلاق بالترف الذي أهلك الامم الكبرى كاليونان والرومان والفرس والعرب قد أوشك أن يقضي على أوربة ، وستهلك بالحرب التي تلي هذه الحرب الاخيرة وما هي ببعيدة ، ونصح لنا بان لا نقلد أوربة في مدنيتها المادية ، وأن نحافظ على آداب ديننا وفضائله ، وأن نجمع كلمتنا ونجعل الزعامة فينا ، لأهل الرأي والفضيلة منا ونتربص الدوائر بالاوربيين المعتدين علينا اهـ .

فليعتبر المتدينون من بني الشرق مهبط الوحي وموطن الرسل بحال جيرانهم ، وليحذروا من السقوط في حضيضهم والعياذ بالله تعالى .

المدرسة السميساطية[1]

كان لعالم الشام الشيخ محمد جمال الدين القاسمي أمل كبير وسعي عظيم في تجديد النهضة الدينية العلمية في هذه الديار ، فقد حاكى (رحمه الله تعالى) أئمة السلف تعليما للخواص ، وارشاداً للعوام ، وتأليفاً للكتب النافعة ، وزهداً في حطام الدنيا الزائلة ، وقد ترك بعد وفاته أكثر من مائة مصنف كثير منها جدير بان يكون لنا منار هدى في سبيل اصلاحنا الديني ورائد رشاد في سيرنا الاجتماعي .

ولما تم اصلاح المدرسة السميساطية وطلبوا لها قوانين الكليات الاسلامية ونظم دروسها كنظام الأزهر ، ومدرسة القضاء الشرعي في مصر ، وشعبة الالهيات في كلية دار الفنون في الاستانة ، ظننا أنها ستقتفي أثر هذه الكليات في التربية والتعليم ، وستعنى بتخريج رجال يستطيعون أن ينشروا الدعوة الاسلامية بعقل وعلم ويدافعوا عنها بالتي هي أحسن ، فقلت في نفسي إن هذه الكلية الاسلامية ستكون جديرة باتمام عمله ، وتحقيق أمله .

كان محبو الاصلاح يرجون أن تقتفي هذه المدرسة أسلوباً قيماً في التربية والتعليم ، وأن تختار كتباً صالحة للتدريس ، فتكون حينئذ قد سدت فراغاً في بناء الاصلاح الاسلامي ، وحفظت شيئاً من مقام دمشق الديني والاجتماعي ، ولكنا نقول والأسف آخذ من النفوس مأخذه ، انها قد طوت حولين كاملين ولم تكن فيها شيئاً مذكورا ، وها هي ذي الآن تطوي عامها الثالث وفيها دروس لا تستحق الذكر .

ذلك بان الذين عهد اليهم بها قد تنازعوا أمرهم بينهم ، فمنهم من كان يرى وجوب السعي في جعلها مدرسة نظامية جامعة بين الدروس الدينية

---

(١) نسبة للسميساطي القاسم علي بن محمد بن يحيى السلمي الدمشقي (٢٧٣ - ٤٠٣) كما في (الدارس في تاريخ المدارس) للنعيمي الدمشقي (م ٩٢٧) ج ٢ ص ١٥١ .

والعلوم الكونية ، على وجه يزيد الطالب في دينه بصيرة ونورا ، ويجعله أهلاً للدعوة اليه بالحكمة والموعظة الحسنة ، وتكون تلك الكلية روضة علوم وفنون زاهرة ، تخرج لنا من تلاميذها زهرات ناضرة تزدان بها معاهد القضاء والافتاء والوعظ والخطابة والتدريس ، وتستعيد بهم سيرتها الأولى ومنهم من يرى الاكتفاء ببعض الدروس العربية والشرعية ولا يقيم للعلوم الكونية وزناً ، ولا يرفع بها رأساً ، فهم بذلك يزيدون الأمة وهناً على وهن ، ويخرجون رجالاً ضعافاً لا ترجى منهم فائدة كبرى لدين ولاوطن .

ربما يقول بعض المقصرين : انا نخشى أن تزيغ بهذه العلوم عقائدهم ، وتضل أحلامهم ، مستدلاً على ذلك بما يرى من ضعف كثير من الدارسين في دينهم .

والجواب أن هذا الكون أثر من آثار صنع الله تعالى ومظهر من أقوى مظاهر قدرته ، فكلما توغل الانسان في درس أسراره ، وتغلغل في البحث عن خواصه ومنافعه ، يزداد ايمانه بوجود خالقه وبديع صنعه ، وعظيم قدرته « قل انظروا ماذا في السموات والارض » « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » . وأما ضعف بعض المتعلمين في دينهم فلأنهم لم يقرأوا العلوم الطبيعية على سبيل الاهتداء والاستبصار ، وربط المسببات بالاسباب ، ولو كان لاولئك المتعلمين أساتذة أدركوا الدين على الوجه الصحيح ، وعرفوا كيف يجمعون بينه وبين العلوم الكونية لما ضلت أفكارهم ولا زاغت عقائدهم ، فالواجب يتقاضى رجال الدين أن يعرفوا من العلوم الكونية ما يمكنهم من بيان أن الدين يؤاخي العقل ويساوق العلم في سائر موارده ، وقد قلت في محاضرة الامام ابن تيمية[1] : ان الذي أبرز الصحيفتين الدينية والكونية وأقام كلاً منهما مشيراً اليه ، ودالاً عليه ، هو واحد جلت حكمته ، جعل الأولى منها وحيا معجزا ، والثانية خلقا معجزا .

(١) القيناها في ردهة المجمع العلمي بدمشق في نيسان سنة ١٩٢٣ م .

لقد كان المدرسة السميساطية في الأزهر الشريف أسوة حسنة ، فلقد ثار علماؤه المصلحون ، وطلابه المنوّرون ، ثورة دكوا بها معالم الجمود والخمول ، وقوضوا بنيان الفوضى والكسل ، وأدخلوا العلوم العصرية الضرورية والنظام الحديث على أزهرهم الشريف ، فجرى دم الوطنية في عروقهم ، وأشربوا حب العمل في قلوبهم ، فشاركوا - وهم علماء الدين - رجال الوطن العاملين في مساعيهم الحميدة ، وأعمالهم العامة المفيدة ، ولم يقفوا موقف الحيارى مسبلين تلك الأردية السوداء كالنساء ، تاركين الجهاد في سبيل انقاذ البلاد — وهو أقدس واجباتهم — الى من يرمونهم بضعف الدين ، فوا أسفاه ! .

أيها السادة : كان في دمشق وحدها مئات من المدارس الدينية والعلمية وقد وصفها كتاب الدارس في المدارس الذي اعتزم المجمع الزاهر طبعه قريباً[1] ان شاء الله . واليوم نرى هذه المدارس خاوية على عروشها ، ولما فتحت المدرسة السميساطية أبوابها ، امتلأت القلوب ابتهاجاً ، وأقبل الطلاب عليها أفواجا ، وتناقلت صحف الأقطار خبر افتتاحها وقبول الطلاب فيها ، فورد سؤال من بعض علماء الهند الى المجمع العلمي عنها وعن درجة التحصيل فيها .

ولكن من كان يظن أن المدرسة تطوى علمها الأول والثاني ولم يقرأ من عينوا لها فيها درساً ، ولا تقاضوا من مرتباتهم شيئاً ، ولم يتيسر للطلاب المنقطعين طعام ولا منام فيها ، ولا كثير ولا قليل من مخصصاتها ، من أجل ذلك ساءت الظنون ، واشتد غضب أولي الفضل والغيرة ، ولا يدرون على من يلقون التبعة ، وكيف لا يظنون الظنون والمدرسة تسير من سيء إلى أسوأ وكوكبها مائل نحو الغروب (لا قدّر الله) .

(١) لقد طبعه المجمع العلمي من بعد ، بتصحيحات احد اعضائه الأمير جعفر الحسني سنة ١٣٧١ هـ ١٩٥٢ م .

لقد كان المنتظر أن يكون أولئك الفضلاء المنتخبون لها قلب الدين الخافق ، ولسانه الحر الناطق ، وصوته العالي المسموع ، فهل كممت أفواههم عن القول ، وغلت أيديهم عن العمل ، وحيل بينهم وبين مايشتهون !

لقد كان يرجى منهم أن يقوموا بهذه الخدمة المقدسة التي دعوا اليها حق القيام ، أو أن يعتذروا ان لم يتمكنوا أو يكلوا العمل الى غيرهم .

كانت مدينة دمشق في العصور الذهبية مدينة علم اسلامي ، ومدنية عربية ، فهل تجدد الآن المدرسة السميساطية شيئاً من مجدها الدارس أو تستمر في هذا الضعف حتى تلحق باخواتها المدارس الدوارس مرة أخرى ؟

سمعت مرة بعض أفاضل المسيحيين يقول في حفلة وطنية : انكم أيها المسلمون في سورية — أكثر منا عدداً ، وان نهوضنا متوقف على نهوض المسلمين وعملهم بدينهم ، واقامته على وجهه ؛ ألا يرى أن المسلمين في القرون الثلاثة الأولى للاسلام كانوا أرقى الأمم علماً وعقلاً ومدنية ، وانهم في هذه القرون المتأخرة قد حرم جهلهم على أنفسهم وعلى غيرهم باسم الدين علوم الثروة والقوة التي فاقتهم بها أمم الغرب فسلبتهم كل شيء ، وان جاحديهم يتعلمون تلك العلوم باسم الالحاد لا باسم الاسلام ، ولست أتصور جهلاً بالاسلام وتعاليمه أشد من جهل من يحرم على المسلمين علوما عدّها الاسلام فروضاً على متبعيه .

وبعد فاني أقترح على رجال المجمع الكرام أن يسعوا بربط هذا المعهد الديني بالجامعة السورية وأن يمدوه بالنظام ، ويذكوا في رجاله نار الغيرة والاهتمام ، فعسى أن يوفق للقيام بعمله ، واداء واجبه ، وعسى أن يحذو حذو المجمع العلمي الذي نال ثقة المجامع العلمية في العالم بحق ، ونهض بدمشق نهضة تستوجب مزيد الشكر :

اذا يسر الله بتوفيقه تم بهمة رجال المجمع الاعلام أن تنشأ كلية الآداب

العربية(١) وأن تنهض المدرسة السميساطية بطلابها النجباء من وهدة الخمول والضعة ، الى منازل العزة والرفعة ، واضيفت هاتان الكليتان الى الجامعة السورية ، وكلها تدرس وتؤلف باللسان العربي المبين . وإذا اتسع نطاقها كلها تدريجياً كانت نهضتنا الحديثة قائمة على أركان ثلاثة هي أركان مدنيتنا القديمة وهي الدين واللغة والصناعات ، وبذلك نرجو أن تستعيد بلاد الشام ، ما كان لها من مجد في سالف الأيام ، ان شاء الله تعالى .

(١) قلنا أنها انشئت فعلا .

يهود الشام منذ مئة عام*

نحن اليوم في سنة ١٣٤٢ هـ ، فاذا رجعنا الى ماقبل مئة سنة كاملة أي إلى سنة ١٢٤٢ (الموافق ١٨٢٦ م) وجدنا أنفسنا في زمن ولاية (صالح باشا) على دمشق . وهو الوالي الذي جرت معظم حوادث هذه المحاضرة في زمنه . و (صالح باشا) هذا هو احد صدور الدولة العثمانية : تقلد ولاية الشام المرة الأولى سنة (١٢٣٨ هـ — ١٨٢٢ م) ثم عزل وولي مكانه (إيجلي أحمد باشا) سنة (١٢٣٩ هـ — ١٨٢٣ م) وأحمد باشا هذا مات بحمص . وخلفه في ولاية الشام (مصطفى باشا) السنة نفسها أي سنة (١٢٣٩) ، ثم عزل وخلفه (ولي الدين باشا) سنة (١٢٤١ هـ - ١٨٢٥م) وفي السنة التالية أي سنة (١٢٤٢) أعيد (صالح باشا) المذكور .

ففي غضون أربع أو خمس سنوات تعاقب على ولاية الشام خمسة ولاة . وقد ذكر (لامنس) في تاريخ سورية أمراً أغرب من هذا . وهو أن أحد قناصل حكومة البندقية في حلب كتب في تقرير رفعه إلى حكومته : أنه تعاقب على ولاية حلب في مدة ثلاث سنوات تسعة باشاوات . أي باعتبار أربعة أشهر لكل واحد منهم .

ولا احاول في محاضرتي هذه أن أتقصى أخبار ولاة الشام ولا الأخبار التي جرت في عهد أحدهم (صالح باشا) وانما أريد أن أذكر حوادث صيارفة اليهود وكيف استبدوا في ذلك العهد بحسابات بيت المال بل بالحركة الاقتصادية العامة . أما المصادر التي استقيت منها حوادث هذه المحاضرة فهي :

(*) ألقيت هذه المحاضرة في ردهة المجمع العلمي مساء الجمعة في ٩ تشرين الثاني سنة ١٩٢٣ م و ١٣٤٢ هـ .

(١) مجموعة مخطوطة في مكتبتي للمرحوم علي أفندي الكيلاني مفتي حماة المتوفى في حدود سنة (١٢٤٠ هـ — ١٨٢٤ م) وكان رحمه الله يدون فيها مايستحق التدوين من شؤونه الخاصة وشؤون اسرته الكيلانية وبعض ما يقع اليه من أخبار أهل أعصره .

(٢) كتاب مخطوط في موضوع تاريخي خاص ألفه كاتب مسيحي[1] مشهور في دمشق وقد عمّر طويلاً حتى أدرك — وهو ناشيء — حوادث الصيارف التي كانت تقع في ذلك العهد .

(٣) بعض أصدقائنا من أفاضل دمشق الذين وقفوا على أخبار بلدهم وأسرار تاريخها الحديث .

هذه هي المصادر التي اعتمدت عليها في محاضرتي : فهي حوادث غضّة طرية . لم تعرف بعد . ولم تتعاورها أقلام الكتاب بمناقشة أو نقد . فمن ثم كانت جديرة باقبالكم عليها واصغائكم اليها .

* * *

كان لصيارفة اليهود منذ مئة سنة أي قبل وضع النظام المالي الحالي عز وصولة . وأصبح لهم عند ولاتها وحكامها نفوذ ودولة . ومما استبدوا به في ذلك العهد من أعمال الحكومة وشؤونها الحسابية وأسرارها المالية . حتى ما كان منها متعلقاً بركب الحج وترحاله . وتهيئة لوازمه وتدارك أمواله : فكانوا يتعللون أحياناً بان المال المخصص للركب لم يتوفر بعد . أو أن الجبايات في هذا العام نقصت عن الحد . الى غير ذلك مما حمل الناس على التذمر منهم . ومتابعة الشكوى للحكومة عليهم . لكنهم كانوا إذا راجعوا ولاة الشام في ذلك أظهر الولاة عجزاً وحيرة في تلافي الشر .

(١) هو الدكتور ميخائيل مشاقة المؤلف المشهور .

وكثيراً ما يكون لبعض ولاة السوء علاقة بالصيارفة وميل اليهم واعتماد في الصيد عليهم .

ثم لما استفحل أمرهم ، واستشرى فسادهم ، رفع بعض أهل دمشق عريضة شكوى إلى (السلطان محمود) . وكان السلطان يومئذ مشغولاً بأمر الانكشارية الذين طغوا في البلاد ، وأكثروا فيها الفساد . ولا سيما مدينة (حلب) التي مُنيت من شرورهم بما لم تمن به مدينة غيرها ، وكان سكانها يومئذ حزبين أو فريقين : (انكشارية) و (سيّاد) . وكان يلحق فريق (السيّاد) من (الانكشارية) أذىً كبير ، وشر مستطير . ولقد ظفرت بقطعة شعرية مكتوبة على ظهر كتاب مخطوط وصف بها قائلها حالة الفريقين في ذلك العهد فقال :

(يا مصطفى إن القلوب منغّصة ببنيك في الشهباء حلت منقصة)
(في جامع يدعى (الطروش) لقد غدت بدمائهم تلك الأماكن مفتصة)

قوله (مفتصة) كذا بالأصل بالفاء ولعلها (منتصة) بالغين المعجمة أي (غاصة) فخففت لضرورة الوزن . وليس ذلك بجائز . أما جامع (الطروش) فهو جامع (الأطروش) أحد جوامع حلب . وهو اليوم في حالة خراب . وموقعه أمام قلعة حلب ملاصق لسوق الجمعة :

(أدرك فجسم الحق ساء مزاجه ولقد كوى الأشراف ابن الحمصة)

(ابن الحمصة) رئيس انكشارية حلب في ذلك العهد . وقد عتى بالاشراف فريق السياد .

(أقبلْ وقل للحربلي الحربُ لي وأذق لطلاّم الاوجاق الحمصة)

(الحربلي) اسم عائلة من عائلات حلب كان رجالها في أوجاق الانكشارية وما زالت هذه العائلة إلى اليوم في حلب لكنها منحطة :

(في النازعات اجعل لنا ياسينهم وجميعهم . ليست اليه مخصصة)

(ياسينهم) أي ياسين الانكشارية وهو أحد زعمائهم في ذلك العصر .

(فدماء أعداء الاله ثمينة ودماء أولاد الرسول مرخّصة)
(ولأنتَ أولى بالجميع وهذه شكواهم رفعت اليك ملخصة)

هكذا كانت حالة البلاد من جراء فتنة الانكشارية في ذلك العهد والسلطان محمود منهمك فيها . وعاصمته (القسطنطينية) قائمة قاعدة من أجلها .

وبينما الحالة كذلك والشكوى من الانكشارية ترفع الى السلطان اذا عريضة أخرى بالشكوى من صيارفة الشام رفعها أهلوها إلى السلطان : يشكون اليه ظلم أولئك الصيارفة واستبدادهم بالديوان واحتجانهم المنافع . فلم يكن اهتمام السلطان بأمر الانكشارية بالذي يصرفه عن النظر في أمر أولئك الصيارفة . وتلبية نداء الدماشقة . فامر بعزلهم من (ديوان السرايا) والاستعاضة عنهم بغيرهم ممن يحسنون العمل . فأخذ حكام الشام ينتظرون الفرص لتنفيذ الارادة السلطانية .

وكانت عقدة العقد في أمر هؤلاء الصيارفة أنهم كانوا يكتبون (دفاتر الديوان) باللغة العبرانية التي لايعرفها سواهم . ثم على تعادي الأيام أصبحت تلك الدفاتر كأنما كتبت بالقلم (القلفطيري)(١) لا العبراني . وأصبحت أرقامها وجداولها أشبه بالقلفطريات منها بالقيود والحسابات ، بحيث لم يبق في وسع أحد من الناس غير الصيارفة أن يهتدي إلى فهم مافيها واكتناه اسرار معمياتها .

هذه كانت حالة (دفاتر الديوان) في ذلك الوقت . وإلى هذا الحد بلغت الحيرة في فهمها ، وحلّ رموزها . وكان الوزير من وزراء الشام إذا أراد عزل هؤلاء الصيارفة من (ديوان السرايا) . وضبط الدفاتر وسحبها

---

(١) (القلم القلفطيري) خط اليهود الذين يكتبون به التعاويذ والرقى بآيات من التوراة . ثم توسع كتاب العرب في استعمال (القلفطيري) و (القلفطريات) فاطلقوها على كل ما كان من قبيل الطلاسم والرموز من الكتابات . وحقق الأب انستاس الكرملي أن الكلمة يونانية وأصلها هكذا (Phylakteari) فيكون صوابها تقديم الفاء فلقطيري . ومعناها في اليونانية التعويذة والحارس والواقي

من بين أيديهم الوقوف على سرها ودخيلة أمرها — أدرك عجزه لأول وهلة وعلم أن من يخلفهم ، لا يحسن عملهم ، ولا يكفي المهمّ مثلهم . وربما خشي الوالي أن تقع مالية الولاية وحسابات الديوان في التشويش والارتباك . فيسكت على مضض وهم مقلق .

وكان(١) أولئك الصيارفة يجتهدون في وضع خزائن الحكومة وايراداتها ومصارفها تحت أيديهم . ويسعون في الحصول على أوامر سلطانية تكون سنداً بأيديهم تشير بتوظيف الصراف على خزينة الولاية الفلانية . وبهذه الصورة يأمنون على مراكزهم فلا يحق للولاة أن يعزلوهم متى شاءوا . ولاسيما أن الولاة يبدلون كل مدة قصيرة كسنة وسنتين . ومن جراء ذلك تصبح الولاية للولاة بالاسم ، وللصيارفة بالفعل . والوالي يكون كمأمور يعمل بحسب رغبة الصرّاف الذي بيده الايراد والمصرف . ووظيفته مستقلة دائمة بأمر سلطاني ، لايقدر أحد على معارضته . بل ان بقاء الوالي وعزله وإدانته وبراءة ذمته كل ذلك بيد الصيارفة : فان جاملهم وأطاعهم رحموه عند عزله ، وقدموا له حساب الايراد والمصرف بدون خسارة . يفعلون ذلك لقاء مبلغ يقبضه منه صرّاف الباب العالي بالاستانة .

فخزينة إيالة الشام كانت في ذلك العهد بيد أفراد عائلة مخصوصة(٢) وعساعيهم تعاظم غنى اليهود بدمشق . وكان اكبر(٣) صيارفة الخزينة من هذه العائلة . ومع قلة معارفه كان الأهالي يخشون سطوته ويحسبون

(١) التفصيلات الآتية عن أعمال اليهود في مالية الحكومة ملخصة من مخطوط الدكتور ميخائيل مشاقة الذي مرت الاشارة اليه والى مخطوطه وقد الفه في مساوىء القوم وسماه (الايضاحات الجلية الخ) .

(٢) هذه العائلة هي بيت فارحي .

(٣) واسمه (روفائيل شحادة) وأخوه واسمه (سلمون) .

وكانت قرى دمشق بنوع أخص تضطر الى الاستدانة ، اذ كانت أموالها الأميرية مربوطة على السنة القمرية بسبب ترتيبها لمصارف ركب الحج الذي يكون تسفيره على الحساب القمري . والحساب القمري لايتفق دائماً مع السنة الشمسية التي بحسبها يكون طلوع الغلال وأوقات زراعتها . فلذلك يضطر الفلاح أن يستدين لدفع مال الميرة الذي عليه . هذا عدا ما يلزمه لمصارفه الخاصة ولتقوية أمور فلاحته .

فهذه القرى يترتب لها مداينون يعطون الفلاحين ما يحتاجون اليه من الدّين بالربا . ويسمى هؤلاء المرابون عملاء أو (شوابصة) . والشوابصة يكونون من صيارفة اليهود خلا قرى قليلة تكون لها علاقة باحد أعيان المسلمين لكونها ملكه أو وقفه ، فهو يدفع الأموال الأميرية عنها .

فمتى قرب موسم الحج وطلوع المحمل الى الحجاز تجتهد الصيارفة برفع أسعار النقود ويقنعون باعة البضائع بان ارتفاع أسعار النقود يرغب الأغراب القادمين للحج في مشترى بضائعهم ، فيصدق الباعة ذلك ، ولا ينتبهون لغرض الصيارفة ، فتصعد الأسعار غالباً بالمئة عشرين . وبعد سفر الحج ترجع الاسعار الى حالها .

فصرّاف الخزينة حينما يُطلب منه ثمن لوازم الحج أو نقود للعساكر التي تسافر مع المحمل للمحافظة عليه وهي في حاجة إلى شراء خيول وأسلحة حينئذ يأخذ الصراف بالاعتذار بعدم وجود نقدية في الخزينة في الوقت الحاضر ، ثم يعطي العسكري ورقة حوالة على الخزينة فيضطر العسكري أن يبيعها للصيارفة الذين يكونون منتشرين حول الخزينة ولا يبرحونها في تلك الأيام ، فيشتري الصيرفي الحوالة ويدفع ثمنها المئة ثمانين حسب أسعار النقد الرائج بوقتها ، ثم يسددها للخزينة عن مطلوبها من القرية التي يعاملها .

فالمئة المدفوعة منه للخزينة ورقاً لم تكن قد كلفت عليه سوى اربع وستين بسبب رفع سعر النقود بالمئة عشرين أو أكثر . ثم صراف الخزينة

يحسبها على الفلاح عملة الخزينة ويضيف اليها عشرين فرق المعاملة فتصبح (١٢٠) ثم يضيف اليها المرابحة ومرتبات العميل التي يسمونها (الشوبصة) الى غير ذلك مما أثقل كاهل المزارعين . ومعظم سكان الشام منهم . فكانت تتسرب أثمان حاصلاتهم الى جيوب الصيارفة . وبذلك أصبحوا أغنى سكان دمشق .

ففي زمن ولاية (ولي الدين باشا) على الشام وذلك سنة (١٢٤١ هـ — ١٨٢٥ م) انتبه إلى خيانتهم وانه لم يعد يجوز ائتمانهم على خزينة الحكومة . وكانت الشكايات تتابع الى الباب العالي والأوامر السلطانية ترد تترى برفع الظلم وانصاف الاهالي . فكتب الوالي المذكور الى الباب العالي بلزوم عزل كبير[1] الصيارفة عن تولي أمور الخزينة فلما شعر هذا بالأمر هرب حالاً الى بغداد خشية أن يُناقش الحساب فيحل به العقاب .

وبعد هربه أراد أن يعين خلفاً له فارتبك في الامر : لانه إن عين أحداً مكانه من صيارفة اليهود بقي المشكل على حاله ، فبلغه أن في حمص رجلاً مسيحياً ماهراً في أعمال الصرامة والأمور الحسابية وهو من عائلة معروفة[2] في حمص فدعاه الى دمشق وعينه صرّافاً للخزينة مكان صرّافها الأول . فقامت قيامة طائفة الصيارفه لهذا التعيين وحسبوه ضاراً بهم مسقطاً لمنزلتهم . فكتبوا الى كبيرهم (روفائيل) الذي هرب الى بغداد . وجعلوا يعملون يداً واحدة في الاستانة على عزل والي دمشق وتعيين غيره . فوفقوا الى ذلك وعين (صالح باشا) للمرة الثانية وذلك في سنة (١٢٤٢هـ — ١٨٢٦ م) . عندها رجع روفائيل كبير الصيارف من بغداد الى وظيفته في دمشق . ويقال إنه أنفق في هذا السبيل (٣٥٠٠) كيس والكيس (٥٠٠) قرش فيكون المجموع مليوناً وسبعمائة وخمسين الف قرش .

(١) وهو روفائيل فارحي الذي مر ذكره .

(٢) اسم الرجل اسكندر وعائلته تعرف في حمص باسم (بيت الكاتب) .

ولما تبوأ كبير الصيارف مركزه وعاد الى سابق نفوذه لم يكفه عزل الصراف الحمصي بل جعل يدس الدسائس لقتله ، كي يكون عبرة ونكالاً لكل من أراد أن يتولى هذه الوظيفة من غير طائفة الصيارف . وأخذ يبذل الأموال الطائلة للوالي (صالح باشا) ليحمله على قتل ذلك الصراف الحمصي المسكين . لكن الوالي كان رجلاً صالحاً فلم يخدعه بريق الذهب . ففكر في طريقة ينجي ذلك الصراف من كيد الصيارفة فعرض عليه الاسلام وقال له : انك ان أسلمت انقطعت عنك اطماع أعدائك ، وحفظت نفسك من أذاهم ، وأمكنني أن ابقيك في (ديوان السرايا) رقيباً على الصيارفة ومشرفاً على الحسابات وسائر المعاملات فلا تظل خزينة الحكومة تحت رحمة أولئك الصيارفة .

فانشرح صدر الرجل للاسلام فاعلن[1] اسلامه وسمي (محمد أفندي هدايت) وابتهجت قلوب الدماشقة بذلك ماعدا طائفة الصيارفة بالطبع .

وعد الناس فض المشكل على هذه الصورة من حسن ادارة الوالي (صالح باشا) وتلطفه في سياسته .

(١) هذا ما نرويه في سبب اسلامه عن مصادر موثوق بها ولكن جاء في مخطوطة (نوفل نعمة الله نوفل) الطرابلسي التي تتضمن حوادث دخول ابراهيم باشا للشام المحفوظة في مكتبة (الجامعة الاميركية) ما يلي : (صالح باشا والي دمشق صادر سلمون وروفائيل شحادة فارحي الاسرائيليين كاتبي خزينة دمشق وعذبهما وسجنهما وكان أراد قتل اسكندر الحمصي الكاتب فاسلم فنصبه عوض اليهودي وسماه (هدايت أفندي) وأحضر رماناً بعدم استخدام اليهود بعد ذلك في أمانة صندوق الشام . ثم بعد مدة وجيزة قتل اسكندر المذكور واستكفى بعبد الله نوفل الذي استخدمه بمحله اهـ . أقول ولكن سيأتي معنا أن الذي قتل اسكندر هو رؤوف باشا لاصالح باشا الذي أسلم في زمنه وأن السبب في قتله وشاية الصيارف به لمزاحمته في أمور الخزينة وبذلك يخلصون من شره . ولعل فعل (قتل اسكندر) بضم القاف مبنياً للمجهول وكذلك فعل (استكفي) فيكون في ذلك اشارة إلى أن القاتل هو الوالي الذي خلف صالح باشا .

ولو كانت هذه الحادثة في هذا الزمن زمن الصحف والجرائد لكان الصحافيون هم الذين يشنون الغارة على طائفة الصيارفة ويهيجون الرأي العام عليهم .

أما في ذلك العهد (أي منذ مئة علم) فلم يكن في سورية صحافة ولا صحف . ولا (قبس) ولا (الف باء) ولا تسكير أسواق ولا اقفال مخازن ولا اقامة مظاهرات . وكل ما كان موجوداً في ذلك العهد شاعر خفيف الروح ، سريع الخاطر حاضر النكتة لا يدع شاردة من حوادث زمانه تفلت من دون أن ينظم القصائد فيها وينبه الأفكار اليها . أعني به (الشيخ أمين الجندي) شاعر حمص بل شاعر الشام في تلك الأيام .

فلا جرم أن يكون الشيخ أمين من أشد الناس سروراً باسلام ابن بلده (هدايت أفندي) فاحتفل لهذه الحادثة أيما احتفال ونظم قصيدة لامية دوّن فيها حكاية الصيارفة وقبح أعمالهم ووصف حزم الوالي صالح باشا واسلام (هدايت أفندي) وافتتحها بمدح السلطان محمود الذي أصدر أمره بعزل أولئك الصيارفة . وقال في مطلعها(١) :

وافتك بالعز خودٌ زانها الطول بديعةٌ لحظُها بالسحر مكحول

وما زال شاعرنا الجندي يتغزل بالخودِ الذي زانها الطول ، ولحظها بالسحر مكحول ، حتى قال في مدح السلطان محمود :

أتى السلاطين محمود الفعال ومَن بالعزّ والنصر محفوف ومشمول
فكم معارك حرب قد أباد بها حزبَ الضلال فولى وهو مخزول
من فوق طرف كأن الصبح شقّ له من نوره غرةً بيضا وتحجيل
في حلّة من سنا التقوى يزيّنها بأس وحلم واحسان وتنويل
ما يمسك المال عن راجيه راحته الا كما يمسك المال الغرابيل

(١) ديوان الجندي طبع طبعتين : ففي احدى الطبعتين نشرت القصيدة برمتها وفي الأخرى نشر مطلعها وأبيات المدح التي قيلت في السلطان محمود فقط .

نشكو لعلياه ما قاست رعيته من البلايا وعقد الصبر محلول
حيث استطالت بقطر الشام طائفةٌ على البلاد . وهم قوم مناكيل
وقدمتهم موالينا وما علموا بأن تقديمهم جور وتضليل
مدّوا من المكر أشراكاً وطبعهم على الخداع وقول الزور مجبول
صادوا بها كل نسر في الثرى ونحوا نسرَ السما فانثنوا والعزمُ مفلول
هم في التقلب كالافياء ثم وفي تلوينهم قلّ همو الحرباءُ والنول
قد كان من سحرهم أن الوزير متى أصغى لهم قال : مهما شئتمو قولوا
كم مرةٍ مكروا بالابرياء وكم خانوا وزيراً له بالعدل تجميل
وكم الى السجن قادوا غافلاً فمضى منكّس الرأس بالأصفاد مغلول
من عهد سبعين عاماً هم صيارفة إذا مضى منهمو جيل أتى جيل
حيث الدفاتر عبرانية رقمت خلافَ ألسننا والسرُّ مجهول
وليس يعلم أتراك ولا عرب ما خُطّ فيها ولا المنقول معقول
وكل ما تحتويه باطل كذب بل انها كلها زور وتخييل
ظنوا بأن أمور الحج بعدهمو ينال رتبتها بخس وتعطيل
شيدتْ على الشح والشكوى بيوتهمو: فليس فيها لضيف قط مأكول
أموال عكّة ماذا يصنعون بها ؟ ما آن أخذُ لها ما آن تحصيل ؟!
لمال كل وزير قد مضى ورثوا حياً وميتاً : فهل في ذاك تحليل ؟
فيا أولي الأمر ماهذا التهاون في أمر عظيم به للحق تذليل ؟
أما أتى : (كل راعٍ عن رعيته يوم الحساب لدى الجبار مسؤول ؟
فكيف ترجون عهداً للذين هم بُهتُ شحاح مشائيم مناكيل
كم بالربا سحبوا ذيل الخراب على أهل البلاد وكم قالوا لهم : زولوا
حتى إذا ألهم المولى خليفته في قمعهم – إمحت تلك الأباطيل
بصالح الوزراء الصدر أصلح ما قد أفسدوه وسترُ الله مسدول

ثم ذكر مناقب صالح باشا وعددها فقال :

منها بنى جامعاً فيه الصلاةُ زكت وقد حلا فيه للقرآن ترتيل

كذاك إسلام ذي رشد على يده ... حرٌّ عفيف له فكر ومعقول
ملقب (بهدايات) وحيثُ سمي ... (محمداً) فله في ذاك تفضيل
لولاه ما بان مكرُ القوم قط ولا ... من رقمهم ظهرت تلك التهاويل
الله اكبر ذا أمرٍ قد انشرحت ... منه الصدور . وذا باع له طول
سُرّت بإعانه أهلُ الهدى وعلا ... لمُصبة الحق تكبير وتهليل
كم ذا أراد العِدى أن يخذلوه وقد ... خابوا فكانوا هم النكس المخاذيل

إلى أن قال في ختام هذه القصيدة الفريدة :

أوما (أمين) بحمص الشام فيه شدا ... وافتك بالعز خود زانها الطول

هذا أيها السادة ما وقع في الشام منذ مئة عام من خبر صيارفة اليهود واستفحال شرهم وتدارك أمرهم .

ولكن هل اصطلم الشر واستؤصلت جذوره بالمرة بحيث لم يبق لسلطة الصيارفة أثر ولا تأثير في حكومة دمشق بعد أن تقلص ظل ولاية (صالح باشا) ؟ كنت أظن ذلك حتى ذكر لي بعض الفضلاء[1] من أصدقائنا المسيحيين حادثة وقعت لأبيه في زمن ولاية الوالي الذي خلف (صالح باشا) واسمه (رؤوف باشا) أو (عبد الرؤوف باشا) وولايته كانت سنة (١٢٤٤ هـ — ١٨٢٨ م) ويفهم مما ذكره هذا الصديق أن نفوذ الصيارفة وصولتهم عادت إلى أشد ما كانت عليه . — قال ان والده (عبدو بك) تعرف في عهد حداثته برجل أعمى من أهل دمشق يدعى (حُميصة) سمي بذلك لأنه من مدينة حمص . وقد اتفق معه على الاشتغال بالصيرافة . وكان حميصة هذا نشيطاً جريئاً عارفاً بأصول هذه المهنة واقفاً على أساليبها الناجحة غير أنه أعمى العينين لا يمكنه التجول ولا التنقل من مكان الى آخر . وهو أمر ضروري للصراف . فاتفق مع عبد الله (عبدو بك) والد صديقنا على

(١) هو المرحوم الياس بك قدسي ابن عبدو بك قدسي من وجهاء النصارى في دمشق وأحد أعضاء مجمعنا العلمي .

أن يقوده من مكان الى مكان ويغشى به المجامع حيث التجار والمرابون وأرباب الأموال . وهناك يعملون معاً على الكسب ويكون الربح الحاصل من ذلك بينهما بالسوية . قال : وكانت لطائفة الصيارفة صولة في تلك الأيام وتمكن من نفوس حكام الشام . فكانوا يخفضون سعر العملة أياماً ثم يرفعونه فجأة وبذلك يربحون أرباحاً عظيمة . ويجعلون من هذه الأرباح نصيباً مفروضاً للحكام الذين يطلعونهم على سرهم ويشاركونهم في سحتهم . ومن جملة أعمالهم أنهم كانوا يسحبون من النقود المتداولة شيئاً من فضتها وذهبها . وذلك بيردها بالمبرد أو بالقطع منها . فاخترع عمال (الضرب خانة) طريقة لوقاية النقود وحفظها من السرقة فجعلوا حولها على دوائرها زنجيراً منمنماً مخرماً : فاذا سرق شيءٌ من طرف النقد بالبرد أو القطع انثلم النقد وعرف الناقص من غير الناقص من الدنانير . لكن الصيارف احتالوا بحيلة جديدة : وهي أنهم جعلوا يغطسون نقود الذهب والفضة بمحاليل كيماوية ثم يأخذون ما انحل منها في الماء من دون أن يظهر على النقود نقص أو برد أو حك أو تلاعب في الزنجير .

قال الصديق : ثم ان حكومة الشام أعلنت (باقتراح من الصيارف) ان الأيام الفلانية والأيام الفلانية لا يجوز الاشتغال فيها بالصرافة ومن خالف جوزي جزاء صارماً .

فاما (عبدو بك) وشريكه (حُميصة) فقد حسبا أن هذا المنع لا يتناولهما لأن عبدو شاب لم يزل حديث السن وشريكه حميصة أعمى . وتعرفون أيها السادة أنه ليس على الأعمى حرج .

غير أن الصيارفة لم يكن يؤمنون بهذه الآية القرآنية بالطبع فوشوا بها الى والي الشام (عبد الرؤوف باشا) فطلبها اليه فدخلا عليه وهو في الديوان وعنده كبير الصيارفة . فجعل (عبدو) يعتذر بصباه ، ورفيقه حميصة يبكي شجوه ويندب عماه . وأخذ كبير الصيارفة يقطع حديثهما .

ويهوّل الأمر عليها ويغري الوالي بها حتى احفظ قلبه فامر بشنقها .

وكانت سراي الوالي رؤوف باشا يومئذ في البرامكة حيث الكشك المعروف اليوم على طريق محطة البرامكة المطل على المرجة ، وقد كان في زمن الحرب العامة نادياً (كلوب) للضباط العثمانيين (ثم الافرنسيين في عهد انتدابهم) . وبعد أن كبر (عبدو بك) وشاخ كان كلما مر بذلك المكان مع ابنه صديقنا الياس بك يشير الى موقع السراي ويحكي لابنه حادث صبوته هذه وحادثة رفيقه حميصة الحمصي وكيف أمر الوالي رؤوف باشا بشنقها .

غير أن الله تداركها بلطفه وعنايته فحبسا أياماً ثم أخلي سبيلها بشفاعة بعض الشافعين من أعيان الدمشقيين .

فيستدل من هذه الواقعة أن نفوذ أولئك الصيارفة استمر بعد زمن صالح باشا وبقي الى زمن ولاية رؤوف باشا وكان رؤوف باشا هذا ظالماً قاسي القلب كما سمعتم من خبره مع حميصة . بل ان له خبراً آخر دل على ظلمه وخبثه ، ذلك أن طائفة الصيارفة في زمنه عادوا الى دس الدسائس للانتقام من الصراف الحمصي (محمد أفندي هدايت) الذي أسلم في زمن صالح باشا . فيقال أن أولئك الصيارفة مازالوا يطمعون (رؤوف باشا) بالمال ويزينون له البطش بذلك المسكين بغتة بلا سؤال ولا جواب حتى قتله ، واستلمت طائفة الصيارفة الخزينة واستبدوا بها من دون مشارك ولا معارض .

ثم مات رؤوف باشا وخلفه في ولاية دمشق (سليم باشا) وهو الذي ثار عليه أهالي دمشق لكونه فرض على العقارات ضريبة (مصريتين) فقتلوه سنة (١٢٤٧ هـ — ١٨٣١ م) وفي السنة التالية زحف المصريون

بقيادة (ابراهيم باشا) واستولوا على بر الشام فحفظوا مال الخزينة من أولئك الصيارفة بقدر الامكان وتوصلوا الى ذلك بتعيين (يحيى أفندي) وهو يهودي من حلب كان اسمه (بخور) فأسلم وسمي (يحيى أفندي) وكان حاذقاً في أمور الصرافة والمعاملات المالية .

ثم من يومئذ صلحت الأحوال ، وانتظمت الأعمال ، وتوفرت في الخزينة الأموال ، ولم يعد لصيارفة الشام تأثير كبير في نفوس ولاتها . بل كان كلما جاء أحد هؤلاء الولاة الى دمشق اضطر كبير الصيارف أن يتوسط بعض أعيانها في أن يقدّمه إلى الوالي ويعرّفه مكانته ووجاهته في قومه .

لكن كان كبير الصيارفة لايصل إلى بين يدي الوالي وينال منه حظوة حتى يبذل للواسطة أموالاً طائلة . فكان الصيارفة يتململون من هذه الوساطة والنفقات التي ينفقونها في سبيلها كلما جاء والٍ جديد . فاستنبطوا للخلاص من ذلك حيلة غاية في الرقة واللطف والذوق .

ذلك أن كبيرهم (شمايا) بنى قصره الشهير في (دمّر) على قارعة الطريق الأعظم المؤدي إلى الشام . فصارت طائفة الصيارفة اليهود لا يدعون والياً يدخل الشام حتى ينزلوه ضيفاً عزيزاً في هذا القصر على الرحب والسعة . مما يذكرنا بقول شاعرنا العربي مع ملاحظة الفرق بين النيّتين :

(ضربوا بقارعة الطريق قبابهم ... يتقارعون على قِرى الضيفان)

(ويكاد موقدهم يجود بنفسه ... حبّ القِرى حطباً على النيران)

ففي خلال إقامة الوالي في (قصر شمايا) وحفد القوم في خدمته ، والانفاق من سعة على ضيافته ، تتوثق بينه وبين كبار الصيارفة روابط

الصداقة والمحبة . وبنفقات قليلة في (قصر شمعايا) استغنوا عن نفقات كثيرة كانوا يبذلونها لأعيانٍ الشام لأجل تقديمهم الى الولاة عدا ما يصحب ذلك من التملق والتذلل وتحمّل المنة . فما ألطفها حيلة ، وما أسهلها وسيلة !

وهكذا أيها السادة انطوى ذكر الدور العجيب الذي كان يمثله صيارفة الشام ، منذ مئة عام . ولم يبق من أثره سوى هذا القصر الذي يشهد على ما كان منهم في سالف الأيام .

بشار بن بُرد*

لما قامت الدولة العباسية على أثر سقوط الدولة الأموية أخذت الحضارة العربية شكلاً غير شكلها الأول : فالأوضاع الادارية تبدلت . والنزعات العقلية تغيرت . ودائرة العلم والفن والترف انفسحت وتوسعت . وقد دعا كل هذا الى ظهور نهضة جديدة في الشعر والأدب فاقت ما تقدمها من النهضات . واتفقت كلمة كتّاب تاريخ الآداب العربية على أن حامل لواء الشعر في صدر الدولة العباسية هو (بشار بن برد) .

ولكن أتظنون أن بشاراً يرضى بهذا ؟؟ فهو يزعم انه لو كان في عهد الجاهلية لبذّ فحولها وأبرّ على شعرائها : فما أثر عنه أنه قال (أزري بشعري الأذان) . كنى بالأذان عن الاسلام لأنه من أعظم شعائره . يريد ان ظهور الاسلام بقرآنه وبلاغة آياته غطّى عليه وحال دون شهرته . والا فلو كان في زمن الجاهلية وقبل نزول القرآن لكان له شأن غير هذا الشأن .

نسب بشار ونشأته

بُرد أبو بشار فارسي الأصل من بلاد طخارستان ويظهر من قول جغرافيي العرب وجعلهم كابل من ثغور طخارستان أن طخارستان هي بلاد الأفغان أو انها كورة كبيرة منها . جاء برد البصرة في جملة سبي المهلب ابن أبي صفرة فاهدته امرأة المهلب الى صديقة لها من بني عُقَيل . فاعتقته العقيلية . وتزوج برد ، فوُلد له بشار . فكان بشار مولىً ولم يكن عربياً .

(*) محاضرة القاها الاستاذ « المنربي » في ردهة المجمع بتاريخ ٣٠ ايار سنة ١٩٢٤م.

ونشأ في بني عُقيل الأعراب الأفحاح فاستحكمت فيه ملكة اللغة العربية الفصيحة .

ولد بشار في أخريات أيام دولة الأمويين أي في حدود المئة للهجرة . ولما قام العباسيون كان في طور الشباب فهو من مخضرمي الدولتين أي أنه عاش في زمنهما . لكن اشتهاره بالشعر انما وقع في عهد المنصور العباسي . ثم في زمن ابنه المهدي . وقتله المهدي سنة مئة وثمان وستين للهجرة ـ للأسباب الآتي ذكرها ـ بعد أن عاش سبعين ونيفاً من العمر . وكان ضخم الجثة طويلاً آدم اللون مجدوراً عظيم الخلق والوجه وقد ولد أعمى . وكانت حدقتاه جاحظتين (أي ناتئتين) وقد تغشّاهما لحم أحمر . فكان أقبح العميان عمىً وأفظعهم منظراً . وما أقرب الشبه وأبعده بين بشار وأبي العلاء المعري : الشبه بينهما قريب من حيث أن كلاً منهما ولد أعمى أو عمي بالجدري وهو صغير . ثم لما تعلقا بالأدب والشعر ساعدهما عمى عين البصر على انفتاح عين البصيرة . فانصرفت مخيلتهما بكليتها الى سمو التصور الفكري والابداع في التخيل الشعري ، حيث بلغا فيه مبلغاً تحط عنه السيل ، ولا يرق اليه الطير . وقد تشابها أيضاً من حيث انطلاق فكرهما . مما تقيد به غيرهما : فذهبا في التصريح فيما يعتقدانه كل مذهب . ومن جراء ذلك رُميا بالكفر ونسبا الى الزندقة .

هذا وجه التشابه بينهما أما وجه التباين والتخالف فظاهر في أن بشاراً كان فارسي النجار . أما أبو العلاء فكان عربياً قحاً . وكانت فلسفة بشار فلسفة مادية باطلة ، حاشا فلسفة أبي العلاء فان فلسفته روحيةٌ فاضلة . وكان معظم شعار بشار فيما يثير الشهوة ويهون أمر الرذيلة ، بينما كان أبو العلاء شريف النفس عفيفاً موفور الكرامة . ومعظم شعره فيما يثير حب العمل الصالح في النفس ويحض على ممارسة الخير والفضيلة والتأمل في أسرار الكون ونواميس الاجتماع .

كان برد والد بشار طيّاناً حاذقاً بالطين . فلما ولد له بشار كان يقول

ما رأيت مولوداً أعظم بركة منه . ولقد ولد لي وماعندي درهم فما حال الحول حتى جمعت مائتي درهم . ثم قال بشار الشعرَ وهو صغير في حياة أبيه . فكان إذا هجا قوماً جاؤوا أباه وشكوه اليه فيضربه ضرباً مبرحاً . فكانت أمه تقول له : إلى كم تضرب هذا الصغير ؟ أما ترحمه ؟ فيقول بلى والله ولكنه يتعرض للناس فيشكون إليّ . فسمعه بشار يوماً يقول هذا القول لأمه فهتف به : يا أبتِ ! إن هذا الذي يشكونه مني اليك هو قول الشعر . واني ان ألمت به أغنيتك وسائر أهلي . فان شكوني بعد الآن قل لهم : أليس الله يقول : (ليس على الأعمى حرج) . فلما عادوا وشكوه قال لهم برد : أليس الله يقول : (ليس على الأعمى حرج) فانصرفوا وهم يقولون : « تاللهِ لفقه بُرد أغيظ لنا من شعر بشار » .

من هذه الساعة ، من حضن العائلة ، من بين ذراعي الأب والأم اختط بشار لنفسه خطة التهجم على الأعراض توسلاً الى الكسب واغناء أهله .

وطريقته هذه هي نفس طريقة (الحُطيئة) الشاعر الجاهلي من حيث أن كلاً منهما اتخذ الهجوَ وهتكَ أعراض الناس وتهديدهم باذاعة أسرارهم — طريقاً إلى جر مغنم أو دفع مغرم . وهذه الطريقة هي مايسميه أدباء الأفرنج (شانتاج) ويظهر أن في شعرائهم كثيرين مشوا على هذه الطريقة الملعونة .

وقد عَرَفَ بشار وهو صغير جريراً الشاعر وسمع شعره . فهاج في نفسه الشاعرية وحبّب اليه الاشتهار بالشعر . وارتأى أن ينال هذه الشهرة على حساب جرير . وحاول أن يهجوه فيردّ عليه جرير فيشيعَ ذكره ويعظم أمره . لكن جريراً أعرض عنه استخفافاً به . قال بشار : (ولو هاجاني لكنت أشعر الناس) .

وكان لبشر أخوان قصابان وهما (بشر وبشير) فكانا يستعيران ثياب

أخيها الأعمى بشار ويلبسانها في مهنتها ؛ فتنسخ وتُنتن ريحها . وكان هو بارّاً بها صبوراً على أذاها . وفي آخر الأمر اتخذ لنفسه ثياباً خاصة . وحلف أن لايعيرهم إياها . فكانوا يأخذونها بغير اذنه ويلبسونها . فكان إذا أعياه الأمر لبسها وخرج بها إلى الناس على نتنها ووساختها . فيقال له ماهذا يا أبا معاذ ؟ (وهي كنيته) . فكان يقول لهم « هـذه ثمرة صلة الرحم !!! » .

أخلاقه وأطواره

كان بشار كثير التلوّن لاثبات له ولاسيما في أمر نسبه وعروبته وشعوبيته : فهو تارة يفتخر بولائه للعرب . وطوراً يتبرأ منهم ويتعصب للعجم . وآونةً يتبرمّ للفريقين . ولسان حاله ينشد قول زميله أبي العلاء المعري الذي قال بعد التجربة :

(لعمري لقد جرّبتُ عُجماً كثيرة وعُرباً ، فلا عُجماً حمدتُ ولاعُربا)

وكان بشار من أشدّ الناس تبرّماً بالناس . وكان يحمد الله على العمى . فيقال له ولماذا يا أبا معاذ؟ فيقول لئلا أرى الثقلاء . وكان اذا أراد أن ينشد شعراً صفق بيديه وتنحنح وبصق عن يمينه وشماله ثم ينشد فيأتي بالعجب .

أما مذهبه الفلسفي الذي كان السبب في تهمته بالزندقة فهو ملخص في هذه الجملة التي كان يقولها : أنا لا أعرف الا ما عاينته أو عاينت مثله . فالرجل على مايظهر من كلمته هذه كان مادياً لا يعرف إلا المادة . والمدركات المحسوسة . فمذهبه هذا يقرب من المذهب الفلسفي الحديث وهو مذهب الحاسّيين أو التجريبيين . ومؤسسا هذا المذهب باكون وديكارت . وقد يكون الذي حمل بشاراً على هذا المذهب غلوّ المتنطّعين من

الجلجلوتيين(١) والحشويين . وشدّ ما كان هؤلاء الحشويين الذين يكذبون على الدين سبباً في تبرّم العقلاء ، وسوء ظن الفضلاء : مر بشار بقاصّ من هؤلاء الحشوية يقص في المسجد فسمعه يقول : من صام رجباً وشعبان ورمضان بنى له قصر في الجنة : صحنه الفٌ فرسخ في ألف فرسخ ، وعلوه الفٌ فرسخ ، وكل باب من أبوابه عشرة فراسخ في مثلها . فالتفت بشارٌ إلى قائده وقال : (بئست والله هذه الديار في شهر كانون الثاني) يعني أنها لفرط سعتها لا تدفأ . فبسبب هذه الحكاية قد يتهمون بشاراً أنه ينكر وجود الجنة . والحق انه انما ينكر على هؤلاء القصاص الحمقاء التي يبرأ الاسلام منها .

ويشبه هذا أن بشاراً كان ينتظر يوماً الاذن على المهدي والمهدي في مجلس الخلافة وكان مع بشار في الانتظار آخرون وبينهم مولى من موالي المهدي المتملقين اسمه (المعلّى بن طريق) فسأل المعلى عن معنى تفسير قوله تعالى : (وأوحى ربك الى النحل) الى قوله (يخرج من بطونها شراب) — ماهو النحل ؟ وما هو الشراب ؟ فسكت الحاضرون لكن بشاراً لا يهاب أحداً فاجابه : النحل معرف والشراب هو العسل . قال هيهات : النحل بنو هاشم والشراب الذي يخرج من بطونهم هو العلم هو العلم . فلم يطق بشار صبراً فقال له : « جعل الله طعامك وشرابك مما يخرج من بطون بني هاشم » فغضب الرجل وضجّ الحاضرون ، وبلغ الخبر الخليفة المهدي فدعا بهما وأعاد عليه القصة فضحك . والتفت إلى الرجل وقال له حقاً انك بارد غث .

وكان بشار ينشد المهديّ يوماً وفي المجلس خال المهدي يزيد بن منصور

---

(١) نسبة الى (الجلجلوتية) وهي قصيدة نظمها صاحبها لتكون ابتهالية مجيبة في موضوعها وغريب استفتاحها كنت أول من استعمل النسبة اليها (سنة ١٩١١ م) مستهزئاً بالمحرفين الذين يعرضون عن النصوص الصحيحة الى الأوهام وملا يقبله عقل ولم يأت به شرع .

الحيري فلما فرغ بشار أقبل عليه يزيد وسأله (يا شيخ ماصناعتك ؟) قال أثقب اللؤلؤ . فضحك القوم فقال المهدي ويلك أتتنادر(١) على خالي ؟ قال وما أصنع يا أمير المؤمنين ! يراني شيخاً أعمى أنشد الخليفة شعراً فما عسى تكون صنعتي سوى الشعر .

فتباوة هؤ . الأغبياء جعلت بشاراً وغيره يتفلت بكلمات حسبوها عليه زندقة . ورب زندقة أنتجتها مخرقة .

فصاحته وتمكنه من اللغة العربية

قال الجاحظ في (البيان والتبيين) « بشار من المطبوعين أصحاب الابداع والاختراع المتقنين في الشعر الآخذين في أكثر اجناسه وضروبه » . وقال نجم ابن النطاح « عهدي بالبصرة وليس فيها غزل ولا غزلة الا وهو يروي من شعر بشار . ولا نائح ولا نائحة ولا مغنية الا تتكسب بشعره . ولا ذو شرف الا وهو يهابه ويخاف معرة لسانه » . وقال المبارك لبشار

(١) كل مافي كتب اللغة في تفسير فعل (تنادر) أن يكون بمعنى زارنا في الندرة أي أحيانا ولم يذكروه بمعنى السخرية والتهكم واستعملها الخليفة المهدي في خطابه لبشار وهو مما رواه صاحب الاغاني في ترجمة بشار وكأن الشرتوني قرأها في الأغاني فاثبتها في معجمه وقال تنادر علينا حدثنا بالنوادر فجعل قول المهدي لبشار من قبل الحديث بالنوادر وليس كذلك وانما هو بمعنى السخرية والتهكم والاستهزاء وجاء فعل تنادر بهذا المعنى ايضاً في كتاب (المكافأة) : وتابع أحمد ابن طولون ان بعض الناس يسخر به في مجالسه فهدده قائلاً (يلغني أنك تتنادر بي) فالتنادر بهذا المعنى كلمة غير قاموسية ومثلها (تندّر) و (ندّر) وذكر دوزي في معجمه الذي جمع فيه غير القاموسيات من الكلمات الدخلية فعل (ندّر) واستشهد له بقول بعضهم : (فندّر في مجلس النفر على حفر) وبقول الآخر (كان التندير والهزل قد غلب عليه) والحاصل أن التنادر بمعنى التهكم استعملها البلغاء ولم يدونها في المعاجم وقد كنت استثنيت زملائي اعضاء المجمع العلمي في تجويز استعمال ما كان من هذا القبيل من كلمات اللغة والاعتداد بصحته وفصاحته فاجمعوا على تجويزه (راجع مجلة المجمع مجلد ٨ ص ٢٩ و مجلد ١٢ ص ٥٢١ و ص ٥٧٧) .

« ليس لأحد من شعراء العرب شعر إلا وفيه المستكره والمتكوك فيه من الألفاظ سوى شعرك » قال : ومن أين يأتيني الخطأ وقد نشأت في حجور ثمانين شيخاً من فصحاء بني عقيل . وان دخلت الى نسائهم فنساؤهم أفصح . ثم أيفعت فأبديت (أي دخلت البادية) الى أن أدركت . فمن أين يأتيني الخطأ ؟

قال بعضهم : سألت أبا عبيدة عن السبب الذي من أجله شدد المهدي في نهي بشار عن شعر الغزل والنسيب قال : كان أول ذلك افتتان نساء البصرة وشبانها بشعره حتى قال القاضي سوّار ومالك ابن دينار : ماشيء أدعى لأهل البصرة الى الفسق من أشعار هذا الأعمى .

وكان واصل بن عطاء يقول : ان من أخدع حبائل الشيطان وأغواها كلمات هذا الأعمى الملحد . فلما كثر ذلك وانتهى خبره الى المهدي من عدة جهات نهاه المهدي عن الغزل والتشبيب . وكان المهدي شديد الغيرة . قال : فقلت لأبي عبيدة : ولكن ما أحسب أن شعر بشار أبلغ في التشبيب والغزل من شعر عشاق العرب : (عروة بن حزام) و (مجنون ليلى) و (كُثَيِّر عَزَّة) و (جميل بثينة) — قال : ليس كل من يسمع أشعار هؤلاء يفهم المراد منها . أما بشار فيقارب النساء . حتى لا يخفى عليهن ما يقول في شعره . وأيُّ حرَّة حَصَان تسمع قول بشار ولا يؤثر في قلبها ؛ فكيف بالمرأة الغَزِلة ، والفتاة الطُلَعة ! ثم أنشده أبو عبيدة قصيدة بشار التي قال فيها :

(قولي لها بَقَّةُ لها ظُفُرُ إن كان في البقّ مالها ظُفُرُ)

أما تمكن بشار من العربية فذكروا له شواهد (منها أنه كان له صديق اسمه (دَيْسَم العنزي) فبلغ بشاراً أن دَيْسماً هذا يروي شعراً لخصوم بشار في هجوه فغضب وقال :

(أدَيْسمُ يا ابن الذئب من نجل زارعٍ أتروي هجائي سادراً غيرَ مُقْصر)

سئل أبو زيد الانصاري عن معنى هذا البيت ؟ فسألهم ولمن هو ؟ قال

لبشار . قال : قاتله الله ما أعلمه بكلام العرب ! ثم فسّره لهم فقال (دَيسم) اسم الرجل صديق بشار وهو في أصل اللغة اسم لولد الذئب من الكلبة . كما ان (العِسبار) ولد الضبع من الذئب . و (السِيع) ولد الذئب من الضبع . فقول بشار لصاحبه (أديسمُ يابن الذئب من نجل زارع) هو بمنزلة قوله له : اسمك دَيسم وليس الديسم سوى ولد الذئب من الكلبة ، فأبوك ذئب وأمك كلبة . وقوله من نجل زارع . أي من نجل الكلاب ، والعرب تسمي الكلاب (أولاد[1] زارع) لماذا ؟ لأنهم يلقون أقذارهم في الطرقات ويزرعونها هنا وهناك .

ومن الشواهد على دقة نظر بشار في الشعر وشدة نقده له انه لما أنشد مناظره في الشهوة الشعرية : مروان بن أبي حفصة قوله :

(واذا قلتُ لها جودي لنا خَرَجَتْ بالصمت عن لا ونعم

قال له مروان : (هلاّ قلت « خَرَسَتْ بالصمت » مكان خرجت بالصمت فقال له بشار (إذن أنا في عقلك !! فَضّ الله فاك !! أأتطيّر على من أحب بالخرَس) ؟؟

وكان بشار يجذب قلوب الناس اليه : فكانوا يترددون الى مجلسه لمشاهدة خلقته وسماع شعره وحسن نادرته . فكان في كل أمره معجباً . وكان النساء المتظرّفات يدخلن عليه في الاسبوع مرتين فيجتمعن عنده ويسمعن من شعره ويطارحنه النوادر . قالت له إحداهن مرة (أيّ رجل

(١) ومنه ماقيل فيمن عضه كلب كلب :

(أبالك أدراصاً وأولاد زارع وتلك لعمري نهية المتعجب)

أبالك أي جعلك الكلاب تبول ادراصا جمع درص وهو ولد الفار ونحوه وهذا من خرافاتهم ويروى (اولاد وازع) واوارع الحارس لأن الكلب يزع الذئاب عن الغنم ويروى (اولاد ذارع) بالذال مشتق من الذرع مصدر ذرع الشيء اذا قاسه لأن الكلاب تذرع الشوارع وتمرغ فيها جيئة وذهوبا كأنها تقيسها .

(كأنما هو في حل ومرتحل من كل بيضاء الأرض يذرعه)

أنت لو كنت أسود اللحية والرأس) قال : (لو علمتِ أن بيضَ البُزاة أثمن من سود الغربان) قالت (أما قولك فحسنٌ في السمع ، ومن لك بان يحسُن شيبك في العين كما حسُن قولك في السمع ؟) فكان بشار يعيد قولها ويتعجب من حسنه ، ويقول انه لم يفحمه غيرها .

كثرة شعره

قلنا ان بشاراً نظم الشعر وهو ابن عشر سنين ثم عاش زهاء الثمانين سنة . فكم نظم في مدة السبعين أو الستين من القصائد والمقطّعات ؟ افتخر مرة بان له اثني عشر الف بيت جيد . فاستبعدوا ذلك واستكثروه . فقال اني نظمت اثنتي عشر الف قصيدة . ألا يوجد في كل قصيدة منها بيت جيد ؟ فهو ولا ريب من أكثر الشعراء شعراً . لكن لم يبق من شعره سوى القصائد النَزْرة ، والقطع المتفرقة ، في ثنايا كتب الأدب ومجاميع الشعر . وقال مؤرخو أدب العرب أنه ليس لبشار ديوان مجموع وعللوا ضياع شعره بما تضمنه من السب والقذع والطعن في الأعراض ، وأوصاف النساء والأقوال الغزلة التي تفسد نفوسهن ، وتحبب اليهن الرذيلة . مما حمل صلحاء عصره وخاصة الحسن البصري ومالك بن دينار وواصل بن عطاء على التشنيع عليه وشكوه المرة بعد المرة الى الخليفة المهدي ووزيره (يعقوب بن داود) فصدر أمر الخليفة بنهيه عن ذكر النساء والشعر الغزل المفسد للأخلاق والضار بالآداب العمومية كما تقول في اصطلاحات هذه الأيام . وربما صادرت الشرطة الأوراق والدفاتر التي فيها شعره من أيدي الناس ومنعت المغنون في المحافل العامة والأسواق عن التغني بشعره كما يفعل ولاة الأمور اليوم في مصادرة الكتب البذيئة والرسوم المكشوفة .

ومما ساعد على ضياع شعره أن بشاراً في آرائه السياسية لم يكن موالياً للدولة الجديدة الناهضة أعني الدولة العباسية حتى أدى الأمر الى قتله كما سيجيء . فلم يكن أحد من الورّاقين والنسّاخين يجرأ على جمع شعره

في ديوان . هذا ما قاله مؤرخو الآداب العربية في سبب اضمحلال أشعار بشار .

أما ما يعلمه مجمعنا العلمي من هذا القبيل فهو أن السيد منيب الناطور أحد أدباء بيروت كان سعى منذ بضعة عشر سنة في جمع ديوان لبشار . وكان يلتقط أشعاره ويبحث عنها في مختلف الأقطار حتى انه استنجد برصيفنا الاستاذ (اسكندر المعلوف) فاستنسخ له طائفة من شعر بشار وقصائده من بلاد الروسية . ثم لم نعلم أيّ مانع منع السيد منيب من انجاز طبع تلك الأشعار ونشرها . مالنا ولهذا فان لدى المجمع العلمي من خبر بشار ما هو أقرب وأطرب : ذلك أن صديق المجمع الأبرّ (أحمد تيمور باشا) كتب إلى المجمع أن المؤرخ التونسي الشهير وأحد أعضاء مجمعنا (الاستاذ حسن حسني عبد الوهاب) قد عثر في تونس في مكتبة سيدي طاهر ابن عاشور على ديوان بشار ، وانهم شارعون في طبعه . لكن لاندري ان كان هذا الديوان قد جمع في القرون الأولى . أو مما جمعوه المتأخرون من أشعار بشار المبعثرة في كتب الأدب على نمط ما فعله (السيدمنيب الناطور) .

عيون أشعار بشار

لايُذكر بشار إلا ويُذكر معه على الفور بيته المشهور :

كأن مُثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

وموضع النكتة في هذا البيت أن قائله قد عمي في بطن أمه لكنه هتدى من حسن التشبيه في هذا البيت الى ما لم يهتد اليه البصراء .

ومن مشهور قوله في المديح :

لستُ بكفي كفّه ابتغي الغنى ولم أدر أن الجود من كفّه يعدي

فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى أفدتُ وأعداني فأفنيتُ ماعندي

وقوله :

إذا دهمتك عظام الأمور فنبّه لها عمراً ثم نم

وقوله :

يا واحد العرب الذي أمسى وليس له نظير

لو كان مثلك آخراً ما كان في الدنيا فقير

وقوله في خالد بن برمك جد البرامكة :

أخالد ان الحمد يبقى لأهله جمالاً. ولا تبقى الكنوز على الكدّ

فأطعم وكل من عارةٍ مستردةٍ ولا تبقها : ان العواريّ للردّ

وقد أعجب خالد بهذين البيتين حتى أمر بأن يكتبا ويعلقا في صدر مجلسه ، كما نفعل اليوم من تعليق الأشعار على جدران بيوتنا . وقال ابنه يحيى البرمكي : آخر ما أوصاني به أبي العمل بهذين البيتين . إذن الشهرة العظيمة التي نالها البرامكة في الكرم والجود كان لبشار وشعره يد فيها ، ومن مشهور قوله في الفخر :

إذا الملك الجبار صعّر خده مشينا اليه بالسيوف نعاتبه

وأشهر من هذا قوله :

إذا ماغضبنا غضبةً مضرية هتكنا حجاب الشمس أوقطرت دما

إذا ما أعرنا سيداً من قبيلةٍ ذرى منبرٍ صلى علينا وسلما

وقال له بعض أصدقائه يوماً : يا أبا معاذ بينا تقول مثل هذا الشعر الذي يخلع القلوب نسمعك تعود فتقول :

ربابةُ ربةُ البيت تصبُّ الخلَّ في الزيت

لها عشر دجاجات وديك حسن الصوت

فما هذا التفاوت في شعرك يابشار ؟ فأجابه : لكلِّ وجهٌ وموضع ياأخي : فان قولي (إذا ماغضبنا غضبة مضرية) في موضع جد . وقولي (ربابة ربة البيت الخ) قصدت به الهزل مع جاريتي ربابة : أنا لاآكل البيض من

السوق ، فامدح ربابة لتعتني بالدجاجات وآكل بيضاً طرياً . والشعر الذي قلته في ربابة هو في نفسها أبلغ من (قفا نبك) في نفسك .

وما اعتذر به بشار عن نفسه يُعتذر به عن كثيرين من فحول الشعراء الذين يُعزى اليهم شيء من الشعر الساقط : فانهم قد يكونون قالوه لمناسبة مثل مناسبة ربابة .

ومن قوله في الفخر أيضاً :

يريدون مسعاتي ودون لقائها قناديل أبواب السماوات تزهرُ

وقد سمّى في هذا الشعر نجومَ السماء بالقناديل .

ومن مشهور شعره في الغزل والنسيب البيت الذي حَكَمَ مؤرخو آدابنا العربية أنه أغزل شعر قاله المحدثون وهو :

أنا والله أشتهي سحر عينيك وأخشى مصارع العشاق

ومن أغزاله :

يا قوم أذني لبعض الحي عاشقة والأذن كعشق قبل العين أحيانا

وقوله :

هل تعلمين وراء الحب منزلةً تُدني اليك : فان الحب أقصاني

وقوله :

لم يطل ليلي ولكن لم أنم ونفى عني الكرى طيف ألم
رفهي يا عبدُ عني واعلمي انني يا عبدُ من لحم ودمْ

(عبدُ) مرخم (عبدةُ) وهي امرأة كان بشار يتغزل بها . ويغلطون فينسبون هذه الأبيات الى عنترة العبسي ويجعلون مكان يا عبد يا عبلُ .

وقوله :

إذا قامت لحاجتها تثنت كأن عظامها من خيزران

وقوله :

حوراء إن نظرت اليـ ـكَ سقتك بالعينين خمرا

وكأنَّ رَجعَ حديثها قِطَعُ الرياض كسين زهرا
وكأن تحت لسانها هاروت ينفث فيه سحرا

وقوله :

وما كلمتني دارُها إذ سألتها وفي كبدي كالنفط شبت به النار

النفط كاز البترول وقد ضربه مثلاً لشدة الاحراق .

واستأذن على المهدي فأذن له بشرط أن لاينشده غزلاً فدخل وأنشد :

يامنظراً حسناً رأيتُه من وجه جارية فديته
بعثتْ اليّ تسومني بُردَ الشباب وقد طويته
ويشوقني بيتُ الحبيـ ـب اذا ذكرت وأين بيته
حال الخليفةُ دونه فصبرت عنه وما ملبته
ونهانيَ الملك الهما م عن النساء وما عصيته
إن الخليفة قد أبى وإذا أبى شيئاً أبيته

هذا مبلغ شعر بشار من التخنث والغنج في حال توبته . فكيف يكون مبلغه في حال لهوه وخلوته . ولا جرم أنه يحق للمهدي أن يقطع من اصلاحه الأمل . ثم يطرّحه ويتربّص به العلل . وقد فعل .

بشار في زمنه كان كجريدة حيّة من جرائد هذه الأيام لكنها خصّصت صفحتها الأولى للغزل والتشبيب وذكر النساء . وصفحتها الثانية للهجو والقذع والنيل من الأعراض . وصفحتها الثالثة للفخر والتمجد والمطاولة[1] . أما صفحتها الرابعة وهي صفحة الاعلانات فقد خصها بذكر شيء من الحِكَم والمواعظ والأمثال : من ذلك أبياته البليغة في الحض على الاستشارة التي يقول في أولها :

إذا بلغ الرأيُ المشورةَ فاستعن برأي نصيحٍ أو نصاحة حازم

(١) المطاولة مصدر طاوله اي فاخره في الطول (بفتح الطاء) اي الفضل ويكون طاوله ايضاً بمعنى المباراة في طول القامة .

وقد بلغت هذه الأبيات من الشهرة مبلغاً أصبح إنشادها معه مما يبعث على الملل والضجر . وقد رُزقت هذه القطعة حظّها من الشهرة وإعجاب الناس بها في كل زمان حتى في زمن بشار نفسه . قال الأصمعي قلت لبشار إن الناس يعجبون من أبياتك في المشورة ، فاجابه بهذا الجواب البديع : « يا أبا سعيد ان المشاور بين أمرين : بين صواب يفوز بثمرته ، أو خطأ يشاركك في مكروهه » قال الاصمعي فقلت « أنت والله في قولك هذا أشعر منك في شعرك » .

ومن الحكم قوله :

إذا كنت في كل الأمور معاتباً صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه
إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه

ومنها قوله :

وخلّ الهوينا للضعيف ولا تكن نؤوما : فان الحزم ليس بنائم
وحارب إذا لم تُعطَ إلا ظُلامةً شبا السيف خير من قبول المظالم

ومنها قوله :

إن الكريم ليخفي عنك عسرته حتى تراه غنياً وهو مجهود
بُثّ النوال ولا تمنعك قلّته فكل ما سدّ فقراً فهو محمود

ومنها قوله :

خليليّ إن المال ليس بنافعٍ إذا لم ينل منه أخٌ وصديق
وكنت إذا ضاقت عليّ محلة تيممت أخرى ما عليّ تضيق
وما خاب بين الله والناس عامل له في التقى أو في المحامد سوق
ولا خاب فضل الله عن متعفف ولكن أخلاق الرجال تضيق
وما كنتُ إلا كالزمان : فان صحا صحوتُ وإن ماق الزمان أموق

(ماق) يعني (حمق) .

ومن أمثاله :

أعمى يقود بصيراً لا أبا لكمو قد ضلّ من كانت العميان تهديه

ومنها :

وكان كالعير : غدا طالباً قرناً فلم يرجع بأذنين

ومنها

يسقطُ الطير حيثُ يلتقط الحـبّ وتغشى منازل الكرماء

ومن مبالغاته الشعرية :

في حُلّتَي جسمٌ فتىً ناحل لو هبّت الريح به طـاحا

يقول ان الريح لو هبت عليه حملته والقت به إلى بعيد وذلك لنحول جسمه . فقال له أحد أصدقائه « يا ابن الفاعلة أتقول هذا وأنت كالفيل عرضك أثقل من طولك ! ! » وقد مر في صفة بشار أنه كان ضخم الجثة طويلاً . ومن شعره قوله في العذّال :

مادا عليهم ومالهم خَرسوا لو أنهم في عيوبهم نظروا
أعشق وحدي ويؤخذون به كالتُرك تغزو فتؤخذ الخزر

يقول انه هو يعشق وعذاله ينغصون عيشهم ويضرون أنفسهم كالترك يعيثون فساداً في الأرض ولا يقدر أحد عليهم ولكن يقبض على جيرانهم الخزّر المساكين ويعاقبون .

ماقاله النقاد في نقد شعر بشار

شاعر مثل بشار نظم (١٢) الف قصيدة لايمكن أن تكون كلها في مستوى واحد من الجودة والحسن — وهذا المتنبي وأبو تمام والبحتري لا يخلو شعرهم من الساقط الرذل ، والمعنى الفَسل[1]. وكان اسحق الموصلي يُزري ببشار ولا يعتد بشعره . ويقول هو كثير التخليط ، وان أشعاره مختلفة لايشبه بعضها بعضاً . أليس هو القائل :

إنما عَظمُ سلمى حبّتي قصب السكّر لا عظم الجمل

(١) (الفسل) بفتح فسكون كل مسترذل رديء فهو فسل عند العرب .

وإذا أدنيتَ منها بصلاً غلبَ المسكَ على ريح البصل

قال اسحق ولو قال بشار كل شعر جيد ثم أضيف الى هذا الشعر لزينته . وتعلمون أن اسحق من ندماء الخلافة وجلسائها . ولا يمكن ان نقول في عدوّها غير هذا . والا فلعل السبب في انحطاط هذين البيتين أنه قالهما في سبب منحط كالبيتين اللذين قالهما في جاريته (ربابة) : (ربابة ربة البيت الخ)

ومن قول بشار :

من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

انتقدوا هذا البيت بانه لم يبلغ في الحسن بيت (سَلْم الخاسر) وكان سلم أخذ هذا المعنى وسبكه في قالب من الشعر أبلغ من قول بشار حيث قال :

من راقب الناس مات غماً وفاز باللذّة الجسور

ولما سمع بشار هذا البيت غضب على سلم (وكان سلم يتردد عليه ويأخذ عنه) وذلك لأن بشاراً علم أن بيت سلم يسهل حفظه فيعلق بالأذهان ويميت بيته . وما زال بشار ناقماً على سلم واجداً عليه حتى تدخل أصدقاؤهما فأصلحوا بينهما .

ومن شعر بشار قوله يهدد الخليفة المنصور العباسي في القصيدة الميمية المشهورة :

ومروانُ قدادرت على رأسه الرحى وكان لما أجرمتَ نزرَ الجرائم

يقول للمنصور لا تكن جباراً ، فان مروان الحمار (آخر ملوك بني أمية) هلك وجرائمه بالنسبة الى جرائمك قليلة . قال نقاد شعره إن بشاراً قصّر جداً في سبك هذا المعنى والنابغة الجعدي أبرّ عليه في سبكه . وأحسن كل الاحسان مذ قال :

كليبٌ لعمري كان أكثر ناصراً وأيسرَ جرماً منك ضرّج بالدم

وبينا كان صلحاء الأمة (الحسن البصري وواصل بن عطاء ومالك بن دينار) يطاردون بشاراً وينكرون عليه الزندقة والخلاعة ، كان أئمة

النحاة (الأخفش وسيبويه ويونس) يناقشونه الحساب على أغلاطه اللغوية . وهي في الحق قليلة جداً : من ذلك[1] قوله في صفة السفينة .

تلاعب نينان البحار وربما رأيتَ نفوس القوم من جريها تجري

يقول : إن حيتان البحر كانت تلاعب السفينة وتجمشها[2] وهي تسير في عباب اليم . فعاب عليه سيبويه كلمة (النينان) جمع نون وهو الحوت وقال ان (النون) بمعنى الحوت لا يجمع على (نينان) وانما على (أنوان) فكبر الأمر على بشار ، وتهدد سيبويه بالهجو ، فخاف سيبويه وقيل انه بكى ، ودخل القوم بينهم فارضوا بشاراً . وصار سيبويه من يومئذ يستشهد بشعره في دروسه النحوية ، تطييباً لقلبه واستكفاءً لشره . فرضي بشار ولكنه مع هذا غير الكلمة فقال (تلاعب تيّار البحار) بدل (تلاعب نينان البحار) لكن كتب اللغة تذكر كلمة نينان في جمع نون : وكأنهم لم يبالوا اعتراض سيبويه وحجتهم في ذلك قول سيدنا علي رضي الله عنه (يعلم سبحانه وتعالى النينان في البحار الغامرات) .

ومما آخذوا بشاراً به أيضاً قوله (غنني للغريض يا ابن قنان !) فقالوا له من هذا : (ابن قنان) ؟ لانعرفه في المغنين . فقال لهم وما عليكم منه ؟ ألكم عليه دين أو ثأر تطالبونه به) ؟ قالوا لا وانما نريد أن نعرفه قال (هو رجل يغني لي ولا يخرج من بيتي) فقالوا الى متى يبقى في البيت ؟ قال الى أن يموت ، وماذا يهمكم !

فنقاد شعره ذهبوا إلى أنه لا يوجد في الدنيا مغنٍ اسمه (ابن قنان) وانما اخترعه بشار تلبية للقافية . ومثل ذلك ماروي عن بشار أنه قال : — وكان قد مات له حمار — رأيت حماري البارحة في المنام فقلت له ويلك

---

(١) راجع الموشح ص ٢٤٦ في الكلام على مآخذ العلماء لشعر بشار كثيراً من امثال ما ذكرنا وغيره من اخباره .

(٢) تجمشها اي تنازلها منازلة الرجال النساء .

مالك متّ ؟ قال نعم : مررتَ بي يوم كذا وكذا على باب (الأصفهاني) فرأيت ثمة آتاناً عشقتها فمتُّ . فقلتُ له وهل قلتَ فيها شعراً ؟ قال نعم وأنشدني :

سيدي خذ لي آتاناً عند باب الأصفهاني
تيّمتني يوم رحنا بثناياها الحسان
وبغنج ودلال سلّ جسمي وبراني
ولها خدٌّ أسيل مثلُ لون الشيقران
فبها متُّ ولو عشـ تُ اذاً طال هواني

فقال رجل من القوم يا أبا مُعاذ (وما الشيقران ؟) قال هي كلمة غريبة في لغة الحمير فاذا لقيتم حماراً فاسألوه عنها .

وهكذا كان لكل سؤال يوجه الى بشار جواب حاضر عنده . ونادرة مهيئة لديه . لكنه تورّط يوماً مع أحد رجال الصناعة والفن وهو (حمدان الخرّاط) وكان حمدان مصوّراً حاذقاً في التصوير والنقش والصياغة والنحت ، كلفه بشار أن يصنع له جاماً فيه صور طيور ففعل وجاءه به (والجامُ في لغة الترك الزجاج . وفي لغة الفرس القدَح . وعند العرب هو الكأس من فضة) فقال له بشار ماهي الصور التي على الجام قال صور طيور تطير ، قال كان ينبغي أن تصور فوقها طائراً من الجوارح ينقض عليها . قال انك لم تقل لي ذلك . قال بلى ولكنك ظننت أني أعمى لا أراها . ثم تهدده بالهجاء . وهنا وقف (الشعر) أمام (التصوير) ووقف الفن ازاء الفن وجهاً لوجه . وكان حمدان الفنان سوداويّ الطبع كأغلب المتخصصين . فقال لبشار إن هجوتني ندمت ، قال أي شيء تقدر أن تصنع بي . قال أصورك عريان ووراءك قرد ... وأعرضك مع الصور الاخرى على باب داري . فالتفت بشار الى القوم وقال : أمزح معه وهو يأبى إلا الجد . وهكذا غلب التصوير الشعر ، لأن الشعر يريك الشيء خيالاً أما التصوير فيريكه

عياناً . ففي زمن العباسيين إذن كان المصورون يعرضون الصور على أبوابهم ومنها التصوير المضحك (Caricature) .

البطش ببشار

مر معنا في مطاوي الكلام السابق أن الخليفة (المهدي) لم يكن راضياً عن بشار ولا هو بالحسَن الاعتقاد فيه وكان أحياناً يقبله في مجلسه ويسمع مديحه . لكنه ما كان يجيزه الجوائز التي يطمع فيها بشار . وقد ورث المهدي الكرهَ لبشار من أبيه المنصور ، فان بشاراً كان مناوئاً للدولة العباسية من حين ظهورها وموالياً للعلويين من آل البيت وكان القائم من آل البيت يومئذ (ابراهيم بن عبدالله بن الحسن السبط) فانحاز بشار الى ابراهيم ومدحه بقصيدته الميمية المشهورة التي خاطب في مطلعها المنصور العباسي وقال :

أبا جعفرٍ ما طول عيش بدائم ولا سالمٌ عمـا قليلٍ بسالم

فلما ظفر المنصور بابراهيم العلوي وقتله خاف بشار على نفسه وحول القصيدة إلى مدح المنصور وجعل الخطاب الأول في (أبي مسلم الخراساني عدوّ المنصور فقال :

أبا مسلم ما طول عيش بدائم ولا سالم عمـا قليل بسالم

لكن هذا التلاعب ان قبله المنصور في الظاهر لم يقبله في الباطن ولاسيما الدلائل الكثيرة التي كانت تدل على أن بشاراً مقيم على ولائه لآل البيت . فلما تولى (المهدي) الخلافة أراد بشار التقرب اليه فاجتهد كثيرا فلم يفلح . ثم استهتر بشار في هجاء الناس والتعرض للحرَم . فكانوا يسعون فيه إلى (المهدي) ويزيّنون له البطش به ، وانه مادام حياً فهو آفة على أخلاق الشبان والشابات . وليس هذا فقط بل كانوا ينقلون إليه أخباراً

من كفره وزندقته . من ذلك أنه فضّل ابليس على آدم بتفضيله النار على التراب مذ قال :

الأرض مظلمةٌ والنار مشرقة والنار معبودة مذ كانت النار

كان يبلغ الخليفة كل ذلك فكان يُعرض عنه ويصبر عليه ثم لما يئس بشار من الخليفة تعرّض له بالهجو ثم تعرّض لوزيره (يعقوب بن داود) على مبدئه الذي كان لقنه أباه (ليس على الأعمى حرج) . وكان يعقوبَ على مذهب سيده في اطراح بشار والنفرة منه . حتى قال بشار في الوزير يثبه المشهورين :

بني أميةَ هبوا طال نومكموا إن الخليفةَ يعقوب بن داوود
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا خليفـة الله بين الزق والعود

وقد حقق المؤرخون أن المهدي من أطهر ملوك بني العباس نفساً وأحسنهم سيرة . وخاف الوزير يعقوب أن يكثر بشار من هذا الشعر ويكرر الضرب على هذه النغمة فبادر الى الخليفة وأخبره بهجو بشار له أي للمهدي نفسه . وانه قال فيه قولاً لا يمكن النطق به . وأخيراً ألح عليه الخليفـــه . فاسمعه البيتين :

خليفـة يُرمى . . . ويلعب الدبّوق والصولجان الخ

فكاد ينشق الخليفة غيظاً . لكنه مع هذا كظم غيظه ، واحترم حرية القول (كما نقول في اصطلاح عصرنا الحاضر) . ثم اتفق للخليفة أن انحدر في دجلة فلما بلغ البطيحة سمع أذاناً وقت الضُحى فسأل ما الخبر ؟ قيل له (بشار يؤذن وهو سكران) فأمر باحضاره فأحضر إلى ظهر (الحرّاقة[1]) وأمر بجلده فجلد سبعين سوطاً . وكان كلما ضُرب سوطاً قال (حسِّ حسِّ) وهي كلة تقال عند لذع الوجع وحرق النار . فقال بعض الحاضرين أنظر يا أمير المؤمنين يقول (حسِّ حسِّ) ولا يقول

(١) الحرّاقة ضرب من ضروب سفن دجلة .

(باسم الله) فقال له بشار (ويلك أأكلة ثريد هي حتى أقول باسم الله !) فقال آخر (ولماذا لا يقول الحمد لله ؟؟) قال (أونعمة هي حتى أحمد الله عليها ؟) . ثم بعد الضرب تركوه في البطيحة مغمىً عليه وهو الى الموت أقرب منه الى الحياة . فجاء أهله وحملوه الى البصرة . فلما علم أهلها خبره لم يبق شريف منهم إلا بعث اليه بالفرش والكسوة والهدايا . لكن لما مات ونعاه الناعون تباشر عامتهم ، وهنأ بعضهم بعضاً بموته . وحمدوا الله ، وتصدقوا كل ذلك لما منوا به من شره ، وأذى لسانه . ولما خرجوا في جنازته لم يتبعها أحد سوى أمةٍ لبشار سوداء سندية عجماء . فكانت تصيح وراءه (واسيداه واسيداه)

ولم يكن هم للخليفة بعد موت بشار الا تفتيش منزله والبحث في أوراقه فوجدوا طوماراً فيه ما يأتي :

« بسم الله الرحمن الرحيم . اني أردت هجاء آل سليمان بن علي لبخلهم . فذكرت قرابتهم من رسول الله فامسكت عنهم إجلالاً له ﷺ » .

ولما قرأ الخليفة قوله بكى وندم على قتله . وقال لا جزى الله يعقوب ابن داود (يعني وزيره) خيراً فانه لما هجاه لفق عندي شهوداً على انه زنديق فقتلته .

لكن إن برأنا بشار من الزندقة بناءً على هذه الرواية . فلا يمكن أن نبريه من تهمة القذع والفحش والسباب . وان قلنا أن أعداءه وضعوا على لسانه البيت والبيتين فيبعد أن يضعوا على لسانه القصائد الطويلة التي شحنت بها كتب الأدب . وقد تضمنت من صفات النساء ، وأخبار الفسق والفساق ما يفسد كل أمه فشا فيها مثل هذا القول . وليس هذا فقط بل كان بشار أحياناً يذبح بين الشبان والشابات من شعره قواعد عامة يعلمهم فيها الخنا والفجور . من ذلك البيتان[1] المشهوران اللذان بلغا المهدي وكانا هما فيما زعموا السبب الحقيقي في قتله .

(١) اولها لا يؤيسنك من مخدرة قوله الخ .

ذكرنا هذا لكم أيها السادة لتعلموا أن المهدي لم يقدم على ما أقدم عليه من قتل بشار إلا وهو على بينة من أمره واستحقاقه للقتل .

منزلة بشار بين الشعراء

تبين لنا مما رويناه من شعر بشار وشهادة علماء الأدب فيه ان الرجل كان متمكناً من اللغة العربية : فكان لايستعمل في شعره من ألفاظها وتراكيبها سوى الصحيح الفصيح .

هذا شعره من حيث الديباجة اللفظية . أما شعره من حيث المعاني ، فهو كما قال أبو عبيدة : يقارب سامعيه حتى لايخفى عليهم ما يقوله في شعره : يتناول المعنى البعيد فيختار له من الأساليب السهل العذب . ومن الألفاظ اللؤلؤ الرطب ، ولذلك راج شعره بين العامة والنساء ، كما كانت تستجيده طائفة الادباء والنبلاء . وهذه هي البلاغة كما عرّفها بعضهم . وكان بشار ينوّع شعره ويتدرج فيه : فاذا داعب خادم بيته أسفّ الى حضيض الابتذال ثم قال :

ربابة ربة البيت تصب الخل في الزيت

وإذا خاطب الملأ من ذوي الكبر والجبروت حلق في سماء الخيال ثم قال :

إذا الملك الجبار صعّر خده مشينا اليه بالسيوف نعاتبه

وهذه مزية من مزايا شعره فاق بها رصفاءه المعاصرين ، وأخذ راية الشعر دونهم باليمين .

أما إذا أريد المقارنة بين بشار وبين من تقدمه وتأخر عنه من شعراء العرب فيقال فيهم بوجه عام : ان شاعر كل وقت انما يصوغ شعره من قلوب أهل زمانه ، ويخت معانيه من عقليتهم . ويقتبس مواضيع شعره من أحوال اجتماعهم . فدرجة شاعريته ارتقاءً وانحطاطاً تابعة لحالة أهل زمنه ارتقاءً وانحطاطاً : وانما نقول هذا في نوابغ شعراء كل زمان لا في الشعاريد والمتشاعرين ، فطبقة جرير ثم طبقة بشار ثم طبقة المتنبي — وان سماهم

علماء اللغة والأدب مولدين ومحدثين — لم يريدوا الحط منهم وانما أرادوا تحديد صلاحيتهم الاستشهاد بقولهم في المسائل اللغوية . أما من حيث الشاعرية واتساع الخيال في المعاني ، والتفنن في الأساليب والمباني ، فلا ريب أن طبقة المتنبي وان تأخرت في الزمن متقدمة على طبقة بشار . وطبقة بشار متقدمة على طبقة جرير . وطبقة جرير متقدمة على طبقة امرئ القيس — تبعاً لترتيب طبقات أزمنتهم في الحضارة والعلم واتساع الفكر وتأثير فنون الصناعة ومناحي الترف . اعتبر ذلك في قول ابن الرومي الذي سمع قول ابن المعتز الخليفة يصف الهلال فوقه سحابة سوداء .

وكأنما هو زورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر

فقال (ويلاه ومن أين في ماعون بيتي مثل هذا الزورق حتى أشبه الهلال به) . أشار بذلك إلى أن أدوات الترف والزينة ومظاهر النعيم في البيت توحي الى الشاعر الذي يراها معاني لاتخطر ببال ذاك الذي لايراها .

هذا في شاعرين عاشا في زمن واحد وبلد واحد فكيف بهما إذا تباعد الزمانان واختلفت الحضارتان . ويمكن أن نستنتج من هذا أن شعراء زماننا الحاضر وشعراء العصور المقبلة هم بالطبع أشعر ممن تقدمهم اعتباراً بما ذكرنا ولأن شعرهم انما نحت من عقلية من يخاطبونهم . فلا جرم أن يكون شعرهم أشد تأثيراً في نفوس هؤلاء المخاطبين . ولا يخفى أن مقياس بلاغة الشعر انما هو التأثير .

تاريخ السل والوقاية منه*

سادتي

رغب اليّ رئيس جمعية السل الفاضل أن أكلمكم في موضوع قد اختاره لي وهو السل ولم يختر لي هذا الموضوع عبثاً وهو الذي يعمل مع اخوانه النشاط ليلاً نهاراً على مكافحة هذا الداء الوخيم ودرء خطره عن هذه البلاد المحبوبة بل اختاره بعد أن رأى ضحاياه تعد بالألوف واصاباته بمئات الألوف فرغب في أن تكون المحاضرة الأولى التي تلقى من على هذا المنبر عن هذا الداء الوبيل وقد أحسن حضرة الرئيس عملاً لأن التبشير بالقواعد الصحية أمضى سلاح تكافح به الأمراض وهل من تبشير أوسع نطاقاً من هذا التبشير وقد غص هذا المكان على رحبه عن استيعاب نخبة العلم والفضل؟ فهل يرجو المتكلم أن يجد من المستمعين عدداً أوفر وهل يؤمل في أن يكون لكلامه فائدة أجزل من هذه الفائدة التي إذا رددها كل منكم أمام أنسبائه انتشرت وعمت دمشق وضواحيها لا بل هل يحلم أن تكون رسل مباديه أرفع مقاماً وأعلى شأناً من هؤلاء الرسل الكرام الذين أنجبتهم دمشق فكانوا شامة في جبينها وفخراً لها؟ لا لعمري لقد أحسن حضرة الرئيس اختيار المكان والموضوع ولكنه لم يحسن انتقاء الخطيب. ولعل الحسنتين الأولاوين تمحوان الخطيئة الأخيرة. بعد أن جاءتني دعوة الرئيس لم يسعني سوى النزول عند رغبته وتلبيه طلبه ورغبته لا ترد وطلبه لايصد. ففكرت ملياً في الشق الذي أختاره من هذا الموضوع الرحب الذي لايحيط

(*) محاضرة القاها الدكتور مرشد خاطر بطلب من لجنة مقاومة السل في الحادي عشر من شهر تموز سنة ١٩٢٩.

المرء باطرافه الا بعد كتابة مجلد ضخم عنه وقلت في نفسي ماعساني أتكلم والحضور الكرام أنواع بينهم رؤساء الأديان والأعيان والمحامون والتجار والصحافيون والاطباء والموضوع طبي صرف اذا عالجته معالجة طبية بحتة كانت منه للزملاء الكرام وطلبة الطب النجباء وهم قلائل فائدة كبيرة ولم يجن منه السواد الأعظم من المستمعين، وهم كثر، أقل فائدة وإذا عكست الآية وعالجته معالجة صحية صرفة كانت منه للفئة الثانية الفائدة التي أتوخاها ولم تجن منه الفئة الطبية أقل فائدة فحرت في أمري وعدت أخيراً فقلت ان المساواة اس العدل فالواجب يقضي عليّ أن أرضي مستمعيّ جميعهم فلا أكون طبيباً صرفاً فتنصب عليّ لعنات الفئة الثانية ولا أخرج خروجاً كاملاً عن الطب فيتبرأ مني أبناء أبقراط وأنا منهم ولي كل الفخر في أن أكون منهم وعليه فقد أعددت للزملاء الأفاضل صفحة قديمة عن السل لا يتيسر لهم جمعها وكتابتها إلا بعد مطالعة مؤلفات عدة وتصفح أساطير شتى من مخلفات الأقدمين الأمر الذي لا يسهل على كل طبيب اتمامه وهو في معترك هذه الحياة وتركت للشعب الكريم صفحة من صفحات هذا الداء الوخيم أعني بها صفحة السراية والوقاية ضارباً صفحاً عن البنود الأخرى العديدة التي لايسر بمطالعتها الأطباء فعسى أن أكون قد أحسنت عملاً وأن أرضي كلتا الفئتين وهذا حسبي.

السل هو الداء الفتاك الوبيل، هذا الرشاش البعيد المدى السريع الطلقات الذي يميت الالوف، هو ذلك المنجل الذي تحركه قوة غريبة فيحصد الملايين من اغراس هذه البشرية النضيرة، هو هذه الصخرة الصلدة التي تتكسر عليها أمواج العلم منذ خلق الله العالم ولا تزال تتكسر عليها حتى يومنا، هو مصدر يأس الاطباء وقبلة جدهم واجتهادهم، اذا هبوا من رقادهم فلايجاد سلاح فتاك يكافحونه به أو عادوا الى اسرتهم فللتفكير في دواء فعال يقي البشرية شره، هو ذلك المسيطر العظيم الذي لا تغلب له قوة وذلك الحاكم المستبد الجائر الذي لا يرد له أمر، قامت في وجهه

دول العالم ، وشن عليه علماء الأرض جميعهم الغارة فعادوا خاسئين ، أعلن عليه قديماً الهنود واليونان والعرب الحرب الضروس فلم ينالوا منه بغية وقامت عليه أوربة وأميركة في أيامنا قومة واحدة فكان حظها حظ من تقدمها ، هذا هو المرض الذي سأكلمكم عنه أيها السادة وسأسرد في بدء خطابي نشأته منذ عرف الطب حتى يومنا .

لم نجد للسل في التاريخ الطبي ذكراً الا في سنة الف وثمانمائة ق م. عند الهنود الأقدمين الذين كانوا يعدون المسلول كالمجذوم خطراً على من يساكنه ويجاوره وكانوا يجتنبونه تجنب الأفعى وقد منع البراهمة في ذلك العهد الزوج بالفتيات المتحدرات من سلالة فيها بعض من المسلولين مهما كان ثراؤهن ونبل محتدهن . غير أننا لم نقف على وصف مسهب للسل ذكرت به أعراضه وبعض عراقيله الا في زمن اليونانيين أي منذ ٥٠٠ سنة ق.م. فقد ورد أن اوريفونوس الكنيدي (Euryhon de Cnide) كان يعالج المسلولين بلبن النساء والسكي وكان يظن كالمصريين القدماء أن الأمراض مسببة من الافراط في الغذاء ولعل اوريفونوس هذا مؤلف كتاب « الحكم الكنيدية Maximes Cnidiennes » والحمية النافعة في الأمراض الباطنة » الذي ورد ذكره في قانون ابقراط ولم يعثر على نسخة منه حتى الآن على ما أعلم .

وكان السل مرضاً شائعاً فتاكاً في عهد أبقراط أبِ الطب الذي ولد في جزيرة كوس (Cos) من جزر بحر ايجه (Egée) سنة ٤٦٠ ق.م. ومات في مدينة (لاريسه Larissa) اليونانية وله من العمر تسعون سنة . فكان يقال في أسبابه انه ينجم من النزلة التي تحدر الى الصدر ومن انبثاق الأوردة ومن الخراجات الكائنة في الصدر ومن التهاب الجنب المتقيح الذي انفتح في الرئة ولم يذكر أبقراط شيئاً عن العدوى ولعل السبب في اهماله لهذا الأمر شيوع الاعتقاد بعدواه غير أننا متى عرفنا أن لطب

الهنود أثراً في الطب اليوناني وأن الهنود كانوا يتجنبون المسلول كالمجذوم فهمنا أن العدوى كانت أمراً مسلماً به عند اليونانيين .

أما الوراثة فقد جاء ذكرها جلياً فقد جاء ما نصه « المسلول يولد من المسلول » وان هذا الداء يختار اللنفاويين البيض وانه كثير الشيوع بين السنوات الرابعة عشرة والخامسة والثلاثين من العمر وانه يبدأ بنوافض خفيفة وسعال جاف وناخس في الصدر والظهر وأن السعال يشتد بعدئذ وتبدأ النفلات وتزداد .

وكان يظن ابقراط أن نفث الدم وقياءه سبب المرض وليسا عرضاً له . ثم أن المرض يستفحل والجسم جميعه يهزل أما الساقان فتتورمان وهذا دليل واضح على أن اليونانيين عرفوا الدنف (Cachexie) السلي ووصفوه وأما أظافر القدمين واليدين فتنعقف ثم أن الهزال يزداد في ناحيتي العنق والكتفين ويعود التنفس صفيرياً كما لو نفخ في انبوب وينطفئ الصوت ويشتد الوهن ويتناثر الشعر ويبدو الاسهال ويقف التقشع ويموت المريض .

وانذار السل بحسب أبقراط وخيم جداً غير أنه إذا عولج في بدئه يشفى .

وقد ذكر في قانون ابقراط السلان العظمي والمفصلي ولاسيما ما نسميه اليوم داء بوت فقد جاء فيه ذكر خراجات في الورك والمأنة مرافقة للحدبات الظهرية وورد فيه أيضاً ذكر داء بوت العنقي « في المرضى المصابة رئاتهم بعقيدات قاسية صلبة » وذكر فيه أيضاً خلع المفصل الحرقفي الفخذي مع خراجات وتواسير . ولا عجب فاننا لا نزال نرى حتى اليوم في هذا القرن العشرين الذي بلغ فيه الطب أسمى درجاته بعضاً من المرضى المصابين بالتهاب المفصل الحرقفي الفخذي السلي وقد أهملت معالجتهم فافضى مرضهم إلى الخلع المرضي فلا غرابة إذا ذكر أبقراط في عصره ذلك الخلع المنوسر .

وجاء بعد ابقراط ارسطوطاليس (Aristote) (٣٨٤-٣٢٢ ق.م.) وكان فيلسوفاً وطبيباً في آن واحد فلم يضف إلى ماعرفه ابقراط غير شيء وهو قوله ان السل والطاعون ينتقلان بالهواء وهذا القول الذي نطق به

أحد علماء اليونان منذ نحو من ثلاثة وعشرين قرناً صحيح لا غبار عليه لأن السل والطاعون الرئويين ينتقلان بالهواء والطب الحاضر يثبت هذا .

ولم يمض غير القليل على موت أرسطو حتى ظهر في السنة ٣٣٠ ق.م. ديوكلس « Euhée » Dioclès de Carystie) فجاءنا بشيء مستحدث لم يذكره من تقدموه وهو مكافحته لنفث الدم بصمغ الثيران وهو ما نسميه اليوم الهلام أو الجلاتين .

ان ديوكلس قد أملى هذه الأمثولة على القرون التي تعاقبت بعده ونحن لا نزال نستعمل الهلام شرباً ونلجأ إلى المصل الهلامي حقناً تحت الجلد في مكافحة النزوف غير ذاكرين ذلك العبقري الذي طوته ألوف السنين ولا شاكرين له هذه الهدية الثمينة التي نفح بها الطب وأبناءه .

ونذكر من أطباء الرومان ساليوس أورليانوس (Cœlius Aurelianus) الذي قال عن السل أنه قرحة رئوية مع قيح لا ينضب وكان يصف له الترياق والنوم في أرجوحة والسفر بحراً والقراءة بصوت عال وكان يغذي المسلول بافضل الأطعمة وأجودها كالبيض والأرز والنشا والخمر واللحوم .

وهذا الأمر الأخير أعني به تغذية المسلول والاعتناء بأمر طعامه جديد في ذلك العهد الذي كان يظن به أن الطعام مجلبة الداء وأن المسلول كسواه من المرضى الآخرين يجب عليه أن يقلل الطعام .

ويجيء بعد ساليوس ذلك النابغة الكبير والعبقري العظيم الذي لم تنجب القرون السالفة أوسع منه علماً وأغزر منه معرفة أعني به جالينوس (١٣٠ — ٢٠٠ بعد المسيح) وكان له في تاريخ الطب العربي أكبر أثر لان العرب قد استرشدوا بما تركه هذا النابغة فنقلوا العلوم عن مؤلفاته وأضافوا إليها ونقضوا منها ما يحتاج إلى نقض وأثبتوا ماهو خليق بالاثبات . غير أن جالينوس الذي كان له في التشريع القدح المعلى حتى ان مؤلفاته بقي معمولاً بها زهاء ١٢٠٠ سنة ، جالينوس الذي عني قبل كل احد بعلم الغرائز (الفسيولوجيا) ووضع أسسه الأولى ، جالينوس الذي كان للفلسفة من

نبوغه القسط الأوفر لم يترك شيئاً جديداً عن السل بل اكتفى بأن يدقق في ما تركه السلف ويثبت ما وجده حسناً ويهمل ما رآه بعيداً عن الصواب ولهذا فاذا ذكر اسمه مقروناً بالاجلال ومحفوفاً بالوقار كلما ذكر التشريع وعلم الغرائز والفلسفة فهو قلما يذكر إذا بحث في تاريخ السل .

نصل الآن الى عهد جدودنا القدماء ، إلى أطباء العرب الذين بنوا لنا ذلك المجد الزاهر الذي لا يمحوه كرور الأعوام . انهم قد برزوا في كثير من فروع الطب والجراحة وكانوا معلمي العالم ما لم يقل عن ستة قرون فاذا كان لنا ما نفاخر به فبهم وإذا حق لنا أن نرفع الرأس عالياً متى ذكرت العلوم والفنون فبفضلهم وتفوقهم .

كثيرون هم النابغون بين أطبائنا القدماء الذين يطول بنا المقام إذا أتينا على ذكرهم وأخاف أن ينسب إلي التعصب الجنسي إذا ذكرت منهم من تركوا شيئاً عن السل أو لم يتركوا الا الشيء الطفيف ولهذا أمر بهارون وبختشوع وحنين والرازي الكبير الذي يعود اليه الفضل في وصف الجدري والحصبة وابن زهر وأبي القاسم وابن القف وكثيرين سواهم .

واقف عند الامام الرئيس ابن سينا (٩٨٠ — ١٠٣٦) الذي جاء في قانونه عن السل بكثير من الامور الجديدة فقد ذكر فيه ان « نفث الدم ربما لا يتأخر بل يقع في الابتداء إذا كان السل من الجنس الردي » وهذا الأمر قد أثبته الطب الحاضر فقد يكون نفث الدم العرض الأول الذي يبدو به السل الرئوي دون أن يبدو أي عرض آخر قبله .

وقال أيضاً « وأما قروح الرئة فقد اختلفت الأطباء في أنها تبرأ أو لا تبرأ البتة لان الالتحام يفتقر إلى السكون ولا سكون هناك وجالينوس يخالفهم ويزعم أن الحركة وحدها لا تمنع الالتحام ان لم تضف اليها سائر الموانع والدليل على ذلك أن الحجاب أيضاً متحرك ومع ذلك فقد تبرأ قروحه » اه .

لعمري ان هذه الصفحة الخالدة في تاريخ السل أعني بها حاجة السل الى السكون وامتناع السل الرئوي عن الشفاء لتحرك الرئة حركة مستمرة الا نرى أن المفصل متى سل يثبت ويحكم عليه بالجمود والقسط ؟ ألم نلاحظ أن أفكار الاختصاصيين بالسل قد اتجهت في جميع أقطار العالم الى ايجاد طريقة يثبتون بها الرئة ليقربوا منها الشفاء وان الريح الصدرية أو طريقة فورلانيني وتصنيع الصدر الجراحي ليست غايتها إلا منع الرئة موقتاً عن الحركة فهل أقررنا لذلك النابغة العربي الذي جاءنا منذ نحو من عشرة قرون بالشريعة التي لم يبدلها العلم بل لم يزل جاداً وراء تحقيقها .

وجاء أيضاً في قانونه ما حرفه « وقد يعرض المسلول أن يمتد به السل مهلاً إياه برهة من الزمن وكذلك ربما امتد من الشباب الى الكهولة وقد رأيت امرأة عاشت في السل قريباً من ثلاث وعشرين سنة أو أكثر قليلاً » اهـ .

والبرهة لغة الوقت الطويل لا كما يظن البعض أنها الوقت القصير فيكون إمامنا قد وصف الشكل المزمن من السل الأمر الذي لم يصرح به أحد قبله .

وقد عرف ابن سينا السوس والزرنيخ والقطران والأفيون المستخرج من الخشخاش والكافور في معالجة السل وقال ان امرأة مسلولة بلغ من أمرها أن علتها طالت وأضنتها واستدعيت من تهيء لها جهاز الموت فقام أخ على رأسها عالجها بأقراص الكافور مدة طويلة فعاشت وعوفيت .

فهو يشير باستعمال الكافور ويصف منه الجرعات الكبيرة ونحن نرى أن أطباء القرن العشرين وجراحيه قد عادوا إلى استعمال الكميات الكبيرة من الكافور وقرروا ما كان وصفه ذلك النابغة في بدء القرن الحادي عشر .

وقد أشار ابن سينا في معالجة السل بلبن الآتن التي وبيّن فائدته ولم يكن يعلم حينئذ أن في ذلك اللبن التي المواد التي تقيها الطب الحاضر بالحيوين أو (الفيتامين) ونسب اليه تلك الخواص الناجعة .

واتبع الأوربيون بعد أن انتقل الطب اليهم من العرب خطة ابن سينا في معالجة المسلولين بمضارة الحليب من جميع أقطار أوربة لتناول هذه المضارة فيها تناولاً منتظماً وكان يأتي المصل بفوائد جليلة يقر بها المسلولون غير أنه أيحق لنا أن ننسب تلك الفوائد إلى مصل الحليب أم الى تلك البلاد الجبلية المطلقة الهواء المعرضة لنور الشمس ؟

ووضع ابن سينا شروطاً لتناول اللبن فقال مانصه :

« لو أمكن أن يمص اللبن من الضرع (وهو يعني ضرع الاتان) لكان أولى » وقال أيضاً « يختار من الآتن ماوضعت منذ أربعة أو خمسة أشهر » وقال « تغسل العلبة بالماء الحار ولاسيما اذا كان قد حلب فيها من قبل فتنقع فيه حتى يتحلل ما كان فيها » وفي هذا القول منتهى الحكمة لأنه لحظ أن الحليب يختمر ويتبدل تركيبه ويعود مضراً وان العلبة التي كان يحلب اللبن فيها بدون أن تغسل جيداً أداة ضرر شديد اذا ما جمع الحليب فيها فاشار بغسلها بالماء الحار ولم يقل بالماء البارد لأنه عرف أن الماء الحار أفضل في تنظيف ماعلق بتلك العلب من فضلات الحليب ولا يجوز أن ننسب كلام ابن سينا في ذلك العصر مهما جاشت في قلوبنا النزعة العربية الى أنه كان يرمي باستعماله الماء الحار الى التعقيم والتطهير فما كان التعقيم ليخطر له ببال .

ووصف ابن سينا طريقة اعطاء اللبن وكميته ونصح المسلول بالاكثار من اللحوم على أنواعها .

عفواً أيها السادة اذا أطلت الكلام عن ابن سينا وأسهبت في تعليل بعض المستحدثات التي جاء بها عن السل فمن أحق منا نحن العرب باظهار ما أوجد جدودنا القدماء واستنبطوا بابداء فضائلهم ورفع الستار عن علومهم التي استنار بها الغرب حين كان يتمرغ في دياجير الجهل . فاذا نحن طمسنا فضلهم فمن تراه ينطق به . ان الواجب يقضي علينا أن نرفع راية

الجدود وألا نكتفي بالفخر بهم بل أن يكون لنا منهم مثال نتبعه في نهضتنا العلمية فتبني بعلومنا أسس استقلالنا المنشود .

أما الآن وقد ختم ذلك العصر المجيد عصر العرب فلنرَ التطور الذي تطوره السل بعد ان انتقل السل الى الغرب . لم تجل عدوى السل جيداً ولم يكتب عنها في التاريخ الطبي شيء صريح إلا في القرن السادس عشر في ذلك الزمن الذي سماه فراكستور (Fracastor) من فارونة في ايطالية وألف ثلاثة كتب سماها : العدوى والأمراض المعدية ومعالجتها سنة ١٥٤٦ وهي مؤلفات جزيلة الفائدة حددت بها العدوى وأعلن فيها مبدأ جديد عن أسباب الأمراض السارية قال فراكستور في ذلك العهد « الحميات تنجم من بذور لا تستطيع حواسنا ادراكها وهي لا تحدث هذه الأمراض فحسب بل تنقلها أيضاً الى الآخرين فالعدوى اذن هي انتقال هذه البذور أو العفونة من المريض الى السليم مرضاً شبيهاً بالمرض الذي كان مصدراً لها وتنقل هذه البذور باللمس أو المساكنة أو عن بعد مهما كانت واسطة انتقالها » ويقول أيضاً لكل من الجدري والحصبة والطاعون والجرب والرمد الصديدي والسكاب والزهري والسل بذور خاصة به تنقلها الى الآخرين وهو أول من قال عن السل « أنه ينتقل بمساكنة المسلول ولبس أثوابه » وقد ذكر في مؤلفة « أن أثواب مسلول كانت السبب في نقل السل الى صحيح ارتداها بعد موت صاحبها بسنتين » .

لعمري لابد لنا من الاقرار بفضل هذا المفكر الكبير وكم في كلامه من حكم وكم في نظراته من حقيقة لأننا لو بدلنا كلمة بذور بكلمة جراثيم لكانت لنا الحقيقة الناصعة التي جاء بها باستور بعده بثلاثة قرون فهو قد نظر بعين بصيرته الثاقبة قبل أن تكون له تلك المجاهر المكبرة الى تلك الخلائق المتناهية في الصغر فقال عنها أنها بذور وان حواسنا لا تستطيع ادراكها ، عرفها قبل أن يراها فيا له من ثاقبة . ولم يكتف بهذا بل

عرف أن لكل مرض بذرة خاصة به وان البذرة الواحدة لا تسبب هذه الأمراض المتنوعة فهو قد أوجد فكرة الجراثيم ووضع فكرة الاستقلال الجرثومي أيضاً .

وبعد أن لفظ فراكستور مبدأه هذا عن عدوى السل بقيت هذه الفكرة منغرسة في ايطاليا فقد تكلم عنها بعده بولس زكياس (Paul Zacchias) في مؤلفه المسمى « الأسئلة الطبية الشرعية » وقد تساءل فيه عما اذا كان يحق للمرأة السليمة أن تهجر زوجها المسلول .

وفي آخر القرن السادس عشر جاء ماركوليالي (Merculiali) فعدل بعض التعديل فكرة فراكستور وأقر بعدوى السل وانتقال الأمراض حسبما ذكر فراكستور غير أنه خالفه في أمر تلك البذور وقال انها نوع شبيه فعله بفعل السموم .

وفي نظر هذا الايطالي كثير من السداد فهو لم يقنعه أن بذوراً تدخل الجسد وتحدث ما تحدثه تلك الأمراض الحادة الفتاكة بل ان هناك أمراً أعظم من هذا ان هناك شيئاً من السموم يلقي ويسمم البدن وكأنه يقول ان تلك البذور أو جراثيم اليوم لا تؤثر بدخولها البدن فقط بل تفعل بمفرزاتها أو ذيفاناتها (توكسينها) فياله من نظر ثاقب بعيد المرمى .

واشتهر في القرن السابع عشر بين الأطباء الذين عنوا عناية خاصة بالسل ريشار مورتون (R. Morton) الانكليزي (١٦٩٨) وكان اكليريكياً في بدء حياته ومن اسرة شريفة غير أنه ترك الثوب الى تعلم الطب . فقد نسب سل الرئة الى عقيدات تلتهب وتتقيح وكان يظن أنها تنجم من دم متخثر وكان يعتقد أيضاً بعدوى السل فقد قال عنه « أنه يعدي الاصحاء الذين ينامون والمسلول في فراش واحد كما تعدي الحمى الخبيثة » ولكنه كان يعتقد بالوراثة خاصة وقد قسم السل ثلاث درجات : الابتدائية والوسطى والانتهائية وهي درجة اليأس . فالاولى تناسب هجوم كمية زائدة من مصل

الدم على الرئة ، والثانية تناسب تكون العقيدات ، والثالثة التهاب الرئة وتقيحها .

وهو يروي حادثة سل استمرت خمسين سنة كحادثة اللورد هارت وحادثة أبيه الطبيب الشهير الذي قضى حياته كلها وهو يسعل ومات سنة ١٦٥٨ . وقد عني مورتون بالسل خاصة لأنه كان ابن طبيب مسلول وكان يخشى الوراثة وانتقال هذا المرض بها اليه ، وقد اهتم اهتماماً جزيلاً في معالجة السل بكثرة التغذية والأمور الصحية .

فمورتون اذن جاءنا بامرين جديدين : العقيدات الرئوية التي لم يذكرها أحد قبله وقد أثبت الطب الحاضر تكونها في الرئة ودرجات السل الثلاث التي لا تزال تذكرها .

وفي القرن نفسه قام لازار ريفيار (Lazare Rivère) (١٥٨٩-١٦٥٥) في فرنسة ووضع مؤلفاً أسماه الممارسة الطبية (Pratique Médicale) لا يخلو من الفائدة الطبية ذكر فيه بضع مئات من المشاهدات بينها العدد الوافر عن عدوى السل ومنها مشاهدة غريبة في بابها وهي أن أحد المرضى بعد أن سل كان يستطب برضع ثدي امرأة فسلت بدورها وماتت بعد أن نقلت العدوى الى أختها التي غالبت المرض فغلبته وشفيت غير أن هذا المريض المنكود الحظ الذي كان السبب في تفشي الداء وموت ثلاث المرأة البائسة لم تجده المعالجة نفعاً فقضى ضحية دائه الوبيل .

وفي آخر القرن السابع عشر وبدء الثامن عشر جاء بالينى (Bellini) الايطالي (١٦٤٣ – ١٧٠٤) فكان أول من ذكر امكان التوسط الجراحي في سل الرئة .

وقد برز في القرن الثامن عشر نوت سويتن (Von Swieten) (١٧٠٠ — ١٧٧٢) الهولندي المولد النمساوي الاقامة . اضطهد هذا الطبيب الشهير في بلده فرحل الى انكلترة ومنها الى فينة حيث نال شهرة سريعة .

ولم يكتب عن السل شيئاً جديداً سوى أنه أشار باستعمال خزام العنق في السل الرئوي وبخزع الرغامي في الحالات الخطرة .

وفي العصر نفسه قام في ايطالية مورغاني (J.B. Morgani) الشهير (١٦٨٢ — ١٧٧١) وكان يخشى السل خشيته للافعى حتى انه لم يكن يجسر على تشريح جثة المسلول خوفاً من انتقال العدوى اليه فأيد فكرة فراكستور بعدوى السل ولم يكتف بهذا بل انه وصف قبل أحد التهاب السحايا السلي وأورد عنه مشاهدة جزيلة الفائدة : ابنة في الثانية عشرة متوقدة ذكاء فقدت اختها وأخاها بالسل وأصابها هي نفسها بعد سنة من فقدها التهاب في الرئة اليسرى ثم اعتراها صداع فوق الوقب ولم يمر عليها يوم واحد على ظهور هذا العرض حتى أخذها الهذيان وثبتت عيناها واعترتها الاقياء وانتابتها حركات تشنجية عقبها نوع من السبات كانت تتخلله آونة بعد أخرى نوب تشنج شديدة وزلة (ضيق نفس) ثم قضت وبعد أن فتحت جثتها بدا في قاعدة الدماغ مهل (مصل صديدي) نسب اليه المرض .

وظل الشعب في ايطاليا يخاف السل خوفاً شديداً ويرتعد لدى ذكر اسمه لما زرعه الاطباء في قلوب العامة عن سرعة عدواه فقد كتب رولان (Rolin) (١٧٠٨ – ١٧٨٤) ما حرفه « متى ثبتت اصابة شخص بالسل كان يرقن فراشه وأغطيته وأثوابه وأدوات طعامه وشرابه وجميع ما يستعمله ومتى مات يحرق هذا الأثاث ويتلف وقلما كان يسمح باستعماله بعد تبخيره . أما الغرفة فتقشر جدرانها وتطلى بطلاء جديد وتغسل أرضها وتفتح نوافذها وأبوابها وتبقى معرضة للشمس والهواء سنة كاملة قبل أن يسمح بسكنها .

وقد استولى الرعب على قلوب الايطاليين استيلاء غريباً وبلغ منهم الخوف من السل مبلغاً بعيداً فان شيريلو و كوتونيو (Cirillo et Cotugno) بعد أن استرشدا بارشادات أسكوبار (Escobar) (١٧٧٦) وهو أول من أشار بتعقيم نفلات المسلولين وقعا في تابولي على ذلك القرار التاريخي الشهير

في ٢٠ ايلول سنة ١٧٨٢ واذيع على الملأ بامر فرديناند في الشوارع وبعد النفخ في الأبواق تنبيهاً للشعب وخلاصته أن يعزل المسلول بعد أن تحقق مرضه وأن كل طبيب يعاين مسلولاً ولا يعلن أمره يغرم في المرة الأولى غرامة كبيرة واذا عاد الى اقتراف هذا الجرم ينفى عشر سنوات . أما أثاث غرفة المسلول فينقل بعد موته إلى خارج المدينة ويبخر بابخرة متنوعة ويغسل » .

وقد ادعى رولان أنه شاهد أكثر من ألف حادثة عدوى في زمن ممارسته الطبية أما بوسكيون (Bousquillon) فلم يرَ والمعهدة عليه حادثة عدوى واحدة .

وقد تغلبت فكرة بوسكيون في فرنسة وبعض أجزاء أوربة حتى الربع الأخير من القرن التاسع عشر اذ كشفت عصيات كوخ لان اختبارات فيلمن عن التلقيح بالسل لم تثبت في البدء عدوى هذا الداء .

ومن الوجوه الساطعة في القرن الثامن عشر برسيفال بوت (١٧١٣ – ١٧٨٨) الذي وصف سل الأجسام الفقرية فسمي باسمه « داء بوت » وكان يعالجه بسكي الأقسام الناتئة من العظام المصابة وقد وصف أيضاً الشلل المرافق له ونسبه الى تخرب النخاع الشوكي فقد قال تتنخر أجسام الفقار وتخرب القسم الغضروفي بينها فيضغط النخاع الشوكي ويصاب بالتبدل ويشل المريض » ونسب هذا المرض الى الداء الخنازيري ونفى علاقته بالمرض وقد كتب عنه ما حرفه « أن المرض الذي يحدث هذه الأحوال في النخاع الشوكي والأقسام المجاورة له هو الداء الخنازيري أعني به المرض نفسه الذى يحدث تكشفاً في الشفة العليا وضخامة في عقد العنق وتحت الذقن وسعالاً جافاً وضخامة وتخراً في العظام الأخرى .

فاذا كان ابقراط قد وصف سلي المفاصل والعنق دون أن يعلم سببها بل ان وصفه لها ذلك الوصف الجميل كان يوافق على مانشاهده اليوم من

أعراضها فان برسيفال بوت قد بين علاقة تنخر الفقار بالسل أو بالداء الخنازيري فلا أحق منه أن يسمي هذا الداء باسمه وأن يبقى اسمه خالداً تردده من بعده ألسنة الاطباء أبد الدهر .

نصل الآن الى القرن التاسع عشر وهو القرن الذي كشف به النقاب عن السل فبدا أمره جلياً نرى في بدء هذا القرن غسبار لورن بايل (Gaspard Laurent Bayel) (١٧٧٤ – ١٨١٦) الذي درس السل الرئوي درساً دقيقاً وبين أن العقدة الرئوية قد تتلين وذكر أنه كان يرى في جثث المسلولين عقيدات عديدة مشابهة للعقيدات الرئوية في الاعضاء الاخرى الكبد والكلية والمساريقا وغيرها غير أنه لم ير منها في الدماغ وقد نسب جميع هذه العقد الى سبب واحد حتى أنه لفظ هذه الكلمة الحرض السلي (Diathèse tuberculeuse) .

يتبين لنا من هذا أن الأفكار بدأت تتجه منذ بدء القرن التاسع عشر الى توحيد المظاهر المختلفة التي يظهر بها السل وان أطباء ذلك العصر بعد أن رأوا في العقد اللنفاوية والاحشاء والرئة عقيدات متشابهة كل الشبه خالجهم الشك في أن هذه المظاهر جميعها ناتجة من سبب واحد .

وجاء في الربع الأول من القرن التاسع عشر ذلك النابغة الكبير لاينك (Laennec) (١٧٨١ – ١٨٢٦) طبيب مستشفى نكر الذي تفوق على معلمه كورفيزار (Corvisart) وسلح الاطباء بسلاح ماض في تشخيص أمراض الرئة والقلب وقد عني لاينك خاصة بالسل وأثبت وحدته جازماً فيها أكثر من غسبارلورن بايل بقوله « مهما كان الشكل الذي تظهر به المادة السلية فهي في بدئها مادة سنجابية شفافة بعض الشفوف ولا تلبث أن تعود صفراء ظليلة قاسية جداً ثم انها تلين وتميع ميعاً متجانساً شبيهاً بقوام الصديد فتنفرغ في القصبات تاركة تجاويف كانت تسمى قبلاً قروح الرئة أما نحن فنسميها كهوف الرئة .

فهل أجلى من هذا التصريح عن وحدة السل في ذلك الزمن الذي لم يرد فيه المجهر لعالم الوجود اكتشافاته المعجبات .

واننا لنعجب أشد العجب كيف أن هذا النابغة لم يكن يعتقد بعدوى السل كثيراً فقد ورد في كتابه مانصه « لايخيّل اليّ أن الأثواب الصوفية وفرش المسلولين التي يحرقونها في بعض البلدان ولا يكادون يغسلونها في فرنسة قد نقلت السل الى أحد » مع أن/قلب تلك المؤلفات الطبية العديدة التي نشرت قبل عهد لاينالك وقد استقينا منها الكثير من شواهدنا التاريخية يرى فيها المشاهدات المثبتة لعدوى السل وأظن أن الشك كان يخالج لاينالك في صحتها وانه كان ينتظر مشاهدة حوادث العدوى بعينه ليقر بها فلم يتح له ذلك لان السل نفسه حصد بمنجله تلك الغرسة النضيرة .

وقد أقر لاينالك بالتلقيح اذ قال متسائلاً « أيحدث التلقيح المقصود سلاً أو على الأقل سلاً موضعياً ؟ » وأجاب عن هذا السؤال بقوله « ليس لي سوى حادثة واحدة اقدمها برهاناً على صحة التلقيح بالسل وهي وان تكن مفردة جديرة بالذكر » وقد كنا نتمنى لو أن تلك الحادثة لم تقع اذن لكانت طالت حياة هذا العالم ولكانت البشرية استفادت من علمه الجم وقد عني لاينالك بتلك الحادثة المفردة نفسه لانه وهو ينشر فقار مسلول سنة ١٨٠٦ جرح سبابته اليسرى فبدت مكان ذلك الخدش عقيدة سلية فكواها مرات عديدة بزبدة الانمد فندبت غير أن تلك الجراثيم التي كانت قد تغلغلت في جسده لم تلبث أن عادت الى محاربته فاصيب بسل رئوي وقضى في ١٣ آب سنة ١٨٢٦ .

مات ذلك العلامة ضحية الواجب فعرف العالم قدره وهبت بلاده الفرنسية منذ سنوات فاحتفلت بذكرى مرور مائة عـــام على موته وكثيرون هم الذين يموتون هذه الميتة الشريفة فتبلى أجسادهم وأعمالهم معاً لأن الأمة التي ينتسبون اليها لا تكرم علماءها .

ان تكريم العلماء أيها السادة صفة سامية دالة على حياة الأمم ورقيها واننا لنجذل غاية الجذل بان نرى هذه الروح قد دبت في جسم البلاد العربية فما هذه اليوبيلات التي تقام هنا وهناك لتكريم بعض نوابغنا الادليل على أن الحياة قد دبت فينا .

وما أن انتصف القرن التاسع عشر حتى بدا الى الوجود ذلك العلامة الالماني الكبير الذي كشف النقاب عن سبب السل فسكتت الالسنة وحسم الجدال وكان لاكتشافه الضجة الكبيرة في أقطار البسيطة وقد عرفتم أيها السادة من أعني انني أعني كوخ (Koch) (١٨٤٣ — ١٩١٠) توصل هذا العلامة سنة ١٨٨٢ الى كشف عصيات السل فاثبت وحدة السل ونوعيته وعدواه .

وكان كشفه أكبر برهان على صحة الفكرة التي جاء بها لاينالك أوسداد الفكرة الفرنسية وانصع دليل على فساد الفكرة الالمانية المنافية لها وهي فكرة فيرخوف (Virchow) وريندهارت (Reindhardt) القائلة بعدم وحدة السل ورأي أمبيس (Empis) الذى كان يعد السل الدخني (granulie) مرضاً خاصاً لاعلاقة له بالسل .

ولم يعد من مجال للشك في عدوى السل ، هذه العدوى التي قالت بها الأجيال السابقة منذ القدم حتى أتى لاينالك فنفاها وكان نفيه لها كما أوردنا خروجاً عن الحقيقة .

انني اقف عند هذا الحد بعد أن عرضت معكم الأجيال جيلاً جيلاً منذ الهنود الى القرن الماضي وبعد أن أوضحت لكم تطور السل في هذه القرون وما أدخله كل قرن منها من الأمور الجديدة عليه وانني أرى أن الوقت قد حان لأمر الى الشق الثاني من محاضرتي وأحول نظري عن الزملاء الكرام الى الفئة الثانية من مستمعيّ لاحادثهم عن العدوى والوقاية .

وقبل أن أدخل لب الموضوع أقسم السل قسمين : قسماً يعرفه الشعب

وهو السل الرئوي الشديد الخطر على المسلول ومن يحيط به وقسماً آخر لايعرفه غير الاطباء لأن معظم الشعب لم يتعود سماعه أعني بـه أشكال السل الأخرى من عظمي ومفصلي وعقدي وكلوي ومعوي وصفاقي (بريطوني) وسحائي وغير ذلك .

والغاية من هذه القسمة أيها السادة التفاوت الشديد بين عدوى القسم الأول الشديد والقسم الثاني الخفيفة كما سيبدو لكم الأمر واضحاً في سياق محاضرتي . وكلا القسمين متفش تفشياً راعباً في بلادنا السورية ومن أدرى بتفشيها منا نحن معشر الأطباء ولاسيما أطباء المستشفيات الذين يرون في يومهم الواحد عشرات المرضى وقد أناخ عليهم هذا الداء بكلكله فاذوى فيهم نضارة الحياة أو أتلف فيهم بعض الأعضاء .

أقول هذا والأسف آخذ مني مأخذه الشديد لأن معدل السل بين مستشفانا العام ومن يأمون عيادته الخارجية مستشفين لا يقل عن عشرين بالمئة وهو معدل لا يستهان به يدعو الحكومة الى اتخاذ التدابير الفعالة لقمع هذا الداء ومكافحته أشد المكافحة .

وبما أن العدو لا يتقى شره ولا تصد هجماته الا متى عرف مقره وادركت الطرق التي يختطها في الهجوم كان علينا أن نعلم مقر عصيات السل وطرائق انتقالها لنتخذ الوسائل الفعالة لاجتنابها .

أين نجد عصيات كوخ أو العوامل المرضية المحدثة للسل ؟ سؤال لا تصعب الاجابة عنه . اننا نجدها في الهواء الذي نستنشقه ، نجدها في الأغذية التي نتناولها ، نجدها في السوائل التي نشربها ، نجدها على اليد التي نصافحها والشفاه التي نقبلها . نجدها في فمنا وبلعومنا نجدها حيث سرنا في الشوارع والمعابد والمسارح والبيوت والمدارس ، انها منتشرة انتشاراً مخيفاً تحيط بنا وتهاجم أجسادنا من كل مكان وصوب .

كل هذا حقيق أيها السادة وليس فيه شيء من الغلو فان السيدة التي

تكنس بيتها في الصباح مثيرة من الغبار ضباباً تستنشقه وتنشقه أولادها وزوجها تعمل على نشر هذا الداء وتفشيه دون أن تعلم أو تدرك فداحة الأمر الذي تعمله .

وتلك المكانس التي تحركها أيدي العملة في الشوارع في صباح كل يوم وعشيته بينما الناس يروحون ويجيئون في الأزقة والشوارع كادحين وراء أشغالهم أدوات تعمل للسل ومعامل تفوض بها أبنية الأجساد البشرية لانها تنثر في الهواء ما كان لاصقاً بالأرض وتسهل دخوله في أنوف المارين وأفواههم .

وتلك الأيدي التي نصافحها أو نقبلها وقد انتشرت عادة لثم الأيدي بيننا ، أيد لا تحمل الينا السلام الذي نتوسمه ولا الحب الذي نتوخاه وننشده ، بل أيد مفعمة بعصيات السل وسواها من الجراثيم القتالة فعلينا اجتنابها ما أمكننا .

وتلك الوجنات والشفاه التي نحن شوقاً اليها ونرسم عليها قبلة الهيام والوجد وجنات وشفاه لا تنقل الينا الا الموت الزؤام ، ولو أننا عرفنا هذا لكنا امتنعنا عن تلك اللذة ناظرين الى ماوراءها من الخطر المقبل ولكنا نحكم العقل في أمورنا قبل العواطف والقلب .

وتلك المواد الغذائية التي تعرض في الأسواق وقد كساها الغبار ثوباً سندسياً جميلاً ووشمها الذباب بخيلانه السود فمادت كأنها الوشي المعلم مواد لا تغذي البدن وتجلب العافية بل تؤذي الجسد وتقصر الحياة بما تحمله من الجراثيم والأقذار .

انني أسمع البعض يهمسون قائلين أنميت أيها الطبيب فعل النار في التعقيم أولا تعلم أن المواد الغذائية تمر بالطنجرة والمقلاة قبل أن تصل الى الفم والمعدة فيموت ما فيها من الجراثيم وأن الخضر التي تؤكل غضة تغسل والغسل أحسن مطهر آلي يكنس الجراثيم كنساً إن لم يقتلها قتلاً !

لا أنكر هذه الملاحظة أيها السادة ولا أنسى هذا التنبيه الوجيه ولكن ما قولكم بتلك المعجنات تحمل على الرؤوس أو تعرض في الشوارع ينفخ الهواء عليها فيلصق بها من الغبار وذرات التراب ما يعيدها شهية للذبذة ، وما رأيكم في تمر التوت الذي لايستحم في الماء الحار ولا يبترد في الماء البارد والأمثلة كثيرة يطول بنا عدها لست أنكر أيضاً أن إدارة الصحة تكافح هذه الأمور مكافحة شديدة وانها تعاقب من يخالف القوانين التي تسنها غير أن إدارة الصحة لاتتمكن على الرغم من سهرها الدائم أن تعين لكل بائع مأموراً يرقب حركاته ، فاذا لم يكن فينا ما يردعنا فلا شيء يقلعنا عن هذه العادات المضرة .

ولكن اذا كانت عصيات السل منتشرة هذا الانتشار الهائل فهل من سبيل الى اجتنابها وإذا كانت سابحة في الهواء الذي نستنشقه ، وفي اللبن الذي نشربه وفي الغذاء الذي نأكله فهل من وسيلة الى تعقيم الهواء والامتناع عن استنشاقه أو هل من سبيل الى المعيشة بدون طعام وشراب ؟

اذا لم يمكن تعقيم الهواء ممكناً ولا الامتناع عن الطعام والشراب مستطاعاً أيها السادة فان اجتناب عصيات السل والقضاء عليها ممكنان متى بحث في الأمر ونظر اليه بعين الروية .

لاتقوم الوقاية من السل بمنع الباعة عن عرض الطعام والشراب في الأسواق ولا بالامتناع عن المصافحة والتقبيل ولا باجتناب كنس الأسواق قبل أن ترش مع أن هذه الأمور جميعها مفيدة كل الفائدة لا يعفى شخص من معرفتها والتبشير بها بل تقوم الوقاية من السل بأمر واحد فقط يضاف اليه أمر آخر يلحق به . وهذا الأمر الواحد هو الاس الذي تبنى عليه الوقاية فاذا ما حفظناه ورعيناه كان لنا أن نفاخر بأننا كسرنا هذه القيود الثقيلة التي كبّل بها السل بلادنا السورية واذا لم نحفظه ولم ندرك شأنه بقي كل منا عرضة لهذا الداء الوبيل لأن تقيد بعض الأفراد بالقواعد

المتبعة في اتقاء هذا الداء لا يجدي المجموع نفعاً اذا لم يقم المجموع بعمل واحد مشترك . فما ذلك الاس يا ترى ؟ هو أيها السادة محاربة العصيات في وكرها ، هو اتلافها قبل انتشارها لان وكر الافاعي يسهل التغلب عليه ما زالت ثعابينه مجتمعة ولكن متى تفرقت وانتشرت امتنع الأمر وهو يزداد امتناعاً متى بنت كل أفعى وكراً جديداً وتكاثرت فيه تكاثراً راعباً .

اذن لابد من الاستيلاء على تلك العصيات في وكرها فاين هو هذا الوكر ؟ هو ولاشك المسلول نفسه فاذا ما اعتنينا بالمسلول العناية الواجبة وأتلفنا ما يقذفه من جسده من ملايين الجراثيم في كل دقيقة حقت لنا الغلبة على هذا الداء الوبيل وعاد هواؤنا نقياً وماؤنا عذباً وغذاؤنا مستطاباً وإذا نحن أهملنا ذلك العش لم تجد الاحتياطات الأخرى التي نتخذها نفعاً قلت ان المسلول يقذف من جسده بملايين الجراثيم فكيف يقذف بها ؟ انه يقذف بها من رئتيه مع النفلات متى كان السل رئوياً ويلقي بها مع الغائط أو البول متى كان السل معدياً أو كلوياً مثانياً ويطرحها مع الصديد متى كان السل مفصلياً أو عظمياً أو عقدياً فعلينا اذن أن نتلف في مايلقيه المريض تلك الجراثيم .

أما الصديد فقلما يكون سبباً لانتشار السل لأن المسلول المصاب بسل عظمي أو مفصلي مسلولٌ لا يقوى غالباً على التجول ولأن آفته تضطره إلى طبيب أو مضمد يضمد جروحه فيقوم الطبيب بهذه المهمة ويأمر بحرق مانزعه عن ذلك الجرح من القطن والغزي (الشاش) الملوثين .

ويقرب منه المصاب بسل معوي أو بولي لانه ولو كان قادراً على التجول لا يلقي بمفرزاته أعني ببوله وغائطه الا في المراحيض فتسير في تلك المجاري القذرة فلا يكون منها خطر شديد وان لم تخلُ منه .

وما أقوله أيها السادة يوافق المدن التي تراعى فيها القواعد الصحية مراعاة دقيقة غير أن مدينتنا عاصمة البلاد السورية لا تزال بعيدة عن اتباع

هذه القواعد فاذا كان المصاب بسل بولي لا يعد خطراً كبيراً على المجتمع في البلاد الأخرى فهو خطر جسيم في مدينتنا العزيزة وانكم تعلمون السبب لانه لا يحتاج الى برهان ذلك لأن المصاب يبول كما يبول سواه في الازقة والمنعطفات فتلقى مع بوله عصيات كوخ تتناقلها أحذية المارين وهي رطبة ، وأجنحة الريح متى جفت فلو أن المجلس البلدي أخذ لهذا الأمر عدته وأكثر من المباول في الأزقة وعاقب المعاقبة الصارمة من يجاسر على البول في سوى تلك الأماكن المعدة لهـذه الغاية لعاد المصاب بسل بولي أقل خطراً على المجتمع الذي يعيش فيه فعسى أن تنال هذه الامنية .

غير أن الخطر كل الخطر والبلية كل البلية في ذلك المصدور المصاب بسل رئوي فهو في دوريه الاول والثاني لا يلزم فراشه بل ينتقل في الأزقة والشوارع ويزور الاصدقاء فيملأ الأماكن التي يمر بها بتفلاته فلا تلبث أن تجف فيبددها الهواء فتتطاير ذراتها معه وتنتقل الى رئات الناس ومعدهم ومتى كان المسلول أرقى شأناً وأحسن حالاً تفل في منديله وفي هذا من الضرر مالا يقل عن ذاك لان ذلك المنديل تجف فيه التفلات فيكون حظها حظ تلك التي القيت على الارض ولأن ذلك المنديل ينتقل من يد لغير ليغسل فيكون أداة لتفشي الداء والمصدور لاتستطيع مراقبته فهو يتفل خلسة حيث أراد دون أن يراه أحد ، بيد أن رفيقه المصاب بسل بولي لايتسنى له أن يبول في الأزقة متى أراد فاذا لم ننبه ذلك المريض لهذا الخطر الفادح وإذا لم نجدّ في تعقيم تلك التفلات واتلاف الجراثيم فيها ذهب تعبنا جزافاً فكيف نتوصل الى هذه الغاية ؟ العمل سهل وهو أن نحذر المريض من البصق على الأرض أو في منديله وأن ندعوه الى البصق في مبصقة أو وعاء معد لهذه الغاية متى كان في بيته وأن نضع في قعر هذا الوعاء مادة مطهرة وأحسنها كبريتات النحاس الرخيصة الثمن ويجب أن يظل ذلك الوعاء مغطى بغطاء في الصيف لئلا يقع الذباب على البصاق فينقل ماعلق بارجـــله الى

المواد الغذائية ، ويكون سبباً في نقل الداء الى الآخرين .

ومتى خرج المريض من بيته وسار متنزهاً وجب عليه أن يضع في جيبه مبصقة خاصة يبصق فيها وهذا الأمر لا يجوز التساهل به مطلقاً . وتفرغ المبصقة كل يوم في المرحاض ، ولا يجوز افراغها على الأرض قريباً من البيوت متى كان المريض في قرية لئلا تقع في الورطة الاولى التي كلمتكم عنها ويفضل افراغ المبصقة في وعاء خاص واغلاء محتواها ، وتعقيم المبصقة نفسها بالاغلاء .

وعلى المسلول أن يغسل فمـه مرات عديدة في اليوم وأن يتعاشى عن تقبيل أهله وأصدقائه وعلى الرجل أن يحلق ذقنه وشاربيه أيضاً لئلا يكون شعرها محشراً للجراثيم وتفرز المسلول أوانٍ خاصة به شوكته وملعقته وأطباقه وسكينه ومنشفته وقدحه وبكلمة مختصرة جميع ما يحتاج اليه وتعقم هذه كلها بالاغلاء بعد كل استعمال .

اننا اذا صنعنا هذا نكون قد قضينا على السل في مهده وحاربناه في وكره . قلت أيها السادة ان هذا اس الوقاية وذكرت لكم ان أمراً آخر لابد من الحاقه به فما عساه أن يكون يا ترى ؟

هو ايجاد مناعة في الأشخاص المعرضين للسل . ومن هم المعرضون ؟ كل منا معرض لهذا الداء غير أن درجة التعرض تتفاوت وأكثر الناس تعرضاً المضعفون والناقهون من الأمراض المفنة ومدمنو الكحول والولدان المولودون من آباء وأمهات مسلولين أما الفئة الأولى فعلينا أن نبعد أفرادها عن مواطن الداء وألا ندعهم في المستشفيات التي يقطنها المسلولون وان نبعث بهم الى القرى النقية الهواء ريثما يعود اليهم نشاطهم ويستعيدون قوام فيكون لهم من كرياتهم البيض أكبر مدافع ومنع حصن .

وأما الولدان هؤلاء المخلوقات الصغيرة الأجساد اللطيفة الرئات الذين يولدون

وفيهم للسل استعداد شديد فكيف نفهم عائلته وندرأ عنهم شر عدواه ؟

كانوا فيما مضى يبعدون الطفل عن أمه وأبيه ويحرمونه عطفهما ويبعثون به الى القفر كما يصنعون اليوم بالناقهين من الأمراض المعدية والمضعفين ، كانوا يمنعون المشبوهين عن تقبيل اولئك الاطفال والاقتراب منهم ، كانوا يجتنبون كناسة الدور التي يسكنونها ويمسحون الغبار عن أثاثها مسحاً ، كانوا يقون أولئك الصغار بجميع أنواع المقويات . أما اليوم فقد أوجد لنا العلم طريقة جديدة للوقاية لم يكن يحلم بها جدودنا ، لقد أرسل الينا العلامتان كلت وغرن قوارب النجاة فخلصا بها اولئك الصغار من تلك الامواج الهائجة التي كانت تبتلعهم وما تلك القوارب أيها السادة غير لقاحها الواقي انها به قد أنقصا الوفيات من ٢٥ في المائة كما دلت الاحصاءات في فرنسة وانكلترة وألمانية إلى أقل من واحد في المائة فيالله من نجاح باهر .

ومتى عرفنا أن طريقة التلقيح سهلة للغاية فهي أن يؤخذ مقدار سنتغرام من مستحلب اللقاح المحضر في مستوصف باستور ويمزج بالحليب ويعطاه الطفل وان تعاد الجرعة نفسها كل يومين أي في الأيام الثالث والخامس والسابع من ولادته أدركنا أن الأمر سهل الاجرآء لا يحتاج الى عناء كبير .

ولكن من عساه يقوم بهذه الأعمال ، من تراه يعتني بالمسلول مهما كان نوع سله عظمياً أو مفصلياً أو عقدياً أو معوياً أو بولياً أو رئوياً من تراه يرعى أولئك الامهات المسلولات ويوجد في أولادهن المناعة على تلك الجراثيم القتالة بعد ولادتهم ان لم تكن في المستشفيات والمصحات ومن عساه ينشئ هذه وهي تحتاج الى أموال طائلة ومعرفة واختبار ان لم تكن الجمعيات .

أجل مامن فرد يقوى على القيام بهذه المشاريع الجليلة الفائدة ولكن على الفرد ان لم يقم بها أن يشترك بها عليه أن يعلم أن كل بارة يعضد بها هذه المشاريع يكون قد صرفها في سبيل وقايته ووقاية أهل وطنه وعليه أن يثق أن الدرهم الذي يهديه الى هذه الجمعيات القائمة بهذه المشاريع هو أنفع درهم يصرف في هذه الحياة .

اني اكبر عمل هذه الجمعية الكريمة وأعد مشروعها من أعظم مشاريع هذه البلاد لأن عظمة الأمر تقاس بفوائده وهل أعظم من الفائدة التي توجه الى كبح جماح مرض وبيل كالسل . ان العالم قائم قاعد بجيش جيوش الاطباء والكيماويين لمكافحة هذا الداء ، ولم يتوصل حتى الآن الى التغلب عليه فاذا قامت بين ظهرانينا فئة تنهج هذا النهج القويم ، اذا مادفعتها الحمية والغيرة على تخليص مئات الالوف من أبناء هذا الوطن العزيز الى الاشتراك بهذا الجهاد المقدس كان علينا أن نهلل باسمها وان نمد اليها يد المساعدة ، كان على التلميذ في مدرسته أن يقتصد مما يعطاه لمصروفه الخاص ويبعث به الى جمعية مكافحة السل ، كان على التاجر أن يخصص من أرباحه شيئاً ولو زهيداً ليهديه الى هذه الجمعية ، كان على المتمول أن يهب بلا حساب بعض ما يخزنه في صناديقه من النضار لهذه الفئة المجاهدة واذا مافعلنا ذلك اثبتنا أن الحياة تدب في عروقنا وبرهنا للناظرين الينا وهم على شك من تطورنا الاجتماعي أننا أمة تدرك للحياة معناها وتفهم أن في مقدمة الأمور مكافحة الأمراض وتقوية السواعد التي تعقد عليها ألوية الاستقلال الذي نطمح اليه بكل جوارحنا فلا تصموا آذانكم أيها السادة عن نداء هذه الجمعية الكريمة بل اعضدوها لأن نجاحها نجاح بلادكم وفلاحها فلاح أمتكم ونجاتها من عدو شديد المراس والسلام عليكم وعليها .

باب الجابية أو موسى وكولومب وسنمّار*

أما موسى فهو موسى بن نُصَير القائد العربي فاتح المغرب والأندلس وما يليها. ونريد من الكلام عليه في محاضرتنا هذه أن نعرض على أبصاركم أيها السادة صورة بديعة من صور حياة البطولة العربية ، وأن نملي على أسماعكم صفحة من صفحات عظمة الاسلام قبل أن يمر عليه قرن واحد.

وأما (كولومب) فهو (كريستوف كولومبس) الايطالي فاتح أميركا أو مكتشفها المشهور. وأما (سنمّار) فهو الراز العربي[1] الذي بنى قصر الخورنق للنعمان فكان بناء فخما هال أمره النعمان حتى قال لسنمار ما أعجب بناء هذا القصر فقال له سنمار: والأعجب منه أيها الملك أن فيه حجراً اذا اقتلع من موضعه انهار البناء على الأثر. فقال له النعمان وأين هو ذلك الحجر؟ أرنيه. فأراه إياه — وكانا في شرفة القصر — فأمسكه النعمان من تلابيبه وألقاه الى الحضيض فسقط ميتاً لا حراك به. وانما فعل النعمان هذا ليبقى سرّ ذلك الحجر دفيناً فلا يدري به أحد. ومن ثم ضرب العرب المثل بسنمار فقالوا: فلان جزى فلاناً جزاء سنمار وفلان لقي من قومه ما لاقاه سنمار. أما حشرنا سنماراً بين موسى وكولومب فالسبب فيه أن الاثنين لقيا من قوميهما العرب والاسبانيول ما لقيه سنمّار: (موسى) فتح الاندلس فجازاه ملكه العربي أقبح جزاء. و(كولومب) فتح أميركا فكافأه ملكه الاسبانيولي شرّ كفاء.

(*) ألقيت هذه المحاضرة في ردهة محاضرات المجمع العلمي العربي بتاريخ ٤ نيسان سنة ١٩٣٠.

(١) اي البناء الحاذق في الركازة اي صناعة البناء.

واذ قارنا بين الرجلين من جهة أن موسى وقومه خطر لهم وجود عالم جديد في البحر المحيط كما خطر لكولمب أنكر الشعوبية علينا ذلك وقالوا إن العرب لم يكونوا يشتغلون للاكتشاف ولا للثقافة العالمية كما اشتغل الافرنج. وانما كانوا يشتغلون للفتح والاستيلاء على البلاد العامرة توسيعاً لنطاق الاسلام، ويزيدون على ذلك قولهم: انه لم يعرف في فاتحي العرب الأولين عالمٌ فلكي أو طبيعي خطر بباله وجود قارة بعيدة مجهولة لا فائدة للاسلام منها.

فكل مايهم الفاتح العربي أن يستولي على البلاد العامرة. أما الاكتشافات والاختراعات فانما تخطر ببال العالم الفلكي والعالم الطبيعي ونحوهما[1].

هذا ما يفجؤنا به أولئك الذين يريدون ألا ينسب للعرب عمران ولا حب عمران ولا فكرة عمران. فهل نتهيّبهم ونسكت عن معارضتهم ونحن نشعر في أنفسنا بالمقدرة على اثبات دعوانا؟

* * *

طموح قواد العرب الى الفتح والتساؤل عن بلاد مجهولة يستولون عليها — يمكن أن نستخرجه من قول (عقبة بن نافع) الذى كان أول قائد عربي تغلغل في شمال أفريقيا، فانه لما وصل الى طنجة خاض ساحل البحر المحيط أو بحر الظلمات كما يسميه العرب خاضه بجواده حتى أتجه الماء ثم اتكأ على رمحه ورفع رأسه الى السماء وقال: يارب لولا هذا البحر الذي اعترض طريقي لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك.

---

(١) يكذب هذا القول ما قرأناه في بعض صحف بيروت بقلم العالم الفاضل الأستاذ راجي الراعي قال حفظه الله ما نصه: «كتب كولومبس عن نفسه أنه لما قرأ تأليف ابن رشد الفيلسوف العربي واطلع على رأيه في استدارة الأرض خطر له ان يجتاز الأوقيانوس الاطلنطيكي او بحر الظلمات كما كان يسميه العرب وهكذا يكون للعرب اليد الطولى في اكتشاف اميركا».

اذن كان من همّ فاتحي العرب أن يجدوا بلاداً يستولون عليها بقصد نشر دينهم الجديد أو ثقافتهم العربية الجديدة . ثم جاء (موسى بن نصير) فأكمل الفتح واستولى على جميع البرور والبحور والجزائر في شمال أفريقية وتخطاها الى اسبانيا . ويبعُد على مثله وهو من أذكياء الفاتحين أن لايخطر بباله وجود بلاد في أقصى بحر الظلمات يستولي عليها . لاسيما أنه كان بارعاً في علم الأنواء والسفر في البحار يدلكم على ذلك مارواه ابن عساكر في تاريخه الكبير من أن مروان ابن الحكم اصطحب موسى معه الى مصر قد سار اليها ليستخلصها من أشياع خصمه ابن الزبير . فلما بلغ المصريين زحفه عليهم وجهوا سفناً للغارة على سواحل الشام فخاف مروان على الذراري والعيال واستشار موسى فقال ان صح خبر خروجهم فقد كُفيتهم . قال وكيف ذلك ؟ قال لأني عالم بهذا البحر (يعني ان هذا البحر سيغرق سفن المصريين) فقال له مروان ارجع اذن الى السواحل والنقط غرقاهم . فرجع موسى حتى رأى في بعض الليالي تكدراً في النجوم فقال (لا يبقى الليلة في البحر مركب إلا تكسر) ثم بلغ عكا ويافا فوجد مراكب المصريين محطمة فأخذهم أسرى ورجع الى مروان فادركه قبل دخوله مصر وأخبره فسرّ جداً وأجازه بالف دينار . واستشاره في الأسرى فاشار عليه باطلاقهم فيكونون عوناً له في مصر ، فسرحهم مروان ، فقال بعض هؤلاء الأسرى :

جزاك الله يا ابن نصير خيراً ... فقد أنجيت من قتلٍ وأسر
عشية قال مروان أشيروا ... عليّ برأيكم في أهل مصر
فمن بك كافراً نعماك يوماً ... فاني شاكر لك طول عمري

فالتفكير في البحار وسلوكها ومعرفة مافيها ليس ببعيد عن علم موسى ابن نصير وهمته بل هو باشر البحث عن بلاد مجهولة أيضاً (كما روى مؤلف كتاب الامامة والسياسة) قال : أرسل موسى أناساً في مراكب وأمرهم

أن يسيروا حتى ينتهوا الى جزيرة في البحر فيها صنم يشير بأصبعه أمامه . ثم يسيروا الى جزيرة أخرى فيها صنم كذلك ثم يسيروا الليالي والأيام حتى يأتوا جزيرة فيها أناس لايفهمون كلامهم وقال لهم : فاذا بلغتم ذلك المكان فارجعوا فان ذلك أقصى جهة الغرب وليس وراءه شيء إلا مياه المحيط . فهذا الخبر الذي رواه لنا مؤلف (كتاب الامامة والسياسة) يدل في جملته لا تفصيله على أن موسى انتبه الى وجود يبَس في ذلك البحر الفسيح .

ثم بعد حين من الزمن قام رهط من العرب وهم الذين اشتهروا باسم (الأخوة المغرورون) فغامروا في ركوب المحيط لاكتشاف البلاد الجديدة التي نبأ عنها موسى بن نصير . وقد ذكر الادريسي الجغرافي العربي المشهور الذي عاش في أواسط القرن السادس للهجرة فقال : ان ثمانية رجال كانوا أبناء عم خرجوا من أشبونة[1] فركبوا بحر الظلمات لمعرفة مافيه . فعمّروا مركباً وأدخلوا فيه من الماء والزاد مايكفيهم أشهراً . ثم دخلوا البحر في أول طاروس الريح الشرقية . فجروا بها نحواً من أحد عشر يوماً فوصلوا الى بحر غليظ الموج كدر الروائح كثير الترشاش قليل الضوء فايقنوا بالهلكة . فردوا قلوعهم وساروا الى الجنوب اثني عشر يوماً فخرجوا الى جزيرة الغنم وفيها من الغنم مالا يأخذه عد ولا تحصيل وهي سارحة لاراعي لها ، فقصدوا الجزيرة فوجدوا فيها عين ماء جارية وعليها شجرة تين برّي فأخذوا من تلك الغنم فذبحوها ووجدوا لحومها مرة فأخذوا من جلودها وساروا الى الجنوب اثني عشر يوماً الى أن لاحت لهم جزيرة فنظروا فيها عمارة وحرثاً فقصدوا اليها ليروا مافيها فما كان غير بعيد حتى أحيط بهم في زوارق فأخذوا الى مدينة على ضفة البحر فانزلوا فيها فرأوا رجالاً شقراً زُعُراً[2] شعورهم سبطة طوال القدود ولنسائهم جمال عجيب فحبسوا

(١) التي تسمى اليوم ليسبون وهي عاصمة قسم من الأندلس يسمى البورتغال .
(٢) جمع ازعر : القليل الشعر المفترق .

في بيت ثلاثة أيام ثم أحضروا بين يدي الملك فسألهم عن أمرهم فأخبروه بكل خبرهم وانهم اقتحموا البحر ليروا مافيه من الأخبار والعجائب . فضحك الملك وقال لهم : إن أبي كان أركب قوماً من عبيده هذا البحر فساروا فيه شهراً الى أن انقطع عنهم الضوء فرجعوا . ثم أن الملك عمّر لهؤلاء الملاحين زورقاً وأنزلهم فيه بعد أن عصب عيونهم وأرجعوا الى ساحل بر فانزلوا فيه فسمعوا ضوضاء أناس فصاحوا بهم فأتوا اليهم وحملوا وثاقهم وسألوهم عن خبرهم فأخبروهم وسألوهم عن بلدهم (أشبونة) قالوا إن بينكم وبينها شهرين . فقال كبيرهم (أسفي) فسميت هذه المدينة التي نزلوا بهـــا باسم (أسفي) (وهي مازالت الى اليوم قرصنة مراكشية على بحر الاطلنطيق) .

ثم قال الادريسي : وفي مدينة (أشبونة) بموضع قرب (الحامة) درب يسمى (درب الاخوة المغرورين) نسبة الى الملاحين الثمانية المذكورين اه) .

والادريسي راوي خبر هؤلاء الاخوة عربي أندلسي ولد في سبتة ونشأ في قرطبة . فليس هو غريباً عن البلاد التي جرت فيها حادثة الأخوة المغرورين . وزد على ذلك أنه ابن الصنعة أي أنه جغرافي متخصص في علم تقويم البلدان وصنع الكرات الأرضية والفلكية . وبديهي أن هؤلاء الملاحين المغرورين كانوا بعد رجوعهم من سفرتهم يحدثون الناس بما رأوا وما سمعوا فمن مصدق ومن مكذب . ومن كذبهم كان ينبزهم بالمغرورين فلقبوا بذلك . وذهب بعضهم الى أنهم انمـا وصلوا الى جزائر الخالدات وهي التي تسمى اليوم (كناريا) ولم يصلوا الى أميركا نفسها . وأشبونة أو (ليسبون) التي مثلت على مرسحها حادثة الأخوة المغرورين هي نفسها المدينة التي عاش فيها كولومبس ومثل على مرسحها حادثة اكتشاف أميركا . فرواية موسى بن نصير العربي عن وجود بـــلاد في المحيط ، ثم رواية

الاخوة المغرورين العرب عن وجود بلاد أيضاً ، لابد أن تكونا أحدثتا فكرة بين عرب الأندلس عامة وسكان أشبونة خاصة بأن في بحر الظلمات بوراً يسكنها أمم أمثالنا . وكانوا يتوارثون هذه الفكرة جيلاً بعد جيل حتى أصبحت من الأساطير الوطنيـــة والأقاصيص الشعبية . ويشبه حادثة الاخوة المغرورين ما ذكره (ابن الوردي) في جغرافيته من أنه يوجد وراء جزر الخالدات جزائر عظيمة فيها خلق كثيرون . وقد وصل اليها أحد النوتية عن غير قصد بسبب مطاردة الرياح ، ثم رجع منها بعد أن يئس من الحياة . وقد وصف ابن الوردي تلك الجزائر وصفاً يكاد ينطبق على وصف بلاد أميركا . وابن الوردي عاش في القرن الرابع عشر للميلاد أي قبل كولمب باكثر من مئة سنة .

ونزيد على ذلك أن الصوفي العربي الكبير (الشيخ محي الدين بن عربي) وهو أندلسي أيضاً . وقد ذكر في بعض تآليفه (أن وراء المحيط الاطلنطيقي أمماً من بني آدم وعمراناً) وعاش ابن عربي في القرن الثاني عشر للميلاد أي قبل اكتشاف أميركا بنحو ثلاثة قرون . ولم ينزل عليه وحيٌ بوجود بلاد عامرة في المحيط وانما هو دوّنَ ما سمعه من عرب الأندلس وطنه . فجوّ بلاد الأندلس كان مكهرباً بفكرة وجود بلاد مسكونة وراء بحر الظلمات . وجاء في كتاب (مسالك الأبصار) الذي طبع حديثاً في مصر (ج ١ ص ٣١) ما نصه :

قال شيخنا فريد الدهر أبو الثناء محمود بن أبي القاسم الأصفهاني أمتع الله به ، لا أمنع أن يكون ما انكشف عنه الماء من الأرض من جهتنا منكشفاً من الجهة الأخرى . واذا لم أمنع أن يكون منكشفاً من تلك الجهة (أي واذا أمكن أن يكون في الجهة المقابلة براً تكشف عنه الماء) لا أمنع أن يكون به من الحيوان والنبات والمعادن مثل ماعندنا أو من أنواع وأجناس أخرى اه) .

وعلق العلامة أحمد زكي باشا (ناشر كتاب مسالك الأبصار) على كلام أبي الثناء الاصفهاني ما يلي :

الاصفهاني وهو بمصر فضل السبق على كريستوف كولمبس وهو بالاندلس لأنه قال بهذه النظرية قبله بقرن ونصف . وللأصفهاني فضل أكبر على مكتشف أميركا : لانه تخيل وجودها بقوة الفطنة والاستدلال . وأما كولومب فتخيل فقط وجود طريق جديد يوصل للهند من جهة الغرب . وأبو الثناء عاش قبل كولومب بمئة وخمسين سنة أي أنه توفي سنة ٧٤٩هـ (١٣٤٨ م) وأما كولومب فقد اجتهد في اقناع فرديناند وايزابلا صاحبي الأندلس بصدق نظريته في سنة ١٤٩٢ م (٨٩٨ هـ) .

هذا ما قاله أحمد زكي باشا ولكن لا يخفى أن كولومب اتخذ بروز القارات الأرضية القديمة من جملة الأدلة على وجود القارة الجديدة : فان القارات القديمة تشغل نصف الكرة الشرقي فاذا لم يكن في النصف الغربي المقابل قارات يابسة بارزة تعادل ثقلها القارات الأولى اختلت موازنة الكرة الأرضية واضطربت . وهذا ما انتبه اليـــه أبو الثناء محمود الاصفهاني قبل كولومبس بمئة وخمسين سنة . فمن مجموع هذه الأخبار يصح لنا أن نقول بان العرب خطر لهم وجود أميركا أو بروز يابسة في أقصى الاطلنطيق .

ونحن لم نقل انهم اكتشفوها اكتشاف تحقيق وانما قلنا أن وجودها كان يخطر ببال فاتحيهم البعيدي الهمة أمثال ابن نصير وملاحيهم القوي العزيمة أمثال الاخوة المغرورين وجغرافيهم الواسعي الخبرة النيّري البصيرة أمثال الادريسي وعلمائهم الاحرار الفكر الجليلي القـــدر أمثال الشيخ الأكبر وأبي الثناء محمود .

وحاول بعض العرب أن يبرز هذه الفكرة الى حيز الوجود فلم يوفق لعدم تهيؤ الأسباب الكافية في زمنه حتى تهيأت في زمن كولومب وايزابيلا . اما ان الفكرة العربية كانت من جملة ما حفز كولومب على اقتحام الاطلنطيق

لاكتشاف يابسة فليس ذلك من الأمور البعيدة وان كان الشعوبيون لايذكرون هذه الفكرة العربية في جملتها .

كولومب ايطالي الجنس لكنه توطن أشبونة (ليسبون) وتزوج ابنة قبطان من أهاليهـا وكان عمره يومئذ ٣٥ سنة وقد قضى حياته يمارس الملاحة والعمل في البحر . وكان يجالس سكان ليسبون العرب الذين بقوا الى زمنه ويعاشرهم ويصغي الى حديثهم ولابد أن يكون التقط منهم أخبار أجدادهم التي من جملتها فكرة وجود بلاد في بحر الظلمات(١) وليس هذا

(١) بعد نحو ٢٣ سنة من كتابة هذه المحاضرة قرأنا في مجلة (الشرق) العربية التي تصدر في البرازيل لصاحبها موسى كريم - مقالا عنوانه (بحث في مغامرة الفتية المغرّرين والاشهر المغرورون) للفاضل السيد (محمد الفاسي) المراكشي جاء في آخره مايؤيد رأينا الذي ارتأيناه من أن (كولومبس) انما استنار في قصد أميركا بآراء العرب وكتاباتهم وشيوع وجود عالم آخر في أطراف البحر الاطلنطيقي بين سكان ليسبون وهم أهل بلده وكانوا يومئذ عرب . قال الفاضل الفاسي ما نصه :

وان كان الفتية المغرورين لم يصلوا الى أميركا فلا شك أن رحلتهم هذه أثرت في اكتشافها اذا كانت قصتهم هذه شائعة بدون شك في كتب الجغرافية التي أخذ الغربيون في أول نهضتهم يؤلفونها أو ينقلونها عن العرب فوصلت الى مسامع (كولومبس) هي وغيرها من المعلومات البحرية والملاحية التي اعتمد عليها في محاولة الوصول الى الشرق من طريق الغرب نظراً لكروية الأرض ومما هو ثابت عند علماء هذا الشأن ان كولومبس درس قبل اقدامه على رحلته كتباً كثيرة تصف السفن العربية والآلات المستعملة في الملاحة عندهم كاصطرلابات ونحوها واطلع على اوصافهم للبلدان والبحار والجزر وعلى خرائطهم بل يقال انه وقف على كتاب جغرافي عربي واستعمله بنصه العربي مباشرة بدون ترجمة ولعله استعان ببعض المدجّنين ممن كانوا تحت النفوذ الاسباني وهذا الكتاب لا يزال موجوداً وقد عرض في السنة الماضية بمناسبة مرور خمسة قرون على ولادة كولومبس في المعرض الذي أقيم بسقط رأسه (جنوة) عندما زرتها بالصيف الماضي ولم يذكر اسم الكتاب المعروض وانما جعل تحت زجاجة مفتوحا وقد رسم على أسفل الصفحتين الظاهرتين خريطة تمثل منابع النيل ومسيله الى مصبه بالبحر الأبيض مما يدل على أن هذا الكتاب هو—

محتملاً فقط بل هو لعمري الراجح والا فلماذا لم توجد فكرة اكتشاف أميركا في انكلترا أو فرنسا مثلاً ، بل وجدت في أسبانيا وفي ليسبون حيث عاش الاخوة المغرورون لو لم تكن ثمة فكرة قديمة مختمرة في عقول أبناء البلاد .

وقول الشعوبية إن فاتحي العرب كموسى بن نصير انما يهمهم التغلب وتوسيع نطاق الاسلام دليل لنا لا علينا اذ أن طموحه هذا يجعله يفكر في وجود بلاد وراء البحار يتغلب عليها ويوسع بها نطاق الفتح العربي .

ولا معنى لقولهم : ان موسى لم يكن فلكيا ولا طبيعياً حتى يخطر بباله وجود قارة مجهولة لأن الطموح الى البلاد المجهولة ومحاولة الوصول الى

— (نزهة للشتاق) الادريسي لأنه هو أول من عين منابع النيل وبما أن هذا الكتاب - أي نزهة للشتاق - الذي كان بين يدي كولومبس هو الذي حكى لنا قصة محاولة الشبان العرب الاشبونيين (الليسبونيين) معرفة نهاية بحر الظلمات فلا شك ان هذه القصة من جملة ما أثر على فكرة للمكتشف الايطالي العظيم . وهكذا لم تذهب محاولتهم (الفتية المغرورين) كلها سدى وكان لهم نصيب في اكتشاف ماوراء بحر الظلمات اه .

عن مجلة الشرق كانون اول سنة ١٩٥٢

وأوضح العليم جيفري كبير المحاضرين في جامعة اوتوا وتو ستراند لعلم الانسان ان الرحالين العرب هم اكتشفوا القارة الاميركية قبل ان يبلغ كريستوف كولمبس سواحلها بنحو ٥٠٠ سنة .

وقد بنى العليم جيفري بيانه على اكتشاف جاجم من اصل حامي في مجرى نهر ريو كراندي منذ مدة وقال : ان العرب كانوا في القرن العاشر للميلاد يسيطرون على حوض البحر الأبيض وبلغوا السواحل الغربية للقارة الأفريقية ومن هناك اجتازت سفنهم المحيط الأطلسي ووصلت سواحل اميركة حيث اسس العرب بعض المستعمرات ، واستشهد العليم جيفري على صحة أقواله باكتشاف جاجم آدمية من سكان أفريقية في كهوف بجزيرة الباهاما الواقعة في خليج مكسيكو .

عن جريدة (النواعير) الحموية سنة ١٩٥٢

الأصقاع البعيدة هو من دأب كبار الفاتحين أمثال الاسكندر ونابليون وان لم يكونوا طبيعيين ولا فلكيين ، وقائدنا العربي موسى لم يكن أضعف همة منهم .

ولا معنى لقولهم إن موسى إنما هو فاتح يهمه أن يستولي على بلاد موجودة ولا يفكر في اكتشاف بلاد معلومة ، فقد ذكر ثقات المؤرخين (أن موسى لما أجمع أمره على فتح الاندلس وجزائر البحر أنشأ دار صناعة (ترسانة) بتونس لبناء السفن وأجرى خليجاً من البحر طوله اثنا عشر ميلاً وحفر للخليج حتى أقحمه دار الصناعة التي بناها فصارت مشى المراكب إذا عصفت الرياح ثم أمر بصناعة مئة مركب فصنعت له) .

فالذي ينشيء مثل هذه الدار لبناء السفن ويجري اليها مثل هذا الخليج لا يستبعد عليه أن يفكر في بلاد مجهولة ويحاول الوصول اليها وكثيراً ما يرجع الخلاف والنزاع بين فريقين الى اعتبارات لفظية : يقول الشعوبيون مثلاً إن الاكتشافات والمكتشفين والاختراعات والمخترعين — هذه أمور عصرية استجدت في الازمنة المتأخرة فمن أين للعرب المتقدمين أن يعرفوها ؟ فنقول لهم هذا انخداع بالالفاظ والا فان الذي استجدّ في عصرنا انما هو هذه الألفاظ التي ذكرتموها أما معانيها ومدلولاتها فامور قديمة مشتركة بين القدماء والمحدثين . فطموح (موسى) و (كولومب) الى بلاد بعيدة والتفكير في الوصول اليها — شيء واحد لكن المتقدمين كالعرب كانوا يسمونه (فتحاً وتغلباً واستيلاء) والمتأخرين سموه اكتشافاً واستعمارا . وان كان موسى أحب فتح البلاد الجديدة ليوسع بها نطاق الاسلام فان كولمب أحب فتحها ليوسع بها نطاق مملكة أسبانيا . وان قيل ان موسى كان يطمع بالغنائم فان كولومب أيضاً كان يطمع بالذهب . بل ربما كان موسى يريد أن ينشر في البلاد الجديدة دين قومه ولغتهم وثقافتهم ويتوسل الى ذلك بترغيب جنوده في الغنائم بينما كولومب لم يفكر الا في فتح طريق الى

بلاد الثروة وأن يكون رئيساً عليها : يدلك على ذلك انه لما عرض رأيه في اكتشاف أميركا على (يوحنا الثاني) ملك البورتغال قال له (إنه إذا فتح تلك البلاد كان له (أي لكولومب) الحق أن يكون نائباً عليها وأن يكون له عُشْر ايراداتها) فلم يقبل (يوحنا) منه ذلك وساء ظناً به .

فجاء كولمب ايزابيلا ملكة أسبانيا وقال لها : (اسمحي لي ببعض السفن لاكتشاف أراضي جديدة ذات ثروة وغنى بشرط أن أكون نائباً عنك وأن يكون لي عشر ما ينتج من تلك الاكتشافات) فغرض كولمب هو الزعامة والمال لا خدمة علم الجغرافيا والطبيعة والفلك حتى يقال انها أمور لم تخطر لموسى العربي على بال .

ولما وصل كولمب وبحارته الى أميركا وداسوا باقدامهم ترابها ملأوا الدنيا بعطعطتهم وصراخهم الذهب الذهب . ثم كان الأوروبي أو الاسبانيولي اذا رأى قرطاً من ذهب في أذن الهندي الاميركي أو خزامة في أنفه ولم يمكنه أن ينتزعها بلطف نزعها بعنف . ولو أدى ذلك إلى شرم الأنف .

ومن ثم قال بعض فلاسفة أوربا المنصفين (لم يشهد التاريخ فاتحاً أرحم من العرب) . فغير بدع اذن أن نقول أن موسى وقومه العرب كانوا يفكرون في الوصول الى بلاد جديدة وضمها الى العالم القديم لخير الانسانية وتوسيع نطاق الثقافة العربية(١) .

وصفنا لكم أيها السادة المقارنة بين موسى وكولمب من حيث علاقتهما

---

(١) كتبت هذه المحاضرة سنة ١٩٣٠ وفي أول سنة ١٩٣٢ اي في ٢٣ كانون ثاني قرأت في الأحرار خلاصة كتاب نشر في جريدة (الجامعة العربية) التي تصدر في القدس والكتاب مرسل من الاستاذ الاسبانيولي الغرناطي : (ميكال الفارس سلامنكا) الى الأمير شكيب أرسلان جاء فيه مانصه : (انني اعلم حق العلم انه لولا العلم العربي لما تمكن (خريستوف كولومب) من اكتشاف القارة الأميركية فلقد كان العرب على علم بطريق اميركا وكان هذا الطريق يعرف عندهم بطريق الهند) اهـ .

باكتشاف أميركا : أحدهما فكر وقدّر والآخر نفّذ الخطة وقرّر . على أن موسى — وإن لم يكتشف أو يستعمر بلاداً مجهولة — فانه استعمر بلاداً معلومة لا تقل عن أميركا في ذلك الزمان فائدة ونفعاً للعرب أعني بلاد الأندلس : ذلك الفردوس المفقود .

ومن مواضع العجب في المقارنة بين موسى وكولمب سوء المكافأة والمجازاة التي جوزيا بها . فاما كولمب فان قوماً سعَوا به لدى فرديناند ملك اسبانيا واتهموه بالخيانة لبلاده والكذب على مليكه فأرسل فرديناند الى أميركا وفداً فاحضره الى البَلاط مكبلاً بالقيود وعامله أسوأ معاملة . ومزق كتاب العهد الذي عاهده فيه بشأن اعطائه الولاية على البلاد المكتشفة . ولولا خوف هياج الشعب لقتله . ثم قضى كولمب باقي حياته في شيخوخة معذبة . ولما دنت وفاته أوصى أن يدفنوه وفي رجليه القيود التي كانوا كبّلوه بها . حتى إذا كان يوم الدينونة نهض من قبره ورسف بقيوده ووقف مع زميله موسى بين يدي ربه وقالا له : انظر يارب ماذا لحقنا من جور الخلق . فأنت الكفيل باقامة العدل ونصرة الحق .

لا جدال في أن الرجلين كانا من أكبر رجال التاريخ وأشهر نوابغ العالم الذين خدموا ملوكهم وبلادهم بصدق واخلاص فكان جزاء الرجلين من ملوكهم كفران الجميل . ومقابلته بالتعذيب والتنكيل كما فعل النعمان بسنّمار المسكين .

وموضع الغرابة في الأمر أن موسى بن نصير أهدى اسبانيا الى ملوك بني أمية وكولمب أهدى أميركا الى ملوك اسبانيا فجوزي كل منها بأقبح الجزاء وكانت ساحة الظلم وكفران النعمة هي اسبانيا المشؤومة . كأن ملوك اسبانيا قرأوا ما كافأ به الامويون فاتحهم العظيم موسى فتعلموا منهم هذا الدرس القاسي في معاملة فاتحهم العظيم كولمب . ومن الغريب أن الدهر نجمّ في وجه ملوك اسبانيا على سوء صنيعهم مع كولمب كما نجم

من قبل في وجه ملوك أمية فثلّ عرشهم وأباد ملكهم فلم تقم للأمويين قائمة كما أصبح من المتعذر أن تقوم لملوك اسبانيا قائمة في أميركا ، وهناك جمهورية (العم سام) تتربص بها الدوائر وقد وضعت يدها على تراثها ولم تبق لها من فتوحاتها الا مالايسمن ولايغني من جوع .

بقي علينا أن نعرف كيف كانت مجازاة ملوك بني أمية لقادم موسى . ذكر المؤرخون أن الخليفة الوليد بن عبد الملك كان يوجس خيفة من أخيه ولي عهده سليمان ويعلم أنه يتمنى موته ليتبوأ العرش مكانه فكان الوليد يكتب اليه معاتباً وسليمان يعتذر ويتنصل . وقد ظهر أثر الخلاف بينهما على أشده بعد ما فتح موسى بن نصير الاندلس وأراد العودة الى دمشق فكان الوليد يستحثه على القدوم خشية أن يموت ولا يرى الكنوز التي ظفر بها موسى في الأندلس بل يأخذها ولي عهده سليمان . وهذه الكنوز بمثابة ما يسمى (جواهر التاج) اليوم . وكان سليمان يرسل سراً الى موسى وهو قادم الى دمشق يأمره بالتريث والبطء أملاً بموت أخيه قبل قدومه ، فلم يطعه موسى ، بل قرر أن يمشي بموكبه مشياً طبيعياً : (مشي السحابة لاريث ولا عجل) . إذ أن في البطء خيانة لخليفته الوليد . وفي العجلة إغاظة لولي عهده سليمان وهو يحب أن يقف بينهما موقف الحياد .

ثم وصل موسى الى دمشق وبعد وصوله بأربعين يوماً مات الخليفة الوليد . وفي خلال هذه المدة تصرف الوليد بغنائم الاندلس كما يشاء . فكسر المائدة التي جاء بها موسى ويسمونها (مائدة سليمان) وعمد الى أفخر مافيها من الجواهر والى التيجان ومائدة الجزع فجعله في الكعبة . وفرق سائر الاعلاق النفيسة على ذويه وبطانته وخاصة أهله . كل ذلك نكاية بأخيه سليمان لئلا يتمتع بها بعده .

وما فعله الوليد على بشاعته أخف بكثير مما كان يفعله الملوك بعده . وأشهرهم في ذلك العباسيون والعثمانيون فانهم كانوا يقتلون أولياء العهود

ويمزقونهم شر ممزق . أما الوليد فاكتفى باغاظة ولي عهده وشفى قلبه منه بتمزيق غنائم الأندلس . ثم لما أفضت الخلافة الى سليمان دعا بموسى فعنفه وكان مما قاله له (والله لأقللنّ عددك ، ولأفرقنّ جمعك ، ولأبددنّ مالك ، ولأضعنّ منك ما كان يرفعه غيري ممن كنت تمشيه أماني الغرور) فجعل موسى يعتذر اعتذار الرجل الحر المخلص المؤمن فلم يقبل سليمان منه ذلك وأمر به فوقف في يوم صائف شديد الحر . وكان شيخاً كبيراً بادناً (أي سميناً) وبه نَسَمة (وهي علة الربو وتسمى علة الشعب أيضاً) فلما أصابه حر الشمس وأتعبه الوقوف هاجت عليه علته وجعلت قِرَبُ العرق تعتوره (أي كان العرق يتصبب منه بكثرة) حتى سقط مغشياً عليه .

وكان عمر بن عبد العزيز ذاك الخليفة الصالح حاضراً في المجلس . قال عمر : والذي منعني من الشفاعة فيه ما كنت أعلمه من قسم سليمان وحقده . فخشيت ان ابتدأته في الشفاعة به أن يلح عليه بالعذاب نكاية بي ، وما مر بي يوم كان أعظم عندي ولا كنت فيه أكرب من ذلك اليوم لما رأيت من الشيخ موسى (وأراد بالشيخ أنه هرم مسن) وما كان من بُعد أثره في سبيل الله وما فتح الله على يديه . قال عمر : (ولما وقع موسى الى الأرض التفت سليمان إلي وقال : ما أظن إلا أني خرجت من يميني) . قال عمر : فاغتنمت الفرصة وقلت : يا أمير المؤمنين ، شيخ كبير بادن وبه نسمة قد أهلكته وقد خرجت من يمينك : وهو موسى البعيد الأثر في سبيل الله العظيم الغناء عن المسلمين) ثم عفا عنه سليمان لقاء فدية عظيمة من المال وعاد الى قبوله في مجلسه وملاطفته في الحديث واستشارته أحياناً(١) . ثم عاد سليمان الى ايذاء موسى لأسباب عرضت : ذلك أنه

(١) ويظهر ان عمر بن عبد العزيز على عظيم اعجابه بموسى كان لايعجبه منه كثرة حبه للدنيا . فقد رووا ان ابنا صغيراً لعمر اهوى بيده الى دنانير امام—

بلغه أن عبد العزيز بن موسى (الذي استخلفه موسى على ولاية الأندلس) يريد الخروج من طاعة سليمان انتقاماً لأبيه فأرسل سليمان رجالاً اليه فاغتالوه وجاؤوا برأسه فبعث الى موسى والرأس بين يديه : فلما حضر قال له في ملأ من القوم : (أتعرف هذا الرأس يا موسى) قال نعم : هـذا رأس عبد العزيز . ثم وقف فأبّن ابنه تأبيناً مؤثراً فرد عليه سليمان رداً مُرمضاً . وأذن له أن يأخذ رأس ابنه فحمله في طرف قميصه وقام يشق صفوف الناس حتى خرج من المجلس .

غير أن سليمان عاد فعرف كذب ما بلغه من خروج عبد العزيز عن الطاعة فندم على قتله . ولكن هيهات ، أن يُرجع الندم مافات . أو يحيي عظام الأموات .

وفي كتاب (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج ١ ص ٢٣٢) ذكر سبباً لهياج الاندلسيين على عبد العزيز واغتياله . ملخصه أن زوجته (مرأة رذريق) حملته على أن يسجد الناس له كما كانوا يفعلون لزوجها فأبى فألحت ثم رضي بان تبني لمجلسه باباً صغيراً يطأطئون له فيه عند الدخول واقترحت أن تعمل له تاجاً ذهباً فأبى فالحت ففعل وقالت له : الآن لحقت بالملوك . فعلم الناس فقالوا تنصّر وثاروا عليه فقتلوه وهو يصلي وأرسلوا رأسه الى سليمان . وما وقع كان دسيسة من سليمان وهي من زلاته . اه ملخصاً .

وذكروا من جملة أسباب حقد سليمان على موسى ان موسى لما كان في الأندلس قُحِطَ الناس وأجدبوا فاحتفل لصلاة الاستسقاء فأمر الناس بالصيام ثم جمعهم في المصلى العام : المسلمون في جانب وأهل الذمة في

—أبيه ليأخذ منها . فقال عمر : امسكوا يده ثم رفع يديه وقال : (اللهم بفضها اليه كما حبيتها الى موسى بن نصير) ثم قال : خلوا عن الغلام فكأنما رأى بها (اي بالدنانير) عقارب .

جانب . والنساء في جانب ـ والصبيان في جانب ـ والبهائم في جانب . وخطب فيهم خطبة بليغة ولم يدعُ للخليفة . فلما اراد النزول قالوا له : (ألا تدعو لأمير المؤمنين ؟) فأجابهم (هذا مقام لايدعى فيه غير الله) ثم سقوا غيثاً مدراراً . وبالطبع كان في ذلك الاجتماع جواسيس فنقلوا الخبر الى سليمان وكان يومئذ ولي عهد . فعدّه عليه من جملة الذنوب .

ويروى أن بعض أصدقاء موسى لامه قائلاً : (لماذا لم تستقل بافريقية والأندلس وتخرج على الخليفة الذي نكبك بنفسك وابنك هذه النكبة ؟) فاجابه : لا تلمني فان الهدهد يرى الماء يجري تحت الأرض ثم هو مع ذلك يقع في الفخ . ولقد عوتب الهدهد نفسه هذا العتاب فقال : (إذا نزل القضا عمي البصر) .

* * *

أما اليوم التاريخي العظيم فهو اليوم الذي دخل فيه موسى بن نُصير من (باب الجابية) الى دمشق ، في موكب فخم يقلّ نظيره . وكانت أخبار قدومه وصلت الى الخليفة الوليد والى أهل دمشق وتجارها . وكانت خيل البريد اذا قعقعت بجهـــا عند باب الجامع المسمى اليوم بباب البريد — رأيت الناس يتراكضون زرافات ووحدانا يسألون عن الأخبار ويتخاطون الرسائل والمكاتيب . من ذلك مكتوب تلقاه تاجر من عميله في مصر يقول فيه :

(ان موسى بن نصير قام بموكبه من القيروان في تونس فمرّ على طرابلس الغرب وبنغازي ووصل الى مصر ، وكان وصوله يوم الخميس ٦ ربيع الأول سنة ٩٦ للهجرة فأقام فيها ثلاثة أيام ولم يبق شريف من أشرافها إلا زاره ونال صلته) .

ووصل الى دمشق فسرعان الناس من رفاق موسى فجعلوا يتحدثون عن الركب ويصفون مافيه من الغنائم والذخائر والأسرى وأخبروا أن موسى

وصل الى فلسطين ونزل على آل روّح بن زنباع فنحروا له خمسين جزوراً ومكث عندهم يومين ثم رحل بعد أن أسنى لهم الألطاف والهدايا . وأخذ أهل دمشق من يومئذ يتوقعون قدوم موسى وكان هو يسير الهوينا رفقاً بمن معه من الأسرى وفيهم الأطفال الصغار والملوك المترفون والنساء المنعّمات . وكان وصوله الى دمشق يوم الجمعة أوائل شهر جمادى الاولى من سنة ست وتسعين للهجرة ، وهو يوافق منتصف كانون الثاني من سنة سبعمائة وأربع عشرة للميلاد . فلم يكد يسفر صباح ذلك اليوم حتى هب أهل دمشق من مراقدهم مبكرين يحتفلون بقدوم فاتحهم العظيم موسى وقد أقفلوا مخازنهم سوى حوانيت الشوارع المؤدية الى الجامع الاموي ، وكان اليوم صاحياً والهواء بارداً والشمس ترسل أشعتها الذهبية فتلطف من قُرّ البرد . وما كانت شدة البرد لتمنع النساء والأولاد وعامة النساء من الانتشار في الفيطان والمروج الممتدة بين القدم وباب الجابية ، وكانت نساء الاكابر راكبات في الهوادج ومعهن الخدم والمماليك ، وكثر الزحام في شعب الطرق المؤدية الى باب الجابية ، لأن الناس يعرفون أن الموكب لابد أن يمر فيه الى الجامع . وكان بين الساعين لمشاهدة الموكب سيد كريم من الجوالي أي من أهل الحجاز المتوطنين في دمشق واسمه زرعة بن مضرّس الفقعسي وكان له صديق تاجر حانوته في باب الجابية فقصد اليه ومعه ابنه الشاب وصديق له من أهالي دمشق وراءه خادم يحمل بنتاً له في الخامسة من عمرها كان يحبها جداً واسمها (عمرة) ولم يصل الى الحانوت الا بشق النفس لما أن العامة والصبيان وفلاحي الغوطة كانوا يتدافعون ويتلاكمون من شدة الزحام وضيق الطرق .

وقد تعب التاجر صاحب الحانوت حتى أمكنه ايصال صديقه زرعة ورفاقه إلى حانوته ، فبسط لهم سجادة جلسوا عليها . وأخذ زرعة ابنته عمرة من الخادم وأجلسها في حجره . ثم سأل صديقه التاجر صاحب الحانوت عن الموكب ومتى يصل ؟ فقال يصل عند الظهر في غالب الظن . وأخذ التاجر يصف لهم تنقل الموكب في فلسطين حتى وصل الى الرملة

فحوران وانهم وصلوا أمس الى جابية الجولان وباتوا على التل المسمى : (تل الجابية) فقال الدمشقي صديق زرعة (حماهم الله من الأفاعي) فضحكوا فسأله زرعة وكيف ذلك فاجابه التاجر ، وكان خبيراً بقرى حوران : ان ذلك التل مشهور بكثرة حياته . ثم جعلوا ينظرون الى المارة وأزيائهم ومختلف لغاتهم : يهود يتكلمون العبرانية ، ونصارى سريان من بقايا الآراميين يتراطنون السريانية ، ونصارى من عرب غسان ، وجوالي من عرب الحجاز يتباغمون بالعربية الفصحى ، وغرباء آخرين : أنباط وتدمريين يتكلمون بلغة بين العربية والسريانية ، وتجار من العراق مروا بقوافلهم في تدمر الى دمشق ، فاسرعوا إلى مشاهدة الموكب .

وكانت هذه الطوائف تسبح في بحر كثيف من الأهالي : نساء وصبيان ورجال وفلاحين وصناع وعامة ورعاع يخللهم ركاب الحمير والبرازين والأبل ويتوسطهم اللعّابون والمقلّسون(١) وأصوات أهازيجهم وزمورهم تملأ الفضاء . وكانوا كلهم مغتبطين برؤية هذا الموكب وما فيه من الغرائب والعجائب والكنوز والذخائر والأسارى المختلفي الأجناس والأزياء والسحنات . وكان للتاجر صاحب الحانوت معرفة باخبار الفتوحات الافريقية لكثرة ما كان يجتمع بالقادمين من أفريقيا والأندلس . فقال لزرعة ان موسى قد ظفر بما لايثمن من الكنوز والتحف والذخائر وبينها مائدة سليمان بن داود عليه السلام والتاج الذي نزل من السماء . فتعجب الشاب العربي ابن زرعة وسأل التاجر : كيف ينزل التاج من السماء ؟ فعبس أبوه في وجهه وأسكته . ثم سأل زرعة التاجر عن موسى بن نصير من أي البلاد هو ؟ فقال : هو شامي فلسطيني من موالي بني أمية وأبوه من جبل الخليل بفلسطين وولد ابنه موسى في قرية (كفر مندي) من قرى تلك النواحي . وقد نشأ

(١) التقليس استقبال الولاة عند قدومهم بالطبل وصنوف اللهو .

فطناً عاقلاً . وكان جسيماً ضخم الجثة : يحكى أن معاوية أرسله هو والمهاجر ابن دَعْلج الى أبي الأعور السُّلمي قائد حملة قبرص . فلما قدما عليه رأى موسى بن نصير أجسم من المهاجر فقال (ماينبغي للسلطان أن يستعين إلا بالجسيم لهيبته) . ثم قال التاجر : ولكن موسى أعرج . ومع هذا لم يمنعه عرجه من بلوغ مدينة سرقسطة (سراكوسا) الواقعة في أقصى الأندلس شمالاً . ومن ثم أطلق العرب عليها اسم (الثغر الأعلى) وقد تجاوزها موسى إلى بلاد فرنجة (فرنسة) وبلاد البشكس (وهي الواقعة على الخليج المسمى خليج بسكي أو خليج كاسكونيا بين فرنسا واسبانيا) . ولما دخل موسى بلاد البشكس وجد فيها قوماً كالبهائم وسيّر المراكب الى جزائر بحر الروم وفتح صقلية (سيسليا) وسردانيا وارسل ابنه عبد الله الى جزيرتي (ميورقة ومنورقة) ففتحها وتسمى غزوته هذه غزوة الاشراف لكثرة ما كان فيها من أشراف الناس . قال التاجر :

وكان موسى يلوم عقبة بن نافع فاتح المغرب ويقول انه غرر بنفسه منذ أوغل في بلاد البربر حتى قتلوه . فلما فتح موسى بلادهم انتقم فبطش بهم وسبى نحو عشرين الفاً منهم وهرب ملكهم (كسيلة) من وجهه . قال : ويحدث الركبان عن الغنائم التي غنمها موسى في الأندلس باخبار لا تكاد تصدق : من ذلك أنه جاءه انسان فقال ابعثوا معي حتى أدلكم على كنز ، فبعث معه نفراً من رجاله فقال لهم انزعوا ههنا فنزعوا فسال من الزبرجد والياقوت شيء لم يروا مثله قط . فلما رأوه بهتوا وقالوا لايصدقنا موسى فارسلوا اليه فجاء فنظر بعينه . ثم قال التاجر وهذا ليس بالامر العجيب وانما العجيب ماسمعته من حاشية قصر الخلافة ذلك أن موسى رأى في بعض الجزائر ستة عشرة جرة خضراء مختومة بخاتم سليمان ففتح واحدة فاذا شيطان ينفض رأسه وهو يقول : والذي أكرمك بالنبوة لا أعود بعدها أفسد في الأرض . ثم نظر الشيطان حوله فقال : والله لا أرى

سليمان بن داود ولا ملكه ، ثم انساخ في الأرض وغاب . عندها أمر موسى بالجرار البواقي فردت الى أماكنها . فلما سمع الشاب العربي ابن زرعة هذه القصة عن سليمان بن داود حلف بانها لا أصل لها وانما اخترعها بعض اليهود تعظيماً لشأن ملوكهم وانهم أسبق من العرب في النبوة والملك . فانتهره أبوه زرعة فلم ينته وعقب قائلاً : ان رواج هذه الاساطير بيننا معشر العرب يشوّش عقائدنا ثم يخبّل عقولنا . فاجابه التاجر : مهما شككت في حوادث فتح الأندلس لايمكنك أن تشك في خبر مائدة سليمان فاراد الشاب أن يتكلم فاسكته أبوه وقال للتاجر : هات خبرك عنها فقال : لما فتح العرب طليطلة وجدوا فيها داراً تسمى (بيت الملوك) وقد سموها بذلك لأن فيها حجرة نسقت فيها تيجان ملوك الأندلس وعددهم ٢٤ ملكاً وقد كتب على كل تاج اسم صاحبه وعمره ويوم ولايته ويوم موته . وفي الدار حجرة أخرى جمعت ماشاء الله من الطرف النفيسة والذخائر الثمينة . من ذلك مائدتان احداهما من جزْع[1] . والاخرى أعجب منها . ولذلك سموها (مائدة سليمان) . وقالوا في صفتها انها من ذهب وفضة خليطين تتلوّن صفرة وبياضاً مطوقة بثلاثة أطواق لؤلؤ وياقوت وزمرد . وليس لها أرجل وانما ترتكز على قاعدة من ذاتها ، وهي ثقيلة وضخمة حتى أن البغل الذي حملها لم يسِرْ بها منقلة (أي مرحلة) واحدة حتى تفتحت قوائمه . ولما أراد موسى أن ينقل التيجان والمائدتين من الاندلس الى افريقية أمر أن تقطع عليها الاغشية (أي ثياب تجللها وتحفظها من التلف) وأقام عليها الحراس والامناء يصونونها من مس الايدى . وكانت شيئاً لاتدرى قيمته . فاجابه زرعة : سمعت أن رجال موسى كانوا يظفرون بالطنفسة المنسوجة

(١) الجزع بفتح فسكون حجر كريم اشهره اليماني وفيه سواد وبياض . سمي (جزعا) من قولهم جزعَ الوادي قطعه عرضاً فهو : مقطع بخطوط عرضية بألوان مختلفة من سواد وبياض .

بقضبان الذهب المنظوم باللؤلؤ والياقوت والزبرجد فكان البربريان ربما وجداها فلا يستطيعان حملها حتى يأتيا بفاس فيضربا وسطها فيأخذ أحدهما نصفها ورفيقه نصفها والناس مشتغلون عنها بغنائم أخرى .

وقد خشي أهل التقوى والصلاح من اقبال الدنيا عليهم بزينتها وزخرفها حتى زعم بعض أولئك الصالحين أنه سمع هاتفاً يقول : أيها الناس قد فتح عليكم باب من أبواب جهنم . فاجابه تاجر الجابية : ومع هذا فقد بلغني أن موسى حفظ الغنائم فلم يقسمها بين الفاتحين وأرسل الى الخليفة الوليد يستأذنه في قسمتها ، وتأخر جواب الخليفة ورأى موسى الكثيرين من جنوده قد رثت حالهم وبدت عليهم آثار الخصاصة والفقر فصعد المنبر يوم العيد في مدينة القيروان وخطبهم خطبة بليغة وأعلن قسمة الغنائم بينهم وإذا لم يوافق الخليفة على قسمتها ضمنها هو لبيت المال . وزيادة على ذلك منح موسى المجاهدين المعوزين معونة يعطيهم إياها كل سنة من ماله الخاص .

فأكبر العرب هذه المأثرة من موسى . وقال شاعرهم في مدحه :

قد سنّ موسى سنة وأثرا ... مآثراً محمودة لن تنكرا
بالقيروان فاق فيها البشرا ... معونة أطابها وأكثرا
لما علا في العيد فينا المنبرا ... كأنه البدر إذا ما بدرا
أصبح موسى بالتقى مؤزّرا ... أحيا التقى فينا وأحيا السورا
فالحمد لله الذي تكبرا ... أعطاك ملكاً وحباك الظفرا

وكان زرعة وجماعته تارة يتحدثون باخبار موسى ومآثره وطوراً ينظرون الى الجماهير المتدفقة أمامهم تدفق السيل . فتهلل زرعة وبدت على وجهه أمارات العجب والمباهاة وقال حقاً إن هذا اليوم من مفاخرنا معشر العرب وأكبر مظهر من مظاهر عزنا . وما ضرّ موسى بن نصير مافعله بعد اليوم : فقد أتى عملاً تحفظه له الاجيال القادمة . وأي عمل أعظم من أن يركز راية

الاسلام على اسوار (سرقسطة) الواقعة في حدود بلاد الفرنجة (فرنسة) .

فقال تاجر الجابية حدثني بعض جنوده الذين عادوا منذ شهر وكان شهد معه فتح (سرقسطة) أن موسى كان مصمماً على مجاوزتها في مجاوزة بلاد الفرنجة . قال الجندي فخفنا أن يحيط بنا العدو ويهلكنا فاوعزنا سراً الى (حنش بن عبد الله) أحد أخصاء موسى فافضى اليه بهذه النصيحة قائلاً :

كنتَ يا موسى تلوم عقبة بن نافع على تغريره بنفسه في بلاد البربر حتى قتلوه وتتعجب من عدم وجود ناصح ينصح له وها أنا ذا أيها الامير ناصحك اليوم : أتلتمس غنيمة أفضل مما غنمت ؟ أتريد أن تطأ من أرض العدو أكثر مما وطئت ؟ لقد بلّغك الله أن جعلك أبعد المسلمين أثراً في الجهاد وفتح عليك مالم يفتحه على أحد من القواد . وقد أحب جندك السلامة واشتاقوا الى الأهل والولد فارجع راشداً أيها الأمير . فاجابه موسى : قد قبلت نصيحتك وشكرت لك عليها . ثم رجع وكان بعد ذلك يقول : والله لو انقادوا لقدتهم حتى وقفتهم على رومية العظمى ثم ليفتحنّها الله على يديّ إن شاء .

ولم يكد تاجر الجابية يتم حديثه هذا حتى رأوا الجماهير يتراجعون القهقري واشتد الزحام الى أقصى مداه واذا الناس يهتفون : ها قد وصلت طليعة الموكب ، واذا الناس يحاذبون رجلاً دمشقياً من سرعان جيش موسى أسرع كي يرى أهله وأولاده ، فأخذوا يسلمون عليه ويستوصفونه الموكب وهو يقول : سترون سترون .

وكان هذا الجندي صديقاً لتاجر الجابية فناداه اليه وألح عليه أن يجلس معهم ويريح نفسه قليلاً . وكان الرجل شعثاً مغبراً يلهث من التعب فجلس وقدم اليه التاجر كوباً من شراب نبيذ التمر فشربه وأطفأ به عطشه ثم مسح شاربيه . ونفض الغبار عن عارضيه وأخذ يحدثهم عن مسير موسى منذ فارق القيروان حتى وصل رملة ثم حوران وقال انه هو

فارقهم من هناك . فسأله زرعة وماهي ركائبهم ؟ قال : إن أميرنا موسى أمر أن تصنع له عجلات (أي عربات) فصنع له منها مائة وثلاثون عجلة فاعدها لحمل الغنائم عدا الابل والبغال للركوب . وقد أمر أولاده وامراء جيشه وأشراف قومه أن يتهيأوا للذهاب معه الى دمشق والدخول اليها بشكل موكب كما أمر جميع عظماء البلاد والجزائر التي افتتحها أن يتهيأوا أيضاً ليأخذهم معه واستخلف على الاندلس ابنه عبد العزيز الملقب (بطل افريقية) كما استخلف على أفريقية ابنه الآخر عبد الله . وأمر أولاده الآخرين أن يصحبوه . ثم اشتد تهامس الجماهير وتطلّع النظارة ، وران السكوت على الناس واتجهت الابصار الى فوهة الطريق واذا طلائع الموكب أقبلت فقال الجندي انظروا :

١ً) هؤلاء الذين ترونهم في مقدمة الموكب هم (مروان) و (عبد الأعلى) و (عبد الملك) أولاد أميرنا العظيم موسى بن نصير . فاذا هم شبان رائعو الطلعة حسنو الشارة وآثار النجابة والنخوة العربية بادية على وجوههم . وجاءت بعدهم كوكبة من الرجال فقال الجندي :

٢ً) هؤلاء الأشراف والسادات من قريش والانصار وسائر قبائل العرب والموالي . قال الشاب ابن زرعة للجندي : وهـــذا الفوج الذي بعدهم ؟ قال :

٣ً) هؤلاء مائة من عظماء قبائل البربر (زناته وصنهاجة سكان شمال أفريقية الأصليين) وفيهم بنو (كسيلة بن لمزم) وبنو (قصدر) وغيرهم من أولاد ملوك البربر . ولما سمع زرعة اسم (كسيلة) شتمه وقال : انه هو وقومه الذين قتلوا قائدنا الاكبر والفاتح الأول عقبة بن نافع رضي الله عنه . فقال الجندي : ولكن أميرنا موسى بن نصير أخذ ثأر عقبة : ففتك منهم عشرين الفاً ولم يكتف بهذا القدر من أخذ الثأر بل تزوج ابنة ملكهم (كسيلة) فضحكوا وقالوا حقاً إن العرب أشد الأمم ولوعاً في أخذ الثار .

٤ً) ثم لم يرُعهم إلا رجل في الموكب بيّن الجلالة وافر العظمة فقال الجندي : هذا ملك السوس الاقصى المسمى (مزدانة) وكان عاملاً للروم في تلك البلاد وسم عاصمته (أرسان) وقد أسره (مروان) بن موسى في المعركة . قال :

٥ً) وهذا الذي بعده ملك جزيرة (ميورقة) من جزائر بحر الروم أسره عبد الله بن موسى . واذا بكوكبة ممتازة في زينتها وحسن شارة رجالها فقال الجندي :

٦ً) هؤلاء عشرون ملكاً من ملوك جزائر بحر الروم . وأطلّ بعدهم فوج أكثر عدداً منهم فقال الجندي :

٧ً) هؤلاء مئة ملك من ملوك الأندلس ومن القرطبيين والافرنجيين (يعني الافرنسيين) وغيرهم . قال : وكان مروان ابن الامير أسر أحد هؤلاء الملوك .

٨ً) وبعد مرور أفواج الرجال جاء دور الغنائم فقال الجندي انظروا هذه المئة والثلاثون عربة تحمل مائدة سليمان والتيجان والذهب والفضة وأصناف الحرير والوشي وما شاء الله من ضروب المتاع الثمين والآنية الفاخرة . ثم تلا ذلك عجلات أخرى فقال الجندي :

٩ً) هذه العجلات تحمل أصناف مافي كل بلد من البلاد المفتتحة من بزّها ودوابها ورقيقها وطرائفها ومالا يحصى من خيراتها[1] .

م في هذا واذا الجندي ينهض واقفاً . ويصرخ هاتفاً :

١٠ً) وهذا هو أميرنا العظيم موسى بن نصير قد أقبل عليكم يا أهل الشام يجرّ الدنيا وراءه جرّاً . فاشرأبت الاعناق وتعالت الاصوات بالدعاء

(١) أقول وهذا القسم من الموكب يشبه المعارض الجغرافية التي تقام في ايامنا هذه لعرض محصولات المستعمرات .

لموسى ولأولاده بالدعاء والثناء على جهودهم العظيمة . فكان موسى يلتفت اليهم ويقابل دعاءهم بابتسامة متواضعة بريئة كما يقولون اليوم . وبقي موسى سائراً حتى بلغ الدار الخضراء أو القبة الخضراء وهي اسم لقصور خلفاء بني أمية واقعة في قبلي الجامع (حيث حارة النقاشات اليوم) وبينها وبين الجامع دهاليز كان يدخل الى الجامع منها . فقسم موسى موكبه الى قسمين : قسم مؤلف من أبناء ملوك البربر والروم وصقلية (سيسليا) وسردينيا وميورقة ومنورقة وأبناء ملوك الاشبان (أي اسبانيا) وأبناء ملوك افرنجة (أي فرنسة) : كل هؤلاء يلبسون التيجان ويأخذون زينتهم وأجمل ثيابهم ويقفون صفوفاً على باب الدار (الخضراء) وتكون معهم العجلات المثقلات بخزائن الأموال والجواهر . أما القسم الآخر فثلاثون ملكاً من ملوك الأقاليم يضعون تيجانهم على رؤوسهم ويلبسون حللهم الرسمية التي اعتادوا لبسها في أعيادهم . ثم يدخلون مع موسى الى جامع بني أمية . وعلى هذا الترتيب دخلوا الجامع وقت صلاة الجمعة والخليفة الوليد يخطب الناس على المنبر وهو موهون (أي مصاب بالواهنة أي المرض العصبي) وقد أثرت فيه العلة ونهكه المرض . فما راع جمهور المصلين الا موسى والملوك الثلاثون فتصايحوا من كل جانب : موسى ، موسى !!

ورآهم الوليد من فوق أعواد منبره داخلين من أبواب الحرم فبهت اليهم . ثم أقبل موسى حتى سلم على الوليد ووقف الملوك الثلاثون بالتيجان من عن يمين المنبر وشماله . عندها عاد الوليد الى خطبته فحمد الله وأثنى عليه وشكره على ما أيده به وفتحه عليه ثم تكلم بكلام لم يسمع منه قبل اليوم . ثم صلى بالناس ورجع الى قصره ودخل عليه موسى وأخذ يعرض عليه رجال الوفد وملوك الأقاليم :

بدأ أولاً بملوك البربر ثم ملوك الروم فملوك الاشبان فملوك افرنجة . ثم قدم اليه رؤساء قبائل العرب الذين كانوا معه من قريش وغيرهم .

فأحسن جوائزهم وفرض لهم في الشرف(١) وفرض لأولاد موسى كذلك وخصائة من مواليه . ثم عرض ما قدم به من التحف والطرف والهدايا : فقدم الدر والياقوت والزبرجد والوصفاء والوصائف والوشي ومائدة سليمان ومائدة الجزع وتيجان ملوك الاشبان .

فسر الوليد بذلك سروراً عظيماً وصب على موسى ثلاث خلع وأجازه بخمسين ألف دينار (أي عشرين ألف ليرة ذهبية) .

* * *

هذا أيها السادة مظهر من مظاهر عظمة الاسلام قبل أن يمر عليه قرن واحد من بدء ظهوره . ثم ان المسلمين غيروا ما بانفسهم من أخلاق وآداب وقصروا في مايجب عليهم إتقانه من علوم وفنون فأخذ ملكهم عن جنوب أوروبا وشمال أفريقية يتقلص رويداً رويداً . ومجدهم في تلك الربوع وفي غيرها يتضاءل قليلاً قليلاً . حتى لم يبق للمسلمين من جميع ما كان في أيديهم . سوى بقايا دموع تترقرق في مآقيهم .

فيا مجد قومي عليك العفا ويا ذلك الملك عليك السلام

(١) الشرف بفتحتين او هو الشُرَف جمع شرفة وهي خيار المال اي انه فرض لهم رواتب من خيار المال واعلاه درجة .

رحلة إلى القاهرة *

« ١٣٤٩ هـ و ١٩٣١ م »

بين دمشق والقاهرة

إذا ركبت قطار السكة الحجازية في محطة القنوات بدمشق ، فانطلق بك صاخباً ينساب بين حدائق الغوطة الغناء ، تحت باسقات الأدواح ، وبين قصيرات الجنبات ، وخلال مخضرات البقول على أنواعها ، سيراً مع قنيّ بردى وسواقيه وجداوله التي لاتحصى ، وقد آذنت تباشير الربيع بتفتق البراعم والعيون عن أفانين الزهر ومخضل الورق ، وبدت على يمينك بلاس وداريا وغيرهما من القرى فتذكّر قول الصنوبري :

ونعم الدار داريّا ففيهـــا صفا لي العيش حتى صار أريا
ولي في باب جيرون ظباء أعاطيها الهوى ظبياً فظبيـا
صفَت دنيا دمشق لمصطفيها فلست أريد غير دمشق دنيا

ثم إذا طلع بك الجبل المانع وهو يلهث تعباً ، فاستقبلتك اللجاة بحرّتها السوداء ، فطواها على عجل الى حوران . فتذكر قول جرير في صفاتها :

هبت شمالاً فذكرى ماذكرتكمُ عند الصفاة التي شرقيّ حوران
هل يرجعن ، وليس الدهر مرتجعاً ، عيشٌ بها طال ما احلولى ومالانا

وإذا بلغ بك وادي اليرموك ، فانحدر فيه قلقاً حذراً يتئد في سيره ،

(*) محاضرة القاها الأمير مصطفى الشهابي في السادس من تشرين الثاني سنة ١٩٣١ .

وأنت تذكر روعة التاريخ في وقعة ذلك الوادي الشهير ، وتمتع ناظريك بأزهاره الفتانة التي تنبتها الطبيعة على أنواع واصناف لاتعد ، ثم استقبلك نهر الأردن ، وبدت أمامك بحيرة طبرية ، فقف هناك واذكر دمشق والأردن وقل مع اليزيدي :

ماذا بقلبي من دوام الخفق اذا رأيتُ لمعـــان البرق
من قبل الأردنّ أو دمشق لأن من أهوى بذاك الأفق
ذاك الذي يملك مني رقي ولست أبغي ما حييت عتقي

وتبدو لك بعد قليل بيوت بيسان وأشجارها ، وهي تنظر من علي الى غور الأردن ، كأنها تدفع عنه صروف الدهر ، ومن العجيب أنك لاتشاهد حولها كرماً ، مع أن خمورها كانت مضرب الأمثال فيما مضى . ولا أزال أذكر البيت الذي قاله عبد الرحمن بن سيحان بن أرطاة في سبيئة بيسان أي خمرها وهو :

سبيئةٌ من قرى بيروتَ صافية عذراء أو سُبئت من أرض بيسان

وليس في مرج ابن عامر مايستوقف نظرك الا كثرة الصهيونيين فيه وفي السهول التي تقطعها في اليوم الثاني جنوبي حيفا ، حاشا طول كرم وقلقيلية ورملة ولد فانها حمت نفسها منهم ، ولا يزال يصح فيهـــا قول كثيّر :

حموا منزل الأملاك من مرج راهطٍ ورملة لدٍ أن تباح سهولهـــا

وكأني بك ذاكر قبيل الغروب ، وقد بلغ القطار غزة ، قول الامام الشافعي فيها :

واني لمشتاق الى أرض غزة وإن خانني بعد التفرق كتماني
سقى الله أرضاً لو ظفرتُ بتربها كحلتُ بهمن شدة الشوق أجفاني

ومتى أرخى الليل سدوله رأيت القطار يضرب بمن فيه صحراء التيه

دون أن يتيه ، لأن السكة أمامه ممدودة تتلوى كالأرقط ، وهو كما قال الحافظ ابراهيم : حديد ينساب فوق حديد ، فلا خوف في دخوله التيه أن يضل كما ضل قوم موسى أو يجازف بمجازفة المتنبي في قوله :

ضربتُ بها التيه ضرب القمار إما لهـــذا وإمـا لذا

وإذا ما جزت قناة السويس في الفنطرة ، وركبت قطار مصر ، فانطلق بك في دساكر القطر ومستغلاته ، فلا تطمع بان تمتع نظرك في الليل الا بمصابيح البلدان والمدن التي يمر بها القطار حثيثاً ، أو يقف بها هنيهة وقفة القليق الذي لم يبلغ الغاية في سيره . حتى اذا بدت لك مصابيح القاهرة المشرقة ، حق عليك أن تحيي مصر بصرخة شبيهة بالتي خرجت من فؤاد شاعرنا الياس فياض :

سلامٌ على مصرٍ ولو عشت أدهرا لما كنت الا طول عمري مسلما
على موطن لو خير المرء موطنا من الأرض لم يختر أبرّ وأكرما
سرت في أهاليه عذابة نيلـــه وسال فما إن تعرف الماء منها

القاهرة

ولا تعجبنّ بعد خروجك من المحطة ليلاً لوفرة الأنوار المتألقة في ساحتها ، وفي شارع الملكة نازلي الطويل البديع ، ولا لروعة تمثال نهضة مصر الذي يجب أن تحييه تحية من يعشق الحرية أينما كانت فكيف في عاصمة الفاطميين والأيوبيين ، ولا لازدحام السيارات والعجلات ، وضخامة الأبنية ، وكثرة المارة ، ونظافة أرض الشوارع المصقولة صقلاً ، فانت في مدينة أوربية في عظمتها ، شرقية في روعتها ، وهذا المزيج هو ما يستخفك ويستهويك . فلست في الاسكندرية ولا في بور سعيد حيث رطانات الاجانب بمختلف الألسن الأعجمية تجعلك تتمنى أن تصمّ أذناك الى حين ، وحيث

يظهر هؤلاء الأجانب أمامك بمظاهر تود معها لو كان لك عينا المعري ربما تنسلّ من بينهم بسرعة الكهرباء .

انك أينما سرت في القاهرة تجد شوارع نظيفة واسعة ، وأبنية كبيرة شاهقة ، وحدائق مزدانة باجمل أشجار البلاد الحارة . وتجد أيضاً جوامع قديمة وحديثة رائعة ، وقصوراً مبنية على الطراز العربي ، تأخذ نقوشها وزخارفها وتطارزها بمجامع القلوب . فحدائق الأزبكية والنباتات والقناطر الخيرية والحيوانات والأسماك والمعادي وغيرها وهي كثر ، ثم جوامع السلطان حسين والرفاعي وابن طولون وسيدنا الحسين والأزهر ومحمد علي وعشرات غيرها من آيات الفن المنبثة في انحاء المدينة كلها تحملك على الاعتقاد بان القاهرة هي أروع مدينة لا في الشرق العربي وحده بل في الشرق الأدنى بلا جدال . وأجمل من المدينة سكانها . فانك لا ترتطم فيها بعدد كبير من صلفاء الأجانب ، بل الجمهور الذي تقع عليه عينك أحد اثنين مصري أسمر بشوش مرح محتفظ بطربوشه القصير ، أو مصرية سمراء كحلاء لفاء في الغالب هيفاء في الأقل ، تختال في الحرير الاسود سافرة الوجه أو مسبلة عليه نقاباً أرق من دين صاحب البيت الآتي في الخمرة وأخاله أبا نواس :

عتقتْ في الدن حولاً فهي في رقـــة دبي

نعم لقد رقت النقب على وجه السيدات المصريات حتى طار نصفها لدى نصفهن ، وأوشك النصف الثاني أن يلحق باخيه وصرت ترى السيدة المصرية تجلس الى جانب الرجل في مجالس الأدب وابهـــاء المحاضرات والحدائق والمسارح وغيرها ، دون أن يعد ذلك منها خروجاً على المألوف من العادات . وولّدت المدنية الاوربية هذه الحال تدريجياً . فالمرأة المصرية أسلم فيها عاقبة من المرأة التركية التي حملوها قسراً على أخبث مافي السفور من أمور مستقبحة . ومن المعروف أن القرويات في مصر كالقرويات في

بقبته البيزنطية العظيمة ، ومآذنه الرشيقة العالية ، فنحيي فيه ضريح مؤسس النهضة الحديثة بحرمة وخشوع . ثم نمتطي السيارة فنطلقها شمالاً الى شبرا فالقناطر الخيرية ، حيث نشاهد ذلك السدّ العظيم الذي بدأ به محمد علي فأقامه في وجه النيل ، وأتمه بعده خلفاؤه . وحيث تقع العين في الجزيرة التي ولدتها الترع على حديقة غناء من أجمل حدائق العالم ، تتسابق فيها بالجمال وأشجار الفصيلة الصنوبرية ، وهن ملوك دوحة النبات ، وأشجار الفصيلة النخلية وهن امراؤها ، دع سائر شجر التزيين كانواع السنط والجميز ، ودع مختلف الأزهار . وأعجب لأرض الحديقة كيف أوجدوا فيها تلك المنعطفات والمنحدرات والتلال الصنعية ، وكيف زينوها بتراويق الزهر وتعاريجه . واذا ما أضفت الى خضرة الحديقة وزرقة النيل حمرة وجوه الحسان المرحات فانت اذن في الجنة التي فضلها أمير الشعراء على جنة الخلد ، عندما هتف بسينيته المشهورة في الأندلس :

وطني لو شغلتُ بالخلد عنه نازعتني اليه بالخلد نفسي

أم نيمم الجنوب في القطار الى حلوان بلدة عبد العزيز بن مروان ، فنعيد الى الخاطر ما كان بنى الأمير فيها من دور وقصور ، وما زرع من بساتين وكـــروم ، ثم نزور حمامها الكبريتي الشهير ، فنرى بناءً عربياً فخماً بنته الحكومة ، يحتوي على عشرات من الغرف والمقاصير النظيفة ، فيها مغاطس تملأ بالمياه الكبريتية أو المياه العادية ، وقاذفات للبخار أو الهواء الحار . وكأني بك أمام هذه الوسائل الحديثة ذاكر حال حماماتنا الكبريتية في طبرية والحمة وضمير والسخنة وتدمر وغيرها ، وهي كما أوجدتها الطبيعة لم تعمل بها يد انسان ، ولم ينفق فيها دانق واحد .

ملاهي القاهرة

أم ترانا نترك الجد الى حين فنقفل بضع ليالٍ في شارع عماد الدين ؟

وماعهدنا عماد الدين الكاتب الذي جعله صلاح الدين في خاصته ، أخا لهو وطرب ، بل عهدناه على حد وصف الجاحظ لأمثاله : إلف تفكير وتنقير ودراسة كتب وحلف تبيين ولو لم يكن كذلك لما ألّف « خريدة القصر وجريدة العصر » في عشر مجلدات و« البرق الشامي » وهو سبع مجلدات في التاريخ ، وديوان شعر وديوان رسائل وغيرها ، فاذا صحت ، نسبة الشارع المذكور اليه « وهو ما لا أرجحه »[1] كان من عبث الدهر وهزله أن تجتمع أنواع الملاهي في شارعه حتى صار يعرف بها وصارت تعرف به . فهنالك تشاهد يوسف وهبي أشهر ممثل أنجبته مصر ، ومسرحه يعرف بالجد سواء من حيث التمثيل أو من حيث الآداب التي يشترط على المشاهدين أن يتحلوا بها . فانت لا تجد هنالك إخلافا بالمواعيد أو قهقهة أو مسامرة أو شرب ماء ، أو تدخين تبغ أثناء قيام الممثلين بعملهم . ومتى فرغ الممثلون من تمثيل أحد الفصول جعلوا لك بينه وبين أخيه وقتاً تدخل فيه بهواً واسعاً فتأكل وتشرب وتدخن وتطلق لسانك العنان . ويكاد يكون مسرح فاطمة رشدي متحلياً بالصفات المذكورة . وهو يمتاز بصاحبته التي تجلت برشاقة القد وجمال الصورة وجودة التمثيل فكانت أشهر ممثلات مصر على الاطلاق . ولقد أبدعت في رواية مجنون ليلى . تلك الرواية التي تعد من فرائد شوقي شاعر العرب الأكبر ، كما أبدع رفيقها أحمد علام . ولا شك أن التمثيل العربي في مصر لم يبلغ مستوى التمثيل في دار الأبرا الملكية ، حيث تمثل فرق أجنبية غالباً وهو لا يزال بعيداً عما شاهدناه من الروايات في أوربة . ولكن القصور على ما أرى ليس من عشاق التمثيل المصريين ولا في مؤلفي الروايات التمثيلية بل في ضيق ذات يدهم جميعاً . فلو مدتهم الحكومة بالمال الكافي

(١) بعد أن اطلعم صديقي احمد زكي باشا رحمه الله على هذه الدعابة قال لي في القاهرة ان شارع عماد الدين لاعلاقة له بالعماد الكاتب ، بل ينسب الى شيخ من المشايخ الذين الفت العامة ان تنحلهم شتى الكرامات !

لبرهن كل منهم على أنه أخو عبقر في عمله ولنهضوا بالتمثيل العربي الى المستوى الذي تتوق اليه .

وفي ذلك الشارع تسمع صوت عبد الوهاب ، يزينه تفنن صاحب الصوت بالغناء ، وانتقاؤه قصائد شوقي المتينة الحوك والجميلة المعنى . ولو أعطيت أم كلثوم صناعة عبد الوهاب ، ثم لو انتقت على الأقل قصائدها الغزلية من نظم فحول الشعراء المتقدمين أو المتأخرين لبلغت سدرة المنتهى ، ولتضاعف تأثير صوتها العذب الذي ما حاكاه صوت رجل ولا امرأة في البلاد العربية على مانعلم . ولا شك أن لحوك القصائد ومعانيها تأثيراً كبيراً في نفس المستمعين . فشتان من حيث السبك والمعنى مابين قول القائل :

متى ياجميل المحيا أرى رضاك ويذهب عنا الغضب
فاني محب كما عهدت ولكن حبك شيء عجب

وبين قول الثاني :

ليلى تردّدُ في سمعي وفي خلدي كما تردد في الأيْكِ الأغاريد
أغير ليلاي نادوا أم بها هتفوا فداء ليلى الليالي الخرّد الغيد

والأبيات من قصيدتين معروفتين الأولى تنشدها أم كلثوم والثانية ينشدها عبد الوهاب . وأما من حيث الفن فلا يزال ينقصنا الشيء الكثير من التنويع والتلوين والمفاجآت والتعبير عن مختلف الأحاسيس ، فقد مللنا ومل الناس الأنغام المحزنة المطردة بما فيها من نواح وعويل . ولست أقصد بذلك تقليد الفرنجة بانغام سمجة ، كالتي أخذ بعضهم يلحنونها في هذه الأيام . ليست بشرقية ولا غربية ، وهي جديرة بثقب طبلة الأذن سماجة وقبحاً .

وبعد هذا ماذا تراك لاقياً في شارع عماد الدين ؟ انك تلقى فيه ممثلين للروايات الهزلية ، ودوراً للروايات السينمية ، وفرقاً للرقص والخلاعة مما يجعل أمثال عماد الدين الكاتب « رحمه الله » يودون لو سماهم آباؤهم باسماء أخرى .

دور الكتب والصحافة

ولنعد بعد هذه الجولات الليلية الى حياة الجد في النهار ، ولنزر على عجل ما يتاح لنا زيارته ركضاً في أيامنا المعدودات . ولنبدأ بدار الكتب المصرية ، ففيها يلقاك مديرها العالم أسعد برّادة بوجه البشوش ويعرفك ببعض مساعديه ، وكل منهم أستاذ فاضل ، بحّاث عن الكتب ، نقّار خلال سطورها ، يدرك منها بالعين المجردة مالا يراه غيره بالمجهر . ولله ماحوته تلك الدار من نفائس الرقوق والمصاحف القديمة وغالي المخطوطات والكتب ، فانها ثروة في البلاد أي ثروة . وأعجب لجهود الذين يطبعون الكتب الأدبية في مطبعة تلك الدار فيخرجونها في تلك الحلل القشيبة التي اكتسى بها كتاب الأغاني ، وكتاب الأصنام ، وديوان مهيار الديلمي وعيون الاخبار للدينوري ، ونهاية الأرب في فنون الادب للنويري وأشباهها .

وهل يجوز أن نعود من مصر دون أن نزور رجال الصحافة والادب ولاسيما الشاميين منهم ، وهم في ذلك البلد قوة يحسب لها ألف حساب ، خدموا اللغة العربية بجهودهم ، وأثاروا الاذهان بمنتوجات عقولهم ، ومابرحوا الى اليوم قابضين على أهم الصحف إما مالكين لها أو كتاباً فيها ؟ وبأي يجب أن نبدأ ؟ وأي صحيفة أحق بالاكبار من المقتطف شيخ مجلاتنا العلمية ورأسهن ؟ وأي ذكرى في عالم الصحافة العربية أحق بالتخليد من ذكرى العلامة الفقيد الدكتور يعقوب صروف ، وهو لم يجاره أحد ، قبل مماته ولا بعده ، بسلاسة لغته العلمية وصحتها وسلسلة الابحاث فيها ، حتى أصبح جميع الكتاب الذين يقام لقولهم وزن يجزمون أن العلوم الطبيعية خاصة لم تكتب بقلم أصلح من قلم الدكتور يعقوب . ولئن حالت الاقدار دون رؤية الفقيد فقد متعتنا بخليفته فؤاد صروف ، وهو يبدو لك شاباً في رزانة الشيوخ وحنكة أصحاب السياسة والادارة ؛ ليس له بساطة

العلماء واسترسالهم في الاحاديث وان كان منهم ، بل تراه يزن كلامه كما يزن بعينيه مخاطبه . وقد دل حتى اليوم على أنه جدير بان يقوم لحمل المقتطف الثقيل خير قيام .

ونجد في تلك الدار دار المقتطف والمقطم ذلك الشيخ الجليل والسياسي الاقتصادي المحنك الدكتور فارس نمر ، الذي له علينا حق المواطن على ابن بلدته (حاصبيا) وحق الصحافي القديم الذي ما برحت صحيفته تسير على وتيرة واحدة منذ نصف قرن تقريباً . وهنالك أيضاً خليل ثابت بك رئيس تحرير المقطم ولولبها الذي يسيرها بحكمته المعروفة ، وقلمه السيال المتزن ، على الخطة التي رسمت لها .

واذا ما انتقلنا الى دار الاهرام «وهي أقدم الصحف اليومية الحاضرة» دهشنا لعظمة ذلك البناء وظننا أنفسنا في احدى دور الصحف الاوربية الكبرى . وهنالك نجد شخصيتين بارزتين في عالم الادب والصحافة ، أولاهما شخصية الاستاذ داود بركات رئيس تحرير « الاهرام » بل قلبها الخفاق وسر الحياة فيها ، وهو يشجيك بدهائه وفرط ذكائه ووفرة نكاته التي يأخذ بعضها برقاب بعض . ولم أجد أقدر منه على القيام باعمال مختلفة في آن واحد . فقد كان في مكتبه يقص علينا من نكاته العذبة وينظر في قصيدة بعث بها أحد الشعراء ويصحح عدة أخبار قبل نشرها ، ويتلقى وصفاً لاحدى الحفلات ، كل ذلك في آن واحد وبسرعة البرق ، وبدون أن يمل أحد أو يهضم حق أحد .

أما الشخصية الثانية في « الاهرام » فهي شخصية الكاتب الفذ والوطني الصادق الوطنية الاستاذ أسعد داغر . وقد وجدناه على ماعرفناه منذ اثنتي عشر سنة في دمشق ، لم يبدل أي شيء في مبدأه الوطني ومشربه ، وأما « دار الهلال » فلم تبق داراً لمجلة الهلال وحدها أي على ماتركها المؤرخ الشهير الذي خدم قراء العربية أجل خدمة وهو المرحوم جرجي زيدان

صاحب تاريخ التمدن الاسلامي وتاريخ آداب اللغة العربية وتاريخ العرب قبل الاسلام وروايات زيدان التاريخية الخ ، بل قام أبناؤه الافذاذ من بعده بعمل كبير فاصدروا مجلات « المصور » و « كل شيء » و « الحياة المصورة » و « الفكاهة » بالعربية و « les images » بالفرنسية ، حتى صرنا نجد في تلك المجلات رسوما جميلة للحوادث السياسية والاجتماعية والقصص وللكائنات الغريبة مما لا عهد لقراء العربية به من قبل . وقد فقدت الهلال بعد مؤسسها مادتها التاريخية ، لكنها اعتاضت بها مقالات أدبية لعدد من أدباء اليوم ، كما ازدادت رونقاً وبهاء بما ذكرنا ، فصارت مجلة طبقة من الشعب أكثر عدداً من التي كانت تقرؤها فيما مضى . ذلك انه اذا شذا المرء شيئاً من مبادىء العلوم في مدارس التجهيز ودور المعلمين والمدارس الأهلية والأجنبية ، لذت له قراءة مجلات دار الهلال ، واستفاد مما فيها من معلومات ، ومتع نظره بصورها ، وتفكه بما حوته من نكات مستملحة وأحاديث لذيذة . اما اذا حملته على قراءة المقتطف بما فيها من مواد علمية وفنية جافة فسرعان ما يمل منها لأن تلك المجلة ليست لمثله ، بل هي لمن زادت معارفهم على معارفه . ولما كان عدد خريجي مدارس التجهيز وخريجي المدارس العالية محدوداً اذا قيس بسواد المتعلمين ، كان قراء مجلات دار الهلال أكبر عدداً من قراء المقتطف . وأنت ترى أن كلا من مجموعة دار الهلال والمقتطف ضرورية لقرائها .

ومن الشاميين الأشاوس الاستاذ محمد علي الطاهر صاحب جريدة « الشورى » المعروفة ببلائها في سبيل القضية العربية . ومن الادباء الذين يعمل واحدهم عمل الجماعة صديقنا الاستاذ محب الدين الخطيب صاحب مجلتي « الزهراء » و « الفتح » الذي صحح وطبع « أدب الكاتب » لابن قتيبة و « البيان والتبيين » للجاحظ و « خزانة الأدب » للبغدادي . وقد بدأ أخيراً بمعجم لسان العرب فطبع جزءه الأول . وهو مثابر على تنقيح

أجزائه السائرة وطبعها . وله على الاشتغال باللغة وآدابها همّة لا تحاكيها إلا همة الجبابرة .

ومنهم شاعر دمشق الكبير خير الدين الزركلي صاحب قاموس الاعلام في تراجم أشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين في الجاهلية والاسلام والعصر الحاضر ، وهو سفر ثمين في ثلاثة أجزاء . ومن الغريب أن عيني لم تكد تقع على عينه (وقد حال الفرنسيون دون رجوعه الى الشام) حتى تذكرت قصيدته التي يحن بها الى الشام حنين الثكلى الموجع الى فقيدها . تلك القصيدة التي بكيت عندما تلوتها منذ بضع سنوات ومطلعها :

العين بعد فراقها الوطنا ... لاساكناً ألِفتْ ولا سكنا

وهو يختمها بقوله :

إن الغريب معذب أبداً ... ان حلّ لم ينعم وان ظعنا
لو مثّلوا لي موطني وثناً ... لهممت أعبد ذلك الوثنا

رده الله الى دمشق ليسمعنا صداحه الفتان في بردى والربوة والنيربين ودمر وجيرون والغوطة فكلها له مشتاقة .

ومن الذين لهم شخصيتان بارزتان الأولى علمية والثانية سياسية العلامة الدكتور شهبندر ، فقد ألفتْ جميع العلماء المصريين والشاميين يحترمون فيه غزارة المادة العلمية . ولا أظن أحداً غيره جمع هاتين الشخصيتين فجلى فيها الا العلامة الأمير شكيب أرسلان ، وهو الذي لا يضاهيه أحد بين كتاب العربية بكثرة منتوجات قلمه ، حتى ان الانسان ليحار كيف يجد الأمير متسعاً من الوقت لكل ماتخطه أنامله ويسيل به دماغه على القراطيس .

أما الآنسة ماري زيادة التي اختارت لنفسها أسم « مي » (ولله ماأعذبه اسما) فهي كبيرة أديبات العربية في يومنا هذا بلا منازع . زرتها مع

صديقي العلامة أمين باشا المعلوف صاحب معجم الحيوان . بعد أن تلطفت واجتمعت بي مع رهط من العلماء والأدبا في فندق « كونتنتال » فاذا بي في دارها وكأنني في هيكل الأدب الأسمى وقدس النبوغ والعبقرية . واذا باحاديثها تنم على أدق ما تلمسه مشاعر الانسان . وقد خيل اليّ انني في حضرة احدى سيدات الملأ الأعلى اللواتي كنت أقرأ عنهن في كتب كبار الأدباء الفرنسيين . وما كدنا نودعها ونخرج حتى ابتدرني الصديق الامين قائلاً : (انها مخيفة) ، فقلت صدقت يا باشا ، وماذا أخافك منها ؟ قال حدة ذكائها ووفرة معلوماتها الأدبية . قلت : أما أنا ففرط احساسها لدقائق الحديث حتى كدت أرى نفسي غير قادر على مجاراتها فيه .

ومن الكتاب الشاميين الذين يكتبون في الصحف المصرية الاستاذ سامي السراج والاستاذ توفيق اليازجي ، وهما من فحول الكتاب الصحفيين ، ولهم في الجرائد المصرية تأثير أي تأثير . ومنهم الكاتب نجيب شاهين والكاتب حنا الخباز وكلاهما مجيد . وقد اشتهر الدكتور شخاشيري بما يكتبه في المقتطف من الفصول الطبية الطلية ، كما اشتهر الاستاذ نسيم اصيعة بمقالاته السياسية والاقتصادية عن الشام . ولم أر من يعالج قضية البلاد بمثل قلمه وخبرته وحفظه الوقائع والحوادث .

وهنالك خليل مطران شاعر القطرين ، بل شاعر الحياة والحقيقة والخيال جميعاً الذي قال فيه أخي الشهيد عارف الشهابي في تذكرته منذ ٢٤ سنة : « .... نعم إن شعره شعر المستقبل الذي ستزدهر فيه آداب اللغة العربية ولقد كسر الشاعر قيود التكليف ، وهدم صروح التقليد ، واندفع بعامل الشعور والاحساس فهتف بما هتف وكان هتافه شعرا . ولو لم يكن من فضائل ديوان الخليل سوى خلوه من الهجو والمديح (عدا قصيدة أو قصيدتين) لكفى » .

هذه صورة صغيرة للصحافة الشامية في مصر ، ومن حظنا بمشاهدتهم

من أرباب الأقلام الشامين فيها . ولكثير ممن لم نسعد بلقياهم فضل كبير كالعلامة صاحب المنار ، والاستاذ اسكندر مكاريوس صاحب اللطائف المصورة ، وهي منتشرة في الشام ، والاستاذ المعروف أسعد خليل داغر ، والكاتب الفذ نقولا الحداد ، والاستاذ اليان سركيس صاحب معجم المطبوعات العربية والمصرية وغيرهم .

أما الصحافة المصرية فيهات أن تمكن في أيامنا المعدودات من ابداء رأي فيها وفي رجالها الأفذاذ . وكيف وقد صار لدى اخواننا المصريين جرائد ومجلات لا تقل قيمتها عن قيمة أمثالها في الغرب ، وذلك بغزارة مادتها ، وتنوع حوادثها ، واخصاء كتابها بمختلف الموضوعات ، ووفرة النسخ التي تطبعها . مثالها جريدة السياسة ، والسياسة الاسبوعية والبلاغ ، والبلاغ الاسبوعي والفلاح والضياء والكوكب والجهاد وغيرها وهي كثر . وصار يكتب فيها أدباء وكتاب ذاع صيتهم واستفاضت شهرتهم أمثال العقاد والمازني والزيات وهيكل والمبارك وعوض ولطفي جمعة وعبد الرازق ومنصور فهمي وعنان ودياب وغيرهم من فحول الكتاب .

وهل يجوز أن تعود الى الشام قبل أن تزور الجامعة المصرية ونشاهد أبنيتها وحدائقها الجميلة في الجيزة ؟ فهنالك يلقانا من أساتذتها الاديبان الشهيران أحمد أمين وعبد الوهاب عزام ، ويجمعانا في اليوم الثاني الى رهط من الرجال الافذاذ الذين تتألف منهم لجنة التأليف والترجمة والنشر ، فاذا بكل منهم عالم أخصائي في فرع من العلوم ، واذا بهم يبسطون لنا على منصة كبيرة نحو أربعين كتاباً عربياً ألفوها او صححوها وطبعوها طبعاً غاية في الدقة والنفاسة .

رجال العلم والمال

وكيف نغادر القطر قبل أن نجتمع نحن وبعض العلماء المصريين الذين

اتصلنا بهم صلة العمل في موضوعات متقاربة ، والفضل في تعريفنا بهم يرجع الى الصديقين الكريمين أمين باشا المعلوف والدكتور عبد الرحمن الشهبندر . فقد مهدا لنا السبيل لرؤية العلامة المحقق الدكتور أحمد عيسى صاحب معجم أسماء النبات وكتاب التهذيب في أصول التعريب وكتب ورسالات شتى في أبحاث طبية . والعالم المجد (الذي يناقرني من حين الى آخر وأناقره في الاصطلاحات العلمية) الدكتور محمد شرف صاحب معجم العلوم الطبية والطبيعية ، وهو أول معجم كبير في بابه ، فيه فوائد كثيرة وفيه أيضاً أغلاط كثيرة . والدكتور الأديب الدمث الأخلاق أحمد زكي أبو شادي ، الذي نقرأ أشعاره وبحوثه في ديوانه وفي المقتطف ، والذي أجاد في ترجمة « العاصفة » خاصة وهو من عشاق أحد فنوننا الزراعية أي تربية النحل ، وله فيه كتاب ومجلة ، وله اليه دعوة ونداء ، والشيخ الجليل أحمد زكي باشا صاحب دار العروبة (وحق على كل عربي يدخل مصر أن يزورها) الذي له على اللغة العربية وآدابها أكرم يد ، بما جمع ورسم من شتيت مخطوطاتها ، وصحح وطبع من غالي دررها القديمة . وهو ما فتيء منذ عشرات من السنين يناضل عنها وعن أبنائها بقلم العالم الناضج .

وممن اجتمعنا نحن وايام المحامي القدير والقانوني الكبير محمد علي باشا علوبة وزير الأوقاف السابق الذي له على العالم العربي يد المدافع عن العراق مدافعة البطل الغيور ، وله الرأي الصائب في ايجاد معلمة (موسوعة) يتوفر عليها علماء الشرق العربي كافة . ومنهم الأديب المعروف السيد علي عبد الرازق صاحب كتاب « الاسلام وأصول الحكم » وهو الكتاب الذي ترك في العالم الاسلامي دوياً ، لأن صاحبه توخى فيه اثبات أن لاخلافة في الدين الاسلامي ، ومنهم الأديب العراقي الكبير الشيخ كاظم الدجيلي ، والدكتور أحمد قدري قنصل العراق العام في مصر ، وكان رفيقنا في

بارز أيام الدراسة ، وكنا نسميه في تلك الأيام قنصل العرب لما كان له من عطف على جميع التلامذة من أبناء الضاد . ومنهم طلعت باشا حرب مدير بنك مصر ومؤسس نهضة مصر الاقتصادية . وهو الرجل الكبير الذي قرن العلم الى العمل ، فأوجد للمصريين قوة كبيرة من المال المشترك كان الاجانب يمصون ثروة البلاد بمثله . واذا شئت أن تعلم مبلغ ثقة المصريين بهذا البنك وببطله الذي صار يعد من رجال التاريخ الحاضر ، فسله عن مقدار الأمانات أي الودائع التي سلمها الأهلون الى البنك ينبئوك أنها كانت دون الثمانين من آلاف الجنيهات في السنة الأولى من تأسيسه ، أما اليوم فانها بلغت تسعة ملايين من تلك الجنيهات وهو مبلغ جليل . وقد تمكن البنك المذكور من تأسيس شركات وطنية مهمة لحلج الأقطان والغزل والنسج والنقل والملاحة وصيد السمك والطباعه وغيرها . وأسس فروعاً له في أنحاء القطر المصري وفي بيروت ودمشق . وبنى بناء في شارع عماد الدين جاء آية من آيات الفن العربي . واذا شئت أن تعرف كيف توصف القصور وزخارفها فاقرأ وصف هذا البناء الرائع بقلم الأديب الكبير الشيخ عبد العزيز البشري في عدد ٦ حزيران « يونيو » سنة ١٩٢٧ من جريدة السياسة الغراء .

المعرض الزراعي الصناعي

وحق علينا ، ونحن الذين ما برحنا منذ عشرين سنة نعالج الشؤون الزراعية والاقتصادية ، أن لا نعود الى دمشق قبل أن نزور المعرض الزراعي الصناعي الذي أقيم في السنة الحاضرة في أرض الجمعية الزراعية الملكية في الجيزة ، وقبل أن نلقي نظرة على المدرسة الزراعية العليا في الجيزة ، وعلى مؤسسات وزارة الزراعة المهمة . ولقد تمت لبلوغ هذه الغاية مساعي وزير الزراعة حافظ حسن باشا فاذا استقباله لي يدل على وفرة

أدبه وشدة عطفه ، وإذا به ممن زاروا الشام في الأيام الخالية . ومن النادر أن يزورها مصري كريم دون أن تترك في نفسه أثراً جميلا . وتقدم الوزير المشار اليه الى السيد حلمي أحد مفتشي الوزارة بان يكون دليلنا غير مكرّه ، فكان مثالاً للرجل الوديع من جهة والمهندس الزراعي الخبير ببلاده من جهة ثانية . فاما المعرض الزراعي الصناعي فقد تجلت فيه جهود المصريين حكومة وشعباً في سبيل الانتاج الزراعي والصناعي ، فكان أجمل صورة لذلك الشعب الشيخ الفتي والنائم المستيقظ . فهنالك أجمل مجموعة للأقطان في دار الجمعية الملكيـــة الزراعية ، وهنالك مصنوعات مصلحة السجون من مفروشات ومناشف ومنسوجات حريرية وصابون وسجاد وأحذية وآلات زراعية وأثاث ورياش ، ومنتوجات المدارس الزراعيـة ، ومعروضات أقسام وزارة الزراعة كقسم الحشرات وقسم النباتات وقسم الأقطان وقسم البساتين وغيرها . وهناك أجود غلات القطر الزراعية على أنواعها من حبوب وفواكه وخضر ونباتات صناعية . وهناك أيضاً مصنوعات الشركات التي اسمها بنك مصر ، والغرف المختصة بمديرية الصحة والاسعاف وهي جديرة بان تسمى مدرسة لحفظ الصحة . واذا أضفنـــا الى ذلك معروضات معامل الجلود والتبغ والصناعات الصغيرة المختلفة نكون قد أوجزنا في كلتين ما احتجنا في زيارته الى أربعة أيام ، وما نحتاج في درسه الى شهر على الأقل . ومما لاشك فيه أن اخواننا المصريين لم يلحقوا الشاميين حتى اليوم بالصناعات الوطنية الحديثة . وليس لديهم اليوم أمثال ما لدينا في سورية من معامل الدباغة والجوخ والنسج الحريرية ولا سيما « الكريب » ثم « التريكو » والجوارب وقمصان الكتان ومناديله وأنواع الحلويات وعود الكبريت والسمنت وغيرها مما لا أثر فيه لرؤوس المال الأجنبية . لكنه ليس ثمة ما يمنعهم من اللحاق بنا ومن تخطينا بمراحل . ولا شك أن السبّاق في هذا المضمار سيكون بنك مصر بعامله . ومن الملاحظ أن

مصر كالشام لايمكن أن يكون فيها صناعات كبيرة تخلوها من الفحم الحجري والحديد . لكن في وسعها أن تنتج كل ما يلزم لسكانها من الألبسة القديمة والحديثة ، وأن تصنع كل ما قلنا أنه يصنع اليوم في الشام فتستغني عن دفع ملايين من الجنيهات سنوياً الى البلاد الأجنبية .

وأما مدرسة الجيزة الزراعية العليا فهي لا تقل بمخابرها ومعداتها ووسائل التعليم فيها عما خبرناه في المدارس الأوربية الشبيهة بها . ومن بواعث السرور أن جميع الدروس تلقى فيها باللغة العربية دون غيرها . وكذا في مدارس الزراعة المتوسطة الواقعة في مشتهر والمنيا ودمنهور ، وفي مدارس التجهيز كافة ، وقد أخذت العربية تحل رويداً رويداً محل الانكليزية والفرنسية في سائر المدارس العليا كالطب والحقوق والهندسة وغيرها . ولكن كثيرين من العلماء والأساتيذ في مصر يذهبون الى ضرورة بقاء الانكليزية لغة للتعليم في كلية الطب ، وذلك خلافاً لرأينا في كلية الطب بدمشق حيث التعليم بالعربية .

الخلاصة

وبعد هذه صورة جد صغيرة لما شاهدته في رحلتي القصيرة الى القاهرة ونحن إذا رحنا نلخصها في أسطر قليلة ، أمكننا أن نقول : ان تلك المدينة الرائعة أصبحت اليوم رأس مدن الشرق العربي بعمرانها وبروعة آثارها الشرقية ، وان فيها نهضة علمية تتجلى في الجامعة وفي جماعة المجمع المصري للثقافة العلمية وفي عديد من الاخصائيين بمختلف العلوم ، ونهضة أدبية واسعة النطاق تسطع في جماعة دار الكتب المصرية ورجال لجنة التأليف والترجمة ونوابغ الشعراء وفحول الادباء من أساتيذ ومؤلفين ، ونهضة وطنية وسياسية لم نتعرض لهـــا ولكنكم تلمسونها كل يوم فيما

تقرأونه في الصحف المصرية ، ونهضة صحافية كبيرة لا عهد لمصر بمثلها من قبل ، وهي قائمة على جهود عدد لا يستهان به من حملة الأقلام المصريين والشاميين ، ونهضة مالية واقتصادية لها في حياة القطر المصري شأن كبير ومبعثها بنك مصر خاصة . فاذا أضفتم الى ذلك أن القاهرة عاصمة بلاد غنية يبلغ عدد سكانها اليوم ١٥ مليوناً من الناطقين بالضاد أدركتم الأسباب التي تجعل مصر زعيمة الشرق العربي وقلب العالم الاسلامي بلا منازع .

المصطلحات العلمية وألفاظها العربية*

كما تناول أحدنا معجماً علمياً باحدى اللغات الأوربية الكبيرة ، وأخذ يقلب صفحاته التي لا تحصى ، ويهوله ما تحويه تلك الصفحات في طياتها من آلاف الألفاظ في العلوم والمخترعات الحديثة ، ويروعه أن تكون لغتنا العربية خلواً منها أو من معظمها ، ويشوقه أن يظل الناطقون بالضاد صادفين عن الأخذ بيد هذه اللغة المباركة ، لاهين عن جعلها تتسع لعلوم هذه الأيام ، كما اتسعت لعلوم الاقدمين في السنين الخوالي .

وإذا ما تحدثت في هذا الأمر مع الذين درسوا العلوم الحديثة بلغة أجنبية يجيبك جمهورهم بانهم يائسون من صلاح لغتنا للأغراض العلمية في عصر الناس هذا ، فهي اذن على مايرون مقضي عليها إن عاجلاً وإن آجلاً . لكنك اذا استقصيت بواعث هذا الاعتقاد القاتم فيهم رأيتها تنحصر في شيئين : الأول جهلهم أسرار اللغة العربية ومكامن الحياة فيها ، والثاني قلة ثقتهم بكفاية من جعلوا أنفسهم أو جعلتهم السياسة قوّامين على هذه اللغة أفرادا كانوا أو جماعات أو حكومات .

فالجهل بوسائل النمو في اللغة العربية ليس معناه فقدان هذه الوسائل فهي موجودة يعرفها كل من جدّ في طلبها . وهي كامنة في اللغة ، لكنها تحتاج الى من يثيرها من مرقدها ، ويبعث فيها الروح ، فتعود الى الحركة ، وتعود العربية معها الى الحياة . ويتضح من ذلك أن السر في جمود لساننا ليس منبعثاً عن قصور هذا اللسان ، بل عن تقصير أبنائه ، وعن اهمال

(*) محاضرة القاها الأمير مصطفى الشهابي في اوائل عام ١٩٣٤ .

الحكومات التي تتكلم به . وقبل اثبات هذا الاهمال وذاك التقصير لابد لنا من ذكر أهم حاجات لغة الضاد . وذكر الذين يمكنهم أن ييسروا لها تلك الحاجات . فما تحتاج اليه العربية قبل غيره أصبح شيئاً معروفاً ، لكثرة لوك الألسنة له ، ووفرة سيلان الاقلام به على القراطيس . وخلاصته ايجاد ألفاظ عربية أو معربة لابحاث العلوم العصرية ، والمخترعات والمصنوعات والأدوات الحديثة ، وهي آلاف مؤلفة من الألفاظ . ولابد لمن يتصدون لوضع هذه الألفاظ من أن يجمعوا بين أمور ثلاثة أولها الاختصاص بعلم أو بفن وممارسته نظرياً وعملياً . وثانيها التغلغل في سرائر اللغة العربية ولاسيما فيما يتعلق بذلك العلم أو ذلك الفن . وثالثها اتقان لغة واحدة على الأقل من لغات أوربة الغنية بالعلوم والفنون . ولقد قلت في المجلد الثامن من مجلة المجمع العلمي العربي انه اذا فقد شرط واحد من هذه الشروط الثلاثة فقدت معه معظم الفوائد التي ترجى ممن يودون اصلاح لغة الضاد والعمل في احيائها بايجاد الالفاظ اللازمة للعلوم والفنون والمخترعات الحديثة .

واذا أنعمنا النظر في معظم مواهب علمائنا واستعرضنا هم واحداً واحداً ، نجد هذا فقيهاً باللغة العربية ، عليماً بصرفها ونحوها وبيانها وبديعها وعروضها ، لكنه يجهل حتى مبادىء العلوم الحديثة التي يتعلمها الصبيان في المدارس . وذاك قد درس العلوم وأتقنها بلغات اجنبية ، لكنه لم يحفل بلغته ، ولم يصعد لمدارستها ، فظلت صلته بها متراخية . وثالث حصل على الشروط الثلاثة التي ذكرتها ، لكنه اغتر بنفسه وحمّلها فوق طاقتها ، فراح يصنف معجماً أعجمياً عربياً في مختلف العلوم ، ويضع الألفاظ العربية جزافاً ، وهو يخبط في ذلك خبط عشواء ، وقد فاته أن عمر الانسان أقصر من أن يحيط بعلم واحد من العلوم الحديثة ، وان العالم المحقق ربما أفنى زهرة عمره في تحقيق ألفاظ هذا العلم دون أن يستوفيها كلها . ولهذا لابد لمن يجشم نفسه

وضع المصطلحات العلمية باللغة العربية من أن يقتصر في عمله على الألفاظ المتعلقة بعلم اختص به واطلع على دقائقه .

وقبل أن أبحث عن السبل التي يجب أن نسلكها في وضع الالفاظ العربية للمصطلحات العلمية يفيد أن أذكر كيف اهتدى الاوربيون إلى آلاف الكلمات التي أضافوها الى لغاتهم ، وماهي الطرق التي ساروا عليها لبلوغ هذا الهدف . ولنتمثل باسماء النباتات ، لأن في حديثها لذة ، ولانه جرت مراسلات فيما لا تخلو من فكاهة وفائدة بيني وبين المسيو غانيوبان أحد علماء النبات الاختصاصيين في متحف المواليد الفرنسي في باريس ، وهو صاحب معجم مخطوط في أصول أسماء الاجناس النباتية ، وله رأي قويم يتعلق بوضع هذه الاسماء .

تسمية النباتات :

لنفرض أن عالماً نباتياً رحل الى مجاهل أفريقية ، أو فيافي الجزيرة ، أو سهول الصين الفسيحة ، يلتقط الاعشاب ويتعرف اليها ، حتى اذا عثر على نبتة لا يعرفها ، راح يدرس تحليتها أي صفاتها النباتية ، فاذا بها مما لم يدرسه أحد قبله ، فالنبتة اذن جديدة عند النباتيين ، وعليه اذن يضع لها اسماً جديداً . وأول اسم يتبادر الى ذهنه اسم نفسه ، تنويهاً به وتخليداً له ، جزاء ما يلقاه ذلك العالم من النصب في عمله الشاق . وهذا شيء مستملح لا غبار عليه البتة ، وليس بامكان أحد أن يستقبح ايثار النفس على الغير في مواضيع كهذه . لكن صاحبنا النباتي له اسم واحد ، فاذا أطلقه على العشبة الاولى التي كان أول موجد لها ، فبماذا يسمي النباتات الاخرى التي يعثر عليها ، وقد تكون كثيرة تعد بالعشرات ؟ وهنا يجول في خلده تسمية النبات باسم الاقليم أو الكورة التي وجده فيها ولكن أسماء الكور في الشرق الأقصى أو لدى زنوج أفريقية كثيراً

ما تكون ثقيلة على السمع ، لتنافر مخارج حروفها ، أو لغير ذلك من الاسباب . فيعنّ على باله اطلاق اسم أحد العلماء على ذلك النبات ، فيستعرض أسماءهم ، فيرى أن كلاً منهم قد نسب اليه نبات من النباتات ، من قبل أحد النباتيين الذين تقدموه ، ولهذا يقف صاحبنا يائساً من ايجاد اسم لعشبته في هذه الناحية أيضاً ، فيتجه الى نواح أخرى أهمها درس صفات العشبة المذكورة في أوراقها أو أزهارها أو غير ذلك من أعضائها ، حتى إذا وجد في احدها صفة بارزة سمى العشبة باللفظة اليونانية التي تدل على تلك الصفة . وهكذا يظن النباتي أنه أوجد اسماً جديداً لجنس النبات الذي عثر عليه . لكنه كثيراً ما يتفق أن أجناساً نباتية أخرى تكون حائزة على الصفات نفسها ، وأن أحد علماء النبات كان أطلق اللفظة اليونانية المذكورة على جنس نباتي آخر ، فيرجع صاحبنا بالخيبة ، ويعود الى التفتيش عن صفات بارزة أخرى في عشبته ، أو يطرق أبواباً لم يطرقها بعد ، كتسميتها باسم أحد الآلهة الأقدمين ، أو بالاسم الذي يعرفها به أهالي تلك البلاد ، أو بالصفة الدالة على أهم ما فيها من الخواص الطبية أو الصناعية الخ .

ويتضح مما مرّ ذكره أن أحد علماء النبات منذ القرن السابع عشر الى اليوم قد لقوا عرق القربة من وضع أسماء علمية لأجناس النباتات العديدة ، فلا غرابة اذن أن يجيء بعض هذه الاسماء ثقيلة على الاسماع اذ ليس كل نبات يدعى حنطة أو شعيراً أو تفاحاً أو رماناً ، بل هنالك ألوف من الاجناس ومئات الالوف من الانواع والاصناف النباتية ليس لها أسماء حتى في أرقى اللغات الاوربية . ومن المستحيل أن تجيء كل الألفاظ التي توضع للدلالة عليها خالية من كل شائبة . والحال واحد في كثير من العلوم الاخرى كعلم الحيوان والجيولوجية والمعدنيات والطب والحشرات والآلات الزراعية والصناعية وغيرها فهي كلها تحتاج الى وضع آلاف مؤلفة من الاسماء العلمية

التي تسمو عن متناول العامة ولا يحفظها سوى الخاصة من الناس .

ويلخص حديثنا عن الطرائق التي اتبعها العلماء العشابون في وضع أسماء علمية لاجناس النبات بالامور الآتية : الأول تسمية النبات باسم الذي كشف عنه كقولنا لينية وفورسكالية فهما نباتان منسوبان الى النباتيين المشهورين لينيوس وفورسكال . والثاني نسبة النبات الى المدينة أو الكورة أو الاقليم حيث تكون منابته الطبيعية كلفظة أدينيا فهي من عدن العربية وقد وضعها فورسكال للدلالة على نبات وجده في عدن . والثالث الاحتفاظ بالاسم الذي عرفه القدماء كاليونان والعرب ، مثل كوفية فهي من القهوة ، وبستاسية من الفستق ، وموزا من الموز ، وكلها مأخوذة من العربية . والرابع نسبة النبات الى أحد العلماء أو الملوك أو الحكام المشهورين ممن أحبوا العشابين وعطفوا عليهم وأعانوهم في أعمالهم الشاقة مثل درويئية فهي منسوبة الى العلامة دروين الشهير وكوبرنيكية فهي نخلة نسبوها الى الفلكي كوبرنيك وهكذا . والخامس نسبة النبات الى أحد آلهة الاقدمين من يونان ورومان وغيرهم ، مثل مركورياليس فهي منسوبة الى مركور إله الفصاحة والتجارة عند اليونان ، وأبولونيكا فهي باسم أبولون إله الشعر والصنائع النفيسة وغيرها عند اليونان والرومان ، وباسيفلورا أي زهرة الآلام (يسمونها الساعة في دمشق) فهي تدل على آلام المسيح ، لأن زهرة هذا النبات تشبه خشبة الصليب ومسامير العذاب . وسماها الدمشقيون « ساعة » تشبيهاً لها بميناء الساعة وعقاربها . والسادس تسمية النبات بالنعوت الدالة على بعض خواصه الطبية أو الصناعية أو غيرها ، مثل بلموناريا ومعناها عشبة الرئة لانها تستعمل في بعض أمراض الرئة . ومثل مارتريكاريا ومعناها عشبة الرحم لانهم كانوا يستعملونها في أمراض الرحم . والسابع الاحتفاظ بالاسم الذي يطلقه سكان البلاد الاصليين على النبات المبحوث عنه ، مثال ذلك التسوغة وهي لفظة يابانية تدل على شجرة مشهورة من أشجار الفصيلة

الصنوبرية . ومثل سيكُريا وهي تطلق في كليفرنية على الشجرة الجبارة المنسوبة الى الفصيلة الصنوبرية أيضاً . والثامن الرجوع الى صفة بارزة من صفات النبات وتسميته باللفظة اليونانية التي تدل على تلك الصفة . وهذا الشكل في وضع الاسماء هو الاعم . مثال ذلك النبات أستيدسترا من الفصيلة الزنبقية ، فهو مبذول في بيوت دمشق ، وأراه أمامي وأنا أكتب هذا البحث . فهذه اللفظة معناها الدثريقة أي الترس الصغير ، لأن لزهرته ميسماً لحمياً غليظاً على شكل قبعة مستديرة محدبة تغطي الزهرة كغطاء القدر . ولنتمثل أيضاً بنبات ثانٍ تمثل به صاحبنا العالم النباتي الفرنسي الذي ألمعت اليه وهو النبات المسمى أكريدوكربوس ، فان هذه اللفظة مركبة من لفظتين يونانيتين ، معنى الاولى جرادة ومعنى الثانية ثمرة . فترجمة الاسم العلمي اذن عشبة الثمرة الجرادية أو الجرادية الثمرة . وفي الحقيقة اذا ألقى الانسان نظرة على ثمرة هذا النبات رآها تشبه جرادة طائرة مبسوطة الجناحين . وأسماء النباتات التي وضعت على هذه الطريقة تعد بالالوف ، ولهذا يقولون ان اليونانية واللاتينية هما للغات الأوربية معين لا ينضب . ولهذا أيضاً نرى علماء النبات يشعرون بماهية النبات أي يدركون تحليته من تلاوة أسمه . والعكس بالعكس ، أي اذا كان النباتي قديراً في صنعته يدرك من نظرة يلقيها على نبتة من النباتات أم صفات تلك النبتة ، كما يدرك الاسم الذي يجب أن يكون قد وضع لها . والتاسع اتباع طرق شاذة في وضع أسماء النباتات ، كأن يكون النبات منسوباً الى أحد العلماء ، لكن اسم هذا العالم طويل ويصعب التلفظ به ، فيحرفونه ويختصرونه حتى يسلس على اللسان ، ويرن جيداً في الاذن . وكأن يبدلوا مكان الحروف في اسم أحد النباتات ، أي يستعملوا القلب المعروف في اللغة العربية ، ويخلقوا على هذا الشكل اسماً جديداً لنبات جديد . ومما يتفق لهم أيضاً أن يضيق العالم بالأمر ذرعاً فيضع للنبات اسماً لا معنى له كلفظة لوازا الدالة

على زهرة معروفة ، فانها لامعنى لها ، وقد ركبها أدنسون من حروف وردت على خاطره عفواً .

النقل الى العربية :

أما وقد عرفنا كيف وضع العلماء الاوربيون أسماء لذلك العدد العظيم من النباتات أصبح من السهل علينا استنتاج السبل التي يجب أن نسلكها في وضع ألفاظ عربية أو معربة لها . واذا أنعمنا النظر في قائمة أجناس النباتات نجد أن فيها عدداً عرفه أجدادنا ووضعوا له أسماء عربية ، أوعربوا أسماءه اليونانية أو الفارسية أو السريانية ، كما نجد أيضاً أن فيها عدداً لم يعرفوه . فالقسم الأول ندع ألفاظه العربية أو المعربة على حالها ، ونستعملها كما وردت في المعجمات وفي كتب العشابين والزراعين والاطباء كابن البيطار والغافقي والادريسي وابن سينا وابن العوام وغيرهم بعد التثبت من صحة اللفظة ، لأن النساخ وعمال المطابع كثيراً مايعبثون فيها .

أما القسم الثاني فهو الأهم ، بل هو بيت القصيد ، لان ماجهله أجدادنا من النباتات يبلغ أضعاف ماعرفوه منها . ففي هذا القسم أرى أن نسير في وضع الاسماء للمسميات على الطريقة الآتية وهي : أولاً أسماء الاجناس النباتية المنسوبة الى أفراد من الناس (علماء وملوك وحكام وغيرهم) أو الى آلهة القدماء ، فهذه يجب أن تعرّب اما بان تترك على حالها ، واما بان تجعل بصيغة النسبة . مثال ذلك شجرة مكلورة فهي منسوبة الى المواليدي الاميركي المسمى مكلور . ولذلك نسميها مكلورة كما هي اللفظة العلمية أو مكلوريّة بصيغة النسبة . ولا يجوز لنا أن نعبث بتلك اللفظة واشباهها ، لانها انما وضعت للتنويه باسماء العلماء وأصحاب السلطان من محبي العلوم ، ومن حق هؤلاء على الناس أن لاتضيع أسماؤهم ، عملاً بارادة النباتيين الكاشفين الذين سموا النباتات بتلك الاسماء . لكنه من البداهة انه إذا

كان يوجد في لساننا لفظة عربية فصيحة تدل على نبات لفظته العلمية منسوبة إلى أحد العلماء فمن واجبنا في هذه الحال ترجيح اللفظة العربية . ومن الأمثلة على ذلك البقلة التي تطلق عليها اسم العكنوب فان الاسم العلمي الذي يدل على جنس هذا النبات هو غونداليا . وهي كلمة محرفة عن اسم الطبيب الالماني غوند لشيمر . فنحن لسنا بحاجة الى تعريب الكلمة العلمية المذكورة مادام يوجد لدينا كلمة عربية ترادفها .

ثانياً : أسماء الاجناس النباتية المنسوبة الى مدينة أو كورة أو اقليم ، فهذه أيضاً لابد من استبقائها على حالها ، أو جعلها بصيغة النسبة ، شريطة أن ترسم الاسم كما يرسمه العرب ، فيقال عدني لا أدني للنبات الذي يسمونه أدنيا وهكذا .

ثالثاً : أسماء الأجناس النباتية الموضوعة بلسان سكان البلاد التي عثروا فيها على تلك النباتات . فهذه أيضاً يجب أن نعربها ولنا أسوة في اللسان العلمي وفي جميع الالسنة الاوربية الكبيرة .

رابعاً : أسماء الاجناس النباتية الدالة على صفة بارزة من صفات النباتات . فهذه الاسماء (وعددها هو الاكبر) تترجم الى العربية بمدلولات معانيها ، فيقال اذن الدب للنبات المسمى أركتوتيس وزهرة الرمال للنبتة المسماة أريناريا وشجرة البهاء للشجرة التي تدعى كالودندرون الخ . وليس من المناسب على ما أرى تعريب هذه الألفاظ العلمية خلافاً لما شاهدت في بعض الكتب والمعاجم العلمية العربية ، لأن تعريب هذه الاسماء أي نقلها الى العربية على حالها يدل على أن الناقل يجهل معناها الأصلي ، أو على أنه لم يجشم نفسه تحري هذا المعنى اثناء النقل . وهو ملوم في الحالين .

وهنا أصل إلى مسألة لم أتعرض لها بعد في هذا البحث ، وهي أن اسم النبات العلمي يكون في العادة مركباً من لفظتين الاولى تدل على الجنس والثانية تدل على النوع . فكل ماأوردته الى الآن يتعلق باللفظة الدالة على الجنس وهي المهمة . أما اللفظة الدالة على النوع فانه يكون لها معنى في

معظم النباتات ، ولهذا يجب علينا أن نترجم هذا المعنى الى العربية ، لا أن نفعل كما فعل بعض أصحاب المعاجم العلمية الذين اكتفوا بتعريب لفظة النوع جهلاً منهم بمعناها . مثال ذلك كمبانولا برباتا ومعناها الجُريس الملتحي . فلفظة كمبانولا تدل على الجنس ، وقد ترجمناها بمدلولها وفاقاً لما مر ذكره . ولفظة برباتا تدل على النوع وهي صفة معناها الملتحي ، فلا يجوز أن نعربها بل ينبغي أن نترجمها بلفظة الملتحي . وهكذا في كل الالفاظ الدالة على النوع ، فنقول الجريس النبيل والجريس المجتمع الزهر والجريس الكبير الورق والجريس الخذروفي الخ .

واللغة العربية تتسع لكل الاسماء التي لها معان من هذا القبيل . والدليل على ذلك أني أوجدت في « معجم الالفاظ الزراعية » نحو ألفي لفظة عربية تدل على نباتات زراعية ما كان يعرفها أجدادنا وليس لها أسماء في لغتنا (١) . وقد نشرت قسماً صغيراً من هذه الألفاظ مع مرادفها من الألفاظ العلمية في رسالة أسميتها الرسالة النباتية طبعها مجمعنا العلمي العربي بدمشق سنة ١٩٣٢ .

أما الاسماء الدالة على الصنف (أي الضرب) النباتي فعددها كبير جداً . ويندر وجودها في المعاجم ، وهي توجد في كتب الأزهار والاشجار والكتب الزراعية والنباتية المهمة . واذا كان للكلمة التي تعبر عن الصنف معنى من المعاني القابلة للترجمة ، ترجمناها بمعناها ، والا تركناها على حالها ، أي عربناها اضطراراً ، كما يفعل الاجانب عندما ينقلون الى لغاتهم أصناف بلادنا ، فهم يقولون مثلاً قمح حوراني وبلدي ونورسي ، وعنب دارانى وزيني وقاصوفي ، تاركين ألفاظ الصنف (أي الحوراني الخ . .) على حالها .

(١) طبعت معجمي المذكور في سنة ١٩٤٣ بدمشق . وهو يحتوي على نحو تسعة آلاف لفظ في مختلف العلوم والفنون الزراعية .

وقد ازداد عدد الاصناف النباتية ، ولاسيما الزراعية منها ، حتى عجز أرباب الزراعة المشتغلين بايجاد الاصناف الجديدة عن ابتكار أسماء لها . لذلك نراهم أحيانا يرقمونها بارقام تدل عليها ، أو ينسبونها الى أشخاص من أقاربهم أو أصدقائهم أو صديقاتهم أو حبيباتهم . وربما سموها باسماء خيلهم او كلابهم أو حقل من حقولهم أو مكان يمثل ذكرى من ذكرياتهم وهكذا . وإذا أردتم أمثلة على ماذكرت راجعوا مئات الاصناف من الورد أو البغونيا أو الأقحوان أو غيرها من الأزهار والرياحين ، وأصناف الكرم وشجر التزيين ولا سيما الهجن الاميركية من الكروم المستعملة مطعَّمة لاتقاء أضرار حشرة الفيلكسرة المشهورة .

وجوه الاعتراض وردها :

هذا مجمل في أجناس النباتات وأنواعها وأصنافها ، وفي كيفية نقل كل منها الى العربية . ورب معترض يقول كيف ندخل على لساننا هذا الجيش الجرار من الاسماء المعربة لنباتات منسوبة الى أشخاص أو الى كوَر ، وقد تكون تلك الاسماء ثقيلة على السمع أو خارجة عن الأوزان العربية ؟ فنجيبه بان بعض الالفاظ المعربة قديماً ، ومنها ماورد في القرآن نفسه ، لا أوزان عربية لها كلفظ ابراهيم واباريسم وخراسان واطريفل الخ . فلم يمنع ذلك أجدادنا من أخذها وادخالها في لسانهم . وقد ذكر أهل اللغة أن المعربات لا يشترط فيها أن تكون على الأوزان العربية ، لكنه لا بأس بتشذيبها حتى تستوي على نهج كلام العرب واسلوبهم . أما أن يكون بعض الألفاظ المعربة ثقيلاً في الاذن فهذه مسئلة لا يعتد بها كثيراً ، لأن الأذن تألف بالممارسة أغرب الاسماء . والدليل على ذلك أننا لا نستثقل اليوم ألفاظ كرويا وباذنجان وانيسون ونرجس ونيلوفر وعشرات من أمثالها وكلها معربة قديماً . بل لانكاد نستثقل لفظة بطاطس وبنادورى وطماطم وهي أشد

وقفاً على الأذن من لفظة الكنهور التي لم ترق الفاضل الأديب الكبير أحمد أمين على ما صرح به في احدى مقالاته المنشورة في مجلة « الرسالة » وعلى حين أن لفظة الكنهور هذه لازمة لنا في علم الجويات ، وهي أخف على السمع من مئات من الالفاظ العلمية الاخرى ، بل ان هذه اللفظة (وأقول ذلك تفكهاً) يمكن استعمالها في الأدب والشعر اذا وضعت حيث يجب أن توضع كما في البيتين الآتيين وهما من قصيدة لي عنوانهـــا « حنين الى القاهرة » :

أين الكنهور في جوّ الشآم اذا ... كانون هاج أعاصيراً تغادينـــا
من رائق الجو في مصر وقد نسمت ... ريّا تداعب في الروض الرياحينا

ولا يظن أننا وحدنا نشكو ثقل بعض الالفاظ العلمية وصعوبة التلفظ بها . فنحن والاوربيون في ذلك سواسية ، لأن لغاتهم كلغتنا لا تهضم في باديء الأمر تلك الألفاظ ، لكن كثرة استعمالها تنتهي الى جعلها قابلة للهضم فلنا اذن أسوة فيهم .

هذا بيان موجز في الوسائل التي اتخذها العلماء الاوربيون لوضع ذلك العدد العظيم من الاسماء للمسميات النباتية . وهذه هي الطريقة التي أرى وجوب اتباعها لنقل تلك الأسماء الى العربية . وأظن أنه لم يسبقني أحد من كتاب العرب الى ايضاح هذه الطريقة على الوجه الذي جلوتها به . وهي التي يجب اتباعها في ايجاد المصطلحات العلمية في العلوم السائرة كالحيوانات ومنها الحشرات كالزراعة والطب وغيرها ، وخلاصتها أولاً تحري الالفاظ العربية الاصيلة والمعربة قديماً في كتب اللغة ، واستعمالها للدلالة على ما يقابلها من الالفاظ العلمية .

ثانياً : ترجمة كل ماله معنى سهل الترجمة من الصفات والموصوفات .

ثالثاً : تعريب ما ينسب الى شخص أو مدينة أو كورة أو غير ذلك من الاعلام وكذا كل ما يرجح ادخاله على حاله في متن اللغة كالراديو والفلم وأشباههما .

وهنالك طرائق غير ماذكرت ، يمكن الرجوع اليها في بعض العلوم كعلم الحشرات مثلاً . فمن المعلوم أن الحشرات آلاف مؤلفة ، وانه ربما أفنى المرء عمره في درس أنواع رتبة واحدة من رتبها . وقد قلت في احدى مقالاتي انني أعرف عالماً أوربياً اختصاصياً برتبة مغمدات الاجنحة سلخ عشرين سنة من عمره وهو مكب على أنواع هذه الرتبة درساً وتنقيباً ولما ينته بعد . وآخر لم يتناول من هذه الرتبة سوى فصيلة واحدة لا يتجاوزها الى غيرها من الفصائل . ومن المعروف أن لهذا الجيش الجرار من الحشرات أسماء علمية . لكنه ليس لعدد كبير منها أسماء باللغات الاوربية حتى اللغات الكبيرة منها . ونحن لا نحتاج الآن الى وضع أسماء لغير ما يهمنا من الحشرات ، أي لغير التي لها تأثير في صحة الانسان وفي مرافقه الاقتصادية . فالحشرات التي تؤثر فينا وفي زروعنا لا تتجاوز اليوم بضع مئات . وأمامنا طريقتان في ايجاد أسماء لها : فالاولى الرجوع الى أصل الكلمة العلمية وترجمة معناها ، اذا كان لها معنى سهل الترجمة ، أو تعريبها اذا كانت منسوبة الى أحد الاعلام ، وهي الطريقة التي تكلمت عليها باسهاب في النبات . والطريقة الثانية اضافة الحشرة الى النبات الذي تستولي عليه كأن يقال سوسة الفول وذبابة البرتقال وخنفساء الحنطة وفراشة الدقيق الشهباء وقملة الزيتون وبقة الخطمي وقتع ساق التفاح وأرقة القطن الخ . وهذه الطريقة أسهل من الاولى ، وأدل على نوع الحشرة وأضرارها . وهي متبعة في اللغات الأوربية لكثير من الحشرات وان كانوا يعدونها غير علمية . ومن المعلوم أن اتباعها يتعذر كلما كان للنبات الواحد حشرات عدة تفتك به . ومع هذا فقد سهل عليّ العمل بها في « معجم الالفاظ الزراعية » فيما يتعلق بجميع الحشرات التي يهمنا وضع أسماء لها .

ومن الشواذ نقل المصطلحات الكيماوية فهي وان كان لها معان يمكن

ترجمتها لكن كثيراً من العلماء يرون وجوب تعريبها وهو الأصلح في نظري فنقول كبريتاة وحامض كبريتو وحامض كبريتيك وهلم جرا لأنه من الصعب ترجمة الادوات العديدة التي تضاف على أول الاسم أو على آخره فتقلب مدلوله الى مادة جديدة . ومن الشواذ أيضاً اشتقاق أفعال ونحت كلمات جديدة لاغنى لنا عنها وان كان الاشتقاق والنحت سماعيين . ولا يجوز أن تجمد اللغة لان قدماء النحويين أو اللغويين أفتوا بانه لايجوز لأحد أن يشتق أو ينحت . ولو عاش هؤلاء في أيامنا هذه واطلعوا على العلوم الحديثة وما تستلزمه من الافعال والاسماء لكانوا أكثر تساهلاً في هذا الموضوع . ومن الأمثلة على الافعال المشتقة حديثاً سلفَر أي عالج بالسلفور وبرعم أي طعم بالبرعم . ومن الأمثلة على الالفاظ التي نحتوها أخيراً تحتربة من تحت التربة وهي طبقة من التراب تكون تحت الطبقة السطحية التي يتناولها المحراث الخ .

واذا رجعنا الى التاريخ نجد أن الذين نقلوا كتب العلوم القديمة الى العربية ، واضافوا الى لساننا مصطلحات عديدة لتلك العلوم ليسوا بلغويين ولا نحويين ، بل هم أناس هضموا تلك العلوم ، وأخضعوا اللغة لاغراضهم ، فنمت وازدهرت . ومن هؤلاء ثابت بن قرة الحراني وسنان بن جابر الحراني والطوسي وابن الخمي والنسطوري وحنين بن اسحق وابن ماسويه وابن وحشية وابن البطريق وقسطا بن لوقا البعلبكي والحجاج بن مطر وغيرهم . وعندما بدت حاجتنا الملحة الى وضع الالفاظ العلمية الجديدة منذ أوائل القرن الماضي الى اليوم لم ينبر لها أو لم يبرز فيها سوى من جمعوا بين العلم واللغة كأحمد ندي وعلي رياض وأحمد حمدي الجراح وفان ديك ويوحنا ورتبات وجورج بوست وبطرس البستاني وبشارة زلزل ويعقوب صروف ونفر من المستشرقين مثل فريتاغ ولين ودوزي وغير هؤلاء . أما اذا استعرضنا الاحياء الذين يعملون في احياء ثروة اللغة العربية نجد أن جلهم رجال اختصوا بفن من الفنون علمياً وعملياً ، فجعلوا يحثون عن الالفاظ المتعلقة به ،

فتيسر لهم الوصول الى ما يبتغونه او الى بعض ما يبتغونه . والخلاصة أن حاجة اللغة العربية الى المصطلحات العلمية لايسدها سوى الذين أشرت اليهم في بدء هذا المقال ، وهم الذين جمعوا بين الاختصاص باحد العلوم ، واتقان قواعد اللغة العربية والاطلاع على لغة واحدة على الاقل من لغات أوربة الغنية بالعلوم والفنون . اما أن نعهد الى النحويين واللغويين بوضع ألفاظ في الطب والزراعة والرياضة والفلك والحيوان والنبات والحشرات وأشباهها ، فمعناه كما قال الدكتور يعقوب صروف رحمه الله : « تخويلك قاضياً تطبيب الابدان وطبيباً تصوير الالوان » . فعلماء اللغة يستعان بهم في مراجعة بعض الالفاظ ، وفي ضبط بعضها . ونفعهم في هذا الباب لاينكر . لكنه ليس من الصواب تحميلهم فوق طاقتهم وانتدابهم لغير ما أختصوا به . واتساع الفنون في هذه الايام لايدع مجالاً في ميدان الأعمال المفيدة لغير الاختصاصيين من العلماء . وقد انقضى الزمن الذي كان الانسان فيه لايعد عالماً مالم يدرس العلوم بأسرها ومالم يصنف فيها جميعاً . ولاشك انه اذا تساند فقهاء لغتنا وعلماؤنا الاختصاصيون بالفنون الحديثة على العمل معاً في سبيل هذه اللغة قطفنا من تساندهم أينع الثمار وأزكاها .

الاسلوب العلمي عند علماء العرب (*)

مابرح الانسان ، منذ ما وجد على هذه الارض ، يتلمس بعقله وحواسه وأخيلته الواسعة مظاهر هذا الكون العجيب ، وأسرار هذه الحياة الدنيا وما برح يتساءل الى يومنا هذا عن أحاجي الكون التي لا عداد لها ، وعن علاقتها بذلك الانسان المسكين الذي يأتي الى العالم ، فيجالد في معترك الحياة ويكافح ، ويجد ويهزل ، ويفرح قليلاً ، ويتألم كثيراً ، ثم يدركه الفناء فيهلك مقهوراً مدحورا . ولكم ناجى هذه الطبيعة ، وتطلع الى العلة التي تسيرها ، وتأمل في الفضاء فلم يعثر له على حد ولا بدء ولا نهاية ، وفحص نفسه فاذا به يجهل ماهيته ، ويجهل من أين أتى والى أين يذهب . وحوّل فكره الى العالم ، فاذا به لايستطيع أن يعرف هل هو مخيَّر أم مسيَّر بجبرية لا تزحزح ، وهل أمامه رقي عام شامل ، أم هو يدور أبدياً على حاله ، ونظر الى الكائنات فلم يفقه ماهية حركتها التامة ، ولا الحكمة من تلك الحركة .

ولطالما شغلت هذه الامور الفلسفية الناس منذ فجر الخليقة الى يومنا هذا . ولشد ماتناقشوا فيها ، بل تشاحنوا ، بل تقاتلوا بل تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم . لكن هذه الاحاجي مالبثت على حالها ، كما أن العقل البشري مالبث أعجز عن أن يجد لها جواباً محسوساً ومعقولاً يرضى عنه العالم الحذر الذي لايسلم بغير مايقع تحت الحس ، أو يدرك بدلائل عقلية راهنة . وظهر في كل الأمم الكبيرة ، قديمة كانت أو حديثة ، فلاسفة استرسلوا في هذه الموضوعات

(*) محاضرة القاها الأمير مصطفى الشهابي في أوائل سنة ١٩٢٤ .

بحثاً وتعليلاً كما شاؤوا وشاءت أهواؤهم الفلسفية وميولهم المذهبية . وظهر أيضاً خياليون تجاوزوا في بحوثهم حدود الحس والعقل فراحوا يتخبطون في أوهام لانحسها ولا نعقلها ، وهم أصحاب الأخيلة الشعرية الذين لاينقيدون بقيد ، ولا يقفون بتصوراتهم عند حد ، سواء أكان لتلك التصورات ظل من الحقيقة أم لا ، والى جانب هذين الفريقين ، برز فريق ثالث رزين متواضع ، وهو فريق العلماء الذين رأوا أخيراً أن الانسان عاجز عن معرفة ماهية الحوادث الكونية ، فعليه اذن بان يقصر بحوثه على تحري صلة الموجودات الثابتة بعضها ببعض ، بصرف النظر عن صلتها بمجموع العالم ، أو بالشخص الذي يحس ويفكر . وهذا الاسلوب في التفكير هو الذي يسمونه الاسلوب العلمي . مثاله أننا اذا رأينا جسمين يسقطان نحو الأرض بسرعة مختلفة ، تحرينا أسباب هذا الاختلاف في السرعة ، حتى اذا عثرنا عليها ، وضعنا قاعدة لسقوط الاجسام ، دون أن نهتم بماهية الجاذبية وأسبابها وعلاقتها بالعلة الاولى أو بالانسان . واذا رأينا جسماً يتمدد بالحرارة ، قلنا ان الحرارة تمدد الاجسام ، والبرودة تقلصها ، فاثبتنا بذلك صلة الجسم المذكور بالحرارة والبرودة ، دون أن نشغل نفسنا باسباب حصول الانبساط أو التقلص ، أي هل هنالك علة أولى أو علة كامنة أو ملاك أو جنيّ جعل أن الحرارة تزيد حجم الجسم والبرودة تنقصه . واذا مزجنا جسماً كيماوياً بجسم آخر ، تحرينا الجسم الجديد الذي يحصل من هذا الامتزاج ، دون أن نعتقد قبل المزج أننا سنحصل على جسم معين ، كأن يكون ذهباً أو فضة أو أي جسم آخر . ومعناه أن عملنا الكيماوي هذا يكون خالياً من كل وهم واعتقاد سابق ، وبذلك نصل الى معرفة الحقيقة المجردة .

واذا تحرينا التاريخ الذي أفلت فيه الانسان من الاوهام ، حتى صار لايبحث عن العلوم الا بمقتضى هذا الاسلوب العلمي وحده ، نجده لايتعدى عهد باكون وديكارت في الفلسفة ، وكبلر وغاليليو في العلوم . أما قبل

ذلك فالاسلوب الذي يتبعه معظم المفكرين في جميع الأقوام كان يسمي الاسلوب الغيبي . وهو انه كانوا يعللون حوادث الكون بجعلهـــا خاضعة لارادة الاصنام ، فالآلهة فالاله الاحد فالعلل الكامنة بها المنفردة عنها ، الى أن انصرف العقل البشري أخيراً ، فيما يتعلق بالعلوم ، عن البحث عن أصل الكائنات وغايتها ومدبرها ، واقتصر على النظر في النواميس الطبيعية التي تسير حوادث الكون بموجبها . ومنذ ذلك الحين أخذت العلوم تتسع وتتقدم .

قلت أن جميع الاقوام كانت قديماً سواسيةً في اتباع الاسلوب الغيبي ، لانستثني منها أحداً حتى اليونانيين أنفسهم . غير أن بعض الباحثين المغرضين و (منهم استاذ مصري كان تاقشني في هذا الموضوع على صفحات المقتطف منذ بضع سنين) لا يريدون الاعتراف بهذه الحقيقة ، بل يريدون أن يجعلوا العرب وحدهم منفردين باتباع الاسلوب الغيبي في بحوثهم العلمية ، وأن يجعلوا الاسلوب المذكور طابعاً لهم وحدهم ، وهذا ما سأتوخى دحضه بايجاز في هذه المحاضرة . أقول بايجاز لانني لو رحت أذكر جميع الدلائل والامثلة على خلط اليونانيين وغير اليونانيين في أبحاثهم العلمية والفلسفية لملأت بذلك سفراً برأسه . فاي تجربة أو اي مشاهدة أو أي استقراء جعل صاحب كتاب الفلاحة اليونانية مثلاً يقول في الصفحة ١٠٦ من كتابه المذكور المطبوع في مصر : « قال قسطوس اذا نصبت رأس حمار أهلي في وسط المبقلة أسرع نباتها وكثر نزلها . واذا عمد الى الرصاص الاسود وصنع منه ، وزحل في برج الميزان ، تمثال امرأة في يدها ريحانة تشمها ، ونصب في المباقل أسرع نباتها وكثر ريعها . واذا نقش على رأس حمار أهلي صورة امرأة بشمع أخضر ، والقمر في برج السنبلة ، ونصب في وسط المبقلة أسرع نباتها وكثر نزلها » ! وفي الصفحة ١٤٤ من الكتاب نفسه « قال قسطوس : اذا كتب اسم الراعف بدمه في جبهته ارتفع عنه

الرعاف » ! وهذا صاحب كتاب المنطق أي ارسطو نفسه ، وهو من أكبر المفكرين في العالم ، يخلط في كتاب الحيوان في أمور عدة كقوله مثلاً : انه ظهرت حية لها رأسان وأن ثوراً ستفد وألقح بعد أن خصي ، وغير ذلك مما جعل الجاحظ يتحداه ويستهزيء به في كتابه الشهير المسمى بكتاب الحيوان . ومن المعلوم أن اليونانيين كانوا أغنى شعوب الارض بالآلهة وباخيلتها الشعرية التي ينبو العقل السليم عنها . وكذا كان الرومانيون ، فقد اتخذوا لكل شيء إلهاً أو أكثر . وجعلوا لهذه الآلهة كل ما يمكن أن تتصوره من صفات بشرية ، ثم جعلوا العلوم أيضاً تابعة لارادتها ، إلا مالايمكن تعليله بغير وجه علمي كالرياضيات مثلاً . وهكذا كانت الحال عند الكلدانيين والبابليين والهنديين والمصريين القدماء وغيرهم من الأمم القديمة .

وليس بعجيب أن يقتدي العرب بغيرهم في اتباع الاسلوب الغيبي في كثير من البحوث ، لان العرب تلامذة اليونانيين في العلوم والفلسفة . ولكن أما كان في الشعوب القديمة علماء يتبعون في البحث الاساليب العلمية المبنية على التجربة والاستقراء ؟ والجواب على ذلك سهل وهو أنه لو خلت تلك الشعوب من أناس كهؤلاء لما كنا وجدنا أسس كثير من العلوم الحديثة متأصلة عند اليونانيين وعند غيرهم من الشعوب المتمدنة القديمة . فالاسلوب الغيبي وان كان طبع جميع الشعوب القديمة بطابعه قبل مطلع النهضة العلمية الحديثة فان تلك الشعوب لم تعدم عقولاً كبيرة كانت تتبع الاسلوب العلمي المحض في كثير من أبحاثها . ولا شك أن لليونان الفضل الاكبر في اظهار بعض حقائق هذا الكون . لكن العرب والمسلمين المتعربين قاموا أيضاً بقسطهم أيام لم يكن غير نورهم الوضاء نبراساً تستنير به البشرية في ظلام الجهل الحالك . فالرياضيات علم من العلوم التي عكف عليها بعض علماء العرب ودرسوها درساً استقرائياً خالياً من الاوهام . ومن المعلوم أنه لايمكن

البحث في الرياضيات باسلوب غيبي . فاثنان واثنان تساوي أربعة . ولايسلم العقل بانها تساوي أكثر أو أقل ، سواءٌ أرضيت بذلك الآلهة أو العلل الكامنة أم لم ترض . والعرب كانوا بادىء بدء تلاميذ أرخميدس واقليدس في هذه العلوم . لكنهم ماعتموا أن بذّوا أساتيذهم فاوجدوا أو أوضحوا علماً برأسه هو الجبر . وبحثوا في المثلثات وجعلوها على شكل علم منظم ، وزادوا في معادلات الهندسة مما لا يخفى على كل من تتبع هذه الشؤون . وأظهر أثر لهم في هذا الباب أنهم نقلوا الأرقام الهندية والحساب العشري عن الهند فاقتبسها الافرنج عنهم . ولا تزال أسماء الخوارزمي وابن الهيثم وشجاع بن أسلم وأبي جعفر الخازن والسرخسي وجابر بن أفلح والقلصاوي وغيرهم من الرياضيين الاعـــلام مفخرةً من مفاخر الاسلام ، في الشرق والغرب .

وعلى العكس من الرياضيات الفلسفة . فان بحوثها لايمكن أن تكون يقينية في كل نواحيها مهما توخى بعض الفلاسفة قصرها على المدركات وعلى المعقولات . لأن هنالك أموراً لايمكن ادراكها ، ولابد للفلسفة من أن تتناولها وان كان العقل البشري غير قادر على بتها . فالعرب والامم التي سبقتهم لم يضعوا الفلسفة المادية (ويسمونها أيضاً الفلسفة الوضعية أو اليقينية أو الطبيعية) وواضعهاهو أوغست قنط الفرنسي في القرن الماضي . وهي فلسفة علمية ترتكز على الاستقراء والاستنتاج الحسي والعقلي . لكنها لاتتناول سوى النظر في مختلف العلوم لرؤية صورة الكون بها . ولا تتعداها الى التحليل العقلي والمنطقي للأمور التي لايمكن ادراكها كالعلة الاولى والكون والمبدأ والنهاية والازل والجبرية وغيرها . وهذا الضرب من الفلسفة المتعلقة بأسس الديانات خاصة هو مايرّز العرب به حتى أدهشوا عدداً كبيراً من فلاسفة أوربة لفرط الدقة في تحليلاتهم العقلية والمنطقية ، وحتى راح اليسوعيون أنفسهم يطبعون كتاب تهافت الفلاسفة للغزالي وتهافت التهافت لابن رشد

لأن فيها أقوى جواب للملحدين وأجمل استنتاج عقلي لوجود الخالق مبدع الأكوان .

واشتط غلاة المتعصبين من الافرنج فجعلوا الفلسفة الاسلامية صوفية ملأى بالأوهام . وفاتهم أن المسلمين ولاسيما المعتزلة منهم قد هضموا وتمثلوا الفلسفة اليونانية ، وزادوا عليها في ناحية الدين خاصة ، وحللوها تحليلاً ماسبقهم اليه أحد . ومن ذا الذي ينكر أن نظرهم الى العلة الأولى كان أجل وأسمى من نظر اليونانيين الذين جعلوا لكل شيء إلها ، حتى صار مجموع الآلهة مهزلة من المهازل الكونية . ولا غضاضة على العرب اذا اضطهد بعض رجال الدولة قسماً من فلاسفتهم تحريض غلاة الفقهاء المتعصبين ، فان لهذا الاضطهاد أمثلة لا تحصى في الشعوب القديمة وعند الأوربيين قديماً وحديثاً . وما عدم التناحر بين الناس في زمن من الأزمان على الآراء الفلسفية والمذهبية ، كما أن الأخيلة والأوهام مابرحت شائعة لدى جمهرة الأوربيين حتى في يومنا هذا . والعامة هي العامة سواء في الشرق أم في الغرب وليس كل رجل من سواد الشعوب الأوربية كمستاف لوبون في تفكيره أو كدروين في تحليله . والملة التي فيها عقول كعقول ابن سينا والكندي والفارابي والغزالي وابن باجة وابن طفيل وابن رشد وابن خلدون وابن الهيثم واخوان الصفاء وابن مسكويه وغيرهم من أعلام الفلسفة لا يقوى أحد على الادعاء بانها لم تقم بواجبها في سبيل تقدم العقل الانساني على هذه الكرة الارضية .

واذا انتقلنا الى الزراعة نجد أن العرب حذقوا التجارب الزراعية واصطفاء الأصناف النباتية المفيدة ، فقد أوجدوا عشرات من أصناف المشمش والتين والعنب والتفاح وغيرها ، وربوا الخيل والأنعام وخبروا أهم أمراضها ومداواتها ، ولهم في خلق الخيل ولاسيما في ألوانها وشياتها ودوائرها ملاحظات فاتت الأوربيين أنفسهم حتى في أيامنا هذه . ففي كتب الزرطقة

الفرنسية لا يجد القاريء أسماء لدائرة السمّامة ودائرة المحيّا ودائرة المعوّذ مثلاً بل يجد تلك الدوائر وأشباهها مسماة باسمائها العربية دون غيرها . وللعرب فضل في نقل كثير من النباتات المفيدة الى أوربة ، كالقطن وقصب السكر والبطيخ والمشمش ومعظم أشجار الفصيلة البرتقالية ، وعدد كبير من العقاقير الطبية والأبازير والأفاويه . وترجمت العرب عن اليونانية والنبطية كتباً في النبات والحيوان والزراعة والماشية . وألف ابن العوام الاشبيلي في القرن السادس من الهجرة كتاب الفلاحة الاندلسية ، وقد ترجم الى الفرنسية والاسبانية . ومدحه العالمان الفرنسيان رنجلمان وباسي وقالا ان هذا الكتاب يدل على ما كان للعرب من نظرات دقيقة في الطبيعة والكيمياء ، وانه مجموعة لأجمل البحوث والقواعد الزراعية التي كتب فيها الانباط واليونان والرومان عدا ما كان يتبع في الاندلس . ويتضح من ذلك أن أجدادنا كانوا حفظة العلوم الزراعية أيضاً . وانهم أضافوا اليها تجاربهم وملاحظاتهم مما فيه بعض فوائد عملية وحقائق علمية تقرها عقولنا في أيامنا هذه . وتقتضينا الحقيقة أن نقول ان بحوثهم الزراعية لم تكن كلها علمية ، بل كثيراً ما يجد الانسان في كتبهم بعض الآراء السخيفة بجانب أجمل القواعد المعقولة . وسبب هذا جهلهم لحياة النبات الداخلية في الغالب . وقد كان من المستحيل عليهم أن يتبعوا أسلوباً علمياً محضاً في كل التجارب الزراعية قبل أن يعرفوا أسس حياة النبات ووظائف أعضائه وبناء التراب والهواء كيماوياً ، وماهي أغذية النبات وكيف ومم يتناولها . وكل هذه الأمور الدقيقة لم تعرف إلا حديثاً أي في القرن الماضي . مثال ذلك أننا نقرأ في كتاب الحيوان للجاحظ (ج ٣ ص ١٠٤) وصفاً لجذور النبات وكيف تتغلغل بين أجزاء الصخور ، وفي الآجر والخزف ، حتى في الفلس البصري فتثقبه . ويقول الجاحظ ان ذلك ليس لشدة حز الجذور وحدة رأسها ، ولكنه يكون على قدر ملاقاة الطباع ، فملاقاة الطباع هذه هي الجملة الغيبية التي

لايفهم كنهها . وسبب ذكره لها أنهم ما كانوا يعرفون في تلك الايام أن الجذور تفرز حوامض تحلل أو تذيب الأجسام الصلبة المذكورة فيسهل عليها اختراقها .

وللعرب على الطب فضل وأي فضل . فهم وان كانوا تلامذة أبقراط وسقراط وجالينوس فقد بذّوا أساتذتهم في كثير من مواضيع العلوم الطبية . ولهم في هذا الباب بحوث علمية ليس للغيب اليها سبيل . ولطالما نعى عليهم خصومهم قلة اهتمامهم بالتشريح وأمراض النساء لأسباب دينية ، لكنه لايسع أشد الناس خصومة لهم الا الاعتراف بانهم هم الذين درسوا ووصفوا الجدري والحصبة ، وهم الذين فتتوا الحصاة ، وقدحوا العين ، وأوجدوا الصيدلة ، وزادوا في المفردات الطبية والأدوية المركبة . ولهم نظرات صادقة لم يسبقهم اليها أحد في أمراض الاطفال والحميات الخبيثة وأمراض الجلد ومعاينة البول والفتق والورم الباسوري وغيرها وهي أمراض كثيرة . ولا جرم أن كل الذين راجعون تاريخ الطب ويقرأون كل ما دوّنه الأوربيون أنفسهم في هذا الباب يجدون أن من أمجد الصفحات المكتوبة بماء الذهب تلك التي تبحث في أعمال الرازي وابن سينا وعلي بن عباس وأبي القاسم الزهراوي وابن زهر والفارابي ، دع جابر بن حيان في الكيمياء ورشيد الدين الصوري وابن البيطار والغافقي في النبات ، فهؤلاء علماء لم يكتفوا بنقل العلوم الطبية والنباتية عن اليونانيين بل مزجوها بعلوم الكلدانيين والهندبين والفرس ، وأضافوا الى كل ذلك تجارب جربوها وأدوية أوجدوها وأمراضاً كشفوها وهي كلها معقولة محسوسة تقرها عقولنا اليوم كما أقرتها عقولهم في تلك الأيام البعيدة . ومن الغريب أني بينما أكتب هذا البحث في الثامن من كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٩٣٣ دفع اليّ موزع الصحف عدد اليوم السادس من الشهر المذكور من جريدة « الاهرام » واذا بي أقرأ فيه خبراً عن محاضرة للدكتور مايرهوف في

المجمع العلمي المصري أماط اللثام فيها عن (كشف الدورة الدموية على يد الطبيب العربي ابن النفيس الذي عاش في القرن الثالث عشر من الميلاد) . وحسب العرب فخراً أن كتبهم الطبية لبثت بضعة قرون تدرّس في أوربة فريدة لامنافس لها .

ومن العرب الذين كان لهم في الفلسفة والعلوم نظرات صادقة جماعة اخوان الصفا المشهورين . فقد دونوا في مقالاتهم شيئاً لايبعد عما قاله لافوازيه فيما بعد ، وهو أن لاشيء يتكون من العدم ، ولا شيء ينعدم بل كل شيء يتحوّل . وعللوا حصول المطر أصدق تعليل . وبينوا كيف يمتص النبات غذاءه من التراب بواسطة جذوره وما فيها من قوة جاذبة . وقالوا بمذهب النشوء والانتخاب الطبيعي وتنازع البقاء وفوز الأصلح . ولكنهم لم يستطيعوا أن يأتوا ببراهين حاسمة على صحة هذا المذهب كالبراهين العديدة التي أدلى بها دروين فجعلته مرجع المذهب المذكور بلا منازع لأن اثبات أمور كهذه اثباتاً علمياً مبنياً على الاستقراء وعلى تتبع حيوانات عدة في مختلف صفاتها الخلقية يحتاج الى تقدم العلوم البشرية في كثير من النواحي التي كانت لا تزال مجهولة في العصور التي سطعت فيها المدنية العربية . ومع هذا فقد كانت آراء اخوان الصفاء في هذا الباب صحيحة وان أعوزتها الادلة العلمية . ولهم آراء لا بأس بها في تكون الجبال والبراري وفي ثبات حرارة الماء في العيون صيفا وشتاء ، وفي حصول المد والجزر والبرق والصاعقة وغير ذلك من مواضيع الفيزياء « علم الطبيعة » التي كانت غامضة كل الغموض في تلك الايام ، سواء عند العرب أم عند الامم التي درجت قبلهم . أما بحوثهم في الفلسفة فقد كانت مستمدة من فلسفة أرسطو خاصة . وأما بحوثهم في الاخلاق والعلوم النفسية فكانت طريفة تدعو الى اكبار هؤلاء العلماء الذين شغفهم العلم فاولعوا به وعملوا في سبيله وهم لايبتغون على عملهم جزاءً ولا شكورا .

وعلى ذكر الفيزياء لا يجوز لنا أن نهمل ذكر ابن الهيثم ممن عاشوا في القرن الخامس من الهجرة ، فلقد كان عالماً بالفلسفة والفلك وسائر الرياضيات ، وله في البصريات بحوث فاق بها بطليموس اليوناني ، ولاسيما في انعكاس الضوء والعدسات وتشريح العين وغيرها . ولابد لنا أيضاً من ذكر أبناء موسى أصحاب كتاب الحيل ، والبيروني الذي تمكن مع غيره من الوصول الى حساب الوزن الشرعي لبعض الاجسام ، ومهما يكن للعرب من فضل على علم الفيزياء فالحقيقة أن دساتير هذا العلم المهمة هي وليدة المدنية الحديثة منذ عهد غليليو ونيوتن في الميكانيكا الى بحوث فولتا وفرنكلن وفرادي في الكهربا . ولا يزال في هذا العلم المهم غوامض لم يتمكن العلماء من كشف القناع عنها على الرغم مما لديهم من وسائل تسهل عليهم البحث والتنقيب .

ومن المعلوم أن أصعب جزء من أجزاء الفلسفة الوضعية وأكثرها تعقيداً ذلك الذي يبحث في علم الاجتماع وقواعده . لأن علاقات البشر بعضهم ببعض تابعة لعوامل كثيرة ، ولأن سنن الاجتماع لا تسير على وتيرة واحدة في كل الاحوال ، بسبب تأثير هذه العوامل فيها ، ولذلك أعجب الشرق والغرب جميعاً بذلك الفكر المتقد الذي أملى على ابن خلدون قواعده الاجتماعية والاقتصادية في مقدمة تاريخه الشهير حتى عُدّ واضع أسس الاجتماع وأصول الاقتصاد السياسي قبل مكيافلي ومونتسكيو وسميث وغيرهم من علماء الغرب . وقد أخذ بعض العلماء في أوربة يدرسون منذ أواخر القرن الماضي آراء مؤرخنا الفيلسوف ويحللونها ويقارنونها بامثالها من وضع علماء هذه الايام . وكلهم مجمعون على أن ابن خلدون هو أول من بحث عن أسس فلسفة التاريخ والاجتماع والاقتصاد ، وان بحثه لها كان على طريقة علمية معقولة لا على طريقة غيبية ، أي أنه كان يعلل الحادثات الاجتماعية والاقتصادية تعليلاً مبنياً على المشاهدة والاستقراء والاستنتاج

العقلي بعد ربط الاسباب بالمسببات ، لا على أوهام وأخيلة واعتقادات مذهبية قد لا يكون لها ارتباط بالحوادث التي كان يدرسها . وهـــذه التعليلات المحكمة هي التي جعلت لابن خلدون شيئاً كبيراً ومنزلة ممتازة في تاريخ العلوم التي تناولها بحوثه الطريفة .

وهذا الجاحظ أديبنا الأكبر الذي انقادت له اللغة واطاعه البيان حتى أتانا بالمرقص المسكر من آيات قلمه ، فلقد أعدت الكرة أخيراً على كتابه الشهير المسمى بكتاب الحيوان ، فوجدت في تضاعيفه عدداً كبيراً من الآراء العلمية القويمة ، وتفنيداً لأقوال بعض علماء عصره الذين كانوا يخلطون في الكلام في الأمور العلمية . ولم يستثن الجاحظ أحداً ممن قرأ لهم كتابات غير معقولة ، فهجم بقلمه على اليونانيين ، حتى صاحب كتاب المنطق نفسه . ومما علله تعليلاً حسناً ملوحة البحر ، وعذوبة الأمطار والثلوج ، واستحالة الحطب في الاحتراق والزيت في المصباح . لكنهم كانوا يرون في تلك الايام أن النار جوهر مستقل . وعلل صعود الهواء وانحدار الماء لا بالجاذبية والثقل النوعي ، بل بانجذاب الاجسام بعضها الى بعض . وقال عن بعض العرب ان الجسم يكون بارداً على قدر قلة الحرارة فيه ، والظلام انما هو فقدان الضياء . وهذه الامور نراها اليوم بسيطة وما كانت كذلك قبل عشرة قرون . ولاحظ انطفاء النار في الآبار والحفاير وفتوق الأرض . واتخذ ذلك دليلاً على عدم امكان الحياة فيها ، لكنه لم يذكر لهذا الحادث أسباباً . وذكر مقاومة الماء ، وطفو الأجسام ولاسيما المراكب وعلّل ذلك تعليلاً لا بأس به . ومما لاحظه تأثير البيئة في ألوان الأحياء : كاخضرار بعض الحشرات في المباقل ، واسوداد بعض الحيوانات في الحرّة واغبرار بعضها في السهول . وآمن بحصول هذه التبدلات على كر الايام ، وعلى مقتضى المؤثرات الطبيعية المختلفة ، فكأنه قال بحصول التطور على كر الدهور .

وهنالك مسألة أقضت مضجع شيخنا الكبير ، وهي كيف تحصل بعض الاحياء بلا بيض وبلا حمل ، كالحشرات التي تتولد في جمار النخل ، وكسوس الحبوب والارضة ودود الجف ودود المعدة الذي يحصل من الطعام والطعام خلو منه . قلت ياليته كان لدى شيخنا مجهر(١) ، اذن لرأى به الجراثيم العديدة ، وبيض الحشرات الدقيق ، ولظل على رأيه من أن الحي لا ينشأ إلا من الحي . وقد وصف الجاحظ بعض الحيوانات كالخفاش والذر (أي صغار النمل) وصفاً دقيقاً يدل على شدة فراسته وقوة ملاحظته وفرط حذره ، لئلا يكون في كتابه صفة تخالف حقيقة الحيوان ، أو فكرة لايقرها العقل ولا توصل اليها التجارب . ولو أردت بيان كل ماورد في الكتاب المذكور من الآراء العلمية أو الفلسفية السديدة لكتبت في ذلك عدة صفحات ولحاضرت بضع محاضرات .

هذه صورة صغيرة وبسيطة توخيت فيها أن أظهر لكم كون قدماء العرب لم يعدموا ابان مدنيتهم الزاهرة عقولاً أخذت بالاساليب العلمية في بحوثها ، دون التأثر بآراء فلسفية سابقة . ولئن كان عدد الذين اتبعوا هذه الطريقة من البحث قليلاً ، أو كانت الاساليب العلمية شائعة في تلك الأيام البعيدة ، فما ذلك الا لأن العقل البشري لايتكامل في سنة أو سنتين أو قرن أو قرنين . وليس من الانصاف أن نطعن في رجال عاشوا في القرون الوسطى ، تكتنفهم أسرار الطبيعة وأحاجيها التي لاتحصى ، اذا لم يجدوا لكل باب مغلق مفتاحه . واذا عدلنا في حكمنا عذرناهم ، كما نعذر فطاحل علماء القرن التاسع عشر كدروين وهكل وبستور وأمثالهم ، اذا هم جهلوا بعض دساتير الكهرباء ومخترعاته ، مما يقرؤه الأولاد في المدارس في أيامنا هذه . ونحن الذين نفخر بسعة معلوماتنا ومخترعاتنا ، ربما لا يمر

(١) او مجهار على رأي مجمع مصر

قرن أو اثنان ، حتى يرى أبناء تلك الأيام أننا كنا نجهل علوماً هي عندهم من بسائط العلوم . وربما رثوا لحالنا ، لانهم يتمتعون في الحياة بوسائل لاعهد لنا بها اليوم ، وذلك كما يتمتع اليوم سواد الشعب حتى من العامة بالضوء الكهربي والسيارة والطيارة والقطار والسينما والتدفئة ببخار الماء وغيرها ، مما لم يحظ به الفراعنة والفياصرة والاكاسرة والخلفاء في أبهة الملك وعز السلطان .

ونهضة الأقطار العربية في أيامنا هذه شيء محسوس لا سبيل الى نكرانه . وليس في وسع أحد أن يقول ما قاله أحد الادباء في مصر وهو أنه لم يهتد الى حادث او عامل أو نقطة ارتكاز يصح تسميتها بالمحور الذي اجتمع حوله الأسلوب العلمي الحديث في البلاد العربية اللسان . وهو يرى أنه لاعهد نابليون في مصر ولا عهد محمد علي ولا تعاليم جمال الدين الافغاني ولا ثورة عرابي ولا ثورة سنة ١٩١٠ في مصر تصح أن تعد مبدأ انقلاب الافكار ، ذلك الانقلاب الذي جعل جمهوراً كبيراً من الشعب يطرحون الاسلوب الغيبي ويتخذون الاسلوب العلمي في تفكيرهم . ومع هذا فهو لاينكر وجود الانقلاب في التفكير ، أي وجود النهضة نفسها . والحقيقة أن نهضتنا الأخيرة لا ترتكز على عامل واحد ، بل على عوامل عدة توالت منذ أيام نابليون الى اليوم ، واذا كان كل واحد من هذه العوامل لايعد في ذاته المؤثر الأكبر الذي أدى الى انقلاب الاسلوب في تفكيرنا ، فمن خطل الرأي أن ننكر كونه كان حلقة من سلسله المؤثرات التي نهضت بنا ، ففي أيام حملة نابليون بدأ الناس يشعرون برجحان العلوم الحديثة ، وبالقوة المادية المنبثقة عنها . وأخذ مفكروهم يتطلعون الى معرفة هذه العلوم ثم أتى محمد علي الكبير فادرك بفرط ذكائه ، وشدة عزيمته ، ان لاسبيل الى انقاء استعمار الغرب الا بنهوض الامة ، وان نهوضها يتوقف على تلقينها العلوم الحديثة بالاساليب التي اتخذها الاوربيون أنفسهم ، فكان ما كان

من فتح المدارس وتأسيس المعامل ، وارسال التلامذة الى أوربة ، وقيام المترجمين يترجمون زبدة العلوم الغربية ، حتى أشبهت أيام محمد علي في القاهرة أيام المأمون في بغداد ، وقد أخذت الأفكار تتبدل منذ ذلك الحين متأثرة بهذه المؤثرات ، حتى جاء العلامة جمال الدين الافغاني فالعلامة الشيخ محمد عبده وتلامذته في مصر ، والشيخ طاهر الجزائري والشيخ جمال الدين القاسمي وغيرهما في الشام ، فاخذوا يقنعون الجمهور بأن الدين لاينافي العلم ، وانه لا ضرر من تعلم العلوم الحديثة على أنواعها ، سواء في المدارس الدينية أم في غيرها ، وعندئذ صار النبهاء ينظرون الى العلوم غير نظرتهم الأولى ، وصاروا يرون الله سبحانه وتعالى فوق النواميس الطبيعية ، وفوق أعمال البشر الرفيعة منها والوضيعة . ولذلك لايمكن أن يكون تعلم العلوم إلحاداً ، ثم أتت الصحافة ولاسيما المجلات العلمية ، وفتحت المدارس الاجنبية والاهلية فكان لها في هذا الموضوع تأثيراً كبيراً . ولا ننسى كون الدولة العثمانية قد تنبهت منذ أوائل القرن التاسع عشر فاسست مدارس عسكرية ثم مدارس مدنية على مختلف أنواعها ودرجاتها فكان لها تأثير ملموس في توجيه الأفكار الى فوائد العلوم الحديثة . أما اليوم فقد رسخ التفكير العلمي في رؤوس جمهرة كبيرة من الشعب ، وصار لدينا في انحاء البلاد العربية جامعات ومختبرات لا نسير في أعمالها الا بمقتضى هذا الاسلوب . وقد تعدلت مناهج الجامعات الدينية نفسها ، وأضيف الى دروسها جملة صالحة من العلوم المادية . وأرى أنه لن ينقضي زمن طويل حتى نرى بين شيوخنا المتممين اختصاصيين بمختلف العلوم المادية . فكما أن النصرانية لا تحول دون تعلم الرهبان دقائق العلوم الحديثة ، كذلك الشريعة الاسلامية السمحة لا تحول دون ذلك بل تحث عليه . وكما أننا نرى قساوسة أصبحوا أطباء وعلماء اختصاصيين بالنبات والجيولوجية والهندسة وأضرابها ، كذلك سنرى عما قريب متممين قد أتقنوا تلك العلوم ، وصاروا أقدر على بث كلمة

الله العليا . وأعرف في دمشق دكتوراً في الطب متعمماً ماترك عمامته أثناء الدرس ولا بعده . وهو من أسرة فقهاء ذوي منزلة في الدين رفيعة . ولعله يعد نموذجاً لمن جمعوا بين علوم الدين وعلوم الدنيا فكانوا أصلح من غيرهم لبث فضائل الدين والحث على العمل في هذه الحياة الدنيا . ومما يتخذ دليلاً على رسوخ الاسلوب العلمي في تفكيرنا حادثان : الأول في مصر ، والثاني في العراق . فاما الأول فهو أن الانكليز عندما تركوا للمصريين أمر المدارس في مصر منذ بضع سنين ، على أثر تبدل خطتهم السياسية ، لم تتأخر شؤون التعليم بل تقدمت . ففي مدرسة الجيزة الزراعية مثلاً اتسعت موضوعات الدروس التي تلقى ، وكثرت التجارب ، وازدادت أدوات المخابر . ثم أنشئت الجامعة المصرية ، وزيد في عدد مدارس الأحداث زيادة لا يستهان بها . وكل ذلك يدل على وجود استعداد في نفوس الشعب لتلقن العلوم الحديثة . وهذا الاستعداد ليس ابن يومه . بل هو نتيجة تأثير العوامل التي سردتها ، والتي مابرحت تعمل عملها منذ أيام محمد علي على الأقل . وأما الحادث الثاني فهو أن العراق ما كاد ينفصل عن الدولة العثمانية حتى رأينا شعبه يتجه نحو العلوم الحديثة اتجاه النزيف الى الماء البارد ، فاسس دور المعلمين ومدارس التجهيز وعشرات من المدارس الابتدائية ومدرسة للزراعة وأخرى للطب وثالثة للحقوق وبعث مئات التلاميذ الى جامعات الشام ومصر وأوربة حتى قطع في عشر سنين مالم يقطعه خلال قرون من العهد السابق . ويجب ألا يغرب عن البال أن بوادر انقلاب التفكير كانت كامنة في الشعب العراقي الكريم وانه كان ومابرح متصلاً بحركة مصر والشام الفكرية ، وبالمدارس العسكرية والمدنية الحديثة في الدولة العثمانية .

واتجاه الأقطار العربية نحو الاسلوب العلمي جعلنا نسيغ العلوم الحديثة ونهضمها ، لكننا لا نزال الى اليوم تلاميذ نتلقن تلك العلوم ، دون أن يكون لنا اشتراك يذكر في تقدمها . ومن الأمثلة على ذلك أن عدد

الاطباء الاخصائيين لدينا كبير ، لكن عدد الذين كشفوا عن شيء من الأمراض ومكروباتها وطرائق مداواتها قليل . ولدينا في الزراعة مختبرات وحقول للتجارب ندرس فيها أمراض الزرع وحشراتها ، ونتوخى ايجاد أصناف زراعية مفيدة ، لكن معظم هذه الأعمال يتوفر عليها أساتذة أجانب في الغالب . وهكذا حالنا في سائر العلوم على أنواعها . ونحن مقصرون حتى في تعرف بلادنا واستقصاء أمورها . وقد سابقنا الغربيون في هذا المضمار فسبقونا . مثال ذلك أن الشأم مدين الى بلنكهورن ولرته وزيوفن في الكشف عن طبقات أرضه ، والى فرسكال وشوينفرث وبُسْط في درس نباتاته ، والى رُو في بيان معادنه علمياً واقتصادياً ، والى غريفل في درس حيواناته المائية ومصايد أنهاره وبحاره ، والى بضعة علماء في وصف مصانعه وآثاره . وهكذا الحال في مصر والعراق والمغرب والأقطار العربية السائرة حيث العلماء الاعلام من المواطنين يعدون على الأصابع . ويجب أن لايستنتج من ذلك أننا جمدنا على حالة رضينا بها دون أن نطمح الى تخطيها ، فنحن اليوم وان كنا نقتدي بزاد العرب من العلوم ، فليس ببعيد أن يأتي يوم نشارك فيه في ايجاد ذلك الزاد وتجويده ، كما فعل أجدادنا بزاد علوم الأقدمين من قبل . ومجال العمل في سبيل تقدم العلوم والفنون واسع جدا . ولئن كان البحث في بعض العلوم المهمة لايتيسر الا للأمم الكبيرة الغنية بالمال وبالمختبرات ، فأمامنا ما هو دونها من البحوث العلمية ، وهي في متناول كل فرد منا ، اذا صحت عزيمته على العمل ، وكان متحلياً بصفات العلماء .

* * *

والخلاصة حسب العرب والمستعربين القدماء فخراً أنهم جدوا في سبيل العلم ، وأنفقوا عن سعة ، ونقلوا علوم الأقدمين ، واحتفظوا بها ، وتدارسوها وهضموها وزادوا عليها ، ثم وقفوا مضطرين لا مخيرين ، على

أثر غزوات المغول والتتر في الشرق والاسبانيين في الغرب . والمنصف لايلوم أمة نامت عن طلاب العلم وهو يرى رجالها قد قتلوا ، وبلادها قد خرّبت وكتبها قد حرقت أو القيت في الأنهار الكبيرة . ونراها كلما جمعت شملها ووقفت تريد العمل منيت بفاتح جديد من سفكة الدماء ومدمري العمران وذئاب الاستعمار .

وحسبنا اليوم أننا أخذنا نطّرح الاساليب الغيبية في تفكيرنا ، وصرنا نتهج نهج الأسلوب العلمي القويم . وهذا الاسلوب وحده هو الذي يمدنا بالوسائل الضرورية لحفظ كياننا القومي سياسياً واقتصادياً .

وبعد ليس بمستنكر على أمتنا العربية ، التي خطت بالعقل من دياجير الشرك وعبادة الأوثان الى التوحيد العالي ، والتي حفظت علوم الأقدمين وأغنتها ، ان تهب اليوم الى العمل في اعادة أمجادها السالفة ، والى السمي مع الأمم المتدينة في خير الانسان وتقدم العقل البشري .

مميزات بني امية*

سيداتي ، آنساتي ، سادتي

فضل بني أمية على قريش :

لو حاول باحث أن يتحدث اليكم في موضوع ميزات بني أمية حتى يصورهم صورة تامة في الجملة لاحتاج الى بضع محاضرات ، ولكن مالا يدرك كله لايترك جله . قال النسابون وأصحاب السير والتراجم : إن أمية تصغير أمة ، والأمة المملوكة ، والنسب اليه أموي بضم الهمزة فأما من قال أموي بالفتح فقد أخطأ . وبنو أمية من أشرف قبائل قريش يلتقي نسبهم مع الرسول عليه الصلاة والسلام في جدهم عبد مناف . ومناف اسم صنم في الجاهلية مثل العزّى واللاّت ومناة وودّ وسواع ويغوث ويعوق ونسر ، وأمية الأكبر هو من ولد عبد شمس بن عبد مناف وولده حرب وأبو حرب وسفيان وأبو سفيان وعمرو وأبو عمرو ، وهؤلاء يقال لهم العنابس أي الأسود . ومن ولده العاص وأبو العاص والعيص وأبو العيص ، وهؤلاء يدعونهم الأعياص ؛ وأعياص قريش كرامهم ، يقال ما أكرم عيصه وهم آباؤه وأعمامه وأخواله وأهل بيته .

وكان هاشم وعبد شمس والمطلب ونوفل أولاد عبد مناف بن قصيّ هم الذين يذهبون في التجارة الى البلاد المجاورة . يحمل هاشم الايلاف لرؤساء القبائل ، والايلاف العهد وشبه الاجازة بالخفارة ، وهو عبارة عن شيء

(*) محاضرة القاها الأستاذ محمد كرد علي في ١٤ كانون الأول عام ١٩٣٩ .

من الربح ، ويجعل لهم مع ذلك متاعاً مع متاعه ويسوق اليهم إبلاً مع إبله ، ليكفيهم مؤونة الأسفار ، ويكفي قريشاً مؤونة الاعداء فكان المقيم رابحاً والمسافر محفوظاً . والى هذا الايلاف الاشارة في سورة قريش : (لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هـذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) والمعنى أنه تعالى منّ على قريش بما أنعم عليهم من الايلاف الذي به كانوا يتمارون ويتجرون ولا يجوعون ، يرحلون رحلتين رحلة في الصيف وأخرى في الشتاء آمنين من أصحاب الفيل الذين جاؤوا من الحبشة الى اليمن ليستولوا على البيت .

وكان هاشم يرحل الى الشام ويقصد الى غزّة ، وبه سميت غزة هاشم وبها مات كما مات حرب بن أمية أيضاً في الشام ، وكان المطلب يرحل الى اليمن ونوفل الى فارس ، وعبد شمس الى أكسيوم من أرض الحبشة . فبنو أمية هم الذين هيأوا أسباب التجارة لقريش وأنقذوهم من الغصوب ، أي من أخذ مال غيرهم ظلماً وعدواناً . وأدخلوا مكة في طور مدني بعد أن كان عيش أهلها معقوداً بظبات السيوف وأسنة الرماح ، وبهم عُرفت قريش في أرض الروم والعجم والحبش ، وعرفوا هم العراق والشام واليمن والحبشة معرفة جيدة ، فبنو عبد مناف هم الذين كانوا اذاً يؤلفون الجوار ويجيرون قريشاً بميرهم ، وكانوا لذلك يسمون المجيرين ، والعرب تسميهم أقداح النضار لطيب أجسامهم وكرم فعالهم .

مكانة أبي سفيان بن حرب :

وكان أبو سفيان (صخر بن حرب) ـ والد معاوية ويزيد وزياد وعتبة وأم حبيبة وجويرية ـ تاجراً عظيماً يجهز التجار بمـاله وأموال قريش الى الشام وغيرها من ديار العجم ، وكان يخرج أحياناً بنفسه ، وكانت اليه

راية الرؤساء التي تسمى العقاب . واذا حميت الحرب اجتمعت قريش فوضعتها بيد الرئيس ، والعقاب العلم الضخم يعقد للولاة . وقاد أبو سفيان قريشاً كلها يوم أحد ولم يقدها قبل ذلك رجل واحد الا يوم ذات نكيف ، قادها المطلب ، ويومُ نكيف وقيل ذي نكيف وقعة كانت بين قريش وبني كنانة بناحية يلملم من نواحي مكة . فهزمت قريش بني كنانة ، وكان صاحب أمرها عبد المطلب أو المطلب . وأبو سفيان كان يوم أحد ويوم الاحزاب رأس من حاربوا الرسول . ولما كان عائداً في تجارة قريش من الشام أمسك المسلمون عليه الطريق فابلى بلاء حسناً حتى أنقذ أموال التجار ، وكانت تقدر بخمسين ألف دينار . وكان اذا ورد بلاد الروم أكرمه الامراء والأعيان لمكانته في قومه . وكان قبل الاسلام يملك في البلقاء جنوبيّ الشام ضيعة يقال لها يقينيس . وكان في الجاهلية هو وعتبة وأبوجهل أفضل الناس رأياً .

حارب أبو سفيان رسول الله يوم كان يصعب عليه ، أول الدعوة ، أن ينزل عن ارستقراطيته وامرته .

وقيل أن معاوية ويزيد أسلما قبل أبيهما ، وكتما عنه اسلامهما ، وكذلك ابنته أم حبيبة واسمها رملة زوجة الرسول أسلمت قبل أبيها . وكانت تحت عبيد الله بن جحش ، هاجرت معه الى أرض الحبشة فتنصر زوجها ، وثبتت هي على الاسلام ، فبعث الرسول عمرو بن أمية الضمري الى النجاشي فخطب عليه أم حبيبة فزوجها إياه ، وأصدقها النجاشي من عنده عن رسول الله أربعمائة دينار . وزار أبو سفيان ابنته أم حبيبة لما قدم المدينة ليعلم الرسول أن يزيد في هدنة الحديبية ، ودخل على ابنته فاراد أن يجلس على فراش النبي فطوته دونه ، فقال : يابنية أرغبت بهذا الفراش عني أم بي عنه ؟ فقالت : بل هو فراش رسول الله وأنت أمرؤ نجس مشرك فقال : يا بنية لقد أصابك بعدي شر .

وكان قبل اسلامه هو وأولاده من المؤلفة قلوبهم يعطيهم الرسول من الغنائم والأموال ما يتألف به قلوبهم . وأسلم قبيل فتح مكة فقال العباس : يارسول الله انه (أي أبو سفيان) يحب الفخر فاجعل له شيئاً يكون في قومه فقال: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن . فلما دخل في الاسلام دين المساواة ، حارب مع رسول الله يوم حنين والطائف ، وحارب يوم اليرموك تحت راية ابنه يزيد ، كان يقاتل ويقول يا نصر الله اقترب ، يانصر الله اقترب وكان يقف على الكراديس يقص أي يقف أمام سرايا العسكر ويعظ ؛ والقاص الداعية .

مميز نساء بني أمية :

وتطور أبو سفيان لما أسلم ، وأخلص في انتحال الدين الجديد ، كما كان مخلصاً من قبل في دينه القديم ، وأبدى براعة حربية في الاسلام كان يبدي مثلها في الجاهلية . قال أبو سفيان للنساء اللاتي مع المسلمين يوم اليرموك — واليرموك النهر الذي كانت عنده الوقعة الفاصلة بين العرب والروم وبها فتح الشام كله جنوبه وشماله — وكان كثير من المهاجرات حضرن يومئذ مع أزواجهن وأبنائهن وجلسن خلف صفوف المقاتلين : لا يرجع اليكن أحد من المسلمين إلا رميتنه بهذه الحجارة وقلتن له : من يرجوكم بعد الفرار عن الاسلام وأهله ، وعن النساء وهن أمام العدو . ولما حمي الوطيس واستقبل النساء سرعان من انهزم من المسلمين أخذن يضربن وجوههن بعمد البيوت أو عمد الفساطيط ويرمينهم بالحجارة ويقلن : أين أين عز الاسلام والامهات والازواج .

كان لنساء بني أمية وغيرهن مثل جُوَيرية ابنة أبي سفيان وكانت مع زوجها ، ومثل هند بنت عتبة أم معاية بن أبي سفيان ومثل أم حكيم بنت

الحرث بن هشام ، وهذه قتلت سبعة من الروم في مرج الصفر بعمود الفسطاط وكانت عروساً والخلوق على جسمها تنبعث رائحته — كان لهن من البلاء العظيم يوم اليرموك مايذكر بالفخر على وجه الدهر : قاتلن بالسيوف حتى سايفن الرجال ، وكان النساء في الجيوش العربية يعملن في طهي طعام المحاربين ، وجلب الماء اليهم ، وغسل ثيابهم ، وتضميد جراحهم ، وتمريض مرضاهم ، وغير ذلك مما تعمله اليوم أعظم نساء الغرب لرجالهم في الحرب .

ويحدثنا المؤرخون انه ما فتحت بلدة في الشام الا وجد على أسوارها وفي أرباضها كثير من رجال بني أمية صرعى ، لكثرة ماعانوا من الجهاد في فتحها . وتدرب يزيد ومعاوية من أبناء أبي سفيان في السياسة والادارة ، وكان معاوية كاتب الوحي ، وكان عمر اذا نظر اليه قال : هذا كسرى العرب . وعقد أبو بكر في خلافته ليزيد بن أبي سفيان ، وكان يقال له يزيد الخير مع امراء الجيوش الى الشام وقال : ان اجتمعتم في كيد فيزيد على الناس ، وان تفرقتم فمن كانت الواقعة مما يلي عسكره فهو على أصحابه ، وشيعه الصديق راجلاً وهو راكب وجعل يوصيه ، ولما مات يزيد في طاعون عمواس (سنة ١٨) ، وهو الطاعون الذي هلك به في الشام ألوف من الصحابة وغيرهم ، ضمّ عمر بن الخطاب لمعاوية ما كان من عمل أخيه يزيد ، وهو إمارة دمشق فصارت الشام لمعاوية . أما زياد ابنه الثالث فكان من أدهى العرب ، ومن أعظم رجال الادارة الذين أنبغهم الاسلام ، عزله عمر بن الخطاب فقال زياد : أعن عجز عزلتني يا أمير المؤمنين أم عن خيانة ؟ فقال : لا عن ذلك ولا عن هذا ، ولكني كرهت أن احمل على العامة فضل عقلك .

منن بني أمية على العرب وتمدنهم

ولقد كان لأبي سفيان وأبيه حرب منة عظيمة على العرب في الجاهلية ، وذلك بنقلها الخط الى جزيرة العرب من الحيرة ، وما كان الخط معروفاً

في الحجاز ، فاثبتا بهذا أن بيتها النبيل مصدر حضارة أيضاً ، ولأحد رجال بني أمية منة أخرى في الاسلام تعد عظيمة جداً في بابها ، وهي أن أمير المؤمنين عثمان بن عفان جمع القرآن ، فنسخه من الصحف وأرسل المصاحف التي كتبت منه الى الكوفة والبصرة ودمشق ومكة والمدينة وأبقى عنده مصحفاً سموه الامام ، ولولا عمله المجيد لضاع بعض آيات الكتاب العزيز لاعتماد العرب على الحفظ أكثر من الكتابة ، وكان بعض الصحابة يحفظون مالا يحفظه غيرهم ، فاذا اتفق أن مات أحدهم يخشى أن يضيع ما كان يحفظه .

وكان أمير المؤمنين عثمان يكرم حرملة بن منذر الطائي ، وكان شاعراً نصرانياً يعلم بسير ملوك العجم . وأتى أمير المؤمنين معاوية بأمد بن أبد الحضرمي وبعبيد بن شرية الجرهمي من اليمن يقصان عليه أخبار ملوك العرب والعجم ، وأمر بتدوين ما كانا يوردان عليه ، فكان أول من بدأ بتدوين التاريخ في الاسلام ، واستصفى معاوية كعب الاحبار لكثرة علمه ، وكان يعطف كثيراً على الشاعر سعيد بن عريض بن عادياء أخي السموءل بن عادياء من يهود الحجاز . وحفيد معاوية خالد بن يزيد ، وكان يدعى عالم قريش ، هو الذي زهد في الخلافة كما زهد فيها أخوه معاوية الصغير من قبل وصرف وقته في ترجمة كتب الفلاسفة والنجوم والكيمياء والطب والحرب والصناعات من اللغات القبطية والسريانية واليونانية ، وهو أول من أنشأ خزانة كتب في الاسلام ، والغالب أنها كانت في دمشق . وأمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز الأموي هو الذي دوّن الحديث وأمر بترجمة كتاب في الطب لينفع به الناس .

ولو لم يكن بنو أمية على جانب عظيم من النبوغ ومعرفة ثاقبة بحكم الناس ما وسد اليهم الرسول الولايات والاعمال العظيمة ، وقد انتقل الى جوار ربه واكثر عماله منهم ، وما كان فيهم أحد من بني هاشم ، وما

استطاع الخليفتان الأولان أبو بكر وعمر أن ينفضا ما أبرمه الرسول من ذلك والوظائف الكبرى توسد في الدول لمن يوثق بهم ، ويعرفون روح الدولة أكثر من غيرهم ، والادارة يبرع فيها المتمرنون عليها ، وبنو أمية كانوا أمراء في الجاهلية وكانوا كذلك في الاسلام ، تناقلوا فيهم حكم الناس كابراً عن كابر .

ميزات معاوية

تولى معاوية الشام أربعين سنة ، عشرين سنة أميراً وعشرين سنة خليفة . وجاء عمر بن الخطاب الى الشام مرة فتلقاه معاوية في موكب عظيم ، فسأله عن سبب هذه الابهة التي اصطنعها فقال : اننا في بلد لا نمتنع فيها من جواسيس العدو فلا بد لهم مما يرهبهم من هيبة السلطان فان أمرتني به أقمت عليه ، وان نهيتني عنه انتهيت ، فلم يأمره به ولم ينهه . أي أن معاوية اقتنع خليفة مثل عمر بن الخطاب الذي كان لا يرى الا الخشونة لنفسه ولعماله ، بتقليد الروم في ظاهرهم . وما حاد معاوية عن الأصول التي وضعها عمر بن الخطاب في الادارة ، بل أدخل فيها أموراً اقتضاها الزمان والمكان ، ففتح صدره لكل ما استحسنه مما كان عند الامم المجاورة ، وكانت العرب لا تعرفه ، فاخرج الادارة بذلك من سذاجة البداوة الى بحبوحة الحضارة .

ما كان معاوية يصدر الا عن مشورة ولا يأتمن في ادارة الولايات والاعمال الا الكفاءة من أهل بيته غالباً ، ويستشير أرباب الرأي من أنصار دولته ، وكان له منهم مجالس أشبه بمجالس النواب والشيوخ ، ومجالس في الولايات يدعونها مجالس الوفود ، واستخدم النصارى في مصالح الدولة ، فكان عمر يمتنع من استخدامهم أو يسلموا ، فعهد الى سرجون بن منصور ثم الى ابنه منصور بن سرجون من نصارى الشام بادارة أمواله ، أي أن بني سرجون كانوا وزراء المال لمعاوية . وكان في جيشه الانباط

والجراجمة والعجم وغيرهم من العناصر غير العربية وغير المسلمة ، فقام بتأسيس دولته بما تقوم به الدول ولا ينافي أصول الخلافة .

ومما يعرب عن سعة عقله وأنه عملي في جميع حالاته لا يبالي بالقشور والظواهر متى أوحى اليه العقل رأياً سديداً ما ذكره المؤرخون من أن عبد الله بن قيس غنم من صقلية أصناماً من ذهب مكللة بالجوهر فحملها معاوية من دمشق وأنفذها الى البصرة ومنها الى الهند لتباع فيها لأنه رأى بيعها فائتة أكثر لثمنها ، ولم يبال انتقاد المتزمتين من المسلمين .

توفر معاوية على تحسين آلة الحكم وأدخل عليها ما ينفعها ويقويها ، وتسامح ولم يضيق على نفسه ولا على أمته في ادخال التجدد وعرض على جبلة بن الايهم سيد بني غسان — لما هرب الى الروم لأن عمر أراد أن يقتله بمن قتله — أن يعطيه الغوطة كلها اقطاعاً على أن يعود من الروم ويرجع الى الاسلام ، يريد بذلك أن يتلافى ماوقع من عمر في ذلك ويقوي الاسلام به . وبجميل سياسته أخرج الخلافة من آل عليّ الى بني أمية وأخذها من الحسن بن علي بمال دفعه اليه ووعود وعده بها . وكان بذلك عام الجماعة أي اجماع المسلمين على امام واحد .

وابتكر معاوية أموراً رأى فيها فائدة عامة منها أنه أول من وضع الحشم للملوك ، ورفع الحراب بين أيديهم ، ووضع المقصورة التي يصلي فيها الخليفة منفرداً عن الناس ، والشرطة على رأسه إذا سجد ، وهو أول من اتخذ حرس الليل ، وأول من غزا في البحر وانشأ الاسطول في صناعة صور وطرابلس ، وكان كثيراً ما يطلب من الخليفة الثاني أن يأذن له بصنع الأسطول فلا يرضى بالتوسع في ذلك ، وما سمح بركوب البحر الا المتطوعة يبحرون برضاهم غير مكرهين . ولما جاء الخليفة الثالث انطلق معاوية في بناء السفن كما أراد ، وكان معه في فتح رودس وقبرص الف وسبعمائة سفينة ، هذا عدا السفن التي أحرقت في طرابلس بأيدي أناس من صنائع

الروم ، وكان روم القسطنطينية في خوف من أسطوله في البحر ، كما يحسبون ألف حساب لجيشه في البر .

بعض أعمال معاوية في اصلاح الدولة

ومن أهم ما قام به تنظيم الجيش ، وادخال الاصلاحات التي تزيد في قوته ، وتجعله أبداً تحت السلاح عند الطلب ، فضاعف لذلك عطاءه وأرزاقه ، ووقت أوقاتاً لتناول الرواتب ، فهو أول من نظم الجيش بهذا النظام الغريب ، وجهزه بكل مايلزمه ، وجعل الجندي لا يستند في معاشه على غير رزقه من بيت المال . وكان لكل جند من أجناد الشام جيش خاص به من أهل الاقليم الذي يتألف فيه ، والجند هو ما نسميه بالفرنسية Le gouvernement militaire فمن جند دمشق ، الى جند الاردن ، الى جند فلسطين ، الى جند قنسرين . وأهم ما كانوا يهتمون له المرابطة على الحدود والثغور القريبة من أرض الروم . ولطالما أدهش معاوية الروم بصدقه كما أدهشهم بوفائه ودهائه . وقد ارتهن مرة رهائن منهم وضعهم في بعلبك ، فغدر به الروم بعد مدة ، فلم يستحل قتل من في يديه من رهنهم وأخلى سبيلهم وقال : وفاء بغدر خير من غدر بغدر .

ومعاوية أول من وضع البريد ، أحضر رجالاً من دهاقين الفرس فعرفهم مايريد فوضعوا له البريد واتخذوا له بغالاً بإكاف كان عليها سفر البريد ، وكان لا يجهز عليه الا الخليفة أو صاحب الخبر أي مدير الاستخبارات . وكان لصاحب الخبر في الاسلام شأن عظيم كما له عند الدول الحديثة . وهو الذي اخترع ديوان الخاتم وحزم الكتب ، ولم تكن تحزم ، وجعل على كل قبيلة من قبائل مصر رجلاً يصبح كل يوم فيدور على المجالس فيقول : هل ولد الليلة فيكم مولود وهل نزل بكم نازل ؟ فيقال له ولد لفلان غلام ولفلان جارية فيكتب أسماءهم ويقال نزل بهم رجل من أهل

كذا بعياله فيسميه وعياله ، فاذا فرغ من هذا القبيل أتى الديوان حتى يثبت ذلك . وبهذا كان الخليفة يحصي السكان ولا يفوته خبر المتنقلين في ربوع بلاده .

وكان لمعاوية أنواع من السياسات يرّز فيها حتى عدّ من أعظم ساسة العرب . كان لا يولّي إلا السيد المسوّد في قومه ، ويستميل القلوب بالعطاء أو بالاقناع أو بالاغضاء ، فاذا لم تنجع هذه الوسائل وتوجس شراً ممن أغضى عنه وترضاه فلم يفلح عمد الى القسوة ، وكان يقول لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني ، ولو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت . وكان يقول : إني لا أحول بين الناس وبين ألسنتهم مالم يحولوا بيننا وبين سلطاننا . أي أنه يطلق للناس حرياتهم فاذا لجأوا الى اظهار القوة أذاقهم بأسه الشديد . وكان يبذل الأموال العظيمة للملوبين والهاشميين فاذا لامه أحد على هذا البذل أجابهم إن الحرب تستلزم نفقات أكثر من هذا العطاء . وكذلك كان ابنه وولي عهده يزيد : اعطى عبد الله بن جعفر أربعة آلاف الف فقيل له : أتعطي رجلاً واحداً هذا ؟ فقال : ويحكم إنما أعطيتها أهل المدينة أجمعين فما يده الا عارية .

واستخدم معاوية القصاص للدعاية السياسية يقعدون في المساجد والمعسكرات يدعون لدولته وينفرون من أعدائها ، وهذه الدعاية لم تكن زمان النبي ولا زمان صاحبيه أبي بكر وعمر ، وكان القاص اذا سلم الامام من صلاة الصبح جلس فذكر الله وحده ومجده وصلى على نبيه ، ودعا للخليفة ولأهله ولأهل بيته وجنوده ، ودعا على أهل حربه . واستخدم أيضاً الشعراء للدعاية ، وزين لهم الدعوة الى التفاخر بالقبيلة والأيام المشهورة ، وأخرج الشعر من الهجاء بعض الشيء ، وكان الشعراء في الدهر الغابر كأرباب الصحف في المدنية الحديثة يفعلون في عقول الناس بشعرهم ، خصوصاً إذا كان الشاعر فحلاً مفلقاً . أما الخطابة فكان جميع أهله خطباء ، وقد كان قوادهم

ورجالهم كذلك خطباء أبناء . وخُطب زياد وعقبة والحجاج من أبلغ ما يؤثر عن خطباء العرب .

ابداع معاوية

كان معاوية يخرج عماله في الادارة ويعلمهم إياها بالعمل ، ولا يعتمد إلا على العظماء والدهاة أمثال عمرو بن العاص والمغيرة . وكان من عادته اذا أراد أن يولي رجلاً من آله بني حرب ولاّه الطائف ، فان رأى منه خيراً وما يعجبه ولاّه مكة معها ، فان أحسن الولاية وقام بما ولي قياماً حسناً جمع له معها المدينة ، فكان اذا ولي الطائف رجلاً قيل هو في أبي جاد ، فاذا ولاه مكة قيل هو في القرآن ، فاذا ولاه المدينة قيل هو قد حذق .

وله في سياسة العناصر ضروب من الابداع منها أنه رأى النصارى كثرة غامرة في الشام فما أحب اجلاءهم ؛ وما رأى من السياسة تركهم وشأنهم ، لئلا يستعين بهم الروم على الفاتحين ، فنقل الى الساحل قوماً من زَطّ البصرة والسيابجة وأنزل بعضهم أنطاكية ، ونقل قوماً من فرس بعلبك وحمص وأنطاكية الى سواحل الاردن وصور ، ونقل من أساورة البصرة والكوفة (الأساورة قوم من العجم بالبصرة كالأحامرة بالكوفة) وفرس بعلبك وحمص وأنطاكية جماعة . وأسكن حصن سفيان الذي بناه على أميال من طرابلس ، جماعة كثيرة من اليهود ، وأسكن الشام كله جمهرة من القبائل العربية مزجهم باهلها الاصليين ، فاصبح الساحل كالداخل في هذه الديار غاصاً بالعجم والعرب وبالسود والبيض وبالمسلمين والنصارى واليهود .

رأى معاوية أن أرض الحجاز قاحلة ، يعيش أهلها في شظف من العيش ، على هذا كانوا منذ أقدم عصور التاريخ ، ولما جاء الاسلام وفتحت البلاد وكثرت الأموال فرض عمر بن الخطاب العطاء ، فأصبح

الناس يعيشون من عطائهم ، وكان بعضهم يعيشون في الجاهلية من تجارتهم وفي الاسلام دخل المتازون في أعمال الدولة ، ولكن هذا لم يدم طويلا ، على ما تنبأ به حكيم بن حزام لعمر ، فتركت قريش التجارة واكتفت بالعطاء ، ثم بطل العطاء وبطلت التجارة ، لما تحولت دار الملك من المدينة الى دمشق .

خشي معاوية أن يهلك الناس في الحجاز اذا اعتمدوا على الموسم ـ موسم الحج ـ أو على صدقات المسلمين ، فعني في جملة ما عني به من أعماله باصلاح الزراعة في بلاد الحجاز ، فأحيا موات الأرضين ، واحتفر الآبار للسقيا ، وأقام سدوداً لخزن المياه والامطار ، فعاشت الحجاز من أرضها قرناً لم تشهد مثله من قبل ولا من بعد . وسارت أسرته على قدمه في هذا الباب فما أبطلت عمله بل تعهدته ونمته . وتسلسلُ الفكر ماثل في بني أمية يتم الآخر أبداً ما بدأ به الأول ، ولا ينقضه ولا يغيره . وأعظم ما فاز به معاوية أن رعيته من أهل الشام كانت تحبه محبة عظيمة ، وبهم وَرِيَ زناده ووصل الى أهدافه وكتب له النصر على أعدائه .

مميزات بني أمية

ويطول بنا نفس القول اذا أردنا أن نعرض لكل خليفة من خلفاء الأمويين ، وما قام به من الاعمال العظام في السياسة والادارة ، واذا وازنا بين الرجال لا نرى من عيارهم في الدول الخالفة كثيراً ممن يدانيهم ، وأين مثل مروان ، وابنه عبد الملك وابنه عبد العزيز وسليمان بن عبد الملك ، والوليد بن عبد الملك وهشام بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز ؟ ولعمر بن عبد العزيز في أمور الدولة وسياستها وتنظيم ادارتها ابداع لم يعهد مثله الا لجده لأمه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وكانت له في باب التقوى والزهد أعمال تتضاءل معها سيرة الزهاد المشهورين . قال ابن الاثير : ولقد سمعت

عن عمر بن عبد العزيز كلمة أعجبتني جداً ، وهي أنه قيل له في الذي يخرجه ويطلقه من الأموال التي لاتسمح نفس ببعضها فقال لهم : أنا فتحت الدكان بعد العصر ، فاتركوني أعمل الخير فكم أعيش ؟ وكذلك كان .

ومما امتازت به دولة الأمويين انها كانت دولة عربية صرفة بدمها وأخلاقها وعاداتها ومراميها ومظاهرها ، وكان أبناؤها كلهم يحرصون على التزوج من العربيات من بنات الأشراف ، ولم يكن في جميع خلفائهم من أمه أم ولد غير مروان بن محمد آخر خلفائهم في الشرق ، كانت أمه كردية ، على حين كان العباسيون كلهم ابناء إماء الا أولهم السفاح ، ولذلك جعلوه أول خلفائهم وقدموه على المنصور وهو أكبر منه سناً وعلماً وسابقة . أفسد العباسيون دمهم العربي بالاقتران بالاماء ، وافسدوا عصبيتهم بما كان من زهدهم في عنصرهم واعتمادهم على أبناء خراسان وعلى الموالي والعبيد فسقطت الاصول وقامت الفروع بدلها ، وأصبح بنو العباس على طول الايام خلاسيين وهجناء لا بالعرب ولا بالعجم . أما بنو أمية فما عهد فيهم هذا ، كان دمهم صافياً وأخلاقهم متشاكلة ، ويقوم نساؤهم ورجالهم عند الحد الذي رسمته لهم الفطرة ، وقضت به أحكام الشريعة .

ماسمع في دولة بني أمية أن يتدخل النساء في شؤون الدولة وقد رأينا الحرَم في الدولة العباسية منذ عهد المنصور يتدخلن فيما لايعنيهم من شؤون الرجال ، ولذلك أوصى المنصور ابنه ألا يجعل للنساء سبيلاً الى الدخول في مهمات دولته . وكان من أثر تغيير الدم العباسي واتخاذ أمهات أولادهم من الفارسيات والروميات والكرجيات وغيرهن ان كثرت المؤمرات في قصور الخلفاء ، وأصبح قتلهم من الامور المعتاد وقوعها ، وكانوا ـ اذا استثنينا منهم المنصور والرشيد والمأمون والمعتصم واثنين أو ثلاثة من المتأخرين من خلفائهم ـ الى ذلّ ليس بعده ذل ، وأكثرهم أشبه بمشايخ طرق في زواياهم منهم بخلفاء يأمرون في قصورهم فلا يعصون ، ويشهرون الحرب ويعقدون الصلح ، وأحكامهم نافذة في القاصية والدانية .

وربما يعترض على هذا بان الوليد بن يزيد من الأمويين قد قتل أيضاً ، والغالب ان قتله كان بسبب تخليه عن اليمانية لا لفسقه ولا للهوه كما اتهموه ، وهذه التهمة أذاعوها ليبرروا أمام الامة مقتله ، أما سائر خلفائهم فكانوا في الغاية من السياسة والشجاعة والحزم والتقوى والعمل ليل نهار على مصالح دولتهم ومصالح الناس . وكان آخرهم مروان بن محمد على غاية العقل وحسن التدبير ، ولما نفذ القضاء سقطت الدولة بيده ، حتى أن الخليفة الذي جار عليه التاريخ — وتاريخ بني أمية كتبه أعداء دولتهم بعدهم ، كما شاءت الأهواء السياسية — ونعني به أمير المؤمنين يزيد بن معاوية لم يكن باجماع ثقات المؤرخين بالدرجة التي صوره بها أعداء دولتهم ، ولا هو الذي قتل الحسين ولا أمر بقتله ، ولما جاءه خبر مقتله اضطرب ولعن قاتله ، فاتخذ أعداؤه من هذه الفاجعة المؤلمة حجة على الحط من يزيد وآل يزيد .

عمران الامويين وتأثيراتهم الدينية والمدنية

ومما امتازت به دولة بني أمية غرام رجالها بالعمران ، فقد أقام خلفاؤهم في المشرق أمثال الوليد بن عبد الملك وهشام بن عبد الملك من الجوامع والمستشفيات والخانات ودور الضيافات والقصور والطرق والجسور والسدود وتعمير الأمصار وتحضير البوادي والقفار ما هو عجيبة تلك العصور ، وما زال الجامع الأموي بدمشق وقصر الحير الذي اكتشف في البادية وجيء بنموذج منه الى متحف دمشق شاهدين على تلك العناية الفائقة وتلك المدنية الباهرة قال أحد دهاقين خراسان لعاملها من بني أمية (والدهقان رئيس الاقليم) إنكم بنيتم الايوانات في المفاوز ، فيجيء الجائي من المشرق والآخر من المغرب فلا يجدان عيباً إلا أن يقولا : سبحان الله ما أحسن ما بني .

أما ما قامت به دولتهم في الغرب من الأعمال العظيمة على يد مؤسسها عبد الرحمن الداخل وآل بيته فاعاد به مجد آبائه بعد أن قضى العباسيون

في الشرق على كل أموي وأموية فالكلام عليه يطول . ولا نغالي اذا قلنا ان ثلث مآثر العرب من حضارة قام في الأندلس بفضل بني أمية ، والثلثان الآخران قاما في بغداد ودمشق والعواصم الاخرى كمصر ونيسابور وشيراز والري وأصفهان وغرناطة .

ومما عرف به الامويون من مرونة سياسية وادارة حكيمة رشيدة انتشر الاسلام وانتشرت اللغة العربية في اقاصية من دون مادعاية ولاتبشير مبشرين ، وامتد ملكهم الواسع في بلاد تبلغ مساحتها نحو ثلاثة أرباع مساحة أوربا ، وقدرها بعضهم بثلاثة آلاف وسبعمائة فرسخ وذلك من سواحل الاطلنطي الى تخوم الصين ، ومن جبال القوقاز وما وراءها الى خط الاستواء وما وراءه . وفي عهدهم دخلت في الاسلام أمم كثيرة من السلالة السامية (العرب والسريان والكلدان) ومن السلالة الحامية (المصريون والنوبيون والبربر والسودان) ومن السلالة الآرية (الفرس واليونان والأسبان والأهالد) والاهالد أو الهنادك رجال الهند ، ومن السلالة التورانية (الترك والتتار) وكانت تقام شعائر الاسلام ويقرأ القرآن في قرطبة وفاس كما تقام الصلوات في السند وسمرقند ، وتتلاقى العناصر المختلفة في الموسم بمكة ، وفيهم الاسود والاحمر والاصفر والابيض تجمعهم جامعة الاسلام والطاعة لبني أمية . وأصبحت دمشق هذه في نظر المسلمين كرومية في نظر أهل النصرانية ، وما كانت قبل عهد الامويين تعد شيئاً بين العواصم والحواضر ، ودك العباسيون معالم عمرانها عندما فتحوها مخافة أن ينسب الأمويون شيء من الحسنات تذكر الناس بمجدهم أمس ، وقضوا على كل أثر لهم على نحو مافعل التتار بالعباسيين في القرن السابع لما استولوا على بغداد عاصمة ملكهم وقضوا على الخلافة العباسية .

خصائص قواد الامويين وعمالهم

وما كان خلفاء بني أمية فقط ممتازين بأمور تفردوا بها على من سواهم

بل كان رجالهم وقوادهم وعمالهم لا يشبهون في هذا المعنى عمال بني العباس . فان عمال العباسيين كانوا يشتغلون لانفسهم على الغالب ، وعمال الأمويين يشتغلون لدولتهم ، فقد رأينا الحجاج بن يوسف الثقفي مثلاً يعمل كل مايجب أن يعمل لدولته ورأينا أحمد بن طولون في الدور العباسي الثاني يعمل لنفسه أولاً ثم لدولته ، وكان عمله لنفسه عظيماً جداً لم يؤثر بعضه عن عامل من عمال بني أمية . وعلى ما ظهر من تعصب الامويين ، وكانوا لايولون الولايات إلا للعرب ، ولا يؤمنون على سياستهم الا للعرب ، كنت تراهم في المسائل الاخرى أعجوبة في تساهلهم . آخذ بعضهم عبيد الله ابن زياد لاعتماده على الفرس في مسائل الاموال فقال مدافعاً عن نفسه : كنت اذا استعملت العربي كسر الخراج ، فان أغرمت عشيرته أو طالبته أوغرت صدورهم ، وان تركته تركت مال الله وأنا أعرف مكانه ، فوجدت الدهاقين أبصر بالجباية ، وأوفى بالامانة ، وأهون بالمطالبة منكم ، مع أني قد جعلتكم أمناء عليهم لئلا يظلموا أحداً .

وما كان يخلو قائد من قواد الامويين من مزايا غريبة تدهشك في جملة ما تدهشك من سيرته ، فقد اشتهر الحجاج مثلاً على عظيم سياسته بامور لا يخطر بالبال أن مثله يفكر فيها ، اشتهر باصلاح الموازين والخراج والزراعة ووضع الحركات والاعجام في المصاحف ، لئلا يلتبس شيء من الآيات على من لا يعلم القرآن واتخذ دار الضرب لسك النقود فكان يضرب المال للسلطان مما يجتمع له من التبر وخلاصة الزيوف والستوقة والبهرجة ، ثم أذن للتجار وغيرهم في أن تضرب لهم الأوراق ، واستغلها من فضول ما كان يؤخذ من الاجرة للصناع والطباعين وختم أيدي الطباعين . وهو أول من أجرى في البحر السفن المقيَّرة المسمرة غير المخرزة والمدهونة وغير ذوات الحاجيء (واحدها جؤجؤ وهو الصدر او عظامه شبهوا به مقدم السفينة) وكان أول من عمل المحامل ولم يرض عن عمله هذا بعض الرجّاز الاكرياء فقال :

أول عبدٍ عمل المحامـــلا أخزاه ربي عاجلاً وآجلا

وكان من زياد بن أبي سفيان مثل ما كان من الحجاج : بنى في البصرة دوراً وأحياء ومساجد وحفر ترعاً وأنهاراً وكل ما بنى فيها أو صنع فانه نسب الى غيره . قال عمر بن عبد العزيز : قاتل الله زياداً جمع لهم كما تجمع الذرّة ، وحاطهم كما تحوط الام البرة ، وأصلح العراق بأهل العراق ، وترك أهل الشام في شامهم ، وجبى العراق مائة الف الف وثمانية عشر الف الف . وهذا عتبة بن أبي سفيان أخو معاوية وأخطب رجل في بني أمية كان يطفيء الفتن ببلاغته أكثر مما يطفئها بجيش دولته . وهذا موسى ابن نصير فاتح الاندلس ما النوى له علم منذ خرج من مصر في جيش ضئيل حتى وصل الى الأندلس ففتحها ، واذا قرأتم ترجمته بامعان تقولون معي ان الولادة ما ولدت أعظم منه ولا أعقل .

ومن المتعذر في ساعة ضيقة كهذه أن نتناول الكلام على رجال القوم ونذكر بعض مالهم من المزايا النادرة ، ونحن لذلك نكتفي بالاشارة الى واحد منهم ، وكل واحد من رجالهم يحتاج الى دراسة خاصة مشبعة ، ونعني به مسلمة بن عبد الملك . فقد كان على جانب عظيم من العقل والسياسة والعلم والادب . غزا الروم غير مرة وأثخن فيهم . وفتح الأمهات من مدائنهم ، وتولى الاعمال الجليلة ومنها العراقان وأرمينية ، فابان في كل مكان عن كفاءة منقطعة النظير وعن حب للخير غريب في بابه ، وأوصى بجزء من ماله عظيم لأهل الأدب قائلاً انهم أهل صناعة مجفوة . ولولا انه ابن أمة لكان من المتحتم أن يجلس على عرش الخلافة الاموية كسائر اخوته الاجلاء الذين بيضوا وجه التاريخ الاموي والاسلامي باعمالهم الجليلة .

التنظير بين الامويين والعباسيين

حكم الأمويون في الشرق ألف شهر ، وحكموا في الغرب نحو ثلاثة قرون ، وكانوا في الشرق والغرب يتحرون جداً في الاموال لا يأخذ

الخليفة مالا يحل . وكان مما جرت به عادة خلفائهم اذا جاءتهم جبايات الامصار أن يأتيهم مع كل جباية عشرة رجال وأحياناً أربعون رجلاً قساماً من وجوه الناس وأجنادها فلا يدخل بيت المال من الجباية دينار ولا درهم حتى يحلف الوفد مافيها دينار ولا درهم إلا أخذ بحقه وانه فضل أعطيات أهل البلد من المقاتلة والذرية ، بعد أن أخذ كل ذي حق حقه ، أي فضل أعطيات الاجناد وفرائض الناس . وكانوا لا ينقلون مالاً من بلد الى بلد حتى تسد ثغره وخصاصة أهله بما يغنيهم ، فما فضل منه نقلوه الى البلد الآخر الذي يليه .

أما جباية العباسيين فكان فيها الطاهر وغير الطاهر ، وأنواع ضرائبهم كثيرة ، لذلك كان ينكسر الخراج ويكثر عيث العمال وعبثهم بها . وماعهد عند الامويين نزول خليفة عن أقليم أو عن قطر لعامل من عماله ، يحبيه على هواه لحسابه الخاص ، ويعهد الى من يريد بتوليته عليه ، ويكتفي الخليفة حفظه الله بالخطبة له والدعاء لدولته وبوضع اسمه على السكة وكانت هذه الطريقة مبدأ تمزيق دولتهم وفض عرى كلمتهم وفي أيام بني العباس كثرت المصادرات ، وكان يصادر العمال كما تصادر الرعية ، ويصادر كل من عرفت له ثروة بلا رحمة ، ومنهم من كانوا يعذبون أنواع التعذيب ليسلبوهم نعمتهم ، ومنهم من هلكوا في العذاب ، ومثل هذا الجور قلما عهد في دولة بني أمية ، ذلك لان عمالهم طبقة مختارة يكونون من أصحاب الشرف وأرباب البيوتات من العرب ، وقل ان عهدت السرقة في شريف . وما ذكر التاريخ ان قائداً أموياً أو وزيراً صودر على مال ، كما كان يصادر قواد العباسيين وولاتهم ووزراؤهم ؛ ولاسيما في الدور العباسي الثاني ، والسبب في ذلك انتظام طرق الجباية وقلة أنواعها عند الامويين . وكان هشام بن عبد الملك في تنظيم ميزانية الدولة المثل الاعلى وموازنته خير موازنة عرفت . ثم الى هذا كانت الاخلاق على العموم في العصر الاموي أرقى مما آلت اليه في العصر العباسي ، كان في عمال الامويين الصحابة والتابعون

وتابعو التابعين وكلهم غاية في فهم روح الدين ، والبعد عن الصغائر والسفاسف . ودخل في عمال العباسيين أخلاط الزمر ، ومنهم من لايعرف أبوه ولا أمه أوصلته المصادفات الى المراتب العالية ، ومنهم من أظهر الاسلام وأبطن خلافه ، كبعض الاتراك والفرس ظلوا في باطنهم على عبادة الكواكب أو عبادة النيران .

سر تفوق الامويين

الذكاء يورث وينتقل بالدم ، والعلم لا يورث لانه خاص بدارسه ، وابن الذكي على الاغلب ذكي ، وابن البليد بليد على الاكثر . كذلك كان الناس في كل زمان يجعلون للرجل المنسوب الى جد كان له شأن عظيم في الحياة مالا يجعلون مثله لرجل عادي كان لأحد أسلافه شيء من المكانة ، والدم الطاهر ينم على صاحبه ولا يكذب رائده . وكان البشر منذ القديم يقول بالوراثة عرفها من طريق عملي لا من طريق علمي ، وكان للعرب في باب تخير البنات الاصيلات غرام شديد منذ أبعد أزمنة تاريخهم وما زالوا على ذلك الى اليوم ، حتى كادت الامة العربية تعد في هذا المعنى ارستقراطية مع أن أعمالها كلها تدل على تأصل الديموقراطية في دمها . ولذلك رأينا بعض مؤلفي التراجم يحرصون على وضع نسب المترجم له من جهة أهل أبيه وأمه ، وبهذا ساغ لنا أن نستنتج بان بني أمية لم يظهر ماظهر منهم من الصفات الغر في الجاهلية والاسلام الا بدم نقي انتقل من الاجداد الى الاحفاد ، وتسلسل العقل والذكاء في رجالهم ونسائهم ، وانتقلت الشجاعة والنجدة في بنيهم وبناتهم . وفي الحديث : الناس معادن ، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام اذا فقهوا .

الاسباب الداعية الى التنويه بالامويين

لا أريد أن أودعكم الآن قبل أن أفاتحكم بأمر طالما لغط به بعضهم

وما أجبتهم عليه ، ذلك أن بعض المنحرفين عن بني أمية يتهمني بالتشيع لهم ، واني أنوه في كل فرصة بحسناتهم ، وأغض الطرف على ما يتخيله المتخيلون سيئات ، واني انحي على من ظلموهم ومـــا رحموهم ، وما حبي الامويين ، علم الله ، الا حب من أنعم النظر فيما قيل فيهم ولهم ، ووازن بين أعمالهم وأعمال غيرهم ، وأيقن بعد الدرس الطويل والتفكير العميق أنهم مغبونون في الحكم عليهم . سوّد خصومهم من العباسيين والعلويين صحيفتهم في الدهر الغابر لأجل السياسة حتى صار بغضهم الى اليوم مذهباً يدين به من يدين . ويبلغني عن العراق في نهضته الحديثة انهم قلما يقرؤون في المدارس تاريخ بني أمية لبغض بعض الطوائف لهم ، وهذا من أغرب ما يسجل في تجاهل المعروف ، وعدم الاقرار بالامر الواقع .

ان حكمي على الامويين حكم التاريخ فقط ، أرغب في أن أنصف دولة أحسنت ولم يبق في الأرض انسان ينسب اليها حتى أتقرب من قلبه بما إدون ، ولو كانت المسألة مسألة حظ نفس كان الاولى بي أن أصانع مبغضيهم وهم ملايين اليوم منتشرون في أقطار العالم ولهم حوّل وطوّل . فالمسألة اذاً ليست مسألة حب وبغض بل مسألة حق وباطل وأقبح بالتاريخ يكتب بعوامل مذهبية وشهوات نفسية وأهواء شخصية .

رثاء شوقي للأمويين

ورحم الله صديقي شوقي يذكر الأمويين في قصيدته الخالدة في دمشق بقوله :

بنو أمية ابـــناء مافتحوا ... وللأحاديث ماسادوا وما دانوا
كانوا ملوكاً سرير الشرق تحتهم ... فهل سألت سرير الغرب ما كانوا
عالين كالشمس في أطراف دولتها ... في كل ناحية ملك وسلطان
يا ويح قلبي مها انتاب أرسمهم ... سرى به الهمّ أو عادته أشجان

بالأمس قمت على (الزهراء) أندبهم ... واليوم دمعي على (الفيحاء) هتان
في الأرض منهم سماوات وألوية ... ونيرات وأنواء وعقبان
معادن العز قد مال الرغام بهم ... لو هان في تربه الابريز ماهانوا
لولا دمشق لما كانت طليطلة ... ولا زهت ببني العباس بغدان
مررت بالمسجد المحزون أسأله ... هل في المصلى او المحراب مروان
تغير المسجد المحزون واختلفت ... على المنابر أحرار وعبدان
فلا الأذان أذان في منارتـه ... إذا تعالى ولا الآذان آذان

المرأة في عهد النبوة وفي عصرنا الحاضر*

كان أمر المرأة في تاريخ العالم القديم والحديث عجباً ، كانت تشرى وتباع ، وتكره على الزواج والبغاء ، وكانت تملك وتورث ، ويتصرف فيها الرجل على هواه كأنها سلعة ، ولم تكن الأمم الاخرى أقل اضطهاداً لها ، أو امتهاناً لها من عرب الجاهلية ، وليس هذا موضع تفصيل تاريخها عندهم وانما الكلام فيما كانت عليه قبل الاسلام وفيما ارتقت اليه بعده .

كان العرب في العهد الجاهلي فريقين : منهم من عبد المرأة بعد أن جعلوا الملائكة إناثاً ، وجعلوهن بنات لله ، ومنهم من وأدها ، أو أبقاها فاضطهدها ، وما ورد في القرآن الكريم أصدق مثال للحال التي كانت عليها العرب قبل الاسلام ، فهو يقص علينا كيف عبدوا الانثى ، ومن آياته في ذلك قوله تعالى « ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم مايشتهون » وقوله : « وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً : أشهدوا خلقهم ؟ ستكتب شهادتهم ويسألون ، وقالوا : لو شاء الرحمن ماعبدناهم ، مالهم بذلك من علم ، ان هم إلا يخرصون » فهم لم يعبدوا الملائكة حتى جعلوهم بنات لله ، وقال في الفريق الآخر الظالم الآثم : « وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء

(١) محاضرة للأستاذ محمد بهجة البيطار ألقاها في ردهة المجمع العلمي العربي على الرجال: مساء الخميس الواقع في ٢٦ ربيع الآخر سنة ١٣٦٠ الموافق ٢٢ ايار سنة ١٩٤١ وعلى السيدات : مساء الخميس الواقع في ٣ جمادى الأولى سنة ١٣٦٠ الموافق ٢٩ ايار سنة ١٩٤١ .

ما بشر به ، أيمسكه على هون ، أم يدسه في التراب . ألا ساء ما يحكمون » وقال : « وإذا الموءودة سئلت بأي ذنب قتلت » .

فهذه الطفلة التي كانت تعيش ذليلة مهينة ، أو تدس في التراب حية دفينة ، ستقول : « يارب ، قتلت بلا ذنب » .

هذان طرفان ذميمان من معاملة الأنثى في الجاهلية ، فلما جاء الاسلام أبطلها معاً ، ومنحها حقوقها ، وعرّفها واجباتها ، وأنزلها المنزلة اللائقة بها وآية : « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة » لا يوجد في أرقى الشرائع القديمة والحديثة قانون أعدل ولا أجمع منها ، إذ قد ساوت بين الرجل والمرأة في الحقوق والواجبات ولم تعين هذه الحقوق والواجبات لانها تتبع العرف ، وتختلف باختلاف الطبقات ، والشرائع والعادات ، وخصت الرجل بدرجة الرئاسة اذ لابد لكل جماعة أو أسرة من نظام ، ولابد لكل نظام من رئيس منفذ ، والرجل أولى بتطبيق النظام المنزلي وتنفيذه ، لان له من القدرة على الرعاية والحماية والكسب والانفاق مالبس لها ، وهذا المراد من الآية الكريمة « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض ، وبما أنفقوا من أموالهم » لكن هذه الرئاسة رئاسة شورية لا استبدادية ، ودليلها من القرآن قوله تعالى في شأن الزوجين وطفلها الرضيع وفطامه « فان ارادا فصالاً عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما » فهذا نص صريح في اقامة سنة الشورى بين أعضاء الأسرة الواحدة ، فالاسلام نهى عن عبادة المرأة ، ولم يستعبدها كما فعلت الأمم السابقة ، ولم يقلب نظام الطبيعة ليجعل منها رجلاً ثانياً كما فعل العصر الحديث ، فقد تخلى عنها الاب والاخ والزوج والابن ، ودفعوها جميعاً في تيار العمل واللهو خارج المنزل ، فاختل نظام البيوت ، ولا تزال تسمع الشكوى المرّة في الاذاعات العامة المرة بعد المرة ، من نقوض دعائم الاسرة والوطن .

أثر المرأة في الحروب الجاهلية والاسلامية

لم تفقد المرأة بعد الاسلام شيئاً من مكانتها الأدبية . ولا شجاعتها الحربية ، ولكن الاسلام وجهها وجهة صالحة ، ونفخ فيها روحاً جديداً لم يكن لها من قبل .

كان القتال الجاهلي حروباً أهلية داخلية ، وكان فيها اضعاف للأمة ، وتفريق لوحدتها ، وهدٌ لقواها ، ومنهم من كان يصرح بأنه يشهد الوغى لا لغرض سوى شهود اللذات أو اليأس من الحياة ، كقول طرفة :

ألا أيهذا الزاجري أحضر الوغى وان أشهد اللذات هل أنت مخلدي
فان كنت لا تستطيعُ دفع منيتي فدعني أبادرها بما ملكت يدي

وعنترة الذي يتغزل بعبلة ويحاول أن يسترضيها بوقائعه ومشاهده فيقول :

ولقد ذكرتك والرماحُ نواهلٌ مني وبيضُ الهند تقطر من دمي
فوددت تقبيل السيوف لأنها لمعت كبارق ثغرك المتبسم

وكانوا اذا ساروا للحرب صحبوا نساءهم ابتغاء الحفيظة واتقاء الفرار ، وأخذوا معهم القيان والدفوف والمعازف والخمور ، ومنه ما وقع في غزوة أحد فانه لما التحمت الصفوف واشتدت الحرب قام النسوة وأخذن الدفوف يضربن خلف الرجال وينشدن الاشعار تهييجاً لعواطفهم ، وكان عليه الصلاة والسلام كلما سمع نشيد النساء قال : « اللهم بك أجول ، وبك أصول ، وفيك أقاتل ، حسبي الله ونعم الوكيل » .

ويظهر لنا الفرق واضحاً بين هذه الأهداف القاصرة وبين الهدف السامي الذي جاء به الاسلام وهو اعلاء كلمة الله : أي نصرة الحق على الباطل ، والفضيلة على الرذيلة ، والتوحيد على الوثنية ، وأين ذكر عنترة لعبلة حين اشتداد القتال من ذكر الله في قوله « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون » .

فالثباتُ من أسباب النصر والظفر ، وذكرُ الله قوة معنوية تثبت القلوب من ناحية ، وتبعث فيها الرحمة من ناحية أخرى ، فالذاكر لله لا يقاتل ابتداءً ولا اعتداءً ، ولا يقاتل من لا يقاتل كالنساء والصبيان والشيوخ والمرضى ومن ألقى السلم وكف عن الحرب .

كان تألق نور الاسلام له أثر في تطور الحياة العربية الفكرية والاجتماعية والادبية والسياسية ، وها نحن اولاء نقتصر الآن على ذكر المرأة العربية في العصر النبوي بعد أن وصفنا عملها في الدور الجاهلي .

كان تعلم العلم الديني في عهد النبوة عاماً للكبار والصغار والذكور والاناث ، فكان النساء يتدارسن القرآن ، ويروينَ الاحاديث ، ويحافظن على العبادات ، ويصلين صفوفاً في المساجد ، ويستمعن الخطب والمواعظ ، ويحضرن صلاة العيدين في المصلى العام ، ويسافرن لاداء فريضة الحج والعمرة ، بل كنَّ أيضاً يشهدن الحروب . ويهيئن للمجاهدين الطعام ويسقينهم الماء ، ويغسلن الثياب ، ويضمدن الجروح ويشتركن في الجهاد أحياناً .

نعم ان الشريعة لم توجب على المرأة حضور الجماعة والجمعة ايجاباً ، ولم تفرض عليها القتال مع الرجال ، وحماية الديار ، والدفاع عن الحق بالقوة ، وانما خصت الرجال بذلك كله لان للمرأة من نظامها الفطري ، واختصاصها المنزلي ، ما يعوقها عن مشاركة الرجال في كل حين بمثل هذه الاعمال ، ومن أكبر موانعها الحمل والولادة وحضانة الاطفال وإعدادهم رجالاً المستقبل ، وادارة شؤون المنزل .

وأما عملها الحربي الاسلامي ، فيظهر الفرق بينه وبين عمل النساء الحربي الجاهلي ، بما قامت به في وقعة أحد نفسها بطلةُ الحروب والوقائع العربية الاسلامية ، الصحابية الجليلة أم عمارة نُسيبة بنت كعب المازنية الانصارية النهيرة ، واليك الحوار الذي دار بينها وبين أم سعد بنت سعد ابن الربيع ، قالت أم سعد : دخلت عليَّ أم عمارة فقلت ياخالة : أخبريني

خبرك ، قالت : خرجت أول النهار ، وأنا أنظر ما يصنع الناس ، ومعي سقاء فيه ماء ، فانتهيت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في أصحابه ، والدولة والريح للمسلمين ، فلما انهزم المسلمون انحزت الى رسول الله ﷺ فكنت أباشر القتال ، وأذب عنه بالسيف ، وأرمي عن القوس حتى خلصت الجراحُ اليّ ، فرأيت على عاتقها جرحاً أجوف له غور ، فقلت من اصابك بهذا ، قالت ابن قمئة اقأه الله (اذله وأصغره) : لما ولّى الناس عن رسول الله أقبل يقول : دلوني على محمد فلا نجوت ان نجا ، فاعترضتُ له أنا ومصعب بن عمير ، وأناس ممن ثبت مع رسول الله فضربني هذه الضربة ، ولكني ضربته على ذلك ضربات ، ولكن عدو الله كان عليه درعان . وقد اثنى الرسول على شجاعتها فقال : ما التفتُّ يوم أحد يميناً ولا شمالاً الا ورأيتها تقاتل دوني .

شهدت بيعة الرضوان ، ثم شهدت وقعة اليمامة فقاتلت حتى قطعت يدها ، وجرحت اثنتي عشرة جراحة . وكانت فوق ذلك كله محدثة جليلة روى عنها ابنها عباد بن تميم ، ومولاتها ليلى ، وعكرمة ، والحارث بن كعب وأم سعد ، وحديثها في كتب السنن الاربعة .

ومثل ما قامت به أيضاً خولة أخت ضرار بن الأزور الكندي التي كانت أشجع نساء العرب في عصرها وكانت تشبه بخالد بن الوليد في حملاته بل ظنها أناس في بعض وقائعها خالداً ، بل خالد نفسه كان معجباً بفرط شجاعتها ، وما ظهر من خلالها وشمائلها ، ولها أخبار كثيرة في فتوح الشام ومما حدث به الواقدي أنه لما أسر أخوها ضرار بن الأزور في وقعة أجنادين سار خالد بن الوليد في طليعة جنده لاستنقاذه . فبينا هو في الطريق مرّ به فارس معتقل رمحه ، لا يبين منه الا الحدق ، وهو يقذف بنفسه ، ولا يلوي على ما وراءه . فلما نظر خالد قال : ليت شعري من هذا الفارس ؟ وايم الله إنه لفارس ! ثم اتبعه خالد والناس من ورائه حتى أدرك جند الروم ، فحمل عليهم ، وأمعن بين صفوفهم ، وصاح بين جوانبهم ، حتى

زعزع كتائبهم ، وحطم مواكبهم ، فلم تكن غير جولة جائل ، حتى خرج وسنانه ملطخ بالدماء . وقد قتل رجالاً ، وجندل أبطالاً ، ثم عرض نفسه للموت ثانية ، فاخترق صفوف القوم غير مكترث ، وخاض المسلمين من اقلق والاشفاق عليه شيء كثير . وظنه أناس خالداً . حتى اذا قدم خالد قال له رافع بن عميرة : من الفارس الذي تقدم أمامك ؟ فلقد بذل نفسه ومهجته ، فقال خالد : والله لأنا أشد انكاراً واعجاباً لما ظهر من خلاله وشمائله ، وبينا القوم في حديثهم ، خرج الفارس كأنه الشهاب الثاقب ، والخيل تعدو في أثره ، وكلما اقترب أحد منه ألوى عليه ، فأنهل رمحه من صدره ، حتى قدم على المسلمين ، فأحاطوا به وناشدوه كشف اسمه ، ورفع لثامه ، وناشده ذلك خالد وهو أمير القوم وقائدهم ، فلم يحر جواباً ، فلما أكثر خالد أجابه وهو ملثم فقال : أيها الأمير اني لم اعرض عنك الا حياءً منك ، لانك أمير جليل وأنا من ذوات الخدور ، وبنات الستور ، وانما حملني على ذلك اني محرقة الكبد ، زائدة الكمد ، فقال خالد : من أنت ؟ قالت أنا خولة بنت الأزور . كنت مع نساء قومي ، فأتاني آت بان أخي أسير . فركبت وفعلت ما رأيت . هنالك صاح خالد في جنده ، فحملوا وحملت معهم خولة وعظم على الروم ما نزل بهم منها ، فانقلبوا على أعقابهم .

أدب المرأة وصبرها قبل الاسلام وبعده

كان لوحي الله المعجز سلطان على روح المرأة العربية ووجدانها ، وكان ايمانها عدتها في الحروب والفجائع وعتادها ، فهو يفرغ على قلبها نعمة الصبر والثبات ، وبعدها اذا كانت فاقدة واجدة بالجزاء في دار الرضوان ، وقد ظهر الفرق محسوساً بين حالتها في الجاهلية والاسلام . هذه الخنساء بنت عمرو بن الشريد الشاعرة المشهورة التي كانت تقول في أول أمرها البيتين أو الثلاثة ، فلما قتل شقيقها معاوية بن عمرو وقتل أخوها لأبيها صخر ،

أكثرت من الشعر حتى سارت بقصائدها الركبان ، واشتهر نواحها على صخر حتى غدا مضرب الأمثال ، وصارت هي أشهر شواعر العرب فمن ذلك قولها فيه :

ألا يا صخرُ لا أنساك حتى ... أفارق مهجتي ويشق رمسي
يذكرني طلوع الشمس صخراً ... وأبكيه لكل غروب شمس

ومن شعرها فيه :

ألا ياصخرُ إن أبكيتَ عيني ... فقد أضحكتني دهراً طويلاً
ذكرتك في نساء معولات ... وكنت أحق من أبدى العويلا
دفعت بك الجليل وأنت حيٌّ ... فمن ذا يدفع الخطب الجليلا
اذا قبح البكاء على قتيلٍ ... رأيت بكاءك الحسن الجميلا

وقد قدمت على النبي ﷺ مع قومها من بني سليم ، فأسلمت معهم ، فذكروا أن النبي ﷺ كان يستنشدها الشعر فيعجبه شعرها وهو يقول : هيه يا خناس ويومئ بيده ، حضرت الخنساء حرب القادسية ومعها بنوها أربعة رجال ، فوعظتهم ، وحرضتهم على القتال . فلما أصبحوا باشروا القتال واحداً بعد واحد حتى قتلوا فبلغها الخبر فقالت : الحمد لله الذي شرفني بقتلهم وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته .

علم النساء في العصر النبوي

وكما كانت المرأة العربية في الحرب صاحبة سيف وسنان ، وفي السلم ربة برهان وبيان ، كانت في حلقات الدروس تشاطر الرجل كل علم ، وتضرب معهم بأوفر سهم ، وفي أوقات العبادة حمامة المسجد ، ومحدثات النساء في عهد النبوة وما بعده كثيرات جداً ، وانك لتجد أسماءهن مدونة في كتب طبقات المحدثين وغيرهم .

وقد استغرقت المحدثات المجلد السادس من مسند الامام أحمد بن محمد

ابن حنبل الا قليلا ، ومسند السيدة عائشة — أي الأحاديث التي سمعتها وروتها — قد بلغ وحده أكثر من خمسين صفحة بعد المائتين [ص ٢٩ — ص ٢٨٢] . وقد تسلسل العلم في بعض البيوتات في السيدات حتى صارت الواحدة تروي أحاديث النبي عن أمها وجدتها ، ومن شواهد ذلك مارواه الامام أبو داود في سننه قال : حدثنا محمد بن بشار ، حدثني عبدالحميد ابن عبد الواحد ، حدثتني أم جنوب بنت نميلة عن أم سويدة بنت جابر عن أمها عقيلة بنت أسمر بن مضرس : أتيت النبي ﷺ فقال : من سبق الى مالم يسبق اليه مسلمٌ فهو له قال : فخرج الناس يتعادون ويتخاطون ، أي كل منهم يسبق صاحبه بالخط (١) وهذا الحديث يوضح لنا كيف كانت المسلمات راويات محدثات وكيف كانت الفتاة العربية المسلمة تحفظ السنة وتروبها عن أمها وجدتها وهي في العقائد والعبادات والمعاملات والاخلاق والآداب وبهذه العلوم النافعة ، كانت تعنى النساء والفتيات العربيات في عصور الاسلام الزاهية ، فهل نجدد بذلك عهداً ونعيد لنسائنا وبناتنا مافقدنه من تراث ديني أدبي .

تلكم هي أوصاف العربيات المسلمات في عهد سلفنا الصالح ، وفي ظلال العلوم والآداب الاسلامية فما حال المجتمع الاسلامي اليوم ، وما شأن المرأة العربية في عصر المدنية الحديثة ؟

المتعلمات في عصرنا الحاضر

لا يستطيع منصف أن ينكر النهضة الحاضرة فان الفتيات في عصرنا هذا يحملن الشهادات الابتدائية والثانوية ، ومنهن من نالت الشهادة العالية في العلوم أو الآداب أو الحقوق أو الطب أو شهادة التخصص بالفلسفة والتربية ، ولكنا لا نرى إزاء هذه الشهادات المدنية ما يماثلها أو يدانيها في

(١) يتخاطون : اي يعلمون على الأرض علامات بالمخاط ، تسمى الخط واحدتها خطة ، وهي الأرض يخطها الانسان لنفسه ، ويخط عليها خطاً ليعلم انه اختارها .

دروس الدين . فان قيل وأين تخصص الفتاة الحاملة للشهادة العالية في العلوم الدينية ؟ فالجواب من وجهين :

(١) مطالبة الحكومة بافتتاح فرع التخصص الديني الذي كانت اعتزمت انشاءه وجعله فرعاً للجامعة السورية ، ونفقاته قليلة ، وفوائده جزيلة ، ومطالبتها أيضاً بانشاء الكلية الشرعية الاسلامية التي أجمع طلاب المعاهد الدينية والمدنية على المطالبة بها ، ثم أيدهم بمطلبهم هذا مؤتمر الجمعيات الاسلامية وعزّزه بكتاب بعث به الى الحكومة ولعلها محققة الأمنية هذا المشروع العظيم الذي يكون له اذا تم — كما قالوا — أبر الأثر في البلاد العربية وفي الشرق عامة ان شاء الله .

(٢) إن الأزهر الشريف قد افتتح كليات التخصص الديني وجعلها لأبناء المسلمين عامة لا للمصريين خاصة ، فمن السهل على بناتنا من حاملات (البكالوريا) ولا سيما المجازات بالحقوق أن يصحبن بعض ذوي المحارم الى مصر وينهلن من معين الشريعة الصافي ويعدن رافعات ألوية الدين والعلم والاصلاح.

كان النساء في صدر الاسلام على علم بدينهن ، وما لهن وعليهن ، أما نساء عصرنا فهن يسألن ويستشكلن مسائل كان يرجى منهن أنفسهن الجواب عنها مثل شهادة المرأة وميراثها ودينها ، ومثل تعدد الزوجات (أو عدم المساواة كما يقال) ويسألن عن الحكمة في كون أزواج الرسول أكثر من أربع ، وأمثال هذه المسائل ، ونحن نجيب عنها بايجاز :

شهادة المرأة

المرأة إنسان كامل كالرجل لها من الحقوق مثل ماله وعليها من الواجبات مثل ماعليه كما تقدم . ثم ان للمرأة من طبيعة الأنوثة ونظام الفطرة أموراً خاصة بها ، كتدبير المنزل وادارة شؤونه ، كما أن للرجل خصائص لاتشاركه هي فيها كاحتمال المشاق ، والدفاع عن الحق بالقوة ، وبهذه الخصائص

والمزايا التي انفرد كل نوع من الذكور والاناث ببعض منها ، كانت الانثى أنثى ، والرجل رجلاً .

وان من المسائل التي لا تماثله فيها مسألة الشهادة ، فانها تارة تكون شهادتها مثل شهادته ، وطوراً تكون أقل من شهادته ، وأحياناً تقبل شهادة النساء منفردات عن الرجال ، بل تتعين عليهن الشهادة وحدهن ، وذلك في الأمور النسائية التي لا تعلم الا من جهتهن . وقد راعى الاسلام في ذلك كله الحكمة ، ومشى مع المصلحة العامة التي تراعى في كل زمان ومكان .

فأما مسألة الشهادة على المال فالأصل فيها آية المداينة وهي في أواخر السورة الثانية (سورة البقرة) « يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه » الى قوله : « واستشهدوا شهيدين من رجالكم فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل احداهما فتذكر احداهما الاخرى » فقد علل اقامة الثنتين مقام الرجل الواحد بالخطأ الذي يعرض لهن فيما ليس من شأنهن أن يذكرنه ، لأنه شهادة على أمر مالي ، وليس من شأنها الاشتغال بالمعاملات المالية ، ومن طبيعة الانسان أن يكثر ذكره لما يُعنى به ويهمه أمره ، ولا يرد علينا اشتغال بعض النساء في هذا العصر في الأمور المالية أو في غيرها من أعمال الرجال كالهندسة والحقوق والزراعة والميكانيك وكالانخراط في سلك الحكومة ، فان هذا خروج على نظام الفطرة والأسرة ، وتضييع لمصالح المنازل والأزواج والأولاد ، كما هو مشاهد محسوس وكما نسمع الشكوى المرة ممن يخبطون في بحران هذه الفوضى .

وأما ما كان من شأن النساء أن يذكرنه ولا ينسينه ، وهو من خصائصهن فقد قبل فيه رسول الله شهادة امرأة واحدة ، وثبت في الصحيح عنه أنه سأله عقبة بن الحارث فقال : اني تزوجت امرأة فجاءت أمة سوداء فقالت انها أرضعتنا ، فأمره بفراق امرأته ، فقال : إنها كاذبة ، فقال : دعها عنك » فهذا الحديث صريح في قبول شهادة المرأة الواحدة وان كانت

أمة وكانت شهادتها على فعل نفسها في أمر الرضاع ، والنبي لم يتهمها بالخطأ ولا بالنسيان على تراخي العهد وطول السنين .

وأيضاً فان الشريعة السمحة المنتظمة لمصالح البشر تقبل شهادة النساء منفردات عن الرجال ، في الأمور الخاصة بهن والتي لا تعلم الا من جهتهن كالأعراس والمآتم ، وكالولادة والرضاع ونحوهـــا من الأمور التي تنفرد النساء بالحضور فيها والاطلاع عليها ، فان شهادة النساء وحدهن مقبولة فيما يقع في تلك المجتمعات ، حفظاً للحقوق وضبطاً للشؤون . ومتى كانت المرأة ممن يوثق بدينها وأمانتها كان المقصود بخبرها حاصلاً كما يحصل بخبر الرجل ، وقد نقل الشعراني في ج ٢ من كتابه الكبريت الاحمر عن الشيخ محي الدين أن المرأة تلحق الرجال في الابوة ، وتلحقهم أيضاً في بعض المواضع فتقوم مقام الرجلين ، ويقطع الحكم بشهادتها كما يقطع بشهادة الرجلين ، وذلك في قبول الحاكم قولها في مدة عدتهـا ، وقبول الزوج قولها : ان هذا ولده ، فقد تنزلت هاهنا مقام شاهدين عدلين ، كما تنزل الرجل في شهادة الدّين منزلة امرأتين ، فتداخلا في الحكم ، فهذه تولية لها من الله .

ميراث المرأة

وأما الميراث فيقال فيه ما قيل في الشهادة أيضاً ، وهو أنه يكون لها نصف ميراث تارةً ، ويكون ميراثاً كاملاً كميراث الرجل تارة أخرى ، والباحث في مسألة الميراث من الوجهة الاسلامية ينبغي أن يذكر قبل كل شيء أن الاسلام لم يجعل من المرأة رجلاً ثانياً ، فيحملها أعباء الحياة الخارجية ، بل حافظ على عملها الفطري ، ونظامها المنزلي ، وفرغها لتدبير مملكتها الداخلية ، وجعل الرجل كافلاً لها ، فهي ليست مجبرة على الكسب والنفقة بتاً ولا زوجاً ولا أماً ، بل الرجل هو الذي ينفق عليها زوجاً

وأباً . وأما مالها الذي يتكون لها من الارث والمهر والاستثمار فهو يبقى لها (رأس مال احتياطي) تنفق منه اذا اضطرت اليه .

ثم ان ميراثها الذي هو نصف ميراث الرجل هو في الحقيقة خيرٌ لها وأبقى من ميراثه الكامل ، فان نصيب الرجل يكون مقسماً بالنفقة مابين زوجه وولده ، ويكون نصيبها لها وحدها كاملاً غير منقوص ، ولكن الاسلام لم يظلمه في ذلك لأنه هو العامل الكاسب ، أما هي فيعوقهـا عن الكسب تلك العوائق الزوجية كالحمل والولادة والأمومة والحضانة ، وأما مالها الخاص فمال احتياطي تنفق منه متى احتاجت اليه كما قدمنا . على أنها أحياناً يكون لها مثل الرجل كما اذا خلف الميت ذكراً فأكثر ، وكان له والدان ، فلكل واحد منها السدس ، فيها سواءٌ في هـذه الفريضة لايتفاضلان فيهـا ، وذلك لعظم مقام الأم بحيث تساوي الاب بالنسبة الى ولدها ، وان كانا يتفاضلان في الزوجية وغيرها . وكما اذا كان للميت أخ وأخت من أم فلكل واحد منها السدس ، فان كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث على المساواة التامة بين ذكورهم واناثهم . والآيات الكريمة في سورة النساء ناطقة بذلك كله .

وجملة القول ان المرأة تارة يكون نصيبها نصف نصيب الرجل ، وتارة مثله ، وهي على كل حال بنته أو زوجته أو أمه ، وعليـه وحده النفقة والنفقة ، ولهـا الراحة والهناء ، وعليه الغرم ، ولهـا الغنم ، فأنى تكون مهضومة أو مظلومة ؟ ووارحمتاه للرجل فلسان حاله يقول قول المتنبي :

ماذا لقيت من الدنيا وأعجبه ... أني بمـا أنا باك منه محسود

دين المرأة

وأما عبادتها ، فهي مطالبة بأدائها كاملة كالرجال ، ومنها الصيام والحج والزكاة ، اللهم إلا الصلوات الخمس في كل يوم وليلة ، فالشارع أسقطها

عنها في حال تلبسها بعذرها الطبيعي الشهري ويمتد أياماً وفي مدة النفاس في الولادات أيضاً وتمتد عشرات الأيام ، ولم يوجب عليها قضاءها بعد انقضاء تلك الايام دفعاً للحرج عنها ، « وما جعل عليكم في الدين من حرج » « ذلك تخفيفٌ من ربكم ورحمةٌ » ، وهذا هو معنى نقصان دينها ، فما هو بالشيء الذي تستحق عليه الملام في الاسلام .

أزواج الرسول صلى الله عليه وسلم التسع

أجمع المؤرخون وعلماء السيرة على أن محمداً النبي العربي (صلوات الله عليه) أكمل ناشيء في قومه ، وأعف رجل فيهم ، وقد خطبته خديجة بنت خويلد زوجاً لها في مطلع شبابه وهي في الأربعين فتزوجها فصارت أم المؤمنين ، وماتت عنده عجوزاً وقد بلغ الخمسين ، فكانت أولى نسائه وأم أولاده عدا ابراهيم (فانه من مارية القبطية) وكانت ذات حسب ونسب فاختارت الكفء الكريم .

أقامت معه ربع قرن فلم يتزوج عليها أحداً ، بل لم يجمع في مكة بين اثنتين ، بل لم يتزوج بكراً غير عائشة (رض) فهل هذا شأن من يريد الحياة الدنيا وزينتها ؟ ثم ان لتعدد أزواجه في المدينة أسباباً خاصة وعامة ، وحكما ومقاصد سامية ، ونحن نلخصها فيما يلي :

إن الجمع بين أمهات المؤمنين لم يكن إلا بعد هجرة النبي الى المدينة في السنوات العشر الاخيرة من عمره ﷺ وعددهن تسعٌ ، خمس من قريش ، وهي عائشة بنت أبي بكر ، وحفصة بنت عمر ، وأم حبيبة بنت أبي سفيان ، وسودة بنت زمعة ، وأم سلمة بنت أمية ، وأما الاربع الباقيات فهن صفية بنت حيي الخيبرية ، وميمونة بنت الحارث الهلالية ، وزينب بنت جحش الاسدية ، وجويرية بنت الحارث المصطلقية . والحكمة في تزوجه بعد هجرته الى المدينة ببضع نسوة في بضع سنين هي العناية باصلاح

البيوت ، وتهذيب النفوس ، ومصاهرة القبائل ، وكفالة الأرامل ، وتربية الايتام ، وأن تكون أزواجه قدوة حسنة لجميع النساء في تلقي العلم والحكمة ، والبر والرحمة ، والتقوى والعبادة ، والتربية والتعليم واليك البيان :

(١) جعل الله تعالى من بيوت نساء النبي ﷺ مدارس داخلية يتعلمن فيها الدين : عقائده وعباداته ومعاملاته وأخلاقه لاسيما ما يختص منه بالنساء فقال « وقرْنَ في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله » فالقرار في البيوت من أجل أن يتعلمن ما يحتجن اليه ، وما يعظنَ به النساء والرجال ، ولهذا قال : « واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة » وآيات الله : براهينه وكتابه ، والحكمة سنة نبيه المبينة مانزل اليه من ربه ، وانما نهى عن التبرج الجاهلي لان المفتونات بحب الزينة لايأتي منهن معلمات ولا مربيات ، ولأن الانغماس في المشتهيات ، والاسراف في اللذائذ يفسد بأسَ الدول القوية ، ويفقرُ الأمم الغنية . فكيف بالأمة الناشئة الضعيفة ، ونساء النبي انما وجدن عند النبي لتربية الأمة وتعليمها ، وارشادها واسعادها .

(٢) لما طلبن منه التوسع في الطيبات ، وملابس الزينة والترف في المعيشة ، نزلت في حقهن آيتا التخيير ، « يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالينَ أمتعكنَّ وأسرحكنَّ سراحاً جميلا وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً » .

لما نزلت هاتان الآيتان بدأ بعائشة وكانت أحبهن اليه ، كما كان أبوها أعز الرجال عليه ، فقال ياعائشة إني أحب أن أعرض عليك أمراً أحبُّ أن لاتعجلي فيه حتى تستشيري أبويك ، قالت وما هو يارسول الله ، فتلا عليها الآية ، قالت : أفيك يارسول الله أستشير أبويّ ، بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة ، ثم خيرهن كلهن فاخترن ماهو خير لهن ، اخترن الله ورسوله والدار الآخرة .

(٣) أراد نساء النبي ﷺ أن يقمن حيث أقامهن الله ورسوله صالحات قانتات مربيات معلمات ، مرشدات ومفتيات ، فاخترن الدار الآخرة ونعيمها الدائم ، ورضوان الله الاكبر على حظوظهن من هذه الحياة الدنيا ومتعها ومفاتنها ، فأثابهن الله كرامة لهن وجزاءً على ما اخترن ورضين بان قصر نبيه عليهن ، دون أن يتزوج أو يطلق أو يستبدل بهن غيرهن فقال : « لايحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج » الآية ، والحكمة في تحريم تطليقهن هو استدامة سماعهن ما يتلى في بيوت النبي من آيات الله والحكمة ، وذكر ذلك ونشره بين الناس لاسيما نساء الصحابة ، وأية فائدة ترجى لهن أو لغيرهن من طلاقهن ، وهن أمهات المؤمنين تعظيماً وتحريماً على الرجال كالأمهات ، فأنت ترى أن النبي قد قصر على أزواجه الطاهرات ، وحرم عليه أن يمد عينيه الى غيرهن بالزيادة أو التبدل ، بخلاف رجال أمته الذين أبيح لهم التعدد بشروطه ، وكذا التطليق ، وان يستبدلوا بأزواجهم غيرهن ، فكان قصره على دائرة ضيقة من الأزواج ، وكانت الأمة في دائرة أوسع منها أهذا هو الذي يسمونه تمتعاً بالنساء أو الأزواج ؟

نساء كلهن ثيبات (عدا السيدة عائشة) ومنهن من لها أولاد ، تزوجهن في سن الكهولة أو الشيخوخة ، وحين الحاجة الى التبليغ والتعليم ، وربما كان التزوج بهن كلهن قبل نزول آية التحديد بأربع نسوة ، فهي قد نزلت في السنة الثامنة من الهجرة وكان تزوجه بآخرهن وهي ميمونة بنت الحارث الهلالية في أواخر سنة سبع منها ، وحرم عليه تطليقهن لأنهن قد اخترن ما عند الله على زهرة الحياة الدنيا وزينتها ، على أنهن قد صرن أمهات المؤمنين فما الفائدة من طلاقهن وهن حرام على الرجال ؟ أوليست الحكمة في بقائهن عند هذا الزوج الكريم ، والرسول العظيم ، متعلمات معلمات ومثلا عليا في تهذيب النفوس وسائر الصالحات ؟

* * *

تعدد الزوجات والطلاق

ان تعدد الزوجات والطلاق لم يختص بهما الاسلام ، وانما كانا شائعين عند اليونان والرومان والعرب وغيرهم قبل الاسلام ، وقد أباحت القوانين الأوربية والاميركية تعدد الزوجات والطلاق وأصبح ذلك عندهم مستحسناً ، من بعد أن كان مستهجناً ، ولكن التعدد في عرفهم يقصد به التنقل في اللذائذ والتمتع بانواع الحياة والشهوات ، فكان ذلك من أكبر الدواعي لتناقص النسل ، لا لازدياده ، والسآمة من الحياة الزوجية لا الرغبة فيها .

أما التعدد الصحيح فله ضرورات ، منها أن تكون الزوج عقيماً لا تلد ، أو عندها مانع من مرض ، أو دخلت في سن اليأس ، وهذه أسباب شخصية ، وأما السبب الاجتماعي العام في جميع الشعوب والأقوام ، فهو زيادة النساء على الرجال لاسيما بعد الحروب العامة التي يهلك فيها الملايين من المحاربين ، ويبقى الملايين من النساء بلا رجال ، فتعدد الزوجات هنا ضرورة اجتماعية لتجديد النسل وتكثير الأيدي العاملة ، وهو من مصالح النساء التي تبقى محرومة من نعمة الحياة الزوجية والأمومة ، ويجب أن نعلم يقيناً أن المناداة بالمساواة بين الرجال والنساء في تعدد الزوجات والأزواج هو ضرب من الاباحة أو الجنون ، لان تعدد الزوجات يزيد النسل ، وتعدد الأزواج يفسد الحرث والنسل . وقد قال بعض الاوربيين الاجتماعيين في بيان الفرق بين الرجل والمرأة في هذا المقام : لو أن الرجل قد تزوج بمائة امرأة في عام واحد لأمكن أن يكون له مائة ولد ، ولو تزوجت أنثى بمائة رجل في عام واحد لكان لها ولد واحد أو لايكون لها ثي٠

آية التعدد

يظن كثير من الناس أن الآية المبيحة للتعدد بشرط العدل ، داعية الى الاستكثار من عدد الزوجات ، والاستمتاع بصنوف المشتهيات ، مستدلين

على ذلك بجملة منها ؛ وهي : « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع » غافلين عن أول الآية وآخرها ؛ وسياق الآيات التي جاءت معها وسياقها . والاسباب التي أنزلت في شأنها ؛ لكن الممعن في معناها يعلم انها وردت في حفظ حقوق الضعفاء ، والتحذير من أكل أموال اليتامى والنساء ، وأولها : « وآتوا اليتامى أموالهم ، ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ، ولا تأكلوا أموالهم الى أموالكم إنه كان حوباً كبيراً . وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا »

وقد نزلت في أسباب عدة وما ثم تعارض بينها :

في اليتيمة تكون في حجر وليها ، فيعجبه مالها ، فيريد أن يتزوج بها طمعاً في مالها أو بدون مهر المثل .

٢ — في منع اليتيمة من التزوج ليبقى الولي متمتعاً بمالها لاينازعه فيه الزوج .

٣ — في الاستكثار من النساء ، والاغارة على أموال اليتامى من أجل ذلك.

٤ — في ظلم النساء الكثيرات ، وعدم العدل بينهن .

فجاءت الآيات قاضية بابطال تلك المظالم ، التي كانت عليها الجاهلية في أمر اليتامى وأمر النساء ، آمرة بالتزوج بالمرأة الرشيدة ، اذا خيف من ظلم اليتيمة ، مبيحة الزيادة على الواحدة الى الأربع ، اذا دعت الدواعي الى ذلك بشرط العدل بينهن ، فاذا خاف الرجل الظلم اكتفى بواحدة ، والأصل في سعادة البيوت ألا يكون للرجل أكثر من واحدة ينعم بها ؛ ويتعاون معها على تربية نسلها تربية صالحة ؛ تعتز بها الأمة والوطن ؛ ولكن العوارض الطبيعية والاجتماعية هي التي تلجئه الى التعدد كما تقدم .

الطلاق

الطلاق لا يكون الاعن ضرورة وبصيرة ، وذلك بان يكون الزوجان قانعين بان لاسبيل لبقائها على الحياة الزوجية لموانع جسمية أو نفسية ، خلقية

أو خلقية ، تجعل صفو العيش كدراً ، وتعرض النسل للهانة والشقاء ؛ فالفراق في هذه الحال نعمة لا نقمة ؛ والزوجان سعيدان به لاشقيان ، وإن يتفرقا يغن الله كلاً من سعته ، وآية ذلك أن يكون الزوج في حال الطلاق عاقلاً مختاراً ؛ وأن تكون الزوجة راضية مطمئنة ؛ فيمتعها متاعاً حسناً بكسوة ، ويفارقها باحسان . أما اذا لم يكن موجب للفراق ؛ فلا يحل له أن يضارها بالطلاق ، وعليه أن يذكر قوله تعالى « فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً » فهذا ضمان وأمان لها من الله طول حياتها عنده مادامت قائمة بواجبها .

أما طلاق الغضبان والسكران والطلاق من أجل قضية أجنبية لا علاقة للزوجة بها فهو طلاق الظالمين لأنفسهم ولأزواجهم .

والحاصل أن مسألة الطلاق كتعدد الزوجات شرعت للحاجة اليها ؛ ولها شروط وقيود تثبت نفعها وتمنع ضررها ؛ وليس لدينا وقت لايراد النصوص عليها ، على أنها معلومة مشهورة . أما الطلاق في أوربا وأميركا فالظاهر أنه لايكون إلا لأسباب تقع بين الزوجين خاصة ؛ ولكنهم يطلقون لأهون الأسباب وأيسرها ؛ كقص الشعر ، وحلق اللحية ؛ ولباس السهرة ونحو ذلك ؛ ولذلك كثر عندهم كثرة هائله وليس لدي احصاء عنه الآن وهو طلاق باعثه السآمة والملل ، وحب التنقل وله عواقب وخيمة ومنها ضياع النسل ، وقد نشرت جريدة الاهرام أول سنة ١٣٥٤ هـ وسنة ١٩٣٥م اعتقاداً للقاضي لندسي أشهر قضاة الطلاق في لوس أنجلوس من ولاية (كليفورنية) خلاصته ان الحياة الزوجية ستزول من بلادهم (أمريكة الشمالية) وتحل محلها الاباحية والفوضى في العلاقة بين النساء والرجال في زمن قريب ، وهي الآن كشركة تجارية ينقضها الشريكان لأوهى الاسباب خلافاً لهداية جميع الأديان ، إذ لادين ولا حب يربطها ، بل الشهوات ، والتنقل في وسائل المسرات .

* * *

رسم خطة عملية لاصلاح البيوت

البيوت مؤلفة من رجال ونساء وبنين وبنات ، والرجل هو المسؤول عن زوجه وولده ، وكل من يتصل به ، وفي الحديث الصحيح : « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته » فيجب على الرجل أن يأخذ نفسه وأهله بأدب الدين الذي هو جماع الفضائل والآداب ، فان كان الرجل جاهلاً أو ضعيفاً لايستطيع أن يعلم هو بنفسه ، ولا أن يكون قدوة صالحة لغيره ، فعليه أن يستعين على ذلك برجال الأمة وهم علماؤها العاملون الأطهار ، وعلى العلماء الذين هم ورثة الأنبياء أن يقوموا بواجب التهذيب والتعليم ، أما اذا كان الرجل آثماً وحاول أن يدخل الفسق في بيته ، ويلوث طهارته وطهارة زوجه وولده ، فما على المحصنات في البيوت والاولاد البررة الا ان يأخذوا حذرهم ، ويتعاونوا جميعاً على نصحه ومنعه ، عملاً بالآية الكريمة « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان » .

وهذا الاصلاح الداخلي مطلوب من النساء لأنهن ربات البيوت ، ومربيات النفوس ، بل هن أميرات الداخل ، ومعاقل المنازل ، ومازلن أقرب الى الفطرة ، وأعف من الرجال ، وأبعد عن كل مسكر وميسر ؛ وسائر أنواع المفاسد ، وللمرأة الحق بأمر الرجل بالمعروف ونهيه عن المنكر ، وتطهير بيتها من جرائم الفساد التي يحاول الرجل الاثيم أن يلقح بها عياله وأطفاله ، فتفتك بهم عاجلاً أو آجلاً كما فتكت به من قبل ، فعلى النساء أن يحذرن كل الحذر ، وأن يعلمن حق الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأن يذكرن الآية الكريمة « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » فقد أعطت هذه الآية الكريمة هذا الحق للرجال والنساء على السواء ، ويدخل هذا في انكارهم حتى على الخلفاء والملوك والامراء ، وقد كان النساء يعلمن هذا في صدر الاسلام ويعملن به كالرجال .

وبعد فان لنا عتباً على المرأة الحديثة التي أخذت تعقد المؤتمرات في غير وطنها ، وتطالب حقوقها من غير دينها وأمتها ، وهي تدري أو لاتدري أن لها في الاسلام من الحقوق مالم تعطه امرأة قديمة ولا حديثة ، في شريعة من الشرائع الدينية او المدنية ، فهي تطالب بحقوق لم تسلبها ، وتشكو أمة لم تظلمها ، وشريعة لا تزال تعيش في ظلالها ، وتستنير بنورها ، فياليت النساء العربيات المسلمات يعقدن المؤتمرات النسائية في بلادنا ، ويجددن بها مكانة المرأة العربية أيام عصورها الذهبية ؛ فتعود عالمة عاملة ؛ آمرة ناهية ، كما فعلت تلك التي عارضت أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في مسألة المهور ، وهو واقف يخطب على منبر الرسول ، فاعترف بخطئه ، ورجع الى قولها عن قوله ، وأرى أن هذا أقرب طريق للاصلاح لانه متى صلحت الأفراد صلحت الجماعات ، ومتى صلحت الأسرة صلحت الأمة ، والسلام .

العلم والأدب والأساطير في كتب السلف *

لا يجهل أحد أن أجدادنا العرب قد خلفوا لنا تراثاً علمياً وأدبياً ضخماً، وأن أعظم ما ولدته قرائح السلف من الكنوز الثمينة قد طوته الأيام في طياتها، وغيبته في مجاهلها، ففقد واندثر ولم يبق منه سوى أسماء مصنفات يقرؤها المرء في تراجم المؤلفين. ولكن الجَلَد العاثر لم يقوَ على اتلاف جميع هذه المصنفات، بل لبث منها جملة صالحة مبثوثة في دور الكتب العامة والخاصة في الشرق والغرب، كدار الكتب المصرية في القاهرة، ودار الكتب الظاهرية في دمشق، ودور كتب ليدن وبرلين والاسكوريال ولندن وباريز واسطنبول وغيرها كثير.

ومن المعروف أن علماء العرب والاسلام كانوا إبان مدنيتهم الزاهرة حلقة مهمة من حلقات تاريخ العلوم البشرية. ولهذا اذا أنعمنا النظر في مخلفاتهم ألفيناها تتضمن خلاصة علوم الاجيال القديمة، أي زبدة ما ولدته قرائح الامم التي درجت قبل العرب في القرون الاولى، مع اضافات جليلة أضافها علماء العرب اليها في مختلف العلوم، ولاسيما فيما له صلة بالعلوم الاسلامية وعلوم اللغة وفنون الادب العربي.

ولا ينكر أحد فضل المستشرقين علينا فيما نشروه من تلك الكتب في القرن الماضي وفي القرن الحاضر، بعد ضبط موادها وتمحيصها وفهرستها، وضبط كثير من كلها بالشكل الكامل، وطبعها على ورق صقيل بأحرف

(*) محاضرة ألقاها الأمير مصطفى الشهابي في ردهة محاضرات المجمع العلمي العربي في ٧ نيسان ١٩٤٢.

جميلة، وابرازها للناس بحلل قشيبة. ولا ينكر أحد أيضاً فضل مطبعة بولاق الأميرية، ودار الكتب المصرية، ولجنة التأليف والترجمة والنشر في مصر فيما نشرته وتنشره من الكتب القديمة والحديثة.

والذي حداني على الكتابة في هذا الموضوع وقوع نظري على بعض كتب قديمة نشرها الناشرون حديثاً دون أن يتساءلوا هل في نشرها فائدة أم لا؟ فالكتب القديمة ليست كلها مفيدة، بل يمكن القول بان بعضها مضرة لايجوز أن يقرأها الناس في أيامنا هذه. وليس في قولي هذا غرابة. وإقامة الدليل عليه من أبسط الأمور. وما علينا إلا أن نلقي نظرة على أنواع العلوم التي صنف بها أسلافنا العاملون فتتجلى لنا هذه الحقيقة في أجلى مظاهرها.

علوم السلف:

يمكن قسمة علوم السلف (من حيث بحثنا هذا) ستة أقسام وهي: علوم الدين، وعلوم اللغة، وآداب اللغة، وضروب الفلسفة، والعلوم المادية والعلوم الاجتماعية.

فالعلوم الدينية من فقه وحديث وعقائد وغيرها لانتعرض لذكرها، لأن لها في الأزهر وغير الأزهر علماء أعلاماً هم أدرى منا بحقائق ماصنفه أسلافهم فيها، وبما يفيد أو لايفيد نشره من تلك المصنفات. ولابد لكل شخص يلمّ إلماماً بالكتب المذكورة من أن يدهش للجهود الكبيرة المضنية التي جعلتهم يطلعون علينا بهذا التراث العظيم. لكن الكتب القديمة للعلوم الدينية خضم واسع الارجاء يضل فيه أمثالي ويتمنون أن يقرأوا بدلاً منها كتباً دينية حديثة مبسّطة حسنة الترتيب والتبويب خالية من الحشو والتطويل، يستفيد منها غير المعممين قبل المعممين. ولو صنف علماء اليوم كتباً كهذه، وجعلوا الكتب القديمة الاختصاصيين من علماء الدين دون غيرهم، لافادوا جمهور المتأدبين فوائد كبيرة.

أما كتب اللغة التي صنفها الاجداد فلا غنى لنا عنها ريثما نصنف ماهو أجود منها في هذا الزمان الذي اتسعت فيه المعارف البشرية حتى ضاقت معجماتنا منها كل الضيق . فالقاموس المحيط واللسان والصحاح والمخصص والتاج وأساس البلاغة وأمثالها كلها اليوم ضرورية . وقد خدم ناشروها لساننا العربي خدمة جلى . ولابد من الاحتفاظ بها وبنسخها المشذبة أي المعاجم الحديثة كمحيط المحيط وأقرب المواد والمنجد والبستان وأضرابها . ولكن جميع هذه المعاجم لا تصلح في الحقيقة لزماننا هذا لان فيهـــا من العيوب والنقائص مالا يعد ولا يحصى . وحسبك منها أن معظم ماورد فيها من الاسماء والمصطلحات لم تعرف تعريفاً علمياً (١) . ولست أدرى متى يصبح عندنا معجم عربي (كمعجم لاروس الصغير مثلاً) ضبطت فيه معاني الألفاظ ضبطاً علمياً ؟ ومتى يكون لنا معجم فرنجي عربي يشتمل على أجود الكلم العربية أو المعربة للمصطلحات العلمية والمخترعات الحديثة ؟ ولست أدري من هم عشرات العلماء الذين يستطيعون صنع هذين المعجمين على أن يعمل كل منهم في نطاق اختصاصه ؟ ومهما يكن من أمر فلابد لنا قبل تحقيق هذه البغية من الاستعانة بالمعاجم القديمة والحديثة ، ومن الترحيب بما يطبع من أبحاث اللغة كالافصاح الذي اختصرت فيه ألفـاظ المخصص ، وكرسائل الثعالبي التي كانت طبعت في مطبعة بيروت للآباء اليسوعيين ، وكأدب الكاتب لابن قتيبة الذي طبعه الكاتب الالمعي السيد محب الدين الخطيب ، وكرسالة الكرم التي نشرها الاستاذ اللغوي سليم الجندي في مجلة المجمع العلمي العربي الخ .

وأما آلات اللغة وأخص منها الصرف والنحو فكتبها القديمة هي النبع الذي يستقي منه كل أديب متمكن من لسانه . ولاسبيل الى نكران

(١) انظر مقالي في عيوب المعاجم العربية في عدد تشرين الأول « اكتوبر » سنة ١٩٤٩ من مجلة المجمع العلمي العربي بعنوان « اسماء النبات والحيوان في المعجمات العربية » .

الثمرات التي يجنيها المتأدبون من تلاوة كتاب سيبويه ومغني اللبيب وشرح الشافية وأمثالها . ولكن من ذا الذي ينكر أن قواعد لغتنا العربية تحتاج الى تبسيط ، وان الانكباب على كتب الصرف والنحو القديمة يعد من الامور المضنية ، وان طلاب الادب يرجحون تلاوة الكتب المدرسية الحديثة لسهولة فهمها . ومع هذا لابد لنا من الاحتفاظ بالكتب القديمة ليرجع اليها أساتذة اللغة وعلماؤها .

كتب الأدب القديمة

هي في نظري من أعظم مخلفات الاجداد شأناً ، ومن أشدها تأثيراً في كياننا القومي . فهي التي تعلمنا بيان لغتنا وتعابيرها ومصطلحاتها ، وهي التي تطلعنا على جانب من مدنية أجدادنا ، وعلى كثير من عاداتهم وأخلاقهم وسيرهم وحكمهم وأمثالهم ومعيشتهم ، سواء في ذلك المتبدون أم المتحضرون منهم . وأرى أنه لايمكن أن تقوم قائمة لشعب من الشعوب في عصر القوميات هذا ، اذا أهمل تراث لغته الادبي . ولهذا وجب أن نهتم بكتب أدبنا القديم ، لالما فيها من فوائد بيانية حسبُ ، بل لما حوته أيضاً من موضوعات قومية يستفيد منها كل عربي صميم ، دع الذين عروبتهم من قوارير .

ويتضح من ذلك أن العمل على نشر أمهات كتب الأدب يعد من الأمور الحيوية للغتنا ولقوميتنا جميعاً . ولاتقدر الفوائد التي نحصل عليها من مثل طبع الكامل والأمالي والبيان والتبيين والاغاني والعقد ونشوار المحاضرة ودواوين فحول الشعراء وتراجم كبار الادباء . ولايقل شأناً عن ذلك جمع أمثال العرب وحكمهم وقصصهم كما فعل مصنفا كتاب (قصص العرب) المطبوع في مصر حديثاً .

واذا دعوت الى ضرورة طبع كتب الادب القديمة ، والى ابرازها على المتأدبين بحلل قشيبة ، والى اقبال شبابنا المثقفين عليها ، فلست أنكر أن الادب العربي كائن حي يجب أن يتطور مع الزمن كسائر الاحياء ،

وانه يجب أن يكون لنا أدب جديد يتناول من شؤوننا الحاضرة ما تناوله الادب القديم من شؤون آبائنا الاولين . فانا اذن لا أقول بوجود أدب قديم وأدب جديد ، بل بوجود أدب عربي واحد حي نام يتطور مع الزمن باساليبه وصوره . وعلى شبابنا المثقفين أن يتزودوا بالسائغ من هذا الادب قديمه وحديثه . فمن القديم يتعلمون ملكة البيان في دقائق التعبيرات والمصطلحات ومن الجديد يتعلمون أساليب الغربيين أو قل أساليب المتأخرين في الانشاء الواضح والافكار المتسلسلة . وفي الادب القديم يعيشون بخيالهم في مجتمعات الاجداد ، ويتعلمون محبتهم . وفي الادب الحديث يجدون صور مواطنيهم وغير مواطنيهم من الاجيال الحاضرة ، وصور البيئات التي يعيشون فيها . ويتضح من ذلك أن في قديم الادب العربي وحديثه أموراً ينبغي لكل متأدب الاطلاع عليها على السواء . ومن خطل الرأي بل من التجني على لغتنا وعلى قوميتنا القول بان الادب العربي القديم لا يصلح لهذا الزمان ، وانه يجب أن نقطع صلتنا به . ومن خطل الرأي أيضاً بل من التجني على لغة الضاد الاكتفاء باساليب الادب القديم والاعراض عن أساليب عصرنا الحاضر . فاللغة العربية يجب أن تظل حية نامية . ولا يتيسر لها ذلك الا اذا صور أدباؤنا المحدثون بيئتنا الحاضرة باساليب الغربيين وبيان الادب القديم واشراقه .

العلوم المادية :

هي بيت القصيد في هذا المقال ، وقد حفزني الى كتابته اقدام بعض الجماعات على نشر مخطوطات عربية قديمة في علوم طبية وزراعية لا تصلح لزماننا هذا .

ومن المعلوم أن العرب القدماء قد اشتغلوا كثيراً بالعلوم الرياضية والطبية والزراعية كما اشتغلوا بالكيمياء والنبات والحيوان وغيرها . فالعلوم الرياضية من حساب وجبر وهندسة ومثلثات وفلك لايغير الزمان قواعدها ونظرياتها

المضبوطة . ولا يكون اثنان واثنان إلا أربعة سواء في الماضي أم في الحاضر أم في المستقبل . ولا ضير اذن في نشر ما أمكن نشره من مخلفات الاجداد في هذه المواضيع الرياضية ، ولاسيما اذا تمشى ترتيبها وتبويبها مع مقتضيات عصرنا الحاضر .

أما العلوم الزراعية فقد تبدلت عما كانت عليه في القديم تبدلاً كلياً . فمنذ أوائل القرن التاسع عشر كشف العالم السويسري (سوسور) حقائق عظيمة الشأن في الفسيولوجية النباتية من الوجهة الكيمياوية ، ثم وضع ليوبيغ Liebig الالماني وبوسنغلط Boussingault الفرنسي أصول الكيمياء الزراعية وكيفية اغتذاء النبات بالعناصر الغذائية ، ولاسيما بالاملاح المعدنية . ثم كشف بستور Pasteur) عن المكروبات وعلل حصول الاختمار . ثم فحص العلماء تركيب الاسمدة والاتربة والغلات والثمار ، واستنبطوا أصناف الزروع والشجر وسلالات عديدة من الحيوانات الاهلية ، واخترعوا الآلات الزراعية ودرسوا طبائع الحشرات والمكروبات وأمراض النبات الخ الخ . وهكذا أصبحت الزراعة الحديثة قائمة على أدق الاسس العلمية . ولم تبق أية صلة تذكر بين قليل ما كان يعرفه الاقدمون في شؤون الزراعة العملية ، وبين العلوم الزراعية الواسعة في أيامنا هذه . ويتضح من ذلك أنه لافائدة من نشر المخطوطات الزراعية القديمة بل في نشرها ضرر لما حوته من الخرافات والاساطير التي ينبو العقل عنها . ولايخطر في بال أوربي تلاوة كتاب زراعي ألف قبل القرن التاسع عشر لعلمه بان الزراعة قد تطورت تطوراً كبيراً في القرن الماضي وفي القرن الحاضر .

وهكذا الحال في الطب . فلليونان والعرب فضل كبير في هذا الباب . ولكن أين طب الايام السالفة من العلوم الطبية الواسعة في هذه الايام ؟ وأين تشريح الماضي من تشريح اليوم ؟ وأين المداواة بالعقاقير من المداواة بالادوية الحديثة ؟ وأين الجهل بالمكروبات من معرفة حياتها وعملها في جسم الانسان ، وأين وأين ؟ لقد تقدمت العلوم الطبية تقدماً لايجال

معه للبحث عن الطب القديم ولا عن كتبه القديمة . والطبيب الذي يقتصر في المداواة على هذه الكتب يسمى اليوم دجالاً يعاقب بالسجن في شرائعنا وشرائع البلاد الاوربية على السواء .

أما الكيمياء فقد قلبت رأساً على عقب . ويكاد هذا العلم يكون اليوم غير الكيمياء القديمة بتاتاً . فاين تلك الاعمال التي كانوا يأتونها في التفتيش عن الذهب أو بغية طبخ العقاقير النباتية ، من أنواع الكيمياء المعدنية والعضوية والتحليلية في العصر الحاضر ؟ وأين الاجسام القليلة التي عرفوها أو أوجدوها ، من العناصر التي كشف عنها اليوم ، ومن ألوف المركبات الكيماوية التي تستعمل في الطب والزراعة والصناعات المختلفة .

وهكذا أمر النبات . فاليونان ثم العرب قد عرفوا كثيراً من النباتات التي تنبتها الطبيعة ، وحلّوها تحلية حسنة ، أي وصفوا صفاتها الخارجية وصفاً في بعضه كثير من الدقة . ولبعض العشابين من العرب شهرة عالمية كالغافقي وابن الصوري وابن البيطار . وللاطباء والعلماء المشهورين أبحاث جليلة في مفردات الأدوية كالرازي وابن سينا وابن ماسة وعبد اللطيف البغدادي والبيروني والادريسي وغيرهم . وتعد مفردات ابن البيطار من أجل المؤلفات النباتية في تلك الأيام .

ولكن كل ذلك لايعد صالحاً ليوم الناس هذا . فعلماء القرون الوسطى كانوا يجهلون المجهر أي يجهلون الخلية ودقائق أعضاء النبات ونُسُجه . وكانوا يجهلون كيفية تغذي النبات ، والمواد المعدنية التي يتغذى منها ، والاعمال الكيماوية التي تحصل في حياته وفي نموه . ولهذا لم يكن لهم معرفة بالتصنيف الحديث ، ولا بالفسيولوجية ، ولا بالتشريح الداخلي ، ولا بعلم حياة النبات ولا بالأسس العلمية التي يقوم عليها علم اصلاح النسل ، وكل ماعرفوه من هذه العلوم العويصة أمور سطحية كانوا يشاهدونها في شكل النبات الخارجي ، وتجارب بسيطة كانوا يجربونها في حياته وفي خواصه . وكثيراً ما كان يختلط عليهم الصحيح بغير الصحيح .

ولم تكن معرفة القدماء بعلم الحيوان تزيد على معرفتهم بعلم النبات ، إلا فيما له اتصال وثيق بهم ، كالخيل والابل مثلاً ، فان معرفتهم بهما كانت واسعة كمعرفتهم بالنخل من النبات والدليل على ذلك الألفاظ العديدة التي نراها في معاجمنا لتلك المواليد ، مما ليس له مثيل في أي لغة من لغات العالم على ما أعتقد . ولكن هذه المعرفة لا تتعدى الظواهر والمرئيات والملاحظات التي يلاحظها المرء في طويل اتصاله بتلك الحيوانات . أما الاسس العلمية التي يقوم عليها علم الحيوان فقد كانوا يجهلونها جهلهم لامثالها في علم النبات . وهذه الاسس هي وليدة النهضة الاوربية الحديثة ، ولانجـــد منها شيئاً يذكر في كتاب الحيوان للجاحظ ، ولا في حياة الحيوان الدميري .

وعرف الاقدمون شيئاً من أبحاث علم الفيزياء (علم الطبيعة ، علم الطبيعيات) كبعض أبحاث الصوت والضوء . والسائلات . لكنهم جهلوا بعض نظرياتها الاساسية كما جهلوا بحث الكهرباء العظيم برمته . ولم يكن لديهم بعض آلات الضوء الحديثة ، ولا آلات الكهرباء العديدة المعروفة ، ولا آلات الجويات (كموازين الحرارة والجو والمطر وسرعة الرياح) الخ . وفي الحقيقة لقد تقدم علم الفيزياء تقدماً مدهشاً . ولم يبق أي اتصال يذكر بين عهد مبادئه البسيطة في القديم ، وعهد الكهرباء وتحطيم الذرة أي الجوهر الفرد في الحديث .

ويتضح من هذا البحث المجمل أن العلوم المتعلقة بالطب والزراعة والنبات والحيوان والكيمياء والطبيعة قد تقدمت في النهضة الحديثة تقدماً واسعاً جداً ، وان مؤلفات القدماء في هذه العلوم لاتصلح لزماننا هذا ، وان الاكتفاء بها معناه الرجوع الى القرون الوسطى أو الى القرون الاولى ومع هذا لاتخلو هذه الكتب من فوائد ، وأعم فوائدها كونها تهدي المؤلفين الى عدد لايستهان به من الالفاظ والمصطلحات العلمية مما يجب اقتباسه واستعماله في الكتب الجديدة . ومن فوائدها كونها تحبب حلقة من حلقات تاريخ العلوم البشرية . ولهذا قد يستفيد العالم من تلاوتها اذ يقايس بين

محتوياتها ومحتويات الكتب العصرية . ولكن الطلاب والمتأدبين لايجوز أن يضيعوا وقتهم بقراءتها ، فان فائدتهم منها لا تذكر اذا قيست بالفوائد التي يجنونها من تلاوة الكتب الحديثة .

كتب الفلسفة والاجتماع

ضل من ظن أن العقل البشري قد تقدم في أبحاث ماوراء الطبيعة خطوة واحدة منذ أيام أرسطو حتى يومنا هذا . فنحن مازلنا نجهل حقائق هذا الكون العجيب ، ومابرحنا نتخبط في تلمس أسراره وفي استقصاء أحاجيه . ولم تتبدل تلك الاسئلة التي يتساءل الانسان عنها وهي : هل للكون حدود في الفضاء أم لا . وهل له بداية أم هو أزلي . وما هي الطبيعة ، وهل هي تسير بذاتها أم لها علة تديرها . وهذه العلة هل هي مادة أو عقل أو شيء لايمكننا ادراكه . ثم ماهي ماهية الانسان ومن أين أتى والى أين يذهب . وهل العالم مخيَّر أم مسير بجبرية لاتزحزح . وهل أمام العالم رقي أم هو يدور أبدياً على حاله . وما الحركة العامة للكائنات ، وما الحكمة فيها . وهل القواعد الخلقية شريعة بشرية واجتماعية فحسب أم لها أساس في الطبيعة كلها الخ .

هذه أمور مابرح عقل الانسان تائهاً في بيدائها ، وكل فيلسوف في القديم والحديث يبحثها على مايراه . ويقول العلماء بوجوب تركها لانها لايمكن ادراكها ، ولهذا وجب على رأي العلماء الاكتفاء بكلمة لاأدري والكف عن مناقشة مالايمكن بته بالوسائل العلمية . ولكن الحقائق العلمية ليست كل شيء في هذه الحياة . ولابد لدماغ الانسان من أن يتطلع الى معرفة مايهمه من هذا الكون ولاسيما مايتعلق منه بمصيره .

ولا شك أن فلاسفة اليوم قد ارتقت مداركهم وتصوراتهم عن قبل كما أرتقت العلوم نفسها فصارت تعالج بوسائل يقينية غير الوسائل القديمة . ولكن في فلسفة اليونان وفلسفة العرب أبحاثاً طلية تصلح لزماننا هذا

صلاحها للزمان الذي ألفت فيه . ولبعض فلاسفة العرب محاكمات عقلية دقيقة تدل على عقول جبارة ، مثال ذلك تلك الادلة الفلسفية المدهشة على وجود الخالق جل وعلا ، التي يراها المطالع في كتاب التهافت للغزالي وكتاب تهافت التهافت لابن رشد ، وقد طبع الكتابان طبعة جميلة في المطبعة اليسوعية ببيروت . ولا ينكر أحد أن في تلاوة كتاب الاخلاق لأرسطو وكتاب جمهورية أفلاطون وكتب عديدة في التوحيد فوائد كثيرة يستفيد منها المتأدبون .

واذا انتقلنا الى كتب التاريخ نجد أن لمؤرخي العرب فضلاً كبيراً في هذا الباب . ومن المعلوم أن التاريخ لايشبه العلوم السائرة . فالحادثة التاريخية لا تتكرر . وقلما ينقلها اثنان على وجه واحد ، لأن أثرها في شخص ما قد يختلف عن أثرها في شخص آخر . وإذا لم يتح لها من يحفظها في صدره أو على القرطاس ضاعت ونسيها الناس . فالعرب كانوا من أحرص الامم على الصدق في رواية الاخبار . وأظن أن العنعنة من خصائصهم وحدهم . وقد نشأ فيهم عدد كبير من المؤرخين الثقاة حفظوا تاريخ أمتنا في كتب نفيسة . ولا خلاف على كون هذه الكتب التي يعرفها كل أديب تحتوي أحياناً على مبالغات أو على خرافات لايسلم العقل بصحتها ولاخلاف أيضاً على كون التاريخ أصبح له اليوم مآخذ وقواعد علمية راسخة كمعرفة اللغات القديمة وقراءة الآثار ومقايسة المستندات المختلفة وتمحيص محتوياتها ، ولكن كل ذلك لايقدح في صحة زبدة الاخبار التي اشتملت عليها كتب التاريخ والتراجم العربية في العصور المختلفة .

وتمكن العرب في الجغرافيا من صنع خرائط جغرافية تكاد تكون مجملاً لصور البلاد التي عرفوها . وقد اشتهر منها كرة الادريسي . ومن بدائه الامور أن آلات المسح الحديثة لم تكن معروفة في تلك الايام ، وانه لايجوز اليوم أن نكتفي بالخرائط القديمة لما فيها من النواقص والاغلاط ولكن من ذا الذي ينكر أن بعض الكتب الجغرافية القديمة كمعجم

البلدان لياقوت الحموي مثلاً تعد خزانة ثمينة في الجغرافية والادب جميعاً . ومن ذا الذي ينكر أن هذا السفر النفيس يقرؤه العربي بلذة في كل زمان وفي كل مكان . ومن الكتب الفذة مالا تبلى جدته على كر الأيام كمقدمة ابن خلدون وكتاب أخلاق الملوك للجاحظ وأمثالها . ويستنتج مما ذكر أن بعض آثار السلف في الفلسفة والتاريخ والجغرافيا والاخلاق تصلح للنشر ، وان الزمان لايقلل قيمتها ، وان في تلاوتها فائدة ولذة للعالم والمتعلم على السواء .

اتساع العلوم :

كان القدماء لايعدون المرء عالماً إلا اذا تناول بالبحث جميع العلوم البشرية . ولهذا كان العلماء حريصين على التأليف بعلوم مختلفة لاصلة لبعضها ببعض البتة . فالجاحظ مثلاً صنف في الحيوان ، وابن سينا في الفقة والتوحيد ، والكندي في الموسيقى ، والشيخ عبد الغني النابلسي في الزراعة الخ . أما اليوم فالذي يدعي معرفة العلوم كلها يعد جاهلاً أو مجنوناً . والذي يؤلف في علوم مختلفة يخلط وتزل قدمه فلا تروج مؤلفاته ولا يكتب لها البقاء . والعالم في هذا الزمن هو الذي يلم إلماماً بأسس العلوم المهمة ، ثم يختص بعلم واحد ، أو بفرع علم واحد ، فينكب عليه سنين طولاً ، ويقتله درساً ، ويكون له فيه بحوث خاصة أو نظريات أو مكشوفات أو اختراعات .

ولقد اتسعت العلوم اليوم اتساعاً يحير العقول . وها كم مثالاً واحداً على ذلك وهو علم الحشرات . فالحشرات في كتب الحيوان القديمة لايتجاوز بحثها كلها عشرين أو ثلاثين صفحة نصفها أدب ونكات وخرافة ولغة . أما اليوم ففي خزانة كتبي سفر افرنسي في علم الحشرات ألفه أحد أساتذتي يشتمل على ثلاثة مجلدات ، في كل منها مالا يقل عن ٨٠٠ صفحة ، يضاف اليها سفر رابع في الصور والاشكال . ومع هذا يعد هذا الكتاب موجزاً

في العلم المذكور لامطولا . وأعرف عالماً قضى عشرين سنة من عمره وهو يدرس رتبة واحدة من رتب الحشرات وهي مغمدات الاجنحة . وهكذا الحال في العلوم السائرة وفروعها . فعصرنا اذن هو عصر الاختصاص .

ولم يقتصر القدماء ، في بحثهم للعلوم ، على اتباع الطرائق العلمية المعروفة في أيامنا هذه . بل كانت بحوثهم تارة يقينية قائمة على الحس والتجارب والاستدلالات العقلية ، وطوراً غيبية تقوم على التخيلات وعلى عمل القوى المجهولة . وكان الاسلوب الغيبي سائداً عند العرب وغير العرب . ومن المعلوم أن العلوم لم تتقدم الا حديثاً أي بعد أن ساد الاسلوب العلمي في البحث والتفكير .

الخلاصة :

لقد كان أجدادنا العرب سدنة علوم الاقدمين وواسطة نقلها الى الاوربيين . ولم يكتفوا بمدارسة تلك العلوم والاحتفاظ بها طيلة القرون التي لبثت فيها أوربة سادرة في خضم من الجهل المطبق ، بل وسعوها وأضافوا اليها إضافات مهمة تدل على ماظهر فيهم من عقول جبارة تناولت بعض العلوم بأساليب ووسائل علمية لا غبار عليها . ولا ينكر المنصفون من علماء الغرب فضل العرب على الحضارة فيما أضافوه الى الطب والنبات والطبيعة والحساب والجبر والمثلثات والفلك وغيرها من العلوم . ولولا العرب لضاعت العلوم القديمة بجملتها ، ولتأخرت النهضة الحديثة سنين طولاً لايعلم الا الله مقدارها .

ولست أبتغي بهذه العجالة تعداد مآثر علماء العرب وبيان أبحاثهم الفذة التي سبقوا غيرهم اليها في مختلف المعارف البشرية ، فان ذلك يستغرق بضع محاضرات . ولكني أرى ضرورة التنبيه الى أن آثار الاجداد العقلية بعضها يصلح لكل زمان كالامهات من كتب الادب والفلسفة والدين والرياضيات والتاريخ والجغرافيا . وبعضها لابد من الرجوع اليه ريثما نضع ماهو أصلح منه ككتب اللغة أي المعاجم . وبعضها لم يبق صالحاً أو كافياً

لأيامنا هذه ككتب الطب والكيمياء والطبيعة والزراعة والنبات والحيوان وغيرها .

ونحن والاوربيون سواسية في هذا الموضوع . فالانكليز مثلاً مابرحوا يطبعون كتب شكسبير الادبية . ومابرح الفرنسيون يقبلون على مدارسة روايات راسين وموليير . ولكنه لايجول في خلد أحد من الطابعين في انكلترة أو في فرنسة أن ينشر كتباً ألفت في عهد هؤلاء الادباء في الطب أو الزراعة أو الطبيعة أو الكيمياء أو المواليد . واذا نشروا كتباً كهذه فانما يفعلون ذلك بغية اطلاع العلماء على حلقة من حلقات تقدم العلوم المذكورة ، لابغية جعل الجمهور يستفيد من موضوعاتها العلمية ، لان هذه الموضوعات قد تبدلت تبدلاً كلياً بدءاً من أوائل القرن الماضي على الاخص .

تحت القلعة*

كان موضوع محاضرتي في آخر السنة الماضية (باب الجابية[1]) وقد أشرفنا من ذلك الباب على مشهدين من مشاهد دمشق التاريخية . الدالة على عظمة العرب في القرن الاول للهجرة : فكان مشهداً يثير الحمية والاباء . ويدعو الى التباهي بمآثر الأجداد والآباء .

ونحن في محاضرتنا في أول هذه السنة نريد أن نطوف معكم دمشق ثانية ونستعرض طائفة من مشاهدها . لكن لا من (باب الجابية) بل نطوّفُ طويلاً في أرجاء دمشق حتى ننتهي الى (تحت القلعة) فنشهد فيه مشهداً عجبا : مشهداً يؤلم الحس . ويزعج النفس . ويولي الترح . على عكس مشهد (باب الجابية) الذي أبهجَ القلب . وأنعمَ البال . وهاج الفرح .

وهكذا تاريخنا أيها السادة ! قد جمع بين الحارّ والفارّ . والضارّ والسارّ . ومن حوادثه مايورث الفخار . ومنها مايجلب العار والشنار .

لا أريد أن أستقصيَ مشاهد دمشق التاريخية بحذافيرها وانما أريد أن أصف لكم بعض مشاهدها الاجتماعية والاخلاقية في خلال القرون الوسطى الاسلامية . وقد أقارن بعض ماأشاهده فيها في ذلك العهد ببعض مانحن عليه اليوم .

ثم إننا لانذهب وحدنا في هذا التطواف بل نسير مرافقين لبعض السيّاح الذين نزلوا دمشق في ذلك العهد : قرأوا بأم أعينهم أحوالها . وبلوا أخبارها . وعاشروا سكانها . وزاروا أشرافها وأعيانها .

(*) احدى محاضرات الأستاذ المغربي في دار المجمع العلمي (٥ كانون أول سنة ١٩٣٠).

(١) راجع ص ٢٢٨ من هذا المجلد .

وبذلك نكون من أمرنا على هدى . ومن (محاكماتنا) التاريخية على حق وسداد .

وقبل الشروع في سياحتنا هذه نذكر مسألة لها علاقة كبرى بما سنراه ونسمعه في تطوافنا :

ذلك أن سلفنا الصالح الذين عاشوا في العصر الأول هم قدوتنا . وعملهم حجةٌ لنا . أما آباؤنا الذين جاؤوا من بعدهم فليس كل ما كانوا عليه مما يصلح حجة للعمل . وها هو القرآن الكريم يعيب على المشركين قولهم ويرد عليهم حجتهم مذ كانوا يقولون (إنا وجدنا آباءنا) فكل ماتراه في سياحتنا هذه من أعمال هؤلاء الآباء وعاداتهم وأطوارهم لنا الحق في أن نعرضه على أصول الشريعة فما وجدناه مطابقاً لها حكمنا بسداده وصحته . ومالم نجده كذلك لانبالي أن نزيفه ونعلن بطلانه .

* * *

خرجنا من منازلنا في صبيحة أحد أيام نيسان من سنة (٥٨٠) للهجرة (الموافق ١١٨٤ الميلاد) . فكان أول مانطق به دليلنا أن قال لنا — وقد أشرفنا من سفح قاسيون على دمشق — انظروا : هذه هي دمشق : جنة المشرق . ومطلع حسنه المونق المُشرق . قد تحلت بأزاهير الرياحين . وتجلت في حلل سندسية من خضرة البساتين . ظلٌ ظليل ، وماء سلسبيل . ورياضٌ يحيي النفوس نسيمها العليل . قد سقيت أرضها كثرة الماء ، حتى اشتاقت الى الظماء . فتكاد تناديك العين الصلاب . اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب — إن كانت الجنة في الأرض فدمشق لاشك فيها . وان كانت في السماء فهي بحيث تسامتها وتحاذيها » اهـ .

ولما سمعنا هذه الاساليب الشعرية المسجعة في وصف دمشق استعفينا السائح منها . ورجونا منه أن لايكررها على أسماعنا . وقلنا له لسنا من الشعر وليس الشعر منا . وانما نحن قوم نريد أن نطلع على أحوال دمشق الاجتماعية والعمرانية . فدعنا بالله من أسجاعك . ومانتكلفه من إغرابك وإبداعك .

فقال حسن : هلموا بنا الى جامع بني أمية . فدخلناه وقت الضحوة الكبرى . ولما صرنا في داخله رأينا من فخامته وسعة صحنه . وزخرف جدرانه ما أدهشنا . فاراد السائح أن يزيدنا دهشة واعجاباً فقال (ان العنكبوت لاتنسج به ولا تدخله ولا تلم به الطير المعروفة بالخطّاف) فلم نطل معه الجدل في هذا الزعم وانما أشرنا الى طيور الحمام التي كانت تطير في جنبات الجامع كاننا نقول له : وما الفرق بين الخطّاف والحمام ، في حكم العقول والافهام ؟ ولو كان الامر على العكس ودخله الخطّاف لكان أنفع للجامع وأنظف . لأن الخطاف يخطف من هواء الجامع الذباب والبعوض . فينجو المصلون من أذاها . ويرتاحون من طنينها وشدة بلواها .

فلم يرد علينا السائح وانما انتقل بنا في الحديث الى بناء الجامع وقال إن الخليفة الوليد جلب لبنائه اثني عشر ألف صانع من بلاد الروم فنقشوا جدرانه بفصوص الذهب المعروفة بالفسيفساء . وخلطت بها أنواع الاصبغة التي تمثل أشجاراً وأغصاناً مفرغة في قوالب من بدائع الصنعة الموثقة التي يعجز الواصفون عن وصفها . حقاً إن منظر أروقة الجامع وجدرانها والحنايا والأقواس القائمة على عمدانها المطلية بالذهب والملونة بالخضرة والازورد — وقد وقعت عليها أشعة شمس الضحى الوهاجة . ثم انعكس عنها البريق والبصيص الى أبصارنا — كل ذلك كان له في نفوسنا روعة وجلال . وقد انتزعنا من عالم الحقيقة الى عالم الخيال .

ولم يوقظنا من ذهولنا إلا ما قاله السائح : إن رجال بني أمية مختلفون في ولوعهم وامیال نفوسهم : فالوليد اختصاصي في تشييد المباني ، كما كان معاوية إخصائياً في الدهاء والكيد وابنه يزيد اخصائياً في قسوة القلب وعلى العكس ابنه معاوية الثاني فانه اختصاصي في رقة القلب ، وعمر بن عبد العزيز في الزهد والعدل . ومسلمة بن عبد الملك في الرزانة والعقل . وسليمان في الشره والأكل . حتى قالوا : انه هو الذي اخترع الكنافة . ثم مات بالتخمة . والوليد بن يزيد اختصاصي في الخلاعة والفجور . وآخرهم

مروان بن محمد اختصاصي في الشجاعة والصبر على القتال . كما يصبر الحمار تحت عبء الاحمال والاثقال . لذلك لقبوه بمروان الحمار . أما عبد الرحمن الداخل الى الأندلس والملقب بصقر قريش فقد كان اختصاصياً في الطموح وبعد الهمة وابنه الحكم بن عبد الرحمن اختصاصي في جمع الكتب واصطناع العلماء والأدباء .

ثم قال السائح : وربما لم يقم في الدول الاسلامية الاخرى اختصاصيون بلغوا من الكثرة مثل مابلغه رجال أمية . وقد يذكر اختصاص المأمون بحب العلم في العباسيين . واختصاص الحاكم بأمر الله بدعوى الالوهية في الفاطميين .

وأشار السائح الى القبة الكبرى التي تعلو حرم الجامع فقال : هذه هي قبة الرصاص وتسمى أيضاً قبة النسر لأنها بما أحاط بها من الحنايا والقباب والأركان تمثل لنا النسر برأسه وجؤجؤه وجناحيه .

* * *

وبرحنا الجامع وعدنا اليه في المساء . وإذا صحنه أصبح مجتمع أهل دمشق . ومُتنفرّجهم ومتنزّههم : فتراهم فيه ذاهبين آيبين . من شرق الى غرب : من باب جيرون الى باب البريد ، فمنهم من يتحدث الى صاحبه ، ومنهم من يقرأ في كتابه . ومنهم من يذكر الله على سبحته التي يمسكها بيديه من وراء ظهره . ولا يزالون على هذه الحال . إلى انقضاء صلاة العشاء . وكان الناس يسمّون هؤلاء الذين يخطرون في صحن الجامع على هذه الصورة (حرّاثين) : لشبههم بالحراثين الذين يروحون ويجيئون بسكة الحراثة ، وقد بقي الناس على هذه العادة الى عهد قريب . وربما كان في أشياخنا المسنين من أدركها وحرث مع الحراثين .

ودخلنا الحرم فاذا المحراب يتقد ذهباً . وقد قامت في وسطه محاريب صغار متصلة به . وقد حفت به عمدٌ مفتولاتٌ فتل الأساور . كأنها

مخروطة خرطاً . وبعضها أحمر كأنه مرجان : فحائط القبلة . والمحراب المذهب . واشراق شبابيكه المذهبة ذات الزجاج الملون ، واتصال أشعة الشمس المنبعثة منها ، وانعكاس الاشعة على حائط القبلة وانحلال أضوائها الى ألوان زاهية مختلفة — كل ذلك أخذ أبصارنا واستهوى قلوبنا حسناً وجمالاً .

ومشينا من الحرم إلى باب جيرون (وهو باب النوفرة اليوم) وخرجنا منه الى دهليزه المنتهي بباب آخر عظيم الارتفاع . وعلى يمينه غرفة دخلناها فاذا فيها طيقان من النحاس الأصفر . ولهذه الطيقان أبواب صغار على عدد ساعات النهار . وقد دبرت تدبيراً هندسياً حيلياً للدلالة على أوقات النهار ، إذ أنه نصب تحت أول باب من هذه الأبواب الصغار تمثال طير من طيور الباز وهو من نحاس أصفر ، وتحت آخر الأبواب باز آخر مثله . والبازان واقفان على طاستين من نحاس مثقوبتين ، وفي منقار كل باز بندقة مدورة من نحاس : فاذا انقضت ساعة من النهار مد البازان أعناقها بالبندقتين الى الطاستين وقذفاهما في الطاستين بتدبير عجيب . فيسمع لهما رنين ، وينغلق الباب وينتقل العمل إلى باب آخر . وهكذا تنغلق الأبواب كلها وتنقضي ساعات النهار فيعود الحال كما بدأ .

هذه دلالتها في النهار ، أما دلالتها في الليل فلها تدبير آخر وذلك أنه انعطف فوق الطيقان قوس فيه اثنا عشرة دائرة من نحاس مخرم في كل دائرة زجاجة خلفها مصباح يدور به الماء على مقدار الساعة ، فاذا انقضت الساعة أضاءت الزجاجة بنور المصباح وفاض الشعاع على الدائرة التي أمامها فلاحت في الظلام محمرة . ثم ينتقل ضوء المصباح الى الدائرة التي بعدها فتضيء محمرة . وهكذا حتى تضيء الدوائر كلها بعدد ساعات الليل . ولمعرفة الساعة هذه قيّمٌ يتفقدها ويعيد فتح الأبواب ويرجع بالبندقة الى موضعها .

وكانت تسمى هذه الساعة (المنجابة) وهي محرفة عن كلمة (منكاب)

و (منكاب) محرّفة عن (بنكام) وبنكام كلمة يونانية معناها آلة من الرمل تقدّر بها الساعات النجومية والذي يلفت النظر : أن يوجد في الجامع الأموي في ذلك التاريخ (سنة ٥٨٠ للهجرة) تمثالان من نحاس أصفر . على صورة بازيين . بشكلها الطبيعي أو أكبر .

* * *

واذا نزلنا في التاريخ نحو مئة وخمسين سنة نسمع الناس يسمون باب جيرون (باب الساعات) ونجد المنجابة تغيرت الى وضع آخر : نجدها غرفة لها طاق كبير فيه طيقان صغار على هيأة أبواب بعدد ساعات النهار وقد صبغ باطن تلك الأبواب بالخضرة ، وظاهرها بالصفرة . فاذا انقضت ساعة من النهار انقلب الباطن الأخضر ظاهراً . والظاهر الأصفر باطناً . ولهما قيّم يقلب الأبواب بيده عند كل ساعة .

وأين البازيان اللذان عهدناهما منذ مئة وخمسين سنة ؟ ؟ الجواب على هذا أن يقال : لعل فقهاء دمشق في القرن الثامن للهجرة تغيرت روحيتهم عن روحية القرن السادس : فكأنهم استفظعوا وجود تماثيل طيور في الجامع فاخرجوهما منه وكسروهما تكسيراً . بعد أن أوسعوهما سباً وتحقيرا .

ويسألنا سائل فيقول : أيّ فقهاء القرون الاسلامية خير ؟ فقهاء القرن السادس وقت أن كان البازيان يخدمان المصلين بالدلالة على أوقات الصلاة ؟؟ أو فقهاء القرن الثامن وقت أن حكم على البازيين بالتكسير والتدمير . والتعبير والتحقير ؟

* * *

ومنّ هذا الامام العظيم الذي يمشي في صحن الجامع سنة (٥٠٠) للهجرة وعليه المهابة والوقار ، وقد حف به تلاميذه ومريدوه . آتياً من غرفته في أعلا المنارة الشرقية ومازال سائراً حتى خرج من باب جيرون (باب النوفرة) ودخل غرفة (المنجابة) أي حيث يقوم البازيان بعملها ويخدمان المصلين بامانة ؟

هو الامام (أبو حامد الغزالي) نزيل دمشق في ذلك العهد ومؤلف كتاب (الأحياء) الذي قال فيه بعض الواعظين :

(أرى الناس أمواتاً ومن لي بالأحيا كمن يروي أسرار الفتوحات والاحيا)
(وما الناس الا ابن دينار راوياً عن الذهبي يروي عن ابن أبي الدنيا)

ثم عدنا الى حرم الجامع فاذا شيخ من شيوخ العلم مستند الى سارية من سواري المسجد ، واقعة بين المقصورتين وقد تحلق الناس حوله لاستماع درسه . فقيل لنا إن لهذه السارية وقفاً معلوماً يأخذ ريعه من يلقي درسه مستنداً اليها . وان هذا الشيخ الذي ترونه فقيه أندلسي من أهل اشبيلية يعرف بالمرادي .

* * *

وكان لأهل الخير في ذلك الزمن عناية خاصة بحبس الأوقاف على نشر القرآن ، فتجد في الجامع ولاسيما بعد صلاة الصبح أو العصر مئات من الناس يتلون القرآن وهم بين معلم ومتعلم وتالي . حتى اذا فرغ الرجال ، جاء دور الصبيان فالتفوا حول القرّاء يلقنونهم القرآن .

وهكذا كان المسلمون في القرون الاولى . يستثمرون أوقافهم ، وينفقونها في سبيل مصالحهم العامة . فلو عرفوا اليوم كيف يستثمرونها وينمّون ريعها وغلاتها ثم ينفقونها في سبيل تعليم أولاد فقرائهم وفي السبل الخيرية الاخرى كما تفعل بقية الطوائف في أوقافها — لكان ذلك من أمثل الطرق في انعاش الحياة الاجتماعية في الأمة الاسلامية .

وزرنا في دمشق (الحضرة) وهو ميتم كبيانم هذه الأيام : يأوي اليه الأيتام . وينفق عليهم وعلى معلميهم من ريع عقارات موقوفة عليهم . ولكن الأيتام ما كانوا في (الحضرة) وقت أن زرناها . وانما خرجوا الى مشاهدة موكب الحج القادم من الحجاز فاسرعنا نحن أيضاً الى مشاهدته : فاذا مهرجان عظيم وموسم مبارك . والناس يتلقون الحجاج فيصافحونهم ويتمسحون بهم تبركاً وتيمناً . ويستقبلونهم بصنوف العطايا والهدايا . وقد حدثنا

بعض الدماشقة : أن المرأة الدمشقية تتلقى الحاج أحياناً وتناوله الرغيف فيعض عليه فتخطفه منه وتعطيه عوضه دراهم ثم تأكله تبركاً به .

واذا نزل الغريب في بلد اسلامي في ذلك العهد يدبرون له وظيفة دينية يقوم بها . ويعيش من راتبها . حتى يملّ . فينتقل الى بلد آخر : يصادف فيه ماصادفه في الأول . وقد يصعد الغريب الى جبل لبنان فيعيش في قراه ناعم البال . وقد يقيم في مغاراته مع الزهاد المسلمين المنقطعين فيها للعبادة يومئذ .

وما كان النصارى أقل عناية بهؤلاء الغرباء الوافدين عليهم . فكانوا يجلبون لهم القوت ويحسنون اليهم . ويقولون : هؤلاء قوم انقطعوا الى الله فتجب مواساتهم .

وهكذا كان الاخلاص في الحب متبادلاً بين السوريين على اختلاف الطوائف والملل . حتى خلف من بعدهم خلف تمسكوا بالقول وتركوا العمل .

* * *

ثم ضاق صدرنا من التجوال داخل دمشق فرأينا أن نخرج الى ضواحيها للنزهة والتفرّج فأشاروا علينا أن نذهب الى الضاحية الغربية حيث المرج الشهير . وكان الوقت أصيلاً . والنسيم يهبّ عليلا . فرأينا منظره من أبدع المناظر التي تسر النفس وتلذ الحس (ميدانان . كأنهما بساطان من خز لشدة خضرتها . والنهر يشقها . وغابة عظيمة من شجر الحور متصلة بالميدانين . ولا جمال للعين كجمالها . ورأينا أبناء السلطان صلاح الدين يتسابقون هناك ويترامون . ويتلاعبون بالكرة والصولجان . وقالوا لنا : ان هؤلاء الفتيان يخرجون الى هذا المتنزه للتّعيب والمسابقة كل يوم كما أن السلطان صلاح الدين نفسه يخرج أحياناً للنزهة واللعب بالصوالجة . وتقام بين يديه سباقات للخيل . وسمعنا من الناس — بمناسبة سباق الخيل الذي يقيمه صلاح الدين في ميدان المرجة — ثناءً على ذلك السلطان وبعد همته ، وماله من الآثار المحمودة (فهو لا يأوي لراحته ، ولا يخلد الى دعته ، ولا يزال

سرج جواده مجلسه) وسمعنا بعض فقهاء دمشق الذين يترددون على صلاح الدين يقولون إن للسلطان ثلاث مناقب :

(١) الحلم ، ومن قوله في ذلك (أما أنا فلأن أخطيء في العفو أحبّ الليّ من أن أصيب في العقوبة .

(٢) الكرم ، ومن قوله في ذلك (والله لو وهبت الدنيا لمن قصدني لما كنت أستكثرها له . ولو استفرغت له جميع خزائني لما كان مساوياً لما أراقه من ماء وجهه في طلبه مني) .

(٣) تحكيم الشرع لا الهوى . ومن آثاره في ذلك ان أحد ممالكه المقربين شكا اليه تاجر جمال باعه جملاً فيه عيب . فأجابه السلطان : ماعسى أن أصنع لك ؟ والمسلمين قاض يحكم بينهم . والحق الشرعي مبسوط للخاصة والعامة . وأوامره ونواهيه ممتثلة . وانما أنا عبد الشرع وشحنته (أي أنه بمثابة شرطي ينفذ أمر الشرع) فالحق يقضي لك أو عليك .

* * *

وبينا كنا نسير في السوق الذي يسمونه السوق الكبير وهو الممتد من باب الجابية الى باب شرقي (وكان ذلك في غرة جمادى الآخرة سنة ٥٨٠هـ) — صادفنا جنازة لبعض ذوي الثروة من أهل دمشق . فرأينا لها ترتيباً عجيباً : ذلك أنهم يرتبون أمامها قرّاء يقرأون القرآن بأصوات شجية . وتلاحين مبكية تكاد تنخلع لها النفوس شجواً وحناناً يرفعون أصواتهم بها . فتتلقاها الآذان بأدمع الأجفان . فاذا وصلت الجنازة الى باب الجامع سكت هؤلاء القراء . إلا أن يكون الميت من أئمة الجامع أو من سدنته فان القراء إذ ذاك لايقطعون قراءتهم عند باب الجامع . وانما يبقون على رفع أصواتهم حتى يصلوا الى موضع الصلاة على الجنازة .

رأينا هذا من أحوال جنازتهم . وقلنا نقي علينا أن نحضر موضع العزاء ونرى رسمهم فيه . فاسرعنا في الوقت المعين الى الجامع الأموي . وأخذ

الناس يتوافدون فرادى الى الجانب الغربي من صحن الجامع إزاء باب البريد وبعد أن أخذوا مجالسهم صفّت أمامهم ربعات من القرآن وبدأوا يقرؤون. وكان يدور في هذا الجمع رجال هم نقباء الجنائز وظيفتهم ترتيب الاجتماع وتهيئة الربعات وحفظ النظام وكنا من وقت الى آخر نسمع أصواتهم ترتفع، فاصغينا اليهم واذا هم يعلنون قدوم الواصلين الى العزاء من محتشمي البلدة وأعيانها. وكانوا يسمونهم بالقابهم الهائلة التي اعتادوا أن يضيفوها الى كل واحد منهم. مضافاً كل لقب الى كلمة (الدين) وما أكثر هذه الألقاب وأوسع مجالها عندهم: فقد سمعنا نقيباً من هؤلاء النقباء يعلن قدوم أحد الأعيان بقوله: جاء (صدر الدين) ثم سمعنا نقيباً آخر ينادي (شمس الدين) وثالثاً يعلن (بدر الدين) ثم ماشئت من نجم الدين وزين الدين وبهاء الدين وجمال الدين ومجد الدين وفخر الدين وشرف الدين ومعين الدين ومحب الدين وزكي الدين ونجيب الدين ـ الى مالانهاية له من هذه التراكيب الموضوعة والألقاب المرفوعة.

وكنا نسمع أحياناً أوصافاً زائدة على الألقاب. وذلك فيما اذا كان القادم من الفقهاء: فان النقباء يذكرونه بلقبه (صدر الدين) مثلاً ثم يصفونه بقولهم (سيد العلماء) أو (جمال الائمة) أو (حجة الاسلام) أو (فخر الشريعة) أو (شرف الملة) أو (مفتي الفريقين) الى مالانهاية له من هذه الأوصاف الخيالية.

وقد لاحظنا أن بعض من يعلنون لقبه ويرفعون أصواتهم بوصفه ومدحه كان يمشي ساحباً أذياله من الكبر. ثانياً عطفه من العجب.

حتى اذا استكمل القوم أمرهم. وفرغوا من قراءة القرآن قام وعّاظهم واحداً إثر واحد: بحسب درجاتهم في المعرفة. فوعظ وذكر. ونبّه على خدع الدنيا وحذّر، وأنشد في المعنى ماحضره من الأشعار، ثم ختم وعظه بتعزية أهل الميت والدعاء لهم ولفقيدهم.

ثم يقعد فيقوم آخر على شكله وطريقته الى أن يفرغوا ويتفرقوا.

وهذا الوعظ والتذكير في هذا الاجتماع على الصورة المذكورة ربما كان نافعاً لمن يحضر من سواد الناس وعامتهم.

وللناس في تلك القرون الوسطى عادات وأطوار أخرى لا تسلم من النقد وهي إذا قورنت بما عليه الناس اليوم، وجد بين الحالتين فرق يذكر.

وكانوا في ذلك العهد يتماطون المحال تعاطياً، والجد عندهم عقاء مُغرب. وكان إذا لقي أحدهم صاحبه خاطبه بقوله: جاء المملوك أو الخادم. ثم يومىء بعضهم الى بعض بالسلام: فترى الاعناق تتلاعب بين رفع وخفض وبسط وقبض، وربما طالت بهم الحالة في ذلك: فواحد ينحط وآخر يقوم، وعمائمهم تهوي بينهم هوياً.

ومن عجيب حالهم أن صغيرهم وكبيرهم يمشون وأيديهم الى خلف. قابضين بالواحدة على الاخرى. واذا أراد أن يسلم أحدهم على الآخر ركع للسلام ويداه وراء ظهره، والمحتشم منهم يسحب ذيله على الارض شبرا. وقد اتخذوا هذه الحالات بينهم سُنّنا. ورأوها أمراً حسنا، وهم يعتقدون أن ذلك يجعلهم من ذوي الخصوصية. واذا اعترض عليهم معترض اعتذروا بانهم يجدون في صنيعهم هذا نشاطاً في الاعضاء. وراحة من الاعياء.

* * *

هذا ما ينتقد به عليهم. أما ما يمدحون به فهو ما اعتادوه من آداب المصافحة: فتراهم اذا فرغوا من صلاة الجماعة — ولاسيما صلاتي الصبح والعصر — أقبلوا على الامام فصافحوه ثم يأخذ كل واحد منهم في مصافحة من عن يمينه أو يساره. ودعا بعضهم لبعض بالمغفرة، وصلاح الحال. فيتفرقون عن مجلس مغفرة وحب واخلاص وصفاء نية. وفي ذلك من تجديد المودة، وتأكيد الاخوة، وتوثيق الروابط مافيه.

* * *

ثم زرنا دمشق مع سائح آخر بعد نحو مئة وخمسين سنة (أي في سنة

٧٢٥ للهجرة) وكان وصولنا اليها بعد عصر يوم السبت . فرأينا الأشغال معطلة ، والحوانيت مقفلة ، وقيل لنا أن أهل دمشق لا يعملون أيام السبوت إنما هم يخرجون الى المتنزّهات ، وشطوط الانهار ودوحات الاشجار ، بين البساتين الناضرة والمياه الجارية فيكونون بها يومهم الى الليل ثم يعودون الى بيوتهم ، وهكذا كل يوم سبت .

وقد أشار الى عادتهم هذه بعض من وفد عليهم من علماء الاندلس وهو (ابو الحسن الغرناطي) فقال :

أما دمشق فجنة ... يندى بها الوطن الغريب
لله أيام السبو ... ت بها ومنظرها العجيب
انظر بعينك هل ترى ... إلا محباً أو حبيب
في موطن غنّى الحما ... م به على رقص القضيب
وغدت أزاهر روضه ... تختال في مرح وطيب

وإذا أردنا أن نعلل ما كان من عادة الدماشقة في تعطيل أيام السبوت فلا نجد لذلك سبباً سوى عطلة اليهود : فان عطلة اليهود وخروجهم للمنازه مع نسائهم أغرى المسلمين بتقليدهم ، والنسج على منوالهم ، كما أصبح المسلمون اليوم يقلدون النصارى في عطلة أيام الآحاد في المدن التي يكثر فيها سواد النصارى كبيروت ، بل وفي بلاد أخرى لايكثر فيها النصارى كالقاهرة : حتى إن أرباب المحلات التجارية والمعامل الصناعية الكبرى ، التي يخدم الصناع النصارى فيها — كانوا همّوا في القاهرة أن يجعلوا العطلة يوم الأحد رسمية . ويمنعوا صناعهم المسلمين من العطلة أيام الجمع ، لئلا تقع عطلتان في الاسبوع الواحد ، ولكن الصناع المسلمين أبوا إلا عطلة يوم الجمعة ، وحصل في المسألة خلاف طويل عريض بين الكتاب والمفكّرين واحتدمت نار الجدال بينهم في تفضيل أحد الرأيين . وآخر الأمر بقوا على عطلة يوم الجمعة مشاركين للحكومة في ذلك خشية أن يتعطلوا يوم الأحد فتتعطل الحكومة معهم . وتشتغل يوم الجمعة !!!

والحاصل أن عطلة المسلمين أيام السبوت والآحاد ناشيء عن عطلة مواطنيهم في هذين اليومين . وقد أخبرنا بعض فضلاء تونس أن مسلميها اليوم يتعطلون يوم السبت مجاراة لليهود الذين على قلتهم أصبحت الحركة الصناعية والتجارية في أيديهم .

ولا يخفى أن عطلة الشعب في يوم من أيام الاسبوع والراحة فيه من عناء الأعمال مفيد في الصحة ونشاط النفس وفي توثيق الروابط بين الاصدقاء والعائلات بسبب الزيارات والاجتماعات العائلية . بل هو مفيد أيضاً من الوجهة المالية والاقتصادية : فان رجوع التجار والصناع والمتسبّبين الى أشغالهم بعد الراحة يكون بأوفر رغبة ونشاط مما لم يتعطلوا . فهذا النشاط والاندفاع في الاعمال يجلب الارباح والمكاسب عليهم .

وقد شوهد أثر ذلك بيّناً في شعب اليهود ووفرة أمواله .

على أن عطلة الدماشقة يوم السبت وخروجهم للنزهة والبساتين قديماً مازال له بعض الاثر في هذه الايام أيضاً .

* * *

وكان في دمشق في ذلك العهد (أي سنة ٧٢٥) ٨ أئمة وخطباء وعلماء وقضاة لكل مذهب من المذاهب الأربعة ، وكان قاضي قضاة الحنفية يوم زيارتنا لها (عماد الدين الحوراني) وهو رجل شديد السطوة عظيم الهيبة وكان يتحاكم اليه النساء وأزواجهن فلا يضيع لامرأة حق ولا يلحق بها عنت ولا جور : كل ذلك بفضل تيقظ هذا القاضي ونزاهته وصرامته . والأزواج القساة لايبالون أن يظلموا هؤلاء النساء المسكينات ويأكلوا حقوقهن ولا يخشون الله فيهن : فوجود مثل هذا القاضي ضمانة لهن ومن أكبر نعم الله عليهن .

وقد كان الرجل اذا سمع أنه يقاد في الخصومة الى ذلك القاضي أنصف من نفسه . وأعطى خصمه حقه قبل أن يقوده اليه .

وتبسم بعض الخصوم يوماً من كلام مطلقته أمام بعض القضاة المتشددين في وجوب المحافظة على السمت والوقار فصرخ القاضي فيه صرخة قطعت نياط قلبه ، ثم وبخه بمثل قوله : ويحك أتضحك وقاضيك بين الجنة والنار؟ أتضحك وقد تجلّى على مجلسنا المنتقم الجبار . ثم حمل الرجل الى منزله ، ولم يلبث إلا أياماً حتى قضى نحبه .

* * *

وكانت دمشق يوم زرناها تميد سفينتها بجبال العلم وأساطين المعرفة : أمثال ابن الشحنة وشهاب الدين المقدسي ومجد الدين بن المعلّى وشمس الدين بن تمام وشمس الدين بن سالم الهكاري . والشيخة الصالحة أم محمد عائشة بنت محمد بن مسلم الحراني . والشيخة الصالحة رحلة الدنيا زينب بنت كمال الدين أحمد بن عبد الرحيم المقدسي .

وقد سمعنا يوم قدومنا الى دمشق لغطاً ودندنة : فذكروا لنا أن هناك نزاعاً قام قائمه بين العلمـــاء بشأن الشيخ تقي الدين (ابن تيمية) فقيه الحنابلة وكبير الشام في تلك الأيام وكان يتكلم في العلوم بأسلوب عجيب ومهارة فائقة وكان أهل دمشق يعظمونه أشد التعظيم . وكان له مجالس وعظ يحضرها الجم الغفير من الاهالي . وإن رجلاً كابن تيمية رزق الشهرة الواسعة والمنزلة الرفيعة في نفوس الناس لايسلم بالطبع من شانيء يشنؤه وحاسد يحسده من أهل بلده ، فنقلوا عن لسانه كلمات زعموا أنها مخالفة للشرع ورفعوا أمره الى (الملك الناصر) في القاهرة فأمر الملك بإشخاصه اليه حتى اذا وصل الى مصر عقد له مجلس مناظرة وكان كلما عرض عليه خصومه مسألة أجابهم بقوله (لا اله الا الله) (يعني ومن قالها كان مسلماً ولايجوز الحكم على المسلم بالكفر) وما كان يزيد على ذلك شيئاً خشية أن يدخل معهم في ميدان الجدال : لأن المناظرة في المسائل الدقيقة تؤدي بالضرورة الى الاختلاف في الآراء : فاذا ارتأى الشيخ ابن تيمية رأياً مخالفاً لرأيهم اعتبروا رأيه مخالفاً للشرع مع أنه في الحقيقة مخالف

لآراء مناظريه لا للشرع . ولكن أعداءه لايريدون أن يفهموا هذا . ومن ثمّ رأى ابن تيمية ان الأسلم له أن يلجأ الى الله ويتحصن بكلمة : (لا إله إلا الله) .

ولما لم يجبهم على أسئلتهم أمر الملك الناصر بسجنه في القاهرة وصنف في السجن كتاباً في تفسير القرآن سماه (البحر المحيط) في نحو أربعين مجلداً . ثم شفعت به أمّه لدى الملك فأطلقه لها وعادت به الى دمشق . حتى إذا وصلها عاد خصومه الى الوشاية به الى الملك فأمر بسجنه في قلعة دمشق .

ويروى أنه لما أدخل السجن — وكان معه أكبر تلامذته (ابن قيم الجوزية) — أغلق الباب على نفسه بعنف وتلا قوله تعالى : (فضُرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب) ثم قال مخاطباً تلميذه المذكور : وماذا يستطيع أن يفعل بي أعدائي وأنا جنتي خلوتي ونفي سياحتي . وقتلي شهادتي . وبستاني في صدري) وقد عنى بالبستان الذي في صدره حقائق العلم والعرفان أو برد اليقين والثقة والاتكال على الله أو أنه أراد لذة المناجاة للحق سبحانه وتعالى .

* * *

وبقي ابن تيمية في سجن قلعة دمشق حتى توفاه الله يوم الاثنين الواقع في عشرين ذي الحجة من سنة ٧٢٨ هـ فكانت له جنازة حافلة ، وصفها المؤرخون وأطنبوا حتى قال صاحب (تاريخ شذرات الذهب) إنهم خمّنوا الرجال الذين خرجوا في جنازته بمائتي الف والنساء بخمسة عشر الفاً .

ومشينا في جنازته الى سوق الخيل حيث صلى عليه أخوه (زين الدين) عبد الرحمن . ودفنوه في مقابر الصوفية ، وتسمى اليوم البرامكة الى جنب أخيه عبد الله . وقد حفظ قبره من الاندراس والحمد لله .

* * *

وكان دخولنا الى سوق الخيل في جنازة ابن تيمية أول مرة رأينا

فيها تلك السوق فشاهدنا في هذه السوق وفي الأماكن التي حواليها حركة عمران عجيبة وسألنا عن هذا المكان فقيل لنا إنه يسمى (تحت القلعة) وإنه ثغرة دمشق وأشهر موقع من مواقعها . فعدنا الى زيارته المرة بعد المرة . وكنا كلما زرناه رأينا شيئاً جديداً ومشهداً من مشاهد العمران عجيباً .

* * *

فكما أن تلك البقعة في عصرنا الحاضر (أي في القرن العشرين) تشتمل على عدة أسواق وأماكن كسوق علي باشا وسوق الخيل وسوق التبن وخان البطيخ وخان الباشا والمحارية والخيمية وبين الحواصل وطريق دوما الى العمارة الذي يعدون فيه اليوم قضبان حديد الترام . كذلك كانت هذه المواقع كلها تسمى (تحت القلعة) في القرون الوسطى الاسلامية : فكان (تحت القلعة) يشتمل على دار البطيخ وسوق الخيل أوالدواب وسوق التبن ومقابر العوتبة ودار بهادر الى غير ذلك من الخطط والأحياز والقصور .

ويظهر من كلام المؤرخين في تحديد موقع (تحت القلعة) أنه كان يطلق على المكان الفسيح الواقع بين مصلبة العمارة شرقاً ، والمرجة غرباً . والقلعة والنهر جنوباً وسوق ساروجا شمالا . وقد بالغوا في وصف قدم هذا المكان وعمرانه حتى قال (ياقوت) في (معجم البلدان) إن شيوخ دمشق يزعمون أن دار شداد بن عاد واقعة في سوق التبن يفتح بابها شمالاً الى الطريق . وانه كانت تزرع لشداد الرياحين والورود وغير ذلك فوق الأعمدة بين القنطرتين : قنطرة دار البطيخ وقنطرة سوق التبن) اه .

وقد بقي موقع (تحت القلعة) حافظاً شهرته التاريخية هذه مدة خمسة أو ستة قرون .

فأول ماعرفنا من تاريخه الصحيح القرن الرابع للهجرة : فان (دار البطيخ) كانت موجودة في ذلك القرن وكان الوأواء الدمشقي الشاعر المشهور (المتوفى سنة ٣٩٠ للهجرة) سميراً في تلك الدار (أي دار البطيخ) ثم علق بالشعر ونظمه فاحسن وأجاد . ونال منه أقصى المراد .

وبقي (تحت القلعة) عامراً منذ ذلك العهد أي القرن الرابع وربما قبله أيضا إلى القرن التاسع وربما بعده أيضاً ، فقد روى المؤرخون أن قاضي مصر أبا الحسن ابن سودون (المتوفى سنة ٨٦٨ هـ) والذي قالوا عنه انه أول من أحدث(١) (خيال الظل) — وهي اللعبة المسماة في عصرنا (قره كوز) كان له ولد طائش ، ترك مصر وجاء الى دمشق فبلغ أباه خبره وقالوا له انه يتعاطى التمسخر والهزل والمجون مع الأوباش تحت قلعة دمشق فحملته الموجدة والغضب على ابنه أن جاء دمشق وقصد تحت القلعة وعرف مكان ابنه فوجده في حلقة مع نفر من الأوباش يلهون ويلعبون ويتماجنون فلحظ الولد أن أباه القاضي واقف مع المتفرجين ينظر اليه فابتدر ينشد بنغمة شجية وصوت حزين :

قد كان يرجو والدي بأن أكون قاضي البلد
ماتمّ إلا ما يريد فليعتبر من لو ولد

فنكص القاضي راجعاً ولسان حاله يقول :

كم حسرة لي في الحشا من ولد قد انتشا
كنت أرجي رشده فما نشا كما نشا

وأحسن من وصف (تحت القلعة) أبو البقاء البدري الذي كان عائشاً في أواخر القرن التاسع للهجرة فقد وصف في كتابه الذي سماه (نزهة الأنام في وصف الشام) موقع (تحت القلعة) وصفاً دقيقاً فقال : (تحت القلعة) مرتع القريب ، ومنهل الغريب ، وهو ساحة سماوية ، تحفها الدور ، وتعلوها القصور . قد احتوت على كل مايرومه الانسان ، وكشتيه

(١) والصحيح ان خيال الظل كان موجوداً قبله فقد ذكروا ان القاضي الفاضل شهده في دار بعض أولاد السلطان صلاح الدين وأنشد فيه :

رأيت خيال الظل أكبر عبرة لمن كان في علم الحقيقة راق
شخوص وأشباح تمر وتنقضي سريعاً والمحرك باق

الشفة واللسان . فيها دار البطيخ حيث تباع جميع الفواكه ، وهناك العين المشهورة ببرودة مائها ، وعذوبته وخفته ، وفيها سوق القماش : منه ماياع مقروعاً . ومنه ماياع مخيطاً ، جانب للرجال ، وجانب للنساء : سوق الفراء والعبي ، سوق السقطيين والنحاسين والسكاكينيّين والقربيّين ، سوق الخيل والغنم ، وسوق القشّاشين ، وسوق المحاريين والنجارين والخرّاطين والنقليّين . وهناك دار الخضر ، وبها سوق المناخليين والزجّاجين أيضاً .

ثم قال : اذا نظرت ساحة تحت القلعة فلا تكاد ترى أرضها لكثرة مابها من المتعيشين والوظائفية ويتخللهم أرباب الحلقات والفالاتية والمضحكون . وأصحاب الملاعيب والحكواتية والمسايرون ؛ وكل مايتلذذ به السمع والبصر وتشتهيه النفس صباحاً مساءً . قال ولكن الناس في المساء يكونون أكثر اجتماعاً ويستمرون الى طلوع الثلثين . ومعنى طلوع الثلثين ؟ كان يوضع في أعلا أسوار القلعة ثلاثة طبول متفرقة : ففي الثلث الأول من الليل تُضربُ الطبول ضربة واحدة ، وفي الثلث الثاني ضربتين وفي الثلث الاخير يطلع المؤذن على منارة العروس ويعلق لهم قنديل الاشارة ، فيضرب كل طبل إذ ذاك ثلاث ضربات . وهكذا تهدأ حركة الليل ويتفرق الناس الى الجوامع للصلاة او الى بيوتهم للنوم .

هذا ماقاله المؤرخ البدري ، أما قوله « وهناك العين المشهورة ببرودة مائها وعذوبته » فقد أراد بها العين التي تسمى اليوم (عين علي) .

ولانعلم كيف كانت حالتها في القديم أما اليوم فينزل اليها بضع درجات وقد اتخذوا لها انبوباً وحوضاً للاستسقاء وموقعها في سوق المحايرية أمام جامع صغير يسمى (جامع الدلبة) وقد جدد عمارة هذا الجامع بعض أهل الخير من عهد قريب ، ويفصل بين العين والجامع طريق ، وكان على تلك العين شجرة دلب (١) عظيمة جداً وبها سمي الجامع الذي أمامها (جامع

(١) الدلب شجر معروف وكان النصارى يتخذون منه النواقيس واذا ارادوا أن يقولوا ان فلاناً نصراني قالوا (هو من أهل الدربة بمعالجة الدلبة) أي خبير باصطناع النواقيس منها .

الدلبة) وكان الناس يأوون إلى أصل تلك الدلبة ذات الظل الظليل للاستراحة والفرار من حر الهجير ، وقد بقيت هذه الدلبة التاريخية الى زمن الحرب العامة وقت أن كان غالب بك الزالق رئيساً للبلدية فقطعها توسعة للطريق ، وما زال الكثيرون يذكرون جذعها الضخم الذي يبلغ محيطه بضمة أذرع وقد تآكّل جوفه وتفتّت من كرّ السنين حتى أصبح فارغاً مقوراً . وكان يتخذ كمخزن تودع فيه الاخشاب والسحاجير .

وقول البدري « إنه يوجد تحت القلعة (دار البطيخ) حيث تباع جميع الفواكه » لعل هذه الدار هي المسماة اليوم (خان البطيخ) على مقربة من خان الزيت « مكتب الصنايع » وكانت الاسواق التي تباع فيها الخضر والفواكه تسمى « دور البقل » ونسميها اليوم « سوق الخضر » وباللغة الافرنجية « الهال » وقد اشتهر اسم الهال أخيراً بسبب احداث الحكومة له بناية خاصة .

أما في دمشق وبغداد فقد كان فيها أسواق لبيع الفواكه ولما كان البطيخ أشهر تلك الفواكه ، وأكبرها حجماً ، وأعظمها ركاماً ، وأشرقها لوناً غلّبوا اسمه البطيخ على سائر الفواكه : فسموا الدار التي تباع فيها الفواكه على اختلاف أنواعها (دار البطيخ) وهذا كما يقولون اليوم (بقالية) للمخزن الذي تباع فيه مواد غذائية مختلفة ويكون في جملتها البقل ، ثم خففوا (دار البطيخ) فقالوا : (دار بطيخ) من دون تعريف ، وقد قال ابن لنكك الشاعر يهجو كلاب بن حمزة :

(أنت ابن كل البرايا لكن اقتصروا على اسم حمزة وصفاً غير تشميخ)
(كدار بطيخ تحوي كل فاكهة وما اسمها الدهر الا دار بطيخ)

وفي موشح المرزباني أن محمد بن يحيى قال : كنت عند عبيد الله بن طاهر فذكرنا قصيدة ابن الرومي في (أبي صقر) التي أولها (أجنت لك الوجد أغصان وكثبان) فقال عبيد الله هذه القصيدة (دار البطيخ) يعني لاشتمالها على ذكر الاثمار والازهار . فضحك الجماعة فقال اقرأوا تشبيبها

وانظروا . هي كما قلت . قال محمد وقد ملّح عبيد الله وظرّف . وهذه القصيدة أكثر من مائتي بيت مرّ له فيها إحسان كثير . ومن نسيبها مما يدل على صحة قول عبيد الله :

(أجنت لك الوجد أغصان وكثبان فيهن نوعان تفاح ورمان)
(وفوق ذينك أعناب مهدّلة سودٌ لهن من الظلماء ألوان)
(وتحت هاتيك عناب يلوح به أطرافهن قلوب القوم قِنوان)
(غصون بان عليها الدهر فاكهة وما الفواكه مما يحمل البان)
(ونرجسٌ بات ساري الطل يضربه وأقحوان منير النور ريان)
(أليفن من كل شيء طيبٍ حسنٍ فهن فاكهة شتى وريحان)

وفي عيون الأخبار لابن قتيبة مجلد ١ ص ٢٥٢ أن الفضيل كان يقول (إذا أبغض الله عبداً جعل رزقه في الصياح) ثم فسر ذلك بقوله : (أما سمعتم الى أهل دار البطيخ والملاحين ودويّهم) ولا جرم أن يكون الدلالون أشهر من كان رزقهم في الصياح كما قال الفضيل .

* * *

وكانت الحكومات الاسلامية تعين لدور البقل والخضر والفواكه عمالاً يستوفون من الباعة والتجار الرسوم والمكوس مما يسمونه (حقوق السلطان) ونسميه اليوم (أموال أميرية) (دخولية أو جمرك) .

والتزام مال الدخولية كانوا يسمونه قديماً (شدّ) فيقولون مثلاً إن الحكومة ولت فلان (شد دار البطيخ) أو (دار الفاكهة) .

بل يظهر أن الشد قديماً كان له معنى اداري أعم : فهو بمعنى التولية والتعيين في أي عمل حكومي أو رئاسة مصلحة أو ديوان : من ذلك (شدّ العاير) ، (وشد الشرابخانه) ، (وشد الدواوين) . وقد فسر القلقشندي في كتابه صبح الاعشى (شد الدواوين بانها وظيفة يتولى صاحبها

تحصيل الاموال الأميرية وانفاقها ، فهو بمثابة الدفتردار أو المحاسبجي في الحكومة العثمانية .

وممن تولى شد الدواوين في دمشق في عهد الملوك الشراكسة الأمير علم الدين سنجر « المتوفى سنة ٦٩٩ » وهو أمير جليل جمع بين الشجاعة والعلم والصلاح وعمل الخير ، حتى أن المنصور حسام الدين لاجين ملك مصر وكل اليه أمر عمارة « جامع طولون » وتنظيم وقفية له . فعمره ورتب له أوقافاً من جملتها « وقف الديوك » وهي أموال مقررة تنفق على ديوك توضع في جانب من سطح « جامع طولون » وذكر في كتاب الوقفية الغرض من هذه الديوك فقال : ان هذه الديوك تُعينُ الموقّتين ، وتوقظ المؤذنين الخ. فلما قرأوا كتاب الوقف على السلطان (لاجين) كان يقول نعم نعم حتى انتهوا الى ذكر « الديوك » فقال لا لا أبطلوا وقفيتها لئلا يضحك علينا الناس .

* * *

موقع تحت القلعة وحركة العمران فيه — حسبما وصف ذلك لنا المؤرخ البدري — جعل اهتمام الشرطة ورجال الأمن به عظيماً ، وذلك لكثرة ما يأوي اليه من الغرباء الأشرار والمتلصصين وأهل اللهو والخلاعة وكان موقعه في دمشق كموقع الأزبكية في مصر وساحة البرج في بيروت كذلك كان حال موقع « تحت القلعة » في دمشق في القرون الوسطى .

وان الملك العادل المدفون في جوارنا أو تتأدب فنقول الذي نحن في جواره ، كان يقاسي عناءً شديداً في السهر والمراقبة لكل مايجري « تحت القلعة » من حوادث ووقائع وشؤون وشجون .

فكنا نرى — ونحن نطوف في جنبات « تحت القلعة » من آثار عنايته واهتمامه بحفظ الأمن — ما يفوق الوصف . وقد وفق الله هذا الملك الى تطهير دمشق من المكوس التي كانت تؤخذ على المسكرات وتجبى من الخواطيء والمخانيث . وكانت هذه المكوس تبلغ أحياناً مئة الف دينار . ووفق الله

الملك العادل أيضاً الى تحريم معاطاة الخمور وادخالها الى دمشق بتاتاً وشدد في ذلك على رئيس شرطته ، ومع كل هذا لم ينقطع ادخال الخمور وتهريبها كما تقول اليوم ، وقد حكى لنا رئيس شرطة العادل واسمه (المبارز ابراهيم ابن موسى) وهو بمنزلة مدير الأمن في أيامنا قال :

ركبت يوماً ومعي رجالي وخرجت من باب الفرج ، فاذا رجل قد علق في رقبته طبلاً وهو يمشي به متثاقلاً متمايلاً فقلت لرجالي أمسكوه ، فأتوا به فشققت الطبل واذا فيه زق خمر فأرقته ، وضربت الرجل . فقلنا للمبارز : ومن أين علمت أن في الطبل زق خمر ؟ قال : رأيت الرجل يمشي ورجلاه تلتويان على غير انتظام . فعلمت أنه يحمل شيئاً ثقيلاً .

* * *

وكان الملك العادل مغتبطاً جداً برئيس شرطته هذا ويسميه معتمَده ، فيقول : « نادوا المعتمد ، قولوا للمعتمد » فاشتهر رئيس شرطته بلقب المعتمد . لكن العادل غضب عليه يوماً غضبا شديداً وذلك أن الملك احتفل بقصره في عرس ودعا اليه مغنية مشهورة يومئذ بدمشق فتأخرت المغنية عن الحضور في الوقت المعين ثم جاءت فوبخها الملك قائلاً :

— أين كنتِ ؟

— ماقدرت ياخوند[1] أجيء حتى وفيت ما عليّ للضامن

— وأي ضامن ؟

— ضامن القيان .

(يعني أن القيان والمغنيات كان لهن ملتزمٌ يأخذ منهن مكساً لأنهن أرباب صنعة ونسميه اليوم تمتماً) فلما سمع العادل من المغنية خبر الضامن قامت قيامته وطلب معتمده (المبارز ابراهيم) فوبخه على وضع هذه الضمانة على المغنيات ، وقال له : « والله لئن عاد بلغني مثل هذا عنك لأفعلن بك ولأصنعن » .

(١) خوند كلمة فارسية وكانوا يستعملونها في ذلك العهد بمنزلة قولنا اليوم ايها الامير .

لاجرم أن المعتمد نفّذ أمر الملك وألغى ضمانة القيان . ولكن لا نعلم كيف أن مثل العادل يرضى بوضع هذه الضمانة وقد قالوا في وصفه إنه كان ديناً ورعاً عفيفاً حسن السياسة لطيفاً بالرعية : حتى انه كان يستر على مرتكبي المعاصي من الرجال والنساء ويستدرجهم بعفوه ونصحه الى التوبة والاقلاع عن الذنوب .

قالوا : وكان لداره (أي دار ابراهيم) بابان : باب جهري كبير يقف عليه الحرس والجنود وباب سري صغير ينفذ الى زقاق آخر من أزقة المدينة ، فاذا أمسك رجاله امرأة خاطئة مثلاً أدخلوها عليه وهي على حالتها ، فيأمرهم بالانصراف ، ثم يأخذ في تقرير المرأة حتى يعرف نسبها وأهلها . فاذا وجدها قابلة للنصح وبخها فيقول مثلاً : يا بنيتي : أنت من بيت معروف وأهلك أصحابي ، وسلوكك هذا يحط من أقدارهم ويجري عليهم الأسافل فيهينونهم . يابنتي انظري كم واحد من أهلك يلحقه العار بسببك فيضطر أن يمشي وهو مطأطئ الرأس . خشية أن تقع عينه على أحد من الناس . يابنتي : أتبيعين شرفك وشرف آبائك واخوتك بلذة وقتية تزول ويبقى عارها لاحقاً بك وبأهلك الى الأبد ؟ يابنتي كذا . يابنتي كذا ولا يزال يقول هذا ونحوه حتى تسيل دموع المسكينة على خديها من فرط الكدر وخوف العار وتشعر في نفسها كأنها ابنته حقيقة فتترامى على قدميه طالبة منه العفو والصفح ، وتؤكد له ندمها وتوبتها وتعطيه عهداً وميثاقاً على أنها لا تعود فحينئذ يفتح لها باب السر الى الزقاق ومنه الى دار أبيها آمنة مطمئنة . ويبقى يراقبها حتى يستوثق من صحة توبتها ويحمد الله على أن وفقه الى انتشالها من العار والشنار والنار وإن رآها نقضت توبتها ، وعادت الى سوء عملها كان له معها شأن آخر .

ومن أعجب ما وقع في زمن هذا المعتمد الصالح : أنه كان في دمشق رجل شرير فاجر ، والى جانب بيته بيت تسكنه امرأة وزوجها ولها صبي صغير في اذنه قرط من ذهب . فلمعت عين الخبيث على قرط الذهب فخنق الغلام

ودفنه وأخذ القرط ، ولما فقدت أم الغلام صغيرها اتهمت جارها المذكور ورفعت أمره الى المعتمد ابراهيم فعذبه عذاباً شديداً فلم يعترف وفي آخر الأمر أطلقه . لكن الأم المسكينة بقيت تتحرق على وحيدها وهي تعتقد أن قاتله هو جارها جار السوء لما تعلم من خبثه وفجوره .

فخطر لها — الوصول الى كشف السر — خاطر غريب قلما يخطر إلا لأصحاب الارادة القوية من الناس : ذلك انها حملت زوجها على طلاقها فطلقها وبعد مضي عدتها تزوجت بجارها الملعون . وأقامت معه مدة طويلة على صفاء ووئام وحسن عشرة حتى اذا ازداد انسه بها وركونه اليها قالت له في احدى ليالي البسط والانشراح : ها قد مات زوجي الذي طلقني ولحق بابنه المفقود لاردهما الله وأنت لا تزال تخفي عني حقيقة الواقع ، فبالله عليك إلا ما قلت لي ، أما أنت الذي قتلته ؟ وما زالت تطايبه وتخضع له بالقول حتى أخبرها بأنه هو الذي قتله وأخذ حلق الذهب من أذنه .

— كيف قتلته ؟

— خنقته .

— وأين دفنته ؟

— في جبّانة باب الصغير .

— لا أصدق . قم أرنيه .

فنهضا معاً الى جبانة باب الصغير وأراها قبره . قالت احفر لأرى ، فحفر عن الولد ، فلما رأته انقلبت سحنتها وهاج الغضب في نفسها وأصبحت كالبوة المفترسة ، وانقضت كالصاعقة على الوحش القاسي فطعنته بخنجر كان معها أعدته لهذا الغرض فبعجت بطنه ومزقت أحشاءه ودفعته في حفرة ابنها وهالت عليها التراب . ورجعت توّاً الى دار رئيس شرطة الملك العادل (المعتمد ابراهيم) وقصت عليه ماجرى لها من أوله الى آخره .

فتردد في صحة قولها ونهض للحال مع بعض رجاله وأخذها بصحبته

الى مقبرة باب الصغير ونبش القبر فرأى المتهم الكبير الشرير مضطجعاً مع البريء الشهيد الصغير ، فتعجب جدّ العجب مما رآه وهاله دهاء هذه المرأة وجرأتها . فالتفت اليها قائلاً « أحسنت والله ، وينبغي لنا كلنا أن نشرب على اسمك كاس الفتوة »

وان تعجبتم أيها السادة من خبر طم الجثتين ودفنها في الحفرة فاني محدثكم بخبر جرى في دمشق فيه طم ودفن عجيبين أيضاً :

ذلك أن شيخاً صالحاً من شيوخ دمشق (واسمه الشيخ شمس الدين محمد بن الكمال ، شيخ المدرسة الأشرفية بجبل قاسيون (مات سنة ٦٨٨ للهجرة) . كان هذا الشيخ يوماً يحفر في داره بالصالحية وتعاونه زوجته فعثر على جرّة ملأى بالذهب ، فما كان منه إلا أن أقنع زوجته بلزوم طم الحفرة على الجرة وابقائها حيث هي مدفونة في التراب وقال لزوجته : « هذا المال فتنة . وله مستحقون لانعرفهم » فوافقته زوجته على طم الجرة ودفنها حتى يأتي المستحقون فيأخذوها .

كيف رأيتم أيها السادة أليس في طم الحفرتين درس لنا يزيدنا بصيرة في معرفة الحالة الاجتماعية التي كان عليها أجدادنا ويجعلنا نلمس جانباً من جوانب نفسياتهم وحالاتهم الادبية والاخلاقية ؟

* * *

نرجع الى خبر جارنا الملك العادل مع معتمده ابراهيم :

رحل العادل الى مصر وجعل من هناك يكتب الى معتمده بلزوم مراقبة ابنه وليّ عهده (المعظّم) وكان المعظم يومئذ في ريعان الشباب وتضارة العمر . فكان بتأثير رفاقه الشبان عليه — يمارس أحياناً بعض أسرار الليل مما لا يرضي الله ولا أباه الملك العادل . فكان المعتمد يشدد المراقبة عليه حسب وصية أبيه الملك ويتبعه بالجواسيس أو رجال التحري كما تقول اليوم حتى ضايقوه فاغتاظ ولي العهد منهم ومن رئيسهم المعتمد . وصبر حتى صار

ملكا . فكان أول شيء فعله أن اعتقل ابراهيم في قلعة دمشق . وأراد أن يبطش به بسبب من الأسباب ، فدقق حساباته فلم يجد أنه دخل على ذمته ولا ذمة أولاده وحاشيته مقدار حبةٍ من خردل .

ثم مات هذا المعتمد رحمه الله في ٢١ ذي القعدة سنة ٦٢٣ هـ عن ثمانين سنة من العمر ودفن في تربته في جبل قاسيون بعد أن تقلد رئاسة الشرطة نحو خمسين سنة .

فنعم الرجل الصالح كان هذا المعتمد . وحبذا إيمانه وأخلاقه ورزقنا الله مثله .

غير أنهم عابوه في شيء واحد ، ذلك أنه كان اذا سجن أحداً نسيه في الحبس فتطول مدة سجنه .

ويظهر أنه ما كان في زمنهم (مفتشية) سجون فيبحث عن حالة المسجونين وينظر في جرائمهم والمدة التي حكم عليهم بها . وقالوا : ان الله جازاه على نسيانه المسجونين بأن نسيه الملك المعظم حينما سجنه في القلعة نحو خمس سنين .

هذه هي مناقب جارنا الملك العادل . وآثار عدله وسهره على مملكته وراحة رعيته .

وإذ قد ذكرنا لكم إن حقوق الجوار وثيقة بيننا وبين هذا الملك فيحسن أن نلم بذكر شيء من مبتدأ خبر هذا الجوار . وانه لم يقتصر على بنائه هذه المدرسة العادلية ودفنه فيها ، بل ان الأمر أقدم من ذلك : فان هذه البناية الواقعة أمام المدرسة العادلية (والتي تسمى اليوم المدرسة الظاهرية) كانت هي مع الحمام الذي بجانبها قبل ذلك داراً اسمها دار العقبي(١) ، وكانت من دور دمشق وقصورها المشهورة في التاريخ وقد ملكها نجم الدين أيوب

(١) جاء في تاريخ (النجوم الزاهرة) في حوادث سنة ٣٧٨ هـ مايلي : وفي هذه السنة توفي أحمد بن الحسين بن أحمد بن علي بن محمد العلوي الدمشقي ويعرف بالعقيقي وهو صاحب الدار المشهورة في دمشق وكان من وجوه الأشراف جواداً ممدحاً مات بدمشق في جمادى الأولى اهـ

ابن شادي والد السلطانين صلاح الدين والعادل ، وما يدرينا أن السلطانين المذكورين وُلدا أو نشآ فيها .

وبعد وفاتها بقيت تسكن هذه الدار أختها الست (ربيعة خاتون بنت أيوب) حتى ماتت في شعبان سنة ٦٤٣ هـ عن عمر يزيد على الثمانين . وكانت ربيعة آخر من بقي من أولاد أبيها أيوب وأدركت من محارمها وأولادهم وأولاد أولادهم أكثر من خمسين رجلاً كلهم ملوك :

زوجها ملك اربل ، أولاد ابنها ملوك الموصل ، ابن أخيها ملك خلاط ، ابن أخيها الآخر ملك الجزيرة الفراتية ، أولاد اختها ملوك الشام ، اخوتها (صلاح الدين والعادل وأولادهم) ملوك مصر والحجاز واليمن .

هؤلاء الملوك الخمسون كلهم محارم لربيعة خاتون التي كانت تسكن في جوارنا في دار العقيقي حيث المدرسة الظاهرية .

فكم لهذه الدار من شرف باذخ ومنزلة عالية في تاريخ دمشق ، وأين قبر هذه الملكة حتى نزوره وندعو الله أن يجعل حظها في دار الآخرة مثل حظها في دار الدنيا ؟

ان قبرها في مدرستها التي بنتها في سفح الجانب الشرقي من جبل قاسيون وتسمى مدرستها المدرسة الصاحبة (أو الصاحبية) .

وأول من درّس في مدرستها هذه الشيخ (ناصح الدين الحنبلي) وكان لهذا الشيخ بنت اسمها (أمة اللطيف) وكانت شيخة عالمة فاضلة لها تصانيف ، وقد قضت معظم حياتها في خدمة الملكة (ربيعة خاتون) وكانت ربيعة خاتون تحب الشيخة . وقد نالت الشيخة بسبب هذه المحبة أموالاً عظيمة من الملكة ، والشيخة هي التي أشارت على الملكة ببناء مدرستها (الصاحبة) المذكورة . فبنتها (أي الملكة) ووقفتها على الشيخ ناصح الدين الحنبلي والد الشيخة وعلى أتباعه الحنابلة الذين لهم يومئذ مركز اجتماعي كبير في دمشق . وكان الاحتفال بافتتاح هذه المدرسة يوماً مشهوداً حضره الجمع الغفير من الخاصة

والعامة ، وشهدته الواقفة الملكة (ربيعة خاتون) نفسها من وراء الستر .

ولكن بعد أن توفيت ربيعة خاتون لحق المسكينة الشيخة أمة اللطيف الحنبلية ضرر عظيم من الامراء أرباب النفوذ والطمع فمدوا أبصارهم الى أموالها الكثيرة وحبسوها في القلعةمدة ثلاث سنين واستصفوا أموالها . ثم أفرج عنها وتزوجها الملك الأشرف صاحب حمص . ولكن لا نعلم هل تزوجها الأشرف لعلمها وفضلها ؟ أو لمالها وكنوزها ؟ فانه وجد لها بعد موتها بدمشق جواهر وذخائر نفيسة تقارب ستمائة الف درهم غير الأملاك والأوقاف.

وتوفيت (أمة اللطيف) سنة ٦٥٣ هـ أي بعد وفاة صاحبتها ربيعة خاتون بعشر سنين . ودفنت في مدرستها التي بنتها هي أيضاً في الجانب الغربي من سفح قاسيون تحت جامع الأفرم .

الأميرة ربيعة والشيخة (أمة اللطيف) كلتاهما من الجنس اللطيف . اللاتي لاتخلو أعمالهن من ملاحة وتناسب وكل معنى ظريف :فأنت ترى ان الاميرة شيدت مدرستها في الجانب الشرقي من جبل الصالحية وكذلك الشيخة بنت مدرستها مقابلها في الجانب الغربي . الأميرة سمت مدرستها (الصاحبة) إشارة لصحبتها للشيخة ، والشيخة سمت مدرستها (العالمة) اشارة لعلمها وفضلها الذي بواسطته نالت شرف الصحبة للاميرة ربيعة خاتون .

* * *

طالت زيارتنا لجارنا الملك العادل والوقوف على أطلاله واستطلاع أخباره وآثاره . فلنرجع الى حيث كنا — الى (تحت القلعة) ولنتعرف بقية خبرها .

نعم أيها السادة يجب علينا أن نسرع الى تحت القلعة لا في زمن الملك العادل بل في زمن الصالح ايوب لنرى من مشاهدها مشهداً مؤلماً مثّله الظالمون على مرسحها . فندوّن خبر ذلك المشهد في مذكراتنا التاريخية عن دمشق قبل أن نبرحها إلى فلسطين .

* * *

وقع في دمشق حادث خطير قامت له الناس وقعدت : ذلك أنه قتل أمير من أمراء الصالح أيوب ملك مصر . والصالح أيوب هذا هو حفيد الملك العادل أي ابن ابنه وقد توفي سنة ٦٤٧ هـ .

وقد كثرت الأراجيف بسبب قتل ذلك الأمير وجعل الناس يتهامسون بينهم تهامساً يلمح من خلاله أن للقتل سراً مخيفاً . فكان أحدهم اذا حدث صديقه بما يعلم من سر الحادث استكتمه الخبر وترجى منه أن لاينقله عنه .

ولم يمض على مبدأ الشائعة بضعة أيام حتى انكشف سرها ووضح أمرها . وأخبرنا رب مثوانا (أي صاحب الدار الذي كنا ضيوفاً عليه) أن القاتل مملوك من مماليك الأمير المقتول ، وهو صبي تركي بالغ . وبعد أيام قالوا : ان ولاة الأمور قرروا صلب ذلك الغلام تحت القلعة .

وجعل الناس يتحدثون بخبر المملوك جهاراً بعد أن كانوا يتحدثون به سرا . وأخذ بعضهم يقص على البعض الآخر من أخبار هذه الحادثة وأحوال بطلها ماحملنا على تأخير سفرنا لنرى ماسيكون :

ثم أعلن ولاة الأمور أن تنفيذ القصاص سيكون تحت القلعة يوم الجمعة الواقع في ١٦ من شهر ربيع الأول سنة ٦٤٦ هجرية .

فلم يعد للناس حديث إلا حديث ذلك المتهم وانتظار اليوم الموعود ، وزادنا رغبة في شهود ذلك اليوم تلك الأوصاف العجيبة التي كانوا يصفون بها المتهم ، فانهم كانوا يصفونه بصفات الأولياء والقديسين وانه من عباد الله الصالحين . الذين جمعوا بين الشجاعة وحسن الأخلاق والدين .

وقالوا عنه : انه كان غزا مدينه عسقلان في فلسطين وحارب الافرنج الصليبيين حواليها وقتل منهم جماعة . مع أنه في سن من العمر لايجرؤ من كان مثله على مثل ما أقدم عليه . وقالوا أيضاً : أنه هاجم يوماً من الأيام أسداً وقتل الأسد ، وقالوا أيضاً . أن مولاه الأمير اشتراه بألوف من الدراهم ، وإنه كانت لهذا المملوك نفس أبية . وقوة شديدة .

ولم ينبلج صباح ذلك اليوم المشؤوم حتى بكر أهالي دمشق وفلاحو القرى التي حواليها الى تحت القلعة وانسابوا نحوها زرافات ووحدانا ، صغاراً وكباراً . نساءً ورجالاً . وقد تأخرنا نحن قليلاً فعانينا مشقة عظيمة حتى أمكننا الوصول الى مكان تنفيذ القصاص ، فاذا الأعواد منصوبة على حافة نهر بردى تحت القلعة في آخر سوق الدواب .

وعند الظهر أتت رجال الدرك بالقاتل واذا به من أجمل الصبيان وأحسنهم وجهاً وأطولهم شعراً .

فاخذوا يعلقونه على الأعواد وجعلوا وجهه مقابل الشرق وكان مكشوف الرأس وذؤابة شعره مسترسلة من وراء ظهره .

وقد سلم نفسه للقصاص من دون جزع ولا هلع ، ومد يديه فسمرتا ثم سمرت عضداه ثم رجلاه ، وهو ينظر من دون أن يتأوه أو يتغير وجهه أو يحرك شيئاً من أعضائه ، وانما كان ينظر الى رجليه وجانبيه : تارة يميناً ، وتارة شمالا ، وأحياناً ينظر الى الناس ، وبقي ساكناً صابراً حتى مات . وقد استسقى ماء فلم يسقوه مع أن مياه بردى كانت تنساب تحت قدميه وهو ينظر اليها . ويتحسر على قطرة منها يطفيء بها حرارة جوفه .

فكان الناس يكثرون من الحوقلة واظهار الرحمة والشفقة على هذا الصغير . الذي يعذب هذا العذاب الكبير . وزادهم حسرة وأسفاً عليه مذ رأوا الرياح تلعب بذؤابته المسترسلة على ظهره ، وكانت أحياناً تلقيها على صدره فيجعل الغلام يتناولها بفمه ويعبث بها بشفتيه . يتلهّى بذلك ويتشاغل عن ألمـــه .

وسمعنا الذي بجانبنا يقول : إنه أصبح اليوم ناوياً للصيام وقد صلبوه وهو صائم .

ثم انفض الناس من حوله في منتصف الليل وبقي معلقاً وحوله الحراس الى يوم الاثنين ثم أنزلوه في ضحى ذلك اليوم وقد رأيناه اتفاقاً ونحن

مارون الى المدرسة الحسامية فشاهدناه وقد اسودت أعضاؤه . وتغيرت محاسنه فاكثرنا من الدعاء له والترحم عليه . وما يدرينا أن يكون مات شهيداً وقد قالوا انه انما قتل سيده لأنه كلفه أمراً ينكره العقل والدين . والله يغفر لنا أجمعين .

وبقي الناس طوال هذا الاسبوع يتحدثون بأخبار الفتى : من ذلك أنهم رأوا له منامات صالحة . وأن نوراً غشّاه قبل موته . وان أول يوم صلبه كان يشكو العطش ثم قواه الله وأنزل عليه الصبر وسكن عطشه .

وكنا نجتمع في دار مضيفنا مع من يزورنا من أهل دمشق فنقضي الليل في السمر والحديث عن ذلك المملوك الشهيد .

فأخبرنا أحدهم انه سمعه ثاني يوم صلبه وهو على الاعواد يقول : انني سُقيت البارحة شراباً أذهب عني العطش ، ثم لم يعد يطلب ماء حتى مات . وقال آخر : ان الله عجل عليه بالموت تخفيفاً ، والا فان جماعة كانوا يصلبون ويتأخر موتهم عدة أيام وليال . وقال آخر : إن الناس لاحظوا أيضاً أن الغلام في ثاني يوم صلبه أصابه شبه اختلال بعقله فلم يعد يحس بألم ولا عطش . وكان يتكلم بغير انتظام وكانت تصدر منه ألفاظ دالة على اختلاله وكان قبل ذلك يغلب عليه النعاس ثم ينتبه مذعوراً لشدة الألم ويذكر الله تعالى فتتقطع قلوب الناس حسرة عليه . وقال بعضهم : إن واحداً من الحراس الموكلين به سأله عن حاله ثاني يوم أو ثالث يوم صلبه فكان جوابه : « طيب مع الله » . ولما سمّروه على الأعواد لم يسمعوا منه سوى كلمة واحدة وهي قوله للجلاد حين دق المسمار في عضده فصادف العظم فقال له : (يافتى تجنّب العظم) . قال وبلغني أن الجلاد الذي سمّره توفي في ذلك اليوم او الذي بعده وهذا من عجائب ما اتفق . وأخبروا الغلام قبل أن يموت بوفاة ذلك الجلاد الذي عذبه وآلمه وأن الله جازاه على سوء فعله .

فاجابهم الغلام وهو في غمرات الموت (الجلاد في حِلٍ مما فعل ولا ذنب له

وانما الذنب على من أمره بذلك)[1] وأخبرنا رجل ثقة قال : إنه سمع الغلام وهو مصلوب يترجى الناظرين اليه أن يبتعدوا عنه لانه يريد أن يريق الماء. ففعلوا حتى أراق الماء ، وبالغوا في أمر قوته ، وصلابة جسمه ، حتى قالوا أنه كان يحرك رجليه وهما مسمرتان . فلم يزل يحركهما حتى اتسع الخرقان اللذان فيها المسماران فصار يدير رجليه حول المسمارين ، ولولا شدة تعلق المسامير بالخشب لكان نزعها من مكانها .

وكان يقول (ليَ يومان ماصليت) يقول ذلك كالمتأسف على ما فاته من الصلوات .

وهكذا قضى أهل دمشق أياماً يتناقلون الحديث عن هذا الفتى الشهيد . وكانت أحاديثهم لاتخلو من مبالغة كما هو شأن الناس عند حدوث حادث غريب مثل هذا .

* * *

ثم جاءنا صاحب المنزل الذي كنا فيه فقال لنا إن جماعة من فتيان الشاغور سيجتمعون سراً في هذه الليلة في دار أحدهم ويقيمون الأذكار ويقرأون القرآن عن روح الفتى الشهيد . وسألنا اذا كنا نحب أن نشهد هذه الحفلة السرية .

فقلنا كيف لا ونحن انما جئنا بلدكم لنرى أحوالكم ونخبر عاداتكم .

وبعد أن صلينا العشاء صبرنا قليلاً ثم تسللنا خفية الى حي الشاغور

---

[1] وتذكرنا فتوى هذا المصلوب بالمصلوب الخارجي عروة بن أدية الذي قتله عبيد الله بن زياد بن أبي سفيان في من قتل من الخوارج سنة ٥٨ ﻫ (راجع تاريخ ابن جرير طبع أوربا المجلد الثاني والقسم الثاني ص ١٨٥ و ١٨٦) فقد روى ابن قتيبة في كتاب عيون الأخبار (جزء ١ ص ٣٣٧) عن أبي اليقظان قال : اخذ عبيد الله بن زياد عروة بن اديه اخا ابي بلال فقطع يديه ورجليه وصلبه على باب داره فكان عروة يقول لاهله : انظروا هؤلاء الحرّاس للوكلين بي فاحسنوا اليهم فانهم اضيافكم) اه .

ودخلنا دار الميعاد فاذا جمع غفير من فتيان دمشق ومعظمهم من الشاغور والعمارة والعقيبة . وكان يتخللهم بعض المعممين من شبان الشيوخ . أما المسنون فكانوا يحذرون غضب الحكومة عليهم فلم يشهد الحفلة منهم أحد ، ثم بعد أن ختموا الذكر وأتموا قراءة عدة ربعات من القرآن وأهدوا ذلك الى روح الشهيد قام طالب علم ناقم على الظالمين وتلا قصيدة في رثائه وكان ينشدها بصوت حزين وهذه هي :

ومنفرد من فوق أعواد صلبه ... يجود بنفس صانها خوف ربه
تسمرت الأعضاء منه فلم يطق ... سجوداً فأوما للسجود بقلبه
تمكنت الآلام منه مسمّرا ... فمات . وكان الموت أيسر خطبه
يُرى واحداً والناس من حول جذعه ... وعطشان والأنهار تجري بجنبه
فياحسرةً منه على شرب قطرةٍ ... لقد طار ذيّاك الشراب بلبه
وعريان إلا من غلالة حسنه ... ومكشوف شعرٍ كم تباهى بسحبه
تجول رياح الجوّ فيه وتعصف السوافي عليه كل ترب بقربه
وتشرق شمس الأفق من حسن وجهه ... وقد زال ذاك الحسن مذ أشرقت به
لقد بدّلت تلك المحاسن اذ غدا ... أحق بها منها فنادت بحربه
فيالك ممنوعاً من الماء جارياً ... تفتّتت الأكباد من عظم كربه
ويا لك مصلوباً بظلمٍ وقسوة ... تقطعت الأحشاء من قبح صلبه
ويبرد في الليل البهيم فيشتكي ... نهاراً : فواهاً للمقرّ بذنبه
وياعجباً ممن أشار بصلبه ... ألا اعجب وخبّر عن قساوة قلبه
صبيٌّ صغيرٌ فائق الحسن ناسكٌ ... شجاعٌ له الاقدام في يوم حربه
صبورٌ على هذي الشدائد كلها ... إلى أن أتاه الموت قاض بنحبه

* * *

استدراك

بعد نحو عشر سنوات من إلقاء هذه المحاضرة كنت أطالع تاريخ بغداد لابن الفوطي فمرت فيه ص ٤٨٨ في حوادث سنة ٦٩٤ هـ بحادثة صلب غلام يشبه هذا الغلام في بعض ما كان وهو على خشبة الصلب وبين الحادثتين ٤٨ سنة

وهذا ما جاء في تاريخ الفوطي المسمى الحوادث الجامعة (وفيها - أي في سنة ٦٩٤ هـ - قتل ببغداد رجل اعجمي يعرف بتاج الدين ابن الدامغاني بدرب حبيب واتهم بقتله جماعة من مجاوريه فأخذوا وحبسوا . فحمل الحماة «الشرطة» بقية النهار - قاتله وهو صبي أمرد من الدرب المذكور فاعترف بقتله من غير أن يضرب وقال : ان ابن أخي للقتول أعطاه ولآخر معه مئة دينار على أن يقتلا عمه . وأدخلها دارا كان يخلو عمه فيها فلما دخل عمه الدار وسط النهار على عادته نزلا اليه وقتلاه . فأحضر ابن اخيه فاعترف بذلك فصلب وأما الصبي القاتل فضرب في يديه مسامير الى لوح وراء ظهره وطيف به بجانبي بغداد ثم سمر بباب السور وعمل عليه بقية الشمس ؟ ليطول عذابه فبقي أياماً لايظهر عليه جزع بل يطلب من النظارة أنواع المآكل والفواكه وغيرها ويحادثهم ويتطارف(١) عليهم ويطلب من الناس شيئاً (٢) لأجل من يرش الماء حول خشبته ويقول : « في عزمنا لا نقيم هذه السنة ههنا » ثم قتل بعد ذلك على خشبته وهو قوي الجنان حتى قال الذي يريد أن يقتله إضرب ضربة جيدة في مكان كذا ففعل اه .

(١) لعله من الطرفة وهي للملحة أي يحدثهم بملح الأحاديث ولا يوجد تطارف بل يوجد تظارف من الظرف بالمعجمة ومعنى يتظارف عليهم يسمعهم ظريف الكلام وكهيئة .

(٢) أي من المال ليعطيها أجرة لمن يرش حوله الماء دفعاً للغبار واستجلاباً للرطوبة .

الزباء أو زنوبيا ملكة تدمر*

الزباء أو زنوبيا هما اسمان ابتزباي ملكة تدمر ، واثبتت الملك في منتصف المئة الثالثة بعد المسيح ، وقد أطلق عليها العرب اسم الزباء وعرفت باسم زنوبيا عند الرومان ، وهي من أشهر شهيرات العالم القديم ، ولا يعرف من النساء من بلغ مبلغها في العزيمة والاقدام ، وشدة البأس وسمو الاخلاق ، وحسن السياسة وعزة النفس ، ولا يفتري المؤرخ المنصف على التاريخ اذا وضعها في طليعة أعاظم الابطال ومشاهير الرجال ، ارتقت بفضل مواهبها الى ذروة المجد وأضافت الى التاريخ صفحة شرقية شريفة خلدتها أعمالها النبيلة ونضالها المجيد ، ومفاداتها الجسيمة في سبيل الذود عن حياض ديارها وحرية بلادها .

إن كان الحظ قد خانها في ادراك غايتها وقهر أعدائها فانها فازت بالصيت الحميد والذكر الخالد ، فكانت في سلطانها خير من ولي ، وفي محنتها خير من بلي ، فلم يخدعها اقبال ولا أذلها ادبار . لقد سلبها الخصم سعادة الملك ولكنه عجز عن أن ينال من عزة نفسها أو يجد اليها سبيلاً ، أنفت من كل محاولة تحفظ لها عرشها ، وأعرضت بإباء عن كل مساومة ذليلة ، فلم ينفع معها وعد ولا وعيد ، وأبت الا أن تقي لشعبها بما نذرت له نفسها ، حياة عزيزة واما ميتة شريفة وقد اختارت المنية على الدنية .

ولابد لنا قبل أن نبحث حياة الزباء وتاريخها من أن نستعرض أخبار تدمر القديمة وأدوارها السياسية وحالتها الاجتماعية ، لندرك حقيقة جهاد بطلتنا ، ونحكم على مراميها النبيلة .

(١) محاضرة ألقاها الاستاذ جعفر الخليلي في ردهة محاضرات المجمع العلمي العربي في ١ ايار سنة ١٩٤٢ .

أجمت الكلمة على مكانة تدمر الأثرية واشتهر أمرهـــا في أقطار العالم ، ودعيت بحق عروس الصحراء بلا مبالغة ولا إغراق ، وقد افتتن دي فوكويه (de Vogué) بآثارها بقوله : « سيبقى اسم تدمر أبد الدهر فتنة الألباب » . وأصبح اسم تدمر اسماً عالمياً كرومية وآثينة والقسطنطينية وأنطاكية وبيت المقدس والاسكندرية مع أنها دون هـذه العواصم منزلة وأحدثها عهداً . خلد التاريخ ذكراها مع أن مثيلاتها من مدن الديار الشامية كبعلبك وجرش وأفاميا وبصرى ووادي موسى (البتراء) وغيرها من أمهات المدن قد اهمل أمرها بعد أن أفل نجمها وخمل ذكرها وأصبحت نسياً منسياً على حين كان بين هذه المدن مايضاهيها ثروة وفخامة وجمال بناء ، وتاريخها حافل بالذكريات ، ولذلك أصبح لزاماً علينا أن نبحث في الخصائص التاريخية والاقليمية التي تحلت بها تدمر حتى احتفظت دون سواها بهذه الشهرة الواسعة .

تدمر مدينة قديمة أطلق عليها الرومان اسم بلميرة (Palmyra) واحتفظ العرب باسمها الآرامي القديم أي تدمر ، وتقع الى شرقي حمص وسط واحة ، بينها وبين دمشق نحو من (٢٣٠) كيلومتراً ، وماؤها غزير ، وتحيط بها بساتين نخيل وزيتون ورمان ، وتنتج أرضها بعض الحبوب وبعض البقول وفي جوارها مملحة واسعة كان ملحها من أهم موارد تدمر ، وقد أحسنت استثمار حراج شجر البطم التي كانت تكسو معظم جبالها وتستخرج منه زيت البطم وقد عبثت الايدي بهذه الحراج ولم يبق منها اليوم سوى النذر اليسير .

لم يزل حقيقة تاريخ انشاء تدمر مجهولاً لدينا وكذلك تاريخها قبل العهد الروماني ، الا أن الكلمة مجمعة على قدم عهدها . فقد ورد ذكرها باسمها الآرامي (تدمر) في بعض النصوص الآشورية التي يرجع عهدها الى الألف الثانية قبل المسيح كما ورد ذكرها في سفر أخبار الايام الثاني من الكتاب المقدس الذي كتب في المئة الثانية قبل الميلاد ، ونحل هذا السفر

بناء تدمر سليمان النبي وهذا يدل على أنها وقتئذ كانت زاهرة عامرة والا لما نسب بناؤها الى هذا الملك العظيم منشىء هيكل بيت المقدس الشهير والذي يخلونه بناء كل صرح عجيب ومصنع جليل متى جهلوا حقيقة أمره .

وأما تاريخها في العهد الروماني فقد اتصل بنا خبره من مصادر قديمة وحديثة عديدة ، ومما اكتشف من آثارها ، واتفقت هذه الوثائق على ماوصلت اليه تدمر من ثراء وحضارة وعمران . ومن عرف عظمة أطلال تدمر وصروحها الشامخة أيقن بمجدها الغابر ونسبها العريق .

حاول انطونيوس القائد الروماني المعروف وعشيق كليوبترا ملكة مصر أن يغزو تدمر المستقلة سنة (٤١) قبل الميلاد طمعاً بثروتها المشهورة يومئذ ولكنه باء بالفشل ومني جيشه بهزيمة شنعاء ، وقد أطال هذا الفوز أجل استقلال تدمر عشرات السنين قبل أن يحل بها مصيرها الأليم .

كان السواد الاعظم من أهل تدمر في الأعصر القديمة من الآراميين لهم لغتهم وكتابتهم ، وقد انضم اليهم بعد أحقاب جماعات من العناصر السامية الاخرى المجاورة لهم ومن أبرزهم العرب والانباط وكان لهم كيان وشأن واحتفظوا باسمائهم العربية : كوهبلات وأذينة وزبيدا وتيما وعزيز ومعين ومقيمو وكهيـل وصفة التصغير فعيل وفعيلة هي من خصائص اللغة العربية دون سواها من اللغات السامية ، وجلبوا معهم آلهتهم : كلات والعزى ورضو وشيعة القوم .

لا نعرف نوع الحكم الذي كان في تدمر في ذاك العهد ونجهل النظم الاجتماعية الخاضعة لها تلك العناصر ، ويرجح أن الحكم السائد بينهم حتى المئة الأولى بعد المسيح كان يختلف عما صار اليه فيما بعد ، لم نجد أثراً لسلطة مدنية عليا ولا شريعة شاملة بل كان النظام السائد أقرب الى تقاليد البادية منه الى القوانين المدنية . فكان أهلها شيعاً وأحزاباً يخضع كل منهم لرئيس ، والنفور مستحكم بينهم ، يتنازعون السيادة ويتنازعون لأتفه استفزاز ، ولذلك نصب أهالي تدمر في سنة ٢١ م . تمثالاً لأحدهم

تكريماً له لانه أصلح ذات البين بين فريقين متنازعين من أهالي تدمر ، كما أننا عثرنا بين الكتابات التدمرية على عشرات من أسماء القبائل والعشائر العربية التي كانت تنزل تدمر يستدل منها على أصول هذا القوم وقرب عهدهم بالحياة البدوية التي توارثوا عنها تقاليدها وتأصلت فيهم عاداتهم القديمة .

وكان نطاق تدمر الاقليمي ضيقاً للغاية ولا يخضع لسلطانها سوى بقعة صغيرة تشمل خلا حاضرة تدمر بعض البادية الشرقية وقسماً من الجبال الغربية ويختلف عدد سكان هذه المنطقة بين المائتي ألف والثلاثمائة ألف نسمة .

وبلد هذا شأنه لايرجى له مستقبل سياسي عظيم ولامطمع له بمركز دولي خطير ، لاسيما اذا كان بجوار دول عظمى قوية الشكيمة مرهوبة الجانب كما هو شأن تدمر منذ أقدم عصورها مع من جاورها من الأمم وخاصة الرومان والفرس .

أدرك التدمريون حقيقة حالهم وأدركوا ضعف كيانهم وقلة مواردهم ورأوا من المتعذر أن يكتب لهم البقاء إلا بمصانعة جيرانهم الاقوياء وخطب ودهم وعطفهم حتى يسمح لهم بطلب الرزق في بلادهم ، فسلكوا هذا المسلك وجنوا من ذلك فوائد اقتصادية عظيمة ، فكان منهم جاليات في أهم المراكز التي تسلكها القوافل التجارية بين خليج فارس والبحر المتوسط وبهذه الطريقة جمع بعضهم ثروة طائلة عادوا بها الى تدمر وحملوا معهم حب البذخ والترف الذي ألفوه في البلاد التي أثروا فيها وعمدوا الى التنافس في تشييد الابنية العظيمة ، وكلما زادوا ثروة تأنقوا بالبناء حتى أصبحت تدمر في مصاف أمهات المدن تقدماً وعمران .

ان عرفت الديار الشامية بانها ملتقى الامم فتعتبر تدمر منفذهم ومفترق طرقهم ، يسيرون منها الى جميع العالم المتمدن ، فهي أفضل مركز تجاري للديار الشامية من ناحية الصحراء الشرقية ، تقع بين منتصف الطريق بين بحر الروم المتوسط ونهر الفرات المتصل بخليج فارس ومنه طريق الهند ،

وهي محط رحال القوافل التجارية القادمة من الشرق والغرب ، لصدر منها محصولات الشام ومصنوعاته ومنتوجات رومية وغيرها من بلاد الغرب ، ويحمل اليها كل ماتستورده الشام والقارة الاوربية ومصر من خيرات بلاد فارس والهند والصين ، فهي والحالة هذه همزة الوصل بين الشرق والغرب . أيدت الحفريات الأثرية في تدمر هذه الحقيقة فقد عثر أثناؤها على مصنوعات موطنها أقصى بلاد الغرب ومنسوجات حملت اليها من أقصى بلاد الشرق .

أدرك التدمريون في مختلف الادوار السياسية الميزة التي خصت بها الطبيعة تدمر فعملوا جهدهم لاقتطاف أفضل ثماره ، فامنوا السبل وسهلوا المواصلات للقوافل والعربات وبذلك ذللوا البوادي والقفار كما ذلل من قبلهم الفينيقيون لجج البحار . وقد وضعت تدمر حينما تدرجت في النظم الادارية والاقتصادية نظاماً جمركياً شاملاً لجميع السلع التجارية ، ضمنت به حقوق المصدر والمستورد على السواء وأمنت بذلك لخزانتها مورداً ثابتاً ، وهكذا اتجهت اليها الانظار وتحولت نحوها القوافل ، فقضت بذلك على منافسيها من المدن وخاصة البتراء والحيرة وكان لهما وقتئذ شأن عظيم لقرب الاولى من القطر المصري والبحر الاحمر ، وقرب الثانيـــة من خليج فارس وجزيرة العرب .

وغدت تدمر بثروتها مضرب الأمثال وتطاولت اليها الأعناق وطمع في ثروتها المجاورون والجيران وتنازعتها رومية وفارس ، يخطب كل منها ودها ويرغب أن يفوز وحده بصداقتها . وقضى هذا الصراع على ازدهارها وعكر صفو هنائها وعجل في دمارها وهي في ريعان شبابها وعنفوان مجدها وحل بها القضاء من حيث لاتحتسب .

وكان لتدمر أيضاً شأن عسكري كبير يضمن للسيطر عليها فوائد لايستهان بها . فهي بحكم موقعها الجغرافي الحامية الامامية لهذه الديار من ناحية حدودها الشرقية وحصنها المنيع الذي تدفع به غارات المعتدين وتتحطم على أسواره قوة المهاجمين . وهي من أهم مراكز حشد الجيوش وتعبئتها

لوفرة مائها وكثرة زادها ، وطريقها أفضل الطرق لكل من يريد غزو بلاد الشام من حدودها الشرقية .

اشتهر التدمريون بشجاعتهم وشدة بأسهم في الحروب وكانوا من أمهر رماة عصرهم وأفرسهم وأسرعهم كراً وفراً ، وعرفوا بجلدهم العظيم على تحمل مشاق السفر في البوادي والقفار ومعرفتهم مسالكها وطرقها وآبارها فلا عجب أن تنازعت رومية وفارس سيادتها وسعى كل منها الاستيلاء عليها لتكفل له التفوق في النضال .

بذلت تدمر في المئة الاولى للميلاد جهدها لتحقيق وحدتها القومية والسياسية والمحافظة على استقلالها وابعاد خطر جيرانها عنها ، فصانعتهم بحنكة ودهاء وحافظت على حيادها التام وعقدت علائق الود مع فارس ورومية على ما كانا عليه من العداء الشديد والمنافسة على السيادة العالمية .

وأدركت تدمر وهي الشديدة الحرص على حريتها وسلامتها ماهي صائرة اليه وانه أصبح من المتعذر عليها أن تنعم طويلاً بهذا الاستقلال مادامت فارس ورومية لها بالمرصاد وانها ستصبح عاجلاً أو آجلاً طوعاً أو قسراً فريسة لاحداهن وانها عاجزة عن دفع خطر عدو عظيم يفوقها عدداً وعدة وان الحكمة تقضي عليها أن تتدارك أمرها وتختار اهون الشرين وتنحاز بارادتها للجانب الذي توسمت الخير فيه ، فاختارت لذلك رومية وريثة الدولة اليونانية والمسيطرة على بلاد حوض البحر المتوسط ، فتقبلت تدمر انفسها مصير اخواتها من بلاد الديار الشامية التي تربطها بها صلات قومية وفوائد مادية واقتصادية كبيرة .

وهكذا نرى تدمر في النصف الاخير من المئة الاولى بعد الميلاد قد دخلت طوعاً في نطاق نفوذ رومية ، وسلكت هذه الاخيرة معها سياسة رشيدة وعاملتها معاملة بعيدة عن كل تعصب أو استفزاز وحبتها دون سواها برعاية خاصة أمنت به على مصيرها الجديد ، فتركت لها حرية العمل في ادارة شؤونها الداخلية واحترمت شعورها القومي وتقاليدها ، وشاركتها

في تكريم آلهتها وتشييد معابدها واحتفظت تدمر بلغتها الآرمية على شيوع اليونانية في الربوع الشامية المجاورة . ولم تتأثر علاقاتها التجارية مع الأقطار المجاورة والبلاد البعيدة بل ساعدتها رومية على توسيع نطاقها الاقتصادي الى حد لم تعهده من قبل وتمتعت تدمر في ظل حمايتها ورعايتها بأزهى عصورها وبلغت الغاية في جميع مرافق الحياة . وهذا ماحمل تدمر أن تخلص الود لرومية ، وأقبل أفرادها يتطوعون في الجيش الروماني ونظمت منهم كتائب وزعت على جميع المستعمرات الرومانية ، وقد عثر على آثارهم في فرنسا وايطاليا وافريقية الشمالية وضفاف نهر الطونة حتى بلاد المجر . ولم تهمل رومية نوعاً من ضروب الاغواء إلا سلكته مع تدمر . وزارها القيصر أدريانوس في عام ١٢٩ م تكريماً لها ومنحها اسمه وأصبحت تعرف في الوثائق الرسمية باسم ادريانة تدمر . وهكذا اكتسبت تدمر ثقة رومية وأكدت صداقتها باخلاصها لها والاشتراك معها في حروبها والدفاع عن ممتلكاتها ، حتى توصلت إلى أرفع مراتب المستعمرات المستقلة ادارياً . ويمكننا القول بان العهد الروماني كان بجملته من أحسن الأدوار التي مرت على تدمر ، فقد نمت مواردها وزادت ثروتها واتسع عمرانها حتى فاق في بعض النواحي عظمة رومية عاصمة العالم القديم . وعملت على تنظيم شؤون تدمر الادارية والمالية على نحو ماهو عليه الحال في رومية . وأنشأت لها حكومة دمقراطية تستمد سلطانها من هيأتين شرعيتين وهي مجلس الشيوخ والمجلس البلدي ، ولذلك لم تشعر تدمر بوطأة سيادة الرومان اذ كان ضعيف الأثر لاسيما في عهد الملوك الشاميين الذين تولوا عرش رومية ، ولهذا لم تر تدمر غضاضة ببسط هذه السيادة عليها وقد قبلت رومية سيطرة الملوك الشاميين عليها وهم الياجبل وسيبتموس ساويرس واسكندر ساويرس وفيليبوس العربي . ومن البديهي أن يكون لهذا التسامح أثره الطيب في نفوس الشاميين الذين كانوا يعتبرون أنفسهم شركاء رومية بالحكم لا من أتباعها ، ويعتبرون الامبراطورية الرومانية وحدة منسجمة بين الشرق والغرب ولولا هذه العقيدة ما أخلص

التدمريون هذا الاخلاص وأعرضوا عن الفرص العديدة التي سنحت لهم لاستعادة حريتهم لاسيما حين هزم الفرس الروم ودحروهم الى شواطىء البحر المتوسط ، ولو قلبت لهم تدمر وقتئذ ظهر المجن وآزرت الفرس لتمكنوا من طرد الروم من تدمر والشام وبقية بلاد الشرق ، ولكن على عكس ما كان ينتظر منها فقد ساوءت لنجدة الروم التثأر لهم من الفرس ونحو العار الذي لحق بجيشهم كأن هزيمة رومية هي هزيمتها تشاركها الأتراح وتهلل لها في الأفراح .

ومازالت تدمر تدرج في المئة الأولى والثانية ميلادية في معالم الرقي والعمران وتسير حالها من حسن الى أحسن دون أن يمكر صفوها حادث الى أن دهب الوهن في كيان الامبرطورية الرومانية بعد موت القيصر سبتيموس سيروس ، وخرج عليها بعض عمالها وقوادها وأضرموا نار الفتن في مختلف ممتلكاتها في آسية وأوربا وأفريقية حتى بلغ عددها نحواً من عشرين ثورة في خلال فترة قصيرة ، وعجزت عن اخمادها وخسرت بعض ولاياتها ومع ذلك بقيت تدمر على ولائها لرومية تتمتع بالسعادة وتنعم بالسلام المخيم على ربوعها وتعمل على كسب المال وانفاقه بسعة في سبيل البناء الى أن ظهرت في سنة ٢٣٠ م على مسرح السياسة الأسرة العربية أسرة آل أذينة التي آل اليها حكم تدمر وأتمنت على مقدراتها ، فنفخت بابناء تدمر روحاً جديدة ودفعت بهم الى المعترك السياسي لتخرجهم من عزلتهم الطويلة فقادتهم هذه الأسرة من نصر الى آخر وانتصرت جنود تدمر بقيادة ملكها أذينة زوج الزباء حيث فشلت حملة الروم بقيادة قيصرها فالريانوس (Valerien) الذي أسره سابور ملك الفرس واستسلم اليه جيشه ، وجاء التدمريون فهزموا الفرس واكتسحوا بلادهم ودخلوا عاصمتهم فاصابوا فيها غنائم عظيمة واستردوا عدداً كبيراً من أسرى الروم . وكان لهذا النصر أثره الحميد في نفس الامبراطور غاليانوس ابن القيصر الاسير ووجد في أذينته خير نصير وأصدق حليف فاشركه بالحكم ولقبه أمبراطوراً وعهد اليه حكم جميع الولايات

الشرقية ماعدا مصر والأنضول . وأمره على الجيوش الرومانية في بلاد الشام وجزيرة العرب ، فعمل أذينة على اخماد الفتن الناشئة في تلك البلاد وبسط سلطانه وأعاد للحكم هيبته وللجيش سطوته حتى أصبح مرهوب الجانب يخشى الجوار بأسه وتخاف الرعية شدة بطشه . ولكن المنية عاجلت هذا الرجل العظيم في سنة ٢٦٦ م . قبل أن يدرك غايته . اغتالته في حمص يد أثيمة مع ابنه وولي عهده حيران وهو ابنه من زوجة غير الزباء ودبر هذه المكيدة ابن أخيه معن ليفوز بملك عمه ، وقضى أذينة نحبه وهو في عنفوان مجده وترك ملكه قبل أن يتم بناؤه وتتوطد أركانه ، محفوفاً بالاخطار ، لانه قام في حالة استثنائية وحققته مغامرات جريئة لاتؤمن عواقبها ، وتوقع بعضهم سرعة انهيار هذا الصرح وانه زائل بزوال مؤسسه لاسيما وقد خلفه في الحكم طفل قاصر وزوجة فتية لم يسبق لها ممارسة حكم ولا تعودت سياسة شعب وهما وهبلات وامه الزباء .

وفي هذه الظروف الحرجة ظهرت على المسرح بطلتنا الزباء أرملة أذينة . فعهدت بالحكم لابنها القاصر وهبلات وتولت وصايته . وقد نسب اليها بعضهم المؤامرة التي ذهب فيها زوجها وولده لتقضي عليها وينتقل الامر لها ولابنها . وأثبتت الوقائع فساد هذا الزعم وأن القاتل هو أحد أقارب القتيل ، أقدم على جريمته بدافع منفعة شخصية ومصلحة ذاتية ، وهذا يبريء الزباء من وصمة هذه الجريمة الشنعاء . ويستنتج من تتبع الحوادث أن المكيدة دبرت من قبل الأوساط الرومانية المتطرفة ودفعت القاتل لارتكاب جريمته ليتخلصوا من أذينة وطموحه خشية أن يؤول عرش رومية اليه كما سبق في عهد القياصرة الشاميين . ويؤيد ذلك موقف حكومة رومية من الزباء وابنها ، فقد منع القيصر غاليانوس عن الملك الصغير الالقاب والامتيازات التي منحت لوالده وسعى أن يحط من شأنه ويضعف نفوذه ، وحاول أن يقتطع منه الولايات التي أخضعها أذينة لسلطانه ، وهنا ظهرت مواهب الزباء وبدأ من يومه النضال بين تدمر ورومية ،

فأبت الزباء أن تفرط بأقل حق من حقوق ولدها وأن تتنازل عن أي جزء من ميراثه ، فكانت مثال الوصي الأمين والمدبر الحكيم . فنادت بابنها ملكاً وتولت هي وصاية عرشه وتدبير ملكه .

ليس لدينا حتى الآن وثائق يركن اليها لمعرفة نسب الزباء وتاريخ ولادتها ، وعرفنا أنها كانت حين مقتل زوجها في مقتبل العمر لم تتجاوز سنها العقد الثالث ، وعرفت حقيقة اسمها واسم أبيها من كتابة تدمرية ورد فيها اسمها « بتزبي بنت انطيوخس ووالدة القيصر ملك الملوك وهبلاّت » .

وقد ذهب مؤرخو العرب في سيرتها ونسبها مذاهب عديدة خلاصتها : « أنه كان في أيام جذيمة الأبرش بن مالك اللخمي رجل يقال له عمرو ابن الظرب بن حيان ابن أذينة بن السميدع بن عويز من العماليق ، وكان ملكا على الجزيرة وأعمال الفرات ومشارف الشام ، جرى بينه وبين جذيمة حروب فانتصر جذيمة عليه وقتله وشتت شمل قومه وأجلاهم من بلادهم . ولكنهم عادوا وجمعوا أشتاتهم وحشدوا جموعهم وولوا عليهم الزباء ابنة عمرو فنذرت نفسها للأخذ بثأر أبيها فنصبت لجذيمة المكائد ودعته اليها وقتلته ، غير أن عمرو بن عدي خليفة جذيمة قد احتال عليها بواسطة قصير بن سعد وحاصرها في قصرها على الفرات ، ولما يئست من النجاة وأيقنت بالهلاك عمدت الى سم كان في خاتمها فابتلعته قائلة : « بيدي لا بيد ابن عدي » ، وماتت لساعتها .

وزعم غيرهم أن أصلها روماني تعرف العربية . وذكر الميداني في مجمع الأمثال أنها ولدت في باجرمي . وقال ابن قتيبة انها ابنة ملك العراق تزوجت الملك الذي قتله جذيمة . واختلفوا في اسمها فمنهم من قال أنها سميت فارعة ومنهم من ادعى أن اسمها نائلة وذهب بعضهم الى أنها تدعى ليلى ، وقال آخرون أنه كان اسمها ميسون . وقد أجمعوا على أنها كانت أجمل نساء عصرها ولم يعرف بينهن من هي أقوى حزماً منها ولا أرجح عقلاً .

إن هذه الروايات غريبة وهي أقرب للخيال منها للحقائق التاريخية غير

أنه لانشك بان المقصودة في كل ما أوردوه هي نفس الزباء ملكة تدمر ، لأن هذه الحوادث معاصرة لها ، فقتل جذيمة الأبرش نحو سنة ٢٦٨ م أي بعد سنة من تولي الزباء عرش تدمر . ولا ينفي اختلاف اسم الأب بين عمرو وأنطيوخس الى ماذهبنا اليه فلدينا شواهد عديدة ممن اتخذ له من أعيان تدمر اسمين أحدهما سامي تدمري والآخر أجنبي روماني ، ونعتقد أن الزباء قد احتفظت في الكتابة التدمرية الرسمية باسم أبيها الأجنبي وهو أنطيوخس وحفظ رواة العرب الاسم السامي وهو عمرو .

وليس من سبيل والحالة هذه أن نعتمد في أخبار الزباء على المصادر العربية وحدها بل يجب الرجوع الى ماقاله مؤرخو الرومان واللاطين ، نخص منهم بالذكر : وبنيكوس (Vopiscus) وتريبوليوس بوليون (Trebellius Pollion) وزوزيم (Zozime) وزونوراس (Zonoras) والاعتماد على الوثائق التاريخية الخطية التي اكتشفت في تدمر وغيرها وفيها أصدق الانباء .

لم نعثر حتى الآن على ما يكشف لنا حقيقة أصل الزباء ومن أي الفروع السامية تنحدر ، والأرجح بان أسرة آل أذينة هي أسرة عربية نزحت اليها من جزيرة العرب ، ولا يبعد أن تكون الزباء عربية الأصل أيضاً حتى اختارها أذينة زوج له . والمعروف عن خاصة العرب بانهم يصطفون زوجاتهم ويفضلون العربيات من عشيرتهم على سواهم من الأجنبيات حرصاً على نجابة النسل ونزعة العرق .

قبضت الزباء على دفة الحكم في تدمر وهي في ريعان الشباب وأقدمت عليه في أحرج الأوقات ، وقد دب الانشقاق في البلاد ، واستهان بها وبولدها الأعداء ، ونازعها الملك قاتل زوجها ، وأنفت الزباء أن تستعين بالرومان وتصانعهم لتفوز بمساعدتهم على توطيد ملك ابنها القاصر لعلمها أن تلك الأيدي قد تلطخت بدم زوجها واعتبرت رومية مسؤولة عن هذه الجريمة وأبت أن تستنجد بالفرس وهم أعداء زوجها بالأمس وكرهت هذه

الحياة حرمة لذكرى زوجها وحفظاً لكرامة نفسها . فأصبحت والحالة هذه وحيدة لامعين لها ولا نصير ، تحيط بها المكائد والدسائس ، ويهدد ملكها منافسوها في الداخل وأعداؤها في الخارج .

وفي هذه الحالة ووسط هذا الجو القلق انقلبت هذه النعجة الوديعة الى لبؤة خطيرة ، فاوجدت الزباء من اليأس أملاً ومن الوهن عزيمة ومن الاستكانة عزة وشهامة ، فشمرت عن ساعد الجد وقبضت على زمام الحكم بيد من حديد فألغت المجالس التمثيلية واستأثرت بجميع السلطات وفازت بحكمتها بتأييد العشائر والقبائل فكونت منهم نواة جيش نازلت به خصومها في الداخل وقضت على جميع مكائد منافسيها ، ولما تم لها ماتريد وصفا لها الجو وأخلص لها الشعب الذي أعجب بها والتف حولها ، وشاع ذكرها في المشرق وتطلعت اليها الأنظار وعقدت عليها الآمال ، وفاخر الجميع بحزمها وتفانوا بفضائلها وشهامتها وأعجبوا لمواقفها المشرفة . عادت تنظيم بلادها وتقوية جيشها إلى أحسن ما كان عليه في عهد زوجها .

ولما تم نجاحها واطمأنت لاخلاص رعيتها جاهرت بحقيقة نيتها نحو رومية وعاملتها معاملة الند للند وقارعتها الحجة بالحجة غير هيابة ولا وجلة ، فشق ذلك على الرومان وتمثلت لهم أشد خطراً من زوجها ، فحملوا القيصر غالينوس على إذلالها وتأديبها وتقويض أركان ملكها ، فسير اليها جيشاً عظيماً ، فصمدت له جيوش الزباء وقاتلته قتالاً شديداً وتغلب جيشها على الرومان وقتل قائدهم هرقليانوس ودحروهم ، ومنذ هذه الهزيمة الشنعاء فقدت رومية نفوذها في الشرق وضعفت هيبتها وانقطعت روابط الود بينها وبين أصدقائها بالأمس . وقد تحملت رومية على مضض وصمة العار الذي لحق جيشها متحينة الفرص لمحوه . ولما قتل القيصر غالينوس في سنة ٢٦٨م وخلفه كلوديوس استغاث به مجلس شيوخ رومية وطلب اليه أن يضع حداً لتصرف الزباء ويحول دون أطماعها ولكنه عجز عن اجابة طلبهم لاشتغاله وقتئذ باخماد الفتن القائمة في ممتلكاته في أوربا وصد هجوم الخوارج في بلاده .

وبينما كانت رومية تعاني هذه الصعوبات في بلادها استأنفت الزباء اصلاح بلادها وتنمية مواردها واغتنمت الفرصة السانحة فجاهرت باستقلال بلادها وضربت السكة باسمها واسم الملك ابنها وهكذا أصبحت السيدة المطلقة في بلادها لا منازع ولا رقيب . وعمدت ارضاء لمختلف العناصر الخاضعة لسلطانها أن أدخلت في بلاطها أشخاصاً من ذوي المكانة منهم ممن عرفوا بآرائهم الصائبة وعلمهم الجم واخلاصهم فاستعانت بهم لتحقيق أغراضها ، ومن أعظمهم الفيلسوف ينجينوس الشهير الذي فادى بحياته في سبيل خدمتها . والعالم القدير بولس بطريرك كرسي أنطاكية . فكانت تزلج لمشورتها وتعمل بنصائحها . وأبدت تسامحاً عظيماً مع جميع المذاهب والاديان ، فكان السلام يرفرف على رعاياها جميعاً لا فرق بين أحد منهم على حين كانت تهرق دماء المسيحيين واليهود في رومية وما جاورها من البلاد وتستحل أموالهم .

أنست الزباء من نفسها القوة الكافية لنزع سيادة رومية من بقية بلاد الشرق فجهزت على مصر حملة بقيادة قائدها زبدا . وكانت الحرب بينها سجالاً فاستولت الجيوش التدمرية على مصر فاتسع بذلك ملك تدمر وفازت بموارد جديدة عظيمة ، وأصبحت بعد استيلائها على وادي النيل مسيطرة على جميع منافذ المواصلات التجارية بين الشرق والغرب ، واحتكرت لنفسها الأسواق مع الهند . وما كادت تنهي الزباء من حملتها على مصر حتى وجهت جيشاً الى آسيا الصغرى لتحريرها من الرومان فاستولت عليها ، وتم لها بذلك ملك مترامي الأطراف يضم الديار الشامية وبعض الجزيرة العربية ومصر وآسيا الصغرى . وأدركت بهذا الفوز رغبتها وشددت بذلك الخناق على رومية وحرمتها أهم موارد ثروتها وسلبتها الاسواق التجارية وكانت هذه المحنة أعظم هزيمة نزلت في تاريخ رومية فاقضت مضجعها وأيقنت بزوال الشرق من يدها ، ولو كان تأخر مجيء القيصر أورليانس الى منصة الحكم ومنازلته الزباء لكان لتدمر غير هذا الشأن ، لحققت أطماعها وبسطت سلطانها على الشرق والغرب وأصبحت الزباء أمنع من أن تصل اليها أيدي أعدائها

ولم يحل ما حل بها على يد هذا القائد العظيم الذي قضى على آمالها وحملها الى رومية أسيرة صاغرة بعد أن كانت تطمح بدخولها فاتحة ظافرة .

مات القيصر كلوديوس عام (٢٧٠) م . وخلفه بالحكم أورليانس ذاك القائد الذي ذاع صيته واشتهر بمحاربته الخارجين والعصاة وعقدت عليه رومية الآمال ليعيد لها هيبتها المفقودة ويدعم ملكها المتصدع .

ورأى أوريليانس من الحكمة أن يصانع الزباء ليوقف زحفها نحو الغرب ريثما يستريح من حروبه ويجمع شمل جيوشه ويجهزها لحرب طويلة الأمد فعرض عليها سنة (٢٧٠) م . صلحاً ضمن لها فيه السيطرة على البلاد التي استولت عليها وأطلق يدها في الشرق واعترف لها بالألقاب التي انتحلتها لنفسها ولابنها وأن تضرب سكة مشتركة ينقش على وجه تمثال قيصر رومية وعلى الآخر تمثال ملك تدمر رمزاً لوحدة الامبراطوريتين الشرقية والغربية وكان هذا الصلح اعترافاً من رومية بتقسيم الامبراطورية الرومانية الى قسمين مستقلين تربطها وحدة شكلية واستقلال اداري .

انخدعت الزباء بصدق نيات القيصر واخلاصه لهذا الاتفاق الذي ضمن لتدمر استقلالها ووحدتها ولذلك لم تتردد في قبول هذا العرض وتوقيعه آملة أن يحل الوئام محل الخصام وتعود الصداقة بينها الى سابق عهدها كما كانت عليه أيام زوجها أذينة فتأمن جانب الرومان وتتحول بقوتها نحو الشرق وتتوسع في بلاد الفرس ويمكنها عندئذ أن تعتمد على مؤازرة رومية التي تضمر للفرس عداوة شديدة .

ولكن سرعان ماخاب أمل الزباء وظهرت لها حقيقة مانطوى عليه هذا الصلح وما كان يخفي وراءه وعرفت بانه خدعة وهدنة تتمكن رومية خلالها من معالجة أمورها وبعدها تتفرغ لمنازلة الزباء ومحاسبتها حساباً عسيراً . ولما شعرت الزباء بهذه الخيانة وتأكدت من الغدر نقضت الصلح في عام (٢٧١) م . ونادت بابنها وهبلات قيصراً ، وأبطلت النقد المشترك وانفردت بنقدها . وهذا كان مذير الحرب بين الفريقين .

وجهز أورليانس جيشين أبحر الأول الى مصر بقيادة القائد فروبوس (Probus) فتصدى له الجيش التدمري بقيادة القائد زبدا وقاتله قتالاً شديداً وكاد يستظهر عليه لو لم ينقلب عليه جماعة من أهل مصر انحازوا الى الرومان فسببوا هزيمة التدمريين وضياع مصر . وتوجه الجيش الثاني بقيادة القيصر نحو آسيا الصغرى فعبر البوسفور ، فتقدمت الزباء على رأس جيشها لمحاربته ولما رأت أنه يتعذر عليها القتال في جبهتين متباعدتين فانتظرت قدوم العدو اليها قرب أنطاكية واكتفت بمناوشات بسيطة تعرقل بها سيره وتستدرجه نحوها منهوك القوى بعيداً عن قواعد امداده ومراكز تموينه ليسهل عليها القضاء عليه . وما كاد العدو يبلغ أنطاكية حتى حملت عليه جيوش تدمر حملة صادقة ودارت بينهم معركة عظيمة استبسلت فيها الزباء وانهزم الرومان ولحق بهم فرسان تدمر يطاردونهم حتى ابتعدوا عن سواد الجيش الذي أصبح منقسماً الى فرقتين ضعيفتين . وعندها جمع العدو جموعه وارتد على خصومه وألقى الذعر بين صفوفهم فانهزموا مولين وجوههم نحو حمص حيث لحقت بهم الزباء ، فجمعت شمل جيشها وأعدت العدة لمنازلة العدو في سهول حمص ولحق بها الرومان فاستقبلتهم الجيوش ودارت رحى معارك دامية كادت أن تدور الدائرة على الرومان ولكن حنكة أورليانوس العسكرية وخبرته الواسعة في الفنون الحربية قد تغلبت على شجاعة الزباء وبسالة جنودها ، فهزمهم الرومان . ولم يبق للزباء أمل الا أن تلتجيء الى حصنها الحصين ومعقلها المنيع قبل أن يحدق بها العدو ويلتحم الجيش الروماني القادم من الجنوب الذي استولى على فلسطين وفينيقية بالجيش المنحدر من الشمال فتؤخذ بين نارين . وهكذا انسحبت الى عاصمتها وهي مؤمنة بانه سيتحطم أمام أسوارها المنيعة قوة كل مهاجم مهما بلغت قوته واستعداده وسيكون لها من بعد المسافة وصعوبة السير في الصحراء ووطئة حرها خير حليف لاذلال خصمها وانهاك قواه ، وهذا مالاقاه القيصر يوم بلغ تدمر فوجدها أمنع من عقاب الجو فاستقبل سكانها جيوشه برمي الصخور

ورشق السهام حتى طال به الحصار وخاف نفاذ المؤن والزاد فعمد الى مسالمة الزباء ودعاها للاستسلام وبعث اليها بهذه الرسالة :

« من القيصر أوريليانس ملك العالم الروماني وسلطان المشرق الى الزباء وأصحابها يحتم عليك الواجب أن تنصاعي الى ما ادعوك اليه بهذه الرسالة وتستسلمي الى الرومان فتضمن سلامتك ويعفى عنك ، ويسمح لك بمجلس الشيوخ الأعلى بالاقامة مع ذويك في مدينة يختارها لكم ، وان تقدمي لخزانة رومية كل مالديك من جواهر وذهب وفضة ومتاع وجياد وابل ، وأنا أتعهد لك بسلامة حقوق رعيتك التدمريين . »

فاجابته على ذلك بهذه الرسالة :

« من الزباء أمبراطورة الشرق الى اورليانس القيصر ، ان ماالتمسته مني بكتابك لم يقدم على مثله أحد قبلك ، وكأنك تجهل أن كليوبترا قد آثرت الموت الشريف على الحياة الذليلة ، واني منتظرة قدوم نجدة الفرس والارمن والعرب لقهر جيوشك والقضاء عليها ، ان كان صعاليك الشام وحدهم قد تغلبوا عليك فما بالك اذا قاتلتك مع حلفائي وعندئذ تندم وتنزل عن غطرستك التي حملتك أن تطلب مني المحال كأنك غالب ومنصور في كل زمان ومكان . » فبهذه الانفة كان جواب الزباء لقيصر رومية وما أبلغه من جواب في روحه ومعناه يصور لنا عزة نفس هذه الامرأة وجبروتها وماصممت عليه من اقتفاء أثر كليوبترا فلا تدع العدو يظفر ، والمنية عندها أهون من الدنية .

ولما وصل جوابها الى الرومان شددوا عليها الحصار بعد أن وصلت اليهم مؤن ونجدات وصار في وسعهم اطالة أمد الحصار . وقد كتب القيصر الى مجلس الشيوخ يبرر فيه موقفه من طول الحرب جاء فيه : « .. يعيب علي البعض محاربتي امرأة ولكن تيقنوا أن الزباء في قتالها أشد بأساً من الرجال ... » . ولما يئست الزباء من وصول النجدات اليها جمعت قوادها وأطلعتهم على عزمها على الخروج من تدمر بنفسها مهما كلفها الأمر لتستفز

القبائل وتجمع الجموع وتأتي بهم لنجدتهم ورفع الحصار عنهم وحضتهم على المقاومة والقتال . واقتحمت ليلاً نطاق الحصار غير مبالية بالأخطار وتوجهت نحو الفرات حيث منازل العرب الاوفياء فشعر بها الرومان فلحق بها فرسانهم وقبضوا عليها وأعادوها الى قيصرهم في تدمر . ولما عاتبها أورليانوس على استخفافها بقوة قيصر رومية . أجابته : « نعم اني أعترف الآن بانك قيصر دون سواك وانك قد تغلبت علي . » وقد اعجب القيصر بعزة نفس الزباء وأجابها الى ماطلبته منه من تأمين أهل تدمر على أرواحهم وأموالهم . فاستسلمت تدمر الى الرومان في عام (٢٧٢) م بعد أيام من أسر الزباء ثم رحل عنها اورليانس بعد أن ترك فيها حامية يبلغ عددها نحواً من (٥٠٠٠٠) جندي مستصحباً معه الزباء وبعض زويها .

وما كادت تبتعد جيوش الرومان عن تدمر حتى ثارت الحمية التي غرستها الزباء في نفوس أهلها وعز عليهم هذا المصير فانقضوا على الحامية الرومانية وأبادوها . ولما بلغ القيصر ذلك سير اليها جيشاً كبيراً ودام تدمر وأعمل بها الجند السلب والنهب والقتل ، ودكوا حصونها وخربوا قصورها وتركوها خراباً يباباً تشكو أطلالها الى الأبد ظلم الانسان وجوره .

استقبلت رومية قيصرها الباسل بحفاوة رائعة وأقامت المهرجانات العظيمة وشاهد أهل رومية استعراض الغنائم وجموع الاسرى وفي مقدمتهم الزباء مطوقة بسلاسل من ذهب مثقلة بالحلي والجواهر . تسير في كبرياء رافعة الرأس . فشخصت اليها الأبصار وتطاولت اليها الاعناق وخشعت لها القلوب لمصيرها ورثاها الجمهور لجمالها وجلال ملامحها وحياها اعترافاً ببطولتها وخصصت لها حكومة رومية قصراً جميلاً على ضفاف نهر التيبر (Tibère) تقضي فيه بقية أيامها بين أهلها وذويها وتبكي حرية بلادها المسلوبة وتندب مصير شعبها البائس . ولم تندم على ملكها الضائع ولا عزها الزائل . فهذا ماركضته لنفسها في سبيل قيامها بالواجب الذي خلده لها التاريخ وخلد معها اسم تدمر الى قيام الساعة .

وهكذا ياسادتي وسيداتي طويت أعظم صفحة من صفحات التاريخ وأصبح ماحل بها حديث الألسن والرواة .

واذا استعرضنا من عرفنا في النساء لم نجد بينهن من عمل عمل الزباء وجاهد جهادها . فقد نبغت في وسط الصحراء ونالت فيها قسطاً وافراً من الثقافة أضافتها الى متانة الاخلاق . وكان قصرها ندوة العلماء وعاصمتها ملجأ المضطهدين . جمعت بين حنان الامومة وحكمة المرشد ، ودهاء الملوك وبأس الجنود ، ولا أدل على ذلك من وصف المؤرخ الروماني زوزيموس لها بقوله : « ان سيرة ملكة تدمر هي سيرة بطل لا سيرة امرأة . »

وقد نقل عن الزباء أنها انتسبت الى سميراميس وكليوبترا من الملكات الشرقيات اللواتي اشتهرن بجمالهن ووقائعهن التاريخية . وعرف عن الزباء بانها اتصفت بأفضل صفات النساء من حصانة وعفاف ، حتى قال عنها المؤرخون من أعدائها بانها بلغت في ذلك مالم تبلغه امرأة قبلها مع ماهي عليه من جمال ولطف وقد وصفها تريبوليوس بقوله . « ان جمال ملكة تدمر يفوق كل وصف ، فترى لون وجهها ضارباً الى السمرة ، وحدقة عينيها سوداء كحدقة النسر ، ويلوح على شخصها سمات القدرة ودلائل الحزم وأمارات الانس واللطف مايدهش العقول ويفتن الابصار . وأما لون أسنانها فأبيض براق كأنها درر جمان . »

وكانت تفاخر بكليوبترا وتعجب بخاتمتها المؤلمة الجريئة ولكن أين بطلتنا من تلك . فادت كليوبترا بملكها وعرشها في سبيل شهواتها وسلمت بلادها الى عدوها لتفوز برضاء عشيقها وجلاد شعبها ، أما الزباء فقد زهدت بسعادتها في سبيل المحافظة على ملكها وسعادة شعبها .

ومع هذا كله فقد مجد الكتاب والشعراء والمؤرخون والشاشة البيضاء ذكر كليوبترا وجعلوها في مصاف الابطال مع ما ارتكبته من المخازي والآثام نحو شخصها وبلادها وأهملت الزباء مع ما تحلت به من الفضائل والمكرمات . وهذا لعمري من الغرائب بمكان .

ويجدر بنا أن نتخذ الزباء وجهادها المثل الاعلى للنساء العربيات ، ومن واجب أدبائنا وشعرائنا أن لايغمطوها حقها وأن يتباروا لاحياء ذكرها والاشادة بمزاياها انتصاراً للمروءة والفضيلة وتقديراً للوطنية الصادقة . وسيرتها برهان محسوس على ماتستطيع المرأة الشرقية بل العربية تحقيقه في الحقل الوطني والمساهمة في اعلاء شأنه اذا عني بثقافتها الصحيحة واحسن توجيه مواهبها النبيلة الى ما فيه خير البلاد وسعادة الوطن .

وكيفما بحثنا في سيرة الزباء لانجد فيه الا عظة وعلماً . وعليها يصدق قول الشاعر :

ولو كان النساء كمن ذكرنا لفضلت النساء على الرجال

حياة العلامة احمد تيمور باشا*

(ذكريات شخصية)

مبدأ التعارف ونشأة وأخلاقه

لما هبطت مصر أول مرة في سنة ١٩٠١ أرادني أحد أصدقائي وأظنه الاستاذ السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار على أن أزور أحمد تيمور بك وقال ان في بيته اليوم اجتماعاً يضم شيخنا الامام الشيخ محمد عبده وجماعته فبادرت شاكراً له دلالته ، فدخلنا داراً قوراءَ على الطراز القديم من البناء ، وكان في الجلسة طائفة من العلماء والادباء ، ومنهم فيما أذكر حسن باشا عاصم وقاسم بك أمين وفتحي باشا زغلول والشيخ عبد العزيز شاويش والشيخ محمد المهدي والشيخ حسن منصور والشيخ أحمد الاسكندري ولا أذكر إن كان في الجمع يومئذ سعد باشا زغلول وحفني بك ناصف واسماعيل باشا صبري ومحمود سامي باشا البارودي وعلي بك بهجت واسماعيل بك رأفت وعبد العزيز بك محمد والسيد محمد البيلاوي وحافظ بك ابراهيم والشيخ أحمد ابراهيم والشيخ عبد الوهاب النجار فان الجمع ما كان يقل عن عشرين رجلاً . وهؤلاء كانوا من حلقة الاستاذ الامام ومن أصدقاء أحمد تيمور بك .

تجلت لي يومئذ ظاهرة من ظواهر عظمة مصر بعظماء رجالها ، ورأيت

(*) محاضرة الاستاذ السيد محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي القاها في غرفة المجمع في آذار سنة ١٩٣١ .

عطفاً على غريب صعلوك شاب أكبرت معه بما شهدت تنامي المصريين في التأدب والرقة ، خصوصاً اذا كانوا من هذا الطراز الممتاز . ولقيت ذاك اليوم من أدب صاحب الدار مابهرني فانعقدت بيننا أواخي الاخاء . وهذا المجلس كان المرحلة الاولى التي فتحت أمامي الدخول في المجتمع المصري ، وتشرفت بعشرة هذه الطبقة المختارة . رحم الله من سبقونا الى الدار الآخرة ومد في أعمار الأحياء منهم . غدوت منذ ذاك اليوم أحرص على الاجتماع بأحمد تيمور وعيله والأخذ عنهم ، وانشأت أكثر سوادهم لاني استطبت عشرتهم .

وكان تيمور في ذاك الحين يقرأ على الشيخ محمد محمود الذكري الشنقيطي امام اللغة في عصره . وقال لي هذا مرة أنه لم ير في مصر من يفهم كلام العرب مثل الشيخ محمد عبده وأحمد بك تيمور ، وذكر شخصاً آخر أنسيته . وكان تيمور تخرج في صباه في دار أبيه باستاذه الشيخ رضوان المخللاتي ولازم أستاذه الشيخ حسن الطويل فيلسوف الازهر وشيخ شيوخها مدة طويلة ، فأخذ عنه العلوم الدينية والعقلية والادبية . واتصل بعد ذلك بعلماء عصره كالشيخ العدوي والشيخ الهوريني والشيخ الحسيني ثم مؤخراً بالشيخ طاهر الجزائري . ولكثرة ما استهوى قلبه حب الشيخ محمد عبده ابتاع بجواره في عين شمس داراً بحديقة جميلة ونقل اليها من العاصمة خزانة كتبه ولازمه ملازمة المستفيد المغتبط .

وما زالت الصداقة تزيد بيني وبين أحمد تيمور حتى كانت السنة التي انشأت فيها مجلة المقتبس في القاهرة غرة المحرم سنة ١٣٢٤ . وكنت أزداد اعجاباً مما أرى من أخلاقه وحرصه على الاستفادة من مجلس الامام محمد عبده واللغوي الشنقيطي وأضرابهما ممن يغشون مجلسه أو يلقى مجالسهم وأحس منه عزوفاً حتى عن بعض المشهورين ، وتحرزاً من مخالطة من لا يعرف ماضيه وحاضره . فكان وهو في تلك الحقبة من حياته بعيداً عن القوم قريباً منهم ، يهتم لسعادة أصحابه ويرمضه اذا نزلت بهم نازلة ، ويتبسط مع خاصته تبسطاً ما خرج فيه يوماً عن حدود الأدب والفكاهة ، وما تعدى

حواره البحث عن مافي الكتب مطبوعها ومخطوطها والنظر فيما يعلي شأن الاسلام والعرب ، وأخذ قبيل ذاك العهد يكتب آراءه وأبحاثه في جريدتي المؤيد والاهرام ومجلات المقتطف والضياء والهلال والمقتبس ثم السلفية والآثار والزهراء وغيرها . والغالب أنه كان يكتب في المناسبات أو متى أريد على معالجة موضوع غامض يحتاج الى درس أو يعرض ماعنده من المواد المهمة التي يستعان بها على ظهور الحقيقة .

وكان لاول عهدي به لا يبين رأيه في بعض معاصريه ، وان كان منهم لا تروقه حركاته وأفكاره ، هذا وهو على يقين من أن بعض الازهريين كانوا منذ أخذت تعظم شهرته ، يحسدونه ويصغرون من شأنه . ومنهم من كان يعده في البخلاء لأن أحمد تيمور على غناه وشرف بيته لا يهنأ له عيش إلا إذا أنفق ماله على العلم وعلى المعوزين من المساتير . وما عدا ذلك من أبواب النفقات ليس له فصل في موازنة بيته ، بل كان عيشه في الحقيقة عيش أهل الطبقة الوسطى ، مع أن ما أوتيه من اليسار كان يتأتى له به أن ينفقه في ضروب من البذخ والرفاهية يسمو به الى محاكاة الطبقات التي تماثله بغناه في القطر المصري .

قلت انه كان ينفق على المساتير وربما كان اقتصاده يعد امساكاً في نظر بعض من لايعرفون للمال قيمة (مجلة المجمع العلمي م ٤ ص ٢٤١) ولا يحكمون على أرباب المروءات الا بما يبدو من مظاهرهم وظواهرهم . فكان مايرمى به حسداً ولؤماً يترامى الى سمعه فيتسم ولا يفوه بكلمة . غيرت أيام وأعوام ثبت بعدها من طريق أحد المفضل عليهم أنه كان يدر المشاهرات على بيوت كثيرة في مصر ، قعد الدهر بأربابها فأعجزهم عن الكسب . فكان يرسل اليهم على رأس كل شهر مع أحد مستخدمي دائرته بما يقوم بنفقتهم سراً ويأبى عليه شرفه ودينه ومكارمه اذاعة ماتجود به نفسه ، فيتكتم بحسناته جد التكتم ، وقد أخذ العهود على من يحسن اليهم أن لايذيعوا له سراً . ولما اشتهر أمر صدقاته شق عليه ذلك فتظاهر

بأن أطيانه أصبحت لاتعطيه الربع الذي كان يأتيه منها وانه في ضائقة من المال اضطرته الى تخفيف نفقاته . وبعد مدة أصبح هؤلاء الذين عاشوا زمناً بنعمته يتناولون من المصرف حوالات مالية تأتي بأسمائهم وهم لايعرفون مصدرها بل أن المصرف ذاته لايعرف حقيقة مرسلها . فتأمل بربك هذه النفس الكريمة المسلمة وهذه الاخلاق التي لا تشهد مثلها في مئة غني من أغنياء زماننا .

حقيقة ان وجه الغرابة في تربية مترجمنا هو أنه أخذ من العلم أقصى ما يمكن أخذه لمن كان في اصالة بيته ، فاتقن من اللغات العربية والافرنسية وهذه درسها في مدرسة (مارسيل) مدرسة أبناء الاعيان خمس سنين ، وتلقف الفارسية والتركية على أساتذة خصوصيين ، ونشأ يتيماً في حجر اخته المرحومة عائشة عصمت التيمورية الشاعرة الأديبة المشهورة فجاء منه مع هذا الغنى رجل علم ورحمة وقصد وتدين وعزوف عن المظاهر والاشتغال فيما ينفع . ولو أراد لأول أمره على مالأبيه وجده من المنزلة عند الأسرة المالكة أن يدخل في المناصب الحكومية لخطبته الوزارات ولما تخطته الرئاسات والزعامات . ولكن كان نبوغه ينحصر في دائرة خاصة ولاتبعث مواهبه العلمية الانبعاث الذي قدر لها باشتغاله في جو هادىء لا تكدر صفوه مشاغب الاحزاب ولا متاعب السياسة وأهواؤها فاقتصد من وقته في هذه الناحية . وشغله طول عمره في ملاذ روحية من مطالعة وبحث وتأليف قلّ أن تتاح لكثير ممن شغفوا بالعلم ، وحاولوا استثماره افادته ولذته لا لمقصد آخر .

قلت كانت لابيه وجده المنزلة العليا عند الاسرة العلوية . جاء جده أحمد مع جد شاعر العصر أحمد شوقي بك الى مصر ، وكانا من أبناء الاكراد ، وجد مترجمنا من مدينة الموصل ، أرسلها والي عكا الى محمد علي الكبير وأوصاه بهما خيراً فلما ان النجابة بادية عليهما وانهما سيبلوان البلاء الحسن في خدمة الدولة المصرية ، فعين جد مترجمنا في وظائف انتهت به أن عد في آخر أمره من قواد محمد علي ، كان ابنه من بعده رئيس

الديوان الخديوي . وخلف أطياناً كان ما أصاب المترجم منها مع ما ابتاعه بأخرة من بقية الورثة نحو ثلاثة آلاف فدان ، وكان يتعهدها أحسن تعهد ولا تعوقه عن طلب العلم بل تساعده على اتمام رغائبه منه . وكم من أبناء الأعيان أمثاله من أورثهم آباؤهم الوف الافدنة فلم يحسنوا استغلالها وانتقوها بسوء تربيتهم في شهواتهم واسرافهم أو ضاربوا فاستدانوا فافتقروا أما هو فخالف جمهرة جيله فكان بالتربية الاسلامية العالية التي لقنها في صباه غنياً بماله ، غنياً بعلمه ، غنياً بتدبيره وعقله . تجردت نفسه الكريمة عن المطامع ، ومع هذا اقبلت عليه الدنيا من طريقها المشروع المعقول .

غرام بالكتب واقتناء مجموعها

عرفنا مما تقدم أن بيت تيمور كان بيت علم وفضائل ومجد تليد طريف . فلما نشأ عالمه هذه النشأة الطيبة ، رأى في داره خزانة كتب صغيرة لم تشبع نهمته العلمية فقام في نفسه منذ سنة ١٨٨٩ أن يقتني من المخطوطات والمطبوعات ماينلاءم موضوعه مع ماغلب عليه من العلوم ، ومايزال ينفق على اقتناء مجموعاته عن سعة وهو يطالعها ويعلق عليها ويخدمها بالفهارس والحواشي حتى تألف منها قبيل وفاته خزانة كتب تقدر بنحو ثلاثة عشر ألف مجلد ، عدا الصور التاريخية والآلات الفلكية ومحابر وأقلام كانت لبعض المشاهير ونحو نصف خزانته مخطوط أو مصور بالتصوير الجديد . وقد وضع لمخطوطاته قائمة جليلة كانت مرجعاً لكل طالب وطابع وناشر من العرب والمستعربين من علماء المشرقيات ، وقلما كان يضن بها على أحد يعيرها حتى الى البلاد البعيدة ، فاشتهرت في الشرق والغرب ، وعدّت بحق أهم خزانة خاصة في بلاد المشرق لغناها بمخطوطاتها النادرة ، ومنها عشرات من الكتب كتبت بخط مؤلفيها أو قرأ فيها أعلام من رجال السلف أو قرأت عليهم وعلقوا عليها وأجازوها .

أتيح لي أن أصف هذه الخزانة التيمورية في سنة ١٣٣٠ هـ وكانت

اذ ذاك نحو ثمانية آلاف مجلد . وكان صاحبها دعاني مع أستاذي العلامة المرحوم الشيخ طاهر الجزائري الى زيارتها في عزبته في قويسنا من عمل مديرية المنوفية في الدلتا وهي احدى مزارعه كان يؤثرها على غيرها لأن اباه وأمه كانا يحبان المقام في قصرها وينزلان فيها أياماً معدودة من كل سنة . ذلك أن أحمد تيمور اسودت العاصمة في وجهه بعد وفاة شيخه وصديقه الشيخ محمد عبده وزهد بعده بالدار التي كان اقتناها في جواره فرأى أن ينقل خزانته من عين شمس وحملها الى قويسنا ورتبها في خزانتها أحسن ترتيب فكان يفزع اليها كل حين ليطالع ويؤلف .

ولقد قضينا في ضيافته ثلاثة أيام كان خلالها يقرأ علينا أسماء الكتب المخطوطة واستاذنا الجزائري يتولى الترجيح في اختيار الأندر فالأندر ، فوصفت الخزانة اذ ذاك في احدى وعشرين صفحة في المجلد السابع من مجلة المقتبس . وقد قلت له يومئذ إن وجود الخزانة في داره بقويسنا لايؤمن عليها من الحريق ، لان الدار متلاصقة مع بيوت الفلاحين ، والفلاحون يضعون الخوص والعيدان على سطوح بيوتهم ، فاذا سرت النار الى بيت من البيوت لاتلبث العزبة وما اليها أن تحرق في ساعة . وفي ذلك من الخسارة على العلم مافيه . فاجابني أن في نيته أن يعمر لها داراً في مصر ينقلها اليها وعمرها ونقل الخزانة اليها بعد سنة ١٣٤٠ وكتب (في ٢ يونية ١٩٢٣) يقول : « ان الخزانة رتبت والحمد لله ولم يبق الا عمل فهرس جديد لها على الطراز الحديث في الجزازات ولابد لها من ثلاثة فهارس فني ومعجمي وآخر لاسماء المؤلفين فارجو أن يوفقني الله لمن يقوم بعمله لان اشتغالي به سيعطلني عما بيدي . » ثم وقفها ووقف عليها بعض أطيان تقوم بنفقاتها ، وجد وأي جد في ابتياع ماينقص مجموعته في كل علم من علم المطبوعات والمخطوطات ، وربما لا يقل ما أنفق عليها عن مئة ألف جنيه ، ثم نزل عنها للأمة المصرية الكريمة بل للعلم العربي الاسلامي فاعظم بها من مأثرة .

سعة علمه التي جعلته مرجعاً

توطدت صلات الحب والتشاكل في وحدة المقصد في سني ١٩٠٦ و٧ و٨ بعد نشري مجلة المقتبس فكان يؤازرني فيها ، ويعيرني كثيراً من مخطوطات خزانته أكتب في وصفها في المجلة ، فلما رحلت عن مصر الى دمشق في آخر سنة ١٩٠٨ بعد انشاء الدستور العثماني استعضنا عن المسامرة والمذاكرة بالمراسلة والمخابرة ، ولم تكد تنقطع رسائله أو رسائلي مدة قصيرة الا لمعذرة كمدة الحرب العالمية الكبرى ، وقد انقطعت المواصلات بين مصر والشام أربع سنين . وجدت في أضبارة خاصة برسائله اليّ مئة وأربعين رسالة عدا ما أرسله باسمي الى المجمع العلمي العربي مباشرة منذ أواخر سنة ١٩١٩ ومجموعة رسائله خلاصة علم ودرس وبحث عن المفقود أو الموجود من المخطوطات ومنها مشاكل في اللغة والأدب والتاريخ .

ولقد كنت منذ توطدت بيننا أواصر الصداقة التي زادها تمكيناً وجود أستاذي الشيخ طاهر الجزائري في القاهرة مدة ثلاث عشرة سنة وكان هو على اتصال وثيق به يعده أعز عزيز عليه بعد شيخه الامام محمد عبده — اذا عرض لي أو لبعض أعضاء المجمع إشكال لغوي أو تاريخي أو أحببت أن أعرف كتاباً في موضوع يهمني البحث عنه لا أجد من يشفي غلتي خصوصاً بعد فقد استاذنا الجزائري غير المرحوم أحمد تيمور . ومجموعة كتبه اليّ تؤلف مجلداً مفيداً جداً في هذه الابحاث . ولاسيما ما كان منها ذا علاقة بأسفار القدماء من الأسلاف فهو في هذا الموضوع المفرد العلم والصدر المقدم والبحاثة الواسع المادة ، البعيد النظر ، الصحيح الاستنتاج والاستقراء . ساعدته على ذلك جودة ذاكرته وتقييده في دفاتره كل ما يعثر عليه في الكتب التي يقتنيها ويصنف لها الفهارس التي تقرب منال الأخذ منها على أحدث طراز في هذا الباب .

رأيت كثيرين من غلاة الكتب من الشرقيين والغربيين وقل أن عرفت

مثله من اذا تكلم في الكتب كان كلامه عن ذوق وتحقيق . وذلك لانه يطالع كثيراً ويقيد كل ما يظفر به ولا ينسى ويحسن الاختيار ويجوّد النقد وقد كتبت له عامة أسباب النجاح في هذا الباب لانه عالم يعنى بتعهد علمه بالتنمية كل يوم ويجمع الكتب ويحرص على اقتناء نوادرها خصوصاً ، ويغلي لها الثمن معتقداً أنها هي الكنز الثمين . وكان اذا صارت الاسفار الى ملكه لايلقيها كما يلقيها أكثر هواة الاسفار ويبرد شوقهم اليها بمجرد تقليب صفحاتها والالمـــام بمضامينها أو بمجرد انتقالها الى خزائنهم فقط فتراهم يرجئون النظر فيها اذا ملكوها لتشاغلهم بأمر آخر أو لأنهم ممن يهوون حجمها وشكلها ويزهدون بما في بطونها . أما هو فيشرع حالاً بدرس مايقتنيه ويتناولها باليمنى فرحاً بمقدمها ، مقدساً لعمل مؤلفها مغتبطاً باقتنائها محملها بالتجلة ويودعها قمطره بالاعظام ، ولا يزال بها حتى يحفيها درساً بألفاظها ومعانيها . واطالما هنأني على ما كنت أظفر به من نوادر المطبوعات والمخطوطات كأنني ولد لي مولود أو أظفرني حسن الطالع بعزيز مفقود . وفي العادة أن يضن غلاة الكتب بكتبهم أما هو فقد تعود بسط الكف فيها لأن غايته منها نشر العلم واحياء آثار السلف . كتب إليّ مرة (٢٩ جمادى الثانية ١٣٤٢) يقول : « نقلت لك ترجمة الصدر الآمدي من مخطوطين نادرين عندي ولايبعد أن يكون السخاوي ترجمه أيضاً في الضوء ولست على يقين من ذلك لان نسختي استعارها أحد الأصحاب من ثلاث سنوات ولم تزل عنده ولا يريد ردها وكلما احتجت الى الكشف عن ترجمة أذهب الى عنده وأكشف عنها . » فتأمل هذا الشغف بنشر العلم وهذا اللطف حتى مع المتساهلين في رد الكتب الى أربابها ، وقد تكون مما لايقع عليه ثمن .

مثال من تهذيبه

لما صح عزمي على نشر كتابي « خطط الشام » كان يبعث اليّ في البريد بالنوادر من المخطوطات التي اطلبها او لا اطلبها ، عساني اظفر فيها

بجمل تدخل في موضوعاتي وكنت أعيدها الى مصر في البريد المضمون ، ولا ترتاح النفس الا إذا أخذت علماً منه بوصولها ، فأسدى بذلك اليّ يداً لا تنسى على وجه الزمان ، ومنها ما كان ينسخه بالتصوير الأبيض على الاسود ويرسلها هدية الى المجمع العلمي العربي وكثير مما في خزانة المجمع من هذه النوادر المصورة هو من هدايا أحمد تيمور ، ولطالما أهدى أصحابه ومن يعملون لمصلحة عامة أشياء من هذا القبيل ولم تؤسس في الشرق العربي خزانة كتب الا كانت هداياه اليها أول الهدايا لايضن في هذه السبيل بعشرات الجنيهات إذا أيقن من ورائها خدمة المسلمين والعرب .

ولما تم تأليف الخطط وقد خدمه بعلمه ومادياته وشعر بانني أريد أن أقدمه اليه عرفاناً لجميله تأفف وتنصل وحاول أن يقنعني بالعدول عن قصدي ومما كتبه الي في هذا الشأن (٩ جمادى الاولى ١٣٤٢) :

« سرني اهتمامك بانجاز الخطط وهو ما كنت أحثك عليه دائماً فأسأله تعالى أن يتولاك بعنايته وتوفيقه حتى تتم هذا العمل العظيم النافع وقد أحسنت كل الاحسان في تخصيص فصل منه لتاريخ الشام السياسي كما فعل من كتب قبلك في الخطط واذا وفقت الى طبعه على مثال طبع المجلة فسيكون على أحسن مثال . أما صورتي فليس عندي أحدث منها لأني لم أصور نفسي بعدها وتصدير كتابك بها فضل كبير تطوق به عنقي وتنبه من ذكري ولكن هل لك أن تسمع كلمة مني واقسم لك انني لا أقولها تواضعاً وتخاشعاً وهي أن تعدل عن ذلك لاني لا أرى لي من الفضل ما أستحق به أن أصور في فاتحة كتاب كهذا وما هو بمنع مني ولكنه رجاء أرجو أن تقبله » وعاد في كتاب فكرر هذا المعنى راجياً اعفاءه من هذه التقدمة قال (٢١ جمادى الاولى ١٣٤٣) : وصلني كتابك فأخجلني مافيه وقد كنت استعفيتك من وضع صورتي في الخطط فأكرر الآن هذا الاستعفاء شاكراً حسن ظنك وجميل رأيك ويعلم الله أني لا أقول ذلك تواضعاً فهل لسيدي أن يحسن إليّ باعفائي من ذلك وله مني الشكر الجزيل والثناء المكرر . »

وكتب أيضاً بهذه المناسبة بتاريخ ٢١ شعبان ١٣٤٣ : « وصلتني الملازمة الأولى من الخطط وقرأت مقدمتها واذا ساغ لي شكر سيدي الحبيب على ماتفضل بالتنويه بي أفلا تسوغ معاتبته على هذا الغلو والاغراق . حقاً ياسيدي انك بالغت مبالغة أخجلتني فيها وأفحمتني فلا أدري ما أقول والله سبحانه يجزيك خير الجزاء على حسن ظنك بي الى هذا الحد . » وهكذا كان أدب نفسه يوم أراد صديقه أن يقابل بعض جميله ويقول في نعته مايعتقده ويعتقده كل من سبر غور أخلاقه وسعة علمه . وهو يستقل مايعمل ، شأن أرباب الهمم العالية ويستكثر مايعمل له ، فقد أهدى دمشق مجموعة بديعة من النقود القديمة قال لي صديقي أمير الشعراء أحمد شوقي بك انه لم يجمعها هو وحده بل جمع فيها أبوه وجده من قبله ، ومع ذلك كان في اهدائها متواضعاً . فقد كتب في ٢ رجب سنة ١٣٤٢ (عندي مجموعة نقود قديمة من دنانير ودراهم وفلوس جلها من النقود العربية وعددها (٤١٨) قطعة ومعها مجموعة أختام قديمة عددها (٣٤) قطعة وقد رأيت إهداءها لدار الآثار العربية بدمشق وكتبت لكم جريدة ببيانها وسأسلمها جميعها لحضرة السيد الكسم ليحملها اليكم في عودته فارجو التكرم بقبولها وغض النظر عن تفاهتها ولكم الفضل) . وعاد فأكمل هذه المجموعة بمجموعة أخرى من الدنانير الذهبية القديمة وعد كل ذلك تافهاً .

بعده عن الظهور وايثاره العزلة

لما تولى جلالة الملك فؤاد ملك مصر منحه رتبة الباشوية فتململ لانها صدرت عن عاطفة عالية نحوه ولم يسعه إلا قبولها . ولما هنأته بها أجابني : (أما الرتب فسيدي يعلم رأيي فيها من قديم ولكنها لما كانت عنوان العطف شكرت مولاي السلطان بقلبي ولساني على عطفه) . ولما عين عضواً في مجلس الشيوخ ضاق صدره أيضاً فكتب اليّ (١٠ آذار سنة ١٩٢٤) يقول : أما عضوية الشيوخ فقد تورطت فيها اطاعة لرغبة جلالة الملك وحاولت التنحي

فلم أقطع اذ لا يخفى على سيدي دقة هذا المركز في وسط العاصفة الثائرة ولاسيما أن أمر البت في مصير القطر سيكون في هذه النوبة من انعقاد المجلس وهو ما كنت أتوخى الابتعاد عنه ما أمكن لاسباب كثيرة تعرفها). وكتب أيضاً : (١٦ ربيع الثاني ١٣٤٣) « صحت عزيمتي على الاستقالة من مجلس الشيوخ وكنت على وشك تقديمها لولا عقبات قامت بوجهي أهمها استرضاء جلالة الملك فارجو الله تعالى أن يهيء لي باب الخلاص .

وحقاً انه كان يجب الابتعاد عن السياسة كل البعد ، ولكن مصالح بلده تستلزم استدعاؤه في الأحايين ، فكان الموضوع الذي يلذه كونه عضواً في مجلس الأزهر ، وعضواً في دار الكتب المصرية ، أو في كل مجمع علمي مؤسس في مصر أو غير مصر . اما كونه عضواً في الشيوخ فهذا مالا ترضى عنه نفسه ولا تسمح بالاضطلاع به تربيته ، وهو الذي عاش هادئاً مسالماً يصرح بما يعرف ولا يتعدى طوره . كتب يقول : (في ٢ يونية سنة ١٩٢٣) « يعلم سيدي الاخ اني لا اعرف من السياسة الا مادة ساس يسوس التي أراها في المعاجم فاذا ذكرت الحكومة بخير أو بشر فانما أذكرها من الوجهة العلمية فقط . فمن دلائل عناية الحكومة الحاضرة بالعلم الانعام برتبة باشا على صديقكم أحمد كمال باشا الاثري الشهير وتقرر طبع معجمه المصري العربي الفرنسي على نفقتها وستشرع في ذلك قريباً واحداث مدرسة للسان المصري يتولى هذا العلامة التدريس فيها أما المعجم ففي عشرين جزءاً ولايستطيع طبع مثله في الشرق الا الحكومات ».

وكتب في ١ نوفمبر سنة ١٩٢٥ : « ويظهر أن الوحدة من الوسائل الناجعة في صحتي بتفرغي فيها لما أشتهي من المطالعة في راحة وهدوء بال وبعد عن القيل والقال ومجالس المدن التي أصبحت أجد نفسي غريباً عنها ، ولله در من قال :

هذا جزاء امرىء أقرانه درجوا ... من قبله فتمنى فسحة الأجل

وكتب في ٢٢ رجب سنة ١٣٣٨ : « وقد كان سيدنا وأستاذنا الشيخ

طاهر الجزائري رحمه الله ورضي عنه مفزعي الوحيد عندما أكون بالقاهرة فشاء القدر أن يفجعنا به ولا يبقي لنا من تلك الايام الا الذكرى المؤلمة والأسف المتواصل . حالنا ياسيدي الاخ عجيب غريب في هذا التطور الجديد فقد أصبحت العامة والخاصة الجهال والعلماء في مستوى واحد من الآراء ونعمت والله الحالة لولا أنه عمل صالح مرفوع الى أسفل ونتيجة منطقية تابعة الاخس من المقدمتين . فقل لي بعيشك أي انس في الاجتماع وأية لذة في المخالطة وقد أصبح من المتحتم على المرء قبول كل مايقال على تغيره وتناقضه كل يوم والا فالويل له ثم الويل . ولهذا تراني في أكثر أوقاتي جانحاً بوحدتي بقويسنا مكتفياً بمنادمة كتبي وقد أنجزت في هذه الفترة بعض ما كانت تتوق اليه نفسي من المواضيع ولعلي أوفق الى طبع بعضها متى انخفض ثمن الورق » . وكتب أيضاً (في ٢٩ شوال سنة ١٣٤٤) : « أحوالنا الخاصة والعامة غير مرضية فقد بعنا القطن بثمن بخس لايفي بنفقاته وخسر المزارعون هذه السنة خسارة كبيرة ، أما الاحوال العامة فسيدي عالم بها من الجرائد الضالة المضلة والمصير مجهول ولكن الله لطيف بعباده » .

ومن مجموع هذه النتف من رسائله تتجلى روح أحمد تيمور ، وبعد نظره في مسائل وطنه وان زعم انه لايعرف مداخلها ومخارجها .

حرصه على المصلحة العلمية

لما صدر الأمر بتوقيف أعمال المجمع العلمي العربي في أواخر العهد الفيصلي ساءه ذلك جداً وكتب مرة (٢٨ ربيع الأول سنة ١٣٤٣) : « رأيت في بعض الجرائد السورية نبأ ساءني عن المجمع والعزم على الغائه فعسى أن يكون نبأ كاذباً . فلا يهدم بذلك أعظم صرح من صروح النهضة اللغوية في الشرق » . وكتب قبل هذا التاريخ (٥ شوال سنة ١٣٤٠) : « وقد كان سروري لايقدر من النبأ الذي بشرتموني به بثبات المجمع وبقائه وهو البقية الصالحة والأمل الوحيد لانصار العربية » . وكتب (٤ يناير

سنة ١٩٢٣) « اننا في حاجة كبرى لالفاظ عربية تغنينا عن الدخيل ولهذا نرحب بكل لفظة فصيحة ترادف أخرى دخيلة ، بل النظر في وضع هذه الألفاظ من أهم ماتشتغل به المجامع اللغوية ان لم يكن أهمها كلها ، وقد عني مجمعنا الدمشقي بذلك وأتى بفوائد لا تنكر » . وقال في نفس هذه الرسالة : « المجمع أملنا الوحيد في انهاض اللغة فلهذا نقابل كل خبر سيء عنه بارتياع عظيم فنشكر همة الاستاذ الكبير فارس بك الخوري ونرجو أن يكون في اتباعه للاتحاد السوري مانؤمله له من الثبات » . وكتب (٣ رجب ١٣٤٤) : « ساءني جداً فتور المجمع عندكم وتوقف المجلة عن الصدور وهي التي كنا نعدها من مفاخرنا » .

أما بشأن المجامع التي ألفت لغرض خدمة العربية بمصر ، فقد كتب (٢٦ جمادى الاولى ١٣٣٧) : « وأما الاخبار العامة فتأليف المجمع اللغوي برئاسة شيخ الجامع الازهر وانضمام من هبّ ودبّ اليه والأمل فيه قليل والسير بطيء وقد مضى علينا سنتان لم نضع فيها شيئاً ونفسي تحدثني بالاستقالة منه وقد فاتحت الاستاذ الطاهر في ذلك فصوّب رأيي ولكنه أوصاني بالتريث » . وكتب أيضاً : « أما مجمعنا بمصر فلا أدري ماقدر له ولا أخفي عليك أني أميل فيه الى التشاؤم ولاسيما بعد ان سمعت اقتراحات لبعضهم بضم أشخاص اشتهروا بانتصارهم للعجمة وفتح الصدر لكل دخيل وسنرى ماسيكون فربما كان حكمي غير مصيب وأرجو أن يكون كذلك » . وكتب (٢٢ رجب ١٣٣٨) : « الحركة العلمية بمصر نائمة ومجمعنا اللغوي في حكم المعدوم » وكتب في ٦ يوليو سنة ١٩٢٣ : وفيه دليل على شدة غرامه باحياء آثار السلف قال : « اخبر سيدي بخبر أعرف أنه يسره ولكني أود أن يظل مكتوماً حتى نبدأ فيه بالعمل فانه لم يزل الى الآن في حيز القول ذلك ان الفاضلين النشيطين الشيخ عبد المعطي السقاء المدرس بالأزهر وأحد المولعين بالكتب والسيد محب الدين الخطيب فكرا في تأليف شركة لاحياء مآثر السلف بالطبع على نمط جمعية المعارف القديمة وخاطباني في أن أتولى

أمرها فرضيت بأن أتولى السعي فيها واقترحت أن تسند رئاستها لصاحب المعالي حشمت باشا وزير الخارجية الآن اعترافاً بفضل الرجل لانه صاحب اليد البيضاء على مشروع احياء الآداب العربية لدار الكتب والواضع له وكل كتاب يطبع فيها الآن فهو من ثمرات غرسه فوافقا ، ثم قيدنا أسماء من رأيناهم يصلحون لان يكونوا مؤسسين وأعضاء لمجلس الادارة ممن يثق الناس بهم واشتهروا بعلم أو جاه أو ثروة وأخذنا نطوف عليهم نعرض عليهم المشروع ونبين لهم فوائده فما قوبلنا من أكثرهم الا بالفتور والوجوم ولم نر من هش للمشروع وحث عليه غير اسماعيل رأفت بك وعلي بهجت بك ولكن ذلك لم يمنعنا من الدأب ومواصلة السعي حتى يتم المرغوب ومتى وفقنا لتأليف الاعضاء نعرض أمر الرئاسة وقتئذ على حشمت باشا والله سبحانه الموفق » .

وأشار في رسائل له غير مرة الى يأسه من قيام الاعمال النافعة بايدي الأفراد والى أن القوم في واد آخر . وبقدر ما كنت تراه يحرص على احياء آثار السلف لعلمه بانها التركة الثمينة الناطقة بمدنيتنا النافعة في حاضرنا ومستقبلنا ، كان يرغب عن احياء الكتب التي يعتقد الضرر بنشرها ، فقد كتب (في ١٤ ابريل ١٩٢٣) : « من أخبار الكتب أن السيد كاظماً الدجيلي كتب يسألني عن كتاب المسالب لابن الكلبي وانه عثر على قطعة منه بالعراق يود تكميلها ، ولا يخفى أنه في مثالب العرب . فكتبت اليه اني لا أعرف عنه شيئاً ، وقلت له انه وان يكن يعد من النوادر فليت كل نادر مفقود كان من نوعه فليذهب غير مأسوف عليه » .

كلام عن تآليفه

قلت ان احمد تيمور كان عزوفاً عن الناس وكان أيضاً زاهداً في الشهرة فشهرته كانت تتبعه بالضرورة وما كان في الواقع عبداً لها يتبعها فتستجيب له أو لا تستجيب ، ولو قصد الى الشهرة لكانت منه على طرف

التام ، ولكان يعني على الأقل بطبع مؤلفاته في حياته ويقلل من العناية ببحثها مكتفياً بما تهيأ له . وأكثر ما ألفه وطبعه في حياته كانت تدعوه اليه الدواعي مثل رسالته في الرتب والألقاب فقد كتب اليّ في ٢٥ جمادى الاولى ١٣٤٣ ، « وانى أشكر سيدي الأخ على تفكيره في إعادة طبع بعض آثاري التافهة التي لاتستحق هذه العناية ، فرسالة الرتب والألقاب لم أضعها في الأصل لتطبع بل جعلتها مادة أقدمها للحكومة للمناقشة فيها في الوقت الذي عزمت فيه على تغيير الألقاب فلما رأيتها أبقت على أغلب الألقاب الأعجمية ضربت عنها صفحاً ، ثم رآها عندي السيد محب الدين الخطيب فنقلها ثم تكرمتم بطبعها ، وأما طبقات المهندسين فلا أظن في نشرها بمجلة المجمع فائدة بعد ماشرت بالهندسة فلندع صفحات المجلة لما هو أفيد منها وعسى أن أجد فرصة لأعيد النظر فيها وأضم اليها زيادات أطبعها على حدة » .

وكتب في (٢٢ ذي القعدة ١٣٤٣) : « رحلت هذا الشهر لبعض البلاد المصرية ترويحاً للنفس فقادني الطواف الى المنصورة وزرت بها أثراً تاريخياً نفيساً هو بقايا دار ابن لقمان التي اعتقل بها الوزير التاسع في اغارته على مصر وقد كتبت بحثاً عن هذه الدار رجعت فيه الى المصادر العربية والافرنجية وسلمته أمس قبل سفري الى أخينا محب الدين لينشره في الزهراء . وقد كان لهذا الأثر ياسيدي أثر في نفسي تذكرت به ماضينا وسألت الله أن يلطف بنا في حاضرنا ويهيء لنا منه مخرجاً فهو اللطيف بعباده » .

وكتب في (٢٨ ذي القعدة سنة ١٣٤٠) بشأن كتابه التراجم مانصه : « كتاب التراجم لم اشتغل به الا يسيراً ومرادي أن يكون خاصاً باعيان الشرق في القرن الثالث عشر الهجري أي أن يكون كالذيل لسلك الدرر ثم ألحقه بذيل في تراجم أعيان أوائل القرن الرابع عشر وكل ماأنجزته منه لايخرج عن تمهيدات وسأتخلص فيه من الجبرتي ومن خطط علي باشا وأضم بعد ذلك ما أستطيع جمعه . إلا ان معجم العامية المصرية والكلام على

أصولها وما يقابلها من الصحيح يستغرق أوقاتي كما تستغرق أوقاتكم الخطط ومن الله تعالى نسأل الاعانة والتوفيق » . وقد أتم التراجم فيما أحسب وكذلك معجم العامية المصرية وهو من المدهشات في التحقيق اللغوي يدل على علم واسع جداً وقد نشر منه نموذجات في مجلة المجمع العلمي العربي في بضع مقالات وربما كان هذا السفر كتابه الخالد لانه صرف فيه اوقاتاً طويلة وجوّد كل الاجادة . ومنها كتابه نوادر المسائل ، وكان كلما مرت به مسألة نادرة أو حادثة غريبة أو توضيح لمشكلة خلال مطالعاته الكثيرة يقيد ذلك في كراسات مع بيان أسماء هذه الكتب المشتملة على هذه النوادر ورقم الصفحة التي احتوتها واجتمع له منها شيء كثير رأى في آخر أيامه أن يرتبه ويضم الشكل الى شكله ويطبع ذلك ويقدمه الى العلماء والباحثين طرفة لم يقدم اليهم منها » .

وقال الاستاذ السيد محب الدين الخطيب ان هذا الكتاب هو الأم لمؤلفات تيمور باشا كلها بل هو خلاصة مطالعاته واطلاعاته وسماه معجم الفوائد . وللمترجم له من الآثار التي ألفها عدة رسائل وكتب ومنها البرقيات وهي كلمات تؤدي كل منها معنى جملة كاملة . ومنها رسالة في التصوير عند العرب نشرت في مجلة الهلال ولكن زاد فيها زيادات عظيمة ومنها الأمثال العامية وهي نحو خمسة آلاف مثل عامي . ومنها لعب العرب . ومنها نقد القسم التاريخي لدائرة معارف فريد وجدي وطبقات المهندسين جرى فيه على نسق طبقات الحكماء للقفطي وطبقات الاطباء لابن أبي أصيبعة . ومنها ذيل طبقات الاطباء . كان يجمع مواده ويكتب مذكرات عن مصادره ولا نظنه تمكن من اتمامه (مجلة الزهراء م ٥ ج ٧ – ٨ ص ٥٦٥) .

ومن رسائله التي لم تطبع : الآثار النبوية ، ومفتاح الخزانة خزانة البغدادي وهي ثلاثة عشر فهرساً ، ومما طبعه رسالة في اليزيدية وأخرى في حدوث المذاهب الأربعة وثالثة في تاريخ العلم العثماني ورابعة في قبر السيوطي وخامسة في تصحيح لسان العرب وسادسة في تصحيح قاموس

المحيط وسابعة في أبي العلاء المعري وعقيدته وثامنة في الحلقة المفقودة من تاريخ مصر ، ومن أهم ماعاقه عن نشر كثير من تآليفه ميله الى التحقيق واشباع الموضوعات حقها أو تحاميه أحياناً من الدخول في مآزق لا تسمح له تريثه بالتورط فيها . فقد كتب بشأن رسالة التصوير مانصه : « أما التصوير فكنت كتبت مقالة عنه عند العرب في الهلال (٢٧—٥١٣—٦٠١) وربما كان فيها مايفيدكم ولكن هذه المقالة أصبحت لاشيء جنب ماجمعته بعد ذلك في رسالة خاصة أتممتها وأعددتها للطبع تمنعني من طبعها الآن أن ذكر العرب حتى نبيهم عليه الصلاة والسلام بخير أصبح معدوداً عند عامتنا ومن على شاكلتهم عنواناً لبغض الكماليين فأخرت الطبع خوفاً من الاهانة . وقد اطلع على هذه الرسالة صديقنا الاستاذ جريفيني فاعجبته وشدد عليّ في سرعة اظهارها فذكرت له عذري في تركها الآن » . أما مقالاته التي نشرها في الصحف والمجلات في موضوعات علمية وأدبية وتاريخية ولغوية فانها لو جمعت لجاء منها مجلدان لطيفان نافعان . فعسى أن تصح همة نجليه الفاضلين اسماعيل بك ومحمود بك على أن ينشرا ماخلف الفقيد العظيم من نفثاتـه وتحقيقاته خدمة للعلم وتخليداً لذكره في العالمين .

تعصبه للاسلام والعربية

كان أحمد تيمور متعصباً للعرب والعربية والاسلام ، يهتم لذلك اهتمامه لأقدس شيء لديه ، وكان اذا شم من بعيد رائحة من شخص يريد السوء بمقدساته هذه أو يكتب فيها كتابات بعيدة عن مواطن الحقيقـة يستعديه ويبتعد عنه ، ويتأفف في باطنه منـــه ، ولما شاعت دعوة أنصار القديم والحديث في مصر ، آلى على نفسه ان لايطالع من الصحف الا جريدة الأخبار للمرحوم أمين الرافعي لأن صاحبها متدين يدافع عن الاسلام والمسلمين ، فلا يقرأ فيها ما تنقبض له نفسه مع أنه أوسع الناس صدراً . وكتب في هذا الشأن يوم (١ جمادى الاولى ١٣٤٦) : « ومن نكد الأيام

انى لم أزل ممنوعاً من المطالعة والاشتغال بأمر الاطباء حتى ضاقت الدنيا في وجهي وساءت أخلاقي لاني لم أتعود الجلوس في الملاهي ولا أدري كيف أقضي أوقاتي مع هذا الحجر ، وقد منعوني أيضاً من مطالعة الجرائد التي لا تروق لي خطتها ولا تتفق مع مشربي فصرت أقتصر على مطالعة جريدة الاخبار لانها توافقني ولاسيما في المدافعة عن الاسلام والانتصار له ومقاومة الالحاد المعبر عنه في لسان هذا العصر بالجمود أو الرجعية ولا حول ولا قوة الا بالله » .

ولما تعرض بعض أصدقائه للنيل من المأمون (واسطة عقد الخلفاء وفخر الأمة العربية) أخذ يعالجه بالوسائط المنوعة كما يعالج الطبيب المريض حتى اعتدل وعاد للانتصار للعرب ومدنيتهم « فكتب نبذة في الاهرام نصحه في آخرها أن يعيد سيرته الاولى التي لم ينل شهرته الا بها » . وله مع صديقه هذا مناقشات في الصحف والمجالس لانه يبرر عمل الكماليين في نزع الخلافة مما لا يتسع له هذا المقام . وكان غضب تيمور من صديقه هذا مما لايستكثر من غيور على الاحتفاظ بمقدسات أمته . ولما ألف الاستاذ علي بك عبد الرازق كتابه في الاسلام وأصول الحكم خالفه تيمور في اجتهاده وتألم لما كتب ألماً شديداً . وكتب لي يصف هذه الفتنة ويستحسن أقوال من ناقشوا المؤلف في موضوعه . ولما رأى انني تصديت لنقد كتب بعض أنصار التجدد في مجلة المجمع العلمي طرب واغتبط ، وتألم لما قرأ تقريظاً لي لبعض نبغائهم ، ولكن أدبه حال دون التصريح بذلك .

كتب مرة (٢ شعبان ١٣٤٣) : وانني من رأيكم في اقتدار الشيخ .. وجودة أسلوبه وعدم الموافقة على بعض آرائه المتطرفة وخصوصاً عن العرب وآدابهم فانه كثير الغض منهم في كل شيء ومن دواعي الاسف ان هذه الآراء السخيفة تنشر اليوم بسرعة بين الناشئة حتى صار من المضحكات عندهم التحدث ببلاغة القرآن أو بفضل العرب إنا لله وإنا اليه راجعون . وسيدي حفظه الله أعرف مني وأسد رأياً في أسلوب الرجل وغاية مايظهر

لي مع إعجابي به كثرة التكرار في بعض المواضع والظاهر انه يتعمده لانه يستحسنه ويظن انه طريقة جديدة تروق للقراء . . . . . بل ان أحمد تيمور كان يتألم لأقل من هذا اذا كان فيه العبث بمشخصات الامة ، فقد جاء في رسالة في (٢٠ آذار ١٩٢٤) : لما كانت لجنة عمل الدستور مجتمعة في العام الماضي وشاع انها ستسمي المجلسين بالبرلمان قدم لها بعض الفضلاء ومنهم الاستاذ الشيخ أحمد الاسكندري عضو مجمعنا اقتراحاً بتسميتها بدار الندوة فعارض بعض أعضائها في ذلك وكان المشايخ المعممون منهم أشد معارضة وعلى هذا سمي أكبر مظهر من مظاهر استقلالنا باسم أعجمي مع وجود الاسم العربي عند العرب من زمن الجاهلية ولله الأمر من قبل ومن بعد » .

عطفه على من يعطف على العربية

ولقد كان على تعصبه لامته ودينه وقوميته وعربيته متساهلاً مع من يخالفونه في معتقده ، ولطالما خرج أمثالهم من مجلسه وبما رأوا من عنايته بهم ، خصوصاً اذا كانوا من المشتغلين بالعلم والأدب ، ما أطلق ألسنهم بشكره ، وعقد قلوبهم على حبه ، وأورثهم حسن الظن بهدى دينه وتاريخ أمته ، وأيقنوا أن الرجل قد يتعصب لمشخصاته ولكنه يريد الخير كله لمن يوافقونه من بعض الوجوه على ماتشبعت به نفسه ويحكموا على مايرون بالمعقول والمنطق ، وقد اقترح على المجمع العلمي أن يضم اليه الاستاذ أسعد داغر لانه خدم اللغة العربية . وشق عليه مانال الاستاذ الاب انستاس ماري الكرملي يوم غضب عليه رؤساؤه في ديره ببغداد وقضوا عليه أن يذهب للاعتكاف في دير لهم في جبل الكرمل منخلياً عن كتبه وتآليفه وسعى للافراج عنه ليرجع الى بلاده وحتى لاتحرم اللغة نفثات قلمه ولاسيما من معجمه الفرنسي العربي الذي أقام على تأليفه زهاء ثلاثين سنة وأودعه من الفصيح كلمات كثيرة نحن في أشد حاجة اليها ، ساءه لما حل بصديقه

(لما كان لهذا العلامة من الآثار النافعة في اللغة) . ولقد خدم الاستاذ عيسى اسكندر المعلوف انواع الخدم العلمية لانه أيقن أنه يخدم اللغة العربية بابحاثه . وكل من يخدم اللغة والعلم هو حبيبه . ولقد أعجب مرة بمقالة الاستاذ أنيس سلوم في التعريب نشرت في مجلة المجمع فكتب في (٢٥ صفر ١٣٤١) « فاني ما كدت آتي عليها حتى علمت أن للعربية أنصاراً وان قل عديدهم وان لطف الله لم يزل حافاً بهذه اللغة بعد أن كنت في يأس عظيم من انهاضها لا أرى فيها الا استجابة دعوة جرول في قوله لأمه :

جزاك الله شراً من عجوزٍ ولقّيت العقوق من البنينا

كما رآها من قبلي أبو العلاء في الدنيا .. » .

كتبت اليه مرة أوصيه باحد أصدقائي من رجال فرنسا الاستاذ المستشرق السيد اميل بيات وكان يريد ان يزور الازهر ويتعرف الى القاهرة من طريق العالمين لا السياسيين فادهشه بما أطلعه عليه ومن عرفه اليهم من رجال العلم وما أغدق عليه من ضروب الاكرام حتى جاوز كلام صديقي بعد انقلابه الى بلاده في شكر أحمد تيمور جداً عجيباً وبهذه العناية بالموصى عليه وبامثاله من ابناء الشرق وابناء الغرب أبان فضل مصر وفضل أبنائها على العلم ، وبلوغهم درجة عالية من الحضارة والثقافة ، وبالتالي أورث بعمله حسن الظن بالمسلمين عامة والشرق خاصة . وهذه هي الوطنية الحقة ولو كثر هذا العدد من دعاتنا على هذا النحو ، لتعريف الغرب بفضل الشرق ، لما أساء بعض الغربيين الظن بنا وبمجتمعنا ولما صغروا من شأن مدنيتنا في الغالب تصغيراً قائماً على الهوى والجهل معاً .

آخرة المترجم

قلّ أن تمت لسعيد سعادته ، وبينا كانت السعادة ترفرف ظلالها على دار أحمد تيمور ، وقد تزوج من امرأة فاضلة وهي كريمة المرحوم أحمد رشيد باشا أحد وزراء مصر فولدت له ثلاثة أولاد اسماعيل ومحمد ومحمود

فتعلقت ارادة المولى أن يفقد زوجته وهو في التاسعة والعشرين من عمره (ولد سنة ١٢٨٨ هـ وتوفيت زوجته سنة ١٣١٧) فلم يرض أن يتزوج ثانية وقال لي وأنا أحثه على الزواج : المسألة معقدة من وجهين الاولى انه يتعذر وجود زوجة تشبه أم الاولاد بعقلها وأدبها وصيانتها ، والثانية أني أخاف على أولادي من خالة تنغص عليهم عيشهم . وكان كما أراد فعاش أرمل متبتلاً ومثال الوقار والصون والعفاف .

وكان المترجم متديناً تديناً حقيقياً ولم يعرف عنه انه ترك صلاةً ولا صوماً ، وحج مرة كما زار أوربا مرة وزار الشام مرة والاستانة مرة ، وكان القرآن يتلى أبداً في داره وفي عزبته وفي ذهبيته وأحاديث الرسول ﷺ والحكماء تردد في ناديه ولم يعهد أن غشيه أرباب المساخر والملاهي أو مال يوماً الى مصاحبتهم ، بل كانت أوقات فراغه كلها مصروفة في الجد يتخللها بعض المزاح المقبول مع خاصة أصحابه وكان اذا اتفق أن ألقى أحد المختلفين اليه كلمة مجر يتصامّ عنها ويلوي وجهه وربما احمر خجلاً كأنه هو الذي قالها . ولو كان حظ خاصة المصريين من الجد حظ هذا الرجل العظيم لبلغت مصر في مدنيتها شوطاً أوسع من الشوط الذي بلغته .

ولقد عني بتربية بنيه التربية الحسنة وعلمهم العلوم العالية ولكن أصيب منذ عشر سنين بفقد ثاني أولاده محمد ، وكان من أرقى شباب مصر علماً وأدباً وجمالاً وكمالاً وجواب تعزيتي له قوله في (١٣ رجب ١٣٣٩) : « فشكراً لسيدي الاخ الاعز على ماتفضل به من مؤاساتي في مصيبتي العظيمة التي هدّت ركني ونغّصت عليّ مابقي من أيامي » وكان كما قال لايكاد يتجه بعدها نحو الصحة حتى ينعكس وأصبح أكثر الاحيان من المتشائمين لا المتفائلين ويزيد ذلك كلما تراجعت صحته وأيقن بقرب منيته . كتب (١٩ يوليه ١٩٢٤) : « وقد أشار عليّ طبيبي حينما استدعيته أمس بالسفر الى أوربا وعين لي بلدة بالمانيا يقصدها المرضى بالقلب فلم أقبل لأني لا أستصوب

السفر الى مثل هذه الديار وأنا مصاب بمرض خطير بل أفضل البقاء بين ولديّ وأحب أن لا أتعبها في موتي كما لم اتعبها في حياتي » .

نعم كان العقد السادس من حياة عظيم العلماء ونابغة المصريين حياة نغص وغصص ، ومع هذا كان لايضن بوقته على افادة قاصديه ، ويكلف صحته أكثر من طاقتها لنفع الناس وكان خاصة أصحابه يمتنعون عن مراسلته أو زيارته لئلا يكلفوه في قضاء الواجب نحوهم ماقد يضر بصحته ، حتى ناداه ربه الى جواره في صبيحة يوم السبت ٢٧ ذي القعدة ١٣٤٨ (٢٦ ابريل ١٩٣٠) فكان لمنعاه في مصر والبلاد العربية وفي مجامع علماء المشرقيات في الغرب رنة أسى وحسرة وذكره الناس بالرحمة وعزى بعضهم بعضاً على فقد رجل الاسلام والعرب . وشمل الحزن عامة الطبقات المفكرة رحمه الله عداد حسناته للعربية والعروبة وانا لله وإنا اليه راجعون .

أيها السادة : هذا ماعرفته من حياة صديقي الذي عددت فجيعتي به من أعظم الفاجعات ، وعلم الله اني ما ألقيت عليكم من صفاته الا ما ثبت عندي ثبوت الشمس والقمر . ولم أحاول ان أكتب فيه سطراً الا بعد أن اقتنات بعض سورة الحزن عليه ، وعسى أن يسعني عفوكم فتسبلوا ذيل المعذرة على ذكر اسمي ، خلافاً لعادتي ، مقروناً الى اسمه الكريم في هذه المحاضرة ، بيد أني لم أر مخلصاً من ذلك ، لان المسألة مسألة ذكريات شخصية لابدّ فيها من ذكر الفريقين ، والله يرحمنا ويتولانا بعونه .

صلة الجاهلية بالعالم القديم*

سادتي الأماثل : السلام عليكم ، أما بعد فقد أبى المجمع العلمي الكريم إلا أن يحفزني الى القول ، ويخرج بي من سدفة العزلة ، فنزلت على حكمه المطاع ، وأرهفت من غرب اليراع ، وبعد فمن ذا الذي يدعوه العلم فيجمجم ، ويهيب به الأدب فيحجم .

أيها السادة : لقد وقع اختياري على نبذة لي أنشأتها عن « العصر الجاهلي وموقف أهله من العالم القديم في السياسة والتجارة » ولقد توفرت على استقراء ذلك من أمهات الكتب الغربية ، وفي اللمع المبثوثة بين تضاعيف المؤلفات العربية .

تعريف العصر الجاهلي

لاجرم أن للعرب صلتهم السياسية والاقتصادية بالأمم الغابرة ، وذلك ما أود أن أجمله في هذه المحاضرة ، فالعرب أمة عريقة في المجد والسؤدد ترجع في نسبتها الى الدوحة السامية ، وكذلك اللسان العربي سواء أكان قحطانيا أم عدنيا .

ويراد بالعصر الجاهلي ما كان عليه العرب قبل الاسلام من دأب وسيرة ، وقال ابن خالويه انه اسم حدث في الاسلام للزمن الذي كان قبل البعثة ، وما تعدو تلك الحقبة في التاريخ المتداول مئة وخمسين عاماً قبل الهجرة عند جمهرة الادباء ، وان ذلك ليكون صحيحاً لا غبار عليه اذا عنينا بأوائك

(١) محاضرة ألقاها الشيخ فؤاد الخطيب في ردهة محاضرات المجمع العلمي العربي في ١٨ و ٢٢ ايار سنة ١٩٤٢ .

العرب « أهل الحجاز ونجد » فقد كانوا الى مدى غير بعيد عن الشعوب بمعزل ، لما في باديتهم من جدب ، وما في طباعهم من عنجهية ، ولم يرزقوا حظاً من الشهرة وترامي الذكر الا بعد أن تحولت الى أرضهم الطرق التجارية ، فحملتهم على الاتصال بالأمم الاخرى ، وأغرتهم بعقد الاسواق في عكاظ ومجنة وذي المجاز ، فوق ماقيض لهم من طول صحبتهم للانباط الذين كانوا قد انتشروا بينهم متفرقين على أثر هزيمتهم في سلع .

قدم العرب

ومن الخطأ المحض أن بعض الناس اذ ذكروا العرب في جاهليتهم ذهب بهم الظن الى الامة قاطبة ، والى الأمصار العربية بأسرها ، فخلطوا بينها وبين القبائل الضاربة في أودية « الحجاز ونجد » على أن سائر العرب في أصقاعهم الاخرى الخصبة وقبل تلك الفترة الجاهلية بقرون متطاولة ، كانوا لدات الفراعنة ، والبابليين ، والآشوريين ، والرومان ، وحسبي أن أرجع بكم الى ذكر « بني عاد » فانهم اقتحموا مملكة الكلدان القديمة وحكموها مايقرب من قرنين (سنة ١٥٤٦ قبل الميلاد) وكذلك « المملكة الآشورية » فقد خضعت للعرب البائدة فولي الأمر فيها تسعة ملوك منهم استتب لهم فيها الحكم ٢٤٥ عاماً كما يقول المؤرخ الكلداني بروسيوس ، ولما أفضى الأمر الى سرجون الآشوري قاتل بني ثمود وقضى بجلائهم الى مدينة غزة في فلسطين ، وكانت مواطن ثمود كما يقول بطليموس مدينة « اومن » في جنوبي العقبة الى المويلح ، وكانت هذه البقاع من قبلهم لبني لحيان كما نص على ذلك الجغرافي بلينوس ، ثم ان الاسكندر الاكبر المكدوني يوم غزا مدينة غزة الفى فيها حكومة عربية من « بني معين » وكانت هذه القبيلة العربية العجيبة قد غادرت وطنها الاول في جوف اليمن وانتشرت في الالف الثاني قبل الميلاد في جميع أنحاء الحجاز وهضاب سيناء ؛ ويعتقد الاستاذ « جلازر » ان الهكسوس الذين هبطوا مصر فاتحين ؛ انما كانوا من بني "معين" ؛ وأما آثر

بني معين في الشعوب القديمة فنومي، اليه نقوش مكتوبة ظهرت في مدينة « أور » في العراق ، ويقول العلامة هومل ان الخط العربي المسند هو الأصل الذي انشعب منه الخط الكنعاني ، ومن جملة أدلته على صحة ذلك ان هنالك نماذج من الكتابة المعينية وصلت الينا أقدم من أختها الكنعانية .

خط سورية من العروبة

ان الرومان عندما افتتحوا سورية وجدوا بين أهلها العرب ، وان لهم فيها دولتين شامختين — أما الاولى فدولة الانباط في سلع المعروفة عندنا بالبتراء أخذاً من اسمها العربي ، والى عاملها على دمشق أشار بولس الرسول في الاصحاح الحادي عشر من رسالته الثانية الى أهل كورنثوس فقال :

« في دمشق والى الحارث الملك كان يحرس مدينة الدمشقيين يريد أن يمسكني فتدليت من طاقة في زنبيل من السور ونجوت من يديه » .

أما الدولة الثانية فحكومة آل السميذع في تدمر ؛ ومن أشهر ملوكها اذينة الثاني زوج الزباء الطائرة الصيت ، وقد وقف الاستاذ ليتمن خلال التنقيب في النقوش الصفوية على اسم اذينة هذا مما يشعر بنباهة قدره ، وذيوع ذكره .

ثم انه لا يخفى عليكم أن أحد رجال العرب قد تبوأ العرش الروماني فكان قيصراً للرومان ويعرف باسم فيلبوس العربي (٢٤٤—٢٤٩ م) وذلك أثناء احتفاء الرومان بذكرى الف سنة مرت على تأسيس رومة .

ولعل من أدعى الامور الى الدهشة في هذا الوطن السوري الكريم ان سيادة العرب فيه كانت متصلة متتالية ؛ فلم ينتكث لها حبل ؛ ولا انطمس لها عهد ؛ فكلما انهدمت لهم دولة فيه ، نجمت أخرى مكانها ؛ فانه عندما انهارت المملكة النبطية ؛ نشأت بعدها التدمرية ؛ فلما تداعت أركانها ؛ قام بأمر العرب بنو غسان ، فلما استشرى الضعف فيهم ، اذن الله بظهور الاسلام ، فجمع كلمة العرب بعد الشتات والانقسام . ونهض بهم من ذات

الصدع ، الى ذات الرجع ، « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين » .

الموقف السياسي

وقد حان لي بعد تلك اللمحة الحثيثة أن اشرف بكم أيها السادة على الحالة السياسية في الحقبة الاخيرة الجاهلية وموقف العرب منها .

إن مايعرف اليوم بالشرق الادنى ، كان قبل ظهور الاسلام العامل السياسي في الحرب الطاحنة بين فارس والروم ، لنشوب أكثر المعارك فيه ، ولأن مملكة الروم كانت في أمس الحاجة الى متاجر الهند ، وسائر آسيا وبلاد العرب نفسها ولذلك كان من مرامي فارس أن تجد مستقراً لها في بلاد العرب ، لخطورة ذلك الموقع من الناحية الجغرافية ، ولان في طاقة فارس أن تنفذ منه الى غرضها فتمنع خيرات الشرق عن الروم .

وأما مملكة الروم فكانت تذود عن مصالحها بمحالفة الاحباش ، لما بين الروم وبينهم من أواصر الدين ، فكانت تغريهم باليمن وتقيم منهم في تلك الأصقاع السحيقة سداً دون مطامع فارس ، ماستطاعت الى ذلك سبيلا .

فكان النفوذ السياسي في الشرق والجنوب من بلاد العرب لفارس ، وفي الغرب للروم ، وكانت مكة أميل الى هؤلاء منها الى خصمهم ، لصلتها التجارية بهم عن طريق سورية ، ولأن أكثر المكيين كانوا من القبائل الشمالية أي من بني عدنان ، أما يثرب فكانت لمكة بالمرصاد ، تنافسها التجارة وتتقم عليها ثروتها الطائلة ، وكان أهلها من القبائل الجنوبية أي من بني قحطان .

لقد نزل العرب على تخوم فارس والروم في العراق وسورية منذ أحقاب خلت فاكرهوا الدولتين فيما بعد على محالفتهم ، وأصبح للعرب عمال وامراء في المملكتين ، وكان كل قبيل منهم ينصر حليفه ، على أن العرب كانوا الفينة بعد الفينة يتناسون مايبرم بين العاهلين من هدنة كما فعل القائد العربي

الغساني المعروف باسم خالد في الغارة على عاصمة المنذر في العراق (٥٤٠م) فانه لم يعبأ البتة بما كان بين الفرس والروم من مهادنة فشكاه كسرى الى جستنيان ، ولما لم يتلق منه جواباً ، أغار كسرى على أماسيا وحلب ومدن أخرى حتى كاد يكتسح سورية لولم يهرع الروم الى طلب الصلح والنزول لكسرى عما استولى عليه من أمصار .

أما المملكة النبطية فكانت في الزمن الاخير أشبه بما نسميه اليوم (الدولة الحاجزة) ولكن الرومان غلب عليهم الجشع والطمع فلم يكترثوا لذلك فتيلا وقضوا عليها في عام ١٠٦ م ، وكان آخر ملوكها مالك الثالث بعد أن تعاقب عليها ماشاء الله من أزمنة بلغت ستة قرون أو شيعها أدركت فيها الذروة من الحضارة والعمران ورواج الاسواق ، وقد اتخذت مدينة بصرى العربية من تلك الكارثة الفادحة بداية تؤرخ بها الحوادث جرياً على عادة العرب في مثل هذه الامور الجسام كعام الفيل وعام الخنان ، ونحو ذلك ، أما الرومان فقد رزحوا بعد زوال الانباط تحت مشاكل مرهقة فكانوا في عجز فاضح عن سد الثلمة ، ورأوا من الصحراء حلبة نزاع دائم بينهم وبين القبائل البدوية بله المملكة الفارسية ، أما العرب فحمل لواءهم بعد الانباط آل السميذع في تدمر ، وتحولت الى تدمر الطرق التجارية حتى بلغت قمة المجد في القرن الثالث الميلاد ، وقبل أن ينتصر عليها الرومان كانت صحراء سورية تنغش مكتظة بالقبائل البدوية النازحة من جوف الجزيرة وأطراف العراق وأصبحت المدن السورية عرضة للغارة عليها في كل أوان ، فعقد الروم حلفاً مع بني غسان ونفحوهم بالهبات المالية واتخذوا منهم رداً لهم في النوازل والخطوب ، ثم تضاءل ما بين الامتين من سبب وذريعة ، فالعرب في صفاء نفوسهم ومقتهم للغدر ، قد طالما زلت بهم القدم ، وأسلمتهم الفطنة وران عليهم من الروم اللدد والختل ، فجشمهم ذلك من عنت البلاء ضروباً ومن اذى المحن ألوانا ، أما الروم فكان نصيبهم الويل وفت العضد ، وان تاريخ العترة الغسانية لمفعم بتلك الصور السافرة ، مترع بما يعززها من

مشاهد متواترة ، وحسبي في الدلالة عليها ماسنح وطفٌ من سيرة ملوك ثلاثة هم الحارث الرابع ، وابنه المنذر ، وحفيد النعمان .

الحارث الرابع

لقد كان الحارث الرابع أشهر ملوك العرب المتأخرين من بني غسان ، وأعظمهم شأناً وقد خلع عليه الامبراطور جستنيان لقب بطريق وفيلارك (٥٢٩ م) وذلك على أثر ما احرز من نصر على المنذر الحيري ، وجزاء لما أسدى من يد للروم في اخماد فتنة السامريين ، أما فيلارك العرب في فلسطين فكان يعرف بأبي كرب وقد شد أزرهم في تلك الثائرة فكافأه القيصر بعشرين ألف أسير باعهم أرقاء للفرس والاحباش .

ولقد قاتل الحارث تحت قيادة بليساريوس ولكنه في الاوبة ركب غير الطريق التي سلكها جيش الروم فظنوا به الظنون ، وانه دلس عليهم الرأي ، وان له بالفرس صلة مستمرة ، وكذلك كان الروم يصدرون في معاملتهم للعرب عن ريبة تساورهم ، وحذر يملى عليهم ، فاخرجوا العرب من سجيتهم مكرهين ، وسلخوهم عن فطرتهم مرغمين .

لقد كان الحارث خصماً عنيداً للمنذر الحيري وهو المعروف بابن ماء السماء وجد النعمان أبي قابوس آخر ملك لخمي في الحيرة ، وكان مثار النزاع في الاكثر بين الملكين العربيين تلك البادية الواقعة جنوبي تدمر ، فقد ادعاها كل منهما لنفسه ، وانه الحقيق وحده بجباية الاتاوة منها ، وقد تجدد القتال بين الحارث والمنذر في سنة ٥٤٤ م فوقع ابن الحارث أسيراً بيد المنذر فقدمه قرباناً لآلهته العزى (افروديت) وفي خلال سنوات عشر من تلك الحرب الضروس نشبت المعركة الحاسمة بين الملكين فسقط فيها المنذر الحيرى قتيلاً وصرع أحد أنجال الحارث الغساني ويقول العلامة نولدكي أنها هي وقعة الحيارين ويوم حليمة وانها وقعة معركة واحدة لا اثنتان ، وان حليمة ليست امرأة بل اسم مكان . وقد رحل الحارث في أواخر حكم

جستنيان (٥٦٣) م الى القسطنطينية وفاوض القيصر فيمن يخلفه على سورية من أولاده ، وكان لهيبته سلطان كبير على ابن اخي القيصر جوستين ، وكان وليا للعهد ، فما آل اليه الملك وأصابه الخرف كان رجال البلاط يروعونه باسم الحارث كلما نشز عليهم وأعياهم أمره ، وقد رجع الحارث من العاصمة الى سورية ومعه أسقف من القائلين ببدعة الطبيعة الواحدة ، رعاية لشعور قومه الديني ، فقد كانت تلك العقيدة بينهم فاشية ، ولفظ أسقف معرب (ابسكيبوس) باليونانية ، ومعناه رقيب أو ناظر والمعروف عن الحارث أنه قد توفي في غضون ٥٧٠ م بعد أن تولى الأمر أربعين عاما ، وقد ورد اسمه في الوثائق الكنسية لسنتي ٥٦٨ ، ٥٦٩ م .

كان الحارث كسائر العرب ، يهزه الأدب ، وله بصر بمذاهب الكلام وقد اتخذ المرقش الاكبر كاتباً له ، ومما أوصاه في ذلك قوله « اذا نزع بك الكلام الى ابتداء معنى غير ما أنت فيه ، فصل بينه وبين ما تبتغيه من الالفاظ ، فانك ان مذقت ألفاظك بغير ما يحسن أن تمذق به نفرت القلوب عن وعيها وملتها الاسماع ، واستثقلتها الرواة » .

ومن كلام المرقش يصف البادية والذئب :

ودويّة غبراء قد طال عهدها ... تهالك فيها الورد والمرء ناعس
وتسمع زقاء من البوم حولنا ... كما ضربت بعد الهدوء النواقس
ولما أضأنا النار حول شوائنا ... عرانا عليها أطلس اللون بائس
نبذت اليه حزّةً من شوائنا ... حياء ، ومافحشي على من أجالس
فآض بها جذلان ينفض رأسه ... كما آب بالنهب الكميّ المخالس

ومن أخبار الحارث أنه مر بافاريق من تغلب ، وكانت بنو تغلب قد لحقت بالشام بعد ثورتها على ملك العراق ؛ فلم يستقبلوا الحارث ، وركب عمرو بن كلثوم الشاعر التغلبي فلقيه فقال له الملك : مامنع قومك أن يتلقوني ؟ قال : لم يعلموا بمرورك ؛ قال : لئن رجعت لأغزونهم غزوة تتركهم أيقاظاً

لقدومي ؛ فقال عمرو : ماستيقظ قوم قط الا نبل رأيهم ، وعزت جماعتهم ، فلا توقظن نائمهم .

جوستين الثاني والمنذر

ولما أفضى الأمر الى جوستين الثاني عمل على اغتيال المنذر نجل الحارث ، وكان قد حلف أباه وقاتل الفرس وعرب العراق تحت لواء الروم ، ولكن المؤامرة حبطت ونار المنذر على الروم سنوات ثلاثاً أغار الفرس في خلالها ومعهم أنصارهم من عرب الحيرة على سورية ، فأوفد طيباريوس ، وكان وصياً على العرش ، مفوضاً من القسطنطينية اسمه يوستيانوس لعقد الصلح مع المنذر فاجتمع به عند ضريح القديس سرجيوس في الرصافة ، وكان ذلك القديس موضع احترام السوريين قاطبة ، وتم الصلح في صيف ٥٧٨م وقد توفي جستين الثاني في هذا العام وقام بالأمر بعده طيباريوس وكان أكثر تودداً للعرب ، فسافر المنذر الى القسطنطينية ومعه ولداه وليس فيها التاج (٥٨٠م) وكان القياصرة قبل ذلك لاينعمون على العرب الا (بالاكليل) ثم انقلب المنذر الى سورية وهاجم عرب الحيرة الا انه لم يتجاوزهم الى ارض فارس فارتاب الروم بأمره ورموه بالتواطؤ مع الفرس وكلفوا القائد ماغنوس في سورية أن يقبض عليه ، فدعاه الى احتفال في كنيسة حوارين وهناك اعتقله وأرسله مخفوراً الى العاصمة .

ثورة بني غسان

وقطعت الروم الاعانة المالية عن العرب ، فاستعرت لظى الثورة تحت زعامة النعمان النجل الاكبر للمنذر يعززه اخوته الثلاثة فاشاعوا الرعب في سورية جمعاء حتى انخلعت منهم قلوب الحامية في بصرى فتخلت لهم عن الذخائر الحربية وغيرها من أموال ابيهم المودعة في بصرى ، فعبأ طيباريوس جنوداً أخرى وضعها تحت قيادة ماغنوس لقمع الثورة ، وكان مع الجيش أخ للمنذر أعده الروم تضليلاً للعشائر الغسانية ولكن المنية أدركته في

الطريق فسقط في يد القائد الرومي إلا انه احتال على النعمان فدعاه الى المفاوضة السلمية فاجاب الدعوة ولكن ماغنوس غدر به فقبض عليه وأرسله الى القسطنطينية فبلغها في عهد القيصر موريقوس وكان يعامل فيها كأسير حر فانتشرت الفوضى بعد ذلك بين العرب السوريين ، وانقسموا حول شيوخهم شيعاً عزين ، حتى إذا زحف الفرس على الروم واثخنوا فيهم (٦١٣ – ٦١٤م) لاذ العرب باذيال الحياد ، بل انضم بعضهم الى الفرس ، ولحق منهم عدد قليل ببلاد الروم ، الا أن هرقل أعاد تأسيس المملكة الغسانية (سنة ٦٢٩م) ونصب عليها جبلة ابن الايهم ولكن الطلائع العربية كانت في خلال ذلك قد اخذت تحت راية لاسلام تقرع بظبات سيوفها أبواب مملكته من الجنوب .

العرب والفرس

أما فارس فشمرت لطرد العرب من العراق بعد أن بثوا المستعمرات العربية على حدود الفرثيين وتفاقم أمرها حتى شملت الارض التي عرفت فيما بعد بالسواد ، فحاصر أزدشير أول ملوك بني ساسان المستعمرة العربية المعروفة باسم (الحضر) ثم ان ابنه سابور انتصر على العرب (٢٤٠ م) ولكنه عي باخراجهم من البلاد فعقد اتفاقاً معهم ينص على أن يتناول العرب اعطيات مالية من الملك الأعظم وان يخضعوا له وان يدافعوا عن الحدود قال الشاعر :

أقفر الحضر من نضيرة فالمر باع منها فجانب الثرثار

والثرثار واد عظيم بين سنجار وتكريت كانت فيه منازل بكر بن وائل واختص باكثره بنو تغلب منهم وبر بالحضر ثم يصب في دجلة قال عدي بن زيد :

وأخو الحضر اذ بناه واذ دجـــلة تجبى اليه والخابور
شاده مرمرا وجلله كلساً فللطير في ذراه وكور

نظام الاستعمار الفارسي

لقد كانت المملكة الفارسية تتألف من ولايات شتى يتولى شؤونها رئيس يكون مسؤولاً لدى الملك الأعظم وقد تنتخب الولاية رجلاً ينصبه الملك وقد يولي غيره ، وقديماً تمّ تكوين الجالية اليهودية تحت زعامة رئيسهم في الأسر جرياً على هذه القاعدة ، وعندما عظم أمر المسيحيين افردوا بولاية مستقلة تحت رئاسة سلوقية ، فاهل فارس وان كان في الظاهر مستبدّاً إلا أنه كان يحكم المقاطعات المترامية الأطراف وفقاً لرغبة أهلها بخلاف ما كانت عليه دولة الروم من تزمت في الادارة وضيق عطن ، ولذلك استمتع العرب تحت حكم فارس بنوع من (الحكم الذاتي) واسع النطاق ، فكان لهم استقلالهم تحت سيادة ملوكهم ، وكانت التزاماتهم الملك الأعظم تجرى طبقاً لميثاق يعقد . فكان الملك الأعظم يختار على العرب ملكاً من لحم أرباب القصور والحضارة ، أما بنو تنوخ فكانوا من سكان الخيام . ولقد بلغ من علو شأن العرب عند الفرس ان ملك فارس يزدجرد الاول (٤٢٠م) بعث ابنه الاكبر بهرام الى الحيرة لينشأ فيها على البطولة والفروسية ، ولكي ينعم بالهواء الطلق ولذة الصيد ، وقد سمت الحيرة الى أوج العظمة في عهد المنذر الثالث ، وعندما عقدت مملكة الروم صلحاً مع كسرى أنو شروان (٥٣٢ م) دفعت غرامة لملك فارس ومثلها لملك العرب المنذر .

الموقف الداخلي في بلاد العرب

لقد كانت مملكة حمير في مطلع القرن السادس بعد الميلاد مشرفة على الزوال ، وكانت حكومة نجران في اليمن قد دب اليهـــا هي الاخرى الضعف وكانت تتألف من أمير يلقب بالعاقب ، ووكيل يعرف بالسيد ، ومن أسقف ينظر في أمور الدين ، وكان ملوك القسطنطينية قد شرفوا العاقب ومولوه ، وبنوا له الكنائس ، وبسطوا عليه الكرامات ، لما يبلغهم عنه من علمه واجتهاده في دينه ، ولذلك كله خلا المجال (لملك الحيرة العربي)

وأصبح (سيد العرب) في القسم الجنوبي من الجزيرة وخضعت له معظم القبائل في أواسطها ، وكان سلطان الفرس مرتبطاً بذلك التوسع والنفوذ فاصبحت السيادة لفارس على الجنوب الشرقي من الجزيرة ، وعلى الجنوب الغربي منها ، فلا غرابة والحالة هذه اذا رأينا الملك عمرو بن هند يشير الى البحرين ، وهي عنه البعيدة النائية بانها تحت حكمه ، وداخلة في نطاق أعماله ، ويأمر المتلمس وطرفة الشاعرين الشهيرين بالسفر اليها ، لقبض الجائزة من عامله عليها ، وقد حملها اليه كتاباً منه ، وانكم أيها السادة لتعلمون أن المتلمس أنكر تلك الصحيفة فدفعها الى غلام من أهل الحيرة يقرؤها له ، لانه كان أمياً ، فاذا فيها (أما بعد فاذا أتاك كتابي هذا مع المتلمس فاقطع يديه ورجليه وادفنه حياً) فقذف المتلمس بالصحيفة في اليم وهرب الى بصرى وأخذ يهجو الملك ابن هند ، وكان قد بلغه أن الملك كان يقول : (حرام عليه حب العراق أن يطعم منه حبة ولئن وجدته لاقتلنه) وكان مما قاله المتلمس :

يا آل بكر ألا لله امكم ... طال الثواء وثوب المجز ملبوس
أغنيت شأني ، فأغنوا اليوم تيسكم ... واستحمقوا في مراس الحرب او كيسوا

ثم قال :

آليت حب العراق الدهر احرمه ... والحب يأكله في القرية السوس
لم تدر بصرى بما آليت من قسم ... ولا دمشق اذا ديس الكداديس

وقال عن الصحيفة :

قذفت بها في اليم من جنب كافر ... كذلك السقي كل رأي مضلل
رضيت بها لما رأيت مدادها ... يجول به التيار في كل جدول

أما طرفة فانتهى الى البحرين وأمضى فيه العامل أمر الملك ، وقد رثته أخته الخرنق فقالت :

عددنا له خمساً وعشرين حجة ... فلما توفاها استوى سيداً ضخما
فجعنا به لما انتظرنا إيابه ... على خير حال لا وليداً ولا فحما

ولقد كان عمرو بن هند هذا على مافيه من قسوة وعتو ، وهو الملقب بمضرط الحجارة ، يروقه الشعر ويطرب لانشاده ولما أنشده الحارث بن حلزة قصيدته وكان بينها سبعة ستور أعجب الملك بمنطقه وكانت هند أم الملك تسمع ، فقالت لابنها (تالله مارأيت كاليوم رجلاً يقول مثل هذا القول يكلم من وراء سبعة ستور) فقال الملك (ارفعوا ستراً وأدنوا الحارث) وما زالت هند يزيد اعجابها به ، والملك يقول ارفعوا ستراً وأدنوا الحارث حتى أزيلت الستور السبعة ، وأقعده الملك قريباً منه ثم أطعمه من جفنته وأمر أن لاينضح أثره بالماء لأن الحارث كان به وضح أي برص ، وأطلق الملك السبعين بكرياً الاسرى ودفعهم الى الحارث ، وفضل قصيدته على قصيدة عمرو بن كلثوم فعاد التغلبيون الى أحيائهم ومعهم شاعرهم وهم يحملون في جوانحهم الملك كل ضغن ، ولبثوا كذلك ماشاء الله حتى جمعهم الملك مرة أخرى فثاروا عليه وانتهبوا رواقه ، وساقوا نجائبه ، وعلاه عمرو بن كلثوم بالسيف فأودى به .

الممثل الفارسي

أما الممثل الفارسي فكان بمنزلة المندوب السياسي في السياسة الحاضرة ، ومقامه في صنعاء ومنها يشرف على سائر اليمن وعمان والبحرين ، ويمتد نفوذه الى الصميم من نجد عن طريق اليمن وذلك أن كندة من القبائل القحطانية كانت قد التفت حولها قبائل بني بكر من اليمامة في أواسط القرن الميلادي الخامس لاتساع شقة الخلاف بين البكريين ، فاجمع عقلاؤهم على أن يولوا منهم ملكاً يختاره لهم سيد اليمن نفسه فانتقى لهم رجلاً من كندة اسمه حجر وهو والد امرىء القيس الشاعر الكبير فذهب الى نجد وجمع البكريين تحت لوائه .

حكاية عجيبة

ومن أعجب ما حدثتنا به السير أن أحد ولاة فارس في صنعاء وهو المسمى باذان أوفد بعض الجند الى الرسول الاعظم ﷺ في المدينة المنورة ، ولم يوفد اليه جيشاً لجباً بل رجلين اثنين من رجاله لأن الحجاز كانت (من مناطق نفوذه) ولذلك لم تنكر قريش على باذان مافعل ولا وقع لديها أمره موقع الاستغراب بل فرحت برؤية جنديه وظنت بالله الظنون فانه لما بعث الرسول ﷺ كتب كسرى الى باذان عامله على اليمن (بلغني أن في أرضك رجلا تنبأ فابعث به الي) فبعث باذان قهرمانه وهو بانويه وكان كاتباً حاسباً وبعث معه برجل من الفرس يقال له خرخسره فكتب معها الى رسول الله ﷺ يأمره أن ينصرف معها الى كسرى وقال لبانويه (ويلك انظر ما الرجل وكله واتني بخبره) فلما بلغا الطائف وكان فيه حينئذ جمع من أشراف قريش مثل أبي سفيان وصفوان بن أمية وغيرهما فسألا عن النبي ﷺ فقالوا انه بيثرب فلما سمع أبو سفيان وصفوان بن أمية مضمون كتاب باذان فرحا وقالا (مثل كسرى قام بعداوته) وقدم بانويه وخرخسره المدينة على رسول الله ﷺ فلما قدما عليه أنزلهما وأمرهما بالمقام أياماً ثم أرسل لهما ذات غداة ولما دخلا عليه قال لهما (اجلسا) فبركا وجلسا على ركبهما وكلمه بانويه وقال (ان شاهنشاه ملك الملوك كسرى كتب الى الملك باذان يأمره أن يبعث اليك من يأتيه بك وقد بعثني اليك لتنطلق معي فان فعلت كتب فيك الى ملك الملوك بكتاب ينفعك ويكف عنك به وان أبيت فهو من قد علمت وهو مهلك قومك ومخرب بلادك) وأعطياه كتاب باذان ولما اطلع رسول الله ﷺ على كتاب باذان وسمع حكايتهما تبسم ودعاهما الى الاسلام ثم قال لهما (ارجعا حتى تأتياني غداً) فلما أتيا الى النبي ﷺ من الغد قال (ان ربي قد قتل الليلة ربكما بعد ما مضى من الليل سبع ساعات ، سلط عليه ابنه شيرويه حتى بقر بطنه .) وكانت تلك الليلة ليلة الثلاثاء العاشرة من جمادى الاولى من السنة السابعة من الهجرة ثم قال (اذهبا وخبرا صاحبكما

— يعني باذان — بهذا الخبر) فقالا (هل تدري ماتقول ؟ انا قد نقمنا منك ماهو أيسر من هذا أفنكتب بها عنك ونخبر الملك) قال النبي (نعم أخبراه ذلك عني وقولا له ان ديني سيبلغ مابلغ ملك كسرى وينتهي منتهى الخف والحافر وقولا له انك إن أسلمت أعطيتك ماتحت يدك وملكتك على قومك من الأبناء) ثم ان رسول الله ﷺ أعطى خرخسره منطقة فيها ذهب وفضة كان أهداها له بعض الملوك فخرجا من عنده حتى قدما على باذان وأخبراه الخبر فقال (ماهذا بكلام ملك واني لأرى الرجل نبياً كما يقول ولننظرن ماقد قال فلئن كان ماقاله حقاً سيأتي الخبر اليّ يوم كذا ولاكلام انه نبي مرسل ولا يسبقني عليه أحد من الملوك في الايمان به ، وان لم يكن فسنرى فيه رأينا) فلم يلبث باذان أن قدم عليه كتاب شيرويه (أما بعد فاني قتلت كسرى ولم أقتله إلا غضباً لفارس لما كان استحل من قتل أشرافهم فتفرق الناس فاذا جاءك كتابي فخذ لي الطاعة ممن قبلك وانظر الرجل الذي كان كسرى كتب اليك فيه فلا تهجه حتى يأتيك أمري فيه) فلما انتهى كتاب شيرويه الى باذان قال (ان هذا الرجل لرسول الله حقاً) فاسلم وأسلمت الأبناء من فارس من كان منهم باليمن وبعث باذان باسلامه واسلام من كان معه الى رسول الله ﷺ .

امرؤ القيس ورحلته الى قيصر

لقد كان العرب في ذلك الزمن الغابر كلما ضاقوا ذرعاً بالمسيطر عليهم من غير بني جنسهم فزعوا الى خصمه ولذلك سافر امرؤ القيس الى القسطنطينية بعد مقتل أبيه مستصرخاً القيصر « جوستنيان » على بني أسد ، وعلى المنذر ملك العراق ، فوعده القيصر خيراً ثم عرض عليه أن ينصبه أميراً على فلسطين فأبى امرؤ القيس تلك الامارة وكرّ راجعاً الى نجد ومات في انقرة .

ان في سفر امرىء القيس الى العاصمة الرومية لدليلاً على معرفة العرب باستغلال العداوة القائمة بين الروم والفرس ، وبرهاناً على علمهم باسباب

النزاع بين الدولتين ، فقد طمع امرؤ القيس في نصرة الروم له لما وقر في نفسه من أنهم يرغبون في أن يصيبوا من أعدائهم الفرس مقتلاً من مقاتلهم الاقتصادية ، وان امرأ القيس لم ينس أن يشيد بما عنّ له ضروب الطرف التجارية في قصيدته الرائية فذكر السنا ، والمسك الموضوع في حقة يمانية ، والبان والعود والبخور المدخن وذلك في قوله :

وريح سنا في حقة حميرية تخص [illegible] من المسك اذفرا
وبانا ، والويّا من الهند ذاكياً ورندا [illegible] والكباء المقترا

ولقد كان لبني أسد النصيب الأوفر ، في اخفاق امريء القيس عند قيصر ، فقد دسوا اليه وفداً منهم أتى القسطنطينية وعلى رأسه الطماح بن قيس فأفسد رأي القيصر في امريء القيس ، وحمله على التبرم به والاعراض عنه قال امرؤ القيس :

لقد طمح الطماح من بعد أرضه ليلبسني من دائـــه ما تلبسا
الا ان بعد العدم للمرء قنوة وبعد المشيب طول عمر وملبسا

وقد رزيء امرؤ القيس ببعض أصحابه في الطريق الى قيصر فمات منهم الحارث ابن حبيب السلمي فرثاه بقوله :

ثوى عند الودية جوف بصرى أبو الأيتام والكل العجاف
فمن يحمي المضاف اذا دعاه ويحمل خطة الانس الضعاف

والودية النخلة الصغيرة ، وقد بكى رفيقه بن عمرو قميئة شاعر بني بكر المشهور وهو المعني بقوله :

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن أنا لاحقـان بقيصرا
فقلت له لاتبكِ عينك اننـا نحاول ملكاً أو نموت فنعذرا

منازل بني أسد والحارث الأعرج

ولقد كانت منازل بني أسد تقع الى الجنوب من تيماء أي الى الشرق من الطريق التجارية الكبرى وكانت قبائل بني عذرة ، وجذام ، وبلي ،

منتشرة على طول تلك الطريق التي أصبحت اليوم طريق الحجاج من معان الى المدينة وأما سلاسل الجبال اجأ ، وسلمى ، وعوارض ، فكانت تشرف من الغرب والجنوب على بني أسد الذين تؤلف منازلهم التخم الشمالي لعنزة والنمر النازلين على الطريق المؤدية من ناحية الجنوب الى فلسطين وسورية . قال حسان بن حنظلة الطائي :

غضبت علي ان اتصلت بطيء وأنا امرؤ من طيء الأجبال

أي أجأ وسلمى وعوارض . وأما بنو كلب وهم قبيلة يمانية كذلك فتنزل في الشمال وفي الشمال الشرقي من مواطن تلك القبائل أعني في المنخفضات التي تعرف اليوم باسم الجوف ووادي السرحان ؛ وكانت كثبان الرمال المترامية التي تسمى اليوم صحراء « النفود » هي الحاجز بين تلك القبائل اليمانية وبين بني أسد ، وكانت ديار بني أسد هدفاً لهجوم الغسانيين عليهم ، وأشهر من غزاهم الملك المعروف في القسطنطينية باسم (الحارث الاعرج) وقد مزق شملهم بجيوش جهزها عليهم خاصة لاعتدائهم بالغارة بعد الغارة على الحدود (٤٩٧ — ٥٠١ م) ولجأت بقية السيوف منهم الى أوزاع غيرهم من اخوانهم الآخرين .

قال شاعر بني أسد عبيد بن الأبرص يذكر الحارث الأعرج :

نحن قدنا من أهاضيب الملا الـــخيل في الأرسان أمثال السعالي
فانتجعنا الحارث الأعرج في جحفل كالليل خطار العوالي

ثم يصف ديار بني أسد فيقول :

ولنـا دار ورثنا عزهـا (م) الاقدم القدموس عن عم وخال
مالنا فيها حصون غيرمـا (م) المقربات الجرد تردي بالرجال

وقال عن بني غسان :

بجحفل كبهيم الليـل منتجع ارض العدو لهام وافر العدد
وكل أجرد قد مالت رحالته نهد المراكل فعم ناتيء الكتد
حتى تعاطين غساناً فحربهم يوم المرار ولم يلووا على أحد

عوت بنو أسد غسان أمرهم وقل ماوفقت غسان للرشد

وقال فيهم :

وجع غسان لقيناهم بجحفل قسطله ذائل

وقال يسخر من امرىء القيس وذهابه الى قيصر :

ياذا المخوفنا بقتل شيخه حجر تمني صاحب الاحلام
أزعمت أنك سوف تأتي قيصراً فلتهلكن اذاً وأنت شآم

وقال يعيره :

وأنت امرؤ ألهاك دف وقينة فتصبح مخموراً وتمسي كذلكا
ظللت تغني ان أصبت وليدة كأن معداً أصبحت في حبالكا

أما امرؤ القيس فأودع دروعه عند السموأل بن عادياء فجعلها في قصره الأبلق بالقرب من تيماء ولما ذاعت الانباء بوفاة امرىء القيس ظهر الحارث الغساني أمام الابلق بصفة أنه حامي الحدود الرومانية وطلب الدروع من السموأل وهدده ان لم يفعل بقتل ابنه على مرأى منه ومسمع ، وكان قد قبض عليه خارج الحصن أثناء عودته من الصيد فأبى السموأل تسليم الدروع وقتل الحارث ابنه ونكص عن الحصن يجر أذيال الخيبة أما حجة الحارث فكانت تقوم على ان امرأ القيس من (التابعة الرومانية) بطلب مساعدة القيصر ، وأما الحارث فقد أصبح بصفة كونه ممثل الامبراطورية على حق في أن يرث امرأ القيس .

النظام العسكري في الحيرة

أما النظام العسكري فليس لدينا نبأ عنه مسهب الا ما كان منه في بلاط النعمان بن المنذر ، فقد كانت للنعمان كتائب خمس وهي الرهائن — والصنائع — والوضائع — والاشاهب — ودوسر .

أما الرهائن فكانوا خمسماية رجل رهائن لقبائل العرب ، يقيمون على

باب الملك سنة ثم يستبدلون بخمسماية آخرين وينصرف أولئك الى أحيائهم ، فكان الملك يغزو بهم ويوجههم في أموره .

أما الصنائع فبنو قيس وبنو تيم اللات ، وكانوا خواص الملك لايبرحون بابه أي أنهم كانوا له « الحرس الخاص » .

أما الوضائع فكانوا ألف رجل من الفرس يضعهم ملك فارس في الحيرة نجدة لملك العرب وكانوا كذلك يقيمون سنة ثم يخلفهم ألف رجل وينصرف أولئك الى ديارهم اي انهم كانوا « جيش الاحتلال » .

أما الاشاهب فاخوة ملوك العرب وبنو عمه ومن يتبعهم من أعوانهم وسموا الاشاهب لانهم كانوا بيض الوجوه ، قال الاعشى :

وبنو المنذر الأشاهب في الحير ة يمشون غدوة كالسيوف

وأما دوسر فكانت أخشن كتائب الملك وأشدها بطشاً ، ومن كل قبائل العرب ومعظمهم من ربيعة ، وكانت دوسر تعد أربعة آلاف رجل ، وسميت دوسراً اشتقاقاً من الدسر ، وهو الطعن بالثقل لثقل وطأتها .

وكان الملك في رأس كل سنة من أيام الربيع يأتيه وجوه العرب وأصحاب الرهائن وقد صير لهم أكلاً عنده وهم (ذوو الآكال) فيقيمون عنده شهراً ويأخذون آكالهم ويبدلون رهائنهم وينصرفون الى أحيائهم .

التراجمة العرب في الامبراطورية

أما التراجمة العرب الذين تبوأوا المناصب الرسمية في الدولة الرومانية فلم يكن لهم شأن يؤبه له اما الذين كانوا منهم في بلاط فارس فاشهرهم عدي ابن زيد ، ولقيط بن زرارة وكان لهم فيه مقام أثير لاتصالهم المباشر بالملك الاعظم ومعرفة لغته وقيامهم بالترجمة بينه وبين العرب ، ولذلك كان الناس يرغبون اليهم ويرهبونهم ، وكان عدي اذا أراد المقام في الحيرة في منزله ومع أبيه وأهله استأذن كسرى فأقام فيهم الشهر أو الشهرين وأكثر وأقل ، واذا دخل على المنذر قام جميع من عنده حتى يقعد عدي ، وقد أرسله

كسرى سفيراً إلى ملك الروم بهدية من طرف ما عنده فلما أتاه عدي أكرمه وحمله الى عماله على البريد ليريه سعة أرضه وعظيم ملكه وقد وقع عدي في دمشق وقال فيها الشعر فكان مما قال :

رب دار بأسفل الجزع من دو ... مة أشهى إلي من جيرون
وندامى لا يفرحون بما نالوا ... ولا يرهبون ريب المنون
قد سقيت الشمول في دار بشر ... قهوة مزة بماء سخين

وكان لتلاعب المترجمين أثر وأي أثر في تصريف الامور ومن ذلك مافعل زيد بن عدي باللفظ المترجم أخذاً بثأر أبيه فقد طلب كسرى من النعمان نساء لنفسه وأوفد اليه زيد بن عدي ومعه رسول فارسي وقد زعم زيد للنعمان عند الاجتماع به في الحيرة أن كسرى أراد بمصاهرته تكريمه فشق الأمر على النعمان لضن العرب بنسائهم على غيرهم فقال لزيد ورسول كسرى يسمع ، أما في مها السواد وعين فارس مايبلغ به كسرى حاجته ! فترجمها زيد (كاون) اي البقر فكانت تلك الترجمة سبباً آخر في تفاقم العداء بين الملكين .

أما لقيط فقد غضب لقومه عندما رأى سابور مجمعاً على غزو أياد فكتب لهم قصيدة ينذرهم فيها غزو الملك اياهم وقد قطع الملك لسان لقيط عقاباً له وغزا اياداً ومما قال لقيط :

بالهف نفسي ان كانت أموركم ... شتى واحكم أمر الناس فاجتمعا
قوموا قياماً على أمشاط أرجلكم ... ثم افزعوا قد نال الامر من فزعا
وقلدوا أمركم لله دركم ... رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا
لامترفاً ان رخاء العيش ساعده ... ولا إذا عض مكروه به خشعا
ماانفك يحلب هذا الدهر أشطره ... يكون متبيعاً طوراً ومتبعا

أما الحجاز فكان السلطان فيه للعمالقة ثم لجرهم ثم لخزاعة وانتقل بعد ذلك الى قريش على يد قصي بن كلاب .

الخلاصة

وفي الجملة أن العرب لم يكونوا في تلك الحقبة الاخيرة من العصر الجاهلي أمة بالمعنى القومي الصحيح بل كانوا عمالاً لغيرهم وخولاً لسوام الا أنهم كانوا قد سئموا تلك الحالة من شيوع الفوضى في الاعمال والمتاجر وفقدان الأمن وثقل وطأة الغريب فظهروا بمظهر المتبرم الناقم وذلك في ثورات عدة كثارة تميم وقيس متساندين على أطراف المملكة الفارسية ، حتى أن الأوس والخزرج كانوا قد تعاهدوا في يثرب على أن يكون عبد الله بن أبيّ ملكاً عليهم ، وعندما سار سيف بن ذي يزن على الحبشة وانتصر عليهم خرج عبد المطلب من الحجاز الى اليمن لتهنئته بالنصر ، وقدمت على سيف وفود العرب وأشرافها ووفد قريش خاصة وقيل في ذلك شعر مشهور ، ولقد كان الاستعماران الفارسي والروماني مما اجتواه العرب في النهاية وازورّوا عنه ، ولقد رويت لكم ما كان من أمر بني غسان وهرقل وأضيف عليه بهذا المقام أن الامور كانت قد سارت كذلك بين الاكاسرة والملوك اللخميين حتى فر النعمان من كسرى الى البادية يطوف على القبائل ليس أحد منهم يقبله وهو النعمان الثالث أبو قابوس ممدوح النابغة الشاعر المشهور ثم نزل بهاني بن مسعود الشيباني فاجاره وأشار عليه بعد أن جعل حرمه وسلاحه في ذمته أن يشخص الى كسرى فلا يكون بعد الملك سوقة يتلعب به صعاليك العرب وذؤبانها فقال له النعمان : هذا وأبيك الرأي الصحيح ويمم كسرى فلما بلغ بابه بعث اليه من قيده وزج به في السجن وقيل ألقاه تحت أرجل الفيلة فقتلته وكان هلاك النعمان سنة ٦٢٠ م فغضبت له العرب وكان مقتله السبب في وقعة « ذي قار » التي قال عنها الرسول ﷺ اليوم انتصف العرب من العجم وقد نزحت قبيلة بكر بن وائل بعد تلك الحرب الى البحرين فنزلت فيها غاضبة ساخطة واستأنفت الثورة على الفرس فانقطعت المواصلات بين فارس وبين الشرق والجنوب من بلاد العرب وأخذ الاستعمار

الفارسي بالأفول ولم يغن عن فارس مافعلته قبل ذلك من اختيار اياس بن قبيصة من قبيلة طي ملكاً على الحيرة فقد توفي أياس هذا سنة ٦١٤ م أي قبل مقتل النعمان وأصبحت الحيرة بعد اياس المشكلة المعقدة في السياسة الفارسية ، وأوحى الافن في الرأي الى رجالها أن ينزعوا استقلال الحيرة ويجعلوها ولاية فارسية ففعلوا ونصبوا عليهـــا حاكماً منهم فثارت مراجل الغضب في نفوس أهلها العرب وتربصوا بالفرس الدوائر وكان قد راعهم من قبل وملأهم رعباً ماشهدوا من وثبة الليث وماسمعوا من وقع لحييه على الفريسة ولكن شد منهم ورفـــه عنهم صوت النبوة الاقدس من الحجاز فاشرأبوا اليه جزاين فاذا هو منهم جد قريب واذا بالجحافل الفارسية في الحيرة تخنع بعد حين للفتح العربي الجديد .

وكذلك كان الشعور القومي بين العرب يزداد قوة على قوة ويدنو بعضه من بعض .

اللغة العربية والعرب

ذلك ماكان عليه العرب من حال سياسية لم تخل من شوائبها كتابتهم ، فقد كانت لغتهم العربية وهي نفس اللغة التي نتكلمها نحن اليوم ماعدا اليمن وما اليه من أطراف نائية الا أن العرب الاقدمين وان نطقوا بتلك اللغة الكريمة فقـد كانت كتابتهم باللغات الاخرى الغريبة ، فالمرقش الاكبر كتب شعره بالاحرف السريانية ، والغسانيون وان كانت لغتهم مضرية فقد دونوا أشعارهم وأخبارهم بالعبرية أو الرومية أو السريانية ، وكان المناذرة مثلهم قد كتبوا الخط الآرامي وعلى ذلك جرى التدمريون والانباط فقد كانت كتابتهم بالآرامية ولغتهم المأنوسة هي العربية .

قال العلامة جويدي :

« ومن اللغات الآرامية الغربية لغة الكتابات النبطية وكانت الانبـاط أمة عربية الأصل ولغتهـا المأنوسة العربية فكانت اذ ذاك العربية للتكلم

والمحاورة بين الناس لا لتحرير الكتابات والمكاتيب اذ الاحرف الهجائية لم تستنبط بعد » .

وقال الاستاذ مرجليوث عن العربية ما يأتي :

انها « لغة عاشت أجيالاً طوالاً محتفظة بنحوها وصرفها ومعاني مفرداتها من غير أن يكون لها أدب مكتوب ، الأمر الذي يستدعي عناية فقهاء اللغات واهتمامهم . ثم قال :

« ان تلك اللغة لعجيبة في انتشارها ورشاقة تعبيرها ودقة تراكيبها وغنا مفرداتها واننا لنجد في نحوها الواسع تعليلاً وتفسيراً لكل مايواجهنا من التراكيب الشاذة في اللغات السامية الاخرى على الرغم من أن لبعض هذه اللغات آداباً قديمة يرجع تاريخها الى عصور قديمة جداً ، فمن ذلك مانجده في التوراة من التراكيب الشاذة المعقدة التي لاتستقيم ونحو اللغة العبرية والتي لانجد لها تعليلاً وتفسيراً الا بالالتجاء الى النحو العربي ، اذ هو النحو الوحيد الذي نجد فيه مايوضح لنـا كثيراً من معميات التوراة وما خفي من تراكيبها الشاذة » .

ولا أزيد على ذلك كله الا قولي انـه التعليل المعقول لضياع الكثرة من الادب العربي القديم الذي أشار اليه عنترة بقوله « هل غادر الشعراء من متردم » ولذلك لم يبلغنا منه إلا وشل من بحر ، وثمد من قطر .

أيها السادة

انه لخليق بي أن اسجل بعد هذا كله ان لغتنا العربية ليست بالحديثة الطارئة ولكنها صنو الدهر وترب الأجيال المتقادمة وانها هي نفس اللغة التي تكلمت بها القبائل العاربة أو البائدة ، قال الطبري في السفر الأول من تاريخه المطبوع في ليبسك في الصفحة ٢١٣ مايأتي :

« ولقد كان بنو عاد وثمود يتكلمون بهذا اللسان المضري ويقال لهم العرب العاربة لانه لسانهم الذي جبلوا عليه » .

وبذلك قال صاحب نهاية الأرب في أنساب العرب ولم يعرض أحد

فيما اعلم لنقض ذلك الرأي أو القول بخلافه من عرب ثقاة أومستشرقين محققين.

العربية وأسماؤها

ان لغتنا هذه العربية تعرف كذلك بالمضرية ، والقرشية ، والعدنانية والفصحى ، وسماها القرآن الكريم (اللسان العربي المبين) وحسبها شرفاً أن القصائد الصادعة ، والحكم الرائعة ، والخطب البارعة ، والمؤلفات الجامعة ، والرسائل المحبرة ، لم تكن الا من وشيها الانيق ، ونسجها البديع ، وانها لافصح ما اختلج به لسان .

العربية القحطانية

أما العربية القحطانية فتعرف باللغة الجنوبية وهي بالقياس الى المضرية أقرب الى الرطانة الاعجمية ، وقد انتشرت في اليمن وحضرموت جنوباً حتى عمان والبحرين شرقاً كالمعينية والسبئية والحميرية وقد أودت قبيل الاسلام أو كادت وخلفتها لهجات متعددة كالزبور في حضرموت وبعض اليمن ، والرشق في عدن ، والحويلة في مهرة والشحر ، والزقزقة بين الاشعريين .

وهناك بضع قبائل كانت منازلها في الجنوب فنزحت منه الى الشمال واختلطت بأبناء معد بن عدنان أي ربيعة ومضر فاصبحت لغاتها مضرية مثل بني عطية وكندة وتنوخ .

بنو قحطان وعدنان

ولقد كان القحطانيون قبل الاسلام أرباب الممالك والتيجان ، وأبناء الحضارة والعمران بخلاف العدنانيين الذين كانت تغلب عليهم البداوة فوق انهم كانوا قبائل متفرقة فلما تبلج فجر الاسلام تبوأ العدنانيون غارب الزعامة وألقت اليهم العرب بالمقاليد فانتقلت السيادة من قحطان الى عدنان .

اللغات السامية

أما اللغات السامية فتنقسم الى ثلاثة فروع هي :

(١) العربية — وصنواها الحميرية والاثيوبية أي الحبشية القديمة .
(٢) الآرامية — وفروعها السريانية والكلدانية والسامرية .
(٣) العبرية — وما ماثلها كالفينيقية والكنعانية .

وهنالك قسم رابع يضم الآشورية والعيلامية .

وأما مزايا اللغات السامية فأشهرها الخصائص السبع التالية وهي:

(١) ان بين حروفها الصحيحة حروفاً حلقية كالحاء والخاء والعين .
(٢) ان كلماتها تتألف غالباً من ثلاثة أحرف .
(٣) ان لأفعالها زمانين وتصاريفها قياسية ومشتقاتها متشابهة .
(٤) فيها المذكر والمؤنث والاعراب الذي هو من خصائص الآشورية والعربية المضرية .
(٥) ليست فيها أفعال أو أسماء مركبة الا الاسماء المزجية .
(٦) انها تكتب من اليمين الى اليسار ماعدا الحبشية فتدون بالعكس ويرجح أن ذلك طارىء عليها لأن نقوشها القديمة تجري على غرار اخواتها .
(٧) ان الحركات تستعمل فيها للدلالة على بعض الأصوات .

سادتي الأماثل :

لقد رأيتم مما ألقيته على مسامعكم الكريمة ان العرب لم يظفروا باية وحدة في دارتهم أو كتابتهم أو أعدافهم أو قوميتهم الا بعد بعثة النبي الاعظم ﷺ فقد جمع كلمة العرب قاطبة في وحدة عميمة شاملة أخرجتهم من الظلمة الى النور ومن الضعف الى القوة فنهضوا تحت رايته المقدسة الوارفة تلك النهضة الصادقة التي تحدث عنها التاريخ وتغنت بها الأجيال « إنا نحن نزلنا الذكر ، وإنا له لحافظون » .

الصلة التجارية

أيها السادة

ان حديث التجارة لممتع طريف ، فلقد كان العالم وما فتأ قطب رحاه التجارة ، وقديماً كانت الهند ، وكان الشرق الأقصى ، وهما الهدف المنشود لرواد المغانم والمرابح ، ومن المعلوم ان الملاحة في البحر الهندي كانت محفوفة بالمخاطر فوق أنها طويلة الأمد بعيدة الشقة لاعتماد القوم فيها على الريح وفي الاخص قبل الملامهم في تلك الأيام بخصائص الريح الموسمية ، وهذه الريح اثنتان — الاولى تهب من الشمال الشرقي الى الجنوب الغربي والاخرى تهب من الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي ، ومدة كل واحدة منها ستة أشهر .

ولقد كان العرب يعرفون لدى الشعوب القديمة بأنهم وسطاء التجارة ، وحفظة دروبها ، جرياً على عادتهم في الحل والترحال ، وتمرسهم بالمفاوز ، وارتيادهم مافيها من مرعى ومسارب ومناهل وآبار فوق صبرهم على شظفها ولأوائها ، وكانت بلادهم بحكم موقعها الجغرافي حلقة الاتصال بين ممالك العالم القديم ولقد قال استرابون « ان العربي تاجر بفطرته » .

ولما كان الخلاف قد دب فاستحكمت حلقاته بين الفرس والروم فقد أجمعت فارس على شل التجارة الرومانية مع الهند والشرق الاقصى ولذلك كان تهافتها شديداً على احتلال جنوبي الجزيرة لمنع بضائع الشرق من الوصول إلى أسواق الرومان ، ولقد كان معظم التجارة مع جنوب الجزيرة يمر من الحجاز ومصر على أيدي التجار من أبناء اليمن وبعبارة أوضح السبأيين الذين كانت بيدهم عروض حضرموت وظفار وجميع مايرد من سلعة الى صنعاء من الهند وكانوا يؤمون بها المحطة الكبرى العامة في ذلك العهد العريق وأعني بها « تيماء » .

ومما يحمل على الدهشة أن عرب سبأ استغلوا مناجم الذهب في روديسية

الجنوبية ولا تزال فيها أطلال معابدهم وقلاعهم وآثار زمبابوي من صنعهم ومعنى زمبابوي مصانع الذهب وقد حملوا ذلك الذهب الى سليمان الحكيم في فلسطين من سوفالا أو « سوفالة » ثغر روديسية هذه الى اوفير في اليمن ومع الذهب الحجارة الكريمة والبخور والعصي الحلوة أي قصب السكر وفي الترنسفال أصقاع تسمى الراند تغل من الذهب مايتضاءل دونه نتاج العالم بأسره وهنالك في الراند عرق من الذهب يمتد مسافة لا تقل عن ثمانين ميلاً من الغرب الى الشرق وقد أطلق الناس على هذا العرق اسم (عرق سبأ) اشارة الى (عرب سبأ) وما أحرزوا من ثروة باستخراجهم ذهب تلك الناحية وقد أثبتت الآثار انهم استغلوا الذهب في مناجم تمتد من زمبابوي الى الراند التي قامت فيها مدينة جوها نسبورغ الحديثة .

وأول مانتوه به من المسالك التجارية القديمة في بلاد العرب تلك الطريق التي تبدأ من ظفار على الساحل الجنوبي حيال سوقطرة ، وكانت ظفار مصدر التجارة في البخور ، والى شمالها تقع الصحراء الكبرى المعروفة « بالربع الخالي » والطرق المألوفة تحف بها من طرفيها من الشرق والغرب .

الطريق الغربية

فالطريق الغربية تنحدر مع المجرى الاصلي لوادي حضرموت حتى تلتقي بالسبيل المؤدي الى يوذامرن (عدن) وكانت القوافل الخارجة من صنعاء تسافر شمالاً الى الحجاز مجتازة سلسلة الجبال حتى تبلغ (هدية) فـ (العلا) على تخوم المملكة النبطية ، وكان حراس القوافل والقيمون عليها في الاكثر من أولئك العرب اليمانيين كما رأيتم ، وأما في العلا فقد كان الأنباط يتلقون فيها البضائع ويستوفون المكوس المضروبة عليها ثم يؤذن بها الى « تيماء » وتحملها القوافل من تيماء شمالاً الى بصرى ، وتدمر ، ودمشق ، ومن البضائع ما كان ينقل الى « ايلة » (العقبة) والى « رينوكلورا » (العريش) والى الطرف الشمالي من شبه جزيرة سيناء فيبعث به الى مصر ، ومنها

ما كان يصدر الى حائل ثم الى العراق مجتنباً « النقود » وقد كان أولئك القيمون اليمانيون يقطعون الطريق كلها الى العقبة وذلك في فجر المسيحية . وانما عندما اشتد بأس الأنباط استأثروا بالطرق التي تتخلل بلادهم وكانوا يتولون النقل بأنفسهم من العلا أول مدافعهم أي حدودهم حتى آخر ما لهم من حد ويصيبون من ذلك أموالاً طائلة .

ايلة (أو العقبة)

ولقد كانت ايلة (العقبة) في تلك الآونه سوقاً للقوافل حافلة ، وأما شهرة الأنباط في التجارة فقد ملأت مسامع الدنيا حتى قال عنها ديودوروس الصقلي (ان الأنباط بلغوا الأوج في احتكار تجارة آسيا الغربية وكان لهم الاشراف على جميع المتاجر الاخرى) .

سلع - وقد كانت مدينة سلع حاضرة الانباط بجمع العملاء والصيارفة والسماسرة وأرباب المال ، والمثابة التي تتشعب منها طرق التجارة الى سائر الأرجاء — فتذهب شمالاً الى البلقاء وسوريا وتدمر ، وشرقاً — الى خليج فارس والعراق ، وغرباً — الى البحر الاحمر ومصر ثم الى فلسطين وبلاد فينيقيا ، ولايزال المسافرون حتى اليوم يقعون من تلك الطرق على معالم ظاهرة للعيان على ان الرومان وان لم يبتدعوها فلم يألوا جهداً في تعهدها وصيانتها من البوار .

ولقد كانت كل قافلة تغشى غير طرق الانباط عرضة للنهب والسلب بأيدي الأنباط أنفسهم كما قال ديودوروس واسترابون .

ولما استولى الرومان على ايلة (العقبة) أصبحت منزلاً للجيش العاشر الروماني ، وكانت الرسوم تجبى فيها من قبل عمال الامبراطورية ، وقد شق تراجان طريقاً من أيلة الى فلسطين فاسدى يداً بيضاء الى تجـــارة البحر الابيض .

لوك كوم (املج) أما ميناء لوك كوم (املج) الواقع شمالي ينبع فكان

مرتبطاً بصنعاء ومأرب ، فكانت البضائع تحمل الى ذلك الميناء ثم تشحن منه في البحر الاحمر بعد الوقوف على خصائص الريح الموسمية .

الطريق الشرقية

أما الطريق الشرقية فكانت تبدأ من جرها (القطيف) وكانت البضائع الوافدة من الهند تهبط فيها وتحملها القوافل منها فتسلك بها الطريق المطيفة بخوم عمان مجتنبة اختراق الصحراء الموحشة ثم تلم بظفار آخذة سمتها الى مأرب وصنعاء والى لوك كوم (املج) حتى تتصل بالحجاز مفضية الى مكة .

وظفار مدينة على ساحل جون يخرج من بحر الهند ويطعن في الشمال ، عدة أميال .

ولقد كان بين الهند وساحل حضرموت اتصال مباشر لا يزال قائماً الى اليوم تشق عبابه سفن الاعراب .

بوداموت (عدن)

وكان ميناء يوداموت (عدن) مثابة للعدد الجم من السفن القادمة من الهند ، ثم تسير القوافل من يوداموت هذه تقل البضائع الى مكة ، ويثرب ، وسلع ، وبصرى ، حتى دمشق ، وتدمر ، والعراق ، أما الطرق التي تخترق الشطر الشمالي من البلاد وأعني به مكة — اليمامة — جرها ، فانها أحدث عهداً .

تيماء وعهدها الناضر

أما أقدم الطرق التجارية المعروفة فهي تلك الطريق التي كانت تمتد من جرها (القطيف) الى تيماء مجتازة اليمامة ، وعنيزة ، وحائل .

كانت تيماء في عهدها الناضر منتجع القوافل الشمالية للجزيرة العربية قاطبة ، ويرجع تاريخها الى زمن الفراعنة والآشوريين ، أما الطريق الواقعة بين اليمامة ومكة فالراجح أنها نشأت عن انتعاش الطريق الحجازية ، وكانت مكة في ذلك الزمن السحيق ليست أكثر من مناخ موقت الاستراحة على طريق اليمن — الحجاز .

أما تيماء فكانت المركز التجاري الاعظم للعالم القديم لايشق غبارها في ذلك بلد، ولا يباريها قطر ، فكانت عروة الوصل بين الحجاز وسورية وبين بابل ومصر لانها تتصل ببابل عن طريق حائل ، وبمصر عن طريق معان ، وايلة ، وسيناء ، وبغزة عن طريق ايلة ، وبفلسطين عن طريق تراجان ، وبسورية عن طريق الصحراء الذاهبة رأساً الى بصرى .

ولقد كانت تيماء مطمح أنظار الامم المتنافسة فتداولها النفوذ الفرعوني والآشوري ثم احتلها جيش من بابل (سنة ٥٥٢ قبل الميلاد) ولبث فيها بضع سنين حتى ظهر الفرس على البابليين ، وفي عهد قمبيز استأذن الفرس العرب في اجتياز ارضهم لفتح مصر ولقد قال هيرودوتس (أنه لم يكن في استطاعة الفرس أن يصلوا الى مصر لو أبى العرب عليهم ذلك) .

طرق أخرى

وكان هنالك طرق أخرى تسير من حائل مخترقة الجوف وكاف الى بصرى ، وفي الجوف تلتقي هذه الطريق بفرع آخر يؤدي الى بابل .

أما الدرب المباشر من تيماء الى بصرى فقد استحدثه الرومان البيزنطيون لاجتناب المدن التي كانت تجبى فيها المكوس .

قبل البعثة

وفي الزمن الذي سبق البعثة النبوية المباركة واحتدم فيه القتال بين الفرس والروم (٦٠٤ — ٦٠٧) انحطت ملاحة الرومان . ولم يتقدم الاحباش بتجارتهم نحو الشمال بل كانوا يشحنون قسماً كبيراً منها الى اليمن التي كانت بيدهم ثم انه يحمل منها الى مكة ، وحتى السلع الهندية الشرقية المتحدرة الى خليج فارس كانت ترد الى مكة ثم توزع منها على العالم الروماني اليوناني ، وكان الفرس كعهدهم يجاهدون لعرقلة التجارة الرومية باستيلائهم على اليمن وجرها (القطيف) .

نهضة مكة التجارية

وخلاصة القول ان النزاعات السياسية التي أطاحت بدولة الانباط ، والصراع الدائم بين الفرس والروم ، وعجز الأحباش عن القيام بما يطلبه الروم في أكثر الأحايين ، واضطراب حبل الأمن في معظم أقطار الجزيرة ، قد أدى كله الى نهضة « مكة » فاقتعدت غارب السيادة في (التجارة العالمية) وأصبح الحجازيون يحتكرون مسالكها وانصرفوا الى استثمار الأموال ، وغدت مدينتهم « مكة » مركز العمولة ، والتصريف لتجارة غربي آسيا ، وقامت مكة في ذلك أجمع مقام تيماء ، وتدمر ، وسلع ، ولقد شاركت مكة في تلك العظمة التجارية مدينة يثرب الا أن يثرب كانت تغص باليهود المرابين .

موقع مكة التجاري — وكانت مكة متصلة بنقطة افتراق الطرق الدائرة حول الطرف الشمالي من (الربع الخالي) عن طريق اليمامة الى جرها وأصبحت كذلك ملتقى الطرق الذاهبة الى اليمن وسورية والى تيماء والعراق .

عظمة القوافل — أما شأن القوافل وكان عظيماً وقد رأى استرابون قافلة منها فشبهها بالجيش الاجب لما كان فيها من الحراس ، والادلاء ، والمتجسسين ، والحفظة على الحيوانات ، والخدم ، والوكلاء ، وأضرابهم من ذوي المصالح ، وقد كان من المألوف في زمن الرسول ﷺ أن يبعث بقافلتين من مكة الى سورية في كل عام وكانت القافلة تؤم بعض الاسواق في المدن التي تعينها الحكومة الرومانية البيزنطية حتى لايفوتها استيفاء المكوس .

التجارة الحجازية — كانت التجارة الحجازية تجتاز ايلة (العقبة) الواقعة على حدود الطريق التي أنشأها تراجان من البحر الى فلسطين وكانت تسلكها القوافل الى غزة حتى ساحل البحر الأبيض . وكانت بصرى التي جعلها ديقلوتيان عاصمة الولاية العربية أحفل سوق على التخم السوري ، ولم تكن بصرى هذه عاصمة عربية شبه مستقلة كالحيرة بل كانت تحت اشراف عمال

الامبراطورية ، وكانت القوافل الوافدة من مكة تدفع بسلعها الى أيدي المشترين المفوضين من قبل الدولة ، وأصبح كل شاب ذي مِرّةٍ من أبناء الحجاز يسافر من مكة الى بصرى ولو مرة في كل عام .

الاستبداد المالي بمكة

ولما استفحل أمر التجارة بمكة استبد مموّلوها بفقرائها ونشأ نظام الربا الفاحش الذي ثقلت وطأته على النفوس وبلغ من فداحة أمره أن كان الدائن يضطر المدين الى اكراه إمائه على البغاء للحصول على المال قال الله تعالى : (ولاتكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا) . وكان اولئك المرابون يرون الربا ضرباً من التجارة ، قال الله تعالى : (وقالوا انما البيع مثل الربا) . وأما تلاعبهم بالتجارة وغشهم وتدليسهم فقد ذكره الله تعالى بقوله : (واذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون) . ولذلك كثر الناقون والمملقون واستبد بالأموال الطغاة المسرفون ، فسخروا الأمة لأغراضهم وعبثوا بها وانصرفوا الى الكسب وحده ، لايتورعون عن اقتراف مأثم ، ولا تمسك بحجزاتهم مروءة ، وإذا تلوت كتاب الله وجدته يخاطب تلك الامة المنهمكة بالتجارة بالالفاظ التجارية كقوله : (من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً) .

وقوله : (ألا أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم) . وقوله : (واذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا اليها وتركوك قائماً) . الى غيرها من أمثالها في التنزيل الحكيم .

قريش

أما قريش فكانت في تلك الحلبة التجارية هي المجلية فقد قبضت على مخنق العرب واحتجنت الأموال ، واستأثرت بالمتاجر أو كادت ، وان لاسمها رنيناً في أذني يوسوس الي بانه تصغير تعظيم للقرش وهو دابة عظيمة تكون في البحر المالح تخافها دواب البحر كلها لقوتها وبطشها ولاتزال معروفة حتى

اليوم بين العرب وفي الحجاز خاصة باسمها القديم أي القرش ويوجس منها الناس الخوف الشديد ويقال لها قريش كذلك بصيغة المصغر .

قال الشاعر :

وقريش هي التي تسكن البحـــ ـر بها سميت قريش قريشا
تأكل الغث والسمين ولا تتـــ ـرك فيه لذي جناحين ريشا
هكذا في البلاد شأن قريش يأكلون البلاد أكلاً كميشا

أجل أيها السادة : لقد ذكر المؤرخون ان قريشاً كانت في أول أمرها قبيلة متفرقة في البراري حتى جاء قصي بن كلاب من الشام فجمعهم وكانت تدعى قبل ذلك النضر بن كنانة وسماها قريشاً من التقريش أي التجميع وقيل غير ذلك وان هنالك نظرة أخرى في أصلها فقد جاء في « لسان العرب » وغيره (ان منشأها من بابل قال محمد بن سيرين : سمعت عبيدة يقول سمعت علياً عليه السلام يقول : من كان سائلاً عن نسبتنا فانا نبط من كوثى) وروي عن ابن الاعرابي انه قال : سأل رجل علياً عليه السلام فقال : أخبرني يا أمير المؤمنين عن أصلكم معاشر قريش فقال : (نحن قوم من كوثى) واختلف الناس في قوله نحن قوم من كوثى فقالت طائفة أراد كوثى العراق — وهي سرة السواد التي ولد بها ابراهيم عليه السلام وقال آخرون أراد بقوله كوثى مكة وذلك أن محلة عبد الدار يقال لها كوثى ، فاراد علي عليه السلام أنا مكيون أميون من ام القرى .

قال حسان :

لعن الله منزلاً بطن كوثى ورماه بالقفر والاعصـــار
ليس كوثى العراق أعني ولكن كوثة الدار دار عبد الدار

قال أبو منصور : والقول هو الاول تقول علي عليه السلام « فانا نبط من كوثى » ولو أراد كوثى مكة لما قال نبط ، وكوثى العراق هي سرة السواد من محال النبط وانما أراد علي عليه السلام أن أبانا ابراهيم كان من نبط كوثى وان نسبنا انتهى اليه قال ابن عباس نحن معاشر قريش حي من النبط من أهل كوثى .

يثرب وفنحاص — أما يثرب فكانت كثيره كذلك الى المكاسب في حرص ونهم وانه ليحسن بي أن أقص عليكم خبر فنحاص أحد أحبار اليهود فان فيه مايمثل رأي القوم في التهالك على الحطام ، واستساغة السحت فقد قال فنحاص لابي بكر رضي الله عنه « والله يا أبا بكر مابنا الى الله من فقر ، وانه الينا لفقير ، ومانتضرع اليه كما يتضرع الينا ، وانا عنه لاغنياء وماهو عنا بغني ، ولو كان غنياً ما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم ينهاكم عن الربا ويعطيناه ، ولو كان غنياً ما أعطانا الربا » . فغضب أبوبكر رضي الله عنه فضرب وجه فنحاص ضرباً شديداً وقال : « والذي نفسي بيده لولا العهد الذي بينا وبينك لضربت عنقك أي عدو الله » .

وقال الله تعالى (لقد سمع الله قول الذين قالوا ان الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ماقالوا) .

ذلك ما كان عليه العرب في الجاهلية من مرهق البغي الذي استأصل من قلوبهم شأفة الرحمة والشفقة وقطع بينهم دابر التعاون على البر والاحسان ، ولذلك استشرف العالم أجمع متشوقاً الى المصلح الاعظم ﷺ وازف أوانه ، وحان إبّانه ، لينقذ الانسانية من المدوان ، ويضع عنها عبء الطغيان .

واني لأختم مقالي هذا ببيان ألوان التجارة التي تداولتها أيدي العرب في البلاد العربية لانفسهم ولغيرهم من الامم ليكون في ذلك بعض الحجة على صلات العرب بغيرهم من الشعوب الاخرى ، وسعيهم وراء الربح وعلى انغماسهم في الترف وتكاثرهم بكل حلي وزينة ولقد قال الله تعالى (ولا تبرجن تبرج الجاهلية الاولى) . وأما أنواع تلك المتاجر فهي من الهند الدر والياقوت والمسك والكافور والعود الرطب وأنواع العطر والفلفـــل ، ومن الصين الحرير والقصب ، ومن اليمن نفسها الذهب من معدن عثم ، والجزع والعقيق من مخاليف اليمن الشرقية ، ومن الشحر الفارجيل والتنبل ، ومن الأنحاء الاخرى العبيد والبهار والانسجة الفـاخرة والوشي والنمارق والعاج والعسل والصوف والمن والادم والبرود والفحم والحنطة والحجارة الكريمة .

وقال حزقيال في الاصحاح السابع والعشرين عن العرب أنهم يتاجرون بالخرفان والكباش والاعتدة وأفخر أنواع الطيب وبكل حجر كريم والذهب .

وصفوة القول ان العرب كانوا يتجرون مع سورية بالأرجوان والوشي والكتان والمرجان والياقوت ، ومع فلسطين بالحنطة والحلاوة والعسل والزيت والبلسان ومع دمشق بالصوف الأبيض والخمر .

أما تجارة البدو الرائجة عند ذوي اليسار منهم فكانت فيما تفتقر معايشهم اليه فالوبر للبجاد ، والصوف للخباء ، والشعر للفسطاط ، والقطن للسرادق ، والأديم للانراف .

قال طرفة :

رأيت بني غبراء لاينكروني ولا أهل ذياك الطراف الممدّد

الطريقة الرمزية في الفلسفة العربية*

البحث في الطريقة الرمزية في الفلسفة العربية يرفع لنا النقاب عن صفحة من تاريخ الفكر العربي ، ويبين لنا صلة هذا الفكر بثقافتنا الحاضرة من أدب وفلسفة واجتماع . فقد يظن المرء للوهلة الأولى أن مباحث الفلسفة العربية ليست ذات صلة بالحاضر ، وان تفهم ماذكره الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد عن العقل الفعّال والنفس والفيض والمادة والصورة يحتاج الى عادات فكرية قديمة ، وأساليب فلسفية بالية . وهـذا الظن ، على مافيه من صدق ، لاينطبق تماماً على الواقع ، لأن التشابه بين حياتنا الفكرية القديمة ، وحياتنا الفكرية الحديثة عظيم الى حد بعيد . ولانزال حتى الآن نحمل آثار الماضي ، ونتبع في تفكيرنا الأساليب التى ورثناها عن أجدادنا . وسواء أكانت هذه الآراء القديمة صحيحة أم فاسدة ، فليس من شك في أن دراستها توضح لنا بعض نواحي حياتنا الحاضرة . هذا مانرجو أن نوفق لاثباته في الفقرات الآتية :

١ — ماهي الطريقة الرمزية

الطريقة الرمزية هي الطريقة التي نعبر بها عن أفكارنا بالألغاز والرموز . فاذا كانت أفكارنا مجردة بعيدة عن الحس عبرنا عنها برموز حسية ، كما تمثل المعاني الادبية بالصور المشخصة ، والحقيقة بالمجاز : فالثعلب هو رمز الخداع ، والكلب رمز الوفاء ، والحرباء رمز التقلب ، والفراشة رمز

(*) محاضرة ألقاها الدكتور جميل صليبا في ردهة محاضرات المجمع العلمي العربي في ٢٩ ايار سنة ١٩٤٢ .

الطيش ، والصولجان رمز الملك . وقد تدل على الأمور الحسية باشارات ورموز مجردة ، كما نعبر عن الأشياء بالألفاظ ، وكا تدل على الاشياء المعدودة بالأعداد ، وعن العمليات الحسابية بالاشارات ، وكما تمثل الكميات الجبرية بالحروف .

فللطريقة الرمزية اذن وجهان أحدهما يمثل الحقائق المجردة بالرموز الحسية والثاني يعبر عن الامور الحسية بالرموز المجردة .

ولسنا نريد الآن أن نحيط بهذه الطريقة احاطة فلسفية تامة ، فغرضنا ليس بالطامح ولا بالبعيد ، وانما نريد أن نشير بذلك الى أن الطريقة الرمزية التي نهجها بعض فلاسفة العرب في أمثالهم وألغازهم ، هي طريقة التمثيل الحسي للحقائق العقلية . وهذا التمثيل قد ساقهم الى توضيح القيم الخلقية ، وتفسير المذاهب الدينية في ضوء الحقائق الفلسفية تفسيراً يعبث بالنصوص ويستخرج منها كثيراً من المعاني التي يقرها أهل الباطن وينكرها أهل الظاهر .

وفي اللغة العربية كثير من هذه الرموز والألغاز ، مثل رسالة الطير لابن سينا ، ورسالته في القضاء والقدر ، ورسالته في اثبات النبوات وتأويل رموزهم وأمثالهم ، وقصة سلامان وابسال ، ومثل رسالة الطير للغزالي ، وقصة حي بن يقظان لابن طفيل ، وتدبير المتوحد لابن باجه ، وهي كلها تريد أن تعبر عن الامور العقلية المجردة بلغة الخيال .

وفيها كثير من كتب السحر وأسرار الحروف التي تريد أن تكشف لنا عن تصرف النفوس الربانية في عالم الطبيعة .

وفيها كتب في التصوف ، وكتب أخرى وضعت على أفواه البهائم والطير ، وقصص ، وحكايات ، وأمثال ، وأشعار رمزية

فمن قرأ هذه الكتب ولم يعرف الوجوه التي وضعت لها ، والأغراض التي رمزت اليها ، والى أي غاية جرى مؤلفوها فيها ، لم يدر ماأريد بتلك المعاني ، ولا أي ثمرة يمكن اجتناؤها منها .

٢ — دراسة بعض الأمثلة

ولسنا نستطيع الآن أن نشرح جميع هذه الرموز ، لان ذلك يحتاج الى بحث طويل . ويكفي لفهم الطريقة الرمزية في الفلسفة العربية أن ندرس مثالاً أو مثالين وأن نستخرج منها بعض النتائج العامة .

المثال الاول . — فأول مثال يستحق عنايتنا ، ويتفق مع غايتنا ، هو قصة سلامان وابسال . وهي على أشكال مختلفة ، ورد ذكرها في كثير من الكتب ، وأشار اليها ابن سينا في كتاب الاشارات ، وزعم بعضهم أنها من قصص العرب . ومهما يكن من أمر ، فان القصة التي اعتمدناها هنا هي أجمل القصص وأعمقها . لابل هي رواية كاملة تصلح لان تنظم شعراً ، وتوضع في قالب تمثيلي (١) .

وخلاصة هذه القصة أنه كان في قديم الدهر ، قبل طوفان النار ملك اسمه (هرمانوس) بن هرقل ، وكانت له مملكة الروم الى ساحل البحر ، مع بلاد اليونان وأرض مصر ، وكان هذا الملك ذا علم غزير ، شديد الاطلاع على تأثيرات الصور الفلكية . وكان الحكيم الالهي (اقليقولاس) من اساتذته وأصحابه ، فتعلم هرمانوس منه جميع العلوم الخفية ، وكان يستشيره في كل أموره . وكان هذا الملك لا يلتفت الى النساء ، وكان يكره معاشرتهن ، فأشار الحكيم عليه بأن يتزوج امرأة ذات حسن وجمال ، تحمل منه ولداً ذكراً ، فأبى الملك ذلك ، فقال له الحكيم أيها الملك ، ليس لك سبيل اذن الى اتخاذ الولد إلا أن ترصد طالعاً فلكياً موافقاً ، وتستبدل بالمرأة ببروجاً صنمياً ، وألازم أنا نفسي تدبير هذا الولد وأصرف اليه همتي ، وقوة فكري ، حتى تجتمع اجزاؤه ، ويقبل الحياة ويصير انساناً

(١) تجد هذه القصة مع قصتين تشبهانها في آخر « تسع رسائل في الحكمة والطبيعيات » لابن سينا طبعة القسطنطينية ١٢٩٨ هـ . راجع أيضاً شرح الاشارات للطوسي ، ص ١٠٢ من الجزء الثاني .

تاماً . وسمى الولد الذي جاء على هذه الصورة سلامان ، فجاؤا له بامرأة جميلة لم تبلغ الثامنة عشرة من سنها ، يقال لها (ابسال) فأرضعته ، وتولت تربيته ، وفرح الملك فرحاً شديداً ، وبنى على أثر ذلك هرمين ، وفقاً لغرض الحكيم لايخربها الماء ، ولا تحرقها النار ، بل يكونان حصنين منيعين لبقاء النفس .

فلما تم زمن الرضاع ، أراد الملك أن يفرق بين الصبي والمرأة ، فجزع الصبي لشدة شغفه بها . فلما رأى الملك ذلك منه تركه الى حين البلوغ ، فاشتدت محبته للمرأة ، وقوي عشقه لها ، حتى كان في أكثر أوقاته يفارق خدمة الملك لاصلاح أمرها . فقال له الملك : أيها الولد الشفيق ، أنت ولدي ، وليس لي في الدنيا غيرك ، فاعلم ان النساء هن مكايد الشر ، ومصايد البؤس ، وما أفلح من خالطهن ، فلا تجعل لامرأة في قلبك مكاناً ، حتى يصير عقلك مقهوراً ، ونور بصرك مغموراً ، فخذ نفسك عن هذه الفاجرة (ابسال) ، اذ لاحاجة لك فيها ، وأنا أخطب لك جارية من العالم العلوي تزف اليك أبد الآبدين . ولكن سلامان لم يصغ لكلام الملك لشدة شغفه بابسال ، فرجع الى بيته وحكى لها كل ماجرى له مع الملك ، فقالت له : لايقرعن سمعك قول الرجل ، فانه يريد أن يفوت عليك اللذة بمواعيد أكثرها أباطيل ، وجلّها وهم وتخييل . واني امرأة مأمورة لك بكل ماتطيب به نفسك ، فان كنت ذا عقل وحزم ، فاكشف الملك عن سرك ، بانك لست تاركي ، ولست بتاركة لك ، وبلغ الملك هذا الأمر فتأسف تأسفاً شديداً على ولده ، ودعاه اليه وقال له : اجعل حظك قسمين ، ففي أحدهما تشتغل بالاستفادة من الحكماء وفي الثاني تعاشر (ابسال) ، فرضي سلامان بذلك ، ولكنه لم يف بوعده ، بل كان يصرف وقته كله في معاشرة (ابسال) واللعب معها . فلما عرف الملك منه ذلك شاور الحكماء على أن يهلك (أبسال) حتى يستريح منها ، فصرفه الحكيم عن هذا الرأي ، فاطلع

(سلامان) على ماجرى بين الحكيم والملك وشاور (ابسال) في الحيلة، فقر عزمها على الهرب من وجه الملك الى ماوراء بحر المغرب.

وكان عند الملك قصبتان من ذهب عليها سبع صفارات، يصفر بهما لكل اقليم فيطلع على مايريده منها، ففتح الملك في القصبة فاطلع على سلامان وأبسال فوجدهما على أسوأ حال. فرق لهما وأمر لكل منهما بما يكفيه، وقال في نفسه لعل الصبي يعود الى الحق، فلما مضى على ذلك مدة من الزمان، غضب الملك عليها وأبطل لذتها بعلوم كان يعرفها، فبقي كل واحد منهما في أشد ألم من رؤية صاحبه، وشدة الشوق اليه، وعدم الوصول اليه.

فعاد سلامان وجاء الى باب الملك معتذراً مستغفراً، فقال له أبوه: إن سرير الملك يريد التوجه التام، وأبسال أيضاً تريد ذلك، وكلاهما لايجتمعان، ولايمكنك أن تصعد السرير وأبسال معلقة برجليك، وكذلك أيضاً لايمكنك أن تصعد سرير الافلاك وحب ابسال معلق برجلي فكرك. ثم ان الملك أمر أن يعلق أحدهما بالآخر، فبقيا كذلك يومين، فلما كان الليل أنزلهما، فمضى كل واحد منهما وأخذ بيد صاحبه وألقيا بنفسيهما في البحر، فخلص الملك سلامان بعد أن أشرف على الهلاك، وغرقت أبسال.

فلما تحقق (سلامان) أن (أبسال) قد غرقت كاد أن يشرف على الموت لشدة فراقها، ففزع الملك الى الحكيم في أمره، فدعاه الحكيم اليه، وقال يا (سلامان)! هل تريد وصال أبسال، فقال وكيف لا أريد ذلك، وهذا هو الذي شوش علي أمري، فقال له الحكيم اني اوصل اليك (أبسال) بثلاثة شروط: الاول أن لاتخفي عني شيئاً من أمرك، والثاني أن تقلدني في كل ما أفعل، والثالث أن لاتعشق غير أبسال مدة عمرك. فاطاعه في ذلك، فكان الحكيم يحضر اليه صورة أبسال تجالسه وتتلطف معه في الكلام حتى ألفها، فاراه بعد ذلك صورة الزهرة، وهي صورة فائقة على كل حسن وجمال فشغف سلامان بهذه الصورة الجديدة شغفاً عظيماً أنساه حب (أبسال)، فقال أيها الحكيم لست أريد أبسال، وقد لاقيت منها ما أكرهني

صحبتها، ولا أريد الا هذه الصورة، فسخر له الحكيم صورة الزهرة حتى كانت تأتيه في كل وقت، ولم يزل كذلك الى أن زال عن قلبه حبها، وصحا عقله، وصفا من كدورة المحبة، فشكر الملك للحكيم سعيه في اصلاح أمر ولده، وجلس سلامان على سرير الملك، ونظر في الحكمة، وصار صاحب دعوة عظيمة، وأمر أن تكتب قصته هذه على سبعة ألواح من ذهب، وأن تحفظ في الهرمين فلما ظهر أفلاطون الالهي، بعد طوفان الماء والنار، اطلع على مافي الهرمين. من العلوم الجليلة والذخائر النفيسة، فسافر اليها، لكنه لم يتمكن من فتحها، فاوصى بذلك الى تلميذه (آرسطو) فلما توجه (الاسكندر) الى جهة الغرب، توجه (آرسطو) معه الى أن بلغ الهرمين ففتح بابها بالطريقة التي أوصى بها أفلاطون، وأخرج منها الألواح التي كتبت عليها هذه القصة.

التأويل — تلك هي قصة سلامان وأبسال، فهل تدل على مذهب فلسفي معين، أم تشتمل على رموز واسعة يستطيع الانسان أن يضع فيها ما يشاء من الأفكار. ليس من الصعب أن يثبت الباحث أن هذه القصة متفقة مع مبادىء الفلسفة الافلاطونية الحديثة، وانها مترجمة عن اللغة اليونانية، ولكن أمراً واحداً لاشك فيه، وهو أن هذه القصة قد اشتملت على رموز كثيرة سنحاول الآن شرحها.

لقد حل لنا الطوسي بعض هذه الرموز والالغاز، فقال ان الملك (هرمانوس) هو العقل الفعال. والحكيم هو الفيض الالهي، وسلامان هو النفس الناطقة، وأبسال هي القوة البدنية الحيوانية، وعشق سلامان لابسال هو ميل النفس الى اللذات البدنية والشهوات، وهربها الى ماوراء بحر المغرب، هو انغماسها في الامور الفانية البعيدة عن الحق، واهمالها مدة من الزمن، وتعذيبها بالشوق مع الحرمان، هو بقاء ميل النفس وهواها مع فتور القوى عن أفعالها بعد سن الانحطاط. ورجوع سلامان الى أبيه هو التفطن للكمال والندامة على الاشتغال بالباطل. والقاء نفسيها في البحر هو

تورطها في الهلاك ، أما البدن فلانحلال القوى والمزاج ، وأما النفس فلمشابعتها إياه . وخلاص سلامان من الهلاك هو بقاء النفس بعد البدن ، واطلاعه على صورة الزهرة ، هو ابتهاج النفس بالكمالات العقلية ، وجلوسه على سرير الملك ، هو وصول النفس الى كمالها الحقيقي ، والهرمان الباقيان على مرور الدهر هما الصورة والمادة الجسمانيتان .

فسلامان وابسال هما اذن اسمان رمزيان ، وقد أشار اليهما ابن سينا في كتاب الاشارات بقوله : « واذا قرع سمعك فيما يقرعه ، وسرد عليك فيما تسمعه ، قصة لسلامان وابسال فاعلم ان سلامان مثل ضرب لك ، وان ابسالاً مثل ضرب لدرجتك في العرفان ، ان كنت من أهله [1] » . وكلام ابن سينا هذا مشعر بوجود قصة من هذا النوع ، الا أنه لاينطبق على القصة التي أوردناها ، بل ينطبق على قصة أخرى ذكرها الطوسي ، وذكرنا رموزها في موضع آخر [2] ، حتى لقد ذكر الطوسي في شرح الاشارات [3] قصة جاء فيها أن رجلين وقعا في أسر قوم أحدهما مشهور بالخير اسمه (سلامان) ، وآخر مشهور بالشر اسمه (ابسال) ، فانقذ سلامان من الأسر لشهرته بالسلامة ، وهلك ابسال لشهرته بالشر ، وصار منها في العرب مثل يذكر فيه خلاص سلامان وهلاك ابسال صاحبه . فكأن المراد بسلامان هنا النفس الناطقة ، وبابسال الطبائع الغريزية والشهوات . وقد قيل أيضاً أن المراد بسلامان آدم ، وبابسال الجنة . ومهما يكن من أمر فان هذه القصة قد لعبت دوراً عظيماً في تاريخ الآداب الشرقية فقلدها ابن سينا بقصته ، ونحا ابن الطفيل نحوها في قصة حي بن يقظان حتى لقد نظمها (جامي) الشاعر الفارسي شعراً ، فقال مثلاً يصف أبسال وهي ترضع الطفل :

(١) شرح الاشارات لنصير الدين الطوسي ، الجزء الثاني من الطبعة الاولى بالمطبعة الحيدرية ، سنة ١٣٢٥ هـ ص ١٠١

(٢) راجع كتابنا من أفلاطون الى ابن سينا ص ١٠٩ - ١١١ .

(٣) شرح الاشارات للطوسي ، ص ١٠٢ .

« اذا جاءت ساعة النوم نصبت سريره ، وجلست عند رأسه كأنها السراج المنير ، واذا طلع الفجر أصلحت أمره وزينته كأنه دمية من ذهب » .

وقال أيضاً يصف موت (أبسال) :

« يقول سلامان كيف أصبر على هذا المصاب الذي حل بي . ليتني مت معك يا أبسال ، وليتني سرت في طريق العدم ، بل ليتني عريت من هذا البدن الذي يقيدني لأتذوق السعادة الأبدية » .

وشبيه بذلك أيضاً مانجده عند بعضهم من الشعر الرمزي ، لأن الشاعر الرمزي يرمز الى الأفكار والعواطف بمثالات حسية مشابهة لها . فقد يكون وجه الشبه بين الفكرة ومثالها الحسي واضحاً بيناً وقد يكون مبهماً غامضاً . وربما اقتصر التشابه بينهما على لون انفعالي أو صفة عرضية متبدلة . فمن هذا الشعر الرمزي قول ابن سينا :

هبطت اليك من المحل الارفع ... ورقاء ذات تعزز وتمنع

محجوبة عن كل مقلة عارف ... وهي التي سفرت ولم تتبرقع

فقد رمز الى النفس بالورقاء ، لأن الورقاء أقل كثافة وألطف جوهراً من غيرها من ذوات الجناح ، وأراد بالمحل الارفع عالم العقول المجردة ، الذي تفيض منه النفوس على الابدان ، وأراد بالهبوط الفيضان من العالم الروحاني الشريف الى عالم الاجسام الخسيس الكثيف ، وأراد بقوله محجوبة انها ممنوعة عن الادراك بالحواس الظاهرة ، وبقوله سفرت ولم تتبرقع انها مدركة بالعقل لايسترها حجاب المادة .

ومن هذا الشعر الرمزي أيضاً شعر المتصوفين كمحي الدين بن عربي وابن الفارض وغيرهما . فما قاله ابن عربي :

ألا ياثرى نجد تباركت من نجد ... سقتك سحاب المزن جوداً على جود

وحياك من حياك خمسين حجة ... يعود على بدء وبدء على عود

قطعت اليها كل قفر وموجه ... على الناقة الكوماء والجمل العود

الى أن ترامى البرق من جانب الغضا وقد زادني مسراه وجداً على وجد(١)

فأراد بثرى نجد مركب العقل ، وبسحاب المزن سحاب المعارف ، وبالتحية سلام الحق مردداً بلطائف الاشارات ، وبالقفر المهمه الرياضة النفسية والمجاهدة البدنية ، وبالناقة الكوماء الشريعة ، وبالجمل العقل المجرد ، وبالبرق المطلوب ، وبالغضا الاشراق النورانى ، وبمسراه لمعانه من جانب الكون ، فان السر لا يكون إلا ليلاً والكون عنده هو الليل .

وقد بالغ ابن عربي في هذا التفسير الرمزي حتى أخذ يؤول شعر غيره أيضاً على هذه الطريقة ، وليس غرضنا الآن أن ندرس هذه الطريقة في الشعر ، فلنعد اذن الى الغايات التي جرى اليهـــا الفلاسفة في طريقتهم الرمزية لان غايتهم تختلف عن غاية الشعراء والمتصوفين .

فالمتصوفون يعتقدون أولاً أنه ليس للموجودات الحسية وجود حقيقي ، بل لها وجود وهمي جعله الله فيها ، لابقيام ذاتي ، بل باقامة الحق . وبما أن عالم الشهادة ليس في الواقع الا سراباً خادعاً توحيه الينا حواسنا فاننا نضل عندما نفتش عن الخالق في العالم الخارجي ، فمن الواجب علينا اذن أن نتصرف الى ضمائرنا ، الى قلوبنا ، نفتش في زواياها عن الخـالق ، فهي اصلح مكان وأفضله لظهور الحق . والمتصوف هو قبـــل كل شيء فيلسوف خيالي ، فاذا التفت الى العالم الحسي لم يجد فيه الا رموزاً تدل على مافي نفسه من المعاني ، فيمثل النفس بالورقاء ، والشريعة بالناقة ، والعقل المجرد بالجمل ، والرياضة النفسية بالمهمه القفر ، وهذا شبيه بطريقة الشعراء الرمزيين في وقتنا هذا الذين لايجدون في الطبيعة الا ظواهر متغيرة ، وحقائق مقنعة ، ورموزاً حسية تدل على مايشعرون به في داخلهم من المعاني ، فتنحل المحسوسات عندهم الى عواطف وتشح الاشياء بالالوان الانفعالية التي

(١) ابن عربي ، كتاب محاضرة الابرار ومسامرة الاخيار الجزء الاول ، ص ١٠٧ ، من الطبعة الاولى بالمطبعة العثمانية ١٣٠٥ .

يسبغونها عليها من انفسهم ، فكأن الطبيعة عندهم رمز خارجي لحقيقة وجدانية عميقة .

وشبيه بذلك أيضاً تفسير الأحلام على الطريقة الرمزية ، فيوسف بن يعقوب رأى رؤيا فيها الكواكب والشمس والقمر فقال لأبيه : « يا أبت اني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين » فعرف يعقوب تأويل الرؤيا وخشي عليه اخوته ، فالقمر أبوه والشمس أمه والكواكب اخوتـه . فالصور في الرؤيا المرموزة تدل على الاشياء والوقائع كما تدل الاشارات والاصطلاحات على المعاني .

ولكن غاية فلاسفة العرب من الطريقة الرمزية تختلف عن ذلك تماما ، فهم يريدون أن يلبسوا الحقائق الفلسفية المجردة ثوباً حسياً ، لأن هـذه الحقائق العقلية بعيدة عن الفهم ، لاتدركها العامة الا بشق الأنفس ، فاذا البست هذا الثوب الرمزي ، سهل على العامة فهمهـا ، وأصبحت مفاهيمها الفارغة مشتملة عندهم على شيء محسوس .

والعامة تحب الرموز ، وتبتهج بالخيال ، لانها لاتستطيع أن ترتقي الى عالم المعقولات ، وخير لها أن تبقى في عالم الصور الحسية ، وان تدرك الامور الدينية والفلسفية على ظاهرها ، وان تزجر عن البحث في هـذه الامور . فان ساحل البحر ، كما قال الغزالي ، انمـا يصل اليه السباح الماهر لا الأخرق ، والحية انما يمسها المعزم البارع لا الصبي . ولكن لابأس على الصراف الناقد البصير ، اذا أدخل يده في كيس القلاب ، وأخرج منه الابريز الخالص ، وترك الزيف والبهرج(١) .

فهناك اذن رجلان : عامي جاهل يجب أن يصد عن الحقائق الخفية ، وعالم فيلسوف يفهم حقـائق الامور ويدرك كنهها . وهذا الفرق بين العامي والفيلسوف قـد أشار اليه ابن طفيل في قصة حي بن يقظان ، وهي قصة

(١) الغزالي ، المنقذ من الضلال ، ١٠٥ .

شبيهة بقصة (روبنسيون كروزي) تشتمل على كثير من الرموز . كرمز حي بن يقظان ، وسلامان وآسال .

المثال الثاني — قصة حي بن يقظان : وخلاصة هذه القصة ان حي بن يقظان ولد في جزيرة من جزائر الهند تحت خط الاستواء ، فمنهم من قال انه ولد من غير أم ولا أب ، ومنهم من قال أنه ولد من أخت ملك وأب قريب لها يدعى يقظان . وسواء أقبلنا أحد هذين الرأيين أم أنكرناهما معاً ، فان حي بن يقظان نشأ في جزيرته وحيداً ، منعزلاً عن الناس ، في حضن ظبية ، فتربى ونما واغتذى بلبنها وتدرج في المشي ، وما زال معها يحكي أصوات الظباء في الاستدعاء والاستئلاف ، ويقلد أصوات الطير وسائر أنواع الحيوانات ، ويهتدي الى مثل أفعالها ، حتى نما وترعرع ، واستطاع بالملاحظة والحدس والتأمل أن يحصل على غذائه ، وأن يكشف بنفسه مذهباً فلسفياً يوضح به سائر الحقائق . ولما بلغ هذه الحال تعرف بآسال ، وهو رجل صالح نشأ بجزيرة قريبة من جزيرة حي بن يقظان ، ثم جاء الى تلك الجزيرة طلباً للعزلة ، فوقع بصره على حي بن يقظان ، ولم يشك أنه من المنقطعين عن الدنيا ، فلما علم بحقيقة أمره أخذ يعلمه الكلام ، فاطلع كل منهما على آراء صاحبه ومعتقداته وقايسا بينها ، فعلما أن المعتقدات الدينية ليست إلا صورة محسوسة للحقائق الفلسفية . فالفيلسوف يتوصل الى ادراك الحقائق الالهية بعقله والهامه الطبيعي . أما العامي فهو بحاجة الى من يرقى به الى هذه المبادىء العالية بطريق الحس والخيال . فرثى حي بن يقظان لحال العامة ، وأراد السفر الى جزيرة آسال ليهدي أهلها عن طريق العقل . ومع أن آسال كان يشك في نجاح رفيقه ، فقد رضي بالذهاب معه ، فانتقلا معاً الى تلك الجزيرة . وأخذ حي يعلم الناس ويرشدهم بالعقل فأعيته في أمرهم الحيلة ، فأقلع عن ذلك وترك العامة في أمان الاعتقاد ، وقفل راجعاً مع رفيقه الى جزيرتهما ، وانصرفا فيها الى التأمل والرياضة حتى أدركهما الموت .

التأويل : تلك هي قصة حي بن يقظان أعطينا عنها صورة موجزة ،

بل ناقصة ، لأننا أهملنا كثيراً من النظريات التي اشتملت عليها في أصل المعرفة وقيمتها والاكتساب والتربية . والناس يرون أن هذه القصة حلم أو خيال . ولكن من الحق علينا أن نلاحظ شيئين : أحدهما أن ابن طفيل أراد بقصته هذه أن يوفق بين الحكمة والشريعة ، والثاني أنه رمز فيها الى ثلاثة رجال : سلامان وآسال وحي بن يقظان ، فسلامان يمثل الرجل العامي ، وآسال يمثل الرجل الصالح الناشىء في حضن الشريعة ، وحي ابن يقظان يمثل الفيلسوف الذي أدرك الحقيقة عن طريق العقل . ومعنى حي بن يقظان هو حلول العقل الفعال في الانسان ، وتعرفه بآسال واتفاقهما معاً يدل على اتفاق الحكمة والشريعة ، واختلافه في دعوة العامة الى الحق يدل على أن جمهورهم بعيد عن فهم الحقيقة الخالصة ، لأنهم فطروا على البلادة والنقص وسوء الرأي ، وضعف العزم ، ولأنهم كالأنعام لا بل أضل سبيلاً .

ويظهر أن ابن طفيل قد اقتبس أسماء قصته هذه من ابن سينا ، فقال في مقدمة كتابه انه « واصف قصة حي بن يقظان وأبسال وسلامان الذين سماهم الشيخ الرئيس أبو علي (ابن سينا)[1] . واذا رجعنا الى كتب ابن سينا نجد فيها رسالة صغيرة اسمها حي بن يقظان سلك فيها ابن سينا في بيان مذهبه في العقل الانساني مسلك الرمز ، فبين لنا عروج النفس من عالم العناصر ، واجتيازها عالم الطبيعة والنفوس والعقول ، حتى تبلغ عرش الواحد القديم . ويظهر حي بن يقظان في هذه الرسالة شيخاً بهياً ، ولكنه « في طراءة العز ، لم يهن منه عظم ، ولا تضعضع له ركن ، وما عليه من المشيب إلا رواء من يشيب[2] » .

ومهما يكن من أمر فان الفرق بين رسالة ابن سينا وقصة ابن طفيل

(١) ابن الطفيل ، حي بن يقظان ، طبعة مكتب النشر العربي ، ص ٢٢ .
(٢) جامع البدائع : قصة حي بن يقظان ، ص - ٩٢ ، الطبعة الأولى ، بمطبعة السعادة ، مصر ١٩١٧ .

عظيم جداً ، لأن حي بن يقظان الذي ذكره ابن سينا ليس إلا رمزاً بسيطاً جافاً للعقل الفعّال . أما شخص حي بن يقظان الذي جعله ابن طفيل محور قصته فقد أعطاه صورة جديدة لم تخطر لابن سينا على بال .

لم تكن قصة حي بن يقظان عند ابن طفيل رواية خيالية ، بل كانت وسيلة رمزية للنقد الاجتماعي من طرف خفي . فاراد واضعها أن يشرح بها أحوال عصره الاجتماعية ، ويبين انحطاط الأخلاق وتفسخ العقائد الدينية . وكان يعتقد كغيره من فلاسفة العرب أنه يمكن مكاشفة العامة بشيء من الحقائق الفلسفية ، ولكن على شريطة أن تعرض عليهم بشكل خفي مستتر وراء الرموز والأمثال . فالعامي لايدرك الحق إلا عن طريق الخيال ، ولايفهم المعاني المجردة إلا إذا تجلت أمامه بثوب حسي ورمز فيها إلى المعاني بالاشخاص ، وإلى الأحكام بالأفعال . واستدل على الغائب بالحاضر وعلى المعقول بالمحسوس .

وقد تصفح حي بن يقظان طبقات الناس ، فرأى أن كل حزب بما لديهم فرحون ، قد اتخذوا آلهتهم هواهم ، ومعبودهم شهواتهم ، وتهالكوا في جمع حطام الدنيا ، الهامّ التكاثر ، لاتنجع فيهم الموعظة ، ولا تعمل فيهم الكلمة الحسنة . غاية كل واحد منهم تقتصر على مال يجمعه ، أو لذة ينالها ، أو شهوة يقضيها ، أو غيظ يتشفى به ، أو جاه يحرزه ، أو عمل من أعمال الشرع يتزين به ، عند ذلك أدرك السبب في اعراض الرسل عن المكاشفة ، والتجائهم الى الرموز والأمثال لتقريب الحقائق من أذهان الجماهير . وقد فرق ابن طفيل في أول كتابه بين ادراك أهل الولاية ، وادراك أهل النظر ، وعنى بادراك أهل النظر مايدركونه مما بعد الطبيعة كأهل الولاية ولكن مع زيادة وضوح وعظيم التذاذ . وقال ان حال الناظرين الذين لم يصلوا الى طور الولاية أشبه شيء بحال الاعمى الذي يكون جيد الفطرة ، قوي الحدس ، ثابت الحفظ ، مسدد الخاطر ، يعرف كل شيء بغير دليل ، ولكنه اذا فتح بصره وحدقت له الرؤية البصرية شاهد الاشياء

نفسها ، وأدركها ، وحصل له مع ادراكه هذا أمران عظيمان أحدهما تابع الآخر وهما زيادة الوضوح والانبلاج ، واللذة العظيمة . ومايراه أصحاب المشاهدة والذوق والحضور في طور الولاية ليس مما يمكن اثباته على حقيقة أمره في كتاب . أما مايراه أهل النظر فشيء يحتمل أن يوضع في الكتب وتصرف به العبارات ، ولكنه « أعدم من الكبريت الأحمر .. لأنه من الغرابة في حد لايظفر باليسير منه الا الفرد بعد الفرد ، ومن ظفر بشيء منه لم يكلم الناس به إلا رمزاً[1] » . والسبب في ذلك أن عامة الناس لايدركون الحقائق المعراة من ثوبها الرمزي ، لان نفوسهم ليست مؤيدة الصفاء بشدة الحدس ، فما هم من أهل الولاية ولا هم من أهل النظر ، حتى يرتقوا الى ادراك الحقائق المطلقة ، ولكنهم أهل الخير يصدقون ما يقال لهم تقليداً . وقد أدرك ابن رشد هذا الأمر أيضاً فقال ان الناس يتفاضلون في التصديق وهم ثلاثة رجال : رجل يصدق بالأقوال الخطابية ويفهم الحق بالرموز والأمثال ، وهو أوضع الثلاثة جميعاً ، ورجل يصدق بالأقوال الجدلية إذ ليس في طباعه أكثر من ذلك ، وهو أسمى من الأول وأنبل ، ورجل ثالث لا يحتاج الى الأقاويل الخطابية أو الجدلية ، بل يصدق بالبرهان والمنطق ، وهو أشرف الرجال وأرفعهم[2] .

فاذا سأل سائل مثلاً أين الله ، أجاب العامي : هو في السماء . وهذا الجواب على مافيه من نقص يكفي لصاحب الأقوال الخطابية الذي لايدرك معنى التأويل . أما صاحب الاقوال الجدلية ، فانه يدرك مافي جواب العامي من تجسيم ، ويعلم أنه ليس لذاته تعالى مكان محدود ، فمن أشار اليه فقد حده ، ومن حده فقد عده ، ويجيب على هذا السؤال بقوله : هو في كل مكان . وأما الفيلسوف ، أي صاحب البرهان الذي هو من أهل التأويل

(١) ابن طفيل ، حي بن يقظان ، طبعة مكتب النشر العربي ، ص ١٢ .
(٢) ابن رشد ، فصل المقال ، فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال ، القاهرة ١٩١٠ ، ص ٢١ .

اليقيني فانه لايقنع بالأقوال الخطابية والجدلية ، ويجد أن القول بوجود الله في كل مكان لايخلو من الاضافة والمقارنة والتضمين والتجزيء ، فيقول في الجواب عن سؤالنا هذا ، ان الله ليس في مكان بل هو لذاته وبذاته .

٣ — غاية الطريقة الرمزية

ينتج من دراسة الامثلة السابقة وتأويلها أن الغاية التي جرى اليها فلاسفة العرب في طريقتهم الرمزية هي استدراج العامي شيئاً فشيئاً الى معرفة الأشياء الخفية ، ولا يجوز أن تعرض الحقائق المطلقة عليه معراة من كل نقاب ورمزي . فان الاعشى لايستطيع أن يحدق الى نور الشمس ، حتى لقد قال الغزالي في ذلك : وكما يجب صون من لايحسن السباحة عن مزالق الشطوط ، يجب صون الخلق عن مطالعة كتب الفلاسفة ، وكما يجب صون الصبيان عن مس الحيات ، يجب صون الاسماع عن تلك الكلمات . وقال ابن رشد : «وهذا التأويل ليس ينبغي أن يصرح به لأهل الجدل فضلاً عن العامة ، ومتى صرح بشيء من هذه التأويلات لمن هو من غير أهلها ، أفضى ذلك بالمصرح له ، وبالمصرح إلى الكفر (١) . »

والحقيقة المعراة من ثوبها الرمزي لايدركها إلا أهل الباطن ، أما أهل الظاهر فلا يدركون صريح الحق الا على المجاز . وأكثر ادراكهم انما هو رموز واشارات لاينتفع بها . وأعلى درجة في الايمان عند أهل الظاهر هي الأخذ بما جاء به الشرع على ظاهره ، لانه جاء بلسان عربي مبين لارمز فيه ولا لغز ولا باطن ولا ايماء بشيء مما ينتحله الفلاسفة . أضف الى ذلك أن العدول عن الظاهر الى الباطن مع الجمهور ، ونشر الحقائق الخفية بينهم ، قد يؤدي الى كثير من المخاطر الدينية والاخلاقية . وقد ذكر ابن سينا في مقدمة منطق الشرقيين انه انما جمع هذا الكتاب ليظهره

(١) ابن رشد ، المصدر نفسه ، ص ٢١ .

لنفسه ، يعني الذين يقومون منه مقام نفسه ، قال : « وأما العامة من مزاولي هذا الشأن فقد أعطيناهم في كتاب الشفاء ماهو كثير لهم وفوق حاجتهم (١) » .

وقال أيضاً في نهاية الاشارات : « ايها الاخ اني قد مخضت لك في هذه الاشارات عن زبدة الحق ، والقمتك قفى الحكم في لطائف الكلم ، فصنه عن الجاهلين والمتبذلين . ومن لم يرزق الفطنة الوقادة والدربة والمادة وكان صفاه مع الفاغة ، أو كان من ملحدة هؤلاء الفلاسفة ومن همجهم ، فان وجدت من تثق بنقاء سريرته ، واستقامة سيرته ، وبتوقفه عما يتسرع اليه الوسواس ، وبنظره الى الحق بعين الرضا والصدق ، فآته ما يسألك منه مدرجاً مجزأ مفرقاً تستفرس مما تسلفه لما يستقبله ، وعاهده بالله وبايمان لا مخارج لها ليجري فيما تؤتيه مجراك ، متأسياً بك . فاذا أذعت هذا العلم أو أضعته فالله بيني وبينك ، وكفى بالله وكيلاً (٢) » .

فانت ترى أن ابن سينا لايختلف في ذلك كثيراً عن الغزالي ، كلاهما يريد صون العامة عن الحقائق الفلسفية . ولكن الغزالي لايريد صونهم عن مطالعة كتب الفلسفة إلا اشفاقاً عليهم من الضلال ، وخوفاً عليهم من الكفر وانقاذاً لهم من حبائل الفلاسفة . أما ابن سينا فيريد أن يعطي العامة في كتبه المدرسية ماهو صالح لهم ، وأن يصون العلم الحقيقي عن المتبذلين الجاهلين الذين لم يرزقوا الفطنة الوقادة ، وأن يضن بالحقائق المطلقة على غير أهلها ، لأن الفلسفة ليست من الامور التي يمكن البحث فيها على قارعة الطريق ، بل الخلق لا يفهمون ما يقوله الفلاسفة . وأكبر دليل على ذلك ما أصاب ابن رشد وغيره من الفلاسفة في محنهم ، فقد اتهم الغزالي الفلاسفة بالزندقة والمروق من الدين ، واتهم الناس ابن رشد بالكفر والضلال ومخالفة عقائد المؤمنين ، حتى قال فيه الحاج أبو الحسين بن جبير :

(١) ابن سينا ، منطق للشرقيين ، القاهرة ١٩١٥ ، ص ٤ .
(٢) الاشارات ، من شرح نصير الدين الطوسي ، جزء ٢ ، ص ١٤٣ - ١٤٤ .

لم تلزم الرشد يا ابن رشد لما علا في الزمان جدك
وكنت في الدين ذا رياء ماهكذا كان فيه جدك

وقال أيضاً :

تفلسفوا وادعوا علوماً صاحبها في المعاد يشقى
واحتقروا الشرع وازدروه سفاهة منهم وحمقاً
أوسعتهم لعنة وخزياً وقلت بعداً لهم وسحقاً
فابسق للدين الاله ذخراً فانه مابقيت يبقى

فلا غرو اذا اتقى الفلاسفة غضب العامة بالباس الحقائق ثوباً رمزياً ، فقد كانت الطريقة الرمزية واسطة لنشر الحقائق الفلسفية واذاعتها بين الخلق ، وكان صاحب كتاب الصفا يورد في كتابه آيات القرآن وأخبار الرسول وحكايات السلف مستشهداً بها ومستدرجاً قلوب الحمقى بواسطتها إلى تعليم الفلسفة (١). حتى أن الفلاسفة والمتصوفين كثيراً ما تعمدوا الغموض في كتبهم حرصاً منهم على جعلها بعيدة عن فهم العامة . فما قاله ابن عربي : «لا راحة مع الخلق ، فارجع الى الحق ، فهو أولى بك . ان عاشرتهم على ما أنت عليه قتلوك» . وقال أيضاً في مقدمة كتاب شق الجيب : «ان هذه الرسالة فريدة في دقتها ، وهي من العلوم التي يجب سترها ، ولا يجوز كشفها إلا لأربابها» . فقد كان يخشى أن يؤول به الأمر كما آل بالحلاج إلى القتل . لذلك كان يذكره كثيراً في شعره ، ويتخذه عبرة لنفسه .

فمن فهم الاشارة فليصنها والا سوف يقتل باللسان

وهذا يوضح لنا أيضاً تكتم الفلاسفة واتصافهم بحالتين : حالة عقلية لايكاشفون فيها الا أنفسهم ، وحالة ايمانية يتجملون بها أمام العامة . حتى لقد قال الغزالي فيهم أن أحدهم يقرأ القرآن ويحضر الجماعات والصلوات ،

(١) الغزالي ، المنقذ من الضلال ، ص ١٠٢ .

ويعظم الشريعة بلسانه ، ولكنه مع ذلك لايترك شرب الخمر وأنواعاً من الفسق والفجور . واذا قيل له لِمَ تصلي ، فربما يقول لرياضة الجسد ، ولعادة أهل البلد ، وحفظ المال والولد . وذكر ابن سينا في وصية له أنه عاهد الله تعالى على كذا وكذا ، وأن يعظم الأوضاع الشرعية ، ولا يقصر في العبادات ، ولا يشرب تاهياً ، بل تداوياً وتشافياً (١).

وهذه الثنائية في سلوك الفلاسفة . لاتدل على تناقض في آرائهم ورياء في مذهبهم كما زعم (رينان (٢)) بل تدل على اعتقادهم أن الحقيقة حقيقتان كما بين (غوتيه (٣)) ، متفقتان ، فالحقيقة الاولى تصلح لاصحاب المنطق والبرهان ، والثانية توافق أصحاب الحس والخيال ، فاذا وجد هناك تعارض بين الفلسفة والدين كان ذلك ظاهرياً . ولابد من رفع هذا التعارض بطريقة التأويل .

ومعنى التأويل عندهم هو إخراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقية الى الدلالة المجازية من غير أن يخل ذلك بعادة لسان العرب في التجوز من تسمية الشيء بشبيهه أو سببه أو لاحقه أو مقارنه أو غير ذلك من الاشياء(٤) . فهم يخاطبون العامة بتمثيل الحقائق الفلسفية المجردة برموز حسية ، ويفسرون الرموز الحسية التي جاءت في الشريعة على زعمهم بطريقة التأويل البرهاني . ويعتقدون أن الله لم يخاطب الخلق إلا على قدر عقولهم ، وان السبب في ورود الظاهر والباطن في الشرع هو اختلاف فطر الناس وتباين قرائحهم في التصديق . وليس يجب أن يعلم بالباطن من ليس من أهل العلم به ، ولايقدر على فهمه ، بل هناك أمور لاينبغي أن يعلم بحقيقتها جميع الناس .

(١) الغزالي ، المنقذ من الضلال ، ص ١٥٠ .
(٢) Renan . Averroès et l'Averroisme . Paris 1852 , p. 172
(٣) Gauthier (Léon) - La Théorie d'Ibn - Roschd (Averroès) sur les rapports de la religion et de la philosophie . Paris Leroux 1909
(٤) ابن رشد ، فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال ، ـ القاهرة ١٩١٠ ص ٨ .

فما قاله ابن رشد : وأما الاشياء التي خفاؤها لا تعلم الا بالبرهان ، فقد تلطف الله فيها لعباده الذين لاسبيل لهم الى البرهان بان ضرب لهم أمثالها ، وأشباهها ، ودعاهم الى التصديق بتلك الأمثال ، قال : وهذا هو السبب في انقسام الشرع الى ظاهر وباطن ، فان الظاهر هو تلك الأمثال المضروبة لتلك المعاني ، والباطن هو تلك المعاني التي لاتتجلى إلا لأهل البرهان(١).

٥ — نتيجة

يتضح مما تقدم أن للطريقة الرمزية التي سلكها فلاسفة العرب شكلين مختلفين:

أحدهما مشتمل على تمثيل الحقائق الفلسفية المجردة برموز حسية . وهو انتقال من المعقول الى المحسوس . فاذا أراد الفيلسوف أن يودع الحقيقة أهل العلم والبرهان ، سلك طريق الايضاح اليقيني ، ولكنه اذا أراد أن يذيعها بين العامة ، ألبسها ثوباً رمزياً وصورها بالأمثال .

والثاني مشتمل على تفسير الرموز الحسية التي وردت في الشرع بطريق التأويل البرهاني . وهو عكس الشكل الأول ، لأنه ارتقاء من المحسوس الى المعقول .

واختلاف هذين الشكلين لايدل على اختلاف الحقيقة ، بل الحق واحد ، لاتختلف ماهيته باختلاف مظاهره . نعم ان الفكر في الشكل الاول يهبط من العقل الى الطبيعة ، ويرتقي في الشكل الثاني من الطبيعة الى العقل ، إلا أنه في كلا الحالين يقطع طريقاً واحدة ، في جهتين مختلفتين ، كل جهة منها متممة للاخرى . ونحن لا نرجح احداهما على الاخرى الا بحسب الغاية التي نريد الوصول اليها .

فليس هناك اذن حقيقتان مختلفتان احداهما دينية والثانية فلسفية ، بل هناك ظاهرتان لحقيقة واحدة ، احداهما رمزية نسبية ، والثانية وجودية مطلقة . وليس من الصعب على الحكيم أن يوفق بين هاتين الظاهرتين ،

(١) ابن رشد ، المصدر نفسه ص ١٠ .

وأن يثبت أنهما تتفجران من أصل واحد . هذا ماجرى اليه فلاسفة العرب في التوفيق بين الحكمة والشريعة . فالنبي على زعمهم يمثل الحقائق المجردة للخلق بلغة الحس والخيال ، فلا يكاشفهم الا بما يستطيعون ادراكه من الامور المتخيلة ، والفيلسوف يفسر الأقاويل الدينية بالتأويل البرهاني فكأن الوعد والوعيد والجنة والنار والعرش والاستواء ، وكل ماجاء به الشرع من الامثال ، انما هي رموز حسية تدل على أمور روحانية .

وتفنن فلاسفة العرب في الطريقة الرمزية يدل على ميل العرب الى المجاز . فقد كانوا كلهم شعراء لايخاطبون الا بالامثال والصور . وقد أكثروا من هذه الرموز والأمثال في القصص الاخلاقية والاشعار وكتب التصوف ، فجاءت أمثالهم ورموزهم مفعمة بالنقد الاجتماعي ، وكان لها أعظم الاثر في حياتنا الاجتماعية الحاضرة . ولكن هذه الرموز ضرورية للعامي لاللفيلسوف لأن العامي يعيش بين الالوان والاشكال والاصوات فيتمتع بالمحسوسات دون المعقولات . أما الفيلسوف فيعيش في تخوم العالم العقلي ، فيرقى من الاعراض الى الجواهر ، ومن الصور الى المعاني ، ومن المحسوسات الى المعقولات .

وقد تؤدي الطريقة الرمزية الى نوع من التفكير سماه (ليبنيتز) بالتفكير الأعمى ، تنوب فيه الرموز عن المعاني وتصبح المفاهيم غامضة ، وينقلب الادراك الى توهم ، واليقين الى شك . نعم ان الرمز قد يسهل على الانسان عناء التفكير ، وقد يقتصد من قواه العقلية ، ولكنه قد يبعده في الوقت نفسه عن الحقيقة . فيصبح الكون عنده رمزاً لااله ، والااله رمزاً للكون وتنقلب الحقائق الموضوعية عنده الى تصورات مثالية شخصية . ومهما يكن من أمر فان الفلسفة الوجودية تريد ان تحطم هذه الرموز ، وأن تكاشف الناس بالأمور على حقيقتها . ولا غرو فان العقل اذا انطلق من عقاله التقليدي والاجتماعي ، وتجرد من قيود الحس ، لم يجد حاجة ، في ادراك الحقيقة ، إلى الرموز والأمثال .

شاعر معاوية *

كعب بن جُعَيل التغلبي

شاعر من قدماء شعراء الإسلام ضاع شعره إلا قليلاً ، ولم يبق من أخباره إلا نتف يسيرة مبعثرة في كتب التاريخ والأدب ، مع أنه موصوف بالشهرة وبأنه (شاعر تغلب ، وشاعر معاوية ، وشاعر أهل الشام) في نزاع علي ومعاوية رضي الله عنهما . ذكره ابن سلام الجمحي في (طبقات الشعراء) — مع مثال من شعره وجعله رأس الطبقة الثالثة من الشعراء الإسلاميين — بعدة أسطر ، وكذلك ابن قتيبة في « الشعر والشعراء » والمرزباني في « معجم الشعراء » والآمدي في « المؤتلف والمختلف » . ولم يفرد له صاحب « الأغاني » ترجمة بل أتى على ذكره عرضاً في أخبار الفرزدق والأخطل وغيرهما . وما ورد عنه في « خزانة الأدب » لعبد القادر البغدادي لا يشفي غلة .

ويغلب على الظن أن ديوان شعره ضاع منذ مئات السنين ، أو لم يجمع شعره في ديوان ؛ فلا أعرف من ذكر له ديواناً ممن يعنى بهذا الشأن كابن النديم في « الفهرست » وكاتب جلبي في « كشف الظنون » . لذلك لم يستشهد اللغويون بشعره إلا نادراً لضياع شعره قبل عصر التدوين . فلم أعثر في « لسان العرب » على شواهد من شعره إلا في أربع مواد (سوق) و (شرر) و (صعد) و (غهب) وقد ورد بعض شواهد هذه المواد

(*) محاضرة ألقاها الاستاذ خليل مردم بك في ردهة محاضرات المجمع العلمي العربي في ١٧ كانون الاول سنة ١٩٤٣ .

في مادة (حار) دون أن ينسب اليه . فهو بين الأدباء اليوم مغمور مغموط حقاً دون كثير من أقرانه الشعراء الإسلاميين .

وأوفى ترجمة له اطلعت عليها هي التي لا تزال مخطوطة في عالم ينتشر بعد من « تاريخ دمشق » للحافظ ابن عساكر المحفوظ في دار الكتب الظاهرية بدمشق ، فلقد استفدت منها واستعنت بها كثيراً في هذا البحث ، كما وقفت على مختارات من شعره في ترجمة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، وعبيد الله بن عمر بن الخطاب ، وقرثع التغلبي في التاريخ نفسه ، على كثرة ما عانت في هذه المظان من تحريف جهلة النساخ وتصحيفهم .

قبيلته — ربيعة من أعظم بطون العرب العدنانية ، ومن ربيعة قبيلة تغلب التي ينتسب اليها كعب بن جعيل ؛ كانت بلادهم بالجزيرة الفراتية بجهات سنجار ونصيبين وتعرف بديار ربيعة(١) وكانت النصرانية شائعة فيهم قبل الإسلام لمجاورتهم الروم . وقد أبلوا بلاء حسناً مع المسلمين في فتح العراق قبل أن يفتح المسلمون الجزيرة . ذكر الطبري أن مدداً من تغلب وهم نصارى بقيادة ابن مردى الفهر ، حاربوا الفرس مع المسلمين تحت راية المثنى بن حارثة في وقعة البويب سنة ثلاث عشرة ، وقالوا حين رأوا نزول العرب بالعجم « نقاتل مع قومنا » وكان قائد الفرس مهران الهمذاني . فلما اشتد القتال قال المثنى لزعيم التغلبيين ابن مردى الفهر : « انك امرؤ عربي وان لم تكن على ديننا فاذا رأيتني قد حملت على مهران فاحمل معي » فاجابه ؛ وانجلت المعركة عن قتل مهران قتله غلام من التغلبيين نصراني واستوى على فرسه ثم انتمى :

« أنا الغلام التغلبي أنا قتلت المرزبان »(٢)

ولما فتح المسلمون الجزيرة سنة ثماني عشرة أيام عمر رضي الله عنه ،

(١) العبر لابن خلدون ٢-٣٠١ .
(٢) الطبري ٤ — ٧٤ .

لم يحملوا التغلبيين على الدخول في الإسلام ، بل دان به من دان منهم طوعاً ، ومن بقي منهم على النصرانية أبى أن يعطي الجزية حمية وانفة ، ورضي أن يعطي الصدقة مضاعفة حتى دخلوا جميعهم في الإسلام مع الزمن ، قال البلاذري في فتوح البلدان : (... فقبلوا أن يؤخذ منهم ضعف الصدقة ، وقالوا : اما اذا لم تكن جزية كجزية الأعلاج فانا نرضى ونحفظ ديننا [1]) وهذه معاملة خص بها عمر بني تغلب دون غيرهم من العرب . وروى ابن عساكر عن سعيد بن العاص « قال سمعت عمر بن الخطاب يقول : لولا اني سمعت من رسول الله ﷺ يقول : ان الله سيعز هذا الدين بنصارى من ربيعة على شاطيء الفرات ما تركت عربياً إلا قتلته أو يسلم[2] ».

وقد تألف معاوية عرب الجزيرة كما تألف عرب الشام منذ جمع له عثمان الجزيرة الى الشام ، فرتب ربيعة في ديارها [3] وكانت قبيلة تغلب مشايعة له ولمن أتى بعده من خلفاء بني أمية ، وكان هواها السياسي معهم في كل ما اقتحموه من العقبات والأحداث ، وشعر كعب بن جعيل — على قلة مابقي منه — يمثل هذه الحقائق كلها ، فهناك مدن الجزيرة وباديتها تعج بجموع تغلب من مسلمين ونصارى مستمسكين بعصبيتهم وناصرين إخوانهم الفاتحين على الفرس والروم .

نسبه وحياته : هو كعب بن جعيل بن قمير التغلبي ، وقد ساق الرواة والنسابون نسبه حتى بلغوا به تغلب بن وائل ، وذكروا أن اسم أمه ليلى وقد وردت نسبته في بعض كتب الأدب « الثعلبي[4] » بدل « التغلبي » اما تصحيفاً أو أنهم نسبوه الى « ثعلبة » أحد آبائه المذكورين في عمود نسبه .

نشأ كعب في بلاد تغلب بالجزيرة الفراتية في صدر الإسلام . وجعله

(١) فتوح البلدان البلاذري ص ١٩٠ .
(٢) تهذيب تاريخ ابن عساكر للمطبوع ٦ — ١٣٢ .
(٣) فتوح البلدان ص ١٨٦ .
(٤) كالعقد لابن عبد ربه ٢ — ٢١٠ وغيره .

بعضهم من الصحابة ، نقل ذلك ابن حجر العسقلاني في الإصابة [1] عن ابن فتحون ، ولكن الأكثر على أنه من الشعراء الإسلاميين . ولقد كان كعب شاعر تغلب قبل الأخطل والقطامي « وكان [2] لا يأتي منهم قوماً إلا أكرموه وضربوا له قبة حتى أنه كان تمد له حبال بين وتدين فتملأ له غنما ، فأتى في مالك بن جشم ففعلوا ذلك به ، فجاء الأخطل وهو غلام فأخرج الغنم وطردها ، فسبه (رجل منهم اسمه) عتبة ورد الغنم الى موضعها ، فعاد وأخرجها وكعب ينظر اليه ، فقال : إن غلامكم هذا لأخطل ، والأخطل السفيه فغلب عليه ، ولج الهجاء بينهما فقال الأخطل فيه :

سميت كعباً بشر العظام ... وكان أبوك يسمى الجعل
وان محلك من وائل ... محل القراد من است الجمل

وأغري الأخطل وهو غلام حدث بهجاء كعب ليذكر بذلك ويقرن به « فقال له أبوه : أبغرزمتك تريد أن تقاوم ابن جعيل ؟ وضربه ، وجاء ابن جعيل على تفئة [3] ذلك ، فقال : من صاحب الكلام ؟ فقال أبوه لاتحفل به فانه غلام أخطل .

فقال له كعب : شاهد هذا الوجه غب الحمة

فقال الأخطل : فنال كعب بن جعيل أمه

فقال كعب ما اسم أمك ؟ قال ليلى ، قال أردت أن تعيذها باسم أمي ، قال لا أعاذها الله اذاً . فانصرف كعب ولج الهجاء بينهما » ولكن ماقاله كعب في الأخطل لم يصل الينا وانما وصل الينا ماقاله الاخطل فيه [4] .

ولعل في تصنيف أخبار كعب الأقدم فالأقدم معيناً على تصور ترجمته . فأقدم ماوصل الينا من أخباره اتصاله بسعيد بن العاص والي الكوفة لعثمان

(١) ج ٥ ص ٣٢١ .
(٢) الأغاني ٧ — ١٦٢ .
(٣) يقال أتيته على تفئة ذلك اي على حينه وزمانه .
(٤) انظر ديوان الأخطل ص ٢٨٨ و ٢٩٧ .

فقد كان يفد عليه ويمدحه ، ولما غزا سعيد طبرستان سنة ثلاثين ثم قفل الى الكوفة مدحه كعب بن جعيل فقال (١) :

فنعم الفتى إذ جال جيلان دونه ... وإذ هبطوا من دَسْتَبى ثم أبهرا (٢)
تعلم سعيد الخير أن مطيتي ... إذا هبطت أشفقت من أن تُعَقَّرا
كأنك يوم الشعب ليث خفية (٣) ... تجرد من دون العرين وأصحرا (٤)
لسوس الذى ماساس قبلك واحد ... ثمانين ألفاً دارعين وحسرا

وقبل وقعة صفين حدث لكعب ما أقلقه وأزعجه بأهله عن الجزيرة ، وذلك أن الضحاك بن قيس الفهري عامل معاوية على الجزيرة (٥) استعمل رجلا من بني عبس على صدقات بني تغلب فخمس إبل كعب بن جعيل ، فتناقل الرواة قصيدة في هجاء الضحاك نسبت الى كعب ، فتوعده الضحاك ، فذعر كعب وتبرأ منها وأقسم أن قائلها خصم له اسمه سليم بن عبدة ، انتقاماً منه وحسداً له ، وتشفياً من الضحاك لانه وأخاه كانا واجدين عليه . فوكل الضحاك الأمر الى رجل من خواصه حقق فيه ، ودخل كعب على الضحاك عائذاً وأنشده قصيدة يتبرأ بها مما نسب اليه ، ويعتذر ويمدحه ، وكانت امرأة الضحاك خلف الستر تسمع ، فقالت له : « اقبل منه فوالله لو اعتذر بها الى الله عز وجل لقبل منه » أما القصيدة التي يتبرأ منها فهي هذه :(٦)

(١) الطبري ٥ — ٥٨ .
(٢) جيلان : اسم لبلاد كثيرة من وراء بلاد طبرستان ، ودستبي : كورة كبيرة بين الري وهمذان ، وابهر : مدينة مشهورة بين قزوين وزنجان وهمذان . [ياقوت] .
(٣) الشعب : الطريق في الجبل ، والخفية : الغيضة الملتفة .
(٤) في الأصل : [تجرد من ليث العرين وأصحرا] ونظنه تصحيفاً الا أن تكون ليث بكسر اللام جمع أليث وهو الشجاع ولا يخلو ذلك من تعسف . وأصحر : برز الى الصحراء لايواريه شيء .
(٥) في [وقعة صفين] لنصر بن مزاحم ص ١٠ ان معاوية بعث الضحاك على الجزيرة سنة ست وثلاثين .
(٦) ترجمة كعب بن جعيل في تاريخ ابن عساكر المخطوط .

أرى إبلي أمست تحن كأنما ... تعاور أنبوباً أجش مثقبا
تبكي على دين ابن عفان بعدما ... تضاحك ضحاك بنا وتلعبا
قصير القميص فاحش عند بيته ... وشر (قريش (١)) في قريش مركبا
بنى لك قيس في قرى عربية ... من اللؤم بيتاً ثابت الاس (٢) ترتبا
وماترك العبسي من مربع لنا ... من الارض الاقد (جرى) فيه (أوكبا) (٣)
معاوي لم يفتح لنا باب حجرة ... (فنمضي) ولم يترك لنا (متغربا) (٤)
وكنت كباري اللحم بعد النحامه ... يركب حتى لم يجد متركبا
هم ضيعوا كتب النبي ومنهم النبي ومن يأمر بها (ان) (٥) يبيئا
وقد كان فرعون وهامان قبلكم ... (يدار) نعيم (حقبة) (٦) ثم عذبا

وأما القصيدة التي اعتذر بها الى الضحاك وأعجبت بها امرأته فهي هذه (٧):

أتاني وعيد لو أتى الفيل لم يقم ... له الفيل حتى يستخف ويرعدا
أتاني ودوني من نصيبين حاجب ... لسبعين برجا ذا ثماريخ (اكبدا) (٨)

(١) في الأصل [قيس] والتصحيح من محاضرات الراغب ١ — ١٦٧ .
(٢) الترتب : الشيء المقيم الثابت .
(٣) في الأصل : (... سرى فيه اركبا) .
(٤) في الأصل : (فيعطى ولم يترك لنا متربا) .
(٥) في الأصل : « ان » .
(٦) في الأصل : « بدنعيم حقته » .
(٧) تاريخ دمشق لابن عساكر ترجمة كعب بن جعيل « مخطوط » .
(٨) في الأصل « اكردا » ولا معنى له . و « الأكبد » من كل شيء الضخم الغليظ العظيم الوسط يقال برج أكبد وحصن أكبد وربما حذفوا الموصوف واراد وا بالأكبد الحصن قال الأخطل :

رأوا ثغراً تحيط به المنايا ... وأكبد مايغيره الغيار

قال الشارح : الأكبد الحصن . ديوان الأخطل ص ٢٠٩ .

فكان لنا مابين (دارا)[1] و(عفزة)[2] ... الى الرقة السوداء[3] يوماً معرّدا
أأرمي بأقوال (الحُراق)[4] ولم يكن ... اذا قال مهدي السنان مسددا
فان كنت مقذوفاً بكل عظيمة ... حكاها خؤون كاذب ثم أقردا[5]
غدت من بني عبد وراحت عليهم ... وأصدر منها ابنا قُبير وأوردا[6]
فأحلف حتى تبلغ الله حلفتي ... لأبلغ عذراً من رضاك وأجهدا
بمن حج بيت الله من كل صارخ ... وشعث يسوقون الهدي المقلدا
إذا أحجيتهم سورة يقرؤونها ... لربك خروا راكعين وسجدا
لقد كنت عن شعر ابن عبدة (نابياً)[7] ... مكان الثريا من سهيل وأبعدا
فان قلت (ذماً)[8] آثراً أو بدأته ... ففارقت (حبي)[9] الوليد ومعبدا
ارى مدح أعراض الكرام وأتقي ... هجاء الملوك انه كان أنكدا
وقد علمت أشراف تغلب أنني ... بمدح قريش كنت أحظى وأسعدا
لعمرك للربعان[10] خير شهادة ... من النكس أن يدعو (دوادا) ليشهدا[11]

(١) في الأصل « دار » وهو تحريف و « دارا » بلدة في لحف جبل بين نصيبين وماردين « ياقوت » .
(٢) في الأصل : « وقفرة » وهو تحريف وعفزة بلدة قديمة قرب الرقة على شاطيء الفرات . قال ياقوت في معجم البلدان : وهي الآن خراب .
(٣) الرقة السوداء : قرية كبيرة ذات بساتين كثيرة وشربها من البليخ وهي غير الرقة البيضاء المدينة المشهورة على جانب الفرات الشرقي . واللطرد من الأيام : الطويل .
(٤) الحراق : من يفسد في كل شيء . وفي الأصل الخراق وهو تحريف .
(٥) أقرد : سكن وتماوت ولصق بالأرض .
(٦) يريد بني عبد الشاعر المنقري وإخوانه . وابنا قبير : كعب بن جعيل وأخوه عمير لأن جدهما قبير .
(٧) في الأصل : « نابياً » .
(٨) في الأصل : « ذمته » .
(٩) في الأصل : « حي » وهو تصحيف حيّ ولعل الوليد ومعبداً ولداه .
(١٠) من اسماء العرب [ربعان] قال في التاج : وقد سموا ربعان مثل سحبان .
(١١) في الأصل [جوادا] وقد اخترنا [دوادا] لانه باسمائهم أشبه .

وكانا كما سماها الله رابعا ... وعبدا نشدناه البيان فأنشدا
أجاز القتادي[1] الشهادة بعدما ... نبا نبوة خفناه أن يتردد

فاذا كانت سنة ست وثلاثين ووقع النزاع بين علي ومعاوية وانقسمت الأمة الى حزبين حزب أهل العراق وعلى رأسهم علي وشاعرهم النجاشي ، وحزب أهل الشام وعلى رأسهم معاوية وشاعرهم كعب بن جعيل ، اذ ذاك نرى كعباً يخب في تلك الغمرة ويضع ويرفع صوته بالدعوة لمعاوية ، ويحرض أهل الشام على المطالبة بدم عثمان ونصرة معاوية ، ويقول في ذلك قصيدة يبلغ من إعجاب معاوية بها أنه ختم بها كتاباً بعث به الى علي ، فكانت بمثابة قطع العلاقات وإعلان الحرب وهي هذه[2] :

أرى الشام تكره ملك العراق ... وأهل العراق لهم كارهونا
وكل لصاحبه مبغض ... يرى كل ما كان من ذاك دينا
إذا ما رمونا رميناهم ... ودناهم مثل ما يقرضونا
وقالوا علي إمام لنا ... فقلنا رضينا ابن هند رضينا
وقالوا نرى أن تدينوا لنا ... فقلنا لهم لا نرى أن ندينا
ومن دون ذلك خرط القتاد ... وطعن وضرب يقر العيونا
وكلٌ يسر بما عنده ... يرى غث ما في يديه سمينا
وما في علي لمستعتب ... مقال سوى ضمه المحدثينا
وايثاره اليوم أهل الذنوب ... ورفع القصاص عن القاتلينا
إذا سيل عنه زوى وجهه ... وعمى الجواب على السائلينا
فليس براض ولا ساخط ... ولا في التهاة ولا الآمرينا
ولا هو ساء ولا سره ... ولا يدمن بعض ذا أن يكونا

(١) قال ابن عساكر : القتادي رجل من بني قتادة وكان خلا بهؤلاء النفر الذين سماهم (كعب) في شعره فشهدوا شهد بعض لكعب وبعض لسالم .
(٢) الكامل للمبرد ص ١٨٤ والأخبار الطوال لأبي حنيفة الدينوري ص ١٦٢ وشرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد ج ١ ص ١٥٨ وص ٢٥١ و ص ٢٥٢ ووقعة صفين لنصر بن مزاحم ص ٤٣ .

فلما قرأ علي كتاب معاوية دعا النجاشي فقال له : ان ابن جعيل شاعر أهل الشام وأنت شاعر أهل العراق فأجب فقال النجاشي[1] :

دعن يامعاوي مالن يكونا ... فقد حقق الله ما تحذرونا
أتاكم علي بأهل العراق ... وأهل الحجاز فما تصنعونا
على كل جرداء خيفانة ... وأشعث نهد يسر العيونا
عليها فوارس مخشية ... كأسد العرين حمين العرينا
يرون الطعان خلال المجاج ... وضرب القوانس في النقع دينا
هم هزموا الجمع جمع الزبير ... وطلحة والمعشر الناكثينا
وآلوا يميناً على حلفة ... لنهدي إلى الشام حرباً زبونا
تشيب النواصي قبل المشيب ... وتلقي الحوامل منها الجنينا
فان تكرهوا الملك ملك العراق ... فقد رضي القوم ما تكرهونا
فقولوا لكعب أخي وائل ... ومن جعل الغث يوماً سمينا
جعلتم علياً وأشياعه ... نظير ابن هند أما تستحونا
الى أفضل الناس بعد الرسول ... وصنو الرسول من العالمينا
وصهر الرسول ومن مثله ... إذا كان يوم يشيب القرونا

ولما وقعت الحرب في صفين بات ابن جعيل في إحدى تلك الليالي يرتجز وينشد[2] :

أصبحت الأمة في أمر عجب ... والملك مجموع غداً لمن غلب؟
أقول قولاً صادقاً غير كذب ... إن غداً تهلك أعلام العرب
غداً نلاقي ربنا فنحتسب ... غداً يصيرون رماداً قد ذهب
بعد الجمال والحياء والحسب ... يارب لا تشمت بنا ولا تصب
من خلع الأنداد طرا والصلب

(١) مصادر قصيدة كعب بن جعيل نفسها .
(٢) الطبري ج ٦ ص ٨ ووقعة صفين ص ١٦٢ والأخبار الطوال ص ١٨٢ وشرح نهج البلاغة ج ١ ص ٤٨٢ .

قال ابن جعيل يرثيه ويشير الى رفع أهل الشام المصاحف[1] :

ألا انما تبكي العيون لفارس ... بصفين أجلت خيله وهو واقف
تبدل من أسماء[2] اسياف وائل ... وكان فتى لو أخطأته المتالف
فأضحى عبيد الله بالقاع مسلما ... تميج دماً منه العروق النوازف
ينوء وتغشاه شآبيب من دم ... كما لاح في جيب القميص الكفائف
دعاهن[3] فاستسمعن من أين صوته ... فأقبلن شتى والعيون ذوارف
يحللن عنه زر درع حصينة ... وانكر منه بعد ذاك معارف
وقد صبرت حول ابن عم محمد ... لدى الموت شهباء المناكب شارف[4]
فما برحوا حتى رأى الله صبرهم ... وحتى أشرّت بالأكف المصاحف[5]
بهرج ترى الرايات فيه كأنها ... اذا جنحت للطعن طير عواكف
جزى الله قتلانا بصفين خيرما ... أثيب عباد غادرتها المواقف

(١) الطبري ج ٦ ص ٢٠ والأخبار الطوال ص ١٨١ وتاريخ ابن عساكر [مخطوط] ترجمة عبيد الله بن عمر بن الخطاب ج ٥ ورقة ٥٤٧ — ٢ ووقعة صفين ٢١٣ و ص ٢٦٦ وشرح نهج البلاغة ج ١ ص ٤٩٨ و ج ٢ ص ٢٧٩ ومعجم البلدان في [صفين] .
(٢) هي اسماء بنت عطارد التيمي زوج عبيد الله بن عمر [شرح النهج لابن ابي الحديد ١ — ٤٩٨] .
(٣) الضمير في قوله دعاهن يرجع الى نساء عبيد الله وكان تحته اسماء بنت عطارد التميمي وبحرية بنت هانيء الشيباني وكان عبيد الله قد اخرجها معه الى الحرب ذلك اليوم لتنظر الى قتاله . « شرح النهج لابن ابي الحديد ١ — ٤٩٨ » .
(٤) يريد بـ (شهباء المناكب) كتيبة ، وجعلها شهباء للمناكب لما فيها من بياض السلاح . والشارف : الناقة المسنة ، واستعاره للكتيبة « عن شرح ادب الكاتب للجواليقي ص ٢٧٨ » ولهذا البيت رواية اخرى وردت في الأخبار الطوال لأبي حنيفة الدينوري ص ١٨١ وهي :
وقد ضربت حول ابن عم نبينا ... من الموت شهباء المناكب شارف
(٥) أشرت : نشرت وأظهرت . قال ابن أبي الحديد : (هذا الشعر نظمه كعب بن جعيل بعد رفع المصاحف وتحكيم الحكمين) ... شرح النهج ١ — ٤٩٨ .

وقرت نعيم سعدها وربابها ... وخالفت الجعراء فيمن يخالف
معاوي لا تنهض بغير وثيقة ... فانك بعد اليوم بالذل عارف

وقال أيضاً يرثيه :(١)

يقول عبيد الله لما بدت له ... سحابة موت تقطر الحتف والدما
الا يالقوم اصبروا ان صبرنا ... أعف وأحجى عفة وتكرما
فلما تلاقى القوم خر مجدلا ... صريعاً فلاقى الترب كفيه والفما
وخلف أطفالاً يتامى أذلة ... وخلف عرسا تسكب الدمع أيما
حلال لها الخطاب لا تتقيهم ... وقد كان يحمى غيرة أن تكلما

ولقد كان كعب حريصاً على أن يظفر معاوية حرصاً حمله على هجاء أخيه عتبة بن أبي سفيان وتعييره بالفرار من إحدى معارك صفين ، ولم يبق مما قاله فيه إلا شطر واحد ذكره نصر بن مزاحم في وقعة صفين ص ٢٦٧ وهو :

« سميت عتاباً ولست بمعتب »

كما أنه لم يبق مما قاله في رجال همدان لما جدوا في القتال وقالوا : (ليت لنا عدتنا من العرب يحالفوننا على الموت) إلا شطر ذكره الطبري في تاريخه ٦/١٢ وهو :

« وهمدان زرق تبتغي من تحالف »

ولما انتهى الفريقان الى التحكيم واجتمع الحكمان أبو موسى الأشعري وعمرو بن العاص وانجلى الأمر عما هو مشهور من دهاء عمرو وغفلة أبي موسى كاد ابن جميل يخرج من جلده طرباً وقد قال في ذلك :(٢)

وكان أبو موسى عشية أذرُح(٣) يطوف بلقمان الحكيم يواربه

(١) تاريخ ابن عساكر ج ٥ ورقة ٢/٥٤٧ (مخطوط) وشرح نهج البلاغة ١/٤٩٩ ووقعة صفين ص ٢١٤ .
(٢) شرح نهج البلاغة ١/١٩٩ ومعجم البلدان في (أذرح) .
(٣) أذرح : بلد في أطراف الشام من أعمال الشراة ثم من نواحي البلقاء وعمان وبأذرح الى الجرباء كان أمر الحكمين .

ولما تداروا(١) في تراث محمد ... سمت بابن هند في قريش مضاربه
سعى لابن عفان ليدرك ثأره ... وأولى عباد الله بالثأر طالبه
وقد غشيتنا في الزبير غضاضة ... وطلحة اذ قامت عليه نوادبه
فرد ابن هند ملكه في نصابه ... ومن غالب الأقدار فالله غالبه
وما لابن هند في لؤي بن غالب ... نظير وان جاشت عليه أقاربه
فهذاك ملك الشام واف سنامه ... وهذاك ملك القوم قد جب غاربه
يحاول عبدالله(٢) عمراً(٣) وانه ... ليضرب في بحر عريض مذاهبه
دحا دحوة في صدره فهوت به ... الى أسفل الجب (الشطون جواذبه)(٤)

ولما عاد معاوية الى دمشق معتبراً أن الأمر قد تم له ، كان كعب يغد عليه ويمدحه ، وكان معاوية حفياً به مكرماً له .

ومن شعره في معاوية هذه الأبيات التي رواها ابن عساكر(٥) وهي تشعر بمبلغ دالته على معاوية ، ويظهر أنها مع الابيات التي تقدمت من قصيدة واحدة :

وأبيض جني(٦) عليه (سموطه)(٧) ... من الانس في قصر منيف غواربه

(١) تدارأ القوم : تدافعوا في الخصومة واختلفوا .
(٢) هو ابو موسى الأشعري .
(٣) هو عمرو بن العاص .
(٤) في الأصل : « الظنون كواذبه » .
(٥) مخطوطة ابن عساكر ج ٧ ورقة ٥٣٢ .
(٦) يريد بالجني هنا المرأة الساحرة بحسنها ، على عادة العرب في تسمية كل شيء بارع الى الجن . قال أبو دهبل الجمحي ويروى لمحمد بن بشير الخارجي :

وانما قلبها المشتكي حجر ... وانما دلها سحر تصيد به
رمي القلوب بقوس مالها وتر ... جنية أولها جن يعلمها

قال ابو زكريا التبريزي : يعني أن فعلها مباين لفعل الانس وكذلك شكلها [شرح الحماسة للتبريزي ٣/١٦٦] . ومثله قول المقنع الكندي رواه الجاحظ في كتاب الحيوان ٦/٥٧

وفي الظمائن والأحداج أملح من ... حل العراق وحل الشام واليمنا
جنية من نساء الانس أحسن من ... شمس النهار وبدر الليل قد قرنا

وقال ابو العلاء المعري :

وقد كان أرباب الفصاحة كلما ... رأوا حسناً عدوه من صنعة الجن

(٧) في الأصل : [شموطة] وهو تصحيف سموط وهي القلائد .

تدليته سقط الندى بعد هجعة ... فبت أمنيّه المنى وأخالبه
بما ينزل (الأروى من الشعف العلى ... وما لو يسنّي حية) لان جانبه (١)
ندمت على شتم العشيرة بعدما ... مضى واستتبت للرواة مذاهبه
فأصبحت لا أستطيع رداً لما مضى ... كما لا يرد الدر في الضرع حالبه
معاوي أنصف تغلب ابنة وائل ... من الناس أودعها وحيّاً تضاربه
قليل على باب الأمير لباثتي ... اذا رابني باب الأمير وحاجبه
ولما تداروا في تراث محمد ... سمت بابن هند في قريش مضاربه

قال ابن عساكر ويقول فيها :

قليتك فاهجرني (٢) فلا ود بيننا ... كذلك من يستغن يستغن صاحبه

ويروي ابو زيد البلخي في (كتاب البدء والتاريخ ٥/٢٣٥) بيتاً مما قاله كعب بن جعيل في تأهب الحسن بن علي ومعاوية للقتال بعد مقتل علي رضي الله عنهم :

من جسر منبج أضحى غب عاشرة ... في نخل مسكن تتلى حوله السور

وقد طلب يزيد بن معاوية اليه أن يهجو الانصار انتقاماً من عبد الرحمن ابن حسان الذي شبب باخته رملة ، فابى كعب تحرجاً وتأثماً وقال له : (أرادّي أنت في الشرك بعد الايمان ؟ أأهجو قوماً نصروا رسول الله ﷺ وآووه ؟ ولكني أدلك على غلام منا نصراني لايبالي أن يهجوهم كأن لسانه

(١) الأروي جمع أروية وهي تقع على الأنثى والذكر من الوعل . والشعف : جمع شعفة وهي رأس الجبل . والعلى : جمع عليا . ويسني : اي يستخرج الحيات فيرقيها ويرفق بها تخرج اليه قال العجاج :

بمنطق لو أنني أسني ... حيات هضب جئن أو لواني
أرقي به الأروى دنون مني ... « لسان العرب »

وقد كان البيت محرفاً تحريفاً لايستقيم معه له معنى فقد ورد في الأصل هكذا :

بما ينزل الأورى من الشعف الطلى ... وما نوسى حبه لان جانبه

(٢) في الأصل [فاهجري] .

لسان ثور . قال من هو ؟ قال الأخطل) (١) .

واتصل ابن جعيل في دمشق بعبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، كان مداحاً له نوّه بذكره وشاد بمآثر والده العظيم وبلائه الحسن في الفتوح ، ولما مات عبد الرحمن بحمص سنة ست وأربعين حزن عليه ورثاه . فمن شعره فيه قوله يمدحه (٢) .

أبوك الذي قاد الجيوش (مغرّبا (٣)) ... الى الروم لما (أعطت الخرج) (٣) فارسُ
وكم من فتى نبهته بعد هجعة ... بقرع اللجام وهو (اليغ) (٤) ناعس
ومايستوي الصفان صف لخالد ... وصف عليه من دمشق البرانس (٥)
ولم يبق تحت الحزم الا أجنة ... ولا من هواديهن الا الكرادس

وله فيه أيضاً : (٦)

إني ورب النصارى في كنائسها ... والمسلمين إذا ما جمّعوا الجمعا
والقائم الليل بالإنجيل يدرسه ... لله تسفح عيناه إذا ركعا
ومهراق دماء البُدن عند منى ... لأشكرنّ لابن سيف الله ماصنعا
لما تهبطت من غبراء مظلمة ... سهلت منها بإذن الله مطلعا
فقد نزلت اليه مفرداً وَحَداً ... (كفرضة) النيل (تروي العدوتين) معا (٧)
أفضلت فضلاً عظيماً لست ناسيه ... كان له كل فضل بعده تبعا

(١) نقائض جرير والأخطل لأبي تمام ص ١٥٨ والكامل للمبرد ص ١٠١ والعقد لابن عبد ربه ٦ — ٦٩ والأغاني ١٧ — ١٤٧ على اختلاف في بعض الالفاظ ففي الكامل [أرادّي أنت الى الكفر بعد الإسلام ...] .
(٢) ابن عساكر ترجمة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ج ٥ ورقة ٢٩٣ [مخطوط] .
(٣) في الأصل : (معرفا) و (اعطب الحرج) .
(٤) الأليغ : من لايبين كلامه . وفي الأصل : « الثغ » .
(٥) البرنس هو قلنسوة طويلة وكل ثوب رأسه ملتزق به ، ويريد بالصف الذي عليه البرانس جيش الروم .
(٦) ابن عساكر ترجمة عبد الرحمن بن خالد .
(٧) في الأصل : [كعرض النيل يرويني العداة معا] وهو تحريف منكر .

فرع أجاد هشام والوليد به ... بمثل ذلك ضرّ الله أو نفعا
من (مستنيري) قريش عند نسبتها ... (كالهبرزي اذا وازنته متعا) (١)
حفانه كحياض البئر مترعة ... اذا رآها اليماني رق واختضعا
لأجزينكم سعياً بسعيكم ... وهل يكلف ساع فوق ما (وسعا) (٢)

وقال يمدحه (٣)

اني والذي (أجار) (٤) بفضل ... يوسف (الحب(٤)) من بني يعقوب
والمصلين يوم خضب الهدايا ... بدم من نحورهن صبيب
لأصيبن كاشحيك من النا ... س (بوسم) على الانوف (علوب) (٥)
وأجدن كل يوم ثناء ... (يونق)(٦) الأذن من محل نسيب
كيف أنسى أيام جئتك فرداً ... مضمراً بشر (راغب مرغوب) (٧)
أخرق الجند والمدائن حتى ... صرت في منزل القريب الحبيب
عبد عبد الرحمن ذي الحسب العـ ... ـدّ ومأوى الضريك و (المحروب) (٨)

وقال معاوية يوماً لكعب بن جعيل بعد موت عبد الرحمن : ليس لشاعر عهد ، قد كان عبد الرحمن لك صديقاً ، فلما مات نسيته . فقال مافعلت ولقد قلت فيه بعد موته(٩) :

(١) الهبرزي : الدينار الجديد والذهب الخالص . وازنه : عادله وقابله . متع : جاء ورجح . وفي الأصل : (من مستبري ... كالهرمزي اذا واريته منعا) .
(٢) في الأصل : [زهرا يكلف ساع فوق ماوضعا] .
(٣) مخطوطة ابن عساكر ترجمة عبد الرحمن بن خالد .
(٤) في الأصل : [احار] و [الجب] .
(٥) في الاصل : (بوسيم) و (غلوب) .
(٦) في الاصل : (يوبق) .
(٧) في الاصل : (راغب مرهوب) .
(٨) في الاصل : (وللحروب) .
(٩) ابن عساكر ترجمة كعب بن جعيل ج ٧ ورقة ٥٣٢ وترجمة عبد الرحمن بن خالد ج ٥ ورقة ٢٩٢ — ٢ [وكلاهما مخطوط] والاصابة لابن حجر ٥ — ٦٨ .

ألا تبكي وما ظلمت قريش ... بإعوال البكاء على فناها
ولو سئلت دمشق وبعلبك ... وحمص من أباح لكم حماها
فسيف الله أوردها المنايا ... وهدّم حصنها وحوى قراها
وأنزلها معاوية بن حرب ... وكانت أرضه أرضاً سواها

ثم إذا كانت سنة خمسين نراه هو والحطيئة في مجلس صاحبه القديم سعيد بن العاص والي المدينة حينئذ ، ويدخل الفرزدق عائداً بسعيد من زياد ابن ابيه ، فاذا أنشد الفرزدق قصيدته التي يمدح بها سعيداً قال كعب بن جعيل : هذه والله الرؤيا التي رأيتها البارحة ، قال سعيد وما رأيت ؟ قال رأيت كأني في سكك المدينة فاذا أنا بابن قترة(١) أراد أن يتناولني فاتقيته . فيقول الحطيئة للفرزدق : أدركت من مضى ولا يدركك من بقي . فيقول كعب للحطيئة : فضله على نفسك ولا تفضله على غيرك . فيقول الحطيئة : والله أفضله على نفسي وغيري (٢)

وكما رأينا كعب بن جعيل في الشام والحجاز نراه في العراق يقوم بالمربد في البصرة يقضي بين الشعراء ويفضل بعضهم على بعض . ورد في الأغاني ١٣١/٤ أن النابغة الجعدي وأوس بن مغراء اجتمعا في المربد فتنافرا وتهاجيا وحضرهما العجّاج والاخطل وكعب بن جعيل . . وقال كعب في ذلك :

إني لقاض قضاء سوف يتبعه ... من أم قصداً ولم يعدل الى أود
فصلا من القول تأتم القضاة به ... ولا أجور ولا أبني على أحد
(نالت) بنو عامر (جعداً(٣)) وشاعرها ... كما (تنيل) بنو عبس بني أسد

وقد ذكر عن النابغة أنه هاجى كعب بن جعيل فغلبه كعب . كما أن أبا جهمة الأسدي كان قد خص بني تغلب جميعاً بالهجاء فقال كعب ابن جعيل (٤) :

(١) ابن قترة : حية خبيثة .
(٢) الاغاني ١٩ — ٢١ و ٢١ — ١٢٧ .
(٣) في الاصل « سعداً » وسياق الكلام يقتضي ان يكون جعدا لان المقصود بالهجاء النابغة الجعدي .
(٤) ابن عساكر ج ٧ ورقة ٥٣٢ مخطوط .

بنا كثرت بنو أسد فيخشى ... لكثرتها و(ما[1]) عز الفليلُ
قبيلة تردد في (معد)[2] ... خدودهم أذل من السبيل
تمنى أن تكون أخا قريش ... (شحيج البغل)[3] يأذن للصهيل[4]

وقال كعب أيضاً:[5]

إذا احمرّ بأس الناس ألفيت شرهم ... بني أسد إني بما قلت عارفُ
أغاروا علينا يسرقون رحالنا ... وليس لنا في مرج صفين قائف

وتنقطع أخبار كعب بعد وفاة معاوية سنة ستين مع عظم الأحداث التي جرت بعده ، فلا نسمع صوته أيام يزيد ، ولا أيام مروان بن الحكم في وقعة مرج راهط سنة اربع وستين حيث أبلت بنو تغلب مع مروان بلاء حسناً . فاذا بويع عبد الملك بن مروان وقضى على مصعب بن الزبير سنة احدى وسبعين سمعنا كعب بن جعيل يقول فيه:[6]

أمير المؤمنين هدى ونور ... كما جلى دجى الظلم النهارُ
قريع بني أمية من قريش ... هم السر المهذب والنضار

ويروي ابن عساكر خبراً لكعب مع خليفة من بني أمية لم يسمّه وخلاصة الخبر : أن بعض خلفاء بني أمية سأل شاعراً من تغلب اسمه قرثع التغلبي عن شرف تغلب وعددها فيمن هما ؟ فقال في بني أوس بن تغلب — لانه منهم — فيقول له الخليفة أتقول هذا وكعب بن جعيل حاضر ؟ فيقول نعم . فاذا جاء كعب أعاد الخليفة سؤاله فاعاد قرثع جوابه ؛ فيغضب كعب — لأنه

(١) في الاصل : ولا .
(٢) في الاصل : معهد .
(٣) في الاصل : شحيح البعل .
(٤) وردت هذه الابيات في ديوان حسان بن ثابت منسوبة اليه بتغيير قليل ص ٩٠
(٥) ابن عساكر ج ٧ ورقة ٥٣٢ مخطوط .
(٦) انساب الاشراف للبلاذري ج ١١ ص ٢١٢ .

من بني غنم بن تغلب — وينال من بني الأوس بن تغلب وتقع بين الشاعرين مشارّة فيقول كعب[1] :

لعمرك ما السفاح مثل ابن خالد ... وما أنت من أبناء عمرو بن حيحل[2]
ومالك في عمرو وعمران مسكة ... ولا في الكناني الأغر المحجل
ومالك في آل الهذيل دعامة ... ولا في بني (حوط الحظائر)[3] فارحل
وما الأوس الا جعر خار بقرقر ... من الأرض يحبي جمعه غير معجل

ويقول ابن عساكر أن كعباً بقي حتى وفد على الوليد بن عبد الملك ومدحه ، والوليد بويع سنة ست وثمانين وتوفي سنة ست وتسعين . فكعب على ذلك من المعمرين . وكان له أخ شاعر أيضاً اسمه عمير[4] ولكنه لم ينل من الشهرة ما ناله كعب .

خصائص شعره : إن ما بقي من شعر كعب بن جعيل طائفة يسيرة ولكنها تحمل خصائص تستحق التدبر كأثر الموطن والمجتمع والزمان ، فقصيدته التي يعتذر بها إلى الضحاك بن قيس تدل دلالة واضحة على أن الشاعر من الجزيرة الفراتية بعد أن ذكر فيها اضطرابه بين نصيبين ودارا والرقة . وذلك أثر من آثار الموطن واضح غير عميق يتأثر به الشاعر وغير الشاعر . ولكن الاثر البليغ هو الذي يلون شعر الشاعر بطبيعة الموطن ويلهمه انتزاع تشبيهاته واستعاراته مما تقع عليه عينه . فهل من ذلك شيء في شعر كعب ؟

درج شعراء العرب على تشبيه الفتاة الحسناء بالغصن لاعتدال قامتها ونعومتها وتأودها ، وكثيراً ما يجعلون ذلك الغصن من البان ونابتاً في كثيب

(١) مخطوطة ابن عساكر ، ترجمة قرثع التغلبي ج ١٤ ورقة ٢٠٧—٢ .
(٢) كذا بالاصل ولعله حيهل .
(٣) في بالأصل : خرط الحصائر والتصحيح من كتاب الاشتقاق لابن دريد .
(٤) عمير بن جعيل ذكره المرزباني في معجم الشعراء ص ٢٤٠ .

من الرمل ، ويكنون بكثيب الرمل عن عظم الارداف وارتجاجها ، والشواهد على ذلك كثيرة جداً . وهذا غير مستغرب من شاعر ينشأ في بوادي الحجاز أو نجد . أما كعب الناشيء في الجزيرة ذات الأنهار والغدران والظل والشجر ، فقد شبه الفتاة الناعمة المشوقة القوام بـ « صعدة نابتة في حائر » من الماء ، فعدل عن غصن البان على كثيب الرمل الى « الصعدة » وهي القناة النابتة في « حائر » والحائر المكان المطمئن يجتمع فيه الماء فيتحير ولا يخرج منه فقال :(١)

وضجيع قد تعللت به ... طيب أردانه غير تفل
في مكان ليس فيه برم ... وفراش متعال متمهل
فإذا قامت الى جاراتها ... لاحت الساق بخلخال زجل
وبمتنين إذا ما أدبرت ... كالعنانين ومرتج رهل
« صعدة نابتة في حائر » ... اينما الريح تميلها تمل

ولا يأتي بمثل هذا التشبيه الا من أقام بموطن مثل الجزيرة .

وكذلك نلفي في شعر كعب « القصور المنيفة الغوارب » و « البروج ذات الشماريخ » وذلك لكثرة ماوقع نظره عليه من قصور الروم وحصونهم وبروجهم وأسوارهم ، وما أقاموه في الجزيرة وعلى حدودها من المصانع والقلاع ، وفيما سبق إيراده من شعره شواهد على ذلك .

والمجتمع في شعره أثر ليس بدون أثر المكان ، فهو تغلبي متعصب لقبيلته شأن جميع شعراء العرب ، ويزيد على ذلك أن موقفه من قبيلته موقف يرينا الروح العربية تسع دينين في وقت واحد ، فهو وان كان مسلماً ، ينطق بلسان تغلب مسلمها ونصرانيها ، لان تغلب وقتئذ لم تدخل كلها في الاسلام ، ويحلف بالكنائس كما يقسم بالجوامع ، ويكرم دارس الانجيل كما يعظم قاريء القرآن :

(١) للمؤتلف والمختلف للآمدي ص ٨٤ وخزانة الأدب للبغدادي ج ١ ص ٤٥٧ .

إني ورب النصارى في كنائسها ... والمسلمين إذا ماجمّعوا الجمعا
والقائم الليل بالانجيل يدرسه ... لله تسفح عيناه اذا ركعا
ومهراق دماء البدن عندمنى ... لأشكرن لابن سيف الله ماصنعا

ومثل هذا الروح السمح يستدعي الاعجاب ، والغريب أن أثر النصرانية في شعر كعب التغلبي المسلم أكثر ظهوراً منه في شعر الاخطل التغلبي النصراني .

كان كعب في زمن تلاحقت فيه عظام الحوادث سراعاً ، فقد أدرك الفتوح الاسلامية التي غيرت مجرى التاريخ ، وانتصار العرب على الفرس والروم ، وأدرك الفتن الداخلية كمقتل عثمان وما تلاه من الأحداث كوقعة الجمل ووقعة صفين التي شهدها كعب مع معاوية . وهو من الشعراء الذين ساهموا في الأمور العامة ، واندفعوا في معالجة الأمور السياسية ، فكان شاعر أهل الشام ولسانهم . فظهر على شعره خيلاء الفاتحين وكيد الساسة ومكر الدعاة . فاذا مدح عبد الرحمن بن خالد بن الوليد أو رثاه نوّه بتغلغله في بلاد الروم ، وببطولة أبيه وظهوره على الفرس في العراق والروم في الشام . وما قاله في صفين من الشعر فيه دهاء وحسن تصرف ، فقد تفجع على عثمان ودعا الى المطالبة بدمه ، وجعل الشبه في دمه تحوم حول علي وأصحابه . قال ابن أبي الحديد في الموازنة بين قصيدة كعب وبين قصيدة النجاشي في خلاف علي ومعاوية وقد تقدم نقلها : « وأبيات كعب بن جعيل خير من هذه الأبيات — أبيات النجاشي — وأخبث مقصداً وأدهى وأحسن »(١) وقال في مكان آخر بعدما نقل قصيدة كعب : « وهذا شعر خبيث منكر ومقصد عميق(١) » .

واذا أضيف الى ذلك مايدور في شعره من الألفاظ الاسلامية كالنبي والحج وبيت الله والهدي والمصاحف والجمع والسوّر والركوع والسجود « وخلع الأنداد والصلب » وما الى ذلك وجدناه من أكثر الشعراء الاسلاميين تأثراً بالاسلام وحوادثه . وفي استنكافه عن مجاء الانصار تحرجاً وتأثماً وقوله

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ١ ص ١٥٨ و ص ٢٥٢ .

ليزيد بن معاوية الذي طلب اليه ذلك ، أرادي أنت في الشرك بعد الايمان ؟ أأهجو قوماً نصروا رسول الله ؟ (١) ، دليل على مبلغ أثر الاسلام في نفسه .

أما أسلوبه فأسلوب أهل الصدر الأول جزالةً وسلامةً وعدم تعمل ، والحس والعاطفة في الافصاح عن المعاني أظهر من الخيال ، كقوله وهو مما تغنى به المغنون في القرن الأول :(٢) ولعل هذه الابيات من غزل القصيدة التي يمدح بها سعيد بن العاص انظر مجلة المجمع (م ١٩ ص ١٨) .

اذا امتشطت علوا لهـا بوسادة ... ومدت عسيب المتن أن يتعفرا
ثوت نصف شهر تحسب الشهر ليلة ... تناغي غزالاً ساجي الطرف أحورا
تزين حتى تسلب المرء عقـله ... وحتى يحار الطرف فيها ويسكرا

وقوله يمدح : (٣)

لاينكئون الأرض عند سؤالهم ... لتطالب العـلات بالعيدانِ
بل يبسطون وجوههم فترى لهم ... عند السؤال كأحسن الألوان

وقوله يهجو :(٤)

إذا راح في قوهيـة متأزرا ... فقل جرذ يستن في ابن محضِ
وتحسبه إن قام للشي قاعـداً ... لقلة مقياسيه في الطول والعرض
فاقسمت لو خرت من أستك بيضة ... لما انكسرت من قرب بعضك من بعض
فيا خلقة الشيطان أقصر فانمـا ... رأيتـك أهلاً للعداوة والبغض

وقوله (٥) :

وغزانا ثبّع في حمير ... نزل الحيرة من أهل عدنْ

(١) تقدمت الاشارة الى مصادر هذا النص .
(٢) الأغاني ج ٣ ص ٨٣ .
(٣) شرح مقامات الحريري للشريشي ج ٢ ص ٨١ .
(٤) ديوان المعاني ج ١ ص ٢١١ وعيون الأخبار ج ٤ ص ٥٥ وأمالي القالي ج ١ ص ٢٧٨ وشرح الحماسة للتبريزي ج ٤ ص ١٨٣ .
(٥) الطبري (٢ — ٢٨) وفي معجم البلدان في مادة (الحيرة) .
وغزانا تبـع من حمير ... نازل الحيرة من أرض عدن

وقوله في الرثاء :

برابيـة الثرثار(٢) قبر ترابه ... يضم الغمام الجود والشمس والبدرا
رأت تغلب الغلبـاء عند مصابه ... عيون الأعادي نحو أعينها خزرا
وودت نجوم الجو يوم حملتـه ... على النعش لو كانت بأجمعها قبرا
منافسةً منهـا عليه وضنةً ... على الترب أن يمحو المآثر والفخرا
وما بخلت عيناى بالدمع بعـده ... على هالك إلا ذكرت لهـا عمرا

في البيتين الثالث والرابع معنى مبتكر بديع لم أره لغير هذا الشاعر من شعراء العرب ، والبيت الأخير من عيون الشعر وحر القريض ، أخذه ابو تمام الشيباني فقال وأحسن :

ما غاض دمعي عند نازلة ... إلا جعلتك للبكا سببا
فاذا ذكرتك ساعتك به ... مني الجفون ففاض والنكبا

(٢) الثرثار واد عظيم بالجزيرة يمدّ اذا كثرت الأمطار ، وهو في البرية بين سنجار وتكريت ، اختص باكثره بنو تغلب ، وتنصب اليه مياه من جبل الهرماس ، وكان للعرب بنواحيه وقائع مشهورة ولهم في ذكره أشعار كثيرة (معجم البلدان)

ابو الهذيل العلاّف*

حياته وفلسفته

١ — تمهيد

كان من أثر اتصال العرب بالفرس والروم في العصر العباسي الأول أن انتشرت في الدولة الاسلامية ثقافات مختلفة لأمم مختلفة . وكان هناك كتاب وشعراء وفلاسفة وعلماء يدعون إلى هذه الثقافات ويحببونها إلى الناس . وكان هناك ديانات ومذاهب مختلفة تحاول أن تثبت دعوتها ، حتى اضطر الخلفاء العباسيون إلى التدخل في المسائل الدينية . وحث العلماء على وضع الكتب في الرد على المجوس والدهرية . وعمل المتكلمون ، وعلى رأسهم المعتزلة ، على نشر الدعوة الدينية ، والذب عن حياض الاسلام ، عن طريق العقل . فاستعانوا بالمنطق اليوناني وصاغوا مسائلهم في قوالبه ، وعرفوا طرق الجدل والمناظرة ، ووضعوا لها قوانين وقواعد تقيدوا بها . ولقد بلغ من قوة العلماء في ذلك العصر أن أنفذ واصل بن عطاء أصحابه الى الآفاق ، وبث دعوته في البلاد ، فأجابهم الى ذلك خلق كثير ، وكانت مدينة البصرة عاصمة هذه الحركة الفكرية العظيمة ، يجتمع فيها واصل بن عطاء بعمرو بن عبيد ، وعثمان الطويل ، فينازعون الثنوية والدهرية في أمور التوحيد ، ويناظرون المجبرة في الجبر والاختيار ، والثواب والعقاب ، ويردون على المشبهة في صفات الله والتجسيم . وشجع الخلفاء العباسيون هذه

(*) محاضرة ألقاها الدكتور جميل صليبا في ردهة محاضرات المجمع العلمي العربي في ٢٨ كانون الثاني سنة ١٩٤٤ .

الحركة الفكرية للرد على الملحدين ، فاختار المهدي رجلاً وكل اليه أمرهم سماه صاحب الزنادقة ، وأنفذ الهادي وصية أبيه المهدي فاشتد في طلبهم والتنكيل بهم ، وسلك هارون الرشيد سبيل من قبله من الخلفاء في تعقبهم ، وأمر المأمون بقتل من حمل اليه من زنادقة البصرة .

٢ — نشأة أبي الهذيل : مولده ونسبه وحياته

ففي هذا العصر المفعم بالحياة الدينية والفكرية نشأ أبو الهذيل العلاّف وهو أبو الهذيل محمد بن عبد الله بن مكحول العبدي . ولد سنة خمس وثلاثين ومائة في مدينة البصرة في خلافة السفاح . كان مولى لعبد القيس . ولقب بالعلاف لأن داره كانت بالعلافين . ثم أخذ العلم عن عثمان الطويل وطبقته . وعثمان الطويل أخذه عن واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد . وقيل ان أبا الهذيل تزوج أخت عمرو بن عبيد . فدفعت اليه قمطرين من الكتب ، فأخذ عنها كثيراً من كلامه حتى بلغ فيه غاية ليس وراءها زيادة لمستزيد . ويظهر أن نبوغ أبي الهذيل ، لايرجع الى ماقبله من هذه الكتب ، ولا إلى ما أخذه عن استاذه عثمان الطويل فحسب ، بل يعود إلى استعداده الفطري وذكائه الحاد . فقد اتفقت الروايات على أن نبوغه كان مبكراً ، وانه كان له أقل من خمس عشرة سنة أول ماتكلم .

قال أبو الهذيل :

« كنت أختلف الى عثمان الطويل ، صاحب واصل بن عطاء ، فبلغني أن رجلاً يهودياً قدم البصرة ، وقد قطع عامة المتكلمين فيها ، فقلت لعمي ، ياعم ، امض بي الى هذا اليهودي اكلمه ، فقال لي : يابني ، هذا الرجل قد غلب جماعة متكلمي أهل البصرة ، فمن أخذك أن تكلم من لا طاقة لك بكلامه ؟ فقلت له : لابد من أن تمضي بي اليه . وماعليك مني غلبني أو غلبته ، فأخذ بيدي ، ودخلنا على اليهودي فوجدته يقرر الناس الذين يكلمونه على نبوة موسى ، ثم يجحدهم بنبوة نبينا . فيقول : نحن على ماتفقنا عليه من صحة نبوة موسى الى أن نتفق على غيره فنقر به . قال فدخلت عليه

فقلت له : أسألك أو تسألني ، فقال لي بل أنا ، أو ماترى ما أفعله بمشايخك ؛ فقلت له دع عنك هذا واختر ، اما أن تسألني ، أو أسألك . قال بل أسألك خبرني . أليس موسى نبياً من أنبياء الله قد صحت نبوته ، وثبت دليله . تقر بهذا أو تجحده فتخالف صاحبك . فقلت له : ان الذي سألتني عنه من أمر موسى هو عندي على أمرين . أحدهما اني أقر بنبوة موسى الذي أخبر بصحة نبوة نبينا ، وأمر باتباعه ، وبشر به وبنبوته ، فان كنت عن هذا تسألني فأنا مقر بنبوته . وإن كان موسى الذي تسألني عنه لايقر بنبوة نبينا محمد (ﷺ) ولم يأمر باتباعه ولابشر به ، فلست أعرفه ولا أقر بنبوته ، بل هو عندي شيطان يحرق . فتحير لما ورد عليه ما قلته له . وقال لي : فما تقول في التوراة ، قلت أمر التوراة أيضاً على وجهين ، ان كانت التوراة التي أنزلت على موسى النبي الذي أقر بنبوة محمد فهي التوراة الحق ، وإن كانت أنزلت على الذي تدعيه فهي باطل غير حق ، وأنا غير مصدق بها . فقال لي أحتاج الى أن أقول لك شيء بيني وبينك فظننت أنه يقول شيئاً من الخير فتقدمت اليه ، فسارني فقال أمك كذا وكذا ، وأم من علمك . لايكنى . وقدر أني أثب به فيقول وثبوا بي وشغبوا علي ، فأقبلت على من كان بالمجلس فقلت أعزكم الله . أليس قد وقفتم على مسألته إياي وعلى جوابي قالوا لي نعم . فقلت أليس عليه واجب ان يرد على جوابي . فقالوا نعم . قلت لهم فانه لما سارني شتمني بالشتم الذي يوجب الحد وشتم من علمني . وانما قدر أن أثب به فيدعي انا واثبناه وشغبنا عليه . وقد عرفتكم شأنه بعد انقطاعه . فأخذته الأيدي بالنعال . فخرج هارباً من البصرة وقد كان له بها دين كثير فتركه »(١).

(١) الحافظ ابي بكر احمد بن علي الخطيب البغدادي . تاريخ بغداد او مدينة السلام . المجلد الثالث ص ٢٦٦ — ٢٧٠ راجع ايضاً . امالي السيد المرتضى : ص- ١٢٤ . نكت الهميان في نكت العميان ، لصلاح الدين خليل بن ايبك الصفدي ، مصر . المطبعة الجمالية . سنة ١٩١١ ص- ٢٧٧-٢٧٩ . عيون التواريخ . لمحمد بن شاكر الكتبي . الجزء السادس ، مخطوط في المكتبة الظاهرية بدمشق رقم ٤٧ ص ١٢٠ .

لم تنقض حياة أبي الهذيل كلها في البصرة ، بل رحل منها الى مكة وبغداد وسر من رأى . فقد جاء في أحد كتب أبي الهذيل ، أنه لقي هشام ابن الحكم في مكة عند جبل أبي قبيس . وذكر الخطيب البغدادي ، أن أبا الهذيل قدم بغداد سنة ثلاث ومائتين وقد نيف على المائة . وذكر المسعودي أن أبا الهذيل اتصل هناك بالمأمون . وكان المأمون في أول أمره ، لما غلب عليه الفضل بن سهل وغيره ، يستعمل النظر في أحكام النجوم وقضائها ، وينقاد الى موجباتها ، ويذهب مذاهب من سلف من ملوك ساسان . فلما كان من الفضل بن سهل ذي الرياستين ما اشتهر ، وقدم المأمون العراق انصرف عن ذلك كله ، وأظهر القول بالتوحيد والوعد والوعيد ، وجالس المتكلمين وقرب اليه كثيراً من الجدليين والمناظرين كأبي الهذيل والنظام . وألزم مجلسه الفقهاء وأهل المعرفة من الادباء . وكان يشاركهم في مناظراتهم ، ويردهم الى جادة الصواب عند خروجهم منها . ويروى أن المأمون قال لحاجبه يوماً : من في الباب من أصحاب الكلام . فخرج وعاد اليه فقال : بالباب أبو الهذيل العلاف وهو معتزلي ، وعبد الله ابن أباض الخارجي . وهشام بن الكلبي الرافضي ، فقال المأمون مابقي من أعلام جهنم أحد الا وقد حضر .

واتصل أبو الهذيل في بغداد بيحيى بن خالد البرمكي وسهل بن هارون صاحب بيت الحكمة . فكان سهل بن هارون يظهر له الصداقة ويكن له العداوة . فقد استشفع أبو الهذيل به مرة على رجل في حاجة له فكتب سهل الى الرجل :

إن الضمير إذا سألتك حاجة ... لابي الهذيل خلاف ما أبدي
فاذا أتاك لحاجة فامدد له ... حبل الرجاء بمخلف الوعد
والق له كنفاً ليحسن ظنه ... من غير منفعة ولا رفد
حتى إذا طالت شقاوة جده ... ورجا الغنى فاجبه بالرد
وان استطعت له المضرة فاجتهد ... فيما يضر بأبلغ الجهد

واتصل أبو الهذيل في بغداد أيضاً بالحسن بن سهل وناظر بحضرته أصحاب النجوم. دخل يوماً على الحسن بن سهل وعنده فتى قد رفع الحسن ابن سهل مجلسه ، فقال أبو الهذيل من هذا الفتى الذي قد رفعه الأمير ، لتوفيه بمعرفته حقه . قال رجل من أهل النجوم ، قال من أهل صناعة الحساب أم الأحكام . قال الاحكام . قال ذلك عمل باطل . أفنسأله ؟ قال: سل . فأخذ أبو الهذيل تفاحة من بين يديه . وقال آكل هذه التفاحة أم لا . قال تأكلها . فوضعها أبو الهذيل . وقال : لست آكلها . قال فتعيدها إلى يدك ، وأعيد النظر . فوضعها وأخذ غيرها فقال له الحسن : لم أخذت غيرها ؟ قال: لئلا يقول لي لا تأكلها فآكلها خلافاً عليه ، فيقول : قد أصبت في المسألة الأولى .

ثم ان أبا الهذيل انتقل من بغداد الى سر من رأى ونزل في غرفة بسيطة الى أن يطلب داراً تصلح له : قال سليمان الرقي فمررت به فقلت له يا أبا الهذيل أتنزل في هذا المنزل فأنشدني :

يقولون زين المرء يامي رحله الا انزين الرجل يامي راكبه

وفي سر من رأى مات أبو الهذيل . واختلف في تاريخ موته . فزعم الخطيب البغدادي وأبو المحاسن أنه مات سنة ست وعشرين ومائتين في أواخر أيام المعتصم . قال المسعودي مات أبو الهذيل سنة سبع وعشرين ومائتين . وقال صاحب كتاب المصابيح لما مات أبو الهذيل بسر من رأى جلس الواثق في مجلس التعزية . وهذا يدل أنه مات في أيام الواثق . وقال آخرون أنه أدرك خلافة المتوكل ومات سنة خمس وثلاثين ومائتين . ونحن نميل الى ترجيح هذا القول الأخير استناداً الى سائر أخباره .

هذه لمحة قصيرة من حياة أبي الهذيل العلاف جمعتها مما تبعثر من أخباره في كتب التراجم والتاريخ والفلسفة . وفي كتب الأدب أخبار كثيرة عن أبي الهذيل تصور لنا أخلاقه وتبين لنا منزلته أحسن تبيين .

* * *

٣ – أخلاق أبي الهذيل

لم تكن أخلاق أبي الهذيل مما يورث الحمد والثناء دائماً . فقد قال الجاحظ أن أبا الهذيل كان أبخل الناس . ومثال ذلك أنه أهدى الى مويس دجاجة ، وكانت دجاجته التي أهداها دون ما كان يتخذ لمويس ، ولكنه بكرمه وبحسن خلقه ، أظهر التعجب من سمنها وطيب لحمها . فقال وكيف رأيت يا أبا عمران هذه الدجاجة . قال كانت عجباً من العجب ، فيقول وتدري ماجنسها ، وتدري ماسنها . فانما الدجاجة انما تطيب بالجنس والسن . وتدري بأي شيء كنا نسمنها ، فلا يزال في هذا ، والآخر يضحك ضحكاً نعرفه نحن ولا يعرفه أبو الهذيل . فان ذكروا دجاجة قال : أين كانت يا أبا عمران من تلك الدجاجة . وإن ذكروا بطة أو جزوراً أو بقرة . قال فأن كانت هذه الجزور في الجزر ، من تلك الدجاجة في الدجاج . وان ذكروا عذوبة الشحم قال عذوبة الشحم في البقر والبط وبطوت السمك والدجاج . وإن ذكروا ميلاد شيء أو قدوم انسان ، قال ذلك بعد أن أهديتها لك بسنة . وما كان بين قدوم فلان وبين البعثة بتلك الدجاجة إلا يوم . فكانت مثلاً في كل شيء ، وتاريخاً في كل شيء[1].

ولعل البخل هو الصفة الجامعة لسائر صفات أبي الهذيل القبيحة ، لأن حرصه الشديد قد صيره عند بعضهم كذاباً . ولابد للبخيل من أن ينافق ويصانع في التكسب والانتفاع وأن يدعي مالیس فيه . قال الجاحظ : « قال أبو الهذيل لمحمد بن الجهم وأنا عنده يا أبا جعفر : اني رجل منخرق الكف لا اليق درهماً . ويدي هذه صناع في الكسب ، ولكنها في الانفاق خرقاء . كم من مائة الف درهم قسمتها على الاخوان في مجلس ، وأبو عثمان يعلم ذلك . أسألك بالله يا أبا عثمان ، هل تعلم ذلك ؟ قال يا أبا الهذيل

(١) الجاحظ ، البخلاء ص ٦٣ – ٦٤ .

ما أشك فيها تقول . قال فلم يرض أن حضرت حتى استشهدني . ولم يرض باستشهادي حتى استحلفني[1] » .

ولم يكن بخله الشديد الاصفة متممة لطمعه ، وحبه للظهور ، واهتمامه برأي الناس فيه . حتى قال بشر بن المعتمر : « لأن يكون أبو الهذيل لايعلم وهو عند الناس يعلم أحب اليه من أن يعلم ، وهو عند الناس لايعلم ؛ ولأن يكون من السفلة وهو عند الناس من العلية ، أحب اليه أن يكون من العلية ، وهو عند الناس من السفلة . ولأن يكون نبيل المنظر سخيف المخبر ، أحب اليه من أن يكون نبيل المخبر ، سخيف المنظر . وهو بالنفاق أشد عجباً منه بالاخلاص . والباطل مقول أحب اليه من حق مدفوع »[2].

ويظهر أن الجاحظ كان شديداً على أبي الهذيل . فهو الذي وصفه بالبخل الشديد ، وقال عنه مع ذلك أنه كان أسلم الناس صدراً ، وأوسعهم خلقاً وأسلمهم سهولة . ولعل هذه الصفات كانت تشفع لأبي الهذيل في شيء من بخله . فقد رأيناه يصف الدجاجة التي أهداها الى مويس ويضحك الناس من كلامه ، ولا يعرف أبو الهذيل معنى ضحكهم وسخريتهم لسلامة صدره وسهولة أخلاقه . وقد رأيناه ينزل بسر من رأى في غرفة حقيرة ويتعجب أصحابه من ذلك فيقول لهم ان ظواهر المرء لاتدل على قيمته الحقيقية .

ولعل ميله الى الشهرة وطموحه واهتمامه برأي الناس فيه هو الذي دفعه إلى مناظرة اليهودي في البصرة وهو لايزال في الخامسة عشرة من سنه . وحب الظهور إذا اجتمع مع البخل في رجل واحد ، قد يدفعه في بعض الأوقات إلى التظاهر بالتقشف والكرم في دائرة ضيقة . وقد يكون التظاهر بالكرم واسطة من وسائط الاصلاح والاقتصاد ، أو وسيلة من وسائل دوام النعمة والثروة . حتى لقد ذكر صاحب المنية والأمل أن أبا الهذيل

(١) الجاحظ ، كتاب البخلاء ، ص ٦٤ .

(٢) الجاحظ ، البيان والتبيين ، جزء ٢١ ، ص ١٠٤ في الهامش .

كان يأخذ من السلطان ستين ألف درهم في السنة ويفرقها في بعض الأحيان على أصحابه .

ويبدو لنا من قراءة أخبار أبي الهذيل أن شخصيته كانت عجيبة ، لا بل كانت متناقضة . فقد كان بخيلاً ، سليم الصدر ، سهل الأخلاق ، محباً للظهور ، متقشفاً متظاهراً بالكرم ، موضعاً للاعجاب والسخرية معاً .

٤ — كتب أبي الهذيل

وليست هذه الصفات بقادحة في علم أبي الهذيل وقيمته الفكرية والفلسفية ، فقد كان شيخ المتكلمين في زمانه . ولم يتفق لأحد من شيوخ المعتزلة ماتفق له من قوة الحجة ، ولطيف الكلام ، وقطع المخالفين له في المناظرة . فقد ألف ستين كتاباً في الرد على المخالفين في رقيق الكلام وجليله . ولم يبق من هذه الكتب بين أيدينا إلا مخطوط واحد محفوظ في المتحف البريطاني تحت رقم ١٢٣٨ عنوانه هذه مناظرة أبي الهذيل لمجنون الدير . ومجنون الدير هذا هو شخصية وهمية تصورها أبو الهذيل للبحث في إمامة علي . أما أشهر كتبه الأخرى فهي :

١ — كتاب متشابه القرآن ذكره ابن النديم في الفهرس .

٢ — كتاب ميلاس ، وكان ميلاس هذا رجلاً مجوسياً أسلم على يد أبي الهذيل . وكان سبب اسلامه أنه جمع بين أبي الهذيل وجماعة من الثنوية فقطعهم أبو الهذيل فأسلم ميلاس عند ذلك .

٣ — كتاب القوالب في الرد على الدهرية .

٤ — كتاب الرد على النظام .

٥ — كتاب الحجج .

٦ — كتاب الاعراض والانسان والجزء الذي لايتجزأ .

وغير هذه الكتب كثير لم يبق الآن منها شيء . ولولا ماحفظ من فلسفة أبي الهذيل في كتاب الملل والنحل للشهرستاني ، والفرق بين الفرق

للبغدادي ، والمواقف للايجي ، ومقالات الاسلاميين للأشعري ، والانتصار للخياط لكنا اليوم لا نعرف شيئاً عن فلسفة هذا الرجل العظيم .

٥ — مبزة أبي الهذيل

لم تقتصر حياة هذا الفيلسوف الفكرية على علم الكلام والجدل ، بل اشتملت أيضاً على علوم أخرى كعلم الحديث ، وعلم الأدب . فقد روى الحديث عن سليمان بن مريم ، وروى عنه محمد الكاتب وأبو يعقوب الشحام وأبو العيناء وغيرهم . وانتقده أهل الحديث لخبث قوله وكذبه ومفارقته اجماع المسلمين . حتى قال الامام ابن قتيبة أن أبا الهذيل كان كذاباً أفاكاً . وشارك أبو الهذيل أيضاً في الأدب فحفظ كثيراً من أخبار العرب وأشعارهم . قال أبو حيان في المقابسات :

دخل أبو الهذيل مرة على الواثق . فقال له الواثق لمن تعرف هذا الشعر :

سباك من هاشم سبيل ليس إلى وصله سبيل
للحسن في وجهه هلال لاعين الخلق لايزول
وطرة مازال فيها لنور بدر الدجى مقيل
فان يقف فالعيون نصب وان تولى فهن حول

فقال أبو الهذيل يا أمير المؤمنين . هذا الرجل من أهل البصرة يعرف بأبي حيان الدارمي وكان يقول بامامة المفضول . ومن كلمة يقول فيها :

أفضله والله قدمه على صحابته بعد النبي المكرم
بلا بغضة والله مني لغيره ولكنه أولاهم بالتقدم

وقال النظام : ما أشفقت على أبي الهذيل قط في استشهاد شعر إلا يوم قال له الملقب ببرغوث أسألك عن مسألة فرفع أبو الهذيل نفسه عن مكانته فقال برغوث :

وما بقيا علي تركتماني ولكن خفتما صرد النبال

ولم أعرف في نقيضه بيتاً يتمثل به . فبرز أبو الهذيل وقال لا بل كما قال الشاعر :

وأرفع نفسي عن بجيلة انني اذل بها عند الكلام وأشرف

وكان القوم يجلونه ويعظمونه لسعة علمه وكثرة حفظه وسرعة خاطره . قال ثمامة وصفت أبا الهذيل للمأمون فلما دخل عليه جعل المأمون يقول لي يا أبا معن وأبو الهذيل يقول لي يا ثمامة . فكدت أتقد غيظاً . فلما احتفل المجلس استشهد أبو الهذيل في عرض كلامه بسبع مائة بيت فقلت له ان شئت فكنني ، وإن شئت فسمني . وذكر ابن النديم في ترجمة ثمامة بن أشرس أنه بلغ المأمون أن ثمامة لا يقوم لطاهر بن الحسين ويقوم لأبي الهذيل ويأخذ ركابه حتى ينزل فسأله عن ذلك فقال أبو الهذيل أستاذي منذ ثلاثين سنة .

وفي وفيات الأعيان كلام لابي الهذيل في العشق يدل على فصاحته وبلاغته . قال اجتمع عند يحي بن خالد البرمكي جماعة من أرباب الكلام فسألهم عن حقيقة العشق فتكلم كل واحد بشيء وكان أبو الهذيل في جملتهم فقال : « أيها الوزير ، العشق يختم على النواظر ، ويطبع على الأفئدة ، مرتعه في الاجسام ، ومشرعه في الأكباد ، وصاحبه متصرف الظنون ، متفنن الأوهام ، لايصفو له مرجو ، ولا يسلم له مدعو ، تسرع اليه النوائب ، وهو جرعة من نقيع الموت ، ونقمة من حياض الثكل ، غير أنه من أريحية تكون في الطبع ، وطلاوة توجد في الشمائل ، وصاحبه جواد لا يصغي إلى داعية المنع ، ولايصيخ لنازع العذل » .

ومعرفة أبي الهذيل بجيد الكلام ، جعلت المبرد يقول فيه : « مارأيت أفصح من أبي الهذيل والجاحظ ، ولئن كان الجاحظ أقدر على فنون الكتابة من أبي الهذيل لقد كان أبو الهذيل أحسن مناظرة منه . وقال الخياط في كتاب الانتصار ، كان أبو الهذيل نسيج وحده ، وواحد دهره ، في البيان ، ومعرفة جيد الكلام . وجميع المتكلمين الذين عاصروا أبا الهذيل كانوا يقرون له بالتقدم عليهم ، في حسن الجدل وقوة الحجة ، حتى قال ابن النديم كان أبو الهذيل شيخ البصريين ومن أكبر علمائهم ، وقال

ابن خلكان : كان أبو الهذيل حسن الجدال ، قوي الحجة ، كثير الاستعمال للادلة والالزامات . وذكروا أن النظام كان قد نظر في شيء من كتب الفلاسفة فلما ورد البصرة ، كان يرى أنه قد أورد من لطيف الكلام مالم يسبق عليه الى أبي الهذيل العلاف ، قال فناظرت أبا الهذيل في ذلك ، فخيل لي أنه لم يكن متشاغلاً قط إلا به ، لتصرفه فيه ، وحذقه في المناظرة فيه . وكثيراً ما كان أبو الهذيل يناظر النظام ويقطعه ، ناظر النظام أبا الهذيل مرة في الجزء الذي لايتجزأ فألزمه أبو الهذيل مسألة الذرة والنمل ، وهو أول من استنبطه فتحير النظام في ذلك فلما جن الليل نظر اليه أبو الهذيل ، وإذا النظام قائم ، ورجله في الماء يتفكر ، فقال يا ابراهيم هذا حال من يناطح الكباش .

وكان أبو الهذيل يقطع خصمه بأقل كلام ، حكي أنه لقي صالح بن عبد القدوس . وقد مات له ولد وهو شديد الجزع عليه . فقال أبو الهذيل لا أعرف لجزعك عليه وجهاً ، اذ كان الانسان عندك كالزرع ، قال صالح يا أبا الهذيل انما أجزع عليه لأنه لم يقرأ كتاب الشكوك ، فقال له وما هذا الكتاب ياصالح ، قال هو كتاب ، قد وضعته ، من قرأه ، يشك فيما كان حتى يتوهم أنه لم يكن ، ويشك فيما لم يكن ، حتى يتوهم أنه قد كان . فقال له أبو الهذيل فشك أنت في موت ابنك ، واعمل على أنه لم يمت ، وان كان قد مات ، وشك أيضاً في قراءته كتاب الشكوك ، وان كان لم يقرأه .

وقال أبو الهذيل قلت لمجوسي ماتقول في النار قال بنت الله ، قلت فالبقر قال ملائكة الله ، قص أجنحتها وحطها الى الأرض ، يحرث عليها ، فقلت فالماء قال نور الله ، قلت فما الجوع والعطش قال فقر الشيطان وفاقته ، قلت من يحمل الأرض ؟ قال بهمن الملك ، قلت : فما في الدنيا شر من المجوس أخذوا ملائكة الله فذبحوها ، ثم غسلوها بنور الله ، ثم شتوّوها بنت

الله ، ثم دفعوها الى فقر الشيطان وفاقته ، ثم سلخوها على رأس بهمن أعز ملائكة الله ، فانقطع المجوسي وخجل .

وكان أقدر على اقناع العلماء منه على اقناع العامة . قيل له مرة إنك لتناظر النظام وتدور بينكما نوبات . وأحسن أحوالنا اذا حضرنا أن تنصرف شاكين في القاطع منكما والمنقطع ، ونراك مع هذا يناظرك زنجويه الخال فيقطعك في ساعة ، فقال ياقوم ان النظام معي على جادة واحدة ، لاينحرف أحدنا عنها إلا بقدر مايراه صاحبه ، فيذكره انحرافه ، ويحمله على سننه ، فأمرنا قريب ، وليس هكذا زنجويه الخال ، فانه يبتدي معي بشيء ، ثم يطفر الى شيء آخر بلا واصلة ولا فاصلة ، وأبقى ، فيحكم علي بالانقطاع ، وذاك لعجزي عن رده الى سنن الطريق الذي فارقني فيه آنفاً .

وفي هذا القول اشارة الى شروط الجدل ، وضرورة التقيد بموضوع البحث ، وتحديد المعاني في السؤال والجواب ، والاقناع والبرهان . والجدل هو الطريقة التي سلكها أبو الهذيل ، وأصحابه من المعتزلة في عرض فلسفتهم ، والدفاع عن آرائهم ، فتولد من هذه المناظرات فلسفة عامة مشتملة على نظريات مختلفة في حقيقة الاله والكون والانسان .

٦ — فلسفة أبي الهذيل

إن أبا الهذيل فيلسوف معتزلي ، وافق أهل الاعتزال في فلسفتهم العامة ، وانفرد عنهم في مسائل خاصة .

أما فلسفة الاعتزال العامة التي وضع مبادئها واصل بن عطاء ، وعمرو بن عبيد ، وعثمان الطويل وغيرهم من أهل الاعتزال ، فتنحصر في أصول خمسة هي : القول بالتوحيد ، والعدل ، والوعد والوعيد ، ووجوب المعرفة بالعقل قبل ورود السمع ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

فالقول بالتوحيد انما وضع للرد على الرافضة والمجسمة . وفيه أن الله واحد لا شريك له من أي جهة ، ولا كثرة في ذاته . وهو قديم عالم لذاته

قادر لذاته ، حي لذاته ، لايعلم وقدرة وحياة هي صفات قديمة ومعان قائمة به . وهو خالق الجسم وليس بجسم ، محدث الأشياء وليس كالأشياء ، منزه عن المخلوق ، لايرى بالأبصار لا في الدنيا ولا في الآخرة .

والقول بالعدل وضع للرد على المجبرة من الجهمية والرافضة . وفيه أن الله تعالى حكيم عادل لايجوز أن يضاف اليه شر وظلم ، ولايجوز أن يريد من عباده خلاف ما يأمرهم به . وهو لايحب الفساد ، ولا يرضى لعباده الكفر ، ولا يريد ظلماً للعالمين . وأفعال العباد من خير وشر وايمان وكفر وطاعة ومعصية منسوبة اليهم ، يفعلونها بقدرة خلقها الله فيهم . ويستحيل أن يقول الله لعبده افعل ، وهو لايستطيع أن يفعل ، بل العبد قادر خالق لأفعاله خيرها وشرها ، مستحق على مايفعله ثواباً وعقاباً في الدار الآخرة .

والقول بالوعد والوعيد انما ذهبوا اليه لاعتقادهم أن الله تعالى صادق في وعده ووعيده ، لامبدل لكلماته ، فلا يغفر عن كبيرة إلا بعد التوبة فاذا خرج المؤمن من الدنيا على طاعة وتوبة استحق الثواب ، واذا خرج من غير توبة عن كبيرة ارتكبها استحق الخلود في النار ، لكن يكون عقابه أخف من عقاب الكفار . فصاحب الكبيرة ليس بمؤمن مطلق ، ولا بكافر مطلق ، لكنه في منزلة بين المنزلتين ، لأنه فاسق . والفسق حال متوسطة بين الكفر والايمان(١) .

وأما وجوب المعرفة بالعقل فيرجع الى أن الانسان يستطيع بعقله قبل

(١) راجع كتاب الانتصار للخياط ص — ١٣٦ . قال الخياط : « وليس يستحق احد منهم اسم الاعتزال حتى يجمع القول بالأصول الخمسة : التوحيد ، والعدل ، والوعد والوعيد ، والمنزلة بين المنزلتين ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » .
اما نحن فقد جمعنا القول بالوعد والوعيد والمنزلة بين المنزلتين في اصل واحد ، واعتبرنا القول بوجوب المعرفة بالعقل قبل ورود السمع اصلاً خامساً لما للعقل في نظر المعتزلة من اثر عميق في التمييز بين الخير والشر والعقاب والثواب .
راجع ايضاً كتاب الملل والنحل للشهرستاني .

ورود السمع أن يعرف الحسن ويعتنقه ، ويدرك القبيح ويجتنبه ، وما ورود التكاليف إلا ألطاف للباري تعالى أرسلها الى العباد بتوسط الانبياء امتحاناً واختباراً ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيي من حي عن بينة .

وأما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيتضمن تكليف المؤمنين الجهاد ، واقامة حكم الله على كل من خالف أمره أو نهيه سواء أكان كافراً أم فاسقاً .

لقد ذهب أبو الهذيل العلاف كغيره من المعتزلة الى هذه الأصول الخمسة ، وانفرد عن أصحابه بآراء خاصة في حقيقة الأجسام ، والجزء الذي لايتجزأ ، والحركة ، والسكون ، والصفات الالهيه ، والقدرة ، والنفس الانسانية ، وحركات أهل الجنة والنار ، ونعيمهم ، وعذابهم ، والطاعة ، والاستطاعة والخلق ، والآجال ، وشروط الحجة بطريق الاخبار وغيرها .

ان نظرة بسيطة الى هذه المسائل تدلنا على أن الاحاطة بها تحتاج الى عدة مقالات . فلنقتصر اذن في مقالنا هذا على بحث المسائل الرئيسية فقط .

من المسائل الرئيسية التي بحثها أبو الهذيل مسألة الصفات الالهية . فقد كان بعض المتكلمين ممن تقدم أبا الهذيل يقولون ان الله عالم وعلمه قديم . وكان بعضهم الآخر يقول ان الله عالم لذاته لا بعلم . فكان قول الفريق الأول يؤدي الى القول بتعدد القديم ، وكان قول الفريق الثاني يؤدي الى نفي العلم ونفي غيره من الصفات عن الذات الالهية . فذهب أبو الهذيل الى هذه المسألة الى رأي متوسط بين الرأيين السالفين ، فقال : إن الله تعالى عالم بعلم وعلمه ذاته ، قادر بقدرة وقدرته ذاته ، حي بحياة وحياته ذاته . أي أن علم الله تعالى هو هو ، وكذلك سمعه وبصره وحكمته . فهو يرى اذن أن الصفة هي عين الذات . والفرق بين قولنا أن الله عالم لذاته لابعلم ، وبين قولنا عالم بعلم هو ذاته ، انا في القول الأول ننفي عن الله صفة العلم ، وفي الثاني نثبت ذاتاً هي بعينها صفة ، أو نثبت صفة هي بعينها ذات . وكان أبو الهذيل اذا قيل له حدثنا عن علم الله الذي تقول

أنه ذاته . أتزعم أنه قدرته أيضاً ، أبى ذلك . فاذا قيل له ، فهو غير قدرته ! أنكر ذلك أيضاً . ويظهر أن أبا الهذيل لم يذهب الى هذا القول الا لرغبته في الابتعاد عما وقعت فيه الرافضة من التجسيم ، وما أدى اليه قول بعض المتكلمين من تمدد القديم فقد كانت المجسمة تعتقد أن ربها ذو هيئة وصورة ، يتحرك ويسكن ، ويزول وينتقل . وانه كان غير عالم ، ثم علم ، وانه يريد الشيء ثم يبدو له سبب آخر فيريد غيره وذكر أبو الهذيل في بعض كتبه أن هشام بن الحكم قال له : ان ربه جسم ذاهب جاء ، فيتحرك تارة ويسكن أخرى ، ويقعد مرة ويقوم أخرى ، وانه طويل عريض . لأن مالم يكن كذلك في زعمه دخل في حد التلاشي . قال فقلت له فأيما أعظم إلهك أم هذا الجبل وأومأت الى أبي قبيس فقال هذا الجبل أعظم منه . وذكر ابن الروندي أيضاً أن هشام بن الحكم كان يقول أن بين الله وبين الأجسام المشاهدة تشابهاً من جهة من الجهات لولا ذلك مادلت عليه . فهذه الملاحظات وغيرها ساقت أبا الهذيل الى القول بالتجريد ، فنفى عن الله تعالى شبه خلقه من كل وجه ، وأثبته واحداً ليس بجسم ، ولا بذي هيئة ، ولا صورة ولا حد ، وانه ليس كمثله شيء . وأبو الهذيل يسمي العلم والقدرة والحياة وجوهاً ثلاثة للذات الالهية . وهذه الوجوه الثلاثة التي اقتبسها أبو الهذيل من الفلسفة الافلاطونية الحديثة شبيهة بأقانيم المسيحية .

قال أبو الهذيل : ولقولي هذا نظائر عند أهل التوحيد . انهم بأجمعهم يقولون ان وجه الله هو الله . وقد فسد أن يكون لله وجه هو بعضه أو وجه قديم هو معه . فلم يبق إلا أن يكون وجهه هو ذاته كما يقال هذا وجه الأمر ، وهذا وجه الرأي . وهذا الأمر نفسه ، وهذا الرأي نفسه . على أن أبا الهذيل قد نفى العلم من حيث أوهم أنه أثبته ، لأنه لم يثبت في النهاية إلا الذات الالهية . وكان اذا قيل له : فلم اختلفت الصفات فقيل عالم ، وقيل قادر ، وقيل حي ، قال : لاختلاف المعلوم والمقدور . ويرى أبو الهذيل

أن السمع والبصر صفات أزلية ، فالله تعالى لم يزل سميعاً بصيراً بمعنى أنه سيسمع وسيبصر : وكذلك لم يزل غفوراً رحيماً محسناً ، خالقاً رازقاً ، مثيباً معاقباً ، موالياً معادياً ، آمراً ناهياً ، بمعنى أن ذلك سيكون منه . وكان سهلاً عليه أن يؤول هذه الصفات تأويلاً ينفي عنها الصفة الحسية ، لأنه كان يعتبر السمع والبصر من أعمال الروح ، لا من أعمال الحواس .

وقد ساقته نظرية الصفات هذه الى القول بارادات لا محل لها ، يكون الله تعالى مريداً بها . فارادة الله لكون الشيء هي غير الشيء المكوّن . وارادته للايمان هي غير الايمان والأمر به . ففرق على هذه الصورة بين الارادة والشيء المراد ، كما فرق بين الارادة الخالقة والارادة الشائعة . فارادة الخلق هي الخلق بذاته ، وهي تختلف عن المخلوق ، لأنها ليست في مكان . ثم انه ذهب في تقسيم كلام الباري تعالى إلى ماذهب اليه في تقسيم الارادة ، فقال هو قسمان أحدهما يحتاج إلى مكان ، والآخر لا يحتاج إلى مكان . فكلمة الخلق . وهي قول الله للشيء « كُنْ » ، هي عين الخلق . وهي ليست في مكان ، وليس يجائز أن يخلق الله شيئاً ولا يقول له كُنْ . فكأن كلمة التكوين ، كما قال بعض الفلاسفة ، في المكان الأوسط بين الخالق الأزلي وبين العالم المخلوق . أو كأنها جوهر شبيه بالمثل الافلاطونية . أو عقول الأفلاك التي أشار اليها الفارابي وابن سينا في صدور الاشياء عن المدبر الأول . أما سائر كلام الله من أمر ونهي وخبر واستخبار ، فهو في مكان ، لأن أمر التكليف غير أمر التكوين . فكلمة الخلق ليست بمخلوقة ، أما الكلام المشتمل على الأوامر والنواهي والوحي فهو مخلوق ، لانه عرض من الأعراض . وهذا يدل على أن أمر التكليف مقصور على العالم الفاني . لايخضع الانسان لاحكامه إلا في هذه الحياة . وهو يقتضي القول باختيار الانسان ، وحريته ، وبقدرته في هذا العالم على فعل مايختاره من الخير والشر . أما العالم الثاني ، فيفقد الانسان حريته واختياره ، ويرجع كل شيء فيه الى ارادة الله . لذلك قال الشهرستاني : ان أبا الهذيل قدري

الدنيا جبري الآخرة . وفي الجنة والنار تكون حركات الانسان ضرورية لا قدرة له عليها . فهي مقيدة وليس لأحد قدرة على اكتساب فعل ، ولا على اكتساب قول . والله خالق فيها أقوال العباد وحركاتهم . فالدنيا دار عمل وأمر ونهي ومحنة واختبار . والآخرة دار جزاء واضطرار . ولو كان أهل الجنة يجوز منهم اختيار الأفعال ووقوعها ، لكانوا مأمورين منهيين ، ولو وقعت منهم الطاعة والمعصية ، ولكانت الجنة دار محنة وأمر ونهي ، لا دار ثواب ، وكان سبيلها سبيل الدنيا ، ولوقع ثواب أهلها في دار سواها ، ولتسلسل الامر الى مالانهاية له .

ويرى أبو الهذيل أن حركات أهل الجنة والنار لا تبقى . بل تنتهي بانتهاء العالم ، وتنقلب الى سكون دائم . لأن ماله ابتداء لابد أن يكون له انتهاء . وفي هذا السكون الدائم تجتمع اللذات كلها لأهل الجنة ، ويجتمع العذاب كله لأهل النار . وهذا قريب من مذهب جهم بن صفوان إذ حكم بفناء الجنة والنار . قال الأشعري في مقالات الاسلاميين : « أجمع أهل الاسلام جميعاً الا الجهم ان نعيم أهل الجنة دائم لا انقطاع له ، وكذلك عذاب الكفار في النار . وقال جهم بن صفوان ان الجنة والنار تفنيان وتبيدان ، ويفنى من فيها ، حتى لايبقى الا الله وحده كما كان وحده لاشيء معه »(١) .

وقال البغدادي في كتاب « الفرق بين الفرق » : ومذهب أبي الهذيل في ذلك شر من مذهب جهم ، لان جهماً ، وان قال بفناء الجنة والنار ، فقد قال : ان الله قادر بعد فنائها أن يخلق غيرها . وأبو الهذيل زعم أن ربه لايقدر بعد انتهاء الحركات على تحريك ساكن ، أو احياء ميت ، أو إحداث شيء .

وظاهر أن رأي أبي الهذيل ، في سكون حركات أهل الجنة والنار ،

(١) الأشعري ، مقالات الاسلاميين ، ص ٤٧٥ .

لايستند الى أي أساس ديني ، بل يرجع إلى رأيه في تناهي الحركات . فالحركة عنده تنقسم في الجسم على جميع أجزائه . وما يجوز على الأجسام يجوز أيضاً على الجوهر الواحد والجزء الذي لا يتجزأ . ولكن ماهو الجسم . قال أبو الهذيل :

« الجسم هو ماله يمين وشمال وظهر وبطن وأعلى وأسفل . وأقل مايكون الجسم ستة أجزاء أحدها يمين والآخر شمال ، وأحدهما ظهر والآخر بطن ، وأحدهما أعلى والآخر أسفل ، وان الجزء الواحد الذي لا يتجزأ يماس ستة أمثاله ، وانه يتحرك ويسكن ، ويجامع غيره ، ويجوز عليه الكون والمماسة ، ولا يحتمل اللون والطعم والرائحة ، ولا شيئاً من الاعراض غير ماذكرنا ، حتى تجتمع هذه الستة الأجزاء ، فاذا اجتمعت فهي الجسم ، وحينئذ يحتمل ما وصفنا »(١) .

فالجسم اذن منقسم وهو يحمل الاعراض كاللون والطعم والرائحة والحركة وليس كل جوهر جسماً ، بل الجوهر الواحد الذي لاينقسم محال أن يكون جسماً ، لأن الجسم هو الطويل العريض العميق . وليس الجوهر الواحد كذلك(٢) .

واختلف الناس في الجسم هل يجوز أن يتفرق أو يبطل مافيه من الاجتماع حتى يصير جزءاً لايتجزأ أم لايجوز ذلك . . . فقال أبو الهذيل : ان الجسم يجوز أن يفرقه الله سبحانه ، ويبطل مافيه من الاجتماع حتى يصير جزءاً لا يتجزأ ، وان الجزء الذى لايتجزأ لاطول له ولاعرض له ولا عمق له ، ولا اجتماع فيه ولا افتراق ، وانه قد يجوز أن يجامع غيره وأن يفارق غيره ، وان الخردلة يجوز أن تتجزأ نصفين ثم أربعة ثم ثمانية الى أن يصير كل جزء فيها لايتجزأ »(٣) .

(١) الأشعري ، مقالات الاسلاميين ، ص ٣٠٢ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٠٧ .
(٣) المصدر نفسه ، ص ٣١٥ .

فالله يستطيع اذن أن يبطل مافي الجسم من الاجتماع حتى يصير جزءاً لا يتجزأ ، ويستطيع أن يفرد الجزء الذي لا يتجزأ فتراه العيون ويخلق فينا رؤية له ، وادراكاً له .

والاعراض هي الحركات والسكون والقيام والقعود والاجتماع والافتراق والطول والعرض والألوان والطعوم والأراييح والأصوات والكلام والسكوت والحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة واللين والخشونة . فبعضها يجوز على الجسم والجزء الذي لايتجزأ معاً ، وبعضها لا يجوز إلا على الجسم ، فالحركة مثلاً تجوز على الجسم والجزء الذي لايتجزأ ، أما اللون والطعم والرائحة فلا تجوز إلا على الجسم . قال أبو الهذيل :

والأعراض قسمان ، منها مايبقى ومنها مالايبقى . والحركات كلها لاتبقى والسكون منه مايبقى ومنه مالا يبقى . وسكون أهل الجنة سكون باق ، وكذلك أكوانهم ، وحركاتهم منقطعة منقضية لها آخر »(١) .

وقال أيضاً : إن الألوان والطعوم والأراييح والحياة والقدرة تبقى كلها ، وكذلك اللذات والآلام . فآلام أهل النار باقية فيهم ، ولذات أهل الجنة باقية فيهم .

فالحركات اذن في نظر أبي الهذيل تجوز على الجسم والجزء الذي لايتجزأ وهي مع ذلك لاتبقى ، أما الألوان والطعوم والأراييح فلا تجوز إلا على الجسم ، وهي مع ذلك تبقى بعد انتهاء العالم . فهناك اذن أعراض موجودة لا في جسم ، ويجوز أيضاً أن تعاد . أما الحركات والسكون وما يتولد عنها كالتأليف والتفريق والأصوات وسائر مايعرف الناس كيفيته فلا يجوز أن يعاد .

(١) الاشعري : مقالات الاسلاميين ، ص ٣٥٩ . قال أبو الهذيل : « يجوز أن يتحرك الجسم لا عن شيء ولا الى شيء » . المصدر نفسه ٣٢٣ . وقال أيضاً : « الأجسام قد تتحرك في الحقيقة ، وتسكن في الحقيقة ، والحركة والسكون هما غير الكون ، والجسم في حال خلق الله سبحانه له لا ساكن ولا متحرك » . المصدر نفسه ٣٢٥ .

فالسبب اذن في قول أبي الهذيل بانتهاء حركات أهل الجنة والنار يرجع إذن إلى رأيه في حقيقة الأجسام والحركات وبقاء الاعراض وانتهائها . قال اني لا أقول بحركات لا تتناهى آخراً ، كما لا أقول بحركات لاتتناهى أولاً ، ونعني أن ما لزمه في الحركة يلزمه أيضاً في السكون . أضف إلى ذلك أن قوله بانقسام الاعراض إلى قسمين أحدهما يبقى والآخر لايبقى لا يستند إلى أي أساس معقول .

فأبو الهذيل قد قال إذن ببقاء الأعراض التي لاتجوز إلا على الجسم ، وبعدم بقاء الحركات رغم جوازها على الجسم وعلى الجزء الذي لايتجزأ معاً . ولو قال بفناء الدنيا والآخرة ، كما قال الجهم ، لما وقع في هذه الشبهة ، ولاستغنى عن هذا السكون الدائم الذي قلب أهل الجنة والنار إلى أصنام جامدة في مدينة مسحورة .

ومع ذلك فان لرأي أبي الهذيل في انتهاء حركات أهل الجنة والنار خطورة عظيمة ، لانه كان كما قال الشهرستاني قدري الدنيا جبري الآخرة . فالانسان في نظره قادر على خلق أفعاله في هذه الدنيا لأنه حر . أما في الآخرة فانه يصير مقيداً بالحالة التي انتهى اليها . والمشهور عن الفلاسفة الاقدمين أن النفس تشارك الجسد في أفعاله وانفعالاته مادامت مقيدة به ، وان حريتها مقيدة في هذا العالم بما يصل اليها بطريق الجسد من الاحساسات والافكار والعواطف ، أما إذا فارقت الجسم فانها تعود الى العالم الارفع ، وتمزق سلاسل المادة وقيود الزمان والمكان وتصير حرة طليقة . أما أبو الهذيل فقد ذهب في ذلك مذهباً مخالفاً لآراء المتقدمين ، وزعم أن النفس حرة في الدنيا مقيدة في الآخرة . وفي هذا الرأي فكرة عميقة تدل على قوة ابداعه ، وشدة حدسه . إلا أنها تحتاج رغم ذلك إلى مقدمات برهانية لم نعثر عليها فيما وصل الينا من أفكاره .

ويرى أبو الهذيل أن في الانسان علماً فطرياً يؤدي بالضرورة الى معرفة الله ، فمن واجبه أن يعرف الحق ، وأن يميز الخير من الشر بعقله الطبيعي

من غير خاطر ولا وحي . وان قصر في هذه المعرفة استوجب العقوبة . وعليه أيضاً أن يفهم حسن الحسن وقبح القبيح ، وأن يقدم على الحسن كالصدق والعدل ، وأن يعرض عن القبيح كالكذب والجور . والله يثيب كل محسن على قدر طاعته وصدقه وعدله . ويعاقب كل مسيء على قدر معصيته وكذبه وجوره . فهناك اذن طاعات من الخلق لا يراد الله بها ، وليس على وجه الارض دهري زعم أنه لا رب ولا خالق ، ولا ثواب ولا عقاب ، إلا وهو مطيع بضرب من الطاعات . فهو عاص بدهريته ، ولكنه مطيع بما يقدم عليه من الخير ، كما أن المؤمن مطيع بايمانه ، عاص بما قد يقدم عليه من الشر .

ومسؤولية الانسان تتوقف على معرفة اللحظة التي يوجد فيها الفعل . ولا تكون المسؤولية تامة إلا إذا كان الفعل تام الحدوث . لذلك فرق أبو الهذيل بين أفعال القلوب وأفعال الجوارح ، أي بين الأفعال النفسية والافعال الطبيعية . فقال إن حال (يفعل) هي غير حال (فعل) . والمسؤولية لا توجد في أفعال القلوب إلا إذا وجدت الاستطاعة مع الفعل . أما في أفعال الجوارح فقد تتقدم الاستطاعة على الفعل ، فاذا لم يتم الفعل إلا بعد موت الفاعل أو عجزه كان الفعل منسوباً إليه لا إلى غيره ، ويمكن أن يقال مجازاً أن الموتى يقتلون الاحياء . فالارادة لا توجد اذن تامة إلا اذا كانت الجوارح قادرة على تنفيذها ، ولا يكون العمل اختيارياً إلا إذا قام الانسان به من غير قسر . قال أبو الهذيل :

« الاستطاعة يحتاج اليها قبل الفعل . فاذا وجد الفعل لم يكن بالانسان اليها حاجة بوجه من الوجوه ، وقد يجوز وقوع العجز في الوقت الثاني فيكون مجامعاً للفعل ، ويكون عجزاً عن فعل ، لأن العجز لا يكون عجزاً عن موجود . فيكون الفعل واقعاً بقدرة معدومة » (١).

(١) الأشعري ، مقالات الاسلاميين ص ٣٣٢ .

وهذا يدل على أن أبا الهذيل قد جوز الفعل مع الموت بالاستطاعة المتقدمة ، كما جوز أقل قليل الكلام مع الخرس ، ولم يجوز وجود العلم مع الموت ، ولا وجود الارادة مع الموت . وقد حكي عنه أنه كان ينكر أن توجد الارادة بقدرة معدومة حتى يكون العجز مجامعاً لها .(١) والانسان انما يفعل في غيره الافعال بالاسباب التي يحدثها في نفسه . فلو رمى انسان انساناً بسهم ثم مات الرامي قبل وصول السهم إلى المرمي ، ثم وصل السهم إلى المرمي فآلمه وقتله ، لحدث القتل والالم بعد موت الرامي بنفس السبب الذي أحدثه الرامي وهو حي .

وقد فرق أبو الهذيل بين الامور التي يقدر الله عباده عليها ، وبين الامور التي لا يقدرهم على فعلها . فالحركات والسكون والاصوات والآلام وسائر ما نعرف كيفيته هي من الأمور التي يقدر الله عباده عليها . أما الأعراض التي لا نعرف كيفيتها كالألوان والطعوم والأرايح والحياة والموت والعجز والقدرة ، فليس يجوز أن يوصف الباري بالقدرة على أن يقدر عباده عليها . والله لا يوصف بالقدرة على شيء تقدر عليه عباده ، لانه محال أن يكون هناك مقدور واحد لقادرين . فأفعال الانسان لا تشبه أفعال الباري بوجه من الوجوه . والله يضطر عباده في الآخرة الى صدق يكونون به صادقين وكلام يكونون به متكلمين ، ولكنه لا يضطرهم الى كفر يكونون به كافرين وجور يكونون به جائرين . وهو قادر على الظلم ، إلا أنه لا يفعله لحكمته ورحمته . ومحال أن يفعل شيئاً من ذلك . إن قدرته مقيدة بعدله ورحمته وحكمته .

٧ — النفيجة

هذه لمحة سريعة من آراء أبي الهذيل في التوحيد ، وحركات أهل الجنة والنار ، والأجسام ، والجزء الذي لا يتجزأ ، والجواهر والاعراض ؛

(١) الأشعري ، مقالات الاسلاميين ص ٣١٣ .

والعلم ، والمسؤولية ، والاستطاعة ، والعدل ، ناظر فيها كثيرين من أقرانه كبشر بن المعتمر والأصم ، وهشام بن الحكم ، والنظام كما ناظر المجوس والثنوية وأصحاب النجوم والدهرية .

ولا حاجة إلى القول أن أبا الهذيل قد ابتعد بآرائه هذه عن أجماع المسلمين ، فتصدى للرد عليه كثيرون من أهل الحديث وعلماء الكلام ، الذين لم يروا رأيه ولا قالوا بمقالته فوضع (المردار) كتاباً في الرد عليه سماه « فضائح أبي الهذيل » ، وألف الجبائي كتاباً في الرد على أبي الهذيل في الخلق ، وصنف جعفر بن حرب كتاباً سماه « توبيخ أبي الهذيل » كفره فيه . وذكر أن قوله يجر إلى الدهرية . وقد كان لهذه الردود أثر عظيم في شهرة أبي الهذيل حتى قال المأمون : أطل أبو الهذيل على الكلام كاطلال الغمام على الأنام ، وقال الفضل بن العميد ثلاثة علوم الناس كلهم عيال فيها على ثلاثة . أما الفقه فعلى أبي حنيفة ، وأما الكلام فعلى أبي الهذيل ، وأما البلاغة والفصاحة واللسن والعارضة فعلى أبي عثمان الجاحظ . وكان أبو علي الجبائي يقول ليس بيني وبين أبي الهذيل خلاف إلا في أربعين مسألة . وما كان في الدنيا بعد الصحابة أعظم عنده من أبي الهذيل .

ويظهر أن أبا الهذيل كان في مناظراته أشبه برؤساء الاحزاب والخطباء والحامين منه بالفلاسفة الهادئين ، الذين يسيرون على منهج علمي واضح دقيق . وطريقة هذا شأنها تدخل على أسلوب العلم شيئاً من الضعف والتردد والعدول عن سواء السبيل . وكل فلسفة تقوم على أساس الجدل والمناظرة ، تكون مسائلها مقيدة بآراء المخالفين . ومن نازل عدواً قوياً اضطر إلى التقيد بشروط قتاله ، وتقلب أحواله ، واتباع حركاته وسكناته ، وقيامه وقعوده . وقد تؤثر فيه روح العدو وحيلته ، فتبدل خطته وغايته . ومعركة الأفكار لا تختلف من هذه الناحية عن معارك الرجال . بل كثيراً ما يكون تأثير العدو في تكوين الافكار أقوى من تأثير الحليف . وفرق بين أن يبني الانسان بيته بنفسه وفقاً لخطط معقول ، وبين أن ينشئه وفقاً لما تقتضيه

الحاجة العملية المباشرة . وفرق بين أن يكون الفكر مستقلاً في وضع المسائل وتأليفها ، وبين أن تكون مسائله تابعة للعناصر المقتبسة من آراء المخالفين . ففي أعمال المدافعين أمور كثيرة لا بقاء لها . وينبغي أن تزول بزوال أسبابها ، وأن تهجر ويستبدل بها غيرها ، وأن يؤتى بما هو أحسن منها وأصوب . وربما كان أبو الهذيل غير بريء من ذلك ، حتى لقد أدرك هو نفسه أن آراءه قد جرته إلى الخروج على الاجماع . وان كثيرين من الملحدين قد تعلقوا عليه بها . فتاب من الكلام فيها قبل موته . ولعله لم يتب من الخوض فيها إلا بعد أن أدرك خلافة المتوكل ، وكف بصره ، وخرف في آخر عمره ، وقصر عن مناضلة المناظرين . ومهما يكن من أمر فان أبا الهذيل قد مهد السبيل بجدله لظهور الفلسفة في الاسلام ، فخدم الاسلام ، عن طريق الجدل والمناظرة أكثر مما خدمه القواد عن طريق الفتح ، لقد أسلم على يده ثلاثة آلاف رجل . وكانت فلسفته أقرب إلى روح الاسلام من آراء الفلاسفة الاسلاميين ، الذين أخذوا آراءهم عن أفلاطون وأرسطو . وكان في دفاعه عن الاسلام يعمل على نشر الدعوة العربية ويؤيد سياسة الخلفاء العباسيين في التخلص من سيطرة الفرس . وكانت نيته في عمله صادقة ، والنية هي ميزان العمل . وانما الأعمال بالنيات .

٨ — المصادر

آ — حياة أبي الهذيل

١ — الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ج ٣ ، ص ٣٦١ - ٣٦٧ - ٣٧٠ .
٢ — ابن خلكان ؛ وفيات الأعيان ، ج ١ ص ٤٨٠ .
٣ — ياقوت ، الارشاد ، ج ٣ ، ٧٤ ، ١ .
٤ — الجاحظ ، البيان والتبيين ج ١ ص ٨٧ في الهامش عن النظام — ج ١ ص ١٠٤ في الهامش في ترجمة بشر بن المعتمر — ج ١ ، ص ١٥٠ في ترجمة صالح بن عبد القدوس .

٥ ـ الجاحظ ـ كتاب البخلاء، ج ١ ـ ص ١١٨ ، طبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة .
٦ ـ السقلاني ، لسان الميزان ، ج ٥ ، ص ٤١٣ .
٧ ـ المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٨ ، ص ٣٠٠ـ٣٠٢ .
٨ ـ ابن قتيبة ، عيون الاخبار : ج ٢ ، ص ٢٠٤ ، طبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٩٢٨ .
٩ ـ ابن قتيبة ، تأويل مختلف الحديث ، ص ٥٣
١٠ ـ كتاب المنية والامل في شرح كتاب الملل والنحل لاحمد بن يحي المرتضى ، ص ٦ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٩ ، ٣٣ ، ٣٩ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٨ ، ٧٥ . طبعة دائرة المعارف النظامية بحيدر أباد الدكن سنة ١٣١٩ هـ .
١١ ـ محمد بن شاكر الكتبي ، عيون التواريخ ، جزء ٦ ، ص ١٢٠ مخطوط بالمكتبة الظاهرية بدمشق رقم ٤٧ .
١٢ ـ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٢ ، ص ٢٤٨ ، طبعة دار الكتب المصرية
١٣ ـ أبوحيان التوحيدي، الامتاع والمؤانسة ، جزء ٢ ، ص ٩٠ ،مصر ١٩٤٢ .
١٤ ـ صلاح الدين خليل بن ايبك الصفدي ، كتاب نكت الهميان في نكت العميان ، ص ٢٧٧ـ٢٧٩ مصر ، المطبعة الجمالية ١٩١١ .
١٥ ـ أمالي السيد المرتضى ، الجزء الأول ، ص ١٠٠ ، ١٢٤ .
١٦ ـ ابن النديم ، الفهرست ، ص ٥٥ ، ٢٥٥ ، الملحق ص ١ ، ٣ .
١٧ ـ الذهبي ، ميزان الاعتدال في نقد الرجال ، ٥٤٧ .
١٨ ـ الغرر والدرر ، ١٢٤ .
١٩ ـ روضات الجنان ، ١٥٨ .
٢٠ ـ تاريخ العيني لسنة ٢٢٦ .
٢١ ـ المنتظم لابن الجوزي ، ٩٨١ .

٢٢ ـ طبقات المعتزلة لقاضي القضاة ، وهو أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد ابن عبد الجبار الهمذاني الاسترابادي .
٢٣ ـ منهج المقال في تحقيق أحوال الرجال تأليف ميرزا محمد الاسترابادي مع تعليقات محمد باقر البهبهاني ، طبع بالحجر بطهران سنة ١٣٠٧ .
٢٤ ـ قاموس الاعلام لشمس الدين سامي ٤٦٠

ب ـ فلسفة أبي الهذيل

١ ـ الاشعري ، مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين . عني بتصحيحه هـ . ريتر ، استانبول ، مطبعة الدولة ١٩٢٩ .
٢ ـ البغدادي، الفرق بين الفرق ،ص ٤٨، ٧٤ ، ١٠٢، مطبعة المعارف ،مصر.
٣ ـ دائرة المعارف الاسلامية ، « أبو الهذيل العلاف » .
٤ ـ الخياط ، كتاب الانتصار ، ص ١٧ ، ٦٧ ، ١٤٢ ، ١٤٥ ، ١٧٢، ١٧٩ .
٥ ـ الجوزي ، تلبيس ابليس ، ص ٨٨ .
٦ ـ فخر الدين الرازي ، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ، ص ٤١ .
٧ ـ الشهرستاني ، الملل والنحل ١٨ ؛ ٣٤ .
٨ ـ صوان الحكمة ، لظهير الدين البيهقي ، ٩٦٦ .
٩ ـ دي بوئر ، تاريخ فلاسفة الاسلام .
١٠ ـ الايجي ، المواقف .
١١ ـ Carra de Vaux - Avicenne , p. 21 24 .
١٢ ـ Les penseurs de l'Islan .

معبد دمشق *

لايعرف في العالم معبد طال عمره ودام نفعه للناس وتوارثته أديان مختلفة وأقيمت فيه شعائر دينية متباينة ، مثل ما اشتهر به معبد دمشق الأعظم وكنيستها بالأمس ومسجدها اليوم . وهو من أكبر مفاخر العاصمة الاموية وزينة دمشق إلى أبد الدهر . قد توالت فيه العبادات الوثنية والسماوية بتصاريف اللغات ، واختلاف الالسن ، منذ أذن الله أن يرفع ويذكر فيه اسمه حتى يومنا هذا . وما زال يشع منه بأساليب متنوعة ، نور الفضيلة والدعوة اليها . إن كان اليوم يوعظ فيه من أعلى منابره ، فقد كانوا بالأمس يبشرون في هيكله للغاية المثلى والارشاد لما فيه خير العباد وسعادتهم الأبدية .

فما برح هذا المعبد ، منذ فجر التاريخ أي من نحو (٣٠٠٠) سنة متوالية ، يؤدي رسالته على أتم وجه ، يؤمه المؤمنون ملبين دعوة مناديهم ، ويفزعون إلى أربابهم يستنصرونها ويستسقونها حسب وحي عقائدهم ومزاعمهم ، ويؤدون فيه فرائضهم الدينية بنفوس خاشعة مطمئنة ابتغاء رضوان معبودهم والتكفير عن زلاتهم .

فمها بلغ اليوم اعجابنا بفخامة بناء الجامع الأموي وعظمة مظاهره ، فلن يبلغ الشعور الذي يبعثه في قرار نفوسنا ذكريات ماضيه المجيد الذي يزكي خيالنا ويثير الدهشة والروعة فينا ، كلما استعرضنا حوادثه مدى تلك الحقب الطوال ، وهو يتمتع أبداً بحرمة خاصة ، كفته عوادي الزمان

(١) محاضرة القاها الأمير جعفر الحسني في ردعة محاضرات المجمع العلمي العربي في ٤ شباط سنة ١٩٤٤ .

واحداث العصور ، وسيبقى ذكره ويحيى اسمه مادام الانسان يدين بعرفان الجميل ، ويكرم نفسه باحترام ماضيه .

إن جاز لنا أن نعتبر المعابد والكنائس والجوامع أولى المعاهد الثقافية التي ابتدعها الانسان . وانبثق منها نور ثمرات تفكيره وتهذيبه ، فيصح لنا أن نعتبر جامع دمشق الأموي — وارث هذا الماضي الجليل — من أقدم هذه المعاهد العامرة ، وأطول عمراً من جميع ما احتفظ به من نوعه ، دون أن يتحول عن الغاية التي انشيء من أجلها . فهو يضم بين جدرانه أسمى ذكريات جهود الحركة العقلية خلال ثلاثة آلاف سنة متوالية انبعث منها ما انتهى الينا من تطور الفكر البشري الذي ينعم العالم المتمدن بثمراته ، وما زال يقتفي خطواته .

ولذلك قد انتقيت دراسة تاريخ هذا المعبد وتطوراته موضوعاً لهذه المحاضرة لعلي أوفق في بحثي بقدر ماتجود به علينا الوثائق التاريخية وماتوحيه الينا الاكتشافات الأثرية الحديثة .

إن كان يتعذر علينا معرفة أول من أنشأ مدينة دمشق فانه يصعب علينا تحديد عهد بناء معبدها أو ادراك رسمه الأول . ان موقعه في قلب المدينة القديمة ، ونمو البناء من حوله ، وتوجيه الشوارع والمنافذ نحوه ، يحملنا كل ذلك أن نجزم — دون أن نرمي بالرجم بالغيب — أنه يحاكي مدينة دمشق بالقدم وبعد العهد ، فهو من دمشق كالنواة من الثمرة لايعرف أيهما علة وجود الآخر ، ولا أيهما الأسبق بالقدم . فها والحالة هذه صنوان وما يصح قوله بأحدهما ينطبق حتماً على الآخر .

قد اتفقت الروايات على قدم مدينة دمشق ، وأجمع المؤرخون على ذلك وإن غاب عنهم مع تطاول العمر ذكر أول من بناها ، وان تضاربت بذلك الروايات . فمنهم من زعم أن آدم عليه السلام كان ينزل بجوارها ، وان على جبلها قاسيون قتل قابيل أخاه هابيل ، وروى غيرهم أن أول حائط وضع في الأرض بعد الطوفان حائط دمشق وحران ، وان فيها دار شداد

ابن عاد ، وانها هي الربوة ذات قرار ومعين ، وارم ذات العماد . وجاء في التوراة أنه زارها النبي ابراهيم الخليل ، وافتتحها النبي داود عليها السلام وجاء ذكرها في أقدم الوثائق الآثرية البابلية منها والمصرية . يحملنا كل ذلك أن نسلم مع القائلين بتقادم عهد هذه المدينة مها بالغوا وقالوا شططا ولا نستغرب ذلك ولا نرتاب بصحته رغم فقدان الأدلة العلمية المادية المؤيدة لما ذهبوا اليه . واذا قارنا موقع دمشق وما جاورها بغيرها من منازل الانسان قبل التاريخ في مختلف البلاد الشامية وغيرها ، نجدها من أفضل المنازل التي يمكن أن يختارها الانسان الاول لسكناه . فقد وهبتها الطبيعة أحسن الصفات التي تطلبها يسر العيش وسهولة نواله . فيها الكهوف يأوي اليها ، وفيها الأنهار يرتشف ماءها ويتصيد أسماكها . وفي ربوعها الحقول الخصبة ينتجع خيراتها ، ويطارد الوحوش في سهولها الواسعة طلباً للحومها ، وتمتاز أيضاً هذه البقعة باعتدال اقليمها وطيب هوائها . وحيثما توفرت هذه الاسباب تحققنا معها وجود الانسان . وهذه العناصر هي من العوامل الرئيسية في تطور حياة الانسان في مختلف الأزمان والأمصار . وسنجد مصداق قولنا وشواهده حينما يصار الى التنقيب العملي والبحث العلمي بجمع الادلة المادية عن نشاط انسان ماقبل التاريخ في منطقة دمشق خلال عشرات ألوف السنين . وقد عثر على كثير من منازل ذاك الانسان في بلاد الشام أي سورية ولبنان وفلسطين والشرق العربي . وقد عثر في النابغة شمالي فلسطين على جمجمة انسان قدّر الخبراء عمرها بثلاثةمئة ألف سنة وهو على ما أعلم أقدم ماعرف عن أثر وجود الانسان في هذا العالم . كما أننا عثرنا في المرج الأخضر أثناء حفر أساس بناء متحف دمشق على عظام بشرية قدر لها العارفون من (١٠٠٠٠) الى (١٥٠٠٠) سنة .

إن كان يصعب علينا ايجاد تاريخ شامل لمعبد دمشق ، فكذلك يتعذر علينا اليوم معرفة اسم أول معبود كرم في هذا المعبد في ماضيه المجهول . وأقدم من اتصل بنا خبره من الأرباب التي كانت تعبد فيه ويدين له

سكان دمشق في جاهليتهم هو الذي عرف في العهد الروماني باسم (جوبتر) الدمشقي أو المشتري الدمشقي واليه نسب الرومان هذا المعبد . ونعلم من بعض الوثائق أنه كان يعبد في دمشق منذ المئة العاشرة قبل المسيح الصنم (رمّون) أو (هَدَد) وقد اهتدينا إلى ذلك من تراكيب أسماء من اتصل بنا خبرهم من ملوك إرام وكانت دمشق قاعدة ملكهم ، منهم (طبرمون) أي رمون الحنون ، وابنه (بن هدد) أي ابن هدد ، و (هدد عنزر) أي عون هدد ، وهذا الاخير هو ملك صوبة ومعاصر للنبي داود عليه السلام . وهذا المعبود هو (كجوبتر) أو المشتري عند الرومان ، رب الأرباب ومثير العواصف ومنزل الغيث ومنبت الزرع وعلة خيرات هذا الوجود . وكانت أيضاً تعبد فيه رفيقته (عترعتيس) أو الزُهرة . وقد تعرف الرومان الى (هدد) ورفيقته منذ القرن الثاني قبل الميلاد ، حملها إلى روما وممتلكاتها الارقاء والاسرى الشاميون ، وبقي هؤلاء الموالي امناء لارباب بلادهم لايرضون عنها بديلاً ، يؤدون لها شعائرهم الدينية بحرية تامة دون أن تستهويهم ديانة ساداتهم الرومان ، وقد تأثر الرومان مع الزمن بما يشاهدونه من هؤلاء الارقاء ومن المهاجرين والتجار الوافدين من بلاد الشام فاقتبسوا الكثير من طقوسهم الدينية . وقد شيد في القرن الثاني للميلاد بعض أثرياء الرومان في مرفاء (بوزولس) (Pouzzoles) في ايطاليا معبداً لبعل دمشق وهو هدد سيد دمشق ، وكرموا غيره من الأرباب العربية مثل (ذوي الشرى) و (اللات) وقدموا لها العتائر أي القرابين ورفعوا لها الأنصاب . وقد سرى ذلك الى بعض قياصرة روما ، وشغف نرون الطاغية بالربة (عترعتيس) وهو حادث مشهور ، حتى فضلها على كثير من أرباب ملته . وقد اعجب الرومان بديانات المشرق وتأثروا بتعاليمها وأخذوا بمبادئها وبرزت واضحة في أكثر طقوسهم الدينية وتغلب عليها الطابع الشرقي . وما تقبل الرومان الديانة المسيحية إلا اثر من هذا الاعجاب ومرحلة من تفوق المشرق على المغرب وفرضه نظامه الاجتماعي على القارة الغربية ، وهنا نرى السيد يتأثر

بعولاء وهذا من شذوذ سنن العلائق بين الحاكم والمحكوم والغالب والمغلوب .

وقد انصلت بعض أخبار معبد دمشق بقدماء مؤرخي الاسلام . فقد ذكر المسعودي أنه : « كان مسجد دمشق قبل ظهور النصرانية هيكلاً عظيماً ، فيه التماثيل والاصنام ، رأس مناره تماثيل منصوبة . وقد كان بني على المشتري وعلى طالع سعد . » وروى لنا شمس الدين محمد بن أبي طالب الدمشقي المعروف بشيخ الربوة : « ان جامع دمشق كان أول ابتدائه هيكلاً للمشتري من أبناء جيرون بن سعد بن عاد ، ولم يزل كذلك حتى جاء الله بموسى بن عمران ، فصار بيعة لليهود إلى أن ظهر دين النصرانية فاتخذوه كنيسة حتى جاء الله بالاسلام فاتخذ مسجداً ، فله أربعة آلاف سنة وهو معبد » . وذكر لنا أيضاً الاصطخري شيئاً بهذا المعنى .

وروى لنا الكتاب المقدس قصة نعمان رئيس جيش ملك إرام – أي دولة دمشق – حينما سافر الى السامرة للاستشفاء من البرص ، وحمل معه عند عودته الى دمشق التراب من الأرض المقدسة وبنى بها مذبحاً لاله اسرائيل في هيكل (رمون) بدمشق وسجد له ، وذلك في المئة العاشرة قبل الميلاد ، وهي على مانعلم الفترة القصيرة الوحيدة التي تسربت بها الديانة اليهودية الى معبد دمشق . وذكر لنا أيضاً خبر (احاز) ملك أورشليم لما جاء دمشق في القرن الثامن قبل الميلاد للقاء (تغلتفلاسر) ملك اشور فاعجب بمذبح المعبد أشد الاعجاب وأمر أن يبنى في هيكل أورشليم مذبحاً على غراره . ويدلنا هذا على ما كان عليه وقتئذ معبد دمشق من الابهة والعظمة حتى استحب (احاز) مذبحه وعمل مثله لهيكل اورشليم وهو هيكل سليمان العظيم . ومازال معبد دمشق يتدرج في التوسع والعمران في عهد الفرس والسلوقيين والرومان الى أن بلغ أرفع ذروته في القرن الثاني الميلاد ثم أفل نجمه بعض الشيء حينما حول النصارى بعضه الى كنيسة ثم عاد وازدهر في العهد الاسلامي الى أن بقي على الحالة التي نعهدها به اليوم .

وتدلنا بعض الوثائق الاثرية القديمة على ما كانت عليه هيئة هذين المعبودين

(أي هدد وعترغتيس) في العهد السلوقي في القرن الأول قبل الميلاد . فقد نقش تمثال هدد على أحد دراهم انطيوخس الثاني عشر بصورة انسان كث اللحية واقف على عرش بين ثورين ويرتدي ثوباً طويلاً مشدوداً على وسطه بحزام ، ولبس على رأسه طرطوراً بشكل قلنسوة دقيقة القمة ، ويحمل بيساره سنبلة اشارة لما يجود به على البشر من خيراته ويكتفي في بعض الحالات بصورة الثور أو بعضه رمزاً لهدد . ولعل فكرة عجل الذهب الذي اصطنعه بنو اسرائيل لعبادتهم لما استبطأوا رجوع نبي الله موسى اليهم مستمدة من هذه العقيدة . وكان الثور حيواناً جليل القدر عند الاقدمين ويزعمون أن الآلهة كانت تتقمص بصورته كلما أرادت أن تظهر على الأرض وهي عقيدة سائدة في مصر وبلاد الشام . ويرمز أيضاً الى هدد بقبضة انسان تضم الصاعقة والسنبلة رمز الغيث والنبات . ونقش تمثال رفيقته (عترغتيس) على درهم دمتريوس الثالث السلوقي بشكل امرأة واقفة مرتدية ثوباً ضيقاً واسبل على رأسها خمار يصل الى قدميها . وصورها الرومان بشكل سيدة على رأسها طرطوراً فوقه هلال ، وهي جالسة على مقعد بين أسدين . ويرمز اليها أيضاً بكف انسان مبسوطة اشارة للعناية الربانية التي تشمل بها عبّادها . ويرجح أنها كانت تمثل في الأعصر القديمة بشكل نصب لا نقش عليه .

وقد عرفت دمشق بانها مدينة هدد أو المشتري كما ذكره ابن عساكر في تاريخه بقوله : « بلغني عن بعضهم أن دمشق بنيت على الكواكب السبعة وان المشتري بيته دمشق . » والكواكب السبعة التي عناها هي : زحل ، والشمس ، والزهرة ، والمشتري ، والمريخ ، وعطارد ، والقمر ، وكلها أسماء آلهة وثنية معروفة عند الرومان وغيرهم ، فالاول منها إله الزمن ، والثاني إله الحرب والثالثة إلهة الجمال ، والرابع رب الأرباب ، والخامس إله الحرب ، والسادس إله البلاغة والتجارة واللصوصية ، والسابع إله الزرع ، والمرجح أنه كان في دمشق لكل من هؤلاء الأرباب معابد وهياكل مستقلة

تكرم فيها ولكنها درست جيمها وضاعت معالمها ، ولم يتصل بنا خبرها .
وقد عثر في حفريات جرت سنة ١٩٢١ في جهة الباب الشرقي من المدينة . بجوار بيت حنانيا على بقايا معبد وثني ، بنيت على أنقاضه كنيسة المصلبة ، احدى الكنائس الخمس عشرة التي صالح عليها المسلمون النصارى يوم فتح دمشق ، وهدم صلاح الدين الايوبي هذه الكنيسة وبناها مسجداً .

إن الهيكل الوحيد التي كتب لاثره البقاء هو معبد المشتري أو (هدد) رب الأرباب وكان أعظم المعابد وأقدسها ، وأجلها بناء ، وأسماها منزلة ، يحجون اليه من أقصى بلاد الشام للتبرك به ، وقد عرفت دمشق في العهد الروماني بانها بيت المشتري . كما عرفت بعلبك بانها بيت (بعل) أو الشمس وكما عرفت منبج أنها بيت (هيرا) أو (عترغتيس) رفيقة هدد .

وقد اتصل بنا بعض أخبار هذا المعبد من مصادر عديدة وشواهد كثيرة ، أصدقها مانشاهده اليوم بأم أعيننا ، حينما ندخل الجامع الأموي أو نطوف حوله . يقع هذا المعبد في قلب النصف الغربي من مدينة دمشق القديمة على مرتفع أو رابية كانت تشرف على المدينة وتعلو عن سطح أرض المدينة القديمة نحو ستة الى عشرة أمتار . وقد زال اليوم هذا الفارق بارتفاع مستوى ما حول هذه الرابية ، وكان لزاماً على الداخل أن يصعد السلالم من جهاته الاربع . كما هو الحال اليوم في مدخل باب جيرون أو النوفرة عند المدخل الشرقي ، ويحيط بهذا المعبد سوران مستقلان ، يحيط أحدهما بالآخر ، فالاول هو السور الخارجي الكبير طوله (٣٨٠) متراً وعرضه (٣١٠) أمتار ، ويرتكز عليه من الداخل رواق مسقوف يظلل الحوانيت التي كانت تحته ، ويقي أبناء السبيل حرارة الصيف وأمطار الشتاء . وكان للسور مدخلان فخمان ، أحدهما من الشرق عند مصلبة القيمرية ، في المحلة المعروفة بالمنطة والثاني من الغرب عند مدخل المسكية ومازلنا حتى اليوم نشاهد بقايا هذين المدخلين العظيمين ، ونعجب بعمارتهما . وكان للمعبد أيضاً مدخل بسيط من الشمال ونظيره من الجنوب ، وأما مدخله

الرئيسي فهو المدخل الشرقي . وكان هذا السور يحيط بحمى المعبد الخارجي . حيث كانت ممتلكات المعبد وأوقافه ، ويتمتع هذا الحمى بحرمة مقدسة ، لايجرؤ على انتهاكها سلطان . فمن دخله كان آمناً على نفسه وأمواله . ولذلك كانت جل المتاجر والحوانيت ضمن هذا السور ، وبعبارة أوضح بين السورين فلا عجب والحالة هذه أن فضله التجار على سواه من متاجر المدينة حتى ضاق بهم على سعته ، وهذا ما حمل سدنة المعبد على بناء ملحق لهذا السوق يمتد على طول الجهة الغربية ونصف الجهة الشمالية الغربية ، ويبلغ مجموع حوانيت هذا السوق نحو ثلاثة أضعاف ماهو موجود اليوم في جميع سوق الحميدية . ويدلنا هذا على مكانة دمشق التجارية في ذاك العصر .

وكان السور الداخلي الصغير ، يحيط بالهيكل أو بيت الآلهة ، وحدوده هي جدران جامع بني أمية الحالية . طوله من الشرق إلى الغرب (١٥٦) متراً وعرضه من الشمال الى الجنوب (٩٧) متراً . ويشبه بناؤه بناء السور الخارجي ، وله برج مربع في كل من زواياه الأربع . حفظ منها في الجنوب برجان وهما بعض منارة عيسى والمنارة الغربية . وله من الداخل غرف على طول الجدارين الغربي والشرقي . ويرتكز على جدرانه من الداخل رواق معقود على عمد . وكانت أرضه مرصوفة بالفسيفساء كما يستدل من بقاياها التي اكتشفت حديثاً عند زاويته الشرقية الشمالية . ولهذا السور مدخل بثلاثة أبواب في منتصف كل من جهاته الأربع . الأوسط منها كبير ومن جانبيه بابان صغيران . وأهم أبوابه الباب الشرقي وهو المدخل الداخلي الرئيسي . ويحيط هذا السور بالهيكل أو بيت الآلهة وحرمه المقدس وقد دثر هذا الهيكل ولم يبق له أثر ، منذ حول المعبد الى كنيسة في عهد الامبراطور (تيوضوزس) في الربع الأخير من القرن الرابع ميلادي .

يعتقد أكثر الناس بما ذهب اليه مؤرخو الاسلام ويحسبون أن جدران الجامع الأموي هي نفس الهيكل الوثني ، وهذا زعم باطل ، تنفيه الشواهد ، وماتوصلت اليه الأبحاث الأثرية ، ولولاها لبقي هذا الزعم حقيقة نؤمن بها جميعنا .

وقد اهتدي بفضل الأبحاث الاثرية لتعيين مكان الهيكل المدروس . وأن نتمثل رسمه قبل هدمه على وجه التقريب بالمقارنة مع ماهو معروف من نوعه في مواضع متعددة من بلاد الشام حيث عثر على عشرات المعابد الوثنية السامية . وان كانت هذه المعابد متفاوتة الأهمية غير أنها متشابهة باصولها مختلفة بفروعها . والقاعدة الاساسية أن يكون لكل معبد حرم يحيط به ، وسور يحمي حرمه . وهذا مايجب أن ينطبق عليه حاله في هيكل دمشق ولبناء الهيكل في كل عصر تقاليد وقواعد أساسية يتقيدون بها ولا يتسامحون بالشذوذ عنها ، كما هو شأن المساجد والكنائس والبيع في جميع أدوار التاريخ .

إن هيكل تدمر الحالي . هو أقرب هذه الهياكل شبهاً بمعبد دمشق ، ويصلح أن نتخذه أساساً رغم مابينها من فوارق ، ونستنير به في بحثنا عن هيكل معبد دمشق ، وتصوير حالته . ويمكننا استناداً على ما نعرفه عن تدمر أن نعين مركز هيكل دمشق في وسط النصف الغربي من الحرم الداخلي . وهذا ماذهب اليه أكثر علماء الآثار . ولابد أن يكون قد بني كأمثاله من بيوت الآلهة المعروفة بهيئة بيت مستطيل ، يحفظ فيه مايعبد من الأوثان . وله باب فخم يفتح نحو الشرق ، قبالة المدخل الشرقي الرئيسي ويتفق هذا الوضع مع ماذكره لنا (لوسيانوس) المؤرخ عن معبد منبج الذي كان هو أيضاً مخصصاً للمعبودين (هدد) ورفيقته (عترغتيس) كما شاهده بنفسه في القرن الثاني الميلاد .

وقد عثر في السنة الماضية . أثناء نقض سور الجامع الأموي من ناحيته الشرقية الشمالية ، بغية ترميمه ، على بعض أحجار يرجح أنها من أنقاض بيت آلهة معبد دمشق المبحوث عنه ومعاصرة لبقية بنيان المعبد أي من القرن الثالث للميلاد . وتشهد بذلك عدة كتابات يونانية قديمة موجودة في أنحاء مختلفة من المعبد . وأما الزيادة في السور فقد بنيت على نفقة المعبد سنة ٣٤٠م كما تؤكد كتابة يونانية وجدت في السور ونقلت الى دار الآثار في دمشق

وقد أطلق عليها في هذه الكتابة اسم (جمًا) وهو حرف الجيم اليونانية تشبهاً برسمها ، وكلاهما زاوية قائمة .

إن القرنين الثاني والثالث للميلاد ، هما عصر البناء الذهبي في بلاد الشام شيد فيها أعظم الأبنية المعروفة ، كالتي نشاهدها في تدمر وبعلبك وبصرى وجرش وغيرها من المدن الاثرية الشامية التي اشتهر أمرها منذ القديم ، ونافست روما بابنيتها وصروحها ، وقد رجع الرومان الذين زاروا بلاد الشام وفي نفوسهم أجمل الذكريات عما شاهدوه من براعة السوري وابداعه في فن البناء . ولم تأنف خاصتهم من نقل هذا الفن الجديد الى بلادهم والتهافت على اقتباسه . وقد استعان الرومان في بناء صروحهم بمهندسين سوريين وكان (بولودور) الدمشقي رئيس مهندسي القيصر (ترجان) الذي اشتهر في سني حكمه بشغفه في البناء . وتجلى هذا التأثير واضحاً في حمامات القيصر (ديوقلثيانوس) وفي قصره المشيد في (سالونا) من مدن (دلماسيا) . ومن الخطأ أن نعتبر هندسة بناء معبد دمشق وتنظيمه من عمل الرومان بل هو في جملته عمل شامي محض بل دمشقي صرف . وكل من يمعن النظر في مخطط هذا المعبد وفروعه قبل اضافة الزيادة على سوره ، يؤمن بوحدة تنظيمه وتناسقه ، وارتباط أجزائه بعضها ببعض بصورة لا تتأتى إلا إذا كان من صنع فرد أو جماعات تعاونوا على تحقيقه في فترة قصيرة وزمن محدود حتى جاء محكم الوضع قويم الأركان . وبقي هذا المعبد على الحالة التي وصفناها ، إلى أن ظهرت المسيحية في بلاد الشام . فدرست الهيكل القديم وجعلت في حرمه كنيسة كتدرائية كبرى على اسم القديس يوحنا المعمدان . ومنحت الامتيازات التي تتمتع بها كبريات الكنائس التي كانت تجير من استجار بحماها مهما عظم جرمه وقوي سلطان خصمه ، كما نصت على ذلك كتابة يونانية عثر عليها من عشرات السنين في محلة القيمرية ولم يتصل بنا إلا نصها والأصل لم يزل في موضعه على عمق عدة أمتار . وقد تعددت آراء العلماء في تحديد المكان الذي احتله هذه الكنيسة من المعبد ،

منهم من جعلها داخل الهيكل أو بيت الآلهة . وهذا زعم باطل لايمكن الأخذ به . إذ لايمكن تحويله الى كنيسة والاستفادة منه لاغراض دينية مسيحية ، بسبب انحراف سمت الهيكل عما يجب أن يكون عليه سمت الكنيسة . ويرى بعضهم أنها أقيمت في النصف الجنوبي من الحرم أي في موضع مصلى الجامع الحالي . ومنهم من حصرها في الناحية الشرقية منه . وحصرها آخرون في الناحية الغربية ، لوفقوا بذلك بين اجتهادهم هنا وبين رواية ابن عساكر في أمر اقتسام الكنيسة بين المسلمين والنصارى بعد الفتح الاسلامي . وهنالك فريق لايسلم بما ذهب اليه هؤلاء ويعتبرون قولهم وهماً أوحاه اليهم روايات لم يتبين صحتها . وصفوة قولهم أن الكنيسة كانت في ناحية ما من هذا الحرم حيث بقيت الى أن فتح المسلمون دمشق واقتطعوا قسماً منها لعبادتهم على زعم ابن عساكر أو من نقل عنه دون سواهم . وقد أثارت هذه الرواية الجدل بين علماء المشرقيات . منهم من سلم بها على علاتها ، ومنهم من طعن بصحتها ، لأنها رواية متأخرة لا سند لها ، ولم يسبق أن ذكرها أحد من مؤرخي الكنيسة الشرقية وهم أولى الناس بذكرها . ولو كانت حادثة واقعية لما أغفلوا تدوينها ونقوها ، كما فعل أحد رحالة الفرنج اسمه (اركوف) الذي زار دمشق بعد مضي ثلاثين سنة من الفتح الاسلامي ، وقال انه وجد كنيسة القديس يوحنا لم تزل في أيدي المسيحيين دون منازع ولم يذكر حادث هذه القسمة المزعومة على حداثة عهدها منه ، ولذلك يعتبرون بقاء الكنيسة بجملتها لأصحابها أمراً لايحتاج لدلالة ، وأن أول يد مدت اليها هي في زمن خلافة الوليد الذي درسها ودرس معها جميع ماجدد في العهد المسيحي داخل الحرم دون أن يبقي أثراً لمعالمها ، كما يستدل على ذلك من كتابة نقلها الينا المسعودي كما رآها في حائط المسجد ونصها : « أمر ببناء هذا المسجد وهدم الكنيسة التي فيه عبد الله الوليد أمير المؤمنين ، في ذي الحجة سنة سبع وثمانين . » ولو كانت القسمة حقيقية لما أجاز الوليد أن ينسب لنفسه

بناء المسجد بل لذكر أنه وسعه فقط . واضافة الى هذا النص ولاعتبارات هندسية يمكننا أن نقول أن الوليد درس الكنيسة وخطط مسجداً مستقلاً مرتبط الأجزاء ، خلواً من أثر أي زيادة أو استعارة . وقد استوحى واضع تصميم هذا المسجد بالأبنية السوريه القديمة وطرازها المألوف اذ ذاك وصاغ منها طراز بناء جديد له طابعه الخاص وشخصيته المستقلة . وقد وفق الى حد بعيد في الجمع بين أسلوب البناء القديم وما تستلزمه شروط الحياة الاسلامية وتعاليمها الدينية حتى كاد يلتبس على المرء أصول هذا المزج . ويعتبره ابتكاراً لا مزج فيه ولا استعارة . وهكذا وضعت منذ ذاك التاريخ أسس الهندسة العربية التي نسج على منوالها في جميع العالم الاسلامي في الشرق والغرب . وأصبح الجامع الأموي في دمشق المثال الكامل الذي تمخضت عنه كل مانعرفه من روائع الفن الاسلامي .

وقد بقي الجامع الأموي الى يومنا هذا ، كما رسم في خلافة الوليد ، ولم يطرأ عليه خلال ثلاثة عشر قرناً غير تعديل طفيف في فروعه دون أن تمس أصوله رغم النكبات التي توالت عليه وذهبت ببعض محاسنه التي كانت من عجائب الدنيا . وهكذا سيبقى هذا المعبد الى ماشاء الله ، آية كل عصر ، وتحفة كل زمان ، تزهو به دمشق ويفاخر به أهلها حتى يصح به قول الجاحظ حينما كتب أنه : « لايجوز أن يكون أحد أشد اشتياقاً الى الجنة من أهل دمشق لما يرونه من حسن مسجدهم . » وقال أيضاً : « ومن عجائبه أنه لو عاش الانسان مئة سنة وكان يتأمله كل يوم لرأى فيه كل يوم مالم يره في سائر الأيام من المحاسن » .

ونرجو من العناية الالهية أن ترعاه بعنايتها ليبقى لدمشق من أسمى مفاخرها وللعالم أجمل عبرة وأحسن عظة والسلام عليكم .

الغزالي وزعماء الفلاسفة(٥)

١ — تمهيد عام

لتطور الأفكار في تاريخ البشرية قانون عجيب يمكننا أن نسميه قانون التضاد أو قانون التناوب في التهالك . وهو يدل على أن كل مذهب من المذاهب سياسياً كان أو فلسفياً ، يمهد السبيل لظهور ضده .

والسبب في ذلك أن في الطبيعة البشرية نزعات متضادة كالميل إلى التفاؤل والتشاؤم ، والميل إلى الرخاء والتقشف ، والميل الى الحياة الروحية والمادية . فاذا سلكنا طريق نزعة من هذه النزعات وبالغنا في ارضائها أدى تهالكنا في ذلك الى احياء ضدها . ان مبالغة بعض الناس في التفاؤل تدفع بعضهم الآخر إلى التشاؤم ، كما أن التهالك في محبة الجديد يوقظ في قلوب الناس محبة القديم .

وما ينطبق على تطور الميول والنزعات يصدق أيضاً على تطور الأفكار . فاذا انكشف للمفكر مذهب جديد بحث أولاً عن أصوله ، ثم رتبها وهذبها ثم بالغ في استخراج النتائج اللازمة عنها . واذا لم يبالغ هو نفسه في النتائج قام أصحابه من بعده وبالغوا فيها . حتى يجيء مفكر جديد يصعب عليه التسليم بنتائج ذلك المذهب فيعود إلى الأصول وينتقدها . ثم يصوغها في قالب موافق لنزعته الجديدة . ان المبالغة في النتائج اللازمة عن مذهب (ديكارت) و (ليبنيز) أدت الى المذهب الخيالي وفسحت المجال لظهور

(٥) محاضرة ألقاها الدكتور جميل صليبا في ردهة محاضرات المجمع العلمي العربي في ٢ آذار سنة ١٩٤٥ .

المذهب التجريبي . كما أن المبالغة في المذهب التجريبي أدت إلى الريبية ومهدت السبيل لظهور المذهب الخيالي . وهكذا تدور رحى الآراء والمذاهب حول قطبين متضادين ، وينتقل ميزان الفكر من طرف الى آخر حاملاً إلى كل طرف ما ربحه من حركته الأولى . فكأن تاريخ الافكار مسرح يمثل عليه كل مفكر دوره ، وكأن العقل البشري لايحب الا المآسي .

مثال ذلك أن مذهب سقراط في الاخلاق كان مشتملاً على نزعتين متضادتين أدت المبالغة في كل منها الى ظهور مذهبين مختلفين هما السيرنائية والكلبية . فأصحاب المذهب الأول كانوا يقررون أن السعادة في اقتناص اللذات . وأصحاب المذهب الثاني كانوا يعتقدون أن الفضيلة في التقشف واحتقار التقاليد الاجتماعية والتحرر منها . ثم تولد من هذين المذهبين مذهبان آخران هما الابيقورية والرواقية ، كان القائلون بكل منها يتهالكون في الدفاع عن آرائهم والرد على مخالفيهم . السابقون يضعون أساس البناء ، واللاحقون يهدمونه ، وفي تهديمهم هذا إصلاح لأصول المذهب ، واستئناف لانشائه .

ومن الامثلة الدالة على ذلك أيضاً رد (ارسطو) على كل من قبله من الفلاسفة حتى على استاذه أفلاطون . ورد مفكري الاسلام منذ اتصالهم بالفرس واليونان على الثنوية والدهرية فقد كان أبو الهذيل العلاف وابراهيم النظام يستعينان بالفلسفة للرد على أعداء الدين . وكان الفلاسفة أنفسهم يقتبسون من العقائد الدينية بعض مبادئهم ومقدماتهم ، حتى أصبحت المذاهب الفلسفية في ذلك العهد أشبه شيء بالمذاهب السياسية ، لا بل بالأدوار المسرحية . لكل مذهب زعماؤه ورؤساؤه ، كلما ظهر مذهب جديد انبرى فريق من المخالفين للرد عليه . والسبب في ذلك أيضاً أن كلام المترجمين الذين نقلوا كلام أرسطو إلى اللغة العربية لم يخل من التحريف والتبديل حتى أثار ذلك نزاعاً شديداً بين الشارحين . وكان أقدم الفلاسفة بالشرح والتحقيق أبو نصر الفارابي وابن سينا حتى سمي الاول بالمعلم الثاني ، وسمي الثاني بالشيخ الرئيس ، فانتشر بهما مذهب الفلاسفة وتهالك الناس في اتباعه

فلا غرو اذ اطلق الغزالي عليها وعلى أصحابها اسم زعماء الفلاسفة وانبرى للرد عليها في كتاب التهافت ، وزعم أنه كشف عن فنون ما انخدعا به من التضليل والتخييل ، وانه برده عليها انما ردّ في الوقت نفسه على كلام أرسطو ، وكما رد الغزالي على الفارابي وابن سينا فكذلك رد ابن رشد على الغزالي في كتاب تهافت التهافت . ان تهافت الناس على الفلاسفة أدى إلى حملة الغزالي عليهم ، كما أن اعجاب الناس بكتب الغزالي دعا ابن رشد إلى نقدها . وهكذا لم تزل أبداً حال الفلاسفة بعضهم مع بعض ، إذا عظم أمر أحدهم ، وأخذ الناس في اتباعه ، تصدى له فريق من المخالفين وحملوا الناس على استنكار مذهبه .

٢ — أسباب حملة الغزالي على الفلاسفة وغايتها

ونريد الآن أن نبحث في الحملة التي شنها الغزالي على الفلاسفة ، ونبين أسبابها وغايتها ، وأثرها في تاريخ الفلسفة العربية .

أما أسباب حملة الغزالي على الفلاسفة فترجع إلى ما شاهده في زمانه من اضطراب الفرق وتعدد المذاهب والطرق ، وانحلال العقائد الدينية . فقد قاسى الغزالي من جراء ذلك آلاماً نفسية عظيمة ، وحاذر أن يقضي هذا الاضطراب على العقائد الاسلامية ، فندب نفسه للذب عن حياض الدين ، وأراد أن يكون اماماً مرشداً ومصلحاً دينياً ينقذ اخوانه مما غرقوا فيه من الضلالة . فخاض في ذلك كما يقول(١) « خوض الجسور لا خوض الجبان الحذور » . متفحصاً عن عقيدة كل فرقة ومستكشفاً أسرار كل طائفة ، لايغادر باطنياً الا ويحب أن يطلع على بطانته ، ولا ظاهرياً إلا ويريد أن يعلم حاصل ظهارته ، ولا فلسفياً إلا ويقصد الوقوف على كنه فلسفته ، ولا متكلماً إلا ويجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته(٢) » فألّف في الرد

(١) الغزالي ، المنقذ من الضلال ، ص — ٦٦ طبعة مكتبة النشر العربي بدمشق .
(٢) عن المنقذ باختصار ص — ٦٦ .

على مذهب التعليم كتاب المستظهري وكتاب حجة الحق وكتاب مفصل الخلاف ، وكتاب القسطاس وغيرها ، وألّف في الرد على علماء الكلام كتاب الجام العوام عن علم الكلام ، وألّف في الرد على الفلاسفة كتاب التهافت

ولكن الفلاسفة كانوا في نظر الغزالي أشد خطراً على الدين من غيرهم لما غلب على الناس من حب كتبهم وحسن الظن في علومهم . فهم قد أرادوا أن يزنوا كل شيء بميزان العقل ، وأن يوفقوا بين الحكمة والشريعة ، فكان الدين في يدهم آلة خادمة للفلسفة حتى تفاقم أمرهم وبالغوا فيما أرادوه وأصبحوا خطراً على الدين والأخلاق .

أما خطرهم على الدين فيرجع إلى أنهم اعتقدوا في أنفسهم ، كما يقول الغزالي التميز على أترابهم ونظرائهم ، فرفضوا وظائف الاسلام والعبادات ، واحتقروا شعائر الدين واستهانوا بالشرع وحدوده ، وكان مصدر كفرهم بزعمه انهم سموا باسماء هائلة كسقراط وبقراط وأفلاطون وأرسطو وأمثالهم واطلعوا على مبالغة متبعيهم في وصف عقولهم ، وحسن أصولهم ، ودقة علومهم الهندسية والمنطقية ، وحكايتهم عنهم أنهم ، مع رزانة عقولهم وغزارة فضلهم ، منكرون للشرائع والنحل ، جاحدون لتفاصيل الأديان والملل ، معتقدون أنها نواميس مؤلفة ، وحيل مزخرفة ، فتجملوا بالكفر ، وأظهروا التكايس في تقليد الباطل . قال الغزالي :

« ولما رأيت هذا العرق من الحماقة نابضاً على هؤلاء الاغبياء ، انتدبت لتحرير كتاب التهافت رداً على الفلاسفة القدماء ، مبيناً تهافت عقيدتهم ، وتناقض كلمتهم فيما يتعلق بالالهيات ، وكاشفاً عن غوامض مذهبهم التي هي على التحقيق مضاحك العقلاء(١) » .

ولاشك أن المعجب بأقوال الفلاسفة في المنطق والرياضيات يظن كما يقول الغزالي أن جميع علومهم في الوضوح ووثاقة البرهان هي كهذين

(١) التهافت ، ص ٣ طبعة مصر .

العلمين ، ثم يسمع بعد ذلك أشياء كثيرة عن كفرهم وتعطيلهم وتهاونهم بالشرع ، فيقلدهم ويقول : لو كان الدين حقاً لما اختفى على هؤلاء مع تدقيقهم في هذا العلم . دع أن الجهال من أصدقاء الاسلام يكذبون كل ما جاء به الفلاسفة ويقولون أنه مخالف للشرع ، مع أن الذي يقرأ العلوم الثابتة بالبرهان لايشك في تلك العلوم بل يشك في مكذبيها ويسوء ظنه فيهم .

وأما خطر الفلاسفة على الأخلاق فيرجع إلى أنهم أهملوا أحكام الشريعة ، فشربوا الخمر ، وأعرضوا عن الصلاة ، وقالوا مع ذلك أنهم أدركوا حقيقة النبوة ، وعلموا أن حاصلها يرجع إلى الحكمة والمصلحة ، وان المقصود من تعبداتها ضبط عوام الخلق وتقييدهم عن الاسترسال في الشهوات . فاذا ترفع الانسان عن طبقة العوام سقط عنه التكليف ، وكشف عنه الغطاء ، وأصبح بصيراً بحكمته . وانك لتجد بعضهم كما يقول الغزالي[1] يقرأون القرآن ويحضرون الجماعات والصلوات ويعظمون الشريعة بلسانهم . وهم مع ذلك لايتركون فسقهم وفجورهم ، « حتى أن ابن سينا ذكر في وصية له أنه عاهد الله على كذا وكذا ، وأن يعظم الأوضاع الشرعية ، ولايقصر في العبادات الدينية ، ولايشرب تلهياً ، بل تداوياً وتشفياً ، فكان منتهى حاله في صفاء الايمان ، والتزام العبادات أن استثنى الخمر لغرض التشفي[2] » . وفي هذا السلوك كما يرى الغزالي خطر على أخلاق الناس .

ولم تكن غاية الغزالي من نقد آراء الفلاسفة سلبية ، بل كانت غاية ايجابية . فهو لم يهدم البناء الذى أقامه الفلاسفة على أساس العقل إلا لينشيء صرحاً جديداً على أساس الكشف الباطني والوحي القلبي . فشك في علم الكلام ، وشك في مذهب التعليم ، وشك في الفلسفة ، وشك في العقل ، وانحلت عنه رابطة التقليد وطلب العلم اليقيني ، « وهو العلم الذي ينكشف

(١) المنقذ ص ١٥٠ .
(٢) المنقذ ص ١٥٠ .

فيه المعلوم انكشافاً لايبقى معه ريب ولا يقارنه امكان الغلط والوهم[1] » ، فوجد علومه غير متصفة بهذه الصفة ، وطمع في اقتباس اليقين من الحسيات فلما تأملها لم تسمح له نفسه بتسليم الأمان فيها ، لأن حاكم العقل كثيراً مايكذب حاكم الحس ويخونه ويبطله . فلما بطلت ثقته بالحسيات تأمل الضروريات العقلية ، وكاد يثق بها لولا اعتراض الحسيات وقولها : لعل وراء ادراك العقل حاكماً آخر ، إذ تجلى كذب العقل في حكمه ، كما تجلى حاكم العقل فكذب الحس في حكمه . ويمكن أن تطرأ على الانسان حالة تكون نسبتها إلى العقل كنسبة اليقظة الى النوم . فالعقل بكذب الحس والحس يكذب العقل كأن هناك مأساة جدلية محزنة ، تظفر فيها العقليات على الحسيات ثم تعود الحسيات فتتغلب بجدلها على العقليات . ولو استسلم الغزالي لهذا الجدل لبقي على مذهب السفسطة ، ولكانت غايته سلبية محضة . إلا أنه استطاع أن يخرج من الشك عن طريق الكشف الباطني والحدس الديني ، فعادت نفسه إلى الصحة والاعتدال ، ورجعت الضروريات العقلية موثوقاً بها على أمن ويقين ، لابداهة العقل كما فعل « ديكارت » ، ولكن بنور قذفه الله في الصدر ، وذلك النور في نظره مفتاح أكثر العلوم .

وهاهنا مسألة لابد من الاشارة اليها ، وهي ان الغزالي لم يحمل على الفلاسفة لعجزهم في الالهيات عن الوفاء بالبراهين التي اشترطوها في المنطق ، بل هدم آراءهم ليظهر عجز العقل عن الخوض في مسائل مابعد الطبيعة . نعم إنه يقول في بيان أسباب حملته على الفلاسفة انهم ماقدروا في الالهيات على الوفاء بالبراهين التي اشترطوها في المنطق[2] ، « وانهم يحكمون بظن وتخمين من غير تحقيق ويقين ، ويستدلون على صدق علومهم الالهية بظهور علومهم الحسابية والمنطقية ويستدرجون ضعفاء العقول . ولو كانت علومهم الالهية متقنة بالبراهين نقية عن التخمين كعلومهم الحسابية لما اختلفوا فيها[3] . « وان ماشرطوه

(١) المنقذ ص ٦٩ .
(٢) المنقذ من الضلال ، ص .
(٣) تهافت الفلاسفة ، ص ٨ .

في صحة مادة القياس في قسم البرهان من المنطق وما شرطوه في صورته في كتاب القياس ، وما وضعوه من الأوضاع في « ايساغوجي » « وقاطيغورياس » لم يتمكنوا من الوفاء بشيء منه في علومهم الالهية ،(١) وهذه الأقوال تدل بحسب الظاهر على أن الغزالي يؤمن بأحكام العقل ، ويعتمد على البراهين المنطقية ، وانه لم ينتقد الفلاسفة إلا لعدم وفائهم بشروط البرهان المنطقي في مسائل مابعد الطبيعة ، فأحكام العقل صادقة ، إلا أن الفلاسفة أساؤا استعمالها ، وخالفوا شروطها . ولو وفوا بهذه الشروط لسلموا من انتقاده اللاذع . ولكن من قرأ كتاب التهافت وتصفح المسائل التي أوردها الغزالي في الرد على الفلاسفة ، لم يشك أبداً في موقف الغزالي من العقل في علم مابعد الطبيعة . فهو لم يحمل على الفلاسفة لتقصيرهم في الوفاء بشروط البرهان فحسب ، بل هاجمهم ، كما فعل ابن خلدون بعده ، لتهديم صرحهم الفلسفي من أساسه ، معتقداً أن أحكام العقل صادقة في الرياضيات والمنطقيات والطبيعيات ، أما في علم مابعد الطبيعة فان العقل المحض عاجز عن الوصول إلى اليقين ، وسيتضح لنا هذا الأمر عند استعراض بعض المسائل التي كشف الغزالي عن تناقضها الداخلي ، وهي كلها تدل على أن الغزالي لايقتصر على تعجيز الفلاسفة عن اقامة الدليل وتخطيئهم في البرهان فحسب ، بل تشير إلى أن مسألة الصفات الالهية ، ومسألة أزلية العالم وأبديته ، ومسألة استحالة الفناء على النفوس البشرية ، وغير ذلك من المسائل ، لاتوزن بميزان العقل البشري ، بل يحتاج العقل في ادراكها الى عامل آخر هو الكشف الباطني ، والايمان القلبي ، والوحي الديني .

٣ - طريقة الغزالي في الرد على الفلاسفة

أما طريقة الغزالي في الرد على الفلاسفة فتشبه رد رؤساء المذاهب أو

(١) التهافت ص ١٦ .

زعماء الاحزاب على آراء مخالفيهم . فهو ينقد أدلة الفلاسفة كما ينقد الصيرفي الماهر الدراهم الزائفة . ويخرج منها الزيف ، وغير الصحيح من الفاسد ، حتى لقد أظهر في ذلك حذقاً لامثيل له في تاريخ الفكر العربي . لم ينتقد الغزالي مذهب الفلاسفة انتقاداً عاماً مبهماً كما يفعل النقاد في أيامنا هذه ، بل انتقده انتقاداً عميقاً منظماً . فحدد المسائل التي خالف فيها الفلاسفة عقائد الاسلام ، ففندها واحدة واحدة ، وانتقد مافيها من جهات الضعف . ومن أجل الرد على الفلاسفة قرأ الغزالي مذهبهم وألف فيه كتاباً وجيزاً سماه كتاب المقاصد ، نظر فيه نظر الباحث الذي يقرر المسائل ويحكيها على وجهها ، غير متعرض لما فيها من حق أو باطل . والسبب في ذلك أنه لم يرض لنفسه أن يظن به الغفلة عن أصل حجة الفلاسفة ، فلذلك قررها إلى أقصى حدود الامكان ، ثم عاد إلى ذلك في كتاب التهافت ، فأفرد لكل مسألة من المسائل بحثاً خاصاً . ومن قرأ كتب ابن سينا ، وقرأ بعدها كتاب التهافت ، أعجب بقدرة الغزالي على عرض المسائل وايضاحها . وربما كانت قراءة كتاب التهافت ضرورية لكل من أراد أن يفهم مذهب ابن سينا فهو قد قرر حجة الفلاسفة بلغتهم واصطلاحهم وهجر في رده عليهم ألفاظ المتكلمين والاصوليين ، بل أوردها كما يقول بعبارتهم في المنطق ، ودخل عليهم في ذلك كله دخول مطالب منكر لادخول مدع مثبت ، فقطعهم بإلزامات مختلفة . فالزمهم تارة مذهب المعتزلة ، وأخرى مذهب الكرامية ، وطوراً مذهب الواقعية ، وجعل الفرق جميعها إلباً عليهم ، وأراد أن يتفق الجميع ويتظاهروا عليهم ، فعند الشدائد تذهب الأحقاد .

وطريقة الغزالي هذه تذكرنا بطريقة القديس توما الاكويني في رده على الملحدة ، فهو يعرض المسألة ثم يقسمها الى وجوه مختلفة ، ويعين المطالب ثم يذكر أجوبتها ، ويحدد الشبه ثم يبين وجه الخروج منها ، ثم يورد الاعتراضات المتقابلة ويفندها . وربما كان كتاب التهافت أكمل ماوصل اليه فن الجدل المدرسي عند العرب ، فهو أكمل من كتاب الانتصار

لأبي الحسين الخياط، وأكمل من كتاب تهافت التهافت لابن رشد من حيث أسلوبه وفنه . والفارابي وابن سينا لم يبرزا في هذا الفن ، كما أن أبا الحسن الأشعري لم يوفق في مقالات الاسلاميين لشيء من هذا ، لانه اقتصر على عرض عام للآراء والمذاهب من غير أن يفصل المطالب ويجادل فيها . ومن قارن بين أسلوب الغزالي وأسلوب ابن سينا اعجب بقدرة الاول على التحليل والافهام . فاسلوب ابن سينا هو أسلوب الفيلسوف الموزون ، كل لفظ من ألفاظه مطابق لفكرة معينة ، ليس فيه زيادة أو نقصان ، أما أسلوب الغزالي فهو أسلوب الخطيب ، أو أسلوب الواعظ والمعلم ، تتدفق ألفاظه كالسيل وتجيء مفعمة بالفكر والعاطفة . وقد تجد المعنى الواحد عنده عدة ألفاظ ، وتجد للفظ الواحد عدة معان تختلف باختلاف الكلام وسياق العبارة ، وقد تتبدل معانيه بحسب ما يخاطب به كل سائل ومسترشد . وليس في الفلسفة العربية كتاب بلغ من دقة الالفاظ ورشاقة الاسلوب ما بلغه الغزالي في المنقذ من الضلال والاحياء من حسن الاشارة ولطف العبارة ، اللهم الا كتاب حي ابن يقظان لابن طفيل .

وكثيراً ما كان الغزالي يعدل عن ألفاظ الفلاسفة الى ألفاظ مألوفة عند الفقهاء ، معتادة الاستعمال عند علماء زمانه ، كما فعل في كتاب معيار العلم وكتاب محك النظر ، فأعانه ذلك على نشر أفكاره ، قال ابن طملوس : « غير أني عندما تصفحت كتب أبي حامد رأيت من تلويحاته واشاراته التي تكاد أن تكون تصريحاً أن له فيها (أي في صناعة المنطق) تآليف ورى في تسميتها عن أن يسميها باسم المنطق . وهذه الكتب منها معيار العلم له ، وكتاب محك النظر ، وهو دون المعيار ، وكتاب القسطاس المستقيم ، ومقدمة المستصفى في الفقه ، ومنها مقدمة المقاصد . فهذه الكتب التي الفها أبو حامد هي من صناعة المنطق ، لكن أبا حامد غير أسماء الكتب وأسماء المعاني المستعملة فيها ، ونكب عن ألفاظ أهل الصناعة الى ألفاظ مألوفة عند الفقهاء معتادة الاستعمال عند علماء زمانه . وما فعل هذا كله الا حذراً وتوقياً من أن يجري عليه

ماجرى على غيره من العلماء الذين أتوا بالغريب وغير المألوف من الامتحان والامتهان . فصانه الله عن ذلك بلطفه وبما أعطاه من بديع الحيلة . فانه عاشر جميع الاصناف وولج معهم الولوج الذي شاركهم به المشاركة التامة حتى صار اماماً في كل صنف ورئيساً في كل مذهب »(١) فالغزالي لم يستعمل لغة الفلاسفة واصطلاحهم الا في كتاب المقاصد وكتاب التهافت أما في كتبه الاخرى فقد غير أسماء المعاني . وفضل الألفاظ المألوفة عند أهل زمانه على الألفاظ الفنية الغريبة . ولولا ذلك لما أقبل الناس على مطالعة كتبه ولما أعجبوا بما فيها من حسن الترتيب وجودة النظام والتبويب .

٤ — موضوع الخلاف بين الغزالي والفلاسفة

ولكن ماهو موضوع الخلاف بين الغزالي والفلاسفة ؟

لقد أشار الغزالي في كتاب التهافت الى أن الخلاف بين الفلاسفة وغيرهم انما يرجع الى ثلاثة أقسام :

١ — قسم يرجع النزاع فيه الى ألفاظ مجردة كتسميتهم صانع العالم جوهراً مع تفسيرهم معنى الجوهر بأنه الموجود لا في موضوع ، أي القائم بنفسه الذي لايحتاج الى مقوم يقومه . ولا مجال لابطال هذا في نظره لان المعنى إذا اتفق عليه في الذهن يرجع الكلام في التعبير عنه الى اللغة والاصطلاح .

٢ — والقسم الثاني من هذه المسائل لايصدم أصلاً من أصول الدين كالعلوم الرياضية والمنطقية فليس شيء منها يتعلق بأمور الدين نفياً واثباتاً . وهي أمور برهانية لاسبيل الى مجاحدتها . ومن ظن أن المناظرة في ابطال هذا من الدين فقد جنى على الدين وعلى نفسه معاً .

٣ — والقسم الثالث يشتمل على المباحث الالهية التي تصدم أصلاً من أصول

(١) ابو الحاج يوسف بن محمد بن طملوس ، كتاب المدخل لصناعة المنطق ، طبعة مجريط ١٩١٦ ص ١٣ .

الدين ذكر الغزالي منها في كتاب التهافت عشرين مسألة غلط فيها الفلاسفة فبدعهم في سبع عشرة مسألة وكفرهم في ثلاث : هي القول بقدم العالم ، واقتصار علم الله على الكليات دون الجزئيات ، وانكار حشر الاجساد .

لايتسع المقام الآن لاستعراض جميع هذه المسائل ، ولو أردنا استقصاء مسألة واحدة منها استقصاء تاماً لاحتجنا الى مقدمات طويلة من فلسفة ابن سينا والفارابي . فلنقتصر اذن على الاشارة الى بعض القضايا التي تدل على أن الغزالي قد وفق في نقده الى وضع أصول جديدة لفلسفة عامة جديدة . وهذه القضايا التي نريد ذكرها على سبيل المثال هي مسألة المعرفة ، ومسألة العالم والزمان والمكان ، ومسألة السببية .

٥ — دراسة بعض المسائل

لنبحث الآن في المسائل الثلاث التي أشرنا اليها .

١ — مسألة المعرفة

مسألة المعرفة هي الأساس الذي يرجع اليه الخلاف بين الغزالي والفلاسفة . فقد كان الفلاسفة يقولون ان المعرفة لاتتم بطريق التجربة ، بل تتم باشراق الصور من العقل الفعال على العقل الانساني . فالعقل يكون في أول أمره عقلاً بالقوة ، ثم يصير عقلاً بالفعل ، وذلك بما يصل اليه من الصور التي تؤديها اليه الحواس الظاهرة والباطنة . ولكن هذا الانتقال من القوة إلى الفعل لايتم إلا بتأثير العقل الفعال . وتتمايز العقول الانسانية بعضها من بعض بمقدار استعدادها للاتصال بالعقل الفعال الذي تتلقى عنه المعرفة . وفي ضوء هذا العقل يستطيع عقلنا أن يدرك الصور الكلية ، وبه يصير الاحساس معرفة .

فأنت ترى أن الفلاسفة قد بنوا المعرفة على العقل . لأن العقل هو الذي يجرد الصور الحسية من اللواحق المشخصة ، وينتزع من الصور المتخيلة صوراً كلية . ولكن الصور المنتزعة من الاحساس والخيال لاتصبح

صوراً عقلية إلا بتأثير العقل الفعال ، أو كما يقول ابن سينا بنور يفيض عليها من واهب الصور . ثم ان طريقة اكتساب المعرفة عند ابن سينا ترجع إلى النظر والقياس أولاً ، ثم إلى الحدس ثانياً ، ولكن هذا الحدس الذي يتكلم عنه ، انما هو حدس عقلي شبيه بالحدس الذي أشار اليه ديكارت وغيره من الفلاسفة العقليين . ومعيار صحة المعاني عنده هو وضوحها بذاتها وخلوها من التناقض .

أما مذهب الغزالي في المعرفة فيختلف عن مذهب الفلاسفة في مبادئه وغاياته لأنه قد بنى المعرفة على التجربة ، والكشف الباطني . واليقين عنده ثلاث مراتب : أولها ايمان العامة المستند إلى الخبر . فهم يصدقون مايخبرهم به أهل الثقة ، كأن يقال لهم أن فلاناً في الدار ، وثانيها معرفة العلماء التي يصلون اليها بالاستنباط ، فهم قد سمعوه يتكلم فاستنبطوا أنه في الدار . غير أنه يوجد فوق ذلك مرتبة ثالثة هي يقين العارفين الذين يشهدون الحق دون حجاب . وهم قد دخلوا الدار ورأوا الرجل بأعينهم . والعلوم انما تثبت في القلب بطريق الاستدلال والتعلم ، أو بطريق الوحي والالهام . والغزالي يفضل العلم الذي يحصل في القلب عن طريق الالهام على العلم الذي يحصل فيه عن طريق التعلم . ومن أجمل مافي كتاب الاحياء من التشبيهات تشبيه القلب بحوض محفور في الارض . فاما أن يساق اليه الماء من فوقه بانهار تفتح فيه ، واما أن يحفر أسفل الحوض ويرفع منه التراب الى أن يقرب من مستقر الماء الصافي ، فينفجر الماء من أسفل الحوض . قال الغزالي :

« والقلب مثل الحوض ، والعلم مثل الماء . وتكون الحواس الخمس مثل الأنهار . وقد يمكن أن تساق العلوم إلى القلب بواسطة أنهار الحواس والاعتبار ، والمشاهدات حتى يمتلىء علماً ، ويمكن أن تسد هذه الانهار بالخلوة والعزلة وغض البصر ، ويمتد الى عمق القلب بتطهيره ، ورفع طبقات الحجب عنه حتى تتفجر ينابيع العلم من داخله . فان قلت فكيف

يتفجر العلم من ذات القلب وهو خال عنه ، فاعلم أن هذا من عجائب أسرار القلب ، ولا يسمح بذكره في علم المعاملة ، بل القدر الذي يمكن ذكره أن حقائق الاشياء مسطورة في اللوح المحفوظ ، بل في قلوب الملائكة المقربين ، فكما أن المهندس يصور أبنية الدار في بياض ، ثم يخرجها الى الوجود على وفق تلك النسخة ، فكذلك فاطر السموات والأرض كتب نسخة العالم من أوله إلى آخره في اللوح المحفوظ ، ثم أخرجه الى الوجود على وفق تلك النسخة . والعالم الذي خرج إلى الوجود بصورته تتأدى منه صورة أخرى الى الحس والخيال .

« فان من ينظر إلى السماء والأرض ثم يغض بصره يرى صورة السماء والأرض في خياله حتى كأنه ينظر اليها . ولو انعدمت السماء والأرض وبقي هو نفسه لوجد صورة السماء والارض في نفسه كأنه يشاهدهما وينظر اليها ، ثم يتأدى من خياله أثر إلى القلب . . . والحاصل في القلب موافق للعالم الحاصل في الخيال ، والحاصل في الخيال موافق للعالم الموجود في نفسه خارجاً من خيال الانسان وقلبه ، والعالم الموجود موافق للنسخة الموجودة في اللوح المحفوظ . فكأن للعالم أربع درجات في الوجود : وجود في اللوح المحفوظ ، وهو سابق على وجوده الجسماني ، ويتبعه وجوده الحقيقي ، ويتبع وجوده الحقيقي وجوده الخيالي ، أعني وجود صورته في القلب[1] » .

وهذا القول يدل على أن المعرفة تحصل في النفس بطريقين مختلفين الأول هو طريق الحواس والاعتبار والمشاهدة ، وهو طريق التجربة الخارجية أو طريق المعرفة غير المباشرة . والثاني هو طريق القلب وتطهيره ورفع الحجب عنه ، وهو طريق التجربة الداخلية المباشرة . وكلا الطريقين يؤدي إلى النتائج نفسها ، لأن صورة العالم الخارجي محفوظة في النفس . فاما أن

(١) الغزالي ، احياء علوم الدين الجزء الثالث ، ص١٧-١٨ المطبعة العثمانية المصرية القاهرة ١٩٣٣ .

تتوجه النفس الى العالم الخارجي فتتأدى اليها المعرفة عن طريق الحواس ، واما أن تتوجه إلى ذاتها ، وتدرك صورة العالم المحفوظة في داخلها ، فتتفجر منها المعرفة . والمعرفة التي تتفجر من داخل القلب أصفى وأدوم ، لا بل هي كما يقول الغزالي أكثر وأغزر . وهذا الرأي شبيه كما ترى برأي (ليبنيز) الذي قال : « يظهر لنا لأول وهلة أن جميع تصوراتنا تأتي من العالم الخارجي بواسطة الحواس ، وترتسم في صفحات النفس الفارغة ولكننا اذا تعمقنا في التأمل أدركنا أن كل شيء ، حتى الادراكات والانفعالات ، انما يأتينا من داخلنا بعفوية تامة ، وما نظنه خارجياً أو آتياً عن طريق الحواس ان هو إلا تبدل في أحوالنا الداخلية[1] » .

ولكن هذه الادراكات والانفعالات الداخلية هي كما يقول (ليبنيز) صور ومعارف مطابقة للحقائق الخارجية . وهي لا تنشأ عن تأثير متبادل بين العقل والطبيعة ، بل تنشأ عن توافق قديم بينهما . ومعنى ذلك أن تتابع الادراكات في الجوهر العاقل مطابق لتتابع حوادث الكون وجرياتها . فهناك اذن عالمان عالم العقل وعالم الطبيعة . وكل منها مطابق للآخر في تتابع صوره وجريان حوادثه . وهذا شبيه بقول الغزالي أن صور العالم الحقيقي مطابقة للصور المرسومة في اللوح المحفوظ ، وموافقة للصور الحاصلة في القلب والخيال . وسواء أتوجهت النفس الى العالم الحقيقي أم غضت البصر عنه وتوجهت إلى داخلها ، فان المعرفة التي تحصل لها واحدة .

وحقيقة القول أن القلب في نظر الغزالي مستعد لأن تتجلى فيه حقائق العلوم مباشرة ، وذلك بالتعرض للنفحات الالهية . قال الغزالي : « ان العلوم ليست ضرورية وانما تحصل في القلب في بعض الأحوال ، فتارة تهجم على القلب كأنه ألقي فيه من حيث لا يدري ، وتارة تكتسب بطريق الاستدلال

(١) كتاب الالهيات Théodicée ، ٢٩٦ .

والتعلم فالذي يحصل بطريق الاكتساب وحيلة الدليل يسمى العلماً ، والذي يحصل بالاستدلال يسمى اعتباراً واستبصاراً »(١).

يتضح من هذا القول أن الغزالي يسمي الطريق الأول الذي نحصل به على المعرفة طريق الاعتبار والاستبصار ، ويسمي الطريق الثاني بطريق الالهام . وفوق طريق الالهام درجة من المعرفة يعرف معها المدرك كيف حصل له ذلك الالهام ومن أين حصل وتسمى هذه المعرفة وحياً . وهي مما يختص به الانبياء ، أما الالهام فيختص به الاولياء . والعلم المكتسب الحاصل بطريق الاعتبار والاستبصار والاستدلال انما يختص به العلماء .

ويرى الغزالي أن الفلاسفة اقتصروا في أصل المعرفة على طريق الاستدلال والتعلم ، وأهملوا العلم الحاصل في النفس عن طريق الوحي والالهام . انهم يفنون أنفسهم في تجريد المعاني الكلية من الكيفيات الجزئية ، مع أن المعاني الكلية المجردة أقل من أن تستنفد كل ما نشعر به في نفوسنا . وأحباب الله يبلغون من الرياضة درجة يتلقون بها علماً لدنياً لا يطلع عليه العلماء الا بالاستنباط العقلي ، ولا يرتقي الى ذلك المقام الرفيع الا قليل من الناس .

ماهي قيمة هذه المعرفة التي تحصل لنا بأحد هذين الطريقين وماهي حدودها؟

لقد ذكر لنا الغزالي في كتاب المنقذ من الضلال صفة المعرفة التي يريد الحصول عليها ، فقال ان مطلوبه هو العلم بحقائق الامور ، لذلك ظهر له « ان العلم اليقيني هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب ، ولا يقارنه امكان الغلط والوهم ، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك ، بل الامان من الخطأ ينبغي أن يكون مقارناً لليقين مقارنة لو تحدى باظهار بطلانه مثلاً من يقلب الحجر ذهباً والعصا ثعباناً لم يورث ذلك شكاً وانكاراً »(٢)

وفي سبيل الحصول على هذه المعرفة اليقينية شك الغزالي في العلم الموروث ،

(١) الاحياء ، ص ١٦ .
(٢) المنقذ من الضلال . طبعة دمشق (مكتب النشر العربي) ، الطبعة الثانية ٦٩ .

ثم شك في الحسيات ، ثم شك في الأوليات العقلية ، ولم تعد نفسه الى الصحة والاعتدال الا بنور قذفه الله في الصدر ، وهذا النور كما يقول هو مفتاح أكثر العلوم . وهذا يدل على أن الغزالي لم يكن ريبياً ، بل كان شكه شكاً فلسفياً ، وهو واسطة الوصول الى اليقين . فقد كانت الأوليات العقلية موثوقاً بها في الأصل ، ثم لما عادت النفس الى الصحة والاعتدال رجعت الأوليات موثوقاً بها أيضاً على أمن ويقين . ولولا النور الالهي الذي قذف في الصدر لم ينقذ الغزالي نفسه من غياهب الشك الذي غرق فيه ، ولكن هذا الجود الالهي لم يكن إلا مفتاحاً لليقين ، ولولا استعداد العقل لقبوله لما بدد نوره ظلمات الشك . فالعقل قادر اذن على الوصول الى الحقيقة ، واذا وقع في الشك استطاع أن ينقذ نفسه منه بالتعرض للالطاف الالهية . على أن الحقائق التي يتوصل اليها العقل بنفسه لاتشمل كل شيء ، وهي تختلف بحسب الطريق الذي نسلكه في الوصول الى المعرفة . فاذا كانت الطريق الذي سلكناه هو طريق الاستدلال ، كانت معرفتنا مقصورة على أمور التجربة وما يتصل بها ، واذا كان طريق معرفتنا هو الوحي والالهام أمكننا الوصول الى معرفة الامور الالهية . وهذا النوع الأخير من المعرفة هو التعليم الذي جاءنا به الأنبياء . فقد علمونا أشياء كثيرة منها ماهو داخل في نطاق الاستدلال العقلي ، ومنها ماهو خارج عن نطاقه . ولولاهم لما أدركنا حقيقة الامور الالهية .

فالغزالي قد حدد اذن نطاق الاستدلال العقلي المجرد عن الوحي ، وجعله قاصراً عن ادراك أمور التجربة . وجعل الامور الالهية خارجة عن نطاقه . وهو في ذلك قريب من ابن خلدون .

أما الفلاسفة فقد آمنوا بسلطان العقل ، وجعلوه قادراً على حل جميع المشكلات . وعدم وصول التعليم اليهم عن طريق الانبياء لايمنعهم من الوصول الى الحقائق الابدية . أما الغزالي فيرى أن محاولة معرفة الامور الالهية بطريق العقل المجرد عن الوحي والالهام فضول وطمع في غير مطمع ، لأن

هذه الأمور كما صرح غير مرة ، ليست مما تتسع له القوى البشرية . ولاتنال بنظر العقل ، بل تنال بطريقة أخرى الاطلاع ، هي طريقة الكشف الباطني والشعور الوجداني ، وقد اقتبس الغزالي هذا النوع من المعرفة الوجدانية من الطريقة الصوفية ، فجعل الكشف الباطني أساس اليقين الديني ومفتاح العلوم .

ولايشترط في الحق عنده أن يكون واضحاً بنفسه مؤيداً بالبرهان العقلي فحسب ، بل يجب أيضاً أن يكون موافقاً للكتب والسنة . وهكذا تنقسم المعرفة عند الغزالي الى قسمين : معرفة حسية ومعرفة دينية . فالعقل والتجربة هما أساس المعرفة الحسية ، أما المعرفة الدينية فترتكز على الكشف الباطني . وهذا يوضح لنا السبب في حملة الغزالي على الفلاسفة ، واظهاره تناقض مذهبهم في ايضاح الامور الالهية ، واستنباطهم إياها على طريقة العلماء . فهم لم يكتفوا بالخبر كما نقله اليهم الانبياء ، ولا ارتقوا في المعارف اللدنية الى المشاهدة والمكاشفة ، ولكنهم أرادوا أن يزنوا حقيقة الاله والنفس بميزان العقل ، وأن يستنبطوا بهذا الميزان أحكاماً لايمكن الوصول اليها إلا عن طريق الوحي والالهام ، فوقعوا فيما وقعوا فيه من التوهم والضلال .

٢ — مسألة العالم : الزمان والمكان

والمسألة الثانية التي نريد ذكرها على سبيل المثال هي مسألة العالم والزمان والمكان . وهي مسألة كلية تشتمل على عدة مسائل ، كقولنا هل العالم أزلي أم حادث ، وهل هو أبدي أم فانٍ ، واذا كان أزلياً هل يحتاج الى صانع ، وما البرهان على احتياجه الى صانع واحد . لماذا يستحيل على العقل أن يتصور العالمين قديمين .

فالفلاسفة يقولون : إن العالم كرة متناهية في الامتداد ، ولكنهم يقولون في الوقت نفسه انها قديمة لانهاية لها في الزمان ، وانها بالرغم من قدمها تحتاج الى صانع . ولا مجال الآن لتفصيل القول في هذا كله ، وانما

نريد أن نبين أن الغزالي لم يبطل أدلة الفلاسفة على قدم العالم وأزليته ، إلا ليحدد لنا نطاق الاستدلال العقلي المجرد من الوحي ، ويبين عجزه عن ادراك مسائل مابعد الطبيعة . فهو قد أورد أدلة الفلاسفة على قدم العالم ثم بين تناقضها ، وأورد بالاضافة الى ذلك أدلة مختلفة على حدوث العالم ، وجعل مسألة عدم تناهي الزمان ، مماثلة لمسألة عدم تناهي المكان . فاذا كنا لانستطيع أن نتصور للزمان مبدأ أو نهاية ، فكذلك لانقدر أن نتصور للمكان حدوداً . ولو قيل أن المكان يتعلق بالحس الظاهر ، وان الزمان يتعلق بالحس الباطن ، لما تغير من المسألة شيء ، لاننا مع هذا لا نخرج من المحسوس . فالبعد المكاني تابع للجسم والبعد الزماني تابع للحركة . وكما أننا نستطيع أن نقيم الدليل على تناهي أقطار الجسم ، فكذلك يمكننا أن نبرهن على تناهي الحركة من طرفيها . وهذا كله يدل على أن الزمان والمكان انما هما عبارة عن علاقات بين تصوراتنا ، فهما اذن نسبيان . وهذا يقرب رأي الغزالي من رأي « كانت » ، الذي يقول أن الزمان والمكان هما صورتان سابقتان للتجربة نستعين بهما على ادراك العالم الخارجي . والفرق بين (الغزالي) و (كانت) في ذلك هو أن الغزالي يقول أن الزمان والمكان هما علاقات بين التصورات ، تخلق بخلقها أو بالاحرى يخلقها الله بين الصور الذهنية في عقولنا ، أما (كانت) فيقول أن مقولتي الزمان والمكان هما صورتان من خلق العقل ، يستخرجهما من داخله ، وينشرهما ليرتب فيهما ظواهر الطبيعة ويؤلف منها سلاسل منظمة . ولكن (كانت) لم يوضح لنا كيف تولدت هذه المقولات من العقل ، فهل هي مثل مخلدة ، أم هي اشراق الهي . انك لاتجد لهذه المسألة في فلسفة (كانت) جواباً شافياً ، أما الغزالي فقد تجنب الشبهة بارجاع الزمان والمكان الى تصورات ذهنية خلقها الله في عقولنا .

وفي تقرير الغزالي لحجة الفلاسفة ، على قدم العالم ، وابطالها دليل آخر على مشابهته (لكانت) . اننا اذا قلنا مع الغزالي أن العالم حادث ورد علينا اعتراض الفلاسفة وهو قولهم يستحيل صدور حادث من قديم . لأن

الشيء لا يمكن أن ينتج إلا مثله . وإذا قلنا مع الفلاسفة أن العالم قديم ورد علينا اعتراض الغزالي ، وهو قوله ان في العالم حوادث ، ولها أسباب ، ولايمكن أن تستند الحوادث الى الحوادث إلى غير نهاية ، ولو كان ذلك ممكناً لاستغنينا عن الاعتراف بالصانع ، واذا كانت الحوادث لها سبب ينتهي اليه تسلسلها ، فيكون ذلك الطرف هو القديم ، فلابد اذن على أصل الفلاسفة انفسهم من تجويز صدور حادث من قديم . وهناك أدلة اخرى لكل من هذين الرأيين المتضادين تتفرع بعضها من بعض ؛ فتشتبك وتتعقد وتزيد الامر اشتباهاً . وهي كلها تدل على عجز العقل عن ادراك هذه المسائل ، لأنها من طور فوق طوره . وتذكرنا بمتناقضات العقل المحض التي جاء بها كانت لاثبات عجز العقل عن ادراك كنه مسائل مابعد الطبيعة . فمن متناقضات العقل المحض قضية تناهي العالم في الزمان والمكان ونقيضها . فالادلة التي جاء بها كانت للبرهان على هذه القضية ونقيضها لاتختلف كثيراً عن الأدلة التي جاء بها الغزالي ، على لسان الفلاسفة ، لاثبات قضيتهم من جهة ولاظهار تناقضها من جهة أخرى . ومن تعمق في درس تهافت الغزالي وتهافت ابن رشد استطاع أن يجد فيها بذوراً لمتناقضات (كانت) الاخرى كمتناقضة تركيب الجوهر من أجزاء بسيطة وعدم تركيبه ، ومتناقضة السببية والحرية ، ومتناقضة وجود للوجود الواجب وعدم وجوده ، حتى أن الغزالي نفسه يقول عند الكلام عن أبدية العالم ، أن العالم يجوز أن يبقى ، وأن يفنى ، ولا ترجيح عنده لأحد هذين النقيضين على الآخر إلا بالرجوع الى الشرع لا الى العقل .

٣ — مسألة السببية

والمسألة الاخيرة التي نريد ذكرها على سبيل المثال هي مسألة السببية . فقد كان الفلاسفة يفرقون بين فعل الله وفعل العقول المدبّرة وفعل النفس والطبيعة والاتفاق . ولكن الغزالي يرى أنه لايوجد الا فعل واحد ، وهو

فعل الموجود المريد . وهو ينكر فعل الطبيعة انكاراً تاماً . لاننا لانستطيع أن نرد هذا الفعل الى مجرد علاقة زمانية بين شيئين . ولاشك أننا نجد مثيلاً لهذه الآراء عند المتكلمين السابقين . ولكن جرأة الغزالي على انكار الضرورة العقلية لقانون السببية قد فاقت كل ما ألفناه حتى الآن من الاقدام على التهديم . ومن السهل علينا أن نلخص رأي الغزالي في مسألة السببية بايراد العبارة الآتية ؛ قال الغزالي :

« ان الاقتران بين ما يعتقد في العادة سبباً وما يعتقد مسبباً ليس ضرورياً عندنا . بل كل شيئين ليس هذا ذاك ولا ذاك هذا ، ولا اثبات أحدهما متضمن لاثبات الآخر ولا نفيه متضمن لنفي الآخر . فليس من ضرورة وجود أحدهما وجود الآخر ، ولا من ضرورة عدم أحدهما عدمُ الآخر ، مثل الري والشرب ، والشبع والأكل ، والشفاء وشرب الدواء وهلم جرا ، إلى كل المشاهدات من المقترنات في الطب والنجوم والصناعات والحرف ، وان اقترانها لما سبق من تقدير الله سبحانه لخلقها على التساوق ، لا لكونها ضرورية في نفسها » . وقال أيضاً : « وليس لهم دليل الا مشاهدة حصول الاحتراق عند ملاقاة النار ، والمشاهدة تدل على الحصول عنده ، ولاتدل على الحصول به ، وأنه لاعلة سواه » . فنحن نرى ظاهرة معينة تعقب ظاهرة أخرى معينة ، فنسمي الأولى معلولاً والثانية علة . أما كيف تحدث العلة معلولها ، فهذا سر لايطلعنا عليه الحس ، ولا ندركه بالعقل . ومجرد اعتيادنا مشاهدة التعاقب بين ظاهرتين لايسمح لنا بأن نقول ان الظاهرة الاولى علة الظاهرة الثانية . فالغزالي ينكر اذن الضرورة العقلية في مبدأ السببية ، ويعلن بجرأة أننا لانعرف فعل الأشياء الطبيعية بعضها في بعض وليس في الفلاسفة القدماء والمحدثين من يشبهه في جرأته هذه الا (داودهيوم) الذي أنكر أيضاً ارتباط العلة بالمعلول ارتباطاً ضرورياً . فقال ان كل مايراه الانسان بحواسه هو ظاهرتان متعاقبتان . وليس هذا التتابع دليلاً على السببية ، ولايمكن أن يعلم منه أن الحادثة الأولى علة الحادثة الثانية . والعادة

وحدها كما يقول (هيوم) هي التي أوحت الى الانسان بهذه النتيجة ، اذ توهم أنه مادامت هاتان الحادثتان قد ارتبطتا في الماضي ، فلابد أن ترتبطا لذلك في التجارب المقبلة ، واذن ففكرة السببية ذاتية محضة ، وهي خدعة من الخيال ، ليس لها وجود إلا في العقل الذي يدركها ، وإذا قال قائل إن رفع الاسباب مبطل للعلم ، وإن ذلك يؤدي إلى قلب الكتاب حيواناً والعصا ثعباناً ، قال الغزالي ان الله تعالى خلق لنا علماً بأنه لم يفعل هذه الممكنات ، وهو لم يقل ان هذه الامور واجبة ، بل هي ممكنة يجوز أن تقع ويجوز أن لاتقع . واستمرار العادة بها مرة بعد أخرى يرسخ في أذهاننا جريانها وفق العادة الماضية . وفي هذا القول ايضاح كاف للاسباب التي حملت الغزالي على انكار السببية . فهو قد أنكر السببية ليترك باب المعجزات مفتوحاً . فعلق الأسباب والأفعال كلها بارادة الله . فالشمس عنده ليست علة الضوء ، والدواء ليس علة الشفاء ، والنار ليست علة الاحتراق ، بل الفاعل الحقيقي هو الله . فالله قد خلق هذه الظواهر ، بعضها بعد بعض على التساوق ، لالكونها ضرورية في نفسها ، ولكن لغاية نجهل حكمتها . وفعل الله لاينقطع ، بل هو يتجدد في كل وقت ، فيربط اذا شاء ظاهرة بظاهرة ، وحركة بحركة ، ويقطع إذا شاء هذا الارتباط . وهذا قريب من رأي (ديكارت) الذي قال ان الله يخلق العالم في كل آن ، ومن رأي (مالبرانش) الذي زعم ان الله هو المنفذ المباشر لكل فعل من أفعال الانسان ، لا بل هو العلة الحقيقية في ارتباط الظواهر بعضها ببعض ، وبديهي أن السبب في تعليق الاسباب والمسببات بارادة الله ، انما يرجع الى العقيدة الدينية . ولولا حرص الغزالي على اعطاء الله جميع الصفات التي تعلمها من الشرع لما أنكر الضرورة العقلية في قانون السببية . فهو قد أرجع هذا القانون الى الاعتياد تخلصاً من انكار المعجزات ، وجعل الطبيعة مسخرة لله تعالى ، لاتعمل بنفسها ، بل هي مستعملة من جهة فاطرها . فالله تعالى وحده هو السبب الحقيقي لكل شيء ، والسببية الحقيقية ترجع

الى علاقة ارادية بينه وبين العالم . أما ارتباط الاسباب والمسببات الطبيعية بعضها ببعض ، فلا قيمة له بنفسه ، ولا معنى له إلا اذا ارتكز على ارادة الله .

٦ — النتيجة

هذه أمثلة سريعة تبين لنا موقف الغزالي من فلسفة زمانه . فقد كان الفلاسفة يعتقدون أن العقل قادر على الاحاطة بكل شيء ، فبين لهم الغزالي أن نطاق العقل مقصور على ادراك أمور التجربة . وكانوا يعتقدون أن العالم قديم فألزمهم الغزالي بأن العالم حادث ، وكانوا يقولون بارتباط الاسباب والمسببات ارتباطاً ضرورياً ، فأثبت لهم الغزالي أن السبب الحقيقي هو الله ، وأن الله هو المريد بارادة قديمة وانه لافاعل سواه . وماذهب الغزالي الى ذلك كله إلا ليحافظ على العقائد ويذب عن حياض الدين . فهاجم الفلاسفة مهاجمة عنيفة ، واهتدى في أثناء ذلك إلى آراء جديدة لانجدها الا عند (ديكارت) و (مالبرانش) و (كانت) و (هيوم) من فلاسفة العصور الحديثة . ففلسفة الغزالي هي بهذا المعنى فلسفة دينية أو فلسفة مثالية شخصية ، أما فلسفة المشائين فهي فلسفة عقلية . والغزالي قريب من ابن خلدون في قوة الابتكار ، وهو أكثر فلاسفة العرب تحرراً من سيطرة آرسطو ، ولكنه لم يتحرر من سيطرة آرسطو إلا ليستسلم لدواعي القلب ، ويلجأ إلى أحضان الدين . وقد كان لرده على الفلاسفة أثر عميق في مصير الفلسفة في الشرق . فلم يقم أحد من تلاميذ ابن سينا للرد عليه فتداعى بناء الفلسفة المشائية . وتفرقت عناصرها وتلقفها رجال الدين وصبغوها بألوان العقائد ، أما في الاندلس فلم يكن حظ الغزالي في أول أمره أحسن من حظ الفلاسفة ، فأعرض الناس عن كتبه ، وأحرقوها كما أحرقوا كتب الفلسفة . قال ابن طملوس :

« ولما امتدت الايام وصلت الى هذه الجزيرة كتب أبي حامد الغزالي ، فقرعت أسماع الناس بأشياء لم يألفوها ولا عرفوها ، وكلام خرج به عن

معتادهم من مسائل الصوفية وغيرهم من سائر الطوائف الذين لم يعتد أهل الاندلس مناظرتهم ولا محاورتهم ، فبعدت عن قبوله أذهانهم ، ونفرت عنه نفوسهم ، وقالوا ان كان في الدنيا كفر وزندقة ، فهذا الذي في كتب الغزالي هو الكفر والزندقة ، وأجمعوا على ذلك واجتمعوا للأمير اذ ذاك ، وحملوه على أن يأمر بحرق هذه الكتب المنسوبة إلى الضلال ، بزعمهم ، وعزموا عليه في ذلك حتى أجابهم إلى ما سألوه منه ، فاحرقت كتب الغزالي وهم لايعرفون مافيها ، وخاطب الامير اذذاك جميع أهل مملكته يأمرهم بحرقها ، ويعلمهم أنه هو الذي أدى اليه نظر العلماء ، وقرئت مخاطبته على المنابر ، وشنع الامر بذلك تشنيعاً عظيماً . وامتحن من كان عنده منها كتاب ، وخاف كل انسان على نفسه بانه قرأ منها كتاباً أو اقتناه ، وكان في ذلك من الوعيد مالا مزيد عليه . . . ثم لم تكن تمتد الايام الا قليلاً حتى جاء الله بالامام المهدي رضي الله عنه ، فبان به للناس ما كانوا قد تحيروا فيه ، وندب الناس الى قراءة كتب الغزالي رحمه الله ، وعرف من مذهبه أنه يوافقه ، فأخذ الناس في قراءتها واعجبوا بها ، وبما رأوا فيها من جودة النظام والترتيب الذي لم يروا مثله قط في تأليف ، ولم يبق في هـــذه الجهات من لم يغلب عليه حب كتب الغزالي إلا من غلب عليه افراط الجمود من غلاة المقلدين ، فصارت قراءتها شرعاً وديناً بعد أن كانت كفراً وزندقة (١) » . فالناس في الأندلس قد عاملوا الغزالي بما عامل به الفلاسفة في الشرق ، فكفروه في أول أمرهم كما كفر الفلاسفة ، وبدّعوه كما بدّعهم . ثم لما حمى كتبه أمير راجت بضاعتها وانتشرت . ولم يوفق ابن رشد رغم حملته على الغزالي في كتاب تهافت التهافت الى منع الفلسفة من الانقراض ، فقد اتهم الغزالي بانه انما كفر الفلاسفة ارضاء للعامة ، وسبقه ابن طفيل الى ذلك فقال ان الغزالي يربط في موضع ويحل في آخر ، ويكفر باشياء

(١) ابن طملوس ، كتاب المدخل لصناعة المنطق ، مجريط ١٩١٦٠ ، ص ١١-١٢ .

ثم ينتحلها . ومهما يكن من أمر فان العامة قد أحرقوا كتب ابن رشد كما أحرقوا كتب الغزالي . واعراضهم عن كتب الغزالي في أول الأمر ثم استحسانهم اياها يدل على ماجرى اليه أمرهم ، في كل قديم وحديث . فهم ينكرون أولاً ما يألفونه ويستحسنونه آخراً . ولو لم يخب مصباح الحضارة العربية تحت تأثير العناصر الاجنبية التي سيطرت على الاسلام لأدى تهالك الناس في استحسان آراء الغزالي الى ظهور مفكر جديد بعده ، لايكتفي برد اعتراضاته على مذهب آرسطو كما فعل ابن رشد ، بل يرجع الى أصول مذهبه الصوفي ويفندها ، ويستبدل بها غيرها . ان قانون التضاد الذى أشرنا اليه سابقاً لا يعمل عمله في تطور الأفكار الا اذا كانت الأفكار حرة طليقة . فاذا انطلقت الافكار في فضاء الحرية دعا بعضها بعضاً . ولكنها إذا حبست في طبقات من حجب التقليد والتعصب الاعمى نضب ماؤها وانطفأ نورها .

التصوير في الاسلام (*)

تطورت دراسة التاريخ واختلفت الغاية المنشودة من هذا العلم لايطمئن ، الناس اليوم إلى ما كانوا يطمئنون اليه بالأمس ، ولايكتفون من التاريخ بسرد الحوادث والوقائع على علاتها دون تحليل أو تعليل . بل يطلبون من التاريخ أن يكون مرآة صادقة وصورة واضحة لكل عصر من العصور ، ترتسم فيها حياة الأفراد والجماعات في شتى نواحيها ، يستوحون منها حقيقة الماضي بأجلى مظاهرها . ولا تحقق هذا الغرض إلا إذا كان المؤرخ منصفاً أميناً . يكتب ماله وما عليه ، متغلباً على الاهواء ومنزهاً عن التضليل ، يروي الرضي والبغيض ، لا تأخذه في الحق لومة لائم . وهكذا يبعث في دراسة تاريخنا حياة جديدة تتفق مع روح العصر وتفكيره . ويعتقد كثير من ادبائنا ومؤرخينا تعذر تحقيق ذلك أو صعوبة ادراكه في كثير من الابحاث التي أغفلها السلف أو لم يفرد لها بحثاً خاصاً في الكتب التي وصلت الينا ، وأظن أن في هذا القول شيئاً من التشاؤم واليأس رغم وعورة المسالك لادراك المطلب . إن السلف قد خلف لنا تراثاً علمياً واسع الارجاء ، غنياً بموضوعاته حافلاً بتنوع أبحاثه ، ولكنه ينقصه الترتيب والتنسيق على النحو الذي نرغبه ، ومع هذا كله فهو أفضل بكثير بتنظيمه ومادته من أي تراث غيره من معاصريهم أو ممن تقدمهم من الأمم وقد أثبتت النتائج التي بلغتها الأمم من أن الصعوبات لم تكن أبداً عقبة في سبيل ادراك الغاية أو بعضها اذا تدرع المرء على تذليلها بالصبر الطويل والدرس العميق . ولو قيس

(*) محاضرة القاها الأمير جعفر الحسني في ردهة محاضرات المجمع العلمي العربي في ١٦ آذار سنة ١٩٤٥ .

ماتوصلت اليه الأمم الغربية في دراسة تاريخها القديم والاعلان عن حضارتها على ضآلة مراجعهم وغموض مصادرهم ، بالحد الذي وقفنا عنده على وفرة ثروتنا العلمية وتنوعها ، لأدركنا مبلغ تواني في اظهار مفاخر ما أهمل من تاريخنا ، وقد سبقنا بعض علماء الامم الغربية الى دراسة تاريخنا القديم والاعلان عن حضارتنا كل منهم حسب غايته وأهوائه . وأخشى ان طالت عنايتهم وبقينا على اهمالنا ان يأتي يوم نأخذ فيه عنهم أخبارنا ووقائع تاريخنا كما نتلقى عنهم بقية علومنا .

انا نعيب على كتبنا التاريخية مانعيبه على كتب التاريخ عند غيرنا من الامم المتقدمة التي اعتمدت التدوين ، وجعلت التصانيف التاريخية أشبه بالملاحم والأساطير ، فهي تكاد أن تكون مقتصرة على أخبار غزوات السلف وفتوحاتهم ، يفاخرون فيها ويبالغون بحوادث القتل والسلب والهدم والكسب . كأن هذه الأعمال هي أشرف مايستشهد به على عظمة مرتكبيها ، وكأن الاسلام جاء يسلب الأمم حريتهم ويغتصب أموالهم . وأصبحت هذه الفكرة عقيدة راسخة عند سواد الأمة ، بل عند أكثر الذين حاولوا كتابة تاريخنا القديم . فقد جعلوا الفتوحات من أبرز موضوعاتهم ، ونلاحظ ذلك حتى في الكتب المدرسية ، وكان لهذا التوجيه أثره السيء في نفوس الجيل الجديد ، يكاد أحدهم لا يعرف من عظمة العرب ومجيد أعمالهم سوى ماتلقنه في المدرسة أو ما استخلصه من كتب التاريخ القديمة والحديثة ، من أن العرب قد فتحوا البلاد ودوخوا الأمصار ، ودكوا العروش وأخضعوا الملوك حتى امتد سلطانهم من غانة في الغرب إلى فرغانة في الشرق .

وأرجوكم ياسادتي أن لاتحملوا قولي هذا على انتقاص هذه الناحية الهامة التي هي أيضاً جزء من مفاخرنا ، بل أريد أن نظهر جميع محاسن حضارتنا ولا نهمل ناحية منها . ولو اقتصرنا فقط على ماجاء في كتب التاريخ وأخذناه على علاته لصعب على الجمهور ادراك حقيقة حضارتنا والغاية من فتوحاتنا ، وأخشى أن لايختلف حكم الاجنبي وذوي العقائد المريضة في فتوحات العرب ،

عما تصوره نحن من غزوات اتيلا وهولاكو وتيمورلنك الذين أفسدوا في الأرض وأهلكوا الحرث والنسل ، ولم يخلفوا حيثما حلوا سوى الخراب والدمار ، دون أن يبررها هدف شريف أو غاية مثلى ، بل دفعتهم اليها غرائزهم الهمجية في القتل والسلب . ولو لم يتصل بنا بقية من تراث السلف الصالح — وهي أبلغ شاهد على حضارة العرب — لضعفت حجتنا وكسدت بضاعتنا ولما وجدنا مايرد به عادية المفترين . فينبغي علينا إذاً أن لا نحصر جهودنا بدرس الفتوحات والغزوات فقط بل الواجب علينا أن نعير ما أهمل من بقية مظاهر حضارتنا الاهتمام اللائق بها ، ليصبح تاريخنا وحدة غنية بعادتها سليمة من الشوائب ، تظهر للعالم حقيقة عظمة العرب في جميع أطوارها سياسية كانت أو عسكرية ، اجتماعية أو اقتصادية ، علمية أو فنية ، وعندئذ نستطيع أن نقيم الدليل الذين طغى الشك في قلوبهم على اليقين ، بان الفتح الاسلامي هو أنبل فتح عرفه التاريخ ، جنى العالم من ورائه أطيب الثمرات ونهض بالمدنية إلى أرفع الدرجات . ويجب علينا لكي نبلغ هذه الغاية ونعد لها العدة الكافية أن نقطع مرحلة طويلة شاقة ، لانه لم يزل في تاريخنا ثغرات كثيرة ومجاهل عز على الرواد ادراكها ، واستعصى على الباحثين حقيقة أمرها . إن تاريخنا مشتت في تضاعيف الاسفار ، مبعثر في كتب التاريخ والادب ، ودواوين الشعر والرحلات ، وتصانيف الحديث والتفسير ، والتراجم والمعاجم وفي غيرها من المصادر الاجنبية القديم منها والحديث ، ولا مندوحة للباحث من الاستعانة بها جميعاً والرجوع اليها اذا أراد أن يلم بموضوعه ، ولا يتهم بالاهمال ولا يرمى بالتقصير في التحقيق والاستقراء . لانكر أن مثل هذا العمل الشاق لا يتيسر لفرد من الأفراد مهما اتسع علمه وطال عمره ، بل هو عمل جماعات يتوزعون أفرادها العمل بطريق التخصص فيكونون من هذه الدراسات سلسلة أبحاث ينسج منها تاريخنا القومي بمعناه الصحيح .

ان الحضارة العربية هي من نعم الله ماثلة للعيان رغم شبحها الضئيل

الذي يتراءى لنا من خلال سطور كتب التاريخ . ولو كان الحكم يصح بالقياس والاستنتاج فقط لجزمنا أن الحضارة الاسلامية قد بلغت ولاشك ذروة الكمال في جميع نواحيها . والا لما كتب لها البقاء طويلاً ، رغم المصائب والكوارث التي توالت على البلاد الاسلامية وتضافر أعداؤها للقضاء عليها .

ولا تخلو الامم الاسلامية من الشعوبيين ممن زاغ بصرهم أو في قلوبهم مرض يجاهرون بعورات تاريخنا ، ويشنعون بالحضارة العربية وينكرون عليها فضلها . فيتعمدون التضليل ليفسدوا على الناس عقيدتهم القومية وليضعفوا في نفوسهم الايمان بمحاسن حضارة السلف ومدنيتهم . ولايمكن القضاء على مثل هذه الدعايات بالتهويش والتهويل بل علينا أن نقرع الحجة بالحجة فنرد فريتهم ونزيف أباطيلهم بالبينة والبرهان .

ومن المسلم به أن كل حضارة لا تذكي قرائح أبنائها ولا ترهف سمعهم ولا تصقل خيالهم ولا تهذب همجية طبائعهم هي مدنية بتراء وغير ناضجة ولا يصح أن يطلق عليها اسم حضارة أو مدنية . لان الشعر والموسيقى والتصوير وكل ضروب الفنون الجميلة هي صفة ملازمة أبداً للحضارة الرئيسية ومقياس لها . والشعر هو أخصب مادة أنتجتها قرائح العرب ، ومعينه عندهم لاينضب ، وقد وفاه الادباء الشيء الكثير من حقه في دراساتهم في الماضي والحاضر . ولم تكن عناية المسلمين بالموسيقى أقل منها بالشعر فكانت صناعة رائجة برعوا فيها وتصرفوا في أفانينها ، ومع هذا يعوزها الدراسات العلمية لندرك مبلغ ماوفقوا اليه في هذه الناحية . وأما التصوير فكنا نجهل عنه الكثير واليسير . وننكر على العرب وغيرهم من المسلمين أي محاولة في هذا السبيل ، وسلمنا به بدون جدل لاعتقادنا أنه ينافي الدين الاسلامي ولا يتفق مع تعاليمه ، وحالت هذه العقيدة دون أي بحث حول هذا الموضوع . وبقي الناس كذلك لايجسرون طرق بابه ، الى أن قام منذ نصف قرن فريق من مستشرقي الغرب وعلماء الآثار منهم بمعالجة موضوع الفنون الجميلة عند

المسلمين فتوصلوا بدراساتهم الى نتيجة تفوق ما كان مقدراً لها من النجاح فصنفوا عشرات المجلدات في مختلف اللغات تشهد جميعها بفضل العرب وعنايتهم بفن الزخارف والريازة ، مدلين ببراهين عديدة وشواهد كثيرة ، ورغم تقديرهم مواهب العرب الفنية فقد استبعدوا أن يكون لهم نصيب في النحت والتصوير ، وغمزوا قناة الدين الاسلامي الذي حال دونهم ودون التصوير ، مستشهدين بالاحاديث النبوية الشريفة التي حرمت على المسلم صناعة الصور والتماثيل ونهته عن اقتنائها . وقد زادت قناعتهم بما عرفوه من تعصب السواد الاعظم من المسلمين لاسيما رجال الدين ضد التصوير . وفقدان أي بينة تنقض هذا التعصب أو تنفيه . وأين السبيل لمن أراد رد قولهم وقتئذ والنص حاضر والشاهد غائب . غير أن العلم لا يعطي كلمته الاخيرة في مسألة من مسائله . ولكن لابد أن تظهر الحقيقة ولو بعد حين ، فيصبح وهماً ما كنا نعتقده حقاً ، ومن المؤسف أن نرى بعض المسلمين يؤخذون بمثل هذه الاقاويل . ولم يتورع أحدهم من أن يتهم : « الروح الاسلامية بعجزها عن انشاء فن مها أنفقت من جهود ومهما بذلت في هذا السبيل محاولات . لأن ذلك مناف لروحها . وان مايسمونه فناً اسلامياً ليس خليقاً مطلقاً بكلمة فن وخير مايوصف به أنه « تزويق وانهم (أي العرب) لم يعنوا بهندسة البناء ولا بالنحت ولا التصوير . »[1]

وقد جاءت المكتشفات الاثرية الاخيرة في البلاد الشامية والعراقية والابحاث العلمية الحديثة التي أثارتها خير شاهد على فساد ماذهبوا اليه في الماضي . واثبتت ببراهين جديدة أن النهضة الاسلامية كانت شاملة ، تناولت جميع نواحي الحضارة البشرية في العلوم والفنون على السواء كغيرها من الحضارات التي سبقتها ، ونزهت الشريعة الاسلامية من أن تكون عثرة في سبيل تقدم العقل البشري ونمو مواهبه الطبيعية .

(١) عبد الرحمن بدوي : التراث اليوناني ص ٥٥و١٦ .

وقد ابتلى بحث التصوير عند المسلمين بالامتهان أكثر من أي بحث غيره ، فلا نجد في كتبنا القديمة أي اشارة اليه ، اللهم الا ما اقتصرت عليه الكتب الدينية في كراهيته وتحريمه ، ولم يتوسع الفقهاء والمحدثون في بحث هذه الكراهية والتحريم . ولم يبينوا لنا وجه الحكمة في ذلك كما فعلوا في بحث غيرها من نواهي الشرع .

وقبل أن نبحث في تحريم التصوير وتعليله وما ذهب اليه بعض العلماء في جوازه . لابد لنا أن نبحث أولاً مبلغ تأثير هذا النهي في العالم الاسلامي ومقدار تمسكهم به في صدر الاسلام ، ثم نبحث عن استنكارهم لمن خالف هذا الرأي وشذ عنه . وذلك على ضوء الواقع والمصادر الاسلامية القديمة وما اتصل بنا من المكتشفات الاثرية الحديثة .

وقد نقل الينا السلف بان العرب في الجاهلية قد زينوا البيت الحرام وجدرانه بصور الانبياء وصور الشجر والملائكة ، من بينها صورة ابراهيم خليل الرحمن وهو يستقسم بالازلام ، وصورة عيسى وأمه عليهم السلام ، ولما كان يوم الفتح : « دخل رسول الله ﷺ البيت فأرسل الفضل بن العباس ابن عبد المطلب فجاء بماء زمزم ، ثم أمر بثوب ، فبل بالماء ، وأمر بطمس تلك الصور فطمست ، وقد وضع الرسول ﷺ كفيه على صورة عيسى وأمه وقال : امحوا جميع الصور إلا ماتحت يدي . فرفع يديه عن عيسى وأمه ونظر الى صورة ابراهيم فقال : قاتلهم الله جعلوه يستقسم بالازلام ومالابراهيم والازلام »[1] .

وروي عن داود بن عبد الرحمن بن أبي جريج قال : « سأل سليمان بن موسى الشامي عطاء بن أبي رباح وأنا أسمع : أدركت في البيت تمثال مريم وعيسى؟ قال : نعم أدركت تمثال مريم مزوقاً في حجرها عيسى ابنها قاعداً مزوقاً ، قال : وكان تمثال عيسى بن مريم ومريم عليها السلام في العمود الذي يلي

(١) أخبار مكة للازرقي ج (١) ص : ١٠٤ .

الباب . قال ابن جريج فقلت لعطاء : متى هلك ؟ قال : في الحريق في عصر ابن الزبير . »(١)

وروي عن أسماء بنت شقر (؟) : « ان امرأة من غسان حجت في حاج العرب ، فلما رأت صورة مريم في الكعبة صاحت : بابي وأمي انك لعربية . فأمر رسول الله ﷺ أن تمحى تلك الصور الا ما كان من صورة عيسى ومريم »(٢)

وفي حديث عن عائشة رضي الله تعالى عنها . انها قالت كنت ألعب مع الجواري بالبنات عند رسول الله ﷺ (٣) والبنات هي التماثيل الصغار التي يلهو بها الاطفال .

ونقل لنا المقريزي أن عمر رضي الله عنه ضرب الدراهم على نقش الكسروية وشكلها بأعيانها غير أنه زاد في بعضها « الحمد لله » وفي بعضها : « محمد رسول الله » وفي بعضها : « لا اله إلا الله وحده » وعلى آخر « عمر »(٤) وقد ضرب معاوية دنانير عليها تمثاله متقلداً سيفاً (٥) وفي أكثر المتاحف نماذج من هذه النقود يتفق شكلها مع هذا الوصف وتؤيد قوله .

وكان بعض العرب في صدر الاسلام يصورون في بيوتهم للتطير . وكان عبيد الله بن زياد صور في دهليزه كلباً وأسداً وكبشاً . وقال : كلب نابح وكبش ناطح ، وأسد كالح (٦) . وروي عن هلال عن عبد الله بن جعفر ابن عمرو عن بشر بن حيان قال : كنت عند عبد الله بن محمد بن عقيل . فدعا

(١) اخبار مكة للازرقي ج (١) ص : ١٠٦ .
(٢) اخبار مكة للازرقي ج ١ ص ١٠٧ .
(٣) حسن الاسوة لمحمد صديق خان حسن خان بهادر ص ٣١٩ ، وتاج العروس مادة (بنى) .
(٤) رسالة النقود للمقريزي طبعة ماير .
(٥) رسالة النقود للمقريزي ص : ٣ .
(٦) عيون الأخبار لابن قتيبة ج ١ ص ١٤٧ ،

بخاتم فخضخضه في الماء . فقلنا ماهذا ؟ قال : هذا خاتم كان لرسول الله ﷺ فاذا فصه حجر فيه نقش كتابة وتمثال (١) .

ونقل لنا الطبري في تاريخه : أن سعد بن أبي وقاص عندما دخل بجيشه المدائن بعد وقعة القادسية في سنة ١٦ هـ . نزل فيها بالقصر الأبيض ، واتخذ الايوان مصلى ، وان فيه التماثيل جص فما حركها(٢) ، وزاد في موضع آخر بقوله : ولما دخل سعد المدائن فرأى خلوتها وانتهى الى ايوان كسرى فصلى فيه صلاة الفتح واتخذه مسجداً وفيه التماثيل الجص ، رجال وخيل ولم يمتنع ولا المسلمون لذلك وتركوها على حالها .(٣)

وكان المسلمون يتمثلون باحاديثهم الصور ويستشهدون بمحاسنها . وقد جاء في شمائل النبي ﷺ : كأن عنقه جيد دمية . والدمية هي الصورة المصورة شبه بها لتفوق صنعتها والمبالغة في حسنها .

وذكر ابن سعد في طبقاته : « ان نساء النبي ﷺ تذاكرن عنده كنيسة بأرض الحبشة يقال لها مارية ، فذكرن من حسنها وتصاويرها . وكانت أم سلمة وأم حبيبة قد أتتا أرض الحبشة (٤) .

وقيل للأوسية وهي امرأة حكيم من العرب بحضرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أي منظر أحسن . فقالت : قصور بيض في حدائق خضر . فانشد عمر بن الخطاب لعدي بن زيد :

كدمي العـــاج في المحاريب أو كالبيض في الروض زهره مستنير(٥)

والدمي هنا هي التماثيل .

ولا يسعنا ياسادتي أن نستخف هذه النصوص التي أتينا على ذكرها

(١) تاريخ الرقة للقشيري مخطوط الظاهرية .
(٢) تاريخ الطبري ج ٤ ص ١٧٣ .
(٣) تاريخ الطبري ج ٤ ص ١٧٤ .
(٤) طبقات ابن سعد القسم الثالث ج ٢ ص ٣٤ .
(٥) كتاب الكامل للمبرد ج ١ ص ٤٦٠ .

وتنكر أهميتها لوجود نصوص غيرها تنقضها . وقد جاءت المكتشفات الاثرية في السنوات الاخيرة مؤيدة لتلك النصوص وأدعمت الرأي بتسامح المسلمين بصورة عملية بأمر التصوير حتى في صدر الاسلام . وانهم لم يكونوا وقتئذ ينظرون لهذا النهي نظر المتأخرين فيه مع انهم أحدث عهداً بالاسلام وأوسع فهماً لتعاليمه وبينهم الخليفة والصحابي والتابعي .

ومن أهم هذه المكتشفات نماذج كثيرة لنقود ضربت في عهد الخلفاء الراشدين كعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم أجمعين وبعض هذه النقود على الطراز البيزنطي والآخر على الشكل الساساني وجميعها مصورة . كما أنه عثر على نقود ضربت في عهد عبد الملك بن مروان عليها تمثاله متقلداً سيفاً (١).

واكتشف الرحالة التشكوسلوفاكي موزيل سنة ١٨٩٨ خربة قديمة في بادية الشام الجنوبية على نحو (٥٠) ميل شرقي عمان ، وهي بقية حمام لقصر اندرس أثره . ويعرف هذا البناء بقصير عمرة . وأعجب مافيه رسومه الزاهية الملونة بالاصباغ التي تزين جدرانه وسقوفه . وهي مجموعة صور أشخاص وطيور وحيوانات . أهمها صورة خليفة على عرشه ، ومشاهد صيد وقنص وصور راقصات عاريات متهتكات ، وصورة قبة فلكية وأبراجها ، وغير ذلك من الصور الرمزية . وقد أثار هذا الاكتشاف اهتمام علماء المشرقيات والآثار في الغرب ، وطال الجدل فيما بينهم ، نسبه بعضهم للعهد الاموي . وأنكر البعض ذلك وأرجعه الى ماقبل الفتح مستنتجاً ذلك من وجود الصور فيه وقد نهى عنها الاسلام . ولكنهم مالبثوا أن قنعوا بحجج الفريق الاول وسلموا معهم بان هذا العمل صنع في أوائل العهد الاسلامي واعتبروه شذوذاً وخروجاً على الاسلام . بل بادرة فريدة يصعب تعليلها أو التوفيق بينها وبين المتعارف من التعاليم الدينية الاسلامية . وانه لايصح اتخاذ هذه الظاهرة سابقة يبنى عليها حكم . ورغم كل هذه الاعتبارات فقد جاء هذا

(١) مسكوكات قديمة اسلامية فنالوفي لاسماعيل غالب رقم (٥) .

الاكتشاف حدث جديد وفتح مبين لناحية مهملة من الحضارة العربية بل الاسلامية . وبدأ منذ ذاك التاريخ أفق جديد وميدان فسيح يتبارى فيه الباحثون ليميطوا اللثام عن هذه النقطة الغامضة ببرهان جديد . وهكذا توالت الاكتشافات الاثرية في بلاد الشام والعراق . وعثر على قصر المشتى وهو على بعد (٢٠) ميل جنوب شرقي عمان ، وقد اشتهر أيضاً بزخارفه البديعة وصوره المنحوتة في الحجر . وقد نقلت زخارف جبهة هذا القصر الجنوبية الى متحف برلين حيث أعيد تركيبها فيه . وهي الى يومنا هذا من مفاخر معروضات القسم الاسلامي في هذا المتحف . ونرجو أن يكتب لهذا الاثر الاسلامي النفيس السلامة من الغارات الجوية التي تدمر العاصمة النازية . ثم اكتشف قبل سنوات مضت قصر خربة مفجر على مقربة من ريحا في غور فلسطين وعثروا فيه أيضاً على طائفة كبيرة من تماثيل حيوانات ناطقة وغير ناطقة وطيور وغير ذلك من الزخارف الجميلة . كما اكتشفت مصلحة الآثار السورية في نفس التاريخ قصر الحير الغربي الموجود في بادية الشام بين دمشق وتدمر . وقد نقلت زخارفه الى متحف دمشق لاعادة تركيبها فيه على نحو ما كانت عليه في الاصل . وقد زينت جبهة هذا القصر وغرفه وباحته بانواع الزخارف البديعة صنعت جميعها بالجص . واعجب مافيها تمثال فارس يطارد فريسته ، وتمثال ملك جالس على عرشه ، وتمثال أسد يفترس ظبياً ، وتمثال امرأتين ملونتين بالاصباغ ، احداهما جالسة والثانية مستلقية على ظهرها . ووجد فيه أيضاً عشرات التماثيل أقل منها شأناً ، وزينت جدران بعض الغرف بصور أشخاص ملونة . ورصفت أرض غرف منه برسوم زاهية تمثل سماوة امرأة تحمل بين ذراعيها سلة أثمار وقد التف حول عنقها ثعبان ويكتنفها قنطور سان بشكل ثعبان له وجه انسان ومخالب أسد . والى جانبها صورة مرزبان على جواده بقيافته الفارسية . يطارد ظباء يرميها بسهام صائبة . وهنالك صورة قينتين . الاولى تنفخ بمزمار والثانية تعزف بالعود . وكل هذه الصور دقيقة الصنع لا تكلف فيها ولا جهد . تدل

على مهارة الصانع ومواهبه الفنية وزوقه السليم . وحجم أكثر هذه التماثيل والصور يعادل حجم ماتمثله من أشخاص وحيوانات وطيور ويزيد عليها في بعضها . وقد وضع أكثر هذه التماثيل في أبرز مكان من هذه القصور لايحجبها عن العين حاجب . وتظهر بوضوح للداخل والخارج ولكل عابر سبيل . وقد ثبت بصورة لاتقبل الجدل ان جميع هذه القصور التي أتينا على ذكرها هي من العهد الاموي . وشيدت بعيدة عن المعمور وعلى طرق القوافل عبر البادية لسكنى بعض خلفاء بني أمية كهشام ويزيد والوليد ترويحاً للنفس والتبدي . وهنالك أيضاً عشرات القصور من العهد الاموي تنتظر من يبعثها من تحت الردم لتكشف لنا أسرارها .

ولو أردنا التوسع في البحث عن التصوير في العصر العباسي والفاطمي ومن جاء بعدهم لجمعنا من الشواهد مايكفي مجلداً أو أكثر . وقد جمع العلامة أحمد تيمور باشا جزءاً منها جاءت في مجلد كبير . كما أفرد الاستاذ زكي محمد حسن بحثاً في مجلد عن التصوير في الاسلام عند الفرس وهنالك طائفة من الابحاث في هذا الموضوع مبعثرة في الكتب والمجلات الاجنبية كتبها عمدة من علماء الآثار والمشرقيات تكون بذاتها خزانة كتب محترمة .

أرجوكم ياسادتي أن لايتبادر لأذهانكم بانني أحاول في محاضرتي هذه الزعم بان التصوير عند المسلمين عامة والعرب خاصة كان شائعاً بينهم ومألوفا لديهم على نحو ما كانوا عليه من تقدمهم من الامم الغابرة أو كما هو الحال عند الامم الغربية في عصرنا الحاضر وليس من غرضي أيضاً أن أبحث الامر على طريقة الجدل الفقهي لاقرار قاعدة حاسمة تتخذها حكماً قاطعاً . فهذا من شأن الفقهاء ، بل أبحث هذا الامر على ضوء الواقع والشواهد من شؤون الحياة ، لنرى هل يتفق المبدأان : مبدأ تحريم الصور ومبدأ اجازتها مع التعاليم الاسلامية ولأيهما الرجحان . ولابد لي أيضاً من الرد على من زعم ان الاسلام حال دون ازدهار هذه الناحية الفنية في البلاد التي دانت لسلطانه ، وانه كان العامل القوي الذي قضى فيها على مثل هذه

المواهب الفطرية . فلا نستغرب ان وجدنا فئة ترمي الاسلام بمثل هذه الوصمة الشنعاء ، لانها بنت حكمها على الحضارة الاسلامية على ماوجدتها عليه من الانحطاط في عصرنا الحاضر ، وقد جهل هؤلاء الناس أو تجاهلوا ماضيها الزاهر وتحررها من الجمود . ولايمكن للمطلع المنصف أن ينكر على المسلمين ذوقهم الفني السليم . أما ماأنتجوه من ضروب الزخارف في مختلف أدوار التاريخ تشهد لهم تفوقهم العظيم في ناحية واسعة الافق من الرسم الزخرفي حتى بلغوا فيها حد الابداع ، وعجز غيرهم أن يأتي بمثلها رغم ماهو مشهور عنهم من طول باعهم بالرسم والنحت والتصوير ، وهذه الناحية من التصوير لاتقل أهمية وشرفاً عن رسم ذوات الارواح وتجسيمها ، ولايصح أن يعتبر زهدهم في ناحية من نواحي التصوير ، لأسباب سنبينها ، نقصاً في مواهبهم الفنية وعجزاً في استعدادهم الفطري . لأن من يحسن تصوير أو نقش وردة أو كرمة أو غيرها من الزخارف ويحكم نسجها وتنسيقها لايستعصي عليه أن يصور أو ينحت أي مخلوق آخر . ومع هذا كله لو احصينا ما انتجه المسلمون من صور ورسوم أشخاص وحيوانات في العهد الاموي وقيس بما أنتجه سواهم من أهل الكتاب في مدة قصيرة تماثله ، لوجدنا الانتاج الاسلامي مع حداثة عهده لا يقل عما توصل اليه هؤلاء في كميته وقيمته الفنية .

إن الشواهد التي أوردناها في تسامح المسلمين وخلفائهم وعلمائهم في صدر الاسلام في اتخاذ الصور وعدم استنكارهم لها تحملنا كلها على التردد في تفهم تحريم التصوير والنحت والاسلام بالشكل المطلق الذي أفرغه فيه أئمة الدين والمحدثين فيما بعد عصر التدوين أي في النصف الاخير من القرن الثاني .

جاء الاسلام للقضاء على الوثنيين وعبادة الاصنام كما جاء في كتابه العزيز . وجاءت جميع آيات التنديد بالانصاب والأزلام والتماثيل في سياق كلام النهي عن تكريمها ، والذبح لها ، وعبادتها دون الله ، ولانعرف أي آية تصرح

بتحريم التصوير أو النهي عن اقتناء الصور مجردة عن الوثنية . ومتى زالت العلة زال التحريم ، بل هناك آية شريفة يستنتج منها عكس ما ذهب اليه من حرم التصوير ، فقد خاطب الله تعالى نبيه عيسى عليه السلام بقوله : «وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير باذني فتكون طيراً باذني[1] » أي أن يصور من الطين شكل طير ثم ينفخ فيه فيطير لتتم معجزته ، ويفخر عيسى عليه السلام في آية أخرى بانه قادر أن يخلق من الطين كهيئة الطير[2] . وأمر الله تعالى الجن أن تعمل لنبيه سليمان ماشاء من محاريب وتماثيل[3] وقال الفراء في قوله عز وجل : « من محاريب وتماثيل » ذكر انها صور الملائكة والانبياء كانت في المساجد ليراها الناس فيزدادوا اعتباراً وفي رواية أخرى عبادة[4].

وجاءت بعض الاحاديث النبوية الشريفة صريحة بتحريم التصوير واقتناء الصور بصورة مطلقة غير أن بعضها قد استثنى ما كان على بساط يداس أو مخدة أو وسادة ونحوها مما يمتهن[5] ، وقال بعض السلف انما ينهى عما كان له ظل ولا بأس بالصور التي ليس لها ظل ، وان تحريم التصوير في الاسلام مقيد اذ يجري حكمه على من صور الله تصوير الأجسام ، فمن صنع لغير ذلك لم يستحق الغضب من الله ووعيده . وقال الفارابي : « ان المصورات شريفة الوقع في الخاطر جليلة النفع للنفس أحياناً . » وقال الجاحظ في كتاب الحيوان : « ان الفنان المسلم اذا تخيل صوراً مستطرفة فكأنه يلمح

(١) سورة المائدة الآية ١١٢ .
(٢) سورة آل عمران الآية ٤٩ .
(٣) سورة سبأ الآية ١٣ .
(٤) تاج العروس ولسان العرب مادة حرب .
(٥) صحيح البخاري - كتاب ٤٦ باب ٣٢ و كتاب ٧٧ ب ٩١ قا ٩٢ . وصحيح مسلم - كتاب ٣٧ حديث ٨٥ و ٨٦ قا ٨٨ و ٨٩ و ٩٣ — ٩٥ . وسنن ابي داود كتاب ٣١ باب ٤٥ وسنن النسائي - كتاب ٤٨ باب ١٣٠ . وسنن الدارمي كتاب ١٩ حديث ٣٦ .

بلحظ الغيب الى ما يخلقه الله العلي القدير من أشكال لم يبلغ اليها علم » . وقال الجاحظ في صدد الاسجاع : « وكان الذي كره الاسجاع بعينها وان كانت دون الشعر في التكلف والصنعة ان كهان العرب الذين كان أكثر أهل الجاهلية يتحاكمون اليهم وكانوا يدعون الكهانة .... كانوا يتكهنون ويحكمون بالاسجاع .... قالوا فوقع النهي في ذلك لقرب عهدهم بالجاهلية ولبقيتها فيهم ، وفي صدور كثير منهم ، فلما زالت العلة زال التحريم[1] » ، وهذا التعليل يصح أيضاً قوله قياساً في النهي عن التصوير ولذلك يرى فريق من المستشرقين وعلماء الآثار أن هذه الأحاديث موضوعة وتسربت للدين الاسلامي في القرن الثاني للهجرة ، أدخلها الذين دانوا بالاسلام من اليهود ، واليهودية أشد الديانات كرهاً للتصوير ، لأن مضمون الأحاديث لا يتفق مع ما اتصل بنا من سيرة الرسول الأعظم وآل بيته والخلفاء الراشدين والصحابة والتابعين يتسامحهم في قضية التصوير كما ذكرناه سابقاً وما سنورده الآن .

روي أن القاسم بن محمد بن أبي بكر رضي الله عنه وهو أحد أعاظم أئمة التابعين قد اتخذ الحجلة (أي الستر) التي في تصاوير القندس والعنقاء وهو ربيب السيدة عائشة الصديقة وأعلم الناس بحديثها وفقهها . وان يسار ابن نمير مولى عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) وخازنه قد استعمل الصور في داره . ورؤيت الصور في دار مروان بن الحكم وسعيد بن العاص وكل منهما ولي إمارة المدينة وكانا من التابعين[2] .

وذكر ابن بطريق أن بطريق الروم في قنسرين طلب الى أبي عبيدة ابن الجراح الموادعة على نفسه سنة حتى يلحق الناس بهرقل الملك ، ومن قام فيها فهو في ذمة وصلح ، فاجابه أبو عبيدة الى ذلك ، فسأله البطريق

(١) كتاب البيان والتبيين ١ : ١١٣ .
(٢) خطط الشام لمحمد كرد علي ٤ : ١١٤ .

وضع عمود بين الروم والمسلمين ، وصور الروم في ذلك العمود صورة هرقل جالساً في ملكه فرضي أبو عبيدة . ومر بالصورة أحد العرب ، ووضع زج رمحه في عين تلك الصورة ففقأ عين التمثال عن غير قصد . فأقبل البطريق وقال لابي عبيدة : غدرتمونا يا معشر المسلمين ونقضتم الصلح وقطعتم الهدنة فقال أبو عبيدة : فمن نقضه ؟ فقال البطريق : الذي ففأ عين ملكنا . فقال أبو عبيدة : ماتريدون ؟ فقال لا نرضى حتى نفقأ عين ملككم . فقال أبو عبيدة : صور بدل صورتكم هذه صورتي ثم اصنعوا بها ما أحببتم وما بدا لكم . فقال : لانرضى إلا بصورة ملككم الاكبر ، فاجابهم أبو عبيدة إلى ذلك فصورت الروم تمثال عمر بن الخطاب في عمود وأقبل رجل منهم ففقأ عين الصورة برمحه . فقال البطريق : قد أنصفتمونا (١) .

ويدلنا كل ذلك على مبلغ تسامح المسلمين في التصوير في صدر الاسلام ، وانهم تنزهوا عن مناهضة الصور والتماثيل ، والاسلام أرفع وأشرف من أن يعبأ بها ، وهي أحط من أن يتخذها الاسلام خصماً يناضلها بعد أن قضى على روح الوثنية في مهدها . وهنالك شواهد عديدة تثبت أن المسلمين لم يتعرضوا في بدء أمرهم بسوء للتماثيل والاصنام التي وجدوها قائمة في البلاد التي دانت لسلطانهم . وأشهرها حكاية سعد بن أبي وقاص مع الصور والتماثيل التي رآها في المدائن ولم يبال لها . وروى ابن عساكر في تاريخه : « أن اسامة بن زيد عامل الوليد على مصر كتب الى الوليد أنه عندنا بالاسكندرية صنماً يقال له شراحيل من نحاس وقد غلت علينا الفلوس فان رأى أمير المؤمنين أن ننزله ونضربه فلوساً ، وان رأى علينا غير ذلك فليكتب الي في أمره ، فكتب اليه لا تنزله حتى أبعث اليك أمناء يحضرونه . فبعث اليه رجالاً أمناء أنزلوه . فضربه فلوساً » .

وقد وصف لنا أوس بن ثعلبة التيمي صورة جاريتين رآهما في تدمر في القرن الاول ، قال فيها :

(١) خطط الشام لمحمد كرد علي ٤ : ١١٨ .

فتاتي اهل تدمر خبراني ... أمِنّا تسأما طول القيام
قيامكما على غير الحشايا ... على جبل أصم من الرخام

وقد شاهدهما أيضاً أبو دلف في القرن الثالث ووصفها بقوله :

ماصورتان بتدمر قد راعتا ... أهل الحجى وجماعة العشاق
غبرا على طول الزمان ومره ... لم يسأما من ألفة وعناق

ولولا تسامح المسلمين في أمر الصور لما بقيت هذه التماثيل في موضعها معروضة للانظار ويتبارى في وصفها الشعراء . وهذا أبلغ جواب نورده لمن نسب المسلمين تعمدهم تشويه التماثيل والاصنام واتلافها في البلاد التي فتحوها تزلفاً الى الله تعالى . ونبريء الاسلام من هذه الوصمة التي يحقدها عليه أنصار الفنون الجميلة والآثار القديمة .

والآن بعد أن ثبت لنا بالبرهان تسامح المسلمين في صدر الاسلام في أمر التصوير بأوسع معانيه ، لاسيما في العهد الاموي ، حتى بلغ في النصف الاخير من حكمهم شكلاً لايختلف عما نعرفه عند أعرق الامم في الوثنية إلا أنه كان في الاسلام للمتعة والزينة وكان في الوثنية لاغراض تعبدية دينية . ومن ثم أخذت عناية المسلمين بالتصوير تضعف وتتضاءل ، والتضييق الديني يتزايد الى أن صارت الحالة الى ماهي عليه اليوم . ولذلك لابد لنا والحالة هذه أن نبحث عوامل ازدهار التصوير واجازته في صدر الاسلام ، والعوامل التي قضت عليه وحرمته فيما بعد ذلك .

إن عوامل الازدهار لاتحتاج لبيان ، لانها علة طبيعية لكل مدنية زاهرة وحاجة كامنة في النفوس البشرية ، ولا يتيسر للفنون الجميلة التي هي من المميزات الاساسية لكل حضارة ، أن تجد مرتعاً أفضل من حقل الحضارة الاسلامية في إبان مجدها ، تترعرع فيها وتزدهر في ظلها . طالما لايخشى منها أن تسيء الدين وتعاليمه ، ووحدانية الاسلام أمنع من أن توهنها الخيالات والاشباح وخرافات تكريم الانصاب .

ويعتبر البعض أن العوامل التي قضت على التصوير وحرمته قبل أن

يترعرع في الاسلام هي دخلية على الاسلام ، تسربت اليه من العناصر اليهودية التي دخلت في الدين الاسلامي ، لما هو معروف عنهم من التشدد في تحريم الصور والتصوير تحريماً مطلقاً . فقد جاء في الكتاب المقدس : « لاتصنع لك تمثالاً منحوتاً ولاصورة ما مما في السماء من فوق . ومافي الأرض من أسفل ، ومافي الماء تحت الأرض . »[1] والتوراة هي سلسلة صراع بين الوحدانية والوثنية . ويعتقد فريق آخر أن تخلي الاسلام عن تسامحه هذا كان بعوامل العقيدة المسيحية ، وهو الرأي الذي أرجحه ، لانه يتفق مع المكتشفات الاثرية الحديثة وتاريخ تدوين أحاديث التحريم . ويستغرب المرء لأول وهلة هذا الرأي لما هو معروف عن تسامح النصارى في هذا الشأن وتفاخرهم في تزيين كنائسهم وبيعهم بانواع التماثيل والصور . ولكن قبل أن تظفر المسيحية بهذا التسامح وتنعم به . فقد قام دونها منازعات شديدة بين أبنائها ونشبت حروب دينية هرق في سبيلها دماء كثيرة . وكان المجمع الديني الذي عقد في روما سنة ٣٠٥ م . أول من أعلن تحريم الصور وكانت محاولة فاشلة ولم تترك كبير أثر ، ثم تبعتها محاولة ثانية فلم يكتب لها النجاح أيضاً ، الى أن كانت سنة ٧٢٦م الموافقة لسنة ١٠٨ هـ — أي في ابان العهد الذي ازدهر فيه التصوير عند المسلمين وشاع بينهم وألفوه — بعثت عند النصارى فكرة تحريم الصور واليقونات (Iconoclastie) من مرقدها بعنف وحماس ، وانتقلت من روما الى القسطنطينية حيث وجدت أنصاراً متعصبين ، واعتنق الامبراطور لاون الثالث الملقب بمحطم الاصنام هذا المذهب الجديد وتحمس له ، وفرضه على شعبه وأمر بتحطيم تماثيل القديسين واتلاف صورهم حيثما وجدت . وبقيت الدولة البزنطية متمسكة بهذا المذهب الى القرن التاسع م . وشاع هذا المذهب بين نصارى بلاد الشام ومصر وما بين النهرين وعملوا بتعاليمه وتعصبوا له .

(١) الكتاب المقدس - تثنية ٨/٥ .

ويبدو لنا منذ ذاك التاريخ أي في أواخر العهد الاموي بداء زهد المسلمين باستعمال الصور والرسوم . ولايمكن أن يكون اتفاق ظهور مذهب تحريم الصور عند النصارى واختفاؤها في القصور الاموية ومنشآتهم من قبيل الصدف فقط ، بل أعتقد أن بين هاتين الظاهرتين علاقة وثيقة تسمح لنا أن نجزم أن الأولى هي علة الثانية ، لاسيما متى عرفنا أن جميع عمال البناء وما يتبعه من أقسام الزخارف والتصوير والنحت كانوا أكثرهم من النصارى . وهكذا فقدت تلك البلاد منذ ذاك التاريخ الايدي العاملة التي كانت تصنع المسلمين التماثيل والصور التي اختصوا بها دون المسلمين . لان العرب الفاتحين كانوا الى ذاك الحين يترفعون عن مزاولة مثل هذه الصناعات المبتذلة التي لاتتفق مع كرامة الفئة الغالبة . وليس أدل على ذلك من أن يتخذ الوليد معمار مسيحي لبناء الجامع الاموي ، ويستعين بعمال من الروم لزخرفته وتزيينه ، كما أنه عمد الى عمال من الفرس في بناء المسجد الحرام[1] ولبناء دور معاوية بن أبي سفيان[2]. وقد أيدت الاكتشافات الاثرية الاخيرة أثر الذوق البزنطي المسيحي والفارسي في زخارف القصور الاموية وصورها .

هذا هو ياسادتي العامل الحقيقي الذي قضى على فن التصوير وهو في مهده في بلاد الاسلام لاسيما بلاد الشام ومصر والعراق ، حيث كان للنصارى شأن كبير في أكثر مرافق الحياة . ولذلك نرى بلاد فارس لم تتأثر بهذا التحول السريع كغيرها من البلاد الاسلامية وبقيت على تقاليدها في الرسم والتصوير لان عمالها كانوا من أبنائها ممن توارثوا صنعة التصوير عن أسلافهم المجوس لذلك لم يتسرب اليهم المذهب المسيحي الجديد ولم يظفر بمؤيدين له في تلك البلاد .

فلابد المسلمين بعد أن قضت المسيحية على تصوير الانسان والحيوان

(١) الاغاني ٣ : ٨١ وما بعدها .
(٢) فجر الاسلام لاحمد أمين ١ : ١٤١ و ١٤٩ .

والطير وهي من أهم عناصر الزينة وقتئذ من أن يبحثوا على أفق جديد وناحية فنية غيرها تشبع رغباتهم وميولهم الفنية الفطرية دون أن يستنكرها أحد ، فتوصلوا بفضل مواهبهم الفنية وابداعهم أن يبتكروا فن تزويق جديد استوحوه من طبيعة الاشجار والنبات والهندسة فصاغوا منها مجتمعة أو منفردة فنهم الجديد المعروف اليوم باسم ارابسك (Arabesque) وحظي هذا النوع من الزينة هوى في النفوس واستحساناً من الجميع وعم بسرعة جميع البلاد الاسلامية من أقصى المغرب الى أقصى المشرق ، وتنافس عماله بتنويعه وتنسيقه حتى أصبح الفن القومي الاسلامي الذي لايرضون عنه بديلاً . وهكذا حل هذا النوع الجديد من الزينة محل غيرها من الزخارف وقضى على امكان استمرار تصوير المخلوقات في البلاد الاسلامية والتوسع فيها .

ومما لانشك فيه بان المسلمين قد تأثروا بما شاهدوه من المنازعات في هذا البلد بين نصارى البلاد الاسلامية ومغالاة بعضهم في تكريم الصور عطفوا على حركة تحريم التصوير وساعدوا أنصارها على منكريها . وهذا مما دعى الخليفة يزيد بن عبد الملك أن يكتب في سنة ١٠٢ هـ . الى حنظلة ابن صفوان والي مصر أن يكسر الاصنام والتماثيل فكسرت .(١) وهذا ماحمل بعض المسلمين لحكة رأوها في التشدد في أمر تحريم الصور أسوة بالنصارى فوضعوا أحاديثاً بهذا المعنى وما أكثر الاحاديث الموضوعة .

ولا أجد أضعف حجة ممن يقولون أن تصرفات خلفاء بني أمية في أمر تسامحهم بالتصوير لايصح أن يبنى عليها حكم في الامور الدينية لما عرف من استهتار بعضهم بأمور دينهم ، ولو سلمنا بقول هؤلاء ، فكيف لهم أن يفسروا سكوت أئمة ذاك العصر عن هذا العمل المنكر بزعمهم ، وبينهم من لا تأخذه في قول الحق لومة لائم كسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير والحسن البصري وأمثالهم . وكيف يفسرون سكوت أعداء بني أمية الذين أحصوا عليهم أنفاسهم ونددوا بأعمالهم وشهروا بنقائصهم وبالغوا بها ، وافتروا

(١) محاضرات في النصرانية لمحمد أبو زهرة ١٤١ .

عليهم الكذب وقلبوا حسناتهم الى سيئات . ومع هذا لم يتصل بنا استنكار أحد من هؤلاء هذه الناحية ، ولا تعرضوا لها بسوء مع أنها أولى من غيرها بالتشهير ان كانت حقيقة من الكبائر كما يزعمون . يدلنا كل هذا أن تفكير أسلافنا في ذاك العصر كان أوسع في أمور دينهم ودنياهم مما نحن عليه اليوم . يأخذون من الدين لبابه وينفذون الى صميمه ، ويفقهون الاحكام بمعناها لابمبناها . فأدركوا أن النهي عن التصوير وقع لعلة معروفة ، وظرف محدود للقضاء على الوثنية ، ولما رأوا تمكن نور الاسلام في قلوب المؤمنين ، ولم يجدوا مايخشونه منها على الدين ، استباحوا لانفسهم التصوير وأجازوه .

ولايستنكر بعد هذا عناية المسلمين بالناحية الفنية على الشكل الذي بيناه بل الغرابة كلها لو أهملوها وأعرضوا عنها ، لان الفنون الجميلة كما أسلفنا هي نتيجة لازمة لنهضة الأمم ومن أبلغ مظاهرها ومقياس تقدم حضارتها . فهي آخر ماتبلغه الحضارة في إبان ازدهارها . وأول ما تنهار فيها حينما يدب فيها الوهن ويتسرب اليها الانحطاط .

ومهما شاء بعضهم أن يكابروا بالامر الواقع فحجتهم تتضاءل أمام شهود الحال والبينات الشافية التي لايمكن أن ينكرها جاحد ، وأصبح أمر عناية المسلمين بالتصوير والفنون الجميلة في صدر الاسلام حقيقة ناطقة تؤيدها المكتشفات الأثرية وان كانت أغفلتها النصوص التاريخية وشوهتها الاغراض الدينية ورحم الله ابن خلدون حينما قال : « كثيراً ماوقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثاً أو سميناً لم يعرضوها على أصولها ، ولا قاسوها باشباهها ، ولا سبروها بمعيار الحكمة ، والوقوف على طبائع الكائنات ، وتحكيم النظر والبصيرة في الاخبار ، فضلوا عن الحق ، وتاهوا في بيداء الوهم والغلط . » فهذا هو الدستور الحقيقي الذي يجب أن يعمل به كل عالم أو باحث لتجنب الخطأ والله ولي التوفيق والسلام عليكم .

فهرس الجزء الثاني

من محاضرات المجمع العلمي العربي

صفحة		
١	عرب الجاهلية في مباذلهم	الأستاذ عبد القادر المغربي
٢٦	هواء المدن	الدكتور مرشد خاطر
٤٤	تأثير الطرق في هواء المدن	〃 〃 〃
٦١	شيخ الإسلام ابن تيمية	الأستاذ محمد بهجة البيطار
١٣٠	التربية الاجتماعية في عهد الإسلام	〃 〃 〃
١٤٥	الجامعة السورية وكلية الإلهيات	〃 〃 〃
١٦٦	يهود الشام منذ مئة عام	〃 عبد القاد المغربي
١٨١	بشّار بن بُرد	〃 〃 〃
٢٠٤	تاريخ السل والوقاية منه	الدكتور مرشد خاطر
٢٢٨	باب الجابية أو موسى وكولومب وسنمّار	الأستاذ عبد القادر المغربي
٢٥٤	رحلة إلى القاهرة	الأمير مصطفى الشهابي
٢٧٤	المصطلحات العلمية وألفاظها العربية	〃 〃 〃
٢٨٨	الأسلوب العلمي عند علماء العرب	〃 〃 〃
٣٠٥	مميزات بني أمية	الأستاذ محمد كرد علي
٣٢٦	المرأة في عهد النبوة وفي عصرنا الحاضر	الأستاذ محمد بهجة البيطار
٣٤٦	العلم والأدب والاساطير في كتب السلف	الأمير مصطفى الشهابي
٣٥٩	تحت القلعة	الأستاذ عبد القادر المغربي

صفحة		
٣٩٣	الزبّاء أو زنوبيا ملكة تدمر	الأمير جعفر الحسني
٤١٢	حياة العلامة أحمد تيمور باشا	الأستاذ محمد كرد علي
٤٣٤	صلة الجاهلية بالعالم القديم	الشيخ فؤاد الخطيب
٤٦٨	الطريقة الرمزية في الفلسفة العربية	الدكتور جميل صليبا
٤٨٨	شاعر معاوية (كعب بن جُعَيْل التغلبي)	الأستاذ خليل مردم بك
٥١٠	أبو الهذيل العلاف	الدكتور جميل صليبا
٥٣٦	معبد دمشق	الأمير جعفر الحسني
٥٤٨	الغزالي وزعماء الفلاسفة	الدكتور جميل صليبا
٥٧٢	التصوير في الإسلام	الأمير جعفر الحسني

أغلاط مطبعية

وقعت في الكتاب أغلاط مطبعية لا تخفى على فطنة القارىء وها كم بعضها :

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٦	٨	موثقِ	موثقٌ
٧٧	١٨	لاينقطع	لم ينقطع
٨١	٢٠	وافناء	وإفناء
٨٣	٥	أبو رجب	ابن رجب
٨٧	١٢	فضايل	فضائل
٩٢	٢٢	لشيخ الاسلام كتاباً	إن لشيخ الاسلام كتاباً
١٠١	٢٢	الدنايأ	الدنايا
١١٥	١٦	أخوة	إخوة
١٣٢	١٤	فكأن	فكان
١٤٢	١١	الخاس	الخاص
١٤٣	١٢	بمواعظة	بمواعظه
١٤٦	١٣	من مطيفون	مطيفون
١٤٦	١٤	أقبل على كل قبيل أخيه	أقبل كل قبيل على أخيه
١٤٩	١	يم	يَمِم
١٥٩	١٧	تجمع	تجمع
١٦٧	٤	أعصره	عصره
١٦٧	١٦	وشؤونها	شؤونها
١٦٩	١٥	بالقلفطريات	بالقلفطيريات

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٧٢	١٤	الصرامة	الصرافة
١٧٣	٦ هامشة	رمانا	فرمانا
١٧٤	٢٢	المال	الماء
١٧٦	٤	أمرِ	أمرٌ
١٧٦	١٨	حميصه	حميصة (ومابعدها كذلك)
١٧٧	٢١	لم يكن	لم يكونوا
١٨٢	٢١	شعار	أشعار
١٨٣	٢٤	لبشر	لبشار
١٨٤	١٠	للفريقين	بالفريقين
١٨٥	١	هؤلاءالحشويين	هؤلاء الحشويون
١٨٥	٦	الديار	الدار
١٨٥	١٢	ابن طريق	ابن طريف
١٨٦	٥	هوء	هؤلاء
١٨٦	٩	المتقنين	المتفننين
١٨٦	٤ هامشة	قبل	قبيل
١٨٦	٦ »	تنادر وما بعدها	تنادر
١٨٦	٦ »	وتابع	وبلغ
١٨٦	٩ »	الدخلية	الدخيلة
١٨٦	١١ »	يدونها	يدوّنوها
١٨٨	٧ »	من كل	موكّل
١٨٨	١٠	الشهوة	الشهرة
١٩٠	٦	اسكندر	عيسى اسكندر
١٩٠	١٣	جمعوه	جمعه

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٩٠	١٩	هتدى	اهتدى
١٩١	٢٤	جارتي	جاريتي
١٩٣	١٠	مليته	قليته
١٩٥	٢٢	سلمى	سليمى
١٩٧	٩	تطبيباً	تطييباً
١٩٧	١ هامشة	...	تجد
٢٠١	١ هامشة	لايؤسنك	لايؤيسنك
٢٣٢	٩	قرصنة	فرضة
٢٥١	٣	وسم	واسم

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٢٥٤	١٣	حوران	حورانا
٢٥٥	١٠	حولها	حولها
٢٥٦	١٣	عذابة	عذوبة
٢٦٠	٦	وأشجار الفصيلة	أشجار الفصيلة
٢٦٣	٨	وأعجب	واعجبْ
٢٦٤	٢٢	اثنتي عشر سنة	اثنتي عشرة سنة
٢٦٩	١	اتصلنا	تصيلنا
٢٧١	١٤	اسمها	أسُّها
٢٧٦	١٥	وعليه اذن يضع	وعليه اذن ان يضع
٢٧٧	١٦	أحد علماء النبات	علماء النبات
٢٧٩	١	سيكُريا	سيكُويا
٢٨٤	١٩	كالزراعة	وكالزراعة
٢٩٠	٢	وهو انه	وهو أنهم
٢٩٧	٦	الوزن الشرعي	الوزن النوعي
٢٩٨	٣	شيئاً	شأناً
٢٩٩	٣	دود الجف	دود الجيف
٣٠١	١٢	تأثيراً كبيراً	تأثير كبير
٣٠٣	١٤	نقتدي بزاد العرب	نغتذي بزاد الغرب
٣٠٤	١٢	المتدينة	المتمدينة
٣٤٨	٣	منها	عنها
٣٤٨	٦	أقرب المواد	أقرب الموارد
٣٥٣	١٣	الكهرباء	الكهربا (١)
٣٥٦	١٦	سنين طولاً	سنين طوالاً

(١) يرى المحاضر ضرورة اقرار الممدودة لاشتهارها .